المجلس الأعلى للثقافة

الروائع من الأدب العربي

الجزء السادس

القرن الخامس الهجري



إشراف : أ. د. صلاح فضل

اهداءات ٢٠٠٤

المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

الروائع من الأدب العربى

الجزء السادس

القرن الخامس الهجرى

إشراف : أ. د. صلاح فضل



٢٠٠٢

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : الروائع من الأدب العربى جـ ٦
اسم المؤلف : لجنة الدراسات الأدبية
الطبعــــة : الأولى - القاهرة ٢٠٠٢م .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax** : 7358084 **E. Mail** : asfour @ onebox. com

تقديم

دكتور صلاح فضل

يطيب للجنة الدراسات الأدبية واللغوية بالمجلس الأعلى للثقافة بمصر أن تهدى إلى القراء الجزء السادس من سلسلة « الروائع » من الأدب العربى ، وهو يشتمل على مختارات منتقاة لأبرز شعراء القرن الخامس الهجرى وكتابه و، وينقسم إلى قسمين كبيرين : أولهما للنصوص الشعرية والآخر للنصوص النثرية ، وكما جرت عادة اللجنة فى الأجزاء السابقة فإنها لا تقف عند الشعراء الذين توفوا عند حافة القرن عام ٥٠٠ هجرية ، بل تمتد بهم إلى تمتد بهم إلى الربع الأول من القرن الذى يليه ، على اعتبار أن مرحلة عطاء الشاعر أو الكاتب الكبرى تقع فى القرن الخامس ومن المنطقى أن ينسب إليه مع أنه قد تجاوزه .

وقد مضت اللجنة أيضا فى هذا الجزء على سنتها فيما سبقه من أجزاء ، فى اختيار أفضل النصوص الممثلة لطبيعة الأبداع فى عصرها ، وحرصت على التزام الدقة فى المصادر الموثقة ، معبرة عن الاتجاهات السائدة فى حركة الثقافة حينئذ ، ومقدمة بترجمة موجزة لكل شاعر وناشر ، تعرّف به ، وتشير إلى موطنه وتاريخ مولده ووفاته ، ومبلغ ثقافته وأهم مؤلفاته ، بالإضافة إلى شرح مختصر لبعض المفردات الواردة فى النصوص التى يعسر فهمها على قراء اليوم ، دونما إفاضة فى التحليل أو مبادرة بإصدار أحكام نقدية قد تحول دون حرية المتلقى فى اختيار الطريقة التى يقرأ بها المختارات .

وقد رُتّبت النصوص ترتيبا يراعى - إلى حد كبير - تتابعها الزمنى طبقا للسنوات التى توفّى فيها قائلوها ، وكانت كثرة ما تم اختياره من الأشعار والنثريات أو قتلها وفقا للمدى الذى وصلت إليه شهرتها وأهمية مبدعيها .

وتضمن هذا الجزء نصوصا لمؤلفين من مختلف الدول أو الإمارات العربية الإسلامية ، فمن أهل الشام : أبو العلاء المعرى وابن حيّوس وابن الخياط وابن سنان ، ومن أهل فارس : الطغرائى ومنصور الهروى وعبد القاهر الجرجانى والراغب الأصبهانى وأبو حامد الغزالى وأبو الفضل الميدانى ، ومن العراق ابن الهبّارية والمرتضى الشهرزورى وهلال بن المحّسن الصابى والخطيب البغدادى والحريرى ، ومن مصر : المؤيد الشيزارى وابن الشخباء ، ومن

تونس : الحصرى القيرلهانـى وابن رشيق ، ومن الأندلس : ابن زيدون وعبـادة بن ماء السماء وابن عمار وابن عباد والقزاز وابن اللبانة والأعمى التطيلى . . وغيرهم من أعلام هذا العصر من الشعراء والكتـابة الـذين عاشـوا فى مختلـف أرجاء البلـدان العربية الإسـلامية . وقـد راعت اللجنة فـى تنسيق هـذه المختارات أن تحقق تعـدد التجارب الإبـداعية موضـوعيا فـى تنوّع الأعراض مـن وصف وغزل ومدح ورثـاء وحكمة واعتبار، كمـا روعى تمثيلها للأطـر الشكلية والإيقاعيـة المختلفة من قصـائد وموشحات ومخمسات وأراجيـز مزدوجة . أمـا المختارات النثرية فمن فنونها المقامات والأمثال والكتابـات الفكرية والنقدية والبلاغية ، وكذلك بعض الكتابات التاريخية والتربوية ، فضلا عن الرسايل الديوانية والإخوانية بأنواعها العديدة .

وتأمل لجنة الدراسات الأدبية واللغوية أن تكون قد حققت بهذا الجزء من الروائع بعض غايـاتها فـى تيسير اطـلاع القراء على عيـون الأدب وتحبيب الشبيبـة فى تـذوقها والتـواصل الجميل مـع تراثهـا الثرى ، وتـوجه شكـرها وتحيتهـا لكل مـن أسهم فـى إعداد هـذا الجزء وطباعته ، وتخص بالشكر الأستـاذ الدكتور محمد يونس على ما بذله مـن جهد فى المراجعة والأستاذة عائشة عبد الرحمن أمينة اللجنة على ما قدمته من عون فى التنسيق .

والله الموفق .

أعضاء لجنة الدراسات الأدبية واللغوية التى أعدت هذا الجزء :

أ . د صلاح فضل (مقرر اللجنة) .

أعضاء لأشخاصهم وهم السادة الأساتذة الدكاترة :

- إبراهيم عبد الرحمن
- أحمد كمال زكى
- ألفت الروبى
- حسين نصار
- الطاهر مكى
- عبد اللطيف عبد الحليم
- عثمان موافى
- محمد زغلول سلام
- محمد عونى عبد الرؤوف
- محمود على مكى
- مصطفى مندور
- محمود فهمى حجازى

عبادة بن ماء السماء

(ت ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م)

هو أبو بكر عبادة بن عبد الله الخزرجي الأنصاري ، من ذرّيّة سعد بن عُبادة ، وقيل له « ابن ماء السماء » لجدّهم الأوّل ، ويعرف من أخباره القليلة التي أوردها بعض من ترجموا له أنه مدح رجال الدولتين العامرية والحمّوديّة بقرطبة .

ويُعدّ من أشهر الوشّاحين الأندلسيين الذين أسهموا إسهامًا واضحًا في تطوّر الموشّحات ورسم أشكالها وأجزائها ، وعن ذلك الدور الريادىّ يقول ابن بسّام : « كانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البُرُود ، ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة بن ماء السماء منآدها ، وقوّم ميلها وسنادها ، فكأنّها لم تُسمع بالأندلس إلاّ منه ، ولا أُخذت إلاّ عنه ، واشتهر بها اشتهارًا غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته ، وهي أوزان كثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب تشقّ على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب » .

ومما قيل في وصف منزلته إنه كان في عصره : « شيخ الصناعة ، وإمام الجماعة ، سلك في الشعر مسلكًا سهلًا ، فقالت له غرائبه : مرحبًا وأهلًا » .

وفي كتاب « فوات الوفيات » لابن شاكر الكتبي موشحتان لعبادة ، ظهر فيهما فنّه وبراعته ، ممّا دلّ على أنّ صنيعه في موشّحاته أصبح بعد ذلك تقليدًا ثابتًا في العصور اللاحقة .

* * *

موشحة لعبادة بن ماء السماء :

حبُّ المَها عِبادة   مِن كلِّ بَسَّام السِّرارِ[1]

قمرٌ يطلعُ   مِن حُسنِ آفاقِ الكمالِ   حُسْنُه الأَبْدع

للهِ ذاتُ حُسْـــنِ   مَلِيحـــةُ المُحَيّــا

لهـا قِــوام غُصـــنِ   وشِنفُهــا الثـريّــا

والثغــرُ حــبُّ مُــزْنِ   رُضَــابُــه الحُمَيّــا

مَــن رَشْفُــه سَعـــاده   كـأنّـه صِرْف العُقـار[2]

جَــوْهَــرٌ رصَــعْ * يَسْقيـك مــن حُلـو الــزُّلال * طَيِّبَ المَشْــرَع

رَشِيقــةُ المعــاطِــفْ   كـالغُصــنِ فـى القِـوام

شهْــدِيَّــةُ المــراشِــفْ   كـــالــدُّرِّ فــى نِظــام

دِعْصِيَّـــة الـــروادِف   والخَصْــر ذو انِهضــام

جَــوَّالــةُ القِــلاده   مَحْلُـولَةٌ عَقْـد الإزار[3]

حُسْــنُها أبْـدع * مِــن حُســن ذَيّــاكَ الغَـزال * أكْحَـل المَـدْمـع

لَيْلِيَّـــة الـــذَّوائبْ   ووجْهُهـــا نَهـــار

مَصْقــولـة التَّــرائب   ورَشْفُهـــا عُقـــار

(١) المها : البقر الوحشى - السِّرار، من معانيه : الخالص من كلّ شىء وأكرمه ، واحده : السّرّ.

(٢) الشنف : القرط - الثريا : مجموعة من النجوم - رضابه : ريقه المرشوف - الحميا : الخمر أو شدّتها - العقار الصرف : الخمر غير الممزوجة .

(٣) الشُّهد : عسل النحل - المراشف : مواضع الرشف وهو المصّ بالشفتين - الدعص : القطعة المستديرة من الرمل - الانهضام بمعنى اللطافة وقلة الاتّساع - القلادة : ما يجعل فى العنق من حلى ونحوه - الإزار : الثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن .

أَصْداغها عَقارب والخَدُّ جُلّنار
نادِيتُ : وافُؤاده مِن غادةٍ ذاتِ اقتِدارِ[٤]

لَحْظُها أَقْطع * مِن حَدِّ مَصْقولةِ النِّصال * مِن الفتى الأَشْجع

سَفَرْجَلِ النُّهودِ في مَرْمَرِ الصُّدور
يُزْهَى على العقود مِن لَذَّة النُّحور
ومُقْلَةٍ وجِيد مِن غادةٍ سَغُور
حُبِّي لها عِباده أَعُوذُ مِن ذاك الفَخار[٥]

بِرَشا يَرْتَع * في رَوْضِ أزهارِ الجمال * كُلَّما أَيْنع

عَفِيفةُ الذُّيُولِ نَقِيَّةُ الثِّياب
سَلَّابةُ العُقُولِ أَرَقُّ مِن شَراب
أَضْحَى بها نحُولى في الحُبِّ مِن عَذابى
في النومِ لى شِرادَه أو حُكْمها حكمُ اقتِدار[٦]

كلَّما أَمْنع * منها فإنْ طيفُ الخيال * زارَني أَهْجَع

---

(٤) المدمع : مسيل الدموع – الذوائب : جمع الذُّؤابة ، وهى شعر مقدّم الرأس – الترائب : مواضع القلائد فى الصدور – الجلنار : زهر الرمان .
(٥) السفرجل : ثمر – سفور : كاشفة عن وجهها ، ويقال : سفر وجهُه حسنا أى أشرق وعلاه جمال .
(٦) الشِّراد : بمعنى النفور والاستعصاء .

ومن موشّحاته :

مَـنْ وَلى * فـى أمّـة أمراً ولـم يَعْـدِلِ * يُعْزلِ * إلا لحـاظُ الـرَّشأ الأكحـلِ

جُرْتَ فـى حكمـك فـى قتلى يـا مسـرفُ
فـانصِـفِ فـواجبٌ أن يُنْصـفَ المُنصِـفُ
وارأفِ فـإنّ هــذا الشـوقَ لا يـرأفُ

علِّلِ * قلبى بذاك البارد السلسل * ينجلى * ما بفؤادى من جَوًى مشعَلِ

إنـــــما تبـرُزُ كـى تُـوقِــدَ نـار الفتــنْ
صَــــنَمًا مصـوّراً فـى كـلِّ شـىءٍ حســنْ
إنْ رمـــى لَمْ يُخْطِ مـن دون القلوبِ الجننْ (٧)

كيف لـى * تخلُّصٌ من سهمِك المرسلِ * فَصِلِ * واستبقِنِى حيـاً ولا تقتلِ

يـــاسنـــا الشمسِ ويـا أبهى مـن الكواكـب
يـــا مُنـــى النفسِ ويـا سؤلـى ويـا مطلبى
هـــا أنـــا حَلَّ بـأعـدائك مـا حـلّ بى !

---

(٧) الجنن : جمـع جُنة ، وهـو ما استترت بـه من السلاح ، يـريد أنـه إذا رمى القلوب حطـم الجنن التـى تقيها السلاح ثم توصل إلى القلوب ذاتها .

عُذِّلى * من ألم الهجرانِ فى معزِل * والخَلِى * فى الحب لا يَسأل عمن بُلى

أنــــتَ قـــد صيّرت بالحسنِ من الرُّشدْ غَـيَ

لـــم أجِـــدْ فــى طـرفَـىْ حُبِّـك ذنبًـا علـىَ

فـــاتَّئِـــد وإن تَشــأ قَتلــى شيئًــا فَشَــىْ

أجْملِ * ووالنـى منك يَدَ المُفْضِل * فهى لى * مـن حسنات الزمـن المُقبلِ

مـــا اغتــذَى طَــرْفــى إلّا بسنــا نــاظــرَيْــكْ

وكـــــــذا فى الحبّ ما بـى ليس يَخْفى عليك

وكـــــــذا أنْشــدُ والقلــبُ رَهيــن لــديــك

يا عَلِى * سَلّطتَ جَفنيك على مقتلى * فابقِ لـى * قلبى وجد بالفضل يا موئلى

وقـال فـى الحكمة :

لا تَشْكُـــوَنَّ إذا عثـــرْ تَ إلــى خليطٍ ســوءَ حــالــكْ

فيُـريـك ألـوانًـا مـن الــ إذلالِ لـم تخطُــرْ بِبَــالــك

إيَّــاكَ أنْ تَــدْرى يميــ نُـك مـا يـدورُ علـى شِمـالـك

واصْبِـرْ على نُـوَب الـزّمـا نِ وإنْ رمَـتْ بـك فـى المهـالـك

وإلـى الـذى أغْنــى وأقْــ نَى اضْرَعْ وسَلْه صلاحَ حالِك (٨)

(٨) عَثَر : زلّ وكبا ، ويقال : عثَربه الزمان ، وعثَر حظُّه أى تَعِس - الخليط : المخالط (للواحد والجمع) ويُطلق على الشريك والصاحب والجار المصافى والزوج وابن العـم - أقْنى : أرْضى وأعطى ما يُقْتَنى من النّشب ، قال تعالى ﴿وأنّه هو أغْنى وأقْنى﴾ اضرَعْ أى اخضَع أو اسأله أن يعطيك ويعينك .

وقال متغزلاً :

ما مرّ يومٌ عليَّ لم أرَكِ		إلّا وَجَدْتُ الضمير صَوَّرَكِ
ولا مَبِيتى وأنتِ لستِ معى		إلّا مبيتُ القطاةِ فى الشرك
أمّا أنا فالبِعادُ غَيّرنى		وأنتِ خوفَ الرَّقيبِ غَيَّرَكِ
يالُعْبَةً صُوِّرَتْ لسَفْكِ دَمِى		غَطَّى بفَضْل النِّقاب مَحْجِرك (٩)

(٩) المحجِر فى العَيْن : ما أحاط بها .

أبو العلاء المعرى

(٣٦٣ - ٤٤٩ هـ / ٩٧٣ - ١٠٥٨ م)

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى ، ولد فى معرّة النعمان بين حمص وحلب ، وإليها يُنسب ، واشتهر بكنيته « أبى العلاء » ، وكان سليل بيت علم وأدب ، فقد كان أبوه أديبا وجده قاضيا ، لقّنه أبوه النحو واللغة وهو حدث ، ثم درس على جماعة من أهل بيته وعلى مَن فى بلدته من تلامذة ابن خالويه ، وكان منذ طفولته قوى الحافظة ، ربما بسبب عماه ، إذ فقد بصره وهو فى الرابعة من عمره ، وقد عرف عنه الذكاء والذاكرة العجيبة حتى قيل إنه كان يلعب النرد والشطرنج وإذا سمع كلاما بلغة غير العربية حفظه ووعاه .

وعندما بلغ التاسعة والعشرين رحل فى طلب العلم ، فأتى طرابلس واللاذقية وغيرهما من بلاد الشام ، حيث أخذ الفلسفة وغيرها من ثقافات عصره ، ورحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ ، وأقام بها سنة وسبعة أشهر ، اطّلع خلالها على فلسفة الهنود والفرس ، وشهد مجالس العلماء وناظر الأدباء والفقهاء ، ولمّا رجع إلى المعرّة آثر العزلة واحتبس فى منزله ، وسمّى نفسه « رهين المحبسين » -إشارة إلى عماه ولزمه منزله - وألزم نفسه بحياة خشنة زاهدة ، وقد أجمع المؤرخون على أنه انقطع عن أكل اللحم ، واقتصر على النبات ، ذاهبا مذهب البراهمة ، الذين كانوا لا يأكلون اللحم ولا يذبحون الحيوان ، فمضى على أبى العلاء ما يقرب من خمسين عاما لا يأكل فيها إلا العدس والتين ، وعُرف عنه زهده فى الدنيا ، وحذره من الناس ، وسوء الظن بهم ، ولا سيما المرأة ، فلم يتزوج .

وانصرف فى عزلته إلى تأليف كتبه ونظم أشعاره ، ومع ذلك كان بيته مزارًا لطلاب العلم يأخذون عنه اللغة والأدب ، وصار له تلاميذ مشهورون ، يقول بعض من ترجموا له: «أخذ عن أبى العلاء خلق لا يعلمهم إلا الله - عزّ وجلّ - كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل تبحّر وديانات ، وكان له أربعة من الكُتّاب المجوِّدين يكتبون عنه ما يكتبه إلى الناس ، وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف والإجازات والسماع لمن يسمع منه ويستجيزه » .

وله عدد وافر من المؤلفات ، منها : « اللزوميات » وهى أشعار التزم فى قوافيها ما لا يلزم ، مشترطا فى القافية التزام حرفين ، لا حرفًا واحدًا ، على خلاف ما هو مألوف فى الشعر العربى ، وقد حاول فى هذه الأشعار أن يعبر عن آرائه واتجاهاته الذاتيّة المتفلسفة. ومن مؤلفاته الشعرية : ديوان « سقط الزند » .

وقد نظمه قبل عزلته ، جمع فيه شعر الصِّبا وبعض شعره فى الكهولة ، وتضمن أغراضا مختلفة كالنسيب والوصف والفخر والرثاء ومديح أشخاص خياليين رياضةً للخاطر وامتحانا للنفس ، ولأبى العلاء أيضا ديوان صغير سمّاه « الدِّرعيات » تضمن أشعارا فى وصف الدروع .

وأشهر مؤلفاته النثرية « رسالة الغفران » وضعه فى أثناء عزلته ردّا على رسالة أرسلها إليه أديب حلبى يعرف بابن القارح ، وقد تخيل أبو العلاء فيها مشاهد البعث والجنّة والنار ، وقد سمّيت بذلك لكثرة ما تردّد فيها من ذكرٍ للغفران ومشتقاته .

ومن كتبه « الصاهل والشاحج » ، تحدّث فيه على لسان فرس وبغل ، و « القائف » وهو أمثال على طريقة كليلة ودمنة ، و « رسالة الملائكة » فى مسائل التصريف ، و « الفصول والغايات» فى الوعظ وتمجيد الله تعالى ، و « ملقى السبيل » فى الوعظ أيضا والزهد ، وفيه يصوغ المعنى نثرا ثم يصوغه شعرا ، و « معجز أحمد » وهو شرح لديوان المتنبى ، و « ذكرى حبيب » وهو شرح لديوان أبى تمام ، و « عبث الوليد » وهو فى شرح ديوان البحترى .

وله فضلا عن ذلك مؤلفات أخرى ، ينبغى أن يشار إلى أن منها رسائل كثيرة توفر الدارسون حديثا على تحقيقها ودراستها .

* * *

قال أبو العلاء المعرّى مفتخرًا :

أَلَا فِـي سَبِيـلِ المجْـدِ مـا أنـا فـاعِـلُ
عَفَـافٌ ، وإِقْـدامٌ ، وحَـزْمٌ ، ونَـائِلُ (١)

أعِنْـدِى ، وقَـد مـارَسْـتُ كُـلَّ خَفِيَّـةٍ
يُصَـدَّقُ واشٍ ، أَوْ يُخَيَّـبُ سَـائِلُ ؟

أَقَـلُّ صُـدُودِى أَنَّنِـى لَـكَ مُبْغِـضٌ
وأَيْسَـرُ هَجْـرِى أَنَّنِـى عَنْـكَ رَاحِـلُ

إِذا هَبَّـتِ النَّكْبَـاءُ بَيْنِـى وَبَيْنَكـم
فـأَهْـوَنُ شَـىْءٍ مـا تَقُـولُ العَـوَاذِلُ (٢)

تُعَـدُّ ذُنُـوبِـى عِنْـدَ قَـوْمٍ كثيـرةً
ولا ذَنْـبَ لِـى إِلَّا العُـلَا والفَضَـائِلُ

كَـأَنِّـى إِذا طُلْـتُ الـزَّمَـانَ وأَهْلَـهُ
رَجَعْـتُ وعِنْـدِى لِـلأَنَـامِ طَـوائِلُ (٣)

وقَـدْ سـارَ ذِكْـرِى فـى البِـلَادِ ، فَمَـنْ لهـمْ
بـإِخْفَـاءِ شَمْـسٍ ضَـوْؤُهـا مُتَكـامِـلُ

يُهِـمُّ اللَّيَـالِـى بَعْـضُ مـا أنـا مُضْمِـرٌ
ويَثْقُـلُ رَضْـوَى دُونَ مـا أنـا حـامِـلُ (٤)

---

(١) النائل : العطاء .
(٢) النكباء : بمعنى الريح المهلكة - العواذل : اللائمون .
(٣) طلت الزمان : غلبته وقهرته ، يقال : طاولنى فلان فطلته أى كنت أطول منه - الطوائل : جمع طائلة ، وهى الثأر.
(٤) رضوى : جبل ضخم فى تهامة .

وإنِّـــى وإنْ كُنْـــتُ الأَخِيـــرَ زَمَـــانُـــه
لآتٍ بمـــا لـــم تَسْتَطِعْـــه الأَوائلُ
وأَغْـــدُو، ولَـــوْ أَنَّ الصَّبــاح صَـــوَارِمٌ
وأَسْـرِى ولَـوْ أَنَّ الظَّـلامَ جَـحــافِـل (٥)
وإنـــى جَـــوادٌ لـــم يُحَـــلَّ لِجــامَـــه
ونَصْـــلُ يَمـــانٍ أَغْفَلَتْـــه الصَّيَـــاقِـــل (٦)
فـــإنْ كـــانَ فـــى لُبْـــسِ الفَتَـــى شَـــرَفٌ لـــه
فمـــا السَّيْـــفُ إلاَّ غِمْـــدُه والحمـــائِل
ولـــى مَنْطِـــقٌ لـــم يَـــرْضَ لـــى كُنْـــهَ مَنْـــزِلـــى
عَلَـــى أَنَّنِـــى بَيْـــن السِّمـــاكَيْـــن نـــازِل (٧)
لَـــدَى مَـــوْطِـــنٌ يَشْتـــاقُـــه كُـــلُّ سَيِّـــدٍ
ويَقْصُـــرُ عَـــنْ إدْراكِـــه المتَنَـــاوِل
ولمَّـــا رَأَيْـــتُ الجَهْـــلَ فـــى النـــاسِ فـــاشِيًـــا
تجـــاهَلْـــتُ حَتَّـــى ظُـــنَّ أَنِّـــى جـــاهِـــل
فـــوا عَجَبًـــا ! كَـــمْ يَـــدَّعـــى الفَضْـــل نـــاقِـــصٌ
وَوَا أَسَفًـــا ! كـــم يُظْهِـــر النَّقْـــصَ فـــاضِـــل

(٥) أسرى : أسير ليلا ، والسرى هو السير ليلا .
(٦) الصياقل : جمع صيقل ، وهو الذى يجلو السيوف ويشحذها .
(٧) السماكان : نجمان يضرب بعلوهما المثل .

وكيــفَ تنـــامُ الطَّيْــرُ فـــى وُكُنَــاتِهـــا
وقَــد نُصِبَــتْ لِلْفَــرْقَــدَيْــنِ الحبَــائِل (٨)

يُنــافِــس يَــوْمِــى فــىَّ أَمْسِــى تَشَــرُّفًــا
وتَحْسُــدُ أَسْحــارِى عَلَـــىَّ الأَصَـــائِل (٩)

وطــالَ اعْتِــرافــى بــالــزَّمــانِ وصَــرْفِــه
فلَسْــتُ أُبــالِــى مَــنْ تَغُــولُ الغَــوائِل (١٠)

فلــوْ بــانَ عَضُــدِى مَــاتــأَسَّــفَ مَنْكِبِــى
ولــوْ مــاتَ زَنْــدِى مــا بَكَتْــه الأَنــامِــل (١١)

إِذا وَصَـــفَ الطَّـــائِىَّ بــالبُخْـــلِ مَـــادِرٌ
وعَيَّـــرَ قُسًّــا بـــالفَهَــاهَـــةِ بَــاقِــل (١٢)

وقـــالَ السُّهَـــى للشَّمْــس : أَنْــتِ ضَئِيلَــةٌ
وقـالَ الــدُّجَى للصُّبْـحِ : لَـوْنُـك حَـائل (١٣)

وطـــاوَلَــتِ الأَرْضُ السَّمــاءَ سَفَــاهَـــةً
وفـــاخَــرَتِ الشُّهْـــبَ الحَصَــى والجنَــادِل

فيـــا مَـــوْتُ زُرْ، إِنَّ الحيـــاةَ ذَمِيمـــةٌ
ويـــا نَفْـــسُ جِــدِّى إِنَّ دَهْـــرَك هـــازِل

* * *

(٨) الفرقدان : نجمان يهتدى بهما - الحبائل : جمع حبالة ، وهى المصيدة .
(٩) الأسحار: جمع سحر ، وهو الوقت قبيل الصبح - الأصائل : جمع أصيل ، وهو آخر النهار، قبيل الغروب .
(١٠) الغوائل : جمع غائلة ، وهى الداهية .
(١١) العضد : ما بين المرفق إلى الكتف - المنكب : مجتمع رأس الكتف والعضد - الزند : موصل طرفى الذراع فى الكفّ .
(١٢) مادر: اسم رجل اشتهر بالبخل - قس : هو قس بن ساعدة الإيادى ، أحد بلغاء العرب وحكمائهم - باقل : رجل يضرب به المثل فى الحمق .
(١٣) السهى : كوكب ضئيل خفيّ اللون -الحائل هو المتغيّر .

وقال :

بِنّا فريقٌ فى سُرُوجِ ضوامرٍ | منا وآخرُ فى رِحَالِ عَرامس (١٤)
سَلَبَ الكرى ألبابَ من ذاق الكرى | مِنَّا وطارَ ببعض لُبِّ الناعس (١٥)
فالمرءُ يَلْثَمُ سيفَه وَقِرابَه | ويظنُّه وجناتِ أغيدَ مائس (١٦)
حيثُ الشمالُ عن العِنان ضعيفةٌ | والسَّوْطُ يسْقُطُ عن يمينِ الفارس
لاتَحْسبى إبلى سُهَيْلا طالعا | بالشام فالمَرْئىُّ شُعلَةُ قابس (١٧)
هذى العواصمُ فاسْألينا ما بها | وذرى مآربَ من زرودَ وراكس (١٨)
ولقدْ أظلُّ تظلُّنى وصحابتى | والشمْسُ مثلُ الأخزرِ المُتَشاوِس (١٩)
خَيْلٌ شوامسُ فِى الجلالِ إذا هَفَتْ | ريحٌ وإنْ رَكدَتْ فغيرُ شوامش (٢٠)
والذئبُ يسألُنا الشراكَ ودونَه | طيَّانُ أشعثُ كالفقيرِ البائس (٢١)
لِتُرِحْ مناسمَها فإنَّ وراءَها | عَجُزَ النَّهارِ وصَدْرَ لَيْلٍ دامس (٢٢)
ولقد غَصَبْتُ الليلَ أحسنَ شُهْبِه | ونَظَمْتُها عِقْدًا لِأَحْسَنَ لابس (٢٣)
وأَقَدْتُها القِدحَ المُعَلَّى فائضا | يَجْرى ولم أَقْنعْ لها بالنافس (٢٤)

---

(١٤) ضوامر : خيل - عرامس : جمع عِرْمس وهى الناقة الصلبة الشديدة .
(١٥) سلب : أخذ - الكرى : النوم - ألباب : عقول .
(١٦) يلثم : يُقبّل - قراب السيف : غمده - أغيد : ناعمة الجسد - مائس : متبختر مختال .
(١٧) سهيل : نجم .
(١٨) ذرى : اتركى - مآرب : جمع مأرب ، وهو الحاجة والبُغية - زرود وراكس : موضعان بالعراق .
(١٩) الأخزر : من يتنظر كأنه يرى بمؤخر عينه - المتشاوس : من ينظر بمؤخر عينه تكبرا وتغيظا .
(٢٠) شوامس : متحركة حركة شديدة - الجلال : جمع الجَلّ ، وهو ما تغطى به الدّابة لتصان .
(٢١) الشِراك أى المشاركة - طيّان : جاع .
(٢٢) المناسم : جمع المَنْسِم ، وهو طرف خفّ البعير - دامس : شديد الظلام .
(٢٣) شهبه : نجومه .
(٢٤) المُعَلّى : القدح السابع فى الميسر وهو أفضلها - النافس : خامس سهام الميسر - والبيت كلّه إشارة إلى ما يبذله الشاعر من عناية شديدة فى تجويد شعره .

وقال :

ابْـقَ فـى نِعْمـة بقـاءَ الـدهـور نـافـذَ الأَمْـر فـى جَميع الأمـورِ
خـاضِعـاتٍ لـك الكـواكـبُ تَخْتَـصُّ مَـواليـك بـالمَحَـلِّ الأثيـر(٢٥)
لا يُـؤَثِّـرْنَ فـى الـولـىِّ ولا الحـاسـد حتـى تُشِيـرَ بـالتـأثيـر
ونَهْـنَّ النُّعْمـى السَّنِيَّـةَ والبُـسْ حُلَـلَ المَجْـدِ والفَعَـالِ الخطيـر(٢٦)
وتَمَتَّـعْ بنَضْـرة العَيْـش إذ جـاءَتْـك فـى رَوْنـق الـزمـان النضيـر(٢٧)
خيـرُ أيـدى الـزمـان عنـد بَنـى الـدنيـا أَتَـتْ فـى أوانِ خَيْـرِ الشهـور(٢٨)
كُنْتَ مـوسـى وافَتْـكَ بنـتُ شُعَيْـبٍ غيْـرَ أنْ ليـس فيكـمُ مـن فقيـر(٢٩)
لـم يكـن قصـرُكَ المُنِيـفُ ليستَنْـزِلَ إلا أعلَـى بنـاتِ القُصـور(٣٠)
رَحَلَـتْ مـن فنـائه شهـبُ الغلمـان خَـوْفًـا مـن ضَـوْءِ فَجْـرٍ منيـرِ
كـانَ كـالأُفْـقِ حِيـنَ هَمَّـتْ بـه الشَّمْـسُ تنـادَتْ نجـومُـه بـالمَسِيـرِ
يـا لهـا نِعْمـةً وليـس بِبِـدْعٍ أن تَحُـوزَ الشمـوسُ رِقَّ البـدور(٣١)
دُرَّةٌ مـن ذَرَاكَ تَسْكُـنُ بَحْـرًا وكـذا الـدُّرُّ سـاكـنٌ فـى البحـور(٣٢)
أنـتَ شمـسُ الضُّحـى فمنـكَ يُفيـدُ الصبـحُ مـا فيـه مـن ضِيـاء ونُـور

---

(٢٥) مواليك : أنصارك – المحلّ الأثير : المنزلة الرفيعة .
(٢٦) السَّنِيَّة : الرفيعة العظيمة – الفعال الخطير : العمل الذى له قدر وخطر .
(٢٧) النضير : ذو الحسْن والرونق .
(٢٨) أيدى الزمان : نِعمه وأفضاله .
(٢٩) البيت إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .
(٣٠) المنيف : العالى .
(٣١) بدع : عجب .
(٣٢) ذَرَاك : كنفك .

وقال :

قد أتاكَ الربيعُ يفعلُ ما تأمُرُه فِعْلَ عَبْدِكَ المأمور
وكَسا الأرضَ خدمةً لكَ يا مولاه دونَ المُلوك خُضْرَ الحريرِ
فَهيَ تَخْتالُ في زَبَرْجَدَة خَضْراءَ تُغْذَى بلُؤْلُؤٍ مَنْثور[٣٣]
وغَدَتْ كُلُّ رَبْوة تَشْتهي الرَّقْصَ بثَوْبٍ من النبات قَصير
ظَلَّ للناسِ يَوْمَ عَقْدِك هذا الأمرَ عيدٌ سَمَّوْه عِيدَ السرور
إنْ يكنْ عيدُهمْ بغَيْرِ هِلالٍ فالهِلالُ المُضيءُ وجهُ الأمير
راقَهُمْ مَنْظرًا وهابوه خوفا فهو ملءُ العيون ملءُ الصدر[٣٤]
سَرّ أهْلَ الأمصار والبدْوِ حتّى جازَهُمْ عامدًا لأهْلِ القُبور
رَدَّ أرواحَهمْ فلولا حذارُ الله قاموا مِنَ قَبْلِ يَوْمِ النُّشور
لا تَسَلْ عن عِدَاك أيْن اسْتَقَرُّوا لَحِقَ القَوْمُ باللَّطِيف الخَبير
حَلَبٌ للوَليِّ جَنَّةُ عَدْنٍ وَهْيَ للغادرين نارُ سعير[٣٥]
والعَظِيمُ العظيمُ يَكْبُرُ في عَيْنَيْه مِنها قَدْرُ الصَّغِيرِ الصغير
فَقُويقٌ في أعْيُنِ القَوْمِ بَحْرٌ وحَصاةٌ منه نظِيرُ ثَبِير[٣٦]
عِشْتَ حتَّى يَعُودَ أمْس لعلمي أنَّه لا يَعُودُ بَعْدَ المُرُور
فادِّعاءُ المُلوكِ غيرِك إدْراكَ المَعالي دَعْوَى شِقاقٍ وزُور

---

(٣٣) الزَّبرجد : حجر كريم يشبه الزمرّد ، وهو ذو ألوان كثيرة أشهرها الأخضر المصرى .
(٣٤) راقهم : أعجبهم .
(٣٥) حلب : المدينة المشهورة بالشام .
(٣٦) قويق : نهر بحلب - ثبير : جبل بمكة يوصف بالعلوّ والارتفاع .

وقال :

إذا عِبتَ عندى غيرىَ اليوم ظالما   فأنتَ بظلمٍ عند غيرِىَ عائبى
عرفتُك فاعْلَمْ إنْ ذَمَمْتَ خلائقى   ورَابكَ بَعْضى أنَّ كُلَّك رائبى
فأيَن الذى فى التُّرْبِ يُدفَن شخصُهُ   وأسرارُه مَدْفونةٌ فى الترائبِ (٣٧)
يظنُّ نَبِيهٌ غائبًا مثلَ شاهدٍ   وخاملُ قومٍ شاهدًا مثلَ غائب
وقد يُورثُ المالَ البعيدَ مُضَلَّلٌ   من الناسِ يأبى وضعَهُ فى القرائب (٣٨)
وإنّ بَنى حَوَّاءَ زُورٌ عنِ الهُدى   ولوْ ضُرِبوا بالسَّيْف ضَرْبَ الغرائب (٣٩)
ومن حُبِّ دُنياهمْ رَمَوْا فى وغاهُمُ   بغيضَ المنايا بالنفوس الحبائب
وكم غوَّرُوا فى مَوْرِدٍ وتَظمّىء   عيون ركىٍّ أو عيون ركائب (٤٠)
وأسرَوا على الخيل العتاقِ وأصمتوا   نواطقها إلا تَحَمْحُم هائب (٤١)
وشُدَّ لِسانُ الطِّرْف خَوْفَ صَهِيله   فقدْ أَلْجَموا أَفْواهَها بالسَّبائب (٤٢)
وغَرُّهُمُ صبحُ الوُجوه وفَوْقه   جوامدُ ليلٍ سُميتْ بالذَّوائب
غرائزُ فى شيبٍ ومُرْدٍ بمشرق   وغرب جرت مجرى الصبا والجنائب (٤٣)
أرادتْ لها خُضْر المضارب والظُّبى   جلاءً فلم تبيضَّ سودُ الضرائب (٤٤)
يقولُ الفتى أُخْلِصْتُ غَيًّا ولم أرُحْ   وشائبُ فَوْدِى بالتورُّع شائبى (٤٥)

---

(٣٧) الترائب : عظام الصدر أو موضع القلادة .
(٣٨) القرائب : جمع القريبة وهى ذات القرابة من النساء .
(٣٩) زور : مائلون - ضرب الغرائب أى ضرب الإبل عند الهرب أو لتبعد إذا اختلطت بغيرها على الماء .
(٤٠) تظمّأ : تصبّر على العطش - الركىّ : جمع ركيّة ، وهى البئر ذات الماء - الركائب : السحب .
(٤١) أسرى : قطع الليل بالسير - التحمحُم : ترديد الصوت فى الصدر .
(٤٢) الطِّرْف : الكريم من الخيل - السبائب : جمع السبية ، وهى الخصلة من الشعر .
(٤٣) الصبا : ريح معروفة - الجنائب : جمع الجنوب ، وهى ريح تهب منها .
(٤٤) خضر المضارب : هى السيوف - الضرائب : الطبائع .
(٤٥) شائب : ميض الشعر - الفود : جانب الرأس مما يلى الأذن - شائبى بمعنى مخالطى .

وقال بمدينة السلام :

مغَانِي اللِّوَى مِنْ شَخْصِكِ الْيَوْمَ أَطْلاَلُ ... وَفى النَّوْمِ مَغْنًى مِنْ خَيَالِكِ مِحْلاَلُ (٤٦)

مَعَانِيكِ شَتَّى وَالْعِبَارَةُ وَاحِدٌ ... فَطَرْفُكِ مُغْتَالٌ وَزَنْدُكِ مُغْتَالُ (٤٧)

وَأَبْغَضْتُ فِيكِ النَّخْلَ وَالنَّخْلُ يَانِعٌ ... وَأَعْجَبَنِى مِنْ حُبِّكِ الطَّلْحُ وَالضَّالُ (٤٨)

وَأَهْوَى لِجَرَّاكِ السَّمَاوَةَ وَالقَطَا ... وَلَوْ أَنَّ صِنْفَيْهِ وُشَاةٌ وَعُذَّالُ (٤٩)

حَمَلْتِ مِنَ الشَّامَيْنِ أَطْيَبَ جُرْعَةٍ ... وَأَنْزَرَهَا وَالْقَوْمُ بِالْقَفْرِ ضُلاَّلُ (٥٠)

يَلُوذُ بِأَقْطَارِ الزُّجَاجَةِ بَعْدَمَا ... أُرِيقَتْ لِمَا أَهْدَيْتِ فى الْكُثْرِ أَمْثَالُ (٥١)

فَسَقْيًا لَكَاسٍ مِنْ فَمٍ مِثْلِ خَاتَمٍ ... مِنَ الدُّرِّ لَمْ يَهْمُمْ بِتَقْبِيلِهِ خَالُ

صَحِبْتِ كَرَانَا وَالرِّكَابُ سَفَائِنٌ ... كَعَادِكِ فِينَا وَالرَّكَائِبُ أَجْمَالُ (٥٢)

أَعُمْتِ إِلَيْنَا أَمْ فِعَالَ ابْنِ مَرْيَمٍ ... فَعَلْتِ وَهَلْ يُعْطَى النُّبُوَّةَ مِكْسَالُ (٥٣)

كَأَنَّ الْخُزَامَى جَمَّعَتْ لَكِ حُلَّةً ... عَلَيْكِ بِهَا فى اللَّوْنِ وَالطِّيبِ سِرْبَالُ (٥٤)

---

(٤٦) المغانى : المنازل – اللوى : منقطع الرمل – الأطلال : الآثار الشاخصة – مِحلال : يُحَلّ فيه كثيرا .

(٤٧) شتى : مختلفة ، واحدها شتيت – طرفك مغتال أى يغتال النفوس ويهلكها – زندك مغتال أى سمين كثير اللحم ، والزند هو ما انحسر عنه اللحم من الذراع .

(٤٨) اليانع : الناضج الطيب الثمر – الطلح : شجر ترعاه الإبل – الضال : شجر ينبت فى البرارى .

(٤٩) لجرّاك : لأجلك – السماوة : موضع يألفه القطا ، وهو أكثر طير البوادى ، وصنفا القطا هما الكُدْرِىّ والجُونِىّ .

(٥٠) الشامان يعنى بهما موضعين فى الشام – أطيب جرعة يريد بها ريق المحبوبة .

(٥١) أقطار الزجاجة : نواحيها – أمثال : مرفوعة لأنها فاعل « يلوذ » .

(٥٢) الخال : الرجل المختال ولم يهمم بتقبيله لأنه لا يصل إليه – الكرى : النوم – الركاب : الإبل – عاد : جمع عادة – الركائب : جمع ركوبة وهى الناقة تركب أو الجمل .

(٥٣) مكسال : كثيرة الكسل ، وهو كناية عن أنها منعّمة مخدومة – والمعنى : أعُمْتِ إلينا من الماء كما يعوم السابح ، أم مشيت على الماء مثل عيسى .

(٥٤) الخزامى : نبت طيب الرائحة – يقول : حُلّتكِ تشبه الخزامى فى لونها وطيبها ، فعليك بتلك الحُلّة سربال عجيب .

عَجِبْتُ وَقَدْ جُزْتِ الصَّرَاةَ رِفَلَّةً ... وَمَا خَضِلَتْ مِمَّا تَسَرْبَلْتِ أَذْيَالُ (٥٥)

مَتَى يَنْزِلُ الْحَيُّ الْكِلاَبِيُّ بَالِسًا ... يُحَيِّيكَ عَنِّي ظَاعِنُونَ وَقُفَّالُ (٥٦)

تَحِيَّةَ وُدٍّ مَا الْفُرَاتُ وَمَاؤُهُ ... بِأَعْذَبَ مِنْهَا وَهْوَ أَزْرَقُ سَلْسَالُ (٥٧)

فَإِنْ زَعَمُوا أَنَّ الْهَجِيرَ اسْتَشَفَّهُمْ ... إِلَيْهَا فَمِنْهَا فِي الْمَزَايِدِ أَسْمَالُ (٥٨)

أَتَعْلَمُ ذَاتُ الْقُرْطِ وَالشَّنْفِ أَنَّنِي ... يُشَنِّفُنِي بِالزَّأْرِ أَغْلَبُ رِئْبَالُ (٥٩)

فَيَا دَارَهَا بِالْحَزْنِ إِنَّ مَزَارَهَا ... قَرِيبٌ وَلَكِنْ دُونَ ذَلِكَ أَهْوَالُ (٦٠)

إِذَا نَحْنُ أَهْلَلْنَا بِنُؤْيِكِ سَاءَنَا ... فَهَلَّا بِوَجْهِ الْمَالِكِيَّةِ إِهْلاَلُ (٦١)

تُصَاحِبُ فِي الْبَيْدَاءِ ذِئْبًا وَذَابِلاً ... كِلاَ صَاحِبَيْهَا فِي التَّنُوفَةِ عَسَّالُ (٦٢)

إِذَا أَغْرَبَ الرُّعْيَانُ عَنْهَا سَوَامَهَا ... أُرِيحَ عَلَيْهَا اللَّيْلَ هَيْقٌ وَذَيَّالُ (٦٣)

تُسِيءُ بِنَا يَقْظَى فَأَمَّا إِذَا سَرَتْ ... رُقَادًا فَإِحْسَانٌ إِلَيْنَا وَإِجْمَالُ (٦٤)

---

(٥٥) الصراة : مجتمع دجلة والفرات - رفلّة : طويلة الأذيال متبخترة - خضلت : ابتلّت .

(٥٦) الحيّ الكلابي : عنى به قبيلة الحبيبة - بالس : مدينة على شط الفرات - يحيك : يحمل إليك التحية من عندنا - ظاعنون : مسافرون - قفّال : راجعون من السفر .

(٥٧) تحية ودّ : تحية محبّ ذى صبابة - الفرات : نهر العراق - الأزرق من الماء : الصافى - سلسال : عذب .

(٥٨) الهجير : شدة الحرّ - استشفهم : شوقهم إليها فشربوها - المزايد : جمع المزادة ، وهى القربة التى يحمل فيها الماء - الأسمال : بقية الماء .

(٥٩) القرط : ما علّق فى شحمة الأذن والشنف : ما علق فى طرفها - الزأر والزئير : صوت الأسد - الأغلب : الغليظ العنق - الرئبال : الأسد الكثير اللحم .

(٦٠) الحَزْن : ما ارتفع من الأرض وغلظ - المزار : الزيارة أو الموضع الذى يُزار فيه - أهوال : مخاوف .

(٦١) النؤى : حفيرة تجعل حول الخباء ، لئلا يدخله ماء المطر - إهلال أى فرح ، كما يفرح من نظر إلى وجه الهلال .

(٦٢) البيداء : الفلاة التى تبيد من يسلكها - الذابل : الرمح الذى قد ذهبت عنه الرطوبة التى كانت فى عوده واشتدّ - التنوفة : القفر - عسال : مهتز الحركة .

(٦٣) الإعزاب : إبعاد الماشية عن البيوت وطلب المرعى بها - الرعيان : جمع الراعى - السوام : المال المرسل فى المرعى - أريح : أتى به فى الرواح - الهيق : ذكر النعام - الذيّال : الثور الطويل الذيل .

(٦٤) المعنى : تهاجرنا فى اليقظة ، وتواصلنا فى النوم .

بَكَتْ فَكَأَنَّ الْعِقْدَ نَادَى فَرِيدَهُ ... هَلُمَّ لِعَقْدِ الْحِلْفِ قُلْبٌ وَخَلْخَالُ (٦٥)

وَهَلْ يَحْزُنُ الدَّمْعَ الْغَرِيبَ قُدُومُهُ ... عَلَى قَدَمٍ كَادَتْ مِنَ اللِّينِ تَنْهَالُ

تَحَلَّى النَّقَا دُرِّيَّنِ دَمْعًا وَلُؤْلُؤًا ... وَوَلَّتْ أَصِيلاً وَهْيَ كَالشَّمْسِ مِعْطَالُ (٦٦)

بِأَشْنَبَ مِعْطَارِ الْغَرِيزَةِ مُقْسِمٍ ... لِسَائِفِهِ أَنَّ الْقَسِيمَةَ مِتْفَالُ (٦٧)

فَلَا أَخْلَفَ الدَّمْعَ الَّذِي فَاضَ شَأْنُهَا ... دُعَاءً لَهَا بَلْ أَخْلَفَ النَّظْمَ لَأَّلُ (٦٨)

وَغَنَّتْ لَنَا فِي دَارِ سَابُورَ قَيْنَةٌ ... مِنَ الْوُرْقِ مِطْرَابُ الْأَصَائِلِ مِيهَالُ (٦٩)

رَأَتْ زَهَرًا غَضًّا فَهَاجَتْ بِمِزْهَرٍ ... مَثَانِيهِ أَحْشَاءٌ لَطُفْنَ وَأَوْصَالُ (٧٠)

فَقُلْتُ تَغَنَّى كَيْفَ شِئْتِ فَإِنَّمَا ... غِنَاؤُكِ عِنْدِي يَا حَمَامَةُ إِعْوَالُ

وَتَحْسُدُكِ الْبِيضُ الْحَوَالِي قِلَادَةً ... بِجِيدِكِ فِيهَا مِنْ شَذَى الْمِسْكِ تِمْثَالُ (٧١)

ظَلَمْنَ وَبَيْتِ اللهِ كَمْ مِنْ قَلَائِدٍ ... تُؤَازِرُهَا سُورٌ لَهُنَّ وَأَحْجَالُ (٧٢)

---

(٦٥) الفريد : الدرة الكبيرة فى وسط العقد - الحلف : المحالفة والمعاقدة - القُلْب : السوار.

(٦٦) الدمع الغريب : الذى لم يجر بسيله العادة - النقا : الرمل الذى فيه استطالة - الأصيل : العشى - المعطّال : التى لا حلى عليها .

(٦٧) الأشنب يعنى الفم ، وهو عطر بالغريزة أى بالطبيعة - مُقسم : حالف - سائفه : الذى يسوفه أى يشمّه - القسيمة : وعاء الطيب - المتفال : ضد المعطار - يقول : كل من شمّ فم هذه الحبيبة يحلف أن جونة العطار متفال غير طيبة .

(٦٨) الشأن : مجرى الدمع - النظم : العقد - لأّل : بائع اللؤلؤ .

(٦٩) دار سابور هى الدار التى بناها الوزير أبو نصر سابور بن أردشير لأهل العلم ببغداد - قينة من الورق : مغنّية من الحمام - المطراب : الكثير الطرب - الأصائل : العشايا - الميهال : مفعال من الوَهَل ، وهو الفزع .

(٧٠) الغض : الناعم الذى لم يصبه ذبول ولا يبس - هاجت : تحركت للغناء - المزهر : عود الغناء - المثانى : من أوتار العود الذى يُغنّى به - أوصال : أعضاء .

(٧١) الإعوال بمعنى رفع الصوت بالبكاء - البيض بمعنى النساء - الحوالى : ذوات الحلى - القلادة : الطوق الجيد : العنق - شذا المسك بمعنى لونه - تمثال : مِثال .

(٧٢) تؤازرها : تعاونها - السُّور : جمع سِوار - أحجال : خلاخل .

فَيَالَيْتَ مَا تَدْرِى الْحَمَائِمُ بِالضُّحَى   أَأَطْوَاقُ حُسْنٍ تِلْكَ أَمْ هُنَّ أَغْلَالُ

بَدَتْ حَيَّةٌ قَصْرًا فَقُلْتُ لِصَاحِبِى   حَيَاةٌ وَشَرٌّ بِشْمَا زَعَمَ الْفَالُ

أَتُبْصِرُ نَارًا أُوقِدَتْ لِخُوَيْلِدٍ   وَدُونَ سَنَاهَا لِلنَّجَائِبِ إِرْقَالُ (٧٣)

وَأَقْتَالُ حَرْبٍ يُفْقَدُ السِّلْمُ فِيهِمُ   عَلَى غَيْرِهِمْ أَمْضَى الْقَضَاءِ وَأَقْتَالُ (٧٤)

وَعَرْضُ فَلَاةٍ يُحْرِمُ السَّيْفُ وَسْطَهَا   أَلَا إِنَّ إِحْرَامَ الصَّوَارِمِ إِحْلَالُ

إِذَا قُدِحَتْ فَالْمَشْرَفِىُّ زِنَادُهَا   وَإِنْ هِىَ حُشَّتْ فَالْعَوَامِلُ أَجْذَالُ (٧٥)

تَمَنَّيْتُ أَنَّ الْخَمْرَ حَلَّتْ لِنَشْوَةٍ   تُجَهِّلُنِى كَيْفَ اطْمَأَنَّتْ بِىَ الْحَالُ

فَأَذْهَلُ أَنِّى بِالْعِرَاقِ عَلَى شَفًى   رَذِىَّ الْأَمَانِى لَا أَنِيسٌ وَلَا مَالُ

مُقِلٌّ مِنَ الْأَهْلَيْنِ يُسْرٍ وَأُسْرَةٍ   كَفَى حَزَنًا بَيْنٌ مُشِتٌّ وَإِقْلَالُ (٧٦)

طَوَيْتُ الصبى طَىَّ السِّجِلِّ وَزَارَنِى   زَمَانٌ لَهُ بِالشَّيْبِ حُكْمٌ وَإِسْجَالُ (٧٧)

---

(٧٣) الحيّة : من الزواحف كالثعبان أو الأفعى أو غيرهما – القصر : العشىّ – خويلد : حىّ من بنى عقيل – سنا النار : ضوؤها – النجائب : الإبل العتيقة – إرقال : إسراع .

(٧٤) أقتالٌ ، فى أول البيت : جمع قِتل ، وهو العدوّ الذى يقاتلك ، وأقتالُ ، فى آخر البيت : فعل مضارع ، من قولهم اقتال عليه إذا تحكمّ بما أراد .

(٧٥)يُحرم السيف أى يجرّد من غمده ، كما أن المحرم يخلع ثوبه – المشرفىّ : السيف – حشّت : أوقدت – العوامل : صدور الرماح – الأجذال : أصول الشجر .

(٧٦) الشفا : حرف كلّ شىء أو بقيّته – الرذىّ : البعير الهزيل الذى أضعفه السفر حتى سقط – يُسر : غنى – أسرة الرجل : رهطه الأدنون – البين : الفراق – المشتّ : المفرّق .

(٧٧) السجلّ : الكتاب – الإسجال من قولهم أسجل القاضى للرجل كتابا ، إذا أعطاه سجلاً لما يريد .

مَتَى سَأَلَتْ بَغْدَادُ عَنِّي وَأَهْلُهَا ... فَإِنِّيَ عَنْ أَهْلِ الْعَوَاصِمِ سَآلُ
إِذَا جَنَّ لَيْلِي جُنَّ لُبِّي وَزَائِدٌ ... خُفُوقُ فُؤَادِي كُلَّمَا خَفَقَ الآلُ (٧٨)
وَمَاءُ بِلاَدِي كَانَ أَنْجَعَ مَشْرَبًا ... وَلَوْ أَنَّ مَاءَ الْكَرْخِ صَهْبَاءُ جِرْيَالُ (٧٩)
حُرُوفُ سُرًى جَاءَتْ لِمَعْنًى أَرَدْتُهُ ... بَرَتْنِيَ أَسْمَاءٌ لَهُنَّ وَأَفْعَالُ (٨٠)
يُحَاذِرْنَ مِنْ لَدْغِ الأَزِمَّةِ لاَاهْتَدَى ... مُخَبِّرُهَا أَنَّ الأَزِمَّةَ أَصْلاَلُ (٨١)
فَيَا وَطَنِي إِنْ فَاتَنِي بِكَ سَابِقٌ ... مِنَ الدَّهْرِ فَلْيَنْعِمْ لِسَاكِنِكَ الْبَالُ
فَإِنْ أَسْتَطِعْ فِي الْحَشْرِ آتِكَ زَائِرًا ... وَهَيْهَاتَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشْغَالُ (٨٢)
وَكَمْ مَاجِدٍ فِي سِيفِ دِجْلَةَ لَمْ أَشِمْ ... لَهُ بَارِقًا وَالْمَرْءُ كَالْمُزْنِ هَطَّالُ (٨٣)
مِنَ الْغُرِّ تَرَّاكُ الْهَوَاجِرِ مُعْرِضٌ ... عَنِ الْجَهْلِ قَذَّافُ الْجَوَاهِرِ مِفْضَالُ (٨٤)
سَيَطْلُبُنِي رِزْقِي الَّذِي لَوْ طَلَبْتُهُ ... لَمَا زَادَ وَالدُّنْيَا حُظُوظٌ وَإِقْبَالُ
إِذَا صَدَقَ الْجَدُّ افْتَرَى الْعَمُّ لِلْفَتَى ... مَكَارِمَ لاَتُكْرِي وَإِنْ كَذَبَ الْخَالُ (٨٥)

---

(٧٨) العواصم : حصون بأرض الشام فى شق حلب - جَنّ الليل : دخل - جُنّ اللبّ من الجنون - الآلُ : السراب ، وخفوقه : اضطرابه فى الهاجرة .

(٧٩) أنجع : أصلح للجسم وأغذى - الكرخ : موضع ببغداد - الصهباء من الخمر : التى فيها حمرة ، وكذلك الجريال .

(٨٠) حروف سرًى : إبل أريد بها السُّرى - معنى أردته : يعنى السفر - أسماء الإبل يعنى مسمياتها ، مثل نوق وإبل - وأفعالها أى أنواع سيرها - وفى البيت إلغازبقول النحويين : اسم وفعل وحرف جاء لمعنى .

(٨١) الأزمّة : جمع زمام ، يشبه عند اضطرابه بالحية - أصلال : جمع صِل ، وهو الحيّة الذكر .

(٨٢) البال : الفكر أو الحال - هيهات : كلمة تستعمل فى إبعاد الشىء والإخبار أنه غير ممكن .

(٨٣) ماجد : شريف - دجلة : نهر بغداد - سيفه : ساحله - لم أشم له بارقا ، من قولهم : شمت البرق إذا ترقّبت مطره - المزن : السحاب - هطّال : كثير المطر .

(٨٤) الغرّ : جمع أغرّ ، وهو المشهور بالفضل - الهواجر : الكلام القبيح .

(٨٥) الجدّ : الحظّ - افترى : كذب واختلق - العمّ : الجماعة من الناس - تكرى : تنقص ، والكلمة من الأضداد - الخال : مخيلة السحاب ، وهى ما يرى فيها من علامة المطر .

وقال أيضًا يجيب الشريف أبا إبراهيم موسى بن إسحق عن قصيدة أولها (غير مستحسَن وصال الغواني بعد ستين حجة وثمان) :

عَلِّلاَنِى فَإِنَّ بِيضَ الأَمَانِى ... فَنِيَتْ وَالظَّلاَمُ لَيْسَ بِفَانِى (٨٦)

إِنْ تَنَاسَيْتُمَا وِدَادَ أُنَاسٍ ... فَاجْعَلاَنِى مِنْ بَعْضِ مَنْ تَذْكُرَانِ

رُبَّ لَيْلٍ كَأَنَّهُ الصُّبْحُ فِى الْحُسْنِ ... وَإِنْ كَانَ أَسْوَدَ الطَّيْلَسَانِ (٨٧)

قَدْ رَكَضْنَا فِيهِ إِلَى اللَّهْوِ لَمَّا ... وَقَفَ النَّجْمُ وَقْفَةَ الْحَيْرَانِ

كَمْ أَرَدْنَا ذَاكَ الزَّمَانَ بِمَدْحٍ ... فَشُغِلْنَا بِذَمِّ هَذَا الزَّمَانِ

فَكَأَنِّى مَا قُلْتُ وَالْبَدْرُ طِفْلٌ ... وَشَبَابُ الظَّلْمَاءِ فِى عُنْفُوَانِ (٨٨)

لَيْلَتِى هَذِهِ عَرُوسٌ مِنَ الزَّنْجِ ... عَلَيْهَا قَلاَئِدٌ مِنْ جُمَانِ

هَرَبَ النَّوْمُ عَنْ جُفُونِى فِيهَا ... هَرَبَ الأَمْنِ عَنْ فُؤَادِ الْجَبَانِ

وَكَأَنَّ الْهِلاَلَ يَهْوَى الثُّرَيَّا ... فَهُمَا لِلْوَدَاعِ مُعْتَنِقَانِ

قَالَ صَحْبِى فِى لُجَّتَيْنِ مِنَ الحُنْـ ... ـدِسِ وَالْبِيدِ إِذْ بَدَا الْفَرْقَدَانِ

نَحْنُ غَرْقَى فَكَيْفَ يُنْقِذُنَا نَجْـ ... ـمَانِ فِى حَوْمَةِ الدُّجَى غَرِقَانِ (٨٩)

---

(٨٦) عللانى بمعنى لهّيانى واشغلانى ، يقال علّلت فلانًا بطعام أو غيره .
(٨٧) ربّ ، فى هذا الموضع : للتقليل ، معناه أن ذلك قليل - الطيلسان : كساء أخضر أو أسود .
(٨٨) قوله « والبدر طفل » يعنى أنه فى أول الشهر - عنفوان الشباب : أوله .
(٨٩) الحندس : الليل المظلم - الفرقدان : نجمان - حومة الدجى : مجتمعه .

وَسُهَيْلٌ كَـوَجْنَـةِ الْحِبِّ فـى اللَّـو   نِ وَقَلْـبِ الْمُحِـبِّ فـى الْخَفَقَـان

مُسْتَبِـدًّا كَـأَنَّـهُ الْفَـارِسُ الْمُعْـ   ـلَمُ يَبْـدُو معَـارِضَ الْفُـرْسَـانِ (٩٠)

يُسْـرِعُ اللَّمْـحَ فـى احْمِـرَارٍ كَمَـا تُسْـ   رِعُ فـى اللَّمْـحِ مُقْلَـةُ الْغَضْبَـانِ

ضَـرَّجَتْـهُ دَمًـا سيُـوفُ الأَعَـادِى   فَبَكَـتْ رَحْمَـةً لَـهُ الشِعْـرَيَـانِ

قَـدمَـاهُ وَرَاءَهُ وَهْـوَ فـى الْعَجْـ   ـزِ كَسَـاعٍ لَيْسَـتْ لَـهُ قَـدَمَـانِ (٩١)

ثُـمَّ شَـابَ الـدُّجَى وَخَـافَ مِـنَ الْهَجْـ   ـرِ فَغَطَّـى الْمَشِيـبَ بـالـزَّعْفَـرَانِ

وَنَضَـا فَجْـرُهُ عَلَـى نَسْـرِهِ الْـ   واقِـعِ سَيْفًـا فَهَـمَّ بـالطَّيَـرَانِ

وَبِـلاَدٍ وَرَدْتُهَـا ذَنَـبَ السَّـرْ   حَـانِ بَيْـنَ المَهَـاةِ وَالسِّـرْحَـانِ (٩٢)

وَعُيُـونُ الـرِّكَـابِ تَـرْمُـقُ عَيْنًـا   حَـوْلَهَـا مَحْجَـرٌ بَـلاَ أَجْفَـانِ (٩٣)

وَعَلَـى الـدَّهْـرِ مِـنْ دِمَـاءِ الشَّهِيـدَ   يـنِ عَلـيٍّ وَنَجْلِـهِ شَـاهِـدَانِ (٩٤)

فَهُمَـا فـى أَوَاخِـرِ اللَّيْـلِ فَجْـرَا   نِ وَفـى أُولَيَـاتِـهِ شَفَقَـانِ

ثَبَتَـا فـى قَمِيصِـهِ لِيَجِـىءَ الحَشْـ   ـرَ مُسْتَعْـدِيًـا إِلَـى الـرَّحْمَـنِ (٩٥)

---

(٩٠) سهيل : كوكب أحمر يمان ، وهو دائم الخفقـان - الحبّ : المحبوب - مسـتَبِد : متفرد - المعارض : الذى يكون فى عُرْض الفرسان أى ناحية منهم .

(٩١) اللمح : اللمعـان - الشعريـان : أختا سهيـل ، وهما العبـور والغميصاء ، أمـا العبور فهـو النير العظيـم وأما الغميصاء فأقل نورا - قدما سهيـل : كوكبان تحته .

(٩٢) نضا سيفه أى سَلّه - النسر الواقع : كوكب منير خلفه كوكبان أصغر منه نيران - وأراد بالسرحان الأول الفجر، والعرب تسميه ذنب السرحان لأن مستدق صاعد فى غير اعتراض ، والسـرحان الثانى هـو الذئب ، وقوله بين « المهاة والسرحان » يريد أن تلك البلاد لا يسكنها إلا هذان النوعان من الوحش .

(٩٣) ترمق عينًا أى عين ماء لشدة عطشها - المحجر : المتسع المحيط بالمكان .

(٩٤) يريد الحمرة التى تبدو فى أول الليل وآخره - ويزعم بعض الناس أن هذه الحمرة لم تكن إلا منذ قتل علىّ وابنه رضى الله عنهما .

(٩٥) الشفقان من أول الليـل كالفجرين من آخره - فى قميصه أى فى قميص الدهـر - المستعدى : المستنصر المستعين .

وَجَمَالُ الأَوَانِ عَقْبُ جُدُودٍ   كُلُّ جَدٍّ مِنْهُمْ جَمَالُ أَوَانِ
يَا ابْنَ مُسْتَعْرِضِ الصُّفُوفِ بِبَدْرٍ   وَمُبِيدِ الْجُمُوعِ مِنْ غَطَفَانِ
أَحَدِ الْخَمْسَةِ الَّذِينَ هُمُ الأَغْـ   ـرَاضُ فِى كُلِّ مَنْطِقٍ وَالْمَعَانِى (٩٦)
وَالشُّخُوصِ الَّتِى خُلِقْنَ ضِيَاءً   قَبْلَ خَلْقِ الْمِرِّيخِ وَالْمِيزَانِ
قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ السَّمَوَاتُ أَوْ تُؤْ   مَرَ أَفْلاكُهُنَّ بِالدَّوَرَانِ
لَوْ تَأَتَّى لِنَطْحِهَا حَمَلُ الشُّهْـ   ـبِ تَرَدَّى عَنْ رَأْسِهِ الشَّرَطَانِ
أَوْ أَرَادَ السِّمَاكُ طَعْنًا لَهَا عَا   دَ كَسِيرَ الْقَنَاةِ قَبْلَ الطِّعَانِ (٩٧)
أَوْ رَمَتْهَا قَوْسُ الْكَوَاكِبِ زَالَ الْعَجْـ   ـسُ مِنْهَا وَخَانَهَا الأَبْهَرَانِ (٩٨)
أَوْ عَصَاهَا حُوتُ النُّجُومِ سَقَاهُ   حَتْفَهُ صَائِدٌ مِنَ الحِدْثَانِ (٩٩)
أَنْتَ كَالشَّمْسِ فِى الضِّيَاءِ وَإِنْ جَا   وَزْتَ كِيوَانَ فِى عُلُوِّ الْمَكَانِ
وَافَقَ اسْمُ ابْنِ أَحْمَدَ اسْمَ رَسُو   لِ اللهِ لَمَّا تَوَافَقَ الْغَرَضَانِ (١٠٠)
وَسَجَايَا مُحَمَّدٍ أَعْجَزَتْ فِى الْـ   ـوَصْفِ لُطْفَ الأَفْكَارِ وَالأَذْهَانِ
وَجَرَتْ فِى الأَنَامِ أَوْلادُهُ السِّـ   ـتَّةُ مَجْرَى الأَرْوَاحِ فِى الأَبْدَانِ

---

(٩٦) العقب : الولد الذى يخلف أباه - المراد بمستعرض الصفوف ومهلك الجموع : أمير المؤمنين على بن أبى طالب لأنه قتل نيفا وثلاثين رجلا فى غزوة بدر، وهزم غطفان ومن كان معهم يوم الخندق - الخمسة هم محمد - ﷺ وعلى وفاطمة والحسن والحسين .

(٩٧) تردّى : وقع - السماك سماكان ، أحدهما الأعزل ، لا سلاح معه ، أما الثانى وهو الذى يريده فى البيت فالسماك الرامح .

(٩٨) العجس من القوس : الموضع الذى يقبض عليه الرامى - الأبهران : ظهر القوس من الجانبين .

(٩٩) فى البيت إشارة إلى أن حوت النجوم يمتثل أوامر تلك الشخوص .

(١٠٠) يعنى أنه يُهتدى به ويؤتم ، كما اهتدى بالنبى ﷺ - كيوان : كوكب زحل .

فَهُــمُ السَّبْعَــةُ الطَّــوَالِــعُ وَالأَصْــ   ــغَرُ مِنْهُم فـي رُتْبَةِ الـزِّبْـرِقَـانِ (١٠١)
وَبِهِــمْ فَضَّــلَ الْمَلِيــكُ بَنِــى حَــوَّا   ءَ حَتَّـــى سَمَـــوْا عَلَـــى الْحَيَـــوَانِ
شَـرُفُــوا بــالشِّــرَافِ وَالسُّمْــرُ عِيــدَا   نٌ إذَا لَــمْ يُـزَنَّ بِـالخــرِصَــانْ (١٠٢)
وَإِذَا الأَرْضُ وَهْـــىَ غَبْـــرَاءُ صَـــارَتْ   مِـــنْ دَمِ الطَّعْـــنِ وَرْدَةً كَـــالـــدِّهَـــانِ
أَقْبَلُــوا حَــامِلِى الْجَـدَاوِلِ فـى الأَغْــ   ــمَــادِ مُسْتَلْئِمِيـــنَ بِـــالْغُـــدْرَنِ (١٠٣)
يَضْــرِبُــونَ الأَقْــرَانَ ضَــرْبًــا يُعِيــدُ الــ   ــسَّعْــدَ نَحْسًــا فــى حُكْــمِ كُــلِّ قِــرَانِ
وَجَلَــوْا غَمْــرَةَ الْــوَغَـــى بِـــوُجُـــوهٍ   حَسُنَــتْ فَهْــىَ مَعْــدِنُ الإِحْسَــانِ (١٠٤)
قَــدْ أَجَبْنَـــا قَــوْلَ الشَّــرِيــفِ بِقَــوْلٍ   وَأَتَيْنَـــا الْحَصَــى عَــنِ الْمَــرْجَــانِ (١٠٥)
أَطْــرَبَتْنَـــا أَلْفَـــاظُـــهُ طَـــرَبَ الْـــ   ــعُشَّـــاقِ لِلْمُسْمِعَـــاتِ بِـــالأَلْحَـــانِ
فَـــاغْتَبَقْنَـــا بَيْضَـــاءَ كَـــالْفِضَّـــةِ الْمَحْـــ   ــضِ وَعِفْنَـــا حَمْــرَاءَ كَـــالأُرْجُــوَانِ (١٠٦)
وَلَـــو انَّـــا جُـــزْنَـا إِلَــى شُــرْبِهَــا النَّهْــ   ــىَ عُنِيْنَـــا بِكُـــلِّ أَصْهَـــبَ عَـــانِ
وَهَجَـــرْنَـــا شُــرْبَ الْكُـــؤُوسِ احْتِقَـــارًا   وَشَـــرِبْنَـــا مَسَـــرَّةً بِـــالـــدِّنَـــانِ (١٠٧)
أَيُّهَـــا الـــدُّرُّ إِنَّمَـــا فِضْـــتَ مِـــنْ بَحْـــ   ــرٍ مُخَلَّـــى الطَّـــرِيـــقِ لِلْجَـــرَيَـــانِ

(١٠١) السبعة الطوالع : زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد والقمر والشمس - الزبرقان : القمر.

(١٠٢) الضمير فى « شرفوا » يعود على بنى حواء - يزنّ ، من الزينة - السمر : الرماح - الخرصان بالأسنة - يقول هؤلاء زانوا بنى آدم كما تزين الأسنة الرماح .

(١٠٣) وردة : حمراء - الدهان : الجلد الأحمر - المستلئم : الذى يلبس اللأمة ، وهى الدرع - الجداول : الأنهار الصغيرة ، ويريد بها السيوف - الغدران : القطع من المياه يغادرها السيل ، ويريد بها الدروع .

(١٠٤) الأقران : جمع القرن ، وهو الذى يماثلك فى الشجاعة أو العلم أو غيرهما - القران : اجتماع كوكبين من السيارات السبع - جلوا : كشفوا - غمرة الوغى : شدّة الحرب .

(١٠٥) المرجان : صغار الجواهر - جعل قصيدة الشريف إليه كالمرجان ، وجوابها كالحصى ماله قدر.

(١٠٦) المسمعات : المغنيات - الألحان : الأغانى - اغتبقنا من الغبوق ، وهو شرب العشىّ - عفنا : كرهنا - أراد بالبيضاء الماء ، وبالحمراء الخمر - الأرجوان صبغ أحمر يُشَبّه به الخمر.

(١٠٧) عنينا : اهتممنا وشغلنا - الأصهب : الخمر المعتصرة من العنب الأبيض - العانى : الأسير، أراد أن الخمر قد عتقت ، وطال حبسها فى الدن ، فجعلها كالأسير المحبوس - ويقول : لولا النهى عن شرب الخمر لشربنا على ألفاظ الشريف .

مَـا امْـرُؤُالْقَيْـسِ بِــالْمُصَلِّـى إِذَا جَـا ... رَاهُ فِـى الشِّعْـرِ بَـلْ سُكَيْـتُ الـرِّهَـانِ
فَـاقْتَنِـعْ بِـالـرَّوِيِّ وَالْـوَزْنِ مِنِّـى ... فَهُمُـومِـى ثَقِيلَـةُ الْأَوْزَانِ (١٠٨)
مِـنْ صُـرُوفٍ مَلَكْـنَ فِكْـرِى وَنُطْقِـى ... فَهْـىَ قَيْـدُ الْفُـؤَادِ قَيْـدُ اللِّسَـانِ (١٠٩)
يَـا أَبَـا إِبْـرَاهِيمَ قَصَّـرَ عَنْـكَ الشِّعْـ ... ـرُ لَمَّـا وُصِفْـتَ بِـالْقُـرْآنِ
أُشْـرِبَ الْعَـالَمُـونَ حُبَّـكَ طَبْعًـا ... فَهْـوَ فَـرْضٌ فِـى سَـائِرِ الْأَدْيَـانِ (١١٠)
بَـانَ لِلْمُسْلِمِيـنَ مِنْـكَ اعْتِقَـادٌ ... ظَفِـرُوا مِنْـهُ بِـالْهُـدَى وَالْبَيَـانِ (١١١)
وَحُـدُودُ الْإِيمَـانِ يَقْبِسُهَـا مِنْـكَ ... وَيَمْتَـاحُهَـا أُولُـو الْإِيمَـانِ
وَمُحَيَّـاكَ لِلَّـذِى يَعْبُـدُ الـدَّهْـ ... ـرَ وَإِهْبَـاءُ طِـرْفِـكَ الْفَتَيَـانِ (١١٢)
وَإِلَـهُ الْمَجُـوسِ سَيْفُـكَ إِنْ لَـمْ ... يَـرْغَبُـوا عَـنْ عِبَـادَةِ النِّيـرَان (١١٣)
حَلَبًـا حَجَّـتِ الْمَطِـى وَلَـوْ أَنْـ ... ـجَمْتَ عَنْهَـا مَـالَتْ إِلَـى حَرَّانِ (١١٤)
صَليـتْ جَمْـرةُ الهجيـرِ نهـارًا ... ثـم بـاتـتْ تَغَـصّ بـالصِّلِّيَـان
أرزمَـتْ نـاقتـاىَ شـوقـاً فظـنَّ الركْـ ... ـبُ أنّـى سَـرَى بَـى المِـرْزَمـان
عِـشْ فـداءٌ لـوجهِـك القَمَـران ... فهُمـا فـى سَنـاهُ مُسْتَصْغَـران (١١٥)

---

(١٠٨) امرؤ القيس هو ابن حُجْر الشاعر الجاهلى - المصلّى : الذى يتلو السابق فى الحلبة - السكيت : الذى فى آخر الحلبة - الروىّ : الحرف الذى تبنى عليه القصيدة - الهموم جمع الهمّ .

(١٠٩) يعنى أن النوائب قيدّت فؤاده عن التفكّر، ولسانه عن النطق .

(١١٠) يقول : بالطمع أحبك الناس ، لأن حبك فرض فى سائر الأديان .

(١١١) بان : ظهر - يقول : لما ظهر اعتقادك للمسلمين ظفروا بالهدى والبيان فاهتدوا به واتبعوه .

(١١٢) يقبسها بمعنى يستفيدها - يمتاحها : يأخذ منها - أولو الإيمان : ذووه - محياك : وجهك - الإهباء : إثارة الغبار - طرفك : فرسك - الفتيان : الليل والنهار - يريد أن وجهه كالنهار وإهباء فرسه كالليل .

(١١٣) يقول : سيفك يشبه النار فى لمعانه ، فالمجوس تعبده إذا رأته تتوهّم أنه نار.

(١١٤) أنجمْت : بعدت وذهبت - حرّان : بلد بالجزيرة - يقول : تحج المطى حلبًا أى تقصدها ، لأنك بها ، ولو رحلت إلى غيرها صار الحجّ إلى ذلك الموضع .

(١١٥) الضمير فى « صليت » يعود إلى المطىّ - الهجير : الحرّ الشديد - الصليان : نبت ترعاه الإبل - أرزمت : حنّت وصوّتت - المرزمان : نجمان معروفان ، والمعنى أنهما حنّا فأسرعتا - السنا : الضوء - القمران : الشمس والقمر.

وقال يجيب أبا على النهاوندى محمد بن حمد بن فورجة عن قصيدة أوّلها :

(ألا قامت تجاذبنى عنانى وتسألنى بعرصتها مقيلا)

كَفَى بِشُحُوبِ أَوْجُهِنَا دَلِيلاَ عَلَى إِزْمَاعِنَا عَنْكَ الرَّحِيلاَ
أَبَتْ صِنْفَا النَّوَاعِبِ مِنْ نِيَاقٍ وَطَيْرٍ أَنْ نُقِيمَ وَأَنْ نَقِيلاَ(١١٦)
تَأَمَّلْنَا الزَّمَانَ فَمَا وَجَدْنَا إِلَى طِيبِ الْحَيَاةِ بِهِ سَبِيلاَ
ذَرِ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تَحْظَ مِنْهَا وَكُنْ فِيهَا كَثِيرًا أَوْ قَلِيلاَ
وَأَصْبِحْ وَاحِدَ الرَّجُلَيْنِ إِمَّا مَلِيكًا فِي الْمَعَاشِرِ أَوْ أَبِيلاَ(١١٧)
وَلَوْ جَرَتِ النَّبَاهَةُ فِي طَرِيقِ الْـ ـخُمُولِ إِلَيَّ لاَخْتَرْتُ الْخُمُولاَ
يَصُرِّدُ زَاجِرُ الصِّرْدَانِ جُبْنًا وَيُوصَلُ حَبْلُ مَنْ وَصَلَ الْحُبُولاَ(١١٨)
وَتَقْتُلُ أُمَّ لَيْلَى أُمُّ عَمْرٍو لِمَنْ يَغْذُو سَمِيَّتَهَا قَتِيلاَ(١١٩)
أَرَى الْحَيَوَانَ مُشْتَبِهَ السَّجَايَا كَأَنَّ جَمِيعَهُ عَدِمَ الْعُقُولاَ
نَسِيتُ أَبِي كَمَا نَسِيَتْ رِكَابِي وَتِلْكَ الْخَيْلُ أَعْوَجَ وَالْجَدِيلاَ(١٢٠)
كَأَنَّ جِيَادَنَا فِي الدَّارِ أَسْرَى شُكُوُّتُنَا لاَ وَجِيفَ وَلاَ صَهِيلاَ

---

(١١٦) الشحوب : التغيّر – الإزماع : العزيمة على الشيء – النوق النواعب : التي تمدّ أعناقها في سيرها السريع – النواعب من الطير هي الغربان ، يقال : نعب الغراب إذا صاح وحرّك رأسه – تقيل ، من القائلة ، وهو أن يقيم الإنسان في وقت الهاجرة يستظلّ .

(١١٧) الكثير بمعنى النبيه الذكر، والقليل : الخامل الذكر – المعاشر : القبائل – الأبيل : العابد الراهب .

(١١٨) يصرِّد شربَه : يقطعه وينغّصه – الزاجر : الذي يزجر الطير ، أي يتطيّر بها – الصردان : جمع صرد . وهو طائر كانوا يتشاءمون به – الحبول : الدواهي .

(١١٩) تقتل الخمر : تمزجها بالماء – أمّ ليلى : كناية عن الخم – أم عمرو : امرأة تكنى بهذه الكنية – سميتها : أراد بها الضبع ، لأنها تكنى أم عمرو وأمّ عامر – يغذوها الطعام أي يطعمها إياه .

(١٢٠) السجايا : الطبائع – ركابي : إبلي – أعوج : فرس عتيق تنسب إليه الخيل الجديل : فحل كريم تنسب إليه الإبل .

حُجُــولُ قُيُــونِهــا كَحُجُــولِ قَيْــنٍ أَجَــادَ مِــنَ الْحَـدِيـدِ لَهَـا كبُـوُلاَ(١٢١)
فَمَــا تَـدْرِى أَخَلْخَــالاً مَشُــوفًــا يُقِــلُّ الــرُّسْــغُ أَمْ قَيْــدًا ثَقِيــلاَ
يُفَجِعُنَــا ابْــنُ دَأْيَــةَ بِــابْــنِ أُنْــسٍ نُفَــارِقُــهُ فَــلاَ نَبِــعَ الْحُمُــولاَ(١٢٢)
وَقَلَّــدَهُ الــرُّمَــاةُ بِــأُرْجُــوَانٍ وَعَــادَ شَبَــابُــهُ رَحْضًــا غَسِيــلاَ
كَلِفْنَــا بِــالْعِــرَاقِ وَنَحْــنُ شَــرْخٌ فَلَــمْ نُلْمِــمْ بِــهِ إِلاَّ كُهُــولاَ(١٢٣)
وَشَــارَفَنَــا فِــرَاقُ أَبِــى عَلِــيّ فَكَــانَ أَعَــزَّ دَاهِيَــةٍ نُــزُولاَ
سَقَــاهُ اللهُ أَبْلَــجَ فَــارِسِيًّــا أَبَــتْ أَنْــوَارُ سُودَدِهِ الأُفُــولاَ(١٢٤)
يعُــدُّ الثَّــوْبَ زَغْفَــا سَــابِــرِيًّــا وَيَــرْضَــى الْخِــلَّ هِنْــدِيًّــا صقَيــلاَ
كــأَنَّ أَرَاقِمًــا نَفَثَــتْ سِمَــامًــا عَلَيْــهِ فَعَــادَ مُبْيَضًّــا نَحِيــلاَ(١٢٥)
وَمَــنْ تَعْلَــقْ بِــهِ حُمَــةُ الأَفَــاعِــى يَعِــشْ إِنْ فَــاتَــهُ أَجَــلٌ عَلِيَــلاَ
كَــأَنَّ فِــرِنْــدَهُ وَاليَــوْمُ حَمْــتٌ أَفَــاضَ بِصَفْحِــهِ سَجْــلاً سَجِيــلاَ(١٢٦)
تَــرَدَّدَ مَــاؤُهُ عُلْــوًا وَسُفْــلاً وَهَــمَّ فَمَــا تَمَكَّــنَ أَنْ يَسِيــلاَ

---

(١٢١) الحجول الأولى : البياض الذى فى أرجل الخيل ، والحجول الثانية : القيود - القيون : جمع قين ، وهو موضع القيد من الوظيف فى يد البعير ، وهما قينان - وقوله « كحجول قين » يريد بالقين : الحداد - الكبول : جمع كبل ، وهو القيد .

(١٢٢) مشوف : مصقول مجلوّ - يُقِلّ : يرفع - الرسغ من الدابة : محلّ القيد من قوائمهما - ابن دأية : الغراب - يقال : « هو ابن أنس فلان » : لخيله الخاصّ به - الحمول : ابل التى عليها الهوادج .

(١٢٣) الأرجوان : الأحمر من الثياب - الرحض : الثوب الذى أكثر من غسله ، حتى كاد يُخلق - يقال : رجل شارخ وشرْخ مثل تاجر وتجْر أى شاب .

(١٢٤) شارفنا : أشرف علينا - أعزّ داهية أى أغلبها للصبر - والضمير فى « فكان » للفراق - الأبلج بمعنى المشهور - ويدل اسم جدّه « فورّجه على كونه » فارسيًّا - السودد : السيادة - الأفول : المغيب .

(١٢٥) الزغف : الدرع الواسعة - السابرىّ : الدرع المنسوب إلى سابور ، وهو موضع بفارس - الخِل : الخليل الهندىّ الصقيل : السيف المجلوّ - أراقم : حيّات - نفثت : بصقت ، وهو مثل تفلت - والهاء فى « عليه » عائدة إلى السيف .

(١٢٦) حمة : سمّ - فرند السيف : جوهره وماؤه - حمت : شديد الحرّ - أفاض : أسال - صفحه : جانبه - السجل السجيل : الدلو العظيم .

أَجَادَ الْهَالِكِيُّ بِهِ احْتِفَاظًا ... فَلَمْ يُطِقِ السُّرُوبَ وَلاَ الْهُمُولاَ(١٢٧)

إِذَا مَا كَالِىءُ الأَضْغَانِ يَوْمًا ... رَآهُ رَعَى بِهِ كَلاً وَبِيلاَ

يَكَادُ سَنَاهُ يُخْرِقُ مَنْ فَرَاهُ ... وَيُغْرِقُ مَنْ نَجَا مِنْهُ كُلُولاَ(١٢٨)

فَذَلِكَ شِبْهُ عَزْمِكَ يَا ابْنُ حَمْدٍ ... وَلَكِنْ لاَ نُبُوَّ وَلاَ فُلُولاَ

لَشَرَّفْتَ الْقَوَافِيَ وَالْمَعَانِى ... بِلَفْظِكَ وَالأَخِلَّةَ وَالْخَلِيلاَ

إِذَا الْمَنْهُوكَ فُهْتَ بِهِ انْتَصَارًا ... لَهُ مِنْ غَيْرِهِ فَضَلَ الطَّوِيلاَ(١٢٩)

وَأَنْتَ فَكَاكُ دَائِرَتَىْ قَرِيضٍ ... وَهَنْدَسَةٍ حَلَلْتَ بِهَا الشُّكُولاَ(١٣٠)

كَمَلْتَ فَزِدْ عَلَى النُّعْمَانِ مُلْكًا ... مَزِيدَكَ عَنْ أَخِى ذُبْيَانَ قِيلاَ(١٣١)

وَقَدْ كَافَأْتُ عَنْ شِعْرٍ بِشِعْرٍ ... وَلَكِنْ حَازَ مَنْ بَدَأَ الْجَمِيلاَ

بَهَرْتَ وَيَوْمُ عُمْرِكَ فِى شُرُوقٍ ... فَدَامَ ضُحىً وَلاَ بَلَغَ الأَصِيلاَ

وَرَدْنَا مَاءَ دِجْلَةَ خَيْرَ مَاءٍ ... وَزُرْنَا أَشْرَفَ الشَّجَرِ النَّخِيلاَ

وَزُلْنَا بِالْغَلِيلِ وَمَا اشْتَفَيْنَا ... وَغَايَةُ كُلِّ شَىْءٍ أَنْ يَزُولاَ(١٣٢)

وَلَوْ لَمْ أَلْقَ غَيْرَكَ فِى اغْتِرَابِى ... لَكَانَ لِقَاؤُكَ الْحَظَّ الْجَزِيلاَ

---

(١٢٧) تردّد ماؤه أى برق وماج - الهالكىّ : الحداد - السّروب والهمول بمعنى جرى الماء وسيلانه .

(١٢٨) كالىء : حافظ حارس - الأضغان : الأحقاد - الكلأ : العشب كله ، أخضره ويابسه - الوبيل : الذى يؤدى إلى الهلكة - سناه : ضوؤه - فراه : قطعه - الكلول : مصدر كلَّ السيف ، إذا لم يقطع ، وعنى بالكدول : الكالّ .

(١٢٩) الأخلّة : أغماد السيوف - و« الخليل » أراد به الخليل بن أحمد النحوى الفراهيدى - المنهوك : أقصر الشعر ، والطويل أطوله .

(١٣٠) الفكاك : الفكّ ، وهو أن يؤخذ بحر شعرى فيطرح من أوله بعض المقاطع ، ثم يضم المطروح إلى آخر ذلك البحر ، فيتحول بحرا آخر - القريض : الشعر - الشكول : الأشكال .

(١٣١) النعمان ، هو ابن المنذر بن ماء السماء ، أبو قابوس - عن أخى ذبيان : يريد به النابغة الذبيانى ، ويروي أنه مدح ثلاثة ملوك ، كلهم يسمّى النعمان .

(١٣٢) بهرت : غلبت - الغليل : حرقة العطش .

سَتَحْمِــلُ نَــاجِيَــاتُ الْعِيــسِ مِنِّــى صَــــدِيقًــا عَــنْ وِدَادِكَ لَــنْ يَحُــولاَ
يُــؤَمِّــلُ فِيــكَ إِسْعَــافَ اللَّيَــالِــى وَيَنْتَظِــرُ الْعَــوَاقِــبَ أَنْ تُــدِيــلاَ (١٣٣)

وقال يرثى أباه عبد الله بن سليمان :

نَقَمْتُ الـرِّضَى حَتَّى عَلَى ضَاحِكِ الْمُزْنِ فَـلاَ جَـادَنِـى إِلاَّ عَبُـوسٌ مِـنَ الـدَّجْـنِ (١٣٤)
فَلَيْـتَ فَمِــى إِنْ شَــامَ سِنِّــى تَبَسُّمِــى فَـمُ الطَّعْنَـةِ النَّجْـلاَءِ تَـدْمَـى بِـلاَ سِنِّ (١٣٥)
كَــأَنَّ ثَنَــايَــاهُ أَوَانِــسُ يُبْتَغَــى لهَـا حُسْـنُ ذِكْـرٍ بِـالصِّيَـانَـةِ وَالسَّجْـنِ (١٣٦)
أَبِــى حَكَمَـتْ فِيـهِ اللَّيَـالِـى وَلَـمْ تَـزَلْ رِمَــاحُ الْمَنَــايَــا قَــادِرَاتٍ عَلَــى الطَّعْــنِ
مَضَى طَـاهِرَ الْجُثْمَـانِ والنَّفْسِ وَالْكَرَى وَسُهْدِ الْمُنَــى وَالْجَيْــبِ وَالـذَّيْـلِ وَالـرُّدْنِ (١٣٧)
فَيَـالَيْـتَ شِعْـرِى هَـلْ يَخِـفُّ وَقَـارُهُ إِذَا صَـارَ أُحْـدٌ فِـى الْقِيَـامَـةِ كَـالْعِهْـنِ
وَهَـلْ يَـرِدُ الْحَـوْضَ الـرَّوِىَّ مُبَـادِرًا مَـعَ النَّاسِ أَمْ يَـأْبَـى الـزِّحَامَ فَيَسْتَـأْنِـى (١٣٨)
حِجًــى زَادَهُ مِــنْ جُـرْأَةٍ وَسَمَــاحَــةٍ وَبَعْضُ الْحِجَى دَاعٍ إِلَى الْبُخْلِ وَالْجُبْنِ (١٣٩)

---

(١٣٣) ناجيات : إبـل سريعة – العيس : الإبل التـى يخالط بياضهـا حمرة – تديل : تنصر ، والإدالـة هى النصرة والتغليب .

(١٣٤) نقمت : كـرهـت وسخطـت – ضـاحك المـزن : السحاب الـذى فيه البـرق – العبوس : مـا لا برق فيـه – الدجن : إلباس الغيم السماء – يقول : كرهت الرضا من كـلّ ضاحك لعظم هذا الرزء ، حتى بلغت كراهيتى له إلى أن سخطت على المزن الضاحك ، فإنى لا أحبّ أن يجودنى إلاسحاب لا برق فيه ، وهو العبوس .

(١٣٥) شام : أظهر – سنّى : مفعول شام ، وتبسمى فاعله – النجلاء : الواسعة .

(١٣٦) السجن : مصدر سجنته – يريد : أصون ثنايا الفم ، فلا أظهرها لتبسّم ولا لغيره ، فكأنها أوانس من النساء يصونها عن العيون ابتغاء الذكر الحسن .

(١٣٧) حكمت فيـه : أماتته – الجثمـان : الجسم – الكري : النـوم ، والسهد ضده – طهـارة الجيب كنايـة عن سلامـة الصدر من الحسد – وطهـارة الذيل كنايـة عن عفة الفـرج – وطهارة الردن ، وهو الكمّ ، كناية عن قبـض اليد عما لا يحلّ .

(١٣٨) العهن : الصوف الملوّن المصبوغ – الحوض : حوض النبى ﷺ ، يقول : أيردُه مع الناس ، أم يأبى الزحام فيتأنّى فى الورود ؟ يصفه بالحلم والأناة .

(١٣٩) الحجا : العقـل – أم دفـر : كنية الـدنيا ، والـدفر هو النتـن – أجدر : أحقّ – تُخْنـى : تهلك – الـدجى : الظلام – فرعها : شعرها – وقد شبّه الدنيا بالكعاب ، وهى الفتاة التى كعب نهداها للبلوغ .

عَلَى أُمِّ دَفْرٍ غَضْبَةُ اللهِ إِنَّهَا ... لأَجْدَرُ أُنْثَى أَنْ تَخُونَ وَأَنْ تُخْنِي
كَعَابٌ دُجَاهَا فَرْعُهَا وَنَهَارُهَا ... مُحَيًّا لَهَا قَامَتْ لَهُ الشَّمْسُ بِالْحُسْنِ
رَآهَا سَلِيلُ الطِّينِ وَالشَّيْبُ شَامِلٌ ... لَهَا بِالثُّرَيَّا وَالسِّمَاكَيْنِ وَالْوَزْنِ (١٤٠)
زَمَانَ تَوَلَّتْ وَأْدَ حَوَّاءَ بِنْتِهَا ... وَكَمْ وَأَدَتْ فِى إِثْرِ حَوَّاءَ مِنْ قَرْنِ (١٤١)
كَأَنَّ بَنِيهَا يُولَدُونَ وَمَا لَهَا ... حَلِيلٌ فَتَخْشَى الْعَارَ إِنْ سَمَحَتْ بِابْنِ (١٤٢)
جَهِلْنَا فَلَمْ نَعْلَمْ عَلَى الْحِرْصِ مَا الَّذِى ... يُرَادُ بِنَا وَالْعِلْمُ للهِ ذِى الْمَنِّ
إِذَا غُيِّبَ الْمَرْءُ اسْتَسَرَّ حَدِيثُهُ ... لَمْ تُخْبِرِ الأَفْكَارُ عَنْهُ بِمَا يُغْنِى
تَضِلُّ الْعُقُولُ الْهِبْرِزِيَّاتُ رُشْدَهَا ... وَلَمْ يَسْلَمِ الرَّأْىُ الْقَوِىُّ مِنَ الأَفْنِ
وَقَدْ كَانَ أَرْبَابُ الْفَصَاحَةِ كُلَّمَا ... رَأَوْا حَسَنًا عَدُّوهُ مِنْ صَنْعَةِ الْجِنِّ (١٤٣)
وَمَا قَارَنَتْ شَخْصًا مِنَ الْخَلْقِ سَاعَةٌ ... مِنَ الدَّهْرِ إِلاَّ وَهْىَ أَفْتَكُ مِنْ قِرْنِ
وَجَدْنَا أَذَى الدُّنْيَا لَذِيذًا كَأَنَّمَا ... جَنَى النَّحْلِ أَصْنَافُ الشَّقَاءِ الَّذِى نَجْنِى (١٤٤)
فَمَا رَغِبَتْ فِى الْمَوْتِ كُدْرٌ مَسِيرُهَا ... إِلَى الْوِرْدِ خِمْسٌ ثُمَّ يَشْرَبْنَ مِنْ أَجْنِ
يُصَادِفْنَ صَقْرًا كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ... وَيَلْقَيْنَ شَرًّا مِنْ مَخَالِبِهِ الْحُجْنِ (١٤٥)
وَلاَ قَلِقَاتُ اللَّيْلِ بَاتَتْ كَأَنَّهَا ... مِنَ الأَيْنِ وَالإِدْلاَجِ بَعْضُ الْقَنَا اللُّدْنِ

---

(١٤٠) سليل الطين : آدم عليه السلام - الوزن : كوكب .

(١٤١) الضمير فى « تولت » يعود إلى أم دفر - الوأد ، فى الجاهلية : دفن البنت حية - قرن بمعنى قوم .

(١٤٢) حليل : زوج - إن سمحت بابن أى إن أبقته حيًّا .

(١٤٣) على الحرص أى على حرصنا علىّ أن نعلم - استسرّ : خفى - الهبرزىّ : القوىّ المحكم - الأفن : ضعف الرأى وفساد العقل - أرباب الفصاحة : العرب .

(١٤٤) قارنت : صاحبت ولازمت - الفتك : القتل مجاهرة - القرن : المنيل - جنى النحل : العسل .

(١٤٥) الكدر : طيور القطا فى ألوانها كدرة - خمس أى خمس ليال - الأجن : الماء المتغيّر - الحجن : المعوجة - يقول : الحياة محببة إلى الناس جميعهم ، فالقطا يتكلف المسافرة إلى الماء ، ثم يجده متغيرا ، ولكنه لا يرغب فى الموت ويسرّه أن تدوم له تلك الشقوة ، وهو لا يختار الموت ولو لقيه صقر كل وقت ، ولقى شرا من مخالبه .

ضَرَبْنَ مَلِيعًا بِالسَّنَابِكِ أَرْبَعًا ... إِلَى الْمَاءِ لاَيَقْدِرْنَ مِنْهُ عَلَى مَعْنِ (١٤٦)

وَخَوْفُ الرَّدَى آوَى إِلَى الْكَهْفِ أَهْلَهُ ... وَكَلَّفَ نُوحًا وَابْنَهُ عَمَلَ السُّفْنِ

وَمَا اسْتَعْذَبَتْهُ رُوحُ مُوسَى وَآدَمٍ ... وَقَدْ وُعِدَا مِنْ بَعْدِهِ جَنَّتَىْ عَدْنِ

أَمَوْلَى الْقَوَافِى كَمْ أَرَاكَ انْقِيَادُهَا ... لَكَ الْفُصَحَاءَ الْعُرْبَ كَالْعَجَمِ الْلُّكْنِ (١٤٧)

هَنِيئًا لَكَ الْبَيْتُ الْجَدِيدُ مُوَسَّدًا ... يَمِينَكَ فِيهِ بِالسَّعَادَةِ وَالْيُمْنِ

مُجَاوِرَ سَكْنٍ فِى دِيَارٍ بَعِيدَةٍ ... مِنَ الْحَىِّ سَقْيًا لِلدِّيَارِ وَلِلسَّكْنِ

طَلَبْتُ يَقِينًا مِنْ جُهَيْنَةَ عَنْهُمُ ... وَلَنْ تُخْبِرِينِى يَا جُهَيْنَ سِوَى الظَّنِّ (١٤٨)

فَإِنْ تَعْهَدِينِى لاَأَزَالُ مُسَائِلاً ... فَإِنِّىَ لَمْ أُعْطَ الصَّحِيحَ فَأَسْتَغْنِى

وَإِنَّ لَمْ يَكُنْ لِلْفَضْلِ ثَمَّ مَزِيَّةٌ ... عَلَى النَّقْصِ فَالْوَيْلُ الطَّوِيلُ مِنَ الْغَبْنِ

أَمُرُّ بِرَبْعٍ كُنْتَ فِيهِ كَأَنَّمَا ... أَمُرُّ مِنَ الْإِكْرَامِ بِالْحِجْرِ وَالرُّكْنِ

وَإِجْلاَلُ مَغْنَاكَ اجْتِهَادُ مُقَصِّرٍ ... إِذَا السَّيْفُ أَوْدَى فَالْعَفَاءُ عَلَى الْجَفْنِ (١٤٩)

لَقَدْ مَسَخَتْ قَلْبِى وَفَاتُكَ طَائِرًا ... فَأَقْسَمَ أَنْ لاَيَسْتَقِرَّ عَلَى وَكْنِ

يُقَضِّى بقَايَا عَيْشِهِ وَجَنَاحُهُ ... حَثِيثُ الدَّوَاعِى فِى الْإِقَامَةِ وَالظَّعْنِ

---

(١٤٦) قلقات الليل أراد بهن حمر الوحش لقلقها فى السير إلى الماء - الأين : الإعياء - الإدلاج : سير الليل كله القنا : الرماح - اللدن : الذى يخالط صلابته شىء من اللين - المليع : الأرض الخالية من الماء - السنابك : أطراف الحوافر - المعن : الشىء القليل الهيّن.

(١٤٧) الضمير فى « استعذبته » وفى « بعده » للردى - العدن : الإقامة - انقيادها : سهولتها وتأتيها ، والضمير فيها للقوافى - رجل ألكن : لايفصح - وفى هذا البيت تصريح بأن والد أبى العلاء كان ممن يقرض الشعر.

(١٤٨) الحىّ : القبيلة - السَّكن : أهل الدار ، واحدهم ساكن وأراد بالسكن هنا : أهل القبور - قوله : « من جهينة . . . » إشارة إلى المثل السائر « عند جهينة الخبر اليقين ».

(١٤٩) الربع : المنزل حيث كان - الحجر : ما حواه الحطيم ، وهو جانب الكعبة من جهة الشمال - مغناك : منزلك - أردى : هلك - العفاء : الهلال أو التراب - الجفن : غمد السيف - والمعنى : أنا أجلّ منزلك الذى كنت تحلّه ، وذلك اجتهاد من مقصر ، لأن السيف إذا فُقد ، فلا فائدة فى إجلال غمده .

كَأَنَّ دُعَاءَ الْمَوْتِ بِاسْمِكَ نَكْزَةٌ   فَرَتْ جَسَدِي وَالسُّمُّ يُنْفَثُ فِي أُذْنِي (١٥٠)
تَيَقَّنَ وَنَصْبِي فِي أَنِينِكَ وَاجِبٌ   كَمَا وَجَبَ النَّصْبُ اعْتِرَافًا عَلَى إِنَّ (١٥١)
ضَعُفْتَ عَنِ الإِصْبَاحِ وَاللَّيْلُ ذَاهِبٌ   كَمَا فَنِيَ الْمِصْبَاحُ فِي آخِرِ الْوَهْنِ
وَمَا أَكْثَرَ الْمُثْنِي عَلَيْكَ دِيَانَةً   لَوَ أَنَّ حِمَامًا كَانَ يَثْنِيهِ مِنْ يُثْنِي (١٥٢)
يُوَافِيكَ مِنْ رَبِّ الْعُلَى الصِّدْقُ بِالرِّضَى   بَشِيرًا وَتَلْقَاكَ الأَمَانَةُ بِالأَمْنِ
وَيَكْنِي شَهِيدُ الْمَرْءِ غَيْرِكَ هَيْبَةً   وَبُقْيَا وَإِنْ يُسْأَلْ شَهِيدُكَ لاَ يَكْنِي (١٥٣)
يُصَرِّحُ بِقَوْلٍ دُونَهُ الْمِسْكُ نَفْحَةً   وَفِعْلٍ كَأَمْوَاهِ الْجِنَانِ بِلاَ أَسْنِ
يَدٌ يَدَتِ الْحُسْنَى وَأَنْفَاسُ رَبِّهَا   تُقًى وَلِسَانٌ مَا تَحَرَّكَ بِاللَّسْنِ
فَلَيْتَكَ فِي جِفْنِي مُوَارًى نَزَاهَةً   بِتِلْكَ السَّجَايَا عَنْ حَشَايَ وَعَنْ ضِبْنِي (١٥٤)
وَلَوْ حَفَرُوا فِي دُرَّةٍ مَا رَضِيتُهَا   لِجِسْمِكَ إِبْقَاءً عَلَيْهِ مِنَ الدَّفْنِ
وَلَوْ أَوْدَعُوكَ الْجَوَّ خِفْنَا مَصِيفَهُ   وَمَشْتَاهُ وَازْدَادَ الضَّنِينُ مِنَ الضِّنِّ
فَيَا قَبْرُ وَاهٍ مِنْ تُرَابِكَ لَيِّنًا   عَلَيْهِ وَآهٍ مِنْ جَنَادِلِكَ الْخُشْنِ
لأُطْبِقْتَ إِطْبَاقَ الْمَحَارَةِ فَاحْتَفِظْ   بِلُؤْلُؤَةِ الْمَجْدِ الْحَقِيقَةِ بِالْخَزْنِ (١٥٥)

---

(١٥٠) الوكن : عش الطائر - حثيث : سريع - الدواعى : الأمور التى تعرض له فتفزعه وتمنعه من الاستقرار - الظعن : الارتحال - نكزة : لدغة من حية - فرت : قطعت .

(١٥١) نصبى : تعبى - الاعتراف عنى به الوجوب - على : بمعنى : مع - الليل ذاهب أى كان إلى الانقضاء ، ولم يبق منه الا قليل - الوهن : القطعة من الليل .

(١٥٢) الحمام : الموت - يثنيه : يصرفه - المعنى : لوكان الثناء الحسن يردّ الموت عن أحد لردّ عنك .

(١٥٣) الشهيد الذى يشهد على الإنسان فى الآخرة يكنى عن بعض أفعاله لأنها قبيحة ، وشهيدك لايكنى عن شىء من فعلك لأن كله جميل .

(١٥٤) الأمواه : جمع الماء - الأسن : التغير - يَدَى إلىّ يدًا أى صنع إلى جميلا - اللسْن : مصدر لسنه إذا أخذه بلسانه - أنفاس ربها تقى : معناه أن التقى كان قد جرى منه مجرى النفس - موارى مستور مغطى - النزاهة : البعد عن السوء - الضبن : ما تحت الذراع من الإبط .

(١٥٥) الضنين : البخيل - واه : كلمة معناها التلهف والحزن - آه : كلمة معناها التوجع والتألم - الجنادل : الحجارة - المحارة : الصدفة ، شبهه فى قبره بالدرة فى الصدفة .

فَهَلْ أَنْتَ إِنْ نَادَيْتُ رَمْسَكَ سَامِعٌ نِدَاءَ ابْنِكَ الْمَفْجُوعِ بَلْ عَبْدِكَ الْقِنِّ
سَأَبْكِي إِذَا غَنَّى ابْنُ وَرْقَاءَ بَهْجَةً وَإِنْ كَانَ مَا يَعْنِيهِ ضِدَّ الَّذِي أَعْنِي
وَنَادِبَةٌ فِي مَسْمَعِي كُلُّ قَيْنَةٍ تُغَرِّدُ بِاللَّحْنِ الْبَرِيِّ عَنِ اللَّحْنِ (١٥٦)
وَأَحْمِلُ فِيكَ الْحُزْنَ حَيًّا فَإِنْ أَمُتْ وَأَلْقَكَ لَمْ أَسْلُكْ طَرِيقًا إِلَى الْحُزْنِ
وَبَعْدَكَ لاَ يَهْوَى الْفُؤَادُ مَسَرَّةً وَإِنْ خَانَ فِي وَصْلِ السُّرُورِ فَلاَ يَهْنِي

وقال يرثي جعفر بن عليّ بن المهذّب :

أَحْسَنُ بِالْوَاجِدِ مِنْ وَجْدِهِ صَبْرٌ يُعِيدُ النَّارَ فِي زَنْدِهِ (١٥٧)
وَمَنْ أَبَى فِي الرُّزْءِ غَيْرَ الأَسَى كَانَ بُكَاهُ مُنْتَهَى جُهْدِهِ
فَلْيَذْرِفِ الْجَفْنُ عَلَى جَعْفَرٍ إِذْ كَانَ لَمْ يُفْتَحْ عَلَى نِدِّهِ (١٥٨)
وَالشَّيْءُ لاَ يَكْثُرُ مُدَّاحُهُ إِلاَّ إِذَا قِيسَ إِلَى ضِدِّهِ
لَوْلاَ غَضَى نَجْدٍ وَقُلاَّمُهُ لَمْ يُثْنَ بِالطِّيبِ عَلَى رَنْدِهِ (١٥٩)
لَيْسَ الَّذِي يُبْكَى عَلَى وَصْلِهِ مِثْلَ الَّذِي يُبْكَى عَلَى صَدِّهِ
وَالطَّرْفُ يَرْتَاحُ إِلَى غُمْضِهِ وَلَيْسَ يَرْتَاحُ إِلَى سُهْدِهِ
كَانَ الأَسَى فَرْضًا لَوَ أَنَّ الرَّدَى قَالَ لَنَا افْدُوهُ فَلَمْ نَفْدِهِ (١٦٠)

---

(١٥٦) الرمس : القبر – العبد القنّ : الذى مُلك هو وأبواه – الورقاء : الحمامة – النادبة : التى تندب الميت وتتفجع عليه – مسمعى : أذنى – قينة : مغنية – اللحن الأول من الغناء ، واللحن الثانى من الخطأ فى الإعراب .

(١٥٧) الوَجد : ما يجده الإنسان فى قلبه من حزن أو طرب .

(١٥٨) ذرفت العين : تناثر دمعها – النّدّ : المِثل .

(١٥٩) الغضى : شجر ترعاه الإبل وتستتر فيه الذئاب – القُلّام : نبت كريه الرائحة – الرَّند : شجر طيب الريح .

(١٦٠) الطرف : العين – الارتياح : الطرب والخفّة إلى الشىء – الغُمض : النوم – السُّهد : السهر – الأسى : الحزن – الردى : الهلاك .

هَلْ هُوَ إلاَّ طَالِعٌ لِلْهُدَى ... سَارَ مِنَ التُّرْبِ إِلَى سَعْدِهِ

فَبَاتَ أَدْنَى مِنْ يَدٍ بَيْنَنَا ... كَأَنَّهُ الْكَوْكَبُ فِى بُعْدِهِ

يَا دَهْرُ يَا مُنْجِزَ إِيعَادِهِ ... وَمُخْلِفَ الْمَأْمُولِ مِنْ وَعْدِهِ

أَىُّ جَدِيدٍ لَكَ لَمْ تُبْلِهِ ... وَأَىُّ أَقْرَانِكَ لَمْ تُرْدِهِ (١٦١)

تَسْتَاسِرُ الْعِقْبَانَ فِى جَوِّهَا ... وَتُنْزِلُ الأَعْصَمَ مِنْ فِنْدِهِ (١٦٢)

أَرَى ذَوِى الْفَضْلِ وَأَضْدَادَهُمْ ... يَجْمَعُهُمْ سَيْلُكَ فِى مَدِّهِ

إِنْ لَمْ يَكُنْ رُشْدُ الْفَتَى نَافِعًا ... فَغَيُّهُ أَنْفَعُ مِنْ رُشْدِهِ

تَجْرِبَةُ الدُّنْيَا وَأَفْعَالِهَا ... حَثَّتْ أَخَا الزُّهْدِ عَلَى زُهْدِهِ

والْقَلْبُ مِنْ أَهْوَائِه عَابِدٌ ... مَا يَعْبُدُ الْكَافِرُ مِنْ بُدِّهِ

إِنَّ زَمَانِى بِرَزَايَاهُ لِى ... صَيَّرَنِى أَمْرَحُ فِى قِدِّهِ (١٦٣)

كَأَنَّنَا فِى كَفِّهِ مَالُهُ ... يُنْفِقُ مَا يَخْتَارُ مِنْ نَقْدِهِ

لَوْ عَرَفَ الإِنْسَانُ مِقْدَارَهُ ... لَمْ يَفْخَرِ الْمَوْلَى عَلَى عَبْدِهِ

أَمْسِ الَّذِى مَرَّ عَلَى قُرْبِهِ ... يَعْجِزُ أَهْلُ الأَرْضِ عَنْ رَدِّهِ

أَضْحَى الَّذِى أُجِّلَ فِى سِنِّهِ ... مِثْلَ الَّذِى عُوجِلَ فِى مَهْدِهِ

وَلاَ يُبَالِى الْمَيْتُ فِى قَبْرِهِ ... بِذَمِّهِ شُيِّعَ أَم حَمْدِهِ

وَالْوَاحِدُ الْمُفْرَدُ فِى حَتْفِهِ ... كَالْحَاشِدِ الْمُكْثِرِ مِنْ حَشْدِهِ

---

(١٦١) الإيعاد لا يستعمل إلا فى الشر، والوعد يستعمل فى الخير والشر – لم تبله، من بلى يبلى أى رثّ أو فنى – تُرد: تهلكه، من الردى، وهو الهلاك.

(١٦٢) العقبان: جمع العُقاب، وهو طائر كاسر – الجوّ: ما بين السماء والأرض – الأعصم: الوعل – الفِند: القطعة العظيمة من الجبل.

(١٦٣) البُدّ: الصنم – المرح: إفراط النشاط – القِدّ: ما يُقَدّ من الجلد، ويشدّ به الأسير.

وَحَالَةُ الْبَاكِي لآبَائِهِ ... كَحَالَةِ الْبَاكِى عَلَى وُلْدِهِ[١٦٤]

مَا رَغْبَةُ الْحَيِّ بِأَبْنَائِهِ ... عَمَّا جَنَى الْمَوْتُ عَلَى جَدِّهِ

وَمَجْدُهُ أَفْعَالُهُ لاَ الَّذِى ... مِنْ قَبْلِهِ كَانَ وَلاَ بَعْدِهِ

لَوْلاَ سَجَايَاهُ وَأَخْلاَقُهُ ... لَكَانَ كَالْمَعْدُومِ فى وُجْدِهِ

تَشْتَاقُ أَيَّارَ نُفُوسُ الْوَرَى ... وَإِنَّمَا الشَّوْقُ إِلَى وَرْدِهِ[١٦٥]

تَدْعُو بِطُولِ الْعُمْرِ أَفْوَاهُنَا ... لِمَنْ تَنَاهَى الْقَلْبُ فى وُدِّهِ

يُسَرُّ إِنْ مُدَّ بَقَاءٌ لَهُ ... وَكُلُّ مَا يَكْرَهُ فِى مَدِّهِ

أَفْضَلُ مَا فِى النَّفْسِ يَغْتَالُهَا ... فَنَسْتَعِيذُ اللهِ مِنْ جُنْدِهِ[١٦٦]

وَآفَةُ الْعَاشِقِ مِنْ طَرْفِهِ ... وَآفَةُ الصَّارِمِ مِنْ حَدِّهِ

كَمْ صَائِنٍ عَنْ قُبْلَةٍ خَدَّهُ ... سُلِّطَتِ الأَرْضُ عَلَى خَدِّهِ

وَحَامِلٍ ثِقْلَ الثَّرَى جِيدُهُ ... وَكَانَ يَشْكُو الضَّعْفَ مِنْ عِقْدِهِ

وَرُبَّ ظَمْآنَ إِلَى مَوْرِدٍ ... وَالْمَوْتُ لَوْ يَعْلَمُ فِى وِرْدِهِ[١٦٧]

وَمُرْسِلِ الْغَارَةِ مَبْثُوثَةً ... مِنْ أَدْهَمِ اللَّوْنِ وَمِنْ وَرْدِهِ

يَخُوضُ بَحْرًا نَقْعُهُ مَاؤُهُ ... يَحْمِلُهُ السَّابِحُ فِى لِبْدِهِ[١٦٨]

أَشْجَعُ مَنْ قَلَّبَ خَطِّيَّةً ... عَلَى طَوِيلِ الْبَاعِ مُمْتَدِّهِ

---

(١٦٤) الحاشد : الذى يجمع الجيش ليعينه على القتال - الوَلد والوُلد سواء ، ويكونان واحدًا وجمعًا .

(١٦٥) سجاياه : طبائعه - الوجد : الغنى والمقدرة ، وفيه ثلاث لغات : الضمّ والفتح والكسر - أيّار : كلمة سريانية ، وهو شهر بابه من شهور الربيع .

(١٦٦) يغتالها : يهلكها ويذهب بها .

(١٦٧) الثرى : التراب - الجيد : العنق - الثِقْل : الشيء المثقل - الوِرد: بمعنى الورود أو المورد وهو المنهل .

(١٦٨) الغارة : الخيل المغيرة - مبثوثة : مفرّقة - الأدهم : الأسود - الوَرد : الأحمر - النقع : الغبار - السابح : الفرس - اللّبد : ما يوطّأ به للسَّرج ، ويسمّى السرج أيضا لِبْدًا .

يَرَى وُقُوعَ الزُّرْقِ فِى دِرْعِهِ ... مِثْلَ وُقُوعِ الزُّرْقِ فِى جِلْدِهِ (١٦٩)

لاَيَصِلُ الرُّمْحُ إِلَى طِرْفِهِ ... ولاَ إِلَى الْمُحْكَمِ مِنْ سَرْدِهِ

يُلْقَى عَلَيْهِ الطَّعْنُ إِلْقَاءَكَ الْـ ... ـحَسْبَ عَلَى الْمُسْرِعِ فى عَقْدِهِ (١٧٠)

بِلَحْظَةٍ مِنْهُ فَمَا دُونَهَا ... يَرُدُّ غَرْبَ الْجَيْشِ عَنْ قَصْدِهِ

أَمْهَلَهُ الدَّهْرُ فَأَوْدَى بِهِ ... مُبَيِّضُهُ يُحْدَى بِمُسْوَدِّهِ (١٧١)

فَيَا أَخَا الْمَفْقُودِ فى خَمْسَةٍ ... كَالشُّهْبِ مَا سَلاَّكَ عَنْ فَقْدِهِ

جَاءَكَ هَذَا الحُزْنُ مُسْتَجْدِيًا ... أَجْرَكَ فى الصَّبْرِ فَلاَ تُجْدِهِ (١٧٢)

سَلِّمْ إِلَى اللهِ فَكُلُّ الَّذِى ... سَاءَكَ أَوْ سَرَّكَ مِنْ عِنْدِهِ

لاَيَعْدَمِ الأَسْمَرُ فى غابِهِ ... حَتْفًا ولاالأبيضُ فى غِمْده (١٧٣)

إِنَّ الَّذى الوحْشَةَ فى داره ... تُؤْنِسهِ الرحْمَةُ فى لَحْده

لا أُوحِشَتْ دارُكَ من شمْسِها ... ولا خَلاَ غابُك من أُسْده

وقال على لسان الوليد البلخى :

كمْ بلدةٍ فارقْتُها ومعاشِرِ ... يُذْرُونَ من أسفٍ علىَّ دُموعا

وإذا أضاعتْنى الخطوبُ فلن أرَى ... لودادِ إخْوانِ الصَّفاءِ مُضِيعا

خاللْتُ تَوْدِيعَ الأَصادقِ للنَّوَى ... فمتى أُوَدِّعُ خِلِّىَ التَّوْدِيعا

---

(١٦٩) خطيّة : رماح منسوبة إلى خطّ عُمان - على طويل الباع أى على فرس هذه صفته - الزرق : الأسنّة الصافية.

(١٧٠) الطرف : الفرس الكريم الطرفين - السرد : نسج الدرع بالحلق ، ثُمّ سمّيت الدرع سردًا بالمصدر - الحسْب : الحساب ، وهو مصدر حسَب المال .

(١٧١) غرْب كلّ شيء : حدّه - الجيش : العسكر ، من قولهم : جاشت القدر تجيش جيشًا ، إذا فارت ، شبّهت حركته بحركة القدر عند غليانها - أودى به : أهلكه بعد الإمهال - المبيّض يعنى به النهار ، وبالمسودّ : الليل .

(١٧٢) فى خمسة أى فى خمسة أولاد المفقود ما يسلّيك عنه - مستجديا : مستوهبا مستعطيا ، ويقال : أجديته إذا أعطيته.

(١٧٣) الأسمر : الرمح - الأبيض : السيف - الغاب : جمع غابة ، وهى الأجمة - الحتف : المنيّة .

وقال يصف الشمعة :

وصَفْراءَ لَونَ التِّبْرِ مِثْلى جَلِيدةٌ ... على نُوَبِ الأيَّامِ والعِيشةِ الضَّنْك
تُريكَ ابتسامًا دائمًا وتجلُّدًا ... وصَبْرًا على ما نابَها وهْى فى الهُلْك
ولو نَطَقَتْ يومًا لقالتْ أظنُّكم ... تَخالون أنِّى مِن حِذارِ الرَّدَى أبْكى
فلا تَحْسَبُوا دَمْعى لوجْدٍ وَجَدْتُه ... فقدْ تَدْمَع الأحْداقُ مِن كَثْرة الضِّحْك

* * *

ومما ورد فى لزوم ما لا يلزم لأبى العلاء المعرى ، وتظهر فيه نزعته إلى التشاؤم من أعمال الإنسان :

أولو الفضل فى أوطانهم غرباءُ ... تِشذّ وَتَنأى عنهم القُرَباء
وحسبُ الفتى من ذلّة العيش أنه ... يروح بأدنى القوتِ وهو حِباء (١٧٤)
وما بعد مرّ الخمسَ عشرةَ من صَبا ... ولا بعد مرّ الأربعين صَباء (١٧٥)
تثاءب عمروٌ إذ تثاءبَ خالد ... بعدوى فما أعدتنى الثؤباء (١٧٦)
وزهّدنى فى الخلق معرفتى بهم ... وعلمى بأن العالمينَ هَباءُ
إذا نزل المقدار لم يك للقطا ... نهوض ولا للمُخدرات إباء (١٧٧)
على الوُلد يجنى والد ولو انهم ... ولاةٌ على أمصارهم خطباء

---

(١٧٤) تشذّ : تنفرد عن الجمهور - تنأى : تبعد - الحباء : العطاء .

(١٧٥) يقال صَبِى يَصْبَى صَبًا وصَباء أى فَعَل فِعل الصَّبِىّ ، والصباء أيضا بمعنى الميل والحنين ، أراد أن يقول : إذا تجاوز الإنسان الأربعين فينبغى له أن يصرف نفسه عن الشهوات ويردعها عن المحرمات .

(١٧٦) الثؤباء : التثاؤب ، يقول إنه لم يتزوج فانقطع فيه حبل النسل ، والناس يتناسلون بالعدوى كما يتثاءبون بها ، أما هو فبقى سليما منها لم تعده محبة التناسل .

(١٧٧) المقدار : القدر - القطا : نوع من اليمام - المخدرات : الأسود فى آجامها - الإباء : الامتناع ، يقول : إذا نزل القدر ضعف القطا عن النهوض على شهرته بسرعة الطيران وشدة حذره ، ولم تجد ذوات الخدر المستترات سبيلا لمخالفة حكمه .

وزادك بعــدًا مــن بنيــك وزادهـــم عليـــك حُقـــودًا أنهـــم نجبـــاء

إذا كــان علــم النــاس ليــس بنــافـعٍ ولا دافــع فــالخســـر للعلمـــاء (١٧٨)

قضــى الله فينــا بــالــذى هــو كــائنٌ فتــمّ وضــاعــت حكمــة الحكمــاء

وهــل يــأبــق الانســان مــن ملـك ربّــه فيخـــرجَ مـــن أرض لــــه وسمـــاء

وقــد بــانَ أنّ النحــس ليــس بغــافــل لــــه عمـــلٌ فــى أنجـــم الفهمـــاء

ومـــن كـــان ذا جــود وليــس بمكثــر فليــس بمحســوب مــن الكــرمــاء (١٧٩)

أفيقـــوا أفيقـــوا يـــا غـــواةُ فـــإنمـــا ديــانــاتكــم مكــرٌ مــن القــدمــاء (١٨٠)

أرادوا بهــا جمــع الحطــام فــأدركــوا وبـــادوا ومـــاتـــت سنّـــة اللـــؤمـــاء

يقــولــون إن الــدهــر قــد حــان مــوتــه ولـــم يبـــقَ فـــى الأيـــام غيـــر ذَمـــاء

وقــد كــذبــوا مــا يعــرفــون انقضــاءه فــلا تسمعــوا مــن كــاذب الــزعمــاء (١٨١)

* * *

يـــرتجـــى النـــاس أن يقـــوم إمـــامٌ نـــاطــق فــى الكتيبــة الخــرســاء (١٨٢)

فـــإذا مـــا أطعتـــه جلـــب الـــرحمـــة عنـــــد المسيـــــر والإرســـــاء

---

(١٧٨) الخسر: الهلاك - أراد أن العلم إذا لم يكن للعمل به فالهلاك لأهله .

(١٧٩) المكثر: الكثير المال .

(١٨٠) قوله « دياناتكم » يريد به النظم والطقوس الخارجية التى هى من وضع الإنسان ، وكان بعض القدماء من أهل الكتاب يمكرون بأتباعهم ، قال تعالى : ﴿ فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ﴾ .

(١٨١) الذماء : بقية الروح فى الجسد - حان موته أى قرب انقضاؤه ، وهذا كذب ممن يزعم ذلك ، فإنه من العلم الذى استأثر به الله تعالى ، ولم يطلع عليه أحد .

(١٨٢) الكتيبة الخرساء : الجيش الذى لا يسمع له صوت لكثرة الأصوات فيه - وقوله : « إمام ناطق » إشارة إلى القول بظهور المهدى الإمام المنتظر الذى يملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا ، وهو ناطق لأنه يدعو إلى نفسه ، أما سائر الأئمة الذين يعظمون فهم صامتون عن إقامة الدعوة حتى يظهر المهدى الأعظم .

إنمــا هــذه المـــذاهــب أسبــابٌ لجــذب الـدنيـا إلـى الـرؤسـاء
فـانفـردْ مـا استطعت فـالقـائلُ الصـا دق يضحـى ثِقْـلاً علـى الجلسـاء
يحسُـــن مـــرأى لبنـــى آدمٍ وكلهـم فـى الـذوق لايعــذب
مـــا فيهـم بَــرٌ ولانـاسـكٌ إلاّ إلـى نفـعٍ لـه يجـذب
أفضـلُ مـــن أفضلهــم صخــرةٌ لاتظلــم النـــاس ولاتكــذب

* * *

وقال :

مــن لَــى أن أقيـم فـى بلـدٍ أذكـر فيـه بغيـر مـا يجـب
يُظَـنّ بـى اليُسـرُ والـديـانـةً والعلـم وبينـى وبينهـا حُجب
كــلّ أمــورى علـىَ واحـدة لاصفَــرٌ يُتَّقــى ولارجـب (١٨٣)
أقــررتُ بـالجهـل وادّعـى فَهَمـى قــومٌ فـأمـرى وأمـرهـم عجـب

* * *

وقال :

قـد قيـلَ إن الـرُّوح تـأسـفُ بعـدَمـا تنـأى عـن الجسـدِ الـذى غَنَيـتِ بـه
إنْ كـان يصْحَبُهـا الحجـى فلعلّهـا تـذرى وتفطـنِ للـزّمـان وَعتْبِـه
أوْ لافكـمْ هَـذيـان قـومِ غـابـرِ فـى الكُتْـب ضاعَ مِـدادُه فـى كتْبِـه (١٨٤)

* * *

---

(١٨٣) صفر : ثانى الشهور العربية ، كانت تتشاءم به العرب ، حتى جاء الإسلام فنهى عن ذلك فيما نهى عنه من عادات الجاهلية ، ورجب : السابع منها ، وهو من الأشهر الحرم ، وكانوا يتقون القتال فيه ، ويقال فيه : رجب مضر ، لأنهم كانوا أشد تعظيما له .

(١٨٤) غنيت بـه : من غنى بالمكان أى أقام بـه – الغابر : من الأضداد ، يكون لمعنى البقاء كما هنا ، ويكون لمعنى الذهاب – ضاع : من الضياع ، وهو الفقد – كتبه أى كتابته .

وقال :

أنـــا صـــائمٌ طـــولَ الحيـــاة وإنمـــا فطـــرى الحمـــــامُ ويـــومَ ذاكَ أعيّـــدُ

لـــونـــان مـــن ليـــل وصبـــحِ لـــونَّـــا شِعَـــرى وأضعفنـــى الـــزمـــانُ الأيِّـــد

والنـــاسُ كـــالأشعـــارِ ينطـــقُ دهـــرُهـــم بهـــــم فمطلـــــقٌ معشـــــرٍ ومقيّـــــد

قـــالـــــوا فـــلانٌ جيّـــدٌ لصـــديقـــه لايَكـــذبـــوا مـــا فـــى البـــريّـــةِ جَيّـــد

فـــأميـــرُهـــم نـــال الإمـــارة بـــالخنـــا وتقيّهـــــم بصـــــلاتـــــه متصيّـــــد

كـــنْ مَـــنْ تشـــاء مهجّنًـــا أو خـــالصًـــا وإذا رزقـــتَ غنًـــى فـــأنـــت السيـــد (١٨٥)

* * *

وقال :

لاتبـــدأونـــى بـــالعـــداوة منكـــم فمسيحكـــم عنـــدى نظيـــر محمـــد (١٨٦)

أيغبـــث ضَـــوْءُ الصبـــح نـــاظـــرَ مُـــدْلـــجٍ أم نحـــن أجمـــعُ فـــى ظـــلامٍ سَـــرْمَـــد

إن السيـــوفَ تُـــرَاحُ فـــى أغمـــادهـــا وتَظّـــل فـــى تَعـــبٍ إذا لـــم تغمـــد

رُوحٌ إذا اتصلـــتْ بشخـــص لـــم يـــزلْ هـــو وهْـــى فـــى مَـــرَضـــه العنـــاء المكمِـــد

إن كُنـــتِ مـــن ريـــحٍ فيـــا ريـــح اسكنـــى أو كنـــت مـــن لهـــبٍ فيـــا لهـــبُ اخمـــدُ

جُـــرْيـــا غـــراب وأفســـدْ لـــن تـــرى أحـــدًا إلا مسيئًـــا وأىّ الخلـــق لـــم يجُـــرِ ؟

فخـــذْ مـــن الـــزرع مـــا يكفيـــك عـــن عُـــرُضٍ وحـــاول الـــرزْقَ فـــى العـــالـــى مـــن الشجـــر

---

(١٨٥) الأيِّد : القوىّ - المطلق من الشعر : ما كان حرف الروىّ منه محركا ، والمقيد بخلافه - الهجنة فى الناس والخيل من كان أبوه عربيا وأمّه ليست كذلك ، والمقرف العكس ، والخالص : من كان أبواه عربيان .

(١٨٦) المسيح نظير محمد - صلوات الله عليهما - من حيث النبوّة ، ويقول الله تعالى ﴿ وتلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض . . . ﴾ .

ومـا ألـومـك بـل أوليـك معـذرةً إذا خطفـتَ ذبـال القوم فـى الحجـر (١٨٧)
فـآلُ حـوّاء راعـوا الأسـد مخـدِرةً ولـم يغـادوا بسلـمٍ ربّـة الـوُجُـرِ (١٨٨)
ومـنْ أتـاهـم بظلـم فهـو عِنْـدَهُـمُ كجـالـبِ التمر مُغترًا إلـى هجَرَ (١٨٩)
هـم المعـاشـر ضـامـوا كـلّ مـن صحبـوا مـن جنسهـم وأبـاحـوا كـل مُحتجَـر
لـو كنـتَ حـافـظَ أثمـارٍ لهـم ينَعـت ثـمّ اقتـربـتَ لمـا أخلَـوك مـن حجَـر

* * *

وقـال :

العـالـم العـالـى بـرأى معـاشِـرٍ كـالعـالـم الهـاوى يُحسّ ويعلـم (١٩٠)
زعمـت رجـالٌ أنّ سيّـاراتـه تسِـقُ العقـولَ وانهـا تتكلـمُ
فهـل الكـواكـبُ مثلنـا فـى ديننـا لا يتّفقـنَ فهـائدٌ أو مسلـم ؟
والنـور فـى حكـم الخـواطِـر محـدث والأوّلـىُّ هـو الـزمـانُ المظلـم
والخيـر بيـن النـاس رَسـمٌ داثِـرٌ والشـرّ نهـجٌ والبـريـةُ معَلـم
طبـعٌ خُلقَـتَ عليـه ليـس بـزائل طـول الحيـاة وآخـر متعلـم
إن جـارَت الأمـراءُ جـاء مـؤمّـرٌ أغتـى وأجـور يستضيـمُ ويكلِـمُ (١٩١)
إن شئـت أن تُكفـى الحِمـام فـلا تعـش هـذى الحيـاة إلـى المنيّـة سلّـمُ
أحسـنْ بـدنيـا القـوم لـو كـان الفتـى لا يُقتضـى وأديمـه لا يحلـمُ (١٩٢)

---

(١٨٧) ذبال القوم : جمع ذبالة ، وهى الفتيلة .
(١٨٨) الوجر : جمع الوجار، وهو جحر الأسد وغيره - والمعنى أنهم أخافوا الأسد فى عرينها ،، وأقلقوا سائر الحيوانات فى أوجرتها .
(١٨٩) هجر : بلد مشهور بتمره فى منطقة « الأحساء » .
(١٩٠) يريد بالعلم العالى عالم الأفلاك ، والعالم الهاوى عالم الإنسان والطبيعة .
(١٩١) يستضيم : يظلم ويُذل - يكلم : يجرح ويُدمى .
(١٩٢) أديمه لا يحلم أى جلده لا يفسد ، والمعنى : لو كان الإنسان لا يصير إلى زوال .

يتشبــهُ الطـــاغـــى بطـــاغٍ مثلـــه		وأخـــو السعـــادة بينهـــمْ مـــنْ يبلـــم
فـــى النـــاس ذُو حلـــمٍ يسفِـــه نفســـه		كيمـــا يهـــابَ وجـــاهـــلٌ يتحلّـــمُ
وكـــلاهمـــا تعِـــبٌ يحـــاربُ شيمـــةً		غلبـــتْ فـــآضَ بحرْبهـــا يتـــألـــمُ (١٩٣)

* * *

وقال :

أركـــانُ دنيـــانـــا غـــرائزُ أربـــعٌ		جُعلـــتْ لمـــن هـــو فـــوقنـــا أركـــانـــا
والله صيّـــــــر للبـــــــلاد وأهلهـــــا		طـــرفيـــن : وقتًـــا ذاهبًـــا ومكـــانـــا
والـــدهـــر لايُـــدرى بمـــا هـــو كـــائن		فيـــه فكيـــف بـــلام فيمـــا كـــانـــا
والمـــرءُ ليـــس بـــزاهـــد فـــى غـــارةٍ		لكنـــــه يتـــرقـــــب الإمكـــــانـــــا
والحـــىّ تخلـــق جسمـــةَ حـــركـــاتُـــه		فيكـــلّ وهـــو يحـــاذر الإسكـــانـــا
نبكـــى ونضحـــك والقضـــاء مسلّـــطٌ		مـــا الـــدهـــر أضحكنـــا ولاأبكـــانـــا
نشكـــو الـــزمـــان ومـــا أتـــى بجنـــايـــةٍ		ولـــو استطـــاع تكلّمـــاً لشكـــانـــا
متـــوافقيـــن علـــى المظـــالـــم ركّبـــت		فينـــا وقـــارب شـــرَّنـــا أزكـــانـــا
يمضـــى بنـــا الفتيـــانِ مـــا أخـــذا لنـــا		نفسًـــا علـــى حـــالٍ ولاتـــركـــانـــا (١٩٤)

* * *

وقال :

قـــد اختـــلّ الأنـــام بغيـــر شـــكّ		فجِـــدُّوا فـــى الـــزمـــانِ أو العبـــوهُ
ووَرّوا العيـــش فـــى زمـــن خـــؤُون		وقـــدَ عـــرفـــوا أذاهُ وجـــرّبـــوهُ
وينشـــأ نـــاشـــىء الفتيـــان منّـــا		علـــى مـــا كـــان عـــوّده أبـــوه (١٩٥)

---

(١٩٣) آض : رجع .
(١٩٤) الفتيان : الليل والنهار .
(١٩٥) الناشىء : الحدث اليافع .

وما دان الفتى بحجًى ولكن ... يعلّمه التديّنَ أقربوه
لعلّ الموت خيرٌ للبرايا ... وإن خافوا الردى وتهيّبوه
أطاعوا ذا الخداع وصدّ قوه ... وكم نصح النصيحُ فكذّبوه
وجارتَنا شرائعُ كلّ قومٍ ... على آثار شيءٍ رتّبوه
وغيّر بعضهم أقوال بعضٍ ... وأبطلتِ النهى ما أوجبوه
فلا تفرحْ إذا رُجِّبت فيهم ... فقد رفعوا الدنيء ورجّبوه (١٩٦)
صحبنا دهرنا داهرًا - وقِدمًا ... رأى الفضلاء أن لا يصحبوه
وغيظَ - به بنوهُ وغيظ منهم ... فعذّبَ ساكنيه وعذّبوهُ
وهل تُرجى الكرامة من أوانٍ ... وقد علبَ الرجالَ مُغلبّوه
وهل من وقتهم أبغى وأطغى ... على أيّ المذاهب قلّبوه
أجلّوا مكثرًا وتنصّفوه ... وعابوا من أَقَبَّ وأنّبوه (١٩٧)

أخطأ من جهتين :

رُوَيْدَكَ قد غُررتَ وأنتَ حرٌّ ... بصاحِبِ حيلةٍ يَعظ النساءَ (١٩٨)
يُحَرِّمُ فيكم الصَّهْباءَ صُبْحًا ... ويشربُها على عَمْدٍ مسارَ (١٩٩)
تَحَسَّاها فمن مَزْجٍ وصرفٍ ... كَأنَّما وردَ الحساء (٢٠٠)
يقولُ لكم : غَدَوْتُ بِلا كساءٍ ... لِذّاتها رهنَ الِكساء
إذا فعل الفتى ما عنهُ يَنْهى ... فمن جِهتَيْن - لاجهةٍ - أساء (٢٠١)

---

(١٩٦) النّهى : العقول ، والمفرد : نهيه - رجّبه : عظّمه وهابه .
(١٩٧) المكثر : الغنيّ - تنصّفوه أى خدموه - أقلّ : افتقر .
(١٩٨) رويدك : أى أمهلْ ، والأصل فيه : رُوَيدًا أى مهلاً .
(١٩٩) الصهباء : من أسماء الخمر .
(٢٠٠) تحسّاها : شربها شيئا بعد شيء - العَلّ : الشرب بعد الشرب - الحساء : اسم مكان بعينه وهو مياه لبني فزارة بين الربذة ونخل .
(٢٠١) هذا البيت قريب من قول أبي الأسود الدؤلي :

لاتَنْهَ عَن خُلُقٍ وتَأْتِي مِثْلَه ... عارٌ عَلَيْكَ إذا فَعَلْتَ عَظِيم

ابن زيدون

(٣٩٤ - ٤٦٣ هـ / ١٠٠٤ - ١٠٧١ م)

أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي ، خاتمة شعراء بنى مخزوم ، ولد بقرطبة ، ونشأ مكبّا على العلم ، وقد تخرّج فى ذلك على أبيه الفقيه الكبير ، وعلى صديق أبيه أبي العباس بن ذكوان عالم قرطبة الأول فى عصره ، ودرس النحو والادب واللغة على أبى بكر مسلم بن أحمد ، ثم ترددعلى علماء الجامعة الكبيرة فى قرطبة ، فصار علما من أعلام الفكر والأدب .

ولما سقطت دولة الأمويين وقامت دولة بنى جهور ، قرّبه مؤسسها أبو الحزم ، ولقّبه بذى الوزارتين ، ثم اتصل بالخليفة المستكفى ، وهام حبّا فى بنته « ولادة » وكانت من أهل الأدب والشعر والموسيقى ، وبعد أن توفى والدها فتحت بيتها للأدبار والشعراء ، قال ابن بسام : « وكان مجلسها بقرطبة مُنتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعبًا لجياد النظم والنثر ، يَعْشو أهل الأدب إلى ضوء غُرّتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عِشرتها ، إلى سهولة حجابها وكثرة مُنْتابها . . . » ، ثم تبّدلت الأحوال ، فهجرت ولّادة ابن زيدون ، ويقال إن سبب ذلك أنه عشق إحدى جواريها أو أنه انتقد بعض أشعارها أو أنها وقعت فى هوى الوزير أبى عامر بن عبدوس ، فذاق ابن زيدون تباريح الحسرة ، ولم تنفعه توسلاته ، وتهكّم بابن عبدوس فى رسالة عرفت « بالرسالة الهزلية » كتبها على لسان ولّاده .

ولما توفى أبو الحزم جهور اتّصل ابن زيدون بابنه أبى الوليد ، فاتخذه وزيرا له وأوفده فى عدّة سفارات إلى ملوك الطوائف، ثم اتصل ابنه بالمعتضد صاحب إشبيلية ، فولّاه وزارته ، ولما توفى المعتضد زاد ابنه المعتمد فى تكريمه إلى أن توفى .

وكان شاعرا مجيدا حسن النظم ، له ديوان أكثره فى مديح أبى الحزم وابنه ووصف لبعض المواقع والأحوال ، وأشهر قصائده نونيّته التى بعث بها إلى ولّادة .

واشتهر أيضا بالإنشاء والكتابة ، وله « الرسالة الهذلية » التى سبقت الإشارة إليها ، « والرسالة الجدية » التى استعطف بها أبا الحزم حين سجنه لما قيل من استيلائه على عقارلبعض الموالى لاشتراكه ضده فى مؤامرة فاشلة .

* * *

أرسل ابن زيدون هذه القصيدة إلى ولّادة بنت المستكفي ، التي كان يتعشقها ، يسألها فيها أن تدوم على عهده ، ويتحسّر على أيامها الماضية ، مصوّرا مأساة من أروع مآسي الحبّ وأشجاها :

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلاً مِنْ تَدانِينَا ... وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجافِينَا
أَلاَّ ! وَقَدْ حَانَ صُبْحُ البَيْنِ ، صَبَّحَنَا ... حَيْنٌ ، فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ داعِينا (١)
مَنْ مُبْلِغُ المُلْبِسِينَا ، بِانْتِزاحِهِمُ ، ... حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لا يَبْلَى وَيُبْلِينَا
أَنَّ الزَّمانَ الَّذِي مَا زالَ يُضْحِكُنَا ، ... أُنْسًا بِقُرْبِهِمُ ، قَدْ عَادَ يُبْكِينَا
غِيظَ العِدَى مِنْ تَسَاقِينَا الهَوَى فَدَعَوْا ... بِأَنْ نَغَصَّ ، فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا (٢)
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا ، ... وانْبَتَّ مَا كانَ مَوْصُولاً بِأَيْدِينَا (٣)
وَقَدْ نَكُونُ ، وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا ، ... فَالْيَوْمَ نَحْنُ ، وما يُرْجَى تَلاقِينا
يالَيْتَ شِعْرِي ، وَلَمْ نُعْتِبْ أَعادِيَكُمْ ، ... هَلْ نَالَ حَظًّا مِنَ العُتْبَى أَعادِينا (٤)
لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الوَفاءَ لَكُمْ ... رَأْيًا ، وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينا
ما حَقُّنَا أَنْ تُقِرُّوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ ... بِنَا ، وَلاَ أَنْ تَسُرُّوا كاشِحًا فِينَا (٥)
كُنَّا نَرَى اليَأْسَ تُسْلِينَا عَوارِضُهُ ، ... وَقَدْ يَئِسْنَا فما لِلْيَأْسِ يُغْرِينَا
بِنْتُمْ وَبِنَّا ، فما ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا ... شَوْقًا إِلَيْكُمْ ، وَلاَ جَفَّتْ مَآقِينَا (٦)
نَكَادُ ، حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمائِرُنَا ، ... يَقْضِي عَلَيْنَا الأَسَى لَوْلاَ تَأَسِّينَا (٧)

---

(١) حان : قرب - البينُ : الفراق - الحيْن : الموت - داعينا : الذي يرفع صوته بالبكاء علينا .
(٢) نغصّ ، يقال غُصّ بالماء : أي وقف في حلقه أو شرق به .
(٣) انبتّ : انقطع .
(٤) تُعتب : تُرضي - العُتْبى : الرضا بعد السخط .
(٥) الكاشح : من أضمر العداوة .
(٦) بِنْتم : بعدتم - الجوانح : الضلوع - مآقينا : جمع مأق ، وهو مجرى الدمع من العين ، أو مقدّم العين ، أو مؤخّرها .
(٧) الأسى : الحزن - تأسّينا : تعزّينا .

حـالـتْ لِفَقْـدِكُـمُ أيّـامُنـا ، فَغَـدَتْ سُـودًا ، وَكَـانَـتْ بِكُـمْ بِيضًـا لَيَـالِينَـا (٨)
إذْ جانِـبُ العَيْـشِ طَلْـقٌ مِنْ تَـألُّفِنَا ، وَمَـرْبَـعُ اللَّهْـوِ صافٍ مِـنْ تَصَـافِينَـا
وإذْ هَصَـرْنَـا فُنُـونَ الـوَصْـلِ دانِيَـةً قِطَـافُهَـا ، فَجَنَيْنَـا منــه مـاشِينَـا (٩)
لِيُسْـقَ عَهْـدُكُـمُ عَهْـدُ السُّـرُورِ فما كُنْتُـمْ لأرْوَاحِنَـا إلا رَيَـاحِينَـا
لاتَحْسَـبُوا نَـأْيَكُـمْ عَنَّـا يغَيِّـرُنـا ، أنْ طَـالَمَـا غَيَّـرَ النَّـأْيُ المُحِبِّينَـا ! (١٠)
وَاللهِ مــا طَلَبَــتْ أهْــوَاؤُنــا بَــدَلاً مِنْكُـمْ ، ولاانصَـرَفَـتْ عَنْكُـمْ أمـانِينَـا
يـا سـارِيَ البَـرْقِ غـادِ القَصْـرَ واسْـقِ بِـهِ مَـنْ كانَ صِـرْفَ الهَـوَى والوُدِّ يَسْقِينَـا (١١)
وَاسْـألْ هُنَـالِـكَ : هَـلْ عَنَّـى تَـذَكُّـرُنَـا إلْفًـا ، تَـذَكُّـرُهُ أمْسَـى يُعَنِّينَـا ؟ (١٢)
ويـا نَسِيـمَ الصَّبـا بَلِّـغْ تَحِيَّتَنَـا مَـنْ لَـوْ عَلَى القُـرْبِ حَيًّا كـانَ يُحْيِينَـا
فَهَـلْ أرَى الـدَّهْـرَ يَقْضِينـا مُسَـاعَفَـةً مِنْـهُ ، وإنْ لَـمْ يَكُـنْ غِبًّـا تَقَـاضِينَـا (١٣)
رَبِيـبُ مُلْـكٍ ، كـأَنَّ اللهَ أنْشَـأَهُ مِسْكًـا ، وقَـدَّرَ إنْشَـاءَ الـوَرَى طِينـا
أوْ صـاغَـهُ وَرِقًـا مُحْضًـا ، وتَـوَّجَـهُ مِـنْ نـاصِـعِ التِّبْـرِ إبْـدَاعًـا وتَحْسِينَـا (١٤)
إذَا تَـأَوَّدَ آدَتْـهُ ، رَفَـاهِيَـةً ، تُـومُ العُقُـودِ ، وَأدْمَتْـهُ البُـرَى لِينَـا (١٥)
كـانَـتْ لـهُ الشَّمْـسُ ظِئْـرًا فـى أكِلَّتِـه ، بَـلْ مـا تَجَلَّـى لهـا إلَّا أحـايِينَـا (١٦)

---

(٨) حالت : تغيّرت .
(٩) هصرنا : ثنينا وعطفنا – فنون : جمع فنن ، وهو الغصن الملتفّ – دانية : قريبة .
(١٠) النأى : البعد والفراق .
(١١) غاد : باكرْ وأمطره غدوة – صرف الهوى : خالصه .
(١٢) عنّاه : أتبعه .
(١٣) الغبّ : الزيارة بعد أيام ، ويعنى به الإقلال – يقضينا مساعفة : يقدّر لنا ، وأراد الوصال .
(١٤) الورق : الفضّة .
(١٥) تأوّد : تثنّى وانعطف – آدته : أثقلته – التوم : حبوب من فضة تشبه الدرر، واحدتها : تومة – أدمته : جرحته البرة : الخلاخيل ، واحدتها : برة .
(١٦) الظئر : هى العاطفه على ولد غيرها ، المرضعة له فى الناس وغيرهم ، للذكر والأنثى – الكِلّة : ستر الفراش ، وجمعها : كِلل .

كَأنَّمَا أُثبِتَتْ ، فى صَحْنِ وَجْنَتِهِ ،   زُهْرُ الكَوَاكِبِ تَعْوِيذًا وَتَزْيِينَا (١٧)
مَا ضَرَّ أنْ لَمْ نَكُنْ أكفاءَهُ شَرَفًا ،   وَفِى المَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا ؟
يَا رَوضَةً طَالَمَا أجْنَتْ لَوَاحِظَنَا   وَرْدًا ، جَلاهُ الصِّبا غَضًّا ، وَنَسْرِينَا (١٨)
وَيَا حَيَاةً تَمَلَّيْنَا ، بِزَهْرَتِهَا ،   مُنًى ضُرُوبًا ، وَلَذَّاتٍ أفَانِينَا (١٩)
وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ ،   فى وَشْيِ نُعْمَى ، سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا (٢٠)
لَسْنَا نُسَمِّيكِ إجْلالاً وَتَكْرِمَةً ،   وَقَدْرُكِ المُعْتَلِى عَنْ ذاكَ يُغْنِينَا
إذا انْفَرَدْتِ وَمَا شُورِكْتِ فى صِفَةٍ ،   فَحَسْبُنَا الوَصْفُ إيضَاحًا وَتَبْيِينَا
يَا جَنَّةَ الخُلْدِ أُبْدِلْنَا ، بِسِدْرَتِهَا   وَالكَوْثَرِ العَذْبِ ، زَقُّومًا وَغِسْلِينَا (٢١)
كَأنَّنَا لَمْ نَبِتْ ، وَالوَصْلُ ثَالِثُنَا ،   وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أجْفَانِ وَاشِينَا (٢٢)
إنْ كَانَ قَدْ عَزَّ فى الدُّنْيَا اللِّقَاءُ بكم فى   مَوْقِفِ الحَشْرِ نَلْقَاكُمْ وَتَلْقَوْنَا
سِرَّانِ فِى خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا ،   حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا
لاغَرْوَ فى أنْ ذَكَرْنَا الحُزْنَ حِينَ نَهَتْ   عَنْهُ النُّهَى ، وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا (٢٣)
إنَّا قَرَأنَا الأسَى ، يَوْمَ النَّوَى ، سُوَرًا   مَكْتُوبَةً ، وَأخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا
أمَّا هَوَاكِ ، فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ   شِرْبًا وَإنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِينَا
لَمْ نَجْفُ أُفْقَ جَمَالٍ أنتِ كَوْكَبُهُ   سَالِينَ عَنْهُ ، وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا (٢٤)

---

(١٧) التعويذ ، من عوّذه أى علّق عليه العوذة وهى الرقية تعلّق على الإنسان لتقيه من الحسد أو غيره .
(١٨) أجنت لواظنا : جعلتها تجنى أى تقطف – النسرين : الورد الأبيض .
(١٩) تملّينا : تمتّعنا – أفانين أنواع .
(٢٠) غضارته : نضرته وخصبه – الوشى : الزينة ، أو الثياب المنقوشة الموشّاة .
(٢١) سدرتها أى سدرة المنتهى ، وهى شجرة نبق عن يمين العرش – الكوثر : نهر فى الجنة – الزقّوم : شجرة فى جهنّم منها طعام أهل النار – الغسلين : ما يسيل من جلود أهل النار .
(٢٢) غضّ : خفض .
(٢٣) النّهى : العقول ، واحدتها نهية .
(٢٤) قالين : مبغضين هاجرين .

ولاَاخْتِيارًا تَجَنَّبْناهُ عَنْ كَثَبٍ ، ... لَكِنْ عَدَتْنا عَلَى كُرْهٍ ، عَوادِينا [٢٥]

نَأْسَى عَلَيْكِ إذَا حُثَّتْ ، مُشَعْشَعَةً ، ... فِينا الشَّمُولُ ، وغَنَّانا مُغَنِّينا [٢٦]

لاَأكْؤُسُ الرَّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنا ... سِيما ارْتِياحٍ ، وَلاَالأَوْتارُ تُلْهِينا

دُومِي عَلَى العَهْدِ ، ما دُمْنا مُحَافِظَةً ، ... فالحُرُّ مَنْ دانَ إنْصافًا كما دِينا [٢٧]

فما اسْتَعَضْنا خَلِيلاً مِنْكِ يَحْبِسُنا ... ولاَاسْتَفَدْنا حَبِيبًا عَنْكِ يَثْنِينا

وَلَوْ صَبا نَحْوَنا ، مِنْ عُلْوِ مَطْلَعِهِ ... بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حاشاكِ يُصْبِينا [٢٨]

أبْكِي وَفاءً ، وإنْ لَمْ تَبْذُلِي صِلَةً ، ... فالطَّيْفُ يُقْنِعُنا ، والذِّكْرُ يَكْفِينا

وَفِي الجَوابِ مَتاعٌ ، إنْ شَفَعْتِ بِهِ ... بِيضَ الأَيادِي ، الَّتِي ما زِلْتِ تُولِينا

عَلَيْكِ مِنَّا سَلاَمُ اللهِ ما بَقِيَتْ ... صَبابَةٌ بِكِ نُخْفِيها ، فَتَخْفِينا [٢٩]

* * *

وقال في الغزل :

يا سُؤْلَ نَفْسِي إنْ أُحَكَّـ ... ـمْ واخْتِيارِي إنْ أُخَيَّرْ

كَمْ لامَنِي فِيكَ الحَسُو ... دُ وَفَنَّدَ الواشِي فَأَكْثَرْ [٣٠]

قالُوا تَغَيَّرَ بالسُّلُوِّ ... وَبالمَلامَةِ قَدْ تَغَيَّرْ

وتَوَهَّمُوكَ جَنَيْتَ ذَنْبًا ... بالتَّجَنِّي لَيْسَ يُغْفَرْ

---

(٢٥) عدتنا : صرفتنا – العوادى : أشد الأشغال التى تصرف الإنسان عن أموره .

(٢٦) مشعشعة : ممزوجة بالماء – الشَّمُول الخمر .

(٢٧) دان : جزى .

(٢٨) صبا : مال – يصبينا : يستهوينا .

(٢٩) الصبابة : الشوق أو حرارته ورقته – نخفيها : نسترها – تَخفينا ، بفتح التاء : تظهرنا وتفضحنا .

(٣٠) فنّد : عذل ولام .

وبِـــزَعْمِهِـــمْ أنْ لَيْـــسَ مِثْلـــى ... فِـى الــرِّضَـا بـالــدُّونِ يُعْـذَرْ
لَـــمْ يَعْلَمـــوا أنَّ الهَـــوَى ... رِقٌّ وأنَّ الحُسْـــنَ أحْمَـــرْ (٣١)

* * *

وقال :

إنْ تكُـنْ نـالتـكِ بـالضَّـرْبِ يَـدِى ... وَأصَـابَتْـكِ بمـا لَـمْ أُرِدِ
فَلقَـدْ كُنْـتُ لعَمْـرِى فـادِيًـا ... لَـكِ بـالمـالِ وبعْـضِ الـوَلَـدِ
فَثِقِـى مِنِّـى بِعَهْـدٍ ثـابِـتٍ ... وَضَمِيـرٍ خـالِـصِ المُعْتَقَـدِ
وَلَئِـنْ شـاءَكِ يَـوْمٌ فـاعْلَمِـى ... أنْ سَيَتْلُـوهُ سُـرُورٌ بغَـدِ

* * *

وقال :

أنَـا ظـرْفٌ لِلَهْـوِ كـلِّ ظَـرِيـفِ ... أنـا مُسْتَـوْدَعٌ لِعِلْـقٍ شَـرِيـفِ
أنـا كـالصَّـدْرِ فى الإحـاطـةِ بـالـرَّا ... حِ إذِ الـرَّاحُ كـالضَّمِيـرِ اللَّطِيـفِ
سَـلْ عـنِ الطَّيِّبَـاتِ فَهْـى فُنُـونٌ ... أُلِّفَـتْ فِـىَّ أحْسَـنَ التَّـألِيـفِ (٣٢)
أىُّ حُسْـنٍ يَقِـى بِحسْنـىَ مَحْمُـو ... لأبِكَفَّـىْ وَصِيفَـةٍ أوْ وَصِيـفِ

* * *

وقال فى الغزل أيضا :

أيُـوحِشُنـى الـزَّمَـانُ ، وَأنْـتَ أُنْسـى ... ويُظْلِـمُ لِـى النَّهـارُ، وَأنْـتَ شَمْسِـى ؟
وَأغْـرِسُ فـى مَحَبَّتِـكَ الأمَـانـى ... فـأجْنى المَـوْتَ مِـنْ ثَمَرات غَـرْسِـى ؟

---

(٣١) الحسن الأحمر أى ذو مشقة وبلاء ، ومن تعرّض له فقد تعرّض للموت الأحمر .
(٣٢) العلق : النفيس من كل شئ - فنون : أنواع - ألفت : جمعت .

لَقَدْ جَازَيْتَ غَدْرًا عَنْ وَفَائى
وبغت مَوَدَّتى ، ظُلْمًا ، بِبَخْسِ

وَلَوْ أَنَّ الزَّمَانَ أَطَاعَ حُكْمِي
فديْتُكَ ، مِن مكارهِهِ ، بنَفْسِى

* * *

وقال أيضًا :

مَا ضَرَّ لَوْ أَنَّكَ لِى رَاحِمُ
وعِلَّتى أَنْتَ بهَا عَالِمُ ؟

يَهْنِيكَ ، يا سُؤْلى ويَا بُغْيَتى
أَنَّكَ مِمَّا أَشْتكى سَالِمُ

تَضْحَكُ فى الحُبِّ ، وأَبْكى أَنَا
اللهُ ، فيما بَيْنَنَا ، حَاكِمُ

أَقُولُ لمَّا طَارَ عَنِّى الكَرى
قَوْلَ مُعَنًّى ، قَلْبُهُ هَائِمُ :

يَا نَائمًا أَيْقَظَنِى حُبُّهُ ،
هَبْ لى رُقَادًا أَيُّهَا النَّائِمُ !

* * *

وقال أيضًا :

سَأَقْنَعُ منكِ بلحظِ البَصَرْ
وأَرضى بتَسْلِيمِكِ المُخْتَصَرْ

ولا أَتخطَّى التماسَ المُنى
ولا أَتَعَدَّى اختِلاسَ النظَرْ

أَصُونُكِ من لحَظاتِ الظُّنُونِ
وأُغْلِيكِ عن خَطَرات الفِكَرْ

وأَحذَرُ من لحَظات الرَّقِيبِ
وقد يُستَدامُ الهَوى بالحذَرْ

* * *

وقال متغزّلا :

لَئِنْ قَصَّرَ اليَأْسُ مِنْكِ الأَمَلْ
وَحَالَ تَجَنِّيكِ دُونَ الحِيَلْ

وَنَاجَاكِ - بالإِفْكِ - فِىَّ الحَسُودُ
فَأَعْطَيْتِهِ - جَهْرَةً - مَا سَأَلْ

وَرَاقَكِ سِحْرُ العِدَا المُفْتَرَى
وَغَرَّكِ زُورُهُمُ المُفْتَعَلْ

وَأَقْبَلْتِهِمْ فِيَّ وَجْهَ الْقَبُولِ وَقَابَلْهُمْ بِشُرْكِ الْمُقْتَبَلْ
فَإِنَّ ذِمَامَ الْهَوَى لَمْ أَزَلْ أُبَقِّيهِ حِفْظًا كَمَا لَمْ أَزَلْ
فَدَيْتُكِ - إِنْ تَعْجَلِي - بِالْجَفَا فَقَدْ يَهَبُ الرَّيْثَ بَعْضُ الْعَجَلْ (٣٣)
عَلَامَ أَطَّبَتْكِ دَوَاعِي الْقِلَى ؟ وَفِيمَ ثَنَتْكِ نَوَاهِي الْعَذَلْ ؟ (٣٤)
أَلَمْ أَلْزَمِ الصَّبْرَ كَيْمَا أَخِفَّ ؟ أَلَمْ أُكْثِرِ الْهَجْرَ كَيْ لا أُمَلْ
أَلَمْ أَرْضَ مِنْكِ بِغَيْرِ الرِّضَى وَأُبْدِي السُّرُورَ بِمَا لَمْ أَنَلْ ؟
أَلَمْ أَغْتَفِرْ مُوبِقَاتِ الذُّنُو بِ عَمْدًا أَتَيْتِ بِهَا أَمْ زَلَلْ ؟
وَمَا سَاءَ ظَنِّي فِي أَنْ يُسِيءَ بِيَ الْفِعْلَ حُسْنُكِ حَتَّى فَعَلْ
عَلَى حِينِ أَصْبَحْتِ حَسْبَ الضَّمِيرِ وَلَمْ تَبْغِ مِنْكِ الْأَمَانِي بَدَلْ
وَصَانَكِ مِنِّي وَفِيٌّ أَبِيٌّ لِعِلْقِ الْعَلَاقَةِ أَنْ يُبْتَذَلْ
سَعَيْتِ لِتَكْدِيرِ عَهْدٍ صَفَا ، وَحَاوَلْتِ نَقْضَ وِدَادٍ كَمَلْ
فَمَا عُوفِيَتْ مِقَتِي مِنْ أَذًى وَلَا أُعْفِيَتْ ثِقَتِي مِنْ خَجَلْ (٣٥)
وَمَهْمَا هَزَزْتُ إِلَيْكِ الْعِتَا بَ ظَاهَرْتِ بَيْنَ ضُرُوبِ الْعِلَلْ
كَأَنَّكِ نَاظَرْتِ أَهْلَ الْكَلَامِ وَأُوتِيتِ فَهْمًا بِعِلْمِ الْجَدَلْ
وَلَوْ شِئْتِ رَاجَعْتِ حُرَّ الْفَعَالِ وَعُدْتِ لِتِلْكَ السَّجَايَا الْأُوَلْ

---

(٣٣) في هذا تضمين للمثل المشهور: « رب عجلة تهب ريثا » ، قالوا : وأصل المثل فيما حكاه المفضل الضبي أن مالك بن عوف بن أبي عمرو بن عوف بن محلم شام غيما فأراد أن يرحل بامرأته خماعة بنت عوف بن أبي عمرو، فقال له مالك : أين تظعن يا أخي ؟ قال : أطلب موقع هذه السحابة ، قال : لا تفعل فإنه ربما خيلت وليس فيها قطر، وأنا أخاف عليك ، قال : لكني لست أخاف فمضى ، وعرض له عبى فأعجله عن امرأته وجعلها بين نسائه ولم يكشف لها سترا ، فقال مالك بن سنان : ما فعلت أختي ، قال : نفتني عنها الرماح فقال مالك : رب عجلة تهب ريثا ، وفروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا .

(٣٤) اطبتك : أعجبتك وراقتك . قال ابن دريد :

« ولا اطبي عيني - مذ فارقتهم - شيء يروق العين من هذا الورى . » .

(٣٥) مقتي : حبي .

فَلَمْ يَكُ حَظِّىَ مِنْكِ الْأَخَسَّ ... وَلاَ عُدَّ سَهْمِىَ فِيكَ الْأَقَلَّ

عَلَيْكِ السَّلاَمُ سَلاَمَ الْوَدَاعِ ... وَدَاعَ هَوًى مَاتَ قَبْلَ الْأَجَلْ

وَمَا بِاخْتِيَارٍ تَسَلَّيْتُ عَنكِ، ... وَلٰكِنَّنِى : مُكْرَهٌ لاَ بَطَلْ (٣٦)

وَلَمْ يَدْرِ قَلْبِىَ كَيْفَ النُّزُوعُ ... إِلَى أَنْ رَأَى سِيرَةً فَامْتَثَلْ

وَلَيْتَ الَّذِى قَادَ عَفْوًا إِلَيْكِ ... أَبِىَّ الْهَوَى فِى عِنَانِ الْغَزَلْ

يُحِيلُ عُذُوبَةَ ذَاكَ اللَّمَا ... وَيَشْفِى مِنَ السُّقْمِ تِلْكَ الْمُقَلْ

* * *

(٣٦) يقول : إننى مرغم على السلو وليس لى فيه اختيار، وفى المثل « مكره أخوك لا بطل » يضرب لمن يحمل على ما ليس من شأنه، ولا هو داخل فى حدود استطاعته .

ومما قاله يتشوّق ابنة المهدى ومعاهده بقرطبة ، وضمنها بيت أبى الطيب - فى أول قصيدته الكافورية :

« بم التعلل ؟ لا أهل ، ولا وطن ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن؟ »

قصيدة أولها :

هَلْ تَذْكُرُونَ غَرِيبًا عَادَهُ شَجَنُ - مِنْ ذِكْرِكُمْ - وَجَفَا أَجْفَانَهُ الْوَسَنُ
يُخْفِى لَوَاعِجَهُ - وَالشَّوْقُ يَفْضَحُهُ - فَقَدْ تَسَاوَى - لَدَيْهِ - السِّرُّ وَالْعَلَنُ
يَاوَيْلَتَاهُ ، أَيَبْقَى - فِى جَوَانِحِهِ - فُؤَادُهُ ، وَهْوَ بِالأَطْلاَلِ مُرْتَهَنُ
وأَرَّقَ الْعَيْنَ - وَالظَّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ - وَرْقَاءُ قَدْ شَفَّهَا - إِذْ شَفَّنِى - حَزَنُ
فَبِتُّ أَشْكُو وَتَشْكُو - فَوْقَ أَيْكَتِهَا - وَبَاتَ يَهْفُو أَرْتِيَاحًا بَيْنَنَا الْغُصُنُ
يَا هَلْ أُجَالِسُ أَقْوَامًا أُحِبُّهُمُ كُنَّا وَكَانُوا - عَلَى عَهْدٍ - فَقَدْ ظَعَنُوا
أَوْ تَحْفَظُونَ عُهُودًا لاَ أُضَيِّعُهَا إِنَّ الْكِرَامَ - بِحِفْظِ الْعَهْدِ - تُمْتَحَنُ

ومِنْهَا :

إِنْ كَانَ عَادَكُمُ عِيدٌ ، فَرُبَّ فَتًى بِالشَّوْقِ قَدْ عَادَهُ - مِنْ ذِكْرِكُمْ - حَزَنُ
وَأَفْرَدَتْهُ اللَّيَالِى - مِنْ أَحِبَّتِهِ - فَبَاتَ يُنْشِدُهَا - مِمَّا جَنَى الزَّمَنُ - :
« بِمَ التَّعَلُّلُ ؟ لاَ أَهْلٌ ، وَلاَ وَطَنٌ ؟ وَلاَ نَدِيمٌ ، وَلاَ كَأْسٌ ، وَلاَ سَكَنُ ؟ »

* * *

وكتب إلى ولادة يعاتبها ويصف قلقه وأشواقه :

إِنِّـي ذَكَرْتُـكِ « بِالـزَّهْـرَاءِ » مُشْتَاقَـا   وَالأُفْـقُ طَلْـقٌ ، وَمَرْأَى الأَرْضِ قَـدْ رَاقَـا
وَلِلنَّسِيـمِ اعْتِـلَالٌ - فِـى أَصَـائِلِـهِ -   كَـأَنَّـهُ رَقَّ لِـى ، فَـاعْتَـلَّ إِشْفَـاقَـا (١)
وَالرَّوْضُ - عَنْ مَـائِهِ الْفِضِّـىِّ - مُبْتَسِمٌ ،   كَمَا شَقَقْتَ - عَنِ اللَّـبَّاتِ - أَطْوَاقَـا (٢)
يَـوْمٌ ، كَـأَيَّـامِ لَـذَّاتٍ لَنَـا انْصَرَمَـتْ ،   بِتْنَـا لَهَـا - حِيـنَ نَـامَ الـدَّهْرُ - سُـرَّاقَـا
نَلْهُـو بِمَـا يَسْتَمِيـلُ الْعَيْـنَ مِـنْ زَهَـرٍ   - جَالَ النَّـدَى فِيـهِ - حَتَّـى مَالَ أَعْنَاقَـا
كَـأَنَّ أَعْيُنَـهُ - إِذ عَـايَنَـتْ أَرَقِـى -   بَكَتْ لِمَـا بِـى ، فَجَـالَ الـدَّمْعُ رَقْـرَاقَـا
وَرْدٌ تَـأَلَّـقَ - فِـى ضَـاحِـى مَنَـابِتِـهِ -   فَازْدَادَ مِنْـهُ الضُّحَى - فِـى الْعَيْنِ - إِشْـرَاقَا
سَـرَى يُنَـافِحُـهُ نَيْلُـوفَـرٌ عَبِـقٌ   وَسْنَـانُ ، نَبَّـهَ مِنْـهُ الصُّبْـحُ أَحْـدَاقَـا (٣)
كُـلٌّ يَهِيـجُ لَنَـا ذِكْـرَى تَشَـوُّقِنَـا   إِلَيْـكِ ، لَـمْ يَعْـدُ عَنْهَـا الصَّـدْرُ إِنْ ضَـاقَـا
لَاسَكَّـنَ اللهُ قَلْبًـا ، عَـنَّ ذِكْـرِكُـمُ   فَلَـمْ يَطِـرْ - بِجَنَـاحِ الشَّـوْقِ - خَفَّـاقَـا (٤)
لَوْ شَاءَ حَمْلِى نَسِيمُ الصبْحِ - حِينَ سَرَى -   وَافَـاكُـمُ بِفَتًـى أَضْنَـاهُ مَـا لَاقَـى
لَـوْ كَـانَ وَفَّـى الْمُنَى - فِـى جَمْعِنَـا بِكُـمُ -   لَكَـانَ مِـنْ أَكْـرَمِ الأَيَّـامِ أَخْـلَاقَـا
يَـا عِلْقِـىَ الأَخْطَـرَ الأَسْنَـى الْحَبِيـبَ إِلَـى   نَفْسِـى ، إِذَا مَا اقْتَنَـى الأَحْبَـابُ أَعْلَاقَـا (٥)

---

(١) الزهراء : ضاحية قرب قرطبة ، بناها عبد الرحمن الناصر ، وفيها قصر يسمّى الزهراء ، ثم أطلق الاسم على الضاحية كلها - طلق : مشرق - اعتلال : رقّة - أصائل : جمع أصيل ، وهو الوقت حين تصفرّ الشمس لمغربها .

(٢) اللبّاب : جمع لبّة ، وهى موضع القلادة من الصدر - الأطواق : جمع طوق ، وهو ما استدار حول العنق ، وأراد به ما يطيف بالعنق من الثوب .

(٣) عاينت : رأت - الرقراق : الجارى - الضاحى : البارز للشمس - سرى : مشى ليلًا - ينافحه : يبادله النفح والعطر - النيلوفر : نوع من الرياحين تنطبق أوراقه ليلا وتتفتح نهارا - عبق : فوّاح - وسنان : نائم - الأحداق : جمع الحدقة ، وهى السواد المستدير وسط العين ، وأراد بها العيون .

(٤) يهيج : يثير - لم يَعْدُ : لم يجاوز - عنّ : ظهر .

(٥) أضناه : أثقله وأمرضه - العلق : النفيس الغالي - الأخطر : الأشرف - الأسنى : الأرفع ، من السناء ، وهو الرفعة .

كَانَ التَّجَازِى بِمَحْضِ الْوُدِّ - مُذْزَمَنٍ - مَيْدَانَ أُنْسٍ ، جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلاَقَا

فَالآنَ - أَحْمَدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمُ - سَلَوْتُمُ ، وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَّاقَا ! (٦)

* * *

وقال شاكيا متأملا - وهو فى سجن ابن جهور فى قرطبة - لصديقه أبى حفص بن برد الأصغر :

ما علَى ظَنِّى باسُ يَجْرَحُ الدهرُ وياسُو

ربما أَشْرَفَ بالمرْءِ على الآمال ياسُ (٧)

ولقد يُنْجِيك إغفال ، ويُرْديك احتراس

والمحاذيرُ سِهامٌ والمقاديرُ قِياس (٨)

ولكَمْ أَجْدَى قُعُود ولكمْ أكْدَى التِماس

وكذا الدهر إذا ما عزّ ناس ذلّ ناس

وبنُو الأيام أخْيافٌ ، سَراةٌ وخِسَاس (٩)

نَلْبَسُ الدنيا ولكن متعة ذاك اللباس

يا أبا حَفْص وما سا واك فى فَهْم إياس (١٠)

مِنْ سَنَا رأيك لى فى غَسَق الخَطْب اقْتِباس

---

(٦) التجازى بمعنى الإثابة ، وأن يجزى كلّ واحد الآخر - جرينا أطلاقا بمعنى جرينا متحررين غير مقيّدين ، يقال : هو طلق اليد ، والطلق من الوجوه : الضاحك المنطلق - سلوتم : نسيتم ، وطابت أنفسكم بعد الفراق .

(٧) البأس : الخوف أو الشدّة ، وقد سَهل الشاعر الهمزة - يأسو : يعالج ويداوى ، وفيه أيضا تسهيل للهمزة - اشرف به : أدناه منه وأطلعه عليه - الياس ، مسهلة الهمزة : اليأس .

(٨) يرديك : يهلكك - المحذور : ما يُتّقى ويُحذر منه - القِياس : جمع قوس وهو آلة على هيئة هلال تُرمى بها السهام.

(٩) أجدى : نفع - أكدى : خاب ولم يظفر - عزّ : قوى وبرىء من الذلّ - أخياف : مختلفة الأخلاق والأشكال - سراة : جمع سريّ وهو الشريف الماجد - خساس : جمع خسيس وهو التافه الحقير.

(١٠) أبو حفص هو ابن برد الأصغر، صديق ابن زيدون ، وأحد أدباء عصر الطوائف - إياس هو ابن معاوية ، يضرب به المثل فى الذكاء ، وقد تولّى قضاء البصرة فى عهد عمر بن عبد العزيز.

ووِدادِي لكَ نَصٌّ ... لَمْ يُخالِفْه القِياس (11)
أنا حَيْرانُ وللأمـ ... ـرِ وُضوحٌ والتباس
ما تَرَى فى مَعْشَرٍ حا ... لُوا عن العهدِ وخاسُوا (12)
ورأَوْنى سامِرِيًّا ... يُتَّقَى منه المِسَاس (13)
أَذْؤُبٌ هامَتْ بلَحْمى ... فانتهاشٌ وانتِهاس
كُلُّهم يَسْأَلُ عن حا ... لى ، وللذِّئب اعتساس
إنْ قَسَا الدهرُ فللما ... ءِ من الصخرِ انبجاس (14)
ولئِنْ أمْسَيْتُ مَحْبو ... سًا ، فللغَيْثِ احتباس
يَلْبَدُ الوَرْدُ السَّبَنْتَى ... وله بَعْدُ افتراس
فتأمَّلْ كيف يَغْشَى ... مقلةَ المجدِ النُّعاس (15)
ويُفَتُّ المسكُ فى التُّرْ ... ب فيُوطَا ويُدَاس
لا يكُنْ عَهْدُك وَرْدًا ... إنَّ عَهْدى لكَ آس (16)
وأدِرْ ذِكْرى كأسًا ... ما امتطتْ كفَّك كاس
واغتنم صَفْوَ الليالى ... إنّما العيشُ اختلاس
وعَسَى أنْ يَسْمَحَ الدهـ ... ـرُ فقد طال الشِّماس (17)

* * *

(١١) الغسق : ظلمة الليل - الاقتباس : الأخذ والإفادة - النصّ : ما لا يحتمل التأويل من الأقوال - القياس : إجراء حكم شيء على آخر يشبهه لعله مشتركة بينهما .

(١٢) الالتباس : الاختلاط - حالوا : تغيّروا - خاسوا بالعهد : خانوه .

(١٣) السامريّ : أحد بنى إسرائيل من قبيلة السامرة ، صنع العجل وعبده ودعا إلى الوثنية ، وابتلاه الله تعالى بمرض جعل الناس يتجنبونه .

(١٤) أذؤب : جمع ذئب - الانتهاش : تناول الشيء بالفم لعضّه - الانتهاس : أخذ الشيء بمقدم الأسنان ونتفه للأكل - الاعتساس : الطواف ليلاً - الانبجاس : انفجار الماء .

(١٥) يلبد : يقيم - الورد السبتى : الأسد الجريء - المقلة بمعنى العين .

(١٦) يفتّ : يكسّر - يوطا ، مسهّل يوطأ أى يداس بالأرجل - الآس : شجر .

(١٧) الاختلاس : استلاب مع انتهاز للفرصة - الشماس : العصيان والجماح .

وقال يهنىء المعتضد ملك أشبيلية بعيد الأضحى ويمدحه :

أمــا فــى نَسِيــمَ الــرِّيــح عَــرْفٌ مُعَــرِّفُ
لَنا ، هَــلْ لِـذاتِ الـوَقْـفِ بِـالجِزْعِ مـوْقِـفُ

فَنَقْضِـــىَ أوْطَـــارَ المُنَـــى مِـــنْ زِيَـــارةٍ
لَنـــا كَلَـــفٌ مِنْهَـــا بمـــا نتكَلَّـــفُ (١)

ضمـــانٌ علَيْنَـــا أنْ تُـــزَارَ وَدُونهـــا
رِقَـــاقُ الظُّبَـــا والسَّمْهَـــرِيُّ المثَقَّـــفُ

وَقَـــوْمٌ عِـــدَى يُبْـــدُونَ مِـــنَ صَفَحَـــاتِهِـــمْ
وَأزْهَـــرُهَـــا مِـــنْ ظُلْمَـــةِ الحِقْـــدِ أكْلَـــفُ (٢)

غَيَـــارَى يَعُـــدُّونَ الغَـــرَامَ جَـــرِيـــمَةً
بهـــا والهَـــوَى ظُلْمًـــا يَغِيـــظُ ويُـــؤْسِـــفُ

يَـــودُّونَ لـــو يَثْنِـــى الـــوَعِيـــدُ زَمَـــاعَنَـــا
وَهيْهَـــات ! ريـــحُ الشَّـــوْقِ مِـــنْ ذاكَ أعْصَـــفُ

وَفـــى السِّيَـــرَاء الـــرَّقْـــم وَسْـــطَ قِبَـــابِهِـــمْ
بعيـــدُ مَنَـــاطِ القُـــرْط أحْـــوَرُ أوْطَـــفُ (٣)

وليلـــةَ وَافَيْنَـــا الكَثِيـــبَ لمَـــوْعِـــدٍ
سُـــرَى الأيْـــم لـــم يُعْلَـــمْ لمَسْـــراهُ مَـــزْحَـــفُ

---

(١) العرف : الرائحة الطيبة - الجزع : منعطف الوادى - الكلف : الولع .

(٢) الظبا : جمع ظبة ، وهى حدّ السيف - السمهرىّ : الرمح - يبدون من صفحاتهم : يظهرون عداوتهم - أزهر : مشرق - أكلف : أسود .

(٣) الزماع : العزم على الزيارة - السيراء : ثوب مخطط - الرقم : المعلم - بعيد مناط القرط : أى طويل العنق - الأوطف : طويل شعر العين .

تَهَــادَى أنــاةَ الخَطْــوِ مُــرْتَــاعَــةَ الْحشَــا
كمــا رِيــعَ يَعْفُــورُ الفَـــلا المُتَشَــوِّفُ
فَمــا الشَّمْــسُ رِقُّ الغَيْــمِ دُونَ إِيــاتِهَــا
سِــوَى مَــا أَرَى ذَاكَ الْجَبِيــنُ المُنَصَّــفُ (٤)
فَــدَيْتُــكِ ! أَنَّــى زُرْتِ نُــورُكِ فَــاضِــحٌ
وَعِطْــرُكِ نمَّــامٌ وحَلْيُــكِ مُــرْجِــفُ
لَجَــاجٌ تَمَــادِى الْحــبُّ فــى المَعْشَــرِ العِــدَى
وَأَمُّ الهَــوَى الأفْــقِ الــذى فيــه نُشْنَــفُ
كَفَــانــا مِــنَ الْــوَصْــلِ التَّحِيَّــةُ خِلْسَــةً
فيُــومِــىءُ طَــرْفٌ أَوْ بَنَــانٌ مُطَــرَّفُ
خَلِيلَــىَّ مهْــلاً لا تَلُــومــا فَــإِنَّنِــى
فُــؤَادِى أَلِيــفُ البَثِّ والجِسْــمُ مُــدْنَــفُ (٥)
وأَعْنَــفُ مــا يَلْقَــى المُحِــبُّ لَجــاجَــةً
عَلَــى نَفْسِــهِ فــى الحُــب حِيــنَ يُعَنَّــفُ
وإنـــى لَيَسْتَهْـــوينَـــى البَـــرْقُ صَبْــوَةً
إلَــى بَــرْقِ ثَغْــرٍ إِنْ بَــدَا كــادَ يَخْطَــفُ
ومـــا وَلَعِـــى بـــالــرَّاحِ إلاّ تــوهُّـــمُ
لظَلْــمٍ بِــه كــالــرَّاحِ لَــوْ يُتَــرَشَّــفُ

(٤) الأيم : الحيّة - اليعفور: الظبى - إياة الشمس : ضوؤها - المنصّف : الذى عليه الخمار.
(٥) أمّ الهوى أى قصد الهوى - نشنف : نبغض - مطرّف : مصبوغ بالحناء - مدنف : شديد المرض .

ويُــذْكِــرُنــى العِقْــدَ المُــرِنَّ جُمــانُــهُ

مُــرِنَّــاتُ وُرْقٍ فــى ذُرَا الأَيْــكِ تَهْتِــفُ (٦)

ومــا قَبْــلَ مَــنْ أَهْــوَى طَــوَى البَــدْرَ هــوْدَجٌ

ولا صــان ريــمَ القَفْــرِ خِــدْرٌ مسجَّــفُ

ولا قبــلٌ غبَّــادٍ حَــوَى البَحْــر مجلِــسٌ

ولا حمــلَ الطــود المُعظَّــمَ رفْــرفُ (٧)

هُمــامٌ يَــزِيــنُ الــدَّهْــرَ منــه وأهلَــهُ

مَلِيــكٌ فَقِيــهٌ كَــاتِــبٌ مُتَفَلْسِــفُ

يَتِيــهُ بمَــرْقــاهُ ســرِيــرٌ ومِنْبَــرٌ

ويحْمــدُ مَسْعَــاهُ حُسَــامٌ ومُصْحَــفُ

رَوِيَّتُــهُ فــى الحــادِثِ الإِدِّ لَحْظَــةٌ

وتَــوْقيعُهُ الجــالــى دُجــى الخَطْــبِ أَحْــرُفُ

يــذِلُّ لــهُ الجبَّــارُ خيفــةَ بــأْسِــهِ

ويَعْنُــو إِلَيْــهِ الأَبْلَــجُ المُتَغَطْــرِفُ (٨)

أَغَــرُّ متــى نَــدْرُسْ دواويــنَ مَجْــدِهِ

يَــرُقْنــا غَــرِيــبٌ مُجْمَــلٌ أَوْ مُصنَّــفُ (٩)

---

(٦) الظلم : الريق – الجمان : حبّ اللؤلؤ – الورق : جمع الورقاء ، وهى الحمامة .

(٧) ريم : ظبى – المسجف : الذى عليه ستر – الرفرف : العرش .

(٨) الإدّ : العظيم – الأبلج المتغطرف : السيد الشريف .

(٩) الغريب : الغامض البعيد عن الفهم – المجمل : ما يحتاج إلى بيان وتفسير – المصنف : الذى يبين إجماله وخفاءه ويميز بعضه من بعض – ولعل البيت يشير إلى كتاب « الغريب المصنَّف » لأبى عبيد القاسم ابن سلام .

إذا نحـــن قَـــرَّظْنـــاهُ قصَّـــرَ مطْنِـــبٌ
ولـــم يَتَجَـــاوَزْ غـــايـــةَ القَصْـــدِ مُسْـــرِفُ

وأَرْوَعُ لا البَـــــاغـــــى أذاهُ مُبَلَّـــــغٌ
مُنَـــاهُ ولا الـــرَّاجـــى نَـــدَاهُ مَســـوَّفُ

مُمَـــرُّ القُـــوَى لا يمـــلأُ الخطـــبُ صَـــدْرَهُ
ولَيْـــسَ لأمـــرٍ فـــائِتٍ يَتَلَهَّـــفُ

لَـــهُ ظِـــلُّ نُعْمـــى يَـــذْكُـــرُ الهِـــمُّ عنـــدَهُ
ظِـــلالَ الصِّبـــا بـــل ذاكَ أَنْـــدَى وَأَوْرَفُ (١٠)

جَحيـــمٌ لِعـــاصِيـــهِ يُشَـــبُّ وَقُـــودُهُ
وجنَّـــةُ عَـــدْنٍ للمُطِيعِيـــنَ تُـــزْلَـــفُ

محـــاســـنُ ، غَـــرْبُ الـــذَّمِّ عَنهـــا مفلَّـــلٌ
كَهَـــامٌ وشَمْـــلُ المجْـــدِ فيهـــا مـــؤَلَّـــفُ (١١)

تنـــاهـــتْ فِعقْـــدُ المجْـــدِ مِنْهـــا مُفَصَّـــلٌ
سنَـــاءً وبُـــرْدُ الفَخْـــرِ فيهـــا مُفَـــوَّفُ

طَـــلاقـــةُ وَجْـــهٍ فـــى مضـــاءٍ كمثـــلِ مـــا
يُـــروق فِـــرِنْـــدُ السَّيْـــفِ والحـــدُّ مُـــرْهَـــفُ (١٢)

علـــى السَّيـــفِ مـــن تَلْـــكَ الشَّهَـــامَـــةِ مِيسَـــمٌ
وفـــى الـــرَّوْضِ مـــن تِلْـــكَ الطَّـــلاقَـــةِ زُخْـــرُفُ

(١٠) ممرّ القوى : مستحكم القوى - الهِمّ : الشيخ الكبير.
(١١) تزلف : تقرب - الغرب : الحدّ - كهام : كليل.
(١٢) مفصّل : بين خرزاته فواصل - مفوّف : مخطط رقيق - فرند السيف : ما يلمع فى صفحته من أثر تموّج الضوء.

سجَايا لِمن والاهُ كالأرْي يُجْتَنَى
تَعُودُ لِمن عَاداهُ كالشَّرْي يُنْقَفُ

فَقُلْ للمُلُوكِ الحاسِدِيةِ مَتَى ادَّعى
سِبَاقَ العَتِيقِ الفَائِتِ الشَّاو مُقْرِفُ

أَلَيْسَ بَنُو عَبَّادِ القِبْلَةَ التى
عَلَيْهَا لآمَالِ البريَّةِ مَعْكَفُ (١٣)

ملوكٌ يُرَى أحْيَاؤُهم فخرَ دهْرِهِمْ
ويَخْلُفُ موْتاهُمْ ثَنَاءٌ مُخلَّفُ

بِهِمْ بَاهتِ الأَرْضُ السَّماءَ فأَوْجُهٌ
شُموسٌ وأَيدٍ من حَيَا المُزْنِ أَوْكَفُ

أَشَارِحَ معنى المَجْدِ وهْوَ مُعمَّسٌ
ومُجْزِلَ حَظِّ الحَمْدِ وهو مُسَفْسِفُ (١٤)

لَعَمْرُ العِدا المُسْتَدْرِجِيكَ بِزَعْمِهِمْ
إِلَى غِرَّةٍ كَادتْ لها الشَّمْسُ تُكْسَفُ

لَكَالُوكَ صاع الغَدْرِ لُؤْمَ سَجِيَّةٍ
وكِيلَ لَهُمْ صَاع الجزَاء المُطَفَّفُ

أَظَنَّ الأَعَادِى أَنَّ حزْمَكَ نَائِمٌ
لَقَدْ تَعِدُ الفَسْلَ الظُّنُون فتُخْلِفُ (١٥)

---

(١٣) الأرى : العسل – الشرى : الحنظل – ينقف : يقشر ليستخرج ما فى داخله – العتيق : الكريم النجيب – الفائت الشأو : الذى يسبق – مقرف : هجين – معكف : أى عكوف ، وهوا لإقامة والملازمة .

(١٤) الحيا : المطر – أوكف : أهطل وأغزر انهمارًا – معمّس : مخفّى مبهم – مسفسف : ساقط أو نازل .

(١٥) الغرّة الغفلة – المطفّف : الوافى الكامل – الفسل : الرذل الأحمق .

تحمَّلْتَ عِبْءَ الدَّهْرِ عنهم وكلُّهُمْ
بنُعماكَ موصولُ التَّنعُّمِ مُتْرَفُ
فإن يكفُرُوا النُّعمَى فتِلْكَ دِيارُهُمْ
بسَيْقِكَ قاعٌ صفْصَفُ الرَّسمِ تُنْسفُ
وبُشراكَ عِيدٌ بالسُّرُورِ مُظَلَّلٌ
وبالحظِّ فى نَيْلِ المُنَى مُتَكَنَّفُ [16]
بشيرٌ بأعْيادٍ تُوافِيكَ بعدهُ
كما ينْسُقُ النَّظْمَ المُوالى ويَرْصُفُ
كريمٌ يعدُّ الحمدَ أنفسَ قُنْيَةٍ
فيُولَعُ بالفِعلِ الجميلِ ويُشْغَفُ
غدا بخميسٍ يقْسِمُ الغَيْمُ إنَّهُ
لأحفلُ منه مُكْفَهِرًّا وأكْثَفُ [17]
هو الغيمُ من زُرْقِ الأسِنَّةِ بَرْقُهُ
وللطَّبْلِ رَعْدٌ فى نواحيه يَقْصِفُ
ولمَّا قَضَيْنَا ما عَنَانَا أداؤُهُ
وكُلٌّ بما يُرْضِيكَ داعٍ فَمُلْحِفُ [18]
قرنَّا بحمدِ الله حَمْدَكَ إنَّهُ
لأَوْكَدُ ما يُحْظِى لديهِ ويُزْلِفُ

(١٦) متكنّف : محاط مشمول .
(١٧) الخميس : الجيش الجرّار .
(١٨) قضينا ما عنانا أداؤه : أى فلما أدينا ما أهمّنا أداؤه من الصلاة فى العيد – الملحف : الملحّ .

وعُـدْنـا إلـى القصْـرِ الـذى هُـوَ كعبـةٌ
يُغَـادِيـهِ منَّـا نـاظـرٌ أوْ مُطَـرِّفُ
فـإذْ نحـنُ طَـالَعْنـاهُ والأُفْـقُ لابِـسٌ
عجـاجَتَـه والأَرْضُ بـالخَيْـلِ تَـرْجُـفُ (١٩)
رأيْنـاكَ فـى أعْلَـى المُصَلَّـى كـأنَّمـا
تَطلَّـعَ مِـنْ مِحْـرَابِ داوُدَ يـوسـفُ
ولمـا حضَـرْنـا الإذْنَ والـدَّهْـرُ خـادمٌ
تُشِيـرُ فيُمْضِـى والقَضَـاءُ مُصَـرِّفُ
وصَلْنَـا فقبَّلْنـا النـدَى مِنْـكَ فـى يـدٍ
بهـا يُتْلَـفُ المـالُ الجسيـمُ ويُخْلَـفُ
لقـد جُدْتَ حتَّـى ما بنفـسٍ ما بنفـسٍ خصاصـةٌ
وأمَّنْـتَ حتـى مـا بقلـبٍ تخـوُّفُ (٢٠)
ولـولاك لـم يَسْهُـلْ مـن الـدهـر جـانـبٌ
ولا ذلَّ مُنقـادٌ ولا لان معْطـفُ
لـكَ الخَيْـرُ، أنَّـى لـى بشكـرك نهضـةٌ ؟
وكيـف أُؤدِّى فـرضَ مَـا أنْـتَ مُسْلِـفُ ؟
أفَـدْتَ بهيـمَ الحـالِ مِنِّـى غُـرَّةً
يُقَـابِلُهَـا طَـرْفُ الجَمـوحِ فيُطْـرِفُ

---

(١٩) المطرّف : بمعنى الذى يديم النظر من الحبّ والإعجاب – العجاجة : ما تصيره سنابك الخيل من الغبار ترجف : تضطرب .
(٢٠) الخصاصة : الفقر.

وبـــوَّأتَـــــه دُنْيــــاكَ دار مُقــــامــــةٍ

بحيــث دنَــــا ظِـــلٌّ ودُلِّـــلَ مَقْطِـــفُ

وكــم نعمـــةٍ أَلْبِسْتُهَـــا سُنْـــدسِيَّــةٍ

أُسَــرْبلُهــا فــى كــلّ حيــنٍ وأُلْحَــفُ

مــواهُــب فيَّــاضِ اليــدَيــنِ كــأنَّمــا

مــن المُـزْنِ تُمْـرَى أومــن البحـر تُغْـرَفُ (٢١)

فــإن أكُ عَبْــدًا قــد تملَّكْــتَ رِقَّــةُ

فــأرفــعُ أحْــوالــى وأسْنَــى وأشْــرَفُ

* * *

(٢١) تمرى : ينزل منها المطر، يقال : مرت الريح السحاب .

وقال يرثي أبا الحزم ويعرض لفضائل ابنه أبي الوليد :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ ضَمَّهَا القَبْرُ
وأَنْ قَدْ كَفَانَا فَقْدَهَا القَمَرُ البَدْرُ

وأَنَّ الحَيَا إِن كَانَ أَقْلَعَ صَوْبُهُ
فَقَدْ فَاضَ لِلآمَالِ فِي إِثْرِهِ البَحْرُ[1]

إِسَاءَةُ دَهْرٍ أَحْسَنَ الفِعْلَ بَعْدَهَا
وذَنْبُ زَمَانٍ جَاءَ يَتْبَعُهُ العُذْرُ

فلا يَتَهَنَّ الكَاشِحُونَ فما دَجَا
لَنَا اللَّيْلُ إِلاَّ رَيْثَمَا طَلَعَ الفَجْرُ[2]

وإِن يَكُ وَلَّى " جَهْوَرٌ " فمحمَّدٌ "
خليفته العَدْلُ الرِّضَا وابنُه البَرُّ

فَتَى يَجْمَعُ المَجْدَ المفَرَّقَ همُّهُ
ويُنْظَمُ - فِي أَخْلاقِهِ - السُّؤْدُدُ النَّثْرُ

أَهابتْ إِليه بالقُلُوبِ محبَّةٌ
هي السِّحْرُ للأَهْواءِ ، بل دُونَهَا السِّحْرُ

سرَتْ حيث لاتَسْرِي من الأَنْفُس المُنَى
ودَبَّتْ دبِيبًا ليس تُحسنُه الخَمْرُ

---

(١) صوب الحيا : انصباب المطر.
(٢) الكاشحون : الأعداء المبغضون.

لَبِسْنَا لعدْلِهِ الأَمْنَ تَنْدَى ظِلاَلُهُ
وزَهْرةَ عيش مثل ما أَيْنَع الزَّهْرُ

وعَادتْ لنا عاداتُ دُنْيا كأَنها
بها وسَنٌ أوهزَّ أَعْطافَهَا سُكْرُ

مليكٌ لَهُ مِنَّا النَّصِيحةُ والهوَى
ومنهُ الأَيادِى البيضُ والنِّعمُ الخُضْرُ

فقُلْ للْحَيارى : " قَدْ بدا عَلَمُ الهُدى "
وللطَّامع المغرُورِ : " قد قُضِىَ الأَمْرُ "

" أَبا الحَزْمِ " قَدْ ذابتْ علَيْكَ مِن الأَسى
قُلُوبٌ مَنَاها الصَّبْرُ، لو ساعدَ الصَّبْرُ

دَعِ الدَّهْر يفْجَعْ بالذَّخائِر أَهْلَهُ
فما لنفيسٍ - مُذْ طَواكَ الرَّدى - قَدْرُ

تَهونُ الرَّزايا بعدُ وهْى جليلةٌ
ويعرف - مذ فارقْتَنَا - الحادثُ النُّكْرُ

فَقَدْناكَ فِقْدَانَ السَّحابةِ لم يَزَلْ
لها أَثَرٌ يُثْنِى به السَّهْلُ والوَعْرُ

مَساعيك حَلْىٌ للَّيالى مُرَصَّعٌ
وذكْرك - فى أَردانِ أَيامِها - عِطْرُ(٣)

---

(٣) الأردان : جمع الردن ، وهو الكُمّ .

فـــلا تَبْعـــدَنْ إن المنيَّـــةَ غـــايـــةٌ

إليهـــا التنـــاهِـــى طَـــالَ أو قَصُـــر العُمْـــرُ

عـــزاءً - فَـــدَتْـــك النفس عَنْـــهُ - فـــإن ثَـــوَى

فـــإنَّـــكَ لا الـــوانـــى ولا الضَّـــرِعُ الغَمْـــرُ[٤]

ومـــا الـــرُّزْءُ فـــى أن يُـــدَعَ التُّـــرْبَ هـــالـــكٌ

بـــل الـــرُّزْءُ كـــلُّ الـــرُّزْءِ أن يهْلِـــكَ الأَجْـــرُ

أمَـــامـــك - مِـــنْ حفْـــظ الإلـــه - طليعـــةٌ

وحَـــوْلَـــكَ - مـــن آلائه - عَسْكَـــرٌ مَجْـــرُ

ومـــا بـــك مـــن فَقْـــرٍ إلـــى نَصْـــرِ نـــاصـــرٍ

كَفَتْـــكَ - مِـــنَ اللهِ - الكَـــلاءَة والنَّصْـــرُ

لـــكَ الْخَيْـــرُ، إنِّـــى واثـــقٌ بِـــكَ شَـــاكِـــرٌ

لمَثْنَـــى أيـــادِيـــكَ التـــى كُفْـــرُهـــا الكُفْـــرُ[٥]

تَحـــامَـــى العِـــدا - لمـــا اعتلقْتُـــك - جـــانبـــى

وقـــال المُنـــاوِى : شـــبَّ عَـــن طـــوقِـــه عمْـــرو[٦]

يليـــنُ كـــلامٌ كـــان يَخْشُـــنُ منهـــمُ

ويفتُـــر نحـــوى ذلـــكَ النظـــر الشَّـــزْر[٧]

---

(٤) الضرع : الضعيف النحيف - الغمر : الذى لم يجرب الأمور.

(٥) المجْرُ : الجيش الكثير العظيم - الكلاءة : الحفظ والرعاية - مثنى بمعنى مضاعف .

(٦) أصل المثل : " شبّ عمرو عن الطوق " ، ويروى " جلّ عمرو. . . " ، و " كبر عمرو. . . " ، وعمرو هو ابن عدى بن نصر، ابن أخت جذيمة بن الأبرش ، وقصة هذا المثل مبسوطه فى كثير من المصادر ولاسيما كتب الأمثال .

(٧) الشزر : نظرة الإعراض أو الغضب أو الاستهانة .

فصـــدِّق ظُنُــونَــا لــى وفِــىَّ، فـــإِنَّنــى
لأَهْــلُ اليــدِ البَيْضَــاءِ منـــك ولا فَخْـــرُ
ومَــنْ يَــكُ - للـدُّنيــا وللــوَفْــر - سَعْيــهُ
فتَقَــرِيبُــكَ الــدُّنْيا، وإِقْبَــالُــكَ الــوَفْــرُ[8]

* * *

(٨) الوفر: المال الكثير الواسع.

وقال فى ذكرى قرطبة وأيام الصبا :

تَنَشَّقَ - مِنْ عَرْفِ الصَّبَا - مَا تَنَشَّقَا (١)
وَعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصِّبَا فَتَشَوَّقَا
وَمَا زَالَ لَمْعُ الْبَرْقِ - لَمَّا تَأَلَّقَا -
يُهِيبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى تَدَفَّقَا ، وَهَلْ يَمْلِكُ الدَّمْعَ الْمَشُوقُ الْمُصَبَّأُ ؟ (٢)

* * *

خَلِيلَيَّ - إِنْ أَجْزَعْ - فَقَدْ وَضَحَ الْعُذْرُ
وَإِنْ أَسْتَطِعْ صَبْرًا فَمِنْ شِيمَتِي الصَّبْرُ
وَإِنْ يَكُ رُزْءًا مَا أَصَابَ بِهِ الدَّهْرُ
فَفِي يَوْمِنَا خَمْرٌ، وَفِي غَدِهِ أَمْرُ وَلَا عَجَبٌ ، إِنَّ الْكَرِيمَ مُرَزَّأُ (٣)

* * *

رَمَتْنِي اللَّيَالِي عَنْ قِسِيِّ النَّوَائِبِ
فَمَا أَخْطَأَتْنِي مُرْسَلَاتُ الْمَصَائِبِ
أُقَضِّي نَهَارِي بِالْأَمَانِي الْكَوَاذِبِ
وَآوِي إِلَى لَيْلٍ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ (٤) وَأَبْطَأُ سَارٍ كَوْكَبٌ بَاتَ يُكْلأُ

* * *

(١) الصبا : ريح الصبا أى ريح الشمال - والعرف : الطيب .

(٢) يهيب : مضارع أهاب بصاحبه دعاه ، أى يدعو الدمع ليتدفق - والمصبأ : ذو الصبوة ، والصبوة جهلة الفتوة يقال : صبا صبوا وصبا وصباء . وصبى إليها - كرضى - حن ، وأصبته المرأة وتصبته : شاقته ودعته إلى الصبا فحن إليها .

(٣) فى المثل : « اليوم خمر وغدا أمر » وقد قاله امرؤ القيس حين بلغه قتل أبيه ، ومعناه : اليوم نلهو وننعم تاركين إلى الغد أداء ما علينا من الواجبات والفروض . ويروى ، وهو أيضًا لامرىء القيس : « اليوم قحاف ، وغدا نقاف » والقحاف جمع قحف ، وهو إناء يشرب فيه ، والنقاف : المناقفة من نقف الهامه شقها عن الدماغ .

أَقُـرْطُبَـةَ الْغَـرَّاءَ ! هَـلْ فِيـكِ مَطْمَـعُ ؟

وَهَـلْ كَبِـدٌ حَـرَّى لِبَيْنِـكِ تَنْقَـعُ ؟

وَهَـلْ لِلَيَـالِيـكِ الحَمِيـدَةِ مَـرْجِـعُ ؟

إِذِ الحُسْنُ مَرْأَى - فِيكِ - واللَّهْوُ مَسْمَعُ   وَإِذْ كَنَفُ الدُّنْيَا - لَدَيْكِ - مُوَطَّأُ(٥)

أَلَيْـسَ عَجِيبًـا أَنْ تَشُـطَّ النَّـوَى بِـكِ

فَـأَحْيَـا كَـأَنْ لَـمْ أَنْـسَ نَفْـحَ جَنَـابِـكِ

وَلَـمْ يَلْتَئِـمْ شَعْبِـى خِـلاَلَ شِعَـابِـكِ

وَلَمْ يَكُ خَلْقِى بَدْؤُهُ مِنْ تُرَابِكِ   وَلَمْ يَكْتَنِفْنِى - مِنْ نَوَاحِيك - مَنْشَأُ

* * *

(٤) إشارة إلى البيت المشهور فى قصيدة النابغة الذبيانى :

« كلينى لهم يا أميمة ناصب   وليل أقاسيه بطىء الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقض   وليس الذى يرعى النجوم بآئب

وصدر أراح الليل عازب همه   تضاعف فيه الحزن من كل جانب . »

جعل صدره مألفًا للهموم وجعل الهموم كالابل العازبة بالنهار حتى إذا أتى الليل أراحتها الرعاة فى أماكنها والنابغة أوّل من جعل الهموم تعزب بالنهار وتتزايد بالليل ، وتبعه الشعراء فى ذلك ، فقال مجنون ليلى :

« يضم إلى الليل أطفال حبكم   كما ضم أزرار القميص البنائق . »

وقال ابن الدمينة :

« نهارى نهار الناس حتى إذا بدا   لى الليل هزتنى إليك المضاجع

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى   ويجمعنى والهم بالليل جامع . »

ولهذا السبب تبرم الشعراء بطول الليل فقال :

« كواكب ليلة طالت وغمت   فهذا الصبح راغمة فحورى »

وقال امرؤ القيس :

« فيا لك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدت بيذبل »

وقد أكثر الشعراء من أمثال هذه المعانى فلنجتزىء بهذه الأبيات .

(٥) موطأ : ميسر مذلل .

نَهَارُكِ وَضَّاحٌ ، وَلَيْلُكِ ضَحْيَانُ
وَتُرْبُكِ مَصْبُوحٌ ، وَغُصْنُكِ نَشْوَانُ
وَأَرْضُكِ تُكْسَى ، حِينَ جَوُّكِ عُرْيَانُ
ورَيَّاكِ رَوْحٌ – لِلنُّفُوسِ – وَرَيْحَانُ   وَحَسْبُ الأَمَانِى ظِلُّكِ المُتَفَيَّأُ(٦)

* * *

أَأَنْسَى زَمَانًا « بِالْعُقَابِ » مُرَفَّلاَ
وَعَيْشًا بِأَكْنَافِ « الرُّصَافَةِ » دَغْفَلاَ(٧)
وَمَغْنًى – إِزَاءَ « الجَعْفَرِيَّةِ » – أَقْبَلاَ
لَنِعْمَ مَرَادُ النَّفْسِ رَوْضًا وَجَدْوَلاَ   وَنِعْمَ محَلُّ الصَّبْوَةِ المُتَبَوَّأُ

* * *

وَيَا رُبَّ مَلْهًى « بِالْعَقِيقِ » وَمَجْلِسِ
لَدَى تُرْعَةٍ ، تَرْنُو بِأَحْدَاقِ نَرْجِسِ
بِطَاحُ هَوَاءٍ مُطْمِعِ الحَالِ مُؤْيِسِ
مَغِيمٍ وَلٰكِنْ – مِنْ سَنَا الرَّاحِ – مُشْمِسِ   إِذَا مَا بَدَتْ – فِى كَأْسِهَا – تَتَلأْلأُ

* * *

وَقَدْ ضَمَّنَا – مِنْ « عَيْنِ شُهْدَةَ » – مَشْهَدُ
بَدَأْنَا وَعُدْنَا فِيهِ ، وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ

---

(٦) ضحيان : أى بارز ظاهر لا يستره ظلام ، وذلك لكثرة ما يضاء فى قرطبة من المصابيح والسرج بالليل – وعريان : صحو يريد أن أرضها مكسوة بالنبات وجوها صحو صافى الأديم – المتفيأ : الذى يستظل به ويستريح فيه المقيل .
(٧) الدغفل : العيش الواسع المخصب .

يَــزُفُّ عَــرُوسَ اللَّهْــو أحْــوَرُ أغْيَــدُ

لَهُ مَبْسِمٌ عَذْبٌ ، وَخَدٌّ مُوَرَّدٌ ، وَكَفٌّ - بِحِنَّاءِ المُدَامِ - تُقَنَّأُ (٨)

* * *

وَكَائِنْ عَدَوْنَا - مُصْعِـدِينَ - عَلَى الْجِسْرِ

إلَى الجَـوْسَقِ النَّصْـرِيِّ بَيْـنَ الـرُّبَا الْعُفْـرِ

وَرُحْنَا إلَى الْـوَعْسَـاءِ مِـنْ شَـاطِيءِ النَّهْـرِ (٩)

بِحَيْثُ هُبُوبُ الرِّيحِ عَاطِرَةِ النَّشْرِ عَلاَ قُضُبَ النُّوَارِ ، فَهِيَ تُكَفَّأُ

* * *

وَأحْسِـنْ بِـأيَّـامٍ - خَلَـوْنَ - صَـوَالِـحِ

بِمَضْيَعَـةِ الـدُّولاَبِ ، أوْ قَصْـرِ نَـاصِـحِ

تَهُــزُّ الصَّبَـا - أثْنَـاءَ تِلْـكَ الأبَـاطِـحِ -

صَفِيحَةَ سَلْسَالِ المَوَارِدِ سَائِحِ تَرَى الشَّمْسَ تَجْلُو نَصْلَهَا حِينَ يَصْدَأُ (١٠)

* * *

وَيَـا حَبَّـذَا « الـزَّهْـرَاءُ » بَهْجَـةَ مَنْظَـرِ

وَرِقَّـةَ أنْفَـاسٍ ، وَصِحَّـةَ جَـوْهَـرِ

وَنَـاهِيـكَ مِـنْ مَبْـدَا جَمَـالٍ وَمَحْضَـرِ

---

(٨) تقنأ : تصبغ باللون الأحمر القانى ، وذلك حين تمسك بالكأس فينعكس عليها من لون الراح ما يشبه الخضاب بالحناء .

(٩) وكم جرينا صاعدين على الجسر - الجوسق : القصر - والربا : جمع ربوة ، وهى ما ارتفع من الأرض - العفر جمع عفراء ، وهى أرض بيضاء لم توطأ - الوعساء : رابية من رمل لينة تنبت أحرار البقول .

(١٠) يقول : إن ريح الصبا تهز خلال تلك الأباطح صفيحة جدول سلسال الموارد سائح فى الأباطح ، والشمس تجلو نصل هذا الجدول الشبيه بصفيحة السيف حين يصدأ من الطل .

وَجَنَّةِ عَدْنٍ تَطَّبِيكَ وَكَوْثَرٍ   بِمَرْأًى يَزِيدُ الْعُمْرَ - طِيبًا - وَيَنْسَأُ(١١)

* * *

مَعَاهِدُ - أَبْكِيهَا - لِعَهْدِ تَصَرَّمَا
أَغَضُّ - مِنَ الْوَرْدِ الْجَنِيِّ - وَأَنْعَمَا
لَبِسْنَا الصِّبَا فِيهَا حَبِيرًا مُنَمْنَمَا
وَقُدْنَا - إِلَى اللَّذَّاتِ - جَيْشًا عَرَمْرَمَا   لَهُ الأَمْنُ رِدْءٌ وَالْغَدَاوَةُ مَرْبَأُ(١٢)

* * *

كَسَاهَا الرَّبِيعُ الطَّلْقُ وَشْيَ الخَمَائِلِ(١٣)
وَرَاحَتْ لَهَا مَرْضَى الرِّيَاحِ الْبَلَائِلِ
وَغَادَى بَنُوهَا الْعَيْشَ حُلْوَ الشَّمَائِلِ
وَلَا زَالَ مِنَّا بِالضُّحَا وَالأَصَائِلِ   سَلَامٌ - عَلَى تِلْكَ المَيَادِينِ - يُقْرَأُ

* * *

أَإِخْوَانَنَا ! لِلْوَارِدِينَ مَصَادِرُ
وَلَا أَوَّلٌ إِلَّا سَيَتْلُوهُ آخِرُ
وَإِنِّي - لِإِعْتَابِ الزَّمَانِ - لَنَاظِرُ
فَقَدْ يَسْتَقِيلُ الجَدُّ - وَالجَدُّ عَاثِرٌ -   وَتُحْمَدُ عُقْبَى الأَمْرِ مَا زَالَ يُشْنَأُ(١٤)

* * *

(١١) تطبيك : تعجبك وتزدهيك - ينسأ : يؤخر، أي يطيل العمر.
(١٢) تصرم : انقضى وفات - الحبير: الناعم الجديد، وضرب من برود اليمن والمنمنم : المنقوش الموشى - رده : ظهير أو معين.
(١٣) الخمائل : جمع خميلة، وهى الموضع الكثير الشجر.
(١٤) الإعتاب : إرضاء العاتب - يستقيل : ينهض - والجد : الحظ - ويشنأ : يبغض.

ظَعَنْتُ ، فَكَانَ الحُرُّ يُجْفَى فَيَظْعَنُ (١٥)
وَأَصْبَحْتُ أَسْلُو بِالأَسَى حِينَ أَحْزَنُ (١٦)
وَقَرَّ - عَلَى الْبَأْسِ - الْفُؤَادُ الْمُوَطَّنُ
وَإِنَّ بِلادًا - هُنْتُ فِيهَا - لأَهْوَنُ وَمَنْ رَامَ مِثْلِى بِالدَّنِيَّةِ أَدْنَأُ

* * *

وَلاَ يَغْبِطُ الأَعْدَاءَ كَوْنِىَ فِى السِّجْنِ
فَإِنِّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَحْصَنُ بِالدَّجْنِ
وَمَا كُنْتُ إِلاَّ الصَّارِمَ الْمَصْنَبَ فِى جَفْنِ
أَوِ اللَّيْثَ فِى غَابٍ ، أَوِ الصَّقْرَ فِى وَكْنِ أَوِ الْعِلْقَ يُخْفَى - فِى الصِّوَارِ - وَيُخْبَأُ (١٧)

* * *

يَضِيقُ - بِأَنْوَاعِ الصَّبَابَةِ - مَذْهَبِى
إِلَى كُلِّ رَحْبِ الصَّدْرِ - مِنْكُمْ - مُهَذَّب
مَفَضَّضِ لأَلاَءِ الأَسَارِيرِ مُذْهَبِ (١٨)
يُنَافِسُ - مِنْهُ الْبَدْرُ - غُرَّةَ كَوْكَبِ دَرَى أَنَّهَا أَبْهَى سَنَاءً وَأَضْوَأُ

* * *

أَسِفْتُ ، فَمَا أَرْتَاحُ - وَالرَّاحُ تُثْمِلُ -

---

(١٥) أى رحلت فكان رحيلى هذا لأننى لقيت جفاء فترحلت عن مكان الجفوة والحر إذا نبت به أرضه هاجر إلى غيرها.
(١٦) الأسى : جمع أسوة ، وهى التأسى والتجمل .
(١٧) الدجن : الغيم - جفن : غمد - الوكن : عش الطائر - الصوار : وعاء المسك .
(١٨) أسارير الوجه : محاسنه ، والأسارير : جمع أسرار والأسرار جمع سرار وهى خطوط الكف .

وَلاَ أُسْعِـــفُ الأَوْتَـــارَ - وَهِـــيَ تَـــرَسَّـــلُ -
وَلاَ أَرْعَـــوِي عَـــنْ زَفْـــرَةٍ - حِيـــنَ أُعْـــذَلُ
وَلاَلِيَ - مُذْ فَارَقْتُكَمْ - مُتَعَلَّلٌ   سِوَى خَبَرٍ مِنْكُمْ - عَلَى النَّأْيِ - يَطْرَأُ

* * *

حَمِـدْتُـمْ - مِـنَ الأَيَّـامِ - لِيـنَ خِـلاَلِهَـا
وَسَـرَّتْكُـمُ الـدُّنْيَـا بِحُسْـنِ دَلاَلِهَـا
مُـؤَمَّنَـةً مِـنْ عَتْبِهَـا وَمَـلاَلِهَـا
وَلاَزَالَ مِنْكُمْ لاَبِسٌ مِنْ ظِلاَلِهَا   يُسَوَّغُ أَبْكَارَ المُنَى وَيُهَنَّأُ

* * *

وقال من المخمّسات :

١ - سَقَى الغَيْثُ أطْلالَ الأحِبَّةِ بالحِمَى
٢ - وَحاكَ عَلَيْها ثَوْبَ وَشْىٍ مُنَمْنَما
٣ - وَأطْلَعَ فيها لِلأزاهِيرِ أنْجُما
١ - فَكَمْ رَفَلَتْ فيها الخَرائِدُ كالدُّمَى   إذِ العَيْشُ غَضٌّ والزَّمان غلامُ
١ - أهِيمُ بِجَبَّارٍ يَعِزُّ وأخْضَعُ
٢ - شَذَا المِسْكِ مِنْ أرْدانِهِ يَتَضوَّعُ
٣ - إذَا جِئْتُ أشْكُوهُ الجَوَى لَيْسَ يَسْمَعُ [1]
٢ - فما أنا فِى شىْءٍ مِنَ الوَصْلِ أطْمَعُ   وَلاَ أنْ يَزُورَ المُقْلَتَيْنِ مَنامُ
١ - قَضِيبٌ مِنَ الرَّيْحان أثْمَرَ بالبَدْرِ
٢ - لَواحِظ عَيْنَيْهِ مُلِئْنَ مِنَ السِّحْرِ
٣ - وَدِيباجُ خَدَّيْهِ حَكَى رَوْنَقَ الخَمْرِ
٣ - وألْفاظُهُ فِى النُّطْقِ كاللُّؤْلُؤِ النَّثْرِ   وَرِيقَتُهُ فى الارْتِشافِ مُدامُ
١ - سَقَى جَنَباتِ القَصْرِ صَوْبُ الغَمائمِ
٢ - وَغَنَّى عَلَى الأغْصانِ وُرْقُ الحَمائمِ
٣ - بِقُرْطُبَةَ الغَرَّاءِ دارِ الأكارِمِ [2]
٤ - بِلادٌ بها شَقَّ الشَّبابُ تَمائِمِى   وَأنْجَبَنِى قَوْمٌ هُنَاكَ كِرامُ

(١) الخرائد : جمع الخريدة ، وهى البكر - الدّمى : جمع الدمية ، وهى التمثال - غضّ : خصب طرىّ - يعزّ : يصعب - شذا : رائحة - أردانه : أكمامه - يتضوّع : يفوح - الجوى : ألم الحبّ .
(٢) صوب الغمائم : مطرها بقدر ما ينفع ولا يؤذى - ورق : جمع أوراق ، وهو ما كان لونه لون الرماد بين السواد والغبرة .

١ - فَكَمْ لِى فيها مِنْ مَساءٍ وَإِصْبَاحِ
٢ - بِكُلِّ غَزَال مشرقِ الوَجْهِ وَضَّاحِ
٣ - يُقَدِّمُ أفواهَ الكؤوسِ بِتُفَّاحِ (٣)

٥ - إذا طَلَعَتْ فى راحِهِ أَنْجُمُ الرَّاحِ   فإِنَّا لإِعْظامِ المُدامِ قِيامُ (٤)

١ - وَيَوْمٍ لَدَى النِّيتِىِّ فِى شاطِىءِ النَّهْرِ
٢ - تدارُ عَلَيْنا الرَّاحُ فِى فِتْيَةٍ زُهْرِ
٣ - وَلَيْسَ لَنا فَرْشٌ سِوَى يانِعِ الزَّهْرِ

٦ - يَدُورُ بها عَذْبُ اللَّمى أَهْيَفُ الخَصْرِ   بِفِيهِ مِنَ الثَّغْرِ الشَّنِيبِ نِظَامُ

١ - وَيَوْمٍ بِجَوْفِىِّ الرُّصافَةِ مُبْهِجِ
٢ - مَرَرْنَا بِرَوْضِ الأُقْحُوانِ المُدَبَّجِ
٣ - وَقابَلَنَا فِيهِ نَسِيمُ البَنَفْسَجِ (٥)

٧ - وَلاحَ لَنا وَرْدٌ كَخَدٍّ مُضَرَّجٍ   نَراهُ أمامَ النَّوْرِ وَهْوَ إِمامُ

١ - وَأَكْرِمْ بِأَيَّامِ العُقابِ السَّوالِفِ
٢ - وَلَهْوٍ أَثَرْنَاهُ بِتِلْكَ المَعاطِفِ
٣ - بِسُودِ أَثِيثِ الشَّعْرِ بِيضِ السَّوالِفِ (٦)

٨ - إِذَا رَفَلُوا فِى وشْيِ تِلْكَ المَطَارِفِ   فَلَيْسَ عَلَى خَلْعِ العِذارِ مَلامُ (٧)

---

(٣) التمائم : ما يعلّق فى العنق لدفع العين - يقدّم : يجعل فوق رأس القارورة فدامًا ، أى سدادًا .
(٤) راحة : يده - الراح : الخمر .
(٥) اللمى : سمرة مستحسنة فى الشفتين - أهيف الخصر : ضامر البطن - الشنيب : صفة من الشنب ، وهو ماء ورقّة وعذوبة فى الأسنان ، أو نقط بيض فيها - المدبّج : المزيّن بالديباج .
(٦) العقاب : موضع فى الأندلس - أثيث الشعر : كثيفه .
(٧) المطارف : نوع من الثياب - خلع العذار : الانغماس فى الشهوات .

١ - وَكَــم مَشْهَـدٍ عِنْـدَ العَقيـقِ وَجِسْـرِهِ

٢ - قَعَـدْنَـا عَلَـى حُمْـرِ النَّبَـاتِ وَصفْـرِهِ

٣ - وَظَبْـيٍ يُسَقِّيْنَـا سُـلافَـةَ خَمْـرِهِ

٩ - حَكَى جَسَدِى فِى السُّقْمِ رِقَّةَ خَصْرِهِ لَـوَاحِظُـهُ عِنْـدَ الـرُّنُـوِّ سِـهَـامُ

فَقُـلْ لِـزَمَـانٍ قَـدْ تَـوَلَّـى نَعِيمُـهُ

وَرَثَّـتْ عَلَـى مَـرِّ اللَّيَـالِـى رُسُـومُـهُ

وَكَـمْ رَقَّ فِيـهِ بِـالعَشِـىِّ نَسِيمُـهُ

١٠ - ولاحَتْ لِسَارِى اللَّيْلِ فِيهِ نُجُـومُهُ عَلَيْـكَ مِنَ الصَّبِّ المَشُـوقِ سَلامُ (٨)

وقال أيضًا :

١ - تَنَشَّقَ - مِـنْ عَـرْفِ الصَّبَـا - مَا تَنَشَّقَـا

٢ - وَعَـاوَدَهُ ذِكْـرُ الصِّبَـا فَتَشَـوَّقَـا

٣ - وَمَـا زَالَ لَمْـعُ الْبَـرْقِ - لَمَّـا تَـأَلَّقَـا -

١ - يُهِيبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى تَدَفَّقَا ، وَهَلْ يَمْلِكُ الدَّمْعَ المَشُوقُ المُصَبَّأُ (٩)

١ - خَلِيلَـىَّ - إِنْ أَجْـزَعْ - فَقَـدْ وَضَـحَ الْعُـذْرُ

٢ - وَإِنْ أَسْتَطِـعْ صَبْـرًا فَمِـنْ شِيمَتِـى الصَّبْـرُ

٣ - وَإِنْ يَـكُ رُزْءًا مَـا أَصَـابَ بِـهِ الـدَّهْـرُ

٢ - فَـفِى يَوْمِنَـا خَمْـرٌ، وَفِـى غَـدِهِ أَمْـرُ وَلاَعَـجَـبٌ ، إِنَّ الْكَـرِيمَ مُـرَزَّأُ

١ - رَمَتْنِـى اللَّيَـالِـي عَـنْ قِسِـىِّ النَّـوَائِبِ

(٨) الرّنو : إدامة النظر - رثّت : قدمت - رسومه : آثاره - الصبّ : المغرم والعاشق ، الذى تيمه الحب وأضناه .
(٩) عرف : رائحة - يهيب : يدعو - المصبأ : الذى به صبوة وهى الحنين والشوق .

٢ - فَمَا أَخْطَأتْنِى مُرْسَلاتُ المَصَائِبِ

٣ - أُقَضِّى نَهَارِى بِالأَمَانِى الكَوَاذِبِ

٣ - وَآوِى إِلَى لَيْلٍ بَطِىءِ الكَوَاكِبِ   وَأَبْطأُ سَارٍ كَوْكَبٌ بَاتَ يُكْلأُ(١٠)

١ - أَقُرْطُبَةَ الغَرَّاءِ ! هَلْ فِيكِ مَطْمَعُ ؟

٢ - وَهَلْ كَبِدٌ حَرَّى لِبِيْنِكِ تَنْقَعُ ؟

٣ - وَهَلْ لِلَيَالِيكِ الحَمِيدَةِ مَرْجِعُ ؟

٤ - إِذِ الحُسْنُ مَرْأَى - فِيكِ - واللَّهْوُ مَسْمَعُ   وَإِذْ كَنَفُ الدُّنْيَا - لَدَيْكِ - مُوَطَّأُ(١١)

١ - أَلَيْسَ عَجِيبًا أَنْ تَشُطَّ النَّوَى بِكِ

٢ - فَأَحْيَا كَأَنْ لَمْ أَنْسَ نَفْحَ جَنَابِكِ

٣ - وَلَمْ يَلْتَئِمْ شَعْبِى خِلالَ شِعَابِكِ

٥ - وَلَمْ يَكُ خَلْقِى بَدْؤُهُ مِنْ تُرَابِكِ   وَلَمْ يَكْتَنِفْنِى - مِنْ نَوَاحِيكِ - مَنْشَأُ(١٢)

١ - نَهَارُكِ وَضَّاحٌ ، وَلَيْلُكِ ضَحْيَانُ

٢ - وَتُرْبُكِ مَصْبُوحٌ ، وَغُصْنُكِ نَشْوَانُ

٣ - وَأَرْضُكِ تُكْسَى ، حِينَ جَوُّكِ عُرْيَانُ

٦ - وَرَيَّاكِ رَوْحٌ - لِلنُّفُوسِ - وَرَيْحَانُ   وَحَسْبُ الأَمَانِى ظِلُّكِ المُتَفَيَّأُ(١٣)

١ - أَأَنْسَى زَمَانًا « بِالعُقَابِ » مُغَفَّلا

٢ - وَعَيْشًا بِأَكْنَافِ « الرُّصَافَةِ » دَغْفَلاَ

٣ - وَمَغْنًى - إِزَاءَ « الجَعْفَرِيَّةِ » - أَقْبَلاَ

---

(١٠) يكلأ : يحفظ .

(١١) لبينك : لفراقك - كنف : جانب - موطأ : سهل لين .

(١٢) تشط : تبعد - النوى : نية السفر - شعبى : صدعى .

(١٣) ضحيان : بارز لا يستره ظلام - مصبوح أى شرب شراب الصباح - نشوان : سكران - عريان : صحو .

٧ - لَنِعْمَ مَـرَادُ النَّفْسِ رَوْضًـا وَجَـدْوَلاً وَنِعْمَ مَحَـلُّ الصَّـبْوَةِ المُـتَـبَـوَّأُ(١٤)

١ - وَيَـارُبَّ مَلْهَـى « بِـالْعَقِيـقِ » وَمَجْلِـسِ

٢ - لَـدَى تُـرْعَـةٍ ، تَـرْنُـو بِأَحْـدَاقِ نَـرْجِـسِ

٣ - بِطَـاحُ هَـوَاءٍ مُطْمِـعِ الحَـالِ مُـؤْيِـسِ

٨ - مَغِيـمٍ وَلَكِنْ - مِـنْ سَنَا الـرَّاحِ - مُشْمِسِ إِذَا مَـا بَـدَتْ - فِى كَـأْسِهَا - تَـتَـلأْلأُ(١٥)

١ - وَقَـدْ ضَمَّنَا - مِنْ « عَيْـنِ شُهْدَةَ » - مَشْهَـدُ

٢ - بَـدَأْنَـا وَعُـدْنَـا فِيـهِ ، وَالْعَـوْدُ أَحْمَـدُ

٣ - يَـزُفُّ عَـرُوسَ اللَّهْـو أَحْـوَرُ أَغْيَـدُ

٩ - لَـهُ مَبْسِـمٌ عَـذْبٌ ، وَخَـدٌّ مُـوَرَّدٌ ، وَكَـفٌّ - بِحِنَّـاءِ المُـدَامِ - تُقَنَّـأُ(١٦)

١ - وَكَـائِنْ عَدَوْنَـا - مُصْطَبِحِيـنَ - عَلَى الجِسْرِ

٢ - إِلَـى الجَـوْسَـقِ النَّصْرِيِّ بَيْـنَ الـرُّبَـا الْعُفْرِ

٣ - وَرُحْنَـا إِلَـى الْـوَعْسَاءِ مِنْ شَـاطِـىءِ النَّهْرِ

١٠ - بِحَيْـثُ هُبُـوبُ الـرِّيـحِ عَـاطِـرَةَ النَّشْـرِ عَـلاَ قُضُـبَ النُّوَارِ ، فَهِـىَ تُكَفَّـأُ(١٧)

١ - وَأَحْسِـنْ بِـأَيَّـامٍ - خَلَـوْنَ - صَـوَالِـحِ

٢ - بِمَصْنَعَـةِ الـدُّولاَبِ ، أَوْ قَصْـرِ نَـاصِـحِ

٣ - تَهُـزُّ الصَّبَـا - أَثْنَاءَ تِلْـكَ الأَبَـاطِـحِ -

---

(١٤) مغفّل : غافل - دَغْفل : خصب - مراد : مَرْعى - المتبوأ : المنزل .

(١٥) التُّرْعة : الروضة فى مكان مرتفع أو أفواه الجداول - ترنو : تديم النظر - بطاح : جمع البطحاء ، وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

(١٦) تقنأ : تصبغ باللون الأحمر القانىء .

(١٧) عدونا : جرينا - الجوسق : القصر - الربا جمع الربوة ، وهى الأرض المرتفعة - العفر : جمع عفراء أى بيضاء - الوعساء : الأرض الرملية التى يصعب فيها المشى .

١١ - صَفِيحَةَ سَلْسَالِ المَوَارِدِ سَائِحٍ   تَرَى الشَّمْسَ تَجْلُو نَصْلَهَا حِينَ يَصْدَأُ[١٨]

١ - وَيَا حَبَّذَا « الزَّهْرَاءُ » بَهْجَةَ مَنْظَرِ

٢ - وَرِقَّةُ أَنْفَاسٍ ، وَصِحَّةُ جَوْهَرِ

٣ - وَنَاهِيكَ مِنْ مَبْدَا جَمَالٍ وَمَحْضَرِ

١٢ - وَجَنَّةِ عَدْنٍ تَطَّبِيكَ وَكَوْثَرٍ   بِمَرْأَى يَزِيدُ الْعُمْرَ - طِيبًا - وَيَنْسَأُ[١٩]

١ - مَعَاهِدُ - أَبْكِيهَا - لِعَهْدٍ تَصَرَّمَا

٢ - أَغَضَّ - مِنَ الْوَرْدِ الْجَنِيِّ - وَأَنْعَمَا

٣ - لَبِسْنَا الصِّبَا فِيهَا حَبِيرًا مُنَمْنَمَا

١٣ - وَقُدْنَا - إِلَى اللَّذَّاتِ - جَيْشًا عَرَمْرَمَا   لَهُ الأَمْنُ رِدْءٌ وَالْغَدَاوَةُ مَرْبَأُ[٢٠]

١ - كَسَاهَا الرَّبِيعُ الطَّلْقُ وَشْيَ الخَمَائِلِ

٢ - وَرَاحَتْ لَهَا مَرْضَى الرِّيَاحِ الْبَلاَئِلِ

٣ - وَغَادَى بِنُوهَا الْعَيْشَ حُلْوَ الشَّمَائِلِ

١٤ - وَلاَزَالَ مِنَّا بِالضُّحَا وَالأَصَائِلِ   سَلاَمٌ - عَلَى تِلْكَ المَيَادِينِ - يُقْرَأُ[٢١]

١ - أَإِخْوَانَنَا ! لِلْوَارِدِينَ مَصَادِرُ

٢ - وَلاَ أَوَّلٌ إِلاَّ سَيَتْلُوهُ آخِرُ

٣ - وَإِنِّي - لإِعْتَابِ الزَّمَانِ - لَنَاظِرُ

١٥ - فَقَدْ يَسْتَقِيلُ الجَدُّ - وَالجَدُّ عَاثِرُ -   وَتُحْمَدُ عُقْبَى الأَمْرِ مَازَالَ يُشْنَأُ[٢٢]

---

(١٨) المصنعة : الحوض الذى يجتمع فيه ماء المطر.
(١٩) تطّبيك : تستميلك إليها - يقال يَنْسأ الله أجله أى يؤخره .
(٢٠) الحبير : الناعم الجديد - المنمنم : المنقوش - رده : عون ونصر.
(٢١) الخمائل : واحدتها خميلة ، وهو الموضع تكثر به الأشجار - البليل والبليلة ريح باردة مع ندًى .
(٢٢) الإعتاب : إرضاء العاتب - يشنأ : يبغض ويتجنب .

١ - ظَعَنْتُ ، فَكَانَ الحُرُّ يُجْفى فَيَظْعَنُ
٢ - وَأَصْبَحْتُ أَسْلُو بِالأَسَى حِينَ أَحْزَنُ
٣ - وَقَرَّ - عَلَى اليَأْسِ - الفُؤَادُ المُوَطَّنُ
١٦ - وَإِنَّ بِلادًا - هُنْتُ فِيهَا - لَأَهْوَنُ وَمَنْ رَامَ مِثْلِى بِالدَّنِيَّةِ أَدْنَأُ[٢٣]
١ - وَلا يَغْبِطُ الأَعْدَاءَ كَوْنِىَ فى السِّجْنِ
٢ - فَإِنْ رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَحْصَنُ بِالدَّجْنِ
٣ - وِمَا كُنْتُ إِلاَّ الصَّارِمَ العَضْبَ فى جَفْنِ
١٧ - أَوِ اللَّيْثَ فى غَابٍ ، أَوِ الصَّقْرَ فى وَكْنٍ أَوِ العِلْقَ يُخْفَى - فى الصِّوانِ - وَيُخْبَأُ[٢٤]
١ - يَضِيقُ - بِأَنْوَاعِ الصَّبَابَةِ - مَذْهَبِى
٢ - إِلَى كُلِّ رَحْبِ الصَّدْرِ - مِنْكُمْ - مُهَذَّب
٣ - مَفَضَّضِ لَألاَءِ الأَسَارِيرِ مُذْهَبِ
١٨ - يُنَافِسُ - مِنْهُ البَدْرُ - غُرَّةَ كَوْكَبِ دَرَى أَنَّهَا أَبْهَى سَنَاءً وَأَضْوَأُ[٢٥]
١ - أَسِفْتُ ، فَمَا أَرْتَاحُ - وَالرَّاحُ تُثْمِلُ -
٢ - وَلا أَسْعِفُ الأَوْتَارَ - وَهِىَ تَرَسَّلُ -
٣ - وَلا أَرْعَوِى عَنْ زَفْرَةٍ - حِينَ أُعْذَلُ
١٩ - وَلا لِىَ - مُذْ فَارَقْتُكُمْ - مُتَعَلَّلُ سِوَى خَبَيرٍ مِنْكُمْ - عَلَى النَّأْىِ - يَطْرَأُ[٢٦]

---

(٢٣) الأسى : التأسّى والتجمّل .
(٢٤) الدجْن : الغيم - الصارم العضب : السيف القاطع - الوكْن : عش الطائر حيث كان .
(٢٥) الأسارير : محاسن الوجه أو الخدّان والوجنتان .
(٢٦) تثمل : تسكر - ترسّل : تحرّك - لا أرعوى : لا أنتهى - الزفرة : إخراج النفس بعد مدّة - أُعذل : ألام - مُتَعلَّل بمعنى شاغل يشغلنى وأتلهى به .

١ - حَمِدْتُمْ - مِنَ الْأَيَّامِ - لِينَ خِلالِهَا
٢ - وَسَرَّتْكُمُ الدُّنْيَا بِحُسْنِ دَلالِهَا
٣ - مُؤَمَّنَةً مِنْ عَتْبِهَا وَمَلالِهَا
٢٠ - وَلازَالَ مِنْكُمْ لابِسٌ مِنْ ظِلالِهَا يُسَوَّغُ أَبْكَارَ المُنَى وَيُهَنَّأُ(٢٧)

* * *

(٢٧) يُسَوَّغ : أى يُباح له ويجُوز.

المؤيّد فى الدين الشيرازى

(ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م)

هبة الله بن أبى عمران موسى بن داود ، يلقب بشمس الدين ، ويكنى بأبى نصر ، ولد سنة ٣٩٠ تقريبا بشيراز من أسرة تدين بالولاء للفاطميين ، فنشأ معتنقا مذهب الإسماعيلية ، وبلغ فى العلوم درجة عالية ، فانتهى به الحال إلى أن صار إليه أمر المذهب فى شيراز ثم فى فارس كلها سنة ٤٢٩ ، وقد اتصل فى أثناء ذلك بأحد سلاطين البويهيين فى فارس ، وهو أبو كاليجار ، وحظى لديه زمنًا ، وكاد أن يقنعه بمذهبه الإسماعيلى ، ولكن الأمور لم تجر على ما يرغب فيه ، واضطر بسبب الدسائس إلى أن يهرب إلى مصر سنة ٤٣٧ حيث الخليفة الفاطمى المستنصر ، وحاول أن يكتسب ثقته وقرباه ليبلغ عنده مرتبة داعى الدعاة ، وهى أعلى المراتب الدينية فى المذهب ، ولكنه لم يجد فى أول الأمر اهتماما ، فقد خشى المقرَّبون من الوزراء ورجال القصر من طموحه وذكائه ومقدرته العلمية ، وبعد لأى أمكنه بلوغ ما أراد ، فعينه الوزير اليازورى رئيسًا لديوان الإنشاء ، وصار رجل الخليفة وداعيته القوىّ ، يستعين به فى الملمّات ، وبعثه المستنصر إلى العراق ليمهّد له ضد الخليفة العباسى ، فتمكن مع بعض الأعوان من أن يغرى أحد القادة ببغداد ، وهو البساسيرى ، بإبعاد القائم بأمر الله والدعاء على منابر بغداد باسم المستنصر بالله ، والدعوة للفاطميين ، ولم يدم ذلك سوى عام ، إذ أعاد البويهيون الخليفة العباسى إلى عرشه ، ففرّ الشيرازى إلى القاهرة ، وتولّى فيها مرتبة داعى الدعاة .

وله رسائل متبادلة بينه وبين أبى العلاء المعرى ، اشتملت على محاورات عن تحريم أكل الحيوان ، ومن مؤلفاته : " السيرة المؤيدية " وقد صوّر فيها حياته من سنة ٤٢٩ إلى سنة ٤٥٠ ، و " المجالس المؤيّدية " ، وفيها ثمانمائة مجلس له تشتمل على تأويلات باطنية وأفكار عن المذهب الفاطمى والردّ على من يخالفونه ، أما ديوان شعره فعلى درجة

من الجودة ، وفيه مديح للخليفة المستنصر ومن سبقه من الأئمة ، ودفاع عن البيت العلوىّ وعقيدته ، وفيه أيضا فخر وشكوى ورثاء .

* * * * *

قال المؤيّد الشيرازى يرجز فى الحكمة :

حَمْدًا لربٍ قاهرِ السلطانِ فَرْدٍ مَلِيكٍ باهرِ البُرْهانِ
أَتْقَنَ كُلَّ صَنْعَةٍ وأَحْكَمَا مَنْ ذَا يُردُّ ما بِه قد حَكَمَا
حِكْمَتُه خافقةُ الأعلام تُريكَ وَجْهَ الحقِّ ذا ابتسام
إذا نَظَرْتَ ساعةً فى قَذْرةٍ كَشَفْتَ طامى بَحْرِها عن دُرَرِهْ

كم ناظرٍ بعينه لا يُبْصرُ ومبصِرٍ بالقلب لا يستبصِرُ
ونظرُ المرءِ له شرائطُ تاركُها فى الظُّلمَاتِ خابِطُ (١)
وتلك أن يُوجَدَ شمسٌ أو قَمَرْ أوْ شَعَلٌ - أوْلاً- فلا يُغنِى النَّظرْ
كذلك العقلُ لدَى التبَصُّر بذاته فى حَيِّزِ التحيُّر
إلاَّ بنورٍ عاضدٍ من خارج فعنده يعرُجُ فى المَعَارج
وإنّما أمَّتُنا تفرّقوا إذ بين ذا وبين ذاكَ فَرّقُوا
فمرضت قلوبهم أىَّ مَرَضْ وفَسَدَ الدينُ عليهم وانْتَقَضْ
وأصبحتْ عقولهم مختلّةْ سقيمةً نفُوسُهم معتلّةْ
فسُلبوا سَدادَ قولٍ وعمل وعُرِضوا لكل خَطْبٍ وخَطَل

ونَقَضُوا قواعد الشريعة كُلٌّ له مقالةٌ شنيعةْ
مِنْ مُثْبِتٍ لرؤية الرحمن مستشهدٍ بآيةِ القرآن
ومنكرٍ قد جاءِ يَنْفِى تلكا ودونها الكفرَ يَرى والشِّرْكا

---

(١) خابط : سائر على غير هدى ، والمراد يأتى ما يأتى بجهالة وبغير تبصّر.

وَمَـدَّعٍ فـى الخيـر والشـر معًـا | أنهمـا اللهُ تعـالـى صَنَعـا
وقـائلٍ ذلـك كـلٌّ منـا | وذلكـم دِيـنٌ بـه آمنّـا

وقـائلٍ فـى ظُلَـل الغمـامِ | يـأتـى مـع الملائك الكـرامِ (٢)
وقـائلٍ لله وجـهٌ ويـدُ | وقـولـه هـذا لـديـه رشـدُ

وقـائلٍ ذلـك حُكْـمٌ بـاطـلُ | إنْ صَـحَّ ذا فـالله شَخْـصٌ مـاثِـل
وقـائلٍ بيـده يَسقينـا | فـإن ذا مـن فضلـه يكفينـا
وقـائلٍ يقـول عَـرْشٌ يَحْمِلُـهْ | وهـو يَئِـطّ تحتـه إذ يُثْقِلَـه (٣)
فإن فـى معنى على « العرش استوى » | مُبْتَـدعًـا كـلُّ وَرَكَّـابَ الهـوى
فـواحـد بـالاستـواء قـالا | وواحـد قـال وقـد أحـالا
معنـى استوى استـولـى وهـذا مُكنَتَـهُ | وحـولـه مـن دينـه وقـوتـه
فكـأن حينًـا لـم يكـن مُسْتَـوْليـا | يـا مـنْ غَـدَا عـن الهُـدى مُـوَلِّيـا
وَهْـوَ الـذى قـد حَـرَّفَ الكتـابـا | عـن وجهـه وجـانـب الصـوابـا
يُثْبِـتُ شيئًـا - ليـس فيـه - فيـه | وَحُكْـمَ آيٍ أُحْكِمَـت ينفيـه

كمثـل مـن قـال : « وجـوهٌ نـاضـرة » | قـال : إلـى ثـواب ربـى نـاظـره
ومثـلُ مـن قـال : « وجـاء ربكـا » | قـال : هـو الأمـر خـلاف مـا حكـا

(٢) الظلّ : جمع الظُلَّة ، وهى الغمامة التى تُظِلّ .
(٣) يئط : يصوّت من ثقل الأحمال .

وأنكـروا أن عَـرَضَ الأمـانَـة	على السموات كما أبانَـه
قـالـوا جماد هـي لاتُكلَّـفُ	ومِثْـلَ هـذا الفعْـلِ يـأبَـى المُنْصـف
وإنما أهـلَ السماء قـد عَنـى	وعنهمُ بـاسْـم السماء قـد كَنـى
وبعـد ذاك الأرضُ والجبـالُ	بمثـل هـذا القـول فيها قـالـوا
مـا مَنَـعَ الـرحمـنُ أنْ يُبيِّنَـهُ	أمْكنَهُـمْ قـولٌ ولمـا أمكنَـهْ
قـد جَهِلُـوا مـن الكتَـاب الحكَمَـا	وفيـه كـلٌّ بـالهـوى تَحكَّمَـا
فحيـن ظنـوا أن خَـرْقًـا رَقَعُـوا	فـي مِحْنَـةٍ أعظـم منـه وَقَعُـوا
قلنـا لهـم : أهلُ السمـاء مـن هُـمُ ؟	فقـولهُـم مـلائكٌ يُسَلِّـمُ !
قلنا : فـأهـل الأرض ؟ قـالـوا : النـاس	صـحّ إلـى حيـث انتهـى القيـاس
قـد مَـرَّ ذَا وبقـى الجبـالُ	أأهلُهـا الضِّبـاعُ والأوعـالُ ؟
إن كـان تبـديـلُ الكتـاب عَقْـلا	فَـدَفْعُـه أكثـرُ منـه فضْـلا
يـا ضَعْفَهـم وضَعْـفَ مـا تَقـوَّلـوا	وسُخْـف مـا بـرأيهـم تَـأوَّلـوا

يـا أمـة عُقُـولُهـا معـزولـة	وَهْـيَ إلـى آرائهـا مـوكـولـة
تـوحيـدُهـا التشبيـهُ والتمثيـل	مـا إنْ لَهَـا نَحْـوَ الهُـدَى سبيـل
والأنبيـاء عنـدهـم فُسّـاقُ	قـومٌ بهـم تُفَتَّـحُ الأغـلاقُ
قـالـوا : أبـونـا آدم مـن بِطْنَتِـهْ	أوَّلُ مَـنْ أوْقَـدَ نَـارَفِتْنَتِـهْ
فقـد بـدَا مـن حِـرصِـه على الشجـر	مـا كـان شـرّ ذاك طـائرَ الشـرر
لـو أنـه لـم يَغْـصِ مـا شقينـا	وفـى عـذاب الـدهـر مـا بَقِينـا

قــالــوا : وتلـك حِنْطَــةٌ قـد كـانـت
من قَبلُ عَـزَّتْ ، ثم بعـدُ هـانـت[٤]

أو شَجَــرُ التيــن ، ففيـــه اختَلَفُــوا
وكلهــم عــن رُشْـدِهِـم قـد صُـرِفـوا

يـا عَظْـمَ مـا كـانـت بـه مـن مَخْمَصَـةْ
مُـــورثَـــةٍ إيـــاه هـــذى المنْقَصَـــه[٥]

يـــاذُلَّـــه وعـــزَّ تلــك الحَنْطَــةْ
لِعِــزِّهـــا مـــا أدركتـــه السخطـــةْ

حتـــى لهـــا مـــن الجنـــان أهْبطـــا
ومـــن ذُرَا عَلْيـــائِهـــا قـــد أُسْقِطـــا

أرْضَـــاكُـــمُ ذلـــكَ مـــن مُعْتَقَـــدِ
فـــى آدم الطُّهْـــرِ النبـــى الأمجـــد ؟

جَهِلتـــم مـــن الكتـــاب الحِكَمـــا
ففيـــه كـــلٌّ صـــار أعمـــى أبْكَمـــا

وشـــأنُ إبـــراهيـــم فهـــو أقْطَـــع
لـــديكـــمُ وشـــرْكُـــهُ لأشْنَـــعُ

وقَـــوْلُـــهُ للنجـــم هـــذا ربّـــى
والبـــدرِ لمـــا أنْ بَـــدَا فـــى القُطْـــب

وَجعْلَـــه للشمـــس رَبًّـــا أكبَـــرَا
لكـــونهـــا مـــن بينهـــن أنـــورا

أهَـــونْ إذَنْ بعقلـــه ومَـــذْهبـــهْ
فـــالله لايَغْفِـــرُ أنْ يُشْـــرَكَ بـــهْ

إنْ كَـــان منـــه الشـــرك لايُسْتَنْكَـــرُ
فَغَيْـــرُه فـــى الشـــرك منـــه أعْـــذَرُ

إنِ القُـــران لهـــو نـــور وهُـــدَى
وقـــول حـــق حظّكـــم منـــه الصَّـــدَى

وأمـــر لـــوط عبـــرةٌ للمعتبـــرْ
وَشَـــأنُـــهُ ذِكْـــرَى فَهـــل مِـــن مُـــدَّكِـــرْ

وقـــولـــه : إنَّ بَنَـــاتِـــى أطْهَـــرُ
مِـــنْ حيـــثُ معلـــومكـــم مستنكـــرُ

يـــأبـــاه مـــن كـــانـــت لـــه حَمِيَّـــةْ
ومَـــنْ تَكُـــونُ نفســـه أبيَّـــةْ

نظـــرتُـــم جِـــدًّا ومـــا أبصـــرتُـــمُ
ودِينُكُـــم علـــى العمـــى قَصَـــرْتُـــمُ

وإنمـــا أضْلَلْتُـــمُ السبيـــلا
لأنكـــم فـــارقتـــمُ الـــدليـــلا

---

(٤) الحنطة : القمح .
(٥) المخمصة : المجاعة .

وشـــأنُ داودَ كَلَيْـــلِ داجِ — فـى نَعْجَـةٍ ضَـمَّ إلـى النِّعـاج
ألـم يكـنْ خليفـةً فـى أرضِـهِ — لله فـى إبـرامـه ونقضِـهِ ؟
فَلِـمْ غَـدا إلـى اتِّبـاع الجَهْـلِ — وَلِـمْ تَعَـدَّى مُـوجبـات العقـل
قـد جَـلَّ داودُ عَـنِ الطغيـان — وجَـلَّ قـولُ الله عـن بُهْتـان
لكنمـا الفسـادُ فـى المَعَـارِفِ — والجهـل أقـوى سَبَـبِ المتـالِف

وذِكْـرُ مَـنْ هَمَّـتْ بـه وَهَمَّـا — فقصـةٌ إيـرادُهـا أهَمَّـا
فيـوسـفُ إن كـان هَـمَّ بـالـزنـا — فمـا الـذى يَبْغـى سـواه مَـنْ جَنَـى ؟
كَـذَبْتُـمْ وصَـدَقَ القُـرآنُ — وعنـد أهليـه يُـرَى البيـان

وليـس بـالهَيِّـنِ خَطْـبُ المصطفـى — ومـا بـه مـن شـأن زَيْـدٍ قُـذِفـا
وَهْـوَ سَمَـاءٌ دونَـه السمـاء — ومـا أقَلَّـتْ مثلَـهُ الغبـراء (٦)
جلَّـتْ سمـاءُ العلم عـن مَسعى الهمـمْ — نحـو ذُرَاهـا بـذميمَـات التُّهَـمْ
مـا عـرفـوا تَحقيـقَ معنـى مـا ذُكِـرْ — فـى أمـر زيـد إذ قَضَـى منهـا وَطَـرْ
ولـو هُـدُوا لـذلـك التحقيـق — لمـا بَقـوا للكُفْـرِ فـى مضيـق

يـا قـوم : قـولُ ذا الكتـاب فَصْـلُ — جَـزْلُ المعـانـى ليـس فيـه هَـزْلُ
ففكّـروا فـى « التيـن والـزيتـون » — واستكشفـوا عـن سـرّه المكنـون
ولـمْ أتـى مـن ربِّنـا بـه القَسَـمْ — كمـا أتـى بـالنـون أيضًـا والقلـمْ

---

(٦) الغبراء : الأرض .

والفَجْـــر أيضًــــا وليـــالٍ عَشْــــرِ والشَّفْــعِ بِحَــذْوِ حَــذْوِهــا والــوَتْــر
ومثــل هـــذا فـــى الكتـــاب عِـــدَّه يَجِـــدْه ذا كَثْـــرة مَـــنْ عَـــدَّه
أَهُـــزُوٌ أقْسَـــامـــه بهـــذا أو لَعِـــبٌ مـــاذا الجـــواب مـــاذا ؟
إنْ كـــان بـــرهـــانٌ لكـــم فهـــاتـــوا أو لا - فكفـــوا إنكـــم أمـــواتُ

إن كـــان إعجـــازُ القُـــرانِ لفظًـــا ولـــم يَنَـــلْ مَعْنَـــاه منـــه حَظًّـــا
صَـــادَفْتُـــمُ مَعْقُـــودَهُ محلـــولا مـــن أجْـــلِ أنْ أنكَـــرْتُـــمُ تَـــأْويـــلا

لـــو أنكـــم كَشَفْتُـــمُ الغَطَـــاءَ عـــن القلـــوب آنَسَـــتْ ضِيـــاء
يُنْقِـــذْكـــم مـــن سَـــدَفِ الظـــلامِ فـــاعْتَـــرِفُـــوا مَـــزِيَّـــةَ الإسْـــلام (٧)
وفـــى حـــروفٍ فـــى أوائل الســـوَرْ مقطَّعـــاتٍ لـــلأنـــام معتبَـــرْ
ككهيعـــص الشُّـــورَهْ فكَـــمْ مَعَـــانٍ تَحْتَهَـــا مَنْشُـــوره
جـــاءت لأنْ تُعْلَـــمَ لا أنْ تُجْهَـــلا لَـــو استحـــال علْمُهـــا لَبَطُـــلاَ
إثْبَـــاتُهـــا فـــى مُحْكَـــمِ الكِتَـــابِ ذلـــك ذِكْـــرَى لأولـــى الألْبَـــاب
ورُبَّ مَعْنَـــى ضَمَّـــه كـــلامُ كَمِثْـــلِ نَـــورٍ ضَمَّـــه ظَـــلامُ
بـــاق بَقَـــاءَ الحَـــبِّ فـــى السَّنَـــابِـــل فـــى مَعْقِـــلٍ من أحْـــرَزِ المَعَـــاقِـــلِ (٨)
وإنَّمـــا بَـــابُ المعَـــانِـــى مُقفَـــلُ وأكْثَـــرُ الأنـــامِ عَنْهَـــا غُفَّـــلُ
مفتـــاحُـــهُ أضْحَـــى بـــأيـــدى خَـــزَنَـــهْ بِهِـــمْ الْهِـــى عِلْمَـــهُ قَـــدْ خَـــزَنَـــهُ

---

(٧) السَّدف : الظلمة أو الليل وسواده .

(٨) أحرز المعاقل : أقوى الحصون وأكثرها امتناعا .

كيمَا يَلُوذُ الخلقُ طُرًّا بِهِمُ　　خُصُّوا بهذا النورِ من رَبِّهِمُ
فما أبو حنيفة والشافعى　　حَيْثُهُمُ قد نَفَعُوا بنافع
أولئك الأبرارُ آلُ المصطفى　　ومَنْ بِهِمْ مَرْوَةُ عَزَّتْ والصَّفا
هُمُ البدورُ والنجومُ اللُّمَّعُ　　وللهدى وللعلومِ المنبَعُ
هُمُ الثقاتُ والنُّفَاةُ للشُّبَهْ　　والمُنْقِذُونَ الناس من كلِّ عَمَهْ (٩)
لهم سَمِعْنا ولَهم أطَعْنَا　　فبَدَّلُونا بعد خَوفٍ أمْنَا
فما علينا مُشْكِلٌ بِمُشْكِلِ　　بهم كُفِينَا كلَّ خَطْبٍ مُعْضِلِ
وأرْشَدُونَا سُبُلَ الصوابِ　　وَعلَّمُونا عِلْمَ ذا الكِتَابِ
مبرأً من هُجْنَةِ التَّنَاقُضِ　　مُسلَّمًا مِنْ خَوْضِ كلِّ خائِضِ (١٠)
مُتَفِقًا مُتَّسِقًا مَعْنَاهُ　　كَمِثْلِ ما فى ذاك قال الله
بَعْثًا لنا منهُ على التَدَبُّرِ　　وَهَزَّةً لِهَزِّ هذى الفِكَرِ
لو أنَّه من عند غيرِ اللهِ　　لوجدوا خُلْفًا بِلا تَنَاهِى
وإنْ أجَزْنا ظَاهِرَ الكلامِ　　فى ذاك أسْلَمْناه للخصَام
ففى اختلافاتِ القُرانِ كَثْره　　مِنْ كلِّ قولٍ مع كلِّ زُمْره
هَذى مَقاماتُ الرجال البُزَّلِ　　ليْسَتْ بحَشْو صاحبات المِغزَلِ (١١)
يا قوم سِرُّ الملكوت هذا　　يَجْعَلُ أصْنامكُم جُذاذا (١٢)
سِرٌّ له صاحَبَ موسى الخِضْرا　　قال مَعِى لمْ تَسْتَطِيع صَبْرا

---

(٩) العمه : التحيّر والتردّد ، وهى فى البصيرة كالعمى فى البصر.
(١٠) هجنة : العيب والقبح .
(١١) البُزّل : جمع البازل وهو الذى كَمُلت تجربته .
(١٢) جُذاذ : مقطع مكسّر.

وقـال مـوسـى سـوف ألقـى صـابـرا فَلـمْ يَكُـنْ إذْ ذاك إلا قـاصِـرَا
تـدبـروا القصـةَ مـاذا يَمَّمَـا مِـنْ قَصِّهـا إنْ لَـمْ تكـونـوا نُـوَّمَـا
لعلكـم أن تَحْسَبُـوهـا سَمَـرا إذًا أسَـأْتُـمْ للنفـوسِ النَّظَـرا
مَـنْ كـانَ ذا عَقْـلٍ وذا عينَيْـنِ يَبْلُـغُ حَقًّـا مَجْمَـعَ البحْـرَيْـنِ
يَشْـرَبُ مِـنْ مـاءِ الحياةِ عَجِـلاً لا يبْتَغـى عَنْـهُ بِـوَجْـهٍ حِـوَلا[13]

يـا أمَّـةً أَصْبَـحَ غَـوْرًا مَـاؤُهـا وأمْسَكَـتْ عـنْ صَـوْبِهـا سَمـاؤُهـا
قَـدْ انطـوَتْ مِنَّـا علـى الضَغَـائِنِ وَجَعلَتْنَـا عُـرْضَـةَ المطَـاعِـنِ
مـا نَقَمُـوا مِنَّـا سـوَى الـوَلاءِ لِسَـادَةِ الخَلْـقِ بَنِـى الـزَّهْـرَاءِ
يَـرْمُـونَنَـا بـالكُفـرِ والإلْحـادِ والـزَّيْـغ عَـنْ مَنَـاهِـج الـرَّشَـادِ
قـالـوا : هـم قـد عَطَّلـوا الأديـانَـا وأبْطَلـوا الإسْـلامَ والايمَـانـا
يـا رَبِّ فـاحكُـمْ بيننـا بـالَحـقِّ يـا عـالمـا مَكْنـونَ سِـرِّ الخَلْـقِ
نقـول مـا قيـل لخـاتـم الـرُسُـلْ فـى الـرَّاهِبِيـنَ قُـلْ تَعـالَـوا نبْتهـلْ
ليَلْعَـنِ الـرحمـنُ مِنَّـا الكـاذبـا كيمـا يُـرَى مَـنْ ذَا يُـرَدُّ خَـائِبَـا
نُعَـابُ والمَعِيـبُ مَـن يَعِيـبُ ومـا لنـا مِـنْ أمـرنـا مَعِيـبُ
كمُسْتَمِـرِّ المـاءِ مِـنْ فَـرْطِ السَّقـم وهـو الأليـمُ ليـس بـالمـاء ألَـم[14]
وأيْنَـا فـى الشَّـرْعِ إذ نُثَبِّـتُ كُـلُّ جهـولٍ جـاهِـدٍ يُبَكِّـتُ
نَسْتَنْطِـقُ الأنْفُـسَ والآفَـاقـا أرْضًـا وَسَبْعًـا فَـوقَهـا طِبَـاقَـا
بِحُجَـجٍ مثـل السِّـرَاجِ تلْمَـعُ تَقْصِـمُ كـلَّ مُلْحـدٍ وتقْمَـعُ

(١٣) حِوَل : تحوّل وانتقال .
(١٤) الماء المستمرّ : الذى صار مرًّا .

مـا لِسِوَانـا هَـاهُنَـا مَقَـالُ لَنَـا المَجَـالُ فِيـه والمصَـالُ (١٥)
فكيـف شَـرْعَ الأنبيـاءِ نَـدْفَـعُ ومـا لَنَـا إلا النبـىَّ مَـرْجِـعُ
بِنُـورِهِ فـى الـدرجـاتِ نَـرْتَقـى وبـالكِـرَام الكـاتبيـن نَلْتَقـى
يـا رَبِّ فَـالْعَـنْ جَـاحـدى الشـرائع وارْمِهِـم بـأَفْجَـع الفَجَـائِع
والْعـنْ إلٰهـى مَـنْ يَـرَى الإبـاحـهْ بِلَعْنَـةٍ فـاضحَـةٍ مُجْتَـاحَـه
والعـن إلٰهـى غَـالِيًـا وقَـالِيًـا ولا تَـذَرْ فـى الأرْض مِنْهُـم بـاقيـا (١٦)
يـا ربِّ إنـا منهـم بَـرَاء هُـمْ واليَهُـودُ عِنْـدَنـا سَـوَاء
فَـأَخْـزِهِـمْ وَأَخْـزِ مَـنْ رَمَـانـا بِـرِيبَـة ولَقِّـه الهَـوَانـا
فـإنـنـا لأَهْـلُ عِلْـمٍ وعَمَـلْ لله دِنَّـا بِهِمَـا عَـزَّ وَجَـلْ (١٧)
نُـوَحِّـد الله ولا نُشَبِّـهُ قـد انْتَفَـتْ فـى الـديـن عَنَّـا الشُّبَـهُ
بـالمصطفـى وآلـه اقْتَـدَيْنَـا ثـم بِهِـم لا جَـرَمَ اهْتَـدَيْنَـا
فمـا لَنَـا مـن دونِ تَقْـوَى لُبْـسُ ومـا علينـا فـى اعتقـادٍ لَبْـسُ
يـاعَجَبـا مِـنْ مُـولَـعٍ بطَعْنِـهِ وسَبِّـه لعُصْبَـةٍ ولَعْنِـهِ
ودينُـه أَضْحَـى كنَسْـج العَنْكَـبِ يـزَاحِـمُ النَّـاسَ بغيـر مَنْكَـب
كعصبَـةٍ ذكـرُهُـمُ تَقَـدَّمَـا كـلُّ سبيـلَ رَشْـدِه قـد عَـدِمَـا
زَهَـاكَ مـن غُـرِّ القـوافـى مَصْـدَرُهْ عَمَّـنْ زَكـا مِـنْ كـلِّ عَيْـبٍ جَـوْهَـرُهْ
نَظْمُ ابـنِ مـوسـى وَهْـوَ عبـدُ الظاهـرِ ذاك الإمـامُ ابـنُ الإمـام الطَّـاهِـرِ
صَلَّـى عَلَيْـه رَبُّنَـا وسَلَّمَـا كَمَـا بِـهِ أنقَـذَنَـا مِـنَ العَمَـى

* * *

(١٥) المصال : السطوة والوثبة .
(١٦) الغالى : المتشدّد المفرط المتجاوز الحدّ - القالى : الكاره المبغض .
(١٧) دِنّا : خضعنا .

وقال فى الاعتبار :

بَـــدِيـــعُ شُكْـــرٍ وَوَسِيــعُ حَمْـــدِ — لِمُبْـــدِعِ الكَـــافِ الـــرفِيـــع المجْـــدِ
أكْمَلَـــهُ سُبْحَـــانَـــهُ إذْ أَبْـــدَعَـــهُ — مُبْتَـــدِيًـــا واخْتَـــرَعَ النُّـــون مَعَـــه
ثـــم أَقَـــامَ مِنْهُمـــا مَـــا قَـــدْ عَـــلاَ — لِخِفَّـــةٍ ومـــا لِثِقـــل سَفُـــلا
مِـــنْ فَلَـــكٍ طُـــولِ الـــزمـــان دَائِرِ — ومـــن شَهَـــابٍ طَـــالِـــع وغـــائر
والأرض لمـــا أصبحـــت مَهَـــادَا — ومـــن جبـــالٍ رَسَخَـــتْ أوْتَـــادَا
وحيـــوانٍ بـــاخْتِـــلافِ الجنْـــس — كـــامَلِـــةٍ فيهـــا أداةُ الحـــسِّ
ومـــن أنـــاس سَخَّـــرُوهـــا عنـــوَةْ — إذْ أصْبحُـــوا منهـــا لعمـــرى الصَّفْـــوةْ
بـــألْسُـــنٍ عـــن أنفـــس مُتَـــرجمـــه — كـــاشفـــة عشـــواء كـــل مظلمـــه
وإنَّمَـــا الإنْسَـــانُ بـــاللســـانِ — وشَـــرَفُ اللســـان بـــالبيـــان

مـــا النـــون يـــا صـــاح تُـــرَى والكـــافُ — فـــالخَلْـــقُ دُرٌّوهمـــا أَصْـــدَافُ
إنَّ الـــذى ظَنَّهُمـــا حَـــرْفَـــىْ هِجَـــا — مُسْتَوجِـــب مِنْ ذى الحِجا كُـــلَّ هِجا
هَـــل كـــافـــل بـــالأرض والسمـــاء — يـــا عُمْـــى حَـــرْفـــان مـــن الهجـــاءِ ؟
تَفَهَّمُـــوا يـــا قـــوم مـــا الحـــرفـــان — إن نجـــاةَ المـــرءِ بـــالعِـــرفـــان
مـــا فَـــاعِـــلُ العَـــالِـــم كـــالمفعـــول — كـــلاً ولا الحَـــامِـــلُ كـــالمَحْمُـــول
دَعْـــوَتُـــه قـــائمـــةٌ فـــى العـــالـــم — عَـــالِيَـــةٌ ظَـــاهِـــرَةُ المعَـــالِـــمِ
لَـــه المقـــامُ والصَّفَـــا والمَشْعَـــرُ — وسَيْفُـــه بيـــن الأعَـــادِى يُشْهَـــر
تَـــأمَّلـــوا مَـــنْ هـــذه الأعـــلامُ — تُـــوَجـــدُ فيـــه فهـــو الإمـــام
أجـــل هـــو المستنصـــر المنصـــورُ — مـــولـــىً بـــه بَيْـــتُ الهُـــدَى مَعْمـــورُ

أبـو تميـم خَيْـرُ نَسْـلِ فـاطـم نَجْـلُ الإمـام الظـاهـر بـن الحـاكـم

ومَعْـدِنُ العُـدَّة فـي المعـاد ورحمـة الله علـى العبـاد

صَلَّـى عليـه الله مـا نـام نمـا رَوْضًـا ومِـنْ صَـوْبِ الغَمـامِ ابْتسمـا

لابـن أبـي عِمْـران فـي المـوالـي نَظْـمٌ كنظـم الـدر والـلآلـي

مسـائل تجْمَعُهـا قَصَـائِدُ قصـائدُ لكنهـا مَصَـائِدُ

مصـائدٌ لـراغـب مُنْتَـرْشِـدِ مَصَـائِبُ لكـل عَـاتٍ مُعْتَـد

أَبْلَـغُ مـن صَميـم قلـب القَـالِـي بـالقَـوْلِ مَـا لا تَبْلُـغُ العَـوالـي

بِحُجَـج منيـرة كـالشُّهُـب بَعيـدة مـن الخَنـا والكـذِبِ

مـا راعنـي مـن ذي وعيـدِ صَـوْتُ مـن بعـد مـا هـان علـيّ المـوت

رَيْحـانِتـي المـوتُ وبـاب أمْنِـي إذ كنـت أرْجُـو مَخلصي مـن سجنـي

* * *

وقال فى مطوّلة له :

قَـدْ مَحـا آيَـةَ الشَّبَـابِ المشيـبُ ... وَدَنَـا للحِمَـام منـى الـرقيـبُ

ضَعْـفُ جِسْـمٍ ، ووَهْـنُ عظـم ، ولـونٌ ... قَـدْ بَـدَت فيـه صُفْـرَةٌ وشُحـوبُ

وجَمَـالٌ سُلِبْتُـهُ وَبَهَـاءٌ ... طِيـبُ عَيْـشٍ بِسَلْبِـهِ مَسْلـوبُ

وسـوادٌ بُـدِّلـتُ منـه بيـاضـا ... هُـو فـى العيـن أسـود غِـرْبيـبُ (١)

كـلُّ هـذى دلائلٌ بيِّنَـاتٌ ... واضحـاتٌ أنَّ الـرحيـل قـريـب

أتُـرانـى ذاك الـذى كنـت قِـدْمًـا ... أم سِـواه ؟ فـإن شَـانـى عَجِيـبُ

أين منى - إنْ كنْتُ مَـن كنـت - عـود ... نـاضـرٌ زاهـرٌ وغُصْـنٌ رَطِيـبُ

وجَمَـالٌ فـى القَـدِّ واللَّفْـظ واللَّحـظ ... خَلـوبٌ لكـل قَلْـبٍ نَهُـوبُ

ويـدٌ لـم تَـزَلْ تَطـولُ بيـأس ... كـم ثنـى دونهـا العِنَـانَ الخُطَـوبُ

ولسـانٌ فـى حَلبَـةِ النَّظْـم والنَّثـر ... بـأبكـار كـل مَغْنًـى لَعُـوبُ

وجَنَـانٌ يَلْقَـى المنَـايـا كِفَـاحًـا ... ويُـلاقـى الضِّـرغـامَ وَهْـوَ غَضُـوبُ

قـدْ تَـوَلَّـى جَمِيعُـهُ وتَقَضَّـى ... فَقُصَـاراىَ مِنْـهُ دَمْـعٌ صَبِيـبُ

وفُـؤَادٌ مِـنْ حَسْـرَةٍ يَتَقَلَّـى ... وَهْـو مـن صـرْف دَهْـرِهِ منكـوب (٢)

قَـدْ تـولـى فلَيْـسَ يَنْفَـعُ رَاقٍ ... وتَقَضَّـى فليـس يُغْنِـى طَبِيـبُ (٣)

أَنـا فـى « دار غُـرْبَـةٍ » وحَقيـقٌ ... غَيْـرُ بِـدْعٍ إنْ ذَلَّ فِيهَـا الغَـريـب

دارُ جهـدٍ ومحنـةٍ وَبـلاء ... بـالأذى طيبهـا الـزمـان مشـوب

---

(١) غربيب : شديد السواد .
(٢) يتقلى : يتقلّب متململاً كأنه على المقلى .
(٣) الراقى : صانع الرقية وهى العوذة التى يُرقى بها المريض ونحوه .

عُـزنُهَـا النُكرُ، حُلـوهـا المـرُّ، فحشٌ ... فِعْلُهــا ، كــلُّ وَغــدِهــا مكْــذُوبُ
عِزُّهـا الـذُّل ، جُـودُها البُخـل ، عُسْرٌ ... يُسْــرُهــا ، كـلُّ شــأنها مَقْلــوبُ
دَار عَيْــبٍ تَــركَّــبَ الجِسْــمُ منهــا ... فهــو شَيْــنٌ كمِثْلِهــا وعُيُــوبُ
هَمُّــهُ مــا يــدوم أكــلٌ وشـرْب ... وَمَــداه قضــفٌ ولهْــوٌ وطِيــبُ
شَــائِبٌ قَـدْ حَـوى نَقَـائص شَتـى ... فــاضحــاتٍ بِشَيْبِـهِ مــا تَشيـبُ
طَمَعًــا عِقْــدُه قَــوىٌ وثيــق ... ومُنًــى لُبْسُهــا طَـرىٌ قَشيــبُ
يَتَمــادَى فــى سُكْـرِهِ والمَنَــايــا ... شَــرَكٌ لاخْتَــرَامِــه مَنْصُــوبُ

آهِ مــن شِــرّه الهــوى إنّ عقلــى ... مُسْتَضَــامٌ مِــنَ الهَــوى مَغْلــوبُ (٤)
آهِ مِنِّــى فــالظُّلــمُ مِنِّــى لنفســى ... مــا عَــدَانــى عَــذْلٌ ولاتَثْــريــبُ
لِـمْ ضيَّعْــتُ فــى الغــوايــة عمْـرى ... ومَجَــالــى مــن الــرَّشــادِ رَحيــبُ
لــمْ أُعَنِّــى بِمُظْلــم الجســم منــى ... وكــأنــى بــه تُــراب تَــريــب
وأُضِيــع النــورَ الــذى أنــا منــ ... ــه لِلكِــرام المُقَــرَّبيــن نَسيـب
أُمْــذِلٌ دُرّاً نفيسًــا مُعِـــزٌّ ... صَــدَفًــا هينــا خسيسًــا أريــب

مــا عــدانــى ممــا بــدا أجْنَــابٌ ... كجَنَــابــى مــن الــوَلاءِ خَصيــبُ
مــا اعتــذارى ودَعْــوةُ الحَــقّ شخـصٌ ... أنــا مــولُــودُ حِجْــرهِ والــرَّبيــبُ
مــا اعتــذارى ومنـزلــى الحَـرمُ الآ ... مِــنُ مَــنْ لــم يَلُــذْ بــه مَـرْغُــوبُ
وبنــو أحمــد الــرِّضــى وعلــىٌّ ... عُــدَّتــى للمــآبِ حيــن أءُوب

(٤) شِرَّة : حِدّة - مستضام : مغبون ذليل .

المــوالـــى الأزكَــوْن فَــرْعًــا وأَصــلا   كــلُّ مَجْــدٍ مــن مَجْـدِهــم مكســوبُ
المــوالـــى مُحْيُــو العِظــام البــوالـــى   مَــنْ لــذكــراهُــمْ تُــذلُّ الصُّعــوب
المــوالـــى مِــنَ القُــرون الخَــوَالِــى   والبــواقـــى كــل إليهـــم يئــوب
يَقْسِمــونَ الجِنَــانَ والنــار فيهــم   فلكـــلٍّ نصيبـــه المَــوْجُــوبُ
وهُـــمُ المُسْتَجـــارُ إذ لا مجيـــرُ   ومجيبــو المضطـــر إذ لا مجيـــب
الهـــداة الثقـــات حـــرز المـــوا   لـيــن إذا مــا أَظَــلَّ يَــوْمٌ عَصيـبٌ
البحـــور البـــدور لـــم تَلْـــقَ نقْصًـــا   مِــنْ نُضُــوبٍ ولــم يَشِنْهــا غُــروب (٥)
منهـــمُ ظـــل رحمـــة الله ممـــدو   د ومـــاءُ الهُـــدَى بهـــم مَسكُـــوبُ
(جَبــلُ الطُّــور) منـــه نسمـــع نجـــوى الله فينـــا وعنـــه تَبْـــدُو الغيُــوبُ
وعُيــونُ الــرحيــق نَشــرَبُ منهــا   وأخُــو الغَــىّ للحميــم شَــرُوبُ (٦)
يــا بنــى المصطفــى إليكــم إليكــم   فــى المُلمَّــات يَفْــزَعُ المكْــرُوبُ
يــابنــى المصطفــى لــديكــم لــديكــم   أمــلٌ فــى نفــوسنــا مَطْلــوبُ
أنتُـــمُ أنتُـــمُ الغيـــاث إذا مـــا   أوْبَقَــتْ ذا الــذُّنــوبِ مِنَّــا الــذنــوبُ
أنتُـــمُ أنتُـــمُ الغيـــاث إذا مـــا   حـــان حَيـــنٌ لنـــا وآن مغيـــبُ
يــا مــوالــىَّ كيــف أثنــى عليكــم   وقُصـــاراى مـــن ثَنَـــائى لُغُـــوبُ (٧)
قَــدْ خُلِقتـــمْ مـــن طينـــةٍ وخُلقنـــا   نحـــنُ منهـــا لكـــنْ بَـــدَا تـــرتيـــبُ
إن أَجسَـــامكـــم لنـــاشئـــة الطِّيـــنِ   الـــذى منـــه شـــقَّ منـــا القلـــوب
فَعِــذيــرى إن لــم أطِــقْ مَــدْحَ قــوم   ذا لـــديـــوانِ مَـــدْحهـــم تشبيـــبُ

---

(٥) لم يَشِنها : لم يعبْها .
(٦) الغيّ : الضّلال - الحميم : الماء الحار.
(٧) لغوب : تعب وإعياء .

وعليهـم صلـى إلـه البـرايـا ... مـا هَمى مـن سَحَـابـةٍ شَـؤْبـوب[8]
وعلـى مـن يلـى الـوراثـة منهـم ... ومنـاب الهُـدَاةِ منهـم يَنُـوبُ
الإمـام المُحيـى لمـن قـد دَعـاهُ ... فهنيئًـا لمَـنْ لـه يَسْتَجيـبُ
خَيْـر راع مُسَلِّـمٌ مَـا رعَـاهُ ... والـذى مَـا رَعـى رَعـاهُ الـذِّيـبُ
والكتـابُ النَّطُـوق بـالحـق والصـد ... ق وعنـه يُكَشَّـفُ المَحْجـوبُ
الإمـامُ المُستَنْصِـر العـدلُ مـوْلا ... نَـا سِـرَاجُ الـدُّجـى النَّسيـبُ الحَسيـبُ
ذاك مـولـى لـه المـوالـى عبيـد ... مِثْـلُ نحْـل خَـلا لهـا يعسـوب[9]
وهَـو يجْلـو دِيـنَ الهُـدَى ويُجلـى ... غَيْهَـبَ الشَّـكِّ منـه وهـو مُـريـبُ
للمـوالـى القِـدْحُ المُعَلّـى مـن الدِّيـنِ ... كمـا السهـمُ فـى التُّجَـاهِ المُصيـبُ
ومُعَـادِيـةِ دِينُـه جـاهِلـى ... مَـا لـهُ فـى جِنَـانِ عَـدْنٍ نَصيـبُ
هِبَـةُ الله إن يَكُـنْ لـكَ حَـرْبًـا ... صَـرْفُ دَهْـرٍ فَـأنـتَ منـه حـريـب
وبسيـف الجَفَـاءِ مِـنْ كـلِّ وغـدٍ ... أنـتَ فـى كـلِّ حَـالـةٍ مَضْـرُوب
فـلأنـت الأَعلـى فصبـرًا جميـلا ... إن ذا الصبـر فـى البـلاءِ نجيـب

* * *

---

(٨) همى : سال - الشؤبوب : الدفعة من المطر.
(٩) اليعسوب : ملكة النّحل ، ويقال : هو يعسوب قومه أى رئيسهم وكبيرهم .

وقال مادحًا :

ألا حَيِّيَا أيُّها الصَّاحِبانِ … مَغَانِى بِاطِيَهَا مِنْ مَغَانِى
مَغَانٍ بِفَارِسَ سُكَّانُها … حَبَائِبُ ما القَلْبُ عَنْهُم بِغَانِى
وقولا رَمَتْنى مِنْ بَعدكم … بِسَهْم الزَّمَانَةِ أيدى الزَّمان (١)
لقَدْ كُنْتُ أسْطو بِسَيفينِ لِى … قَوِىِّ الجَنَانِ جَرِىءِ اللِّسانِ
فَقَصَّرَتْ النَّائِبَاتُ اللِّسَان … كما أضْعَفَتْ قُوَّتِى فى الجنان
فإنْ يكُنْ المرءُ بالأصْغَرَين … فَإنى قَدْ خَانَنى الأصْغَرانِ (٢)
وَقَدْ كُنْتُ فى صورة الناس قَبلا … ولكنَّ منها مَحَانِى امتِحانِى
فَقلْبى ولبِّى مَعًا عَازِبان … وَعَيْنَاىَ عَيْنَانِ نضَّاخَتَانِ (٣)
كفانى دمع كثر الجمان … على صحن خدى من ترجمان
كفانى أعنِّى مُعَنِّى الفُؤَاد … مُعَنى السُّهَادِ ولِلذُّلِّ عَانِى
كفانىَ فَقْدُ الولىِّ الحَميم … ومِنْ بَعْدِهِ أنا بَاقٍ كَفَانِى
وكُنَّا غَرِيبَيْن فى بَلْدةٍ … كَطيْرَين باتا عَلى غُصْن بَان
فأصْبَحَ مُقْتَنَصًا واحدٌ … ومُرْتَقِبًا زَجْرَةَ الأخْذِ ثَانِى
لِقيتُ العَنَا فِى حِمَى رأحتى … وشَاهَدْتُ عىِّ بِمَثْوَى البَيَانِ
وكم مِنْ أمَانِىَّ بُلِّغْتُهَا … وها أنا أطلبُ مِنَها أمَانِى
لقَدْ كُنْتُ ذا هِمَّةٍ فى العُلاَ … أبِيتُ ومِنْ دُونِىَ الفَرقَدَانِ
فأصْبَحتُ مُنْتَكِسًا قد ثوَى … بِحيثُ الثُّرَيَّا الثَّرَى مِنْ مكانى

---

(١) الزَّمانة : مرض يدوم .
(٢) الأصغران : القلب واللسان .
(٣) عازبان : بعيدان خافيان - نضّاختان : غزر دمعهما وكثر .

وإنـــى لجـــانٍ ثِمـــار الـــذى غَـــرَسْــتُ وَحُــقَّ عِقَــابٌ لِجَـانِــى
سـآخـذ فـى الـذِّكـر مِمـا عَنـانـى وأُثْنــى إلــى طُــولِ شُكْــرِ عِنَـانِــى
فــإنـــى لقيــتُ إمَــامَ الــزَّمــانِ وَمَــا زَالَ ذَلــكَ قُصْــرَى الأَمَــانِــى
وكـــان بَعيــــدا جَنــى الجنَّتَيْـــن فـــأَمسَــى بِــوِجْــدانِــهِ وَهْــوَ دَانِــى
إمـــامُ هُـــدًى بَـــانَ للعـــالميـــن بِبُنْيَـــانِ مَجْـــدٍ لَـــهُ اللهُ بَـــانِــى
« وعَيْــنُ اليَقِيــنِ » التــى لــم تَــزَلْ لنـــا خَيَـــرًا فبـــدَتْ للعَيَـــانِ
معـــدٌّ أيـــا شـــافِعــى فــى المعـــاد وأَكْفَـــى مَعِيـــنٍ وأوفـــى مَعَـــانِ
أجِـرْنـــى فَفيــك كـــوَانــى الـــزَّمـــانُ ومَـــا بَـــاذِلٌ فِيــكَ نَفْسًـــا كـــوانِـــى
فكــن بــاسِــط الكــفِّ لــى بــاللُّقــاء فَقَــدْ نِلــتُ مِــنْ بُلْغتِــى مــا كفــانــى
أيَــا ثَــانِــىَ المــرتضــى فــى الفَخَــار وَمَــنْ هُــوَ خَــاتــم سَبْــعٍ مَثَــانِــى
ويَــا مُشْبِــه المصطفــى فــى النَّجــار وَعَـــلاَّمَ مُشتبــِهِ فـــى القُــرآنِ (٤)
لقـــد ران كفـــرٌ علـــى قلـــبِ مَـــن إلـــى العَسْكَـــرِىِّ لَـــهُ الطَّـــرْفُ رانِـــى
صَـــدٍ وهـــو تـــاركُ عـــذبَ فُـــرات وطَـــالِبــهُ حَيْــثُ لافــى الكَيَــانِــى (٥)
وقــد قـــامَ منــه إمـــامُ الـــزَّمـــان بمـــا لايَقُـــومُ بـــه الـــوالـــدان
رَمـــى الله مَـــن هـــذه حـــالـــه بِبُـــؤْس الـــزَّمـــان وبـــأس الهَـــوَانِ
وَرَدَّ ابـــن مـــوســـى إلـــى أَهلِـــه بـــإصـــلاح شَـــان عَلـــى رَغْـــم شَـــانِ

* * *

---

(٤) النَّجار : الأصل والحسب .
(٥) صَدِى : عطشان - فُرات : شديد العذوبة .

ابن حَيّوس

(٣٩٤ - ٤٧٣ هـ / ١٠٠٣ - ١٠٨٠ م)

هوأبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حَيُّوس الغنوى الدمشقى ، يتصل نسبة بقبيلة غنىّ النجديّة ، من عرب عدنان المضريّة .

ولد بدمشق ، ونشأ فى بيت أهله على قدر من اليسار وبحبوحة العيش والمكانة الرفيعة ، وقد ورث قدرا من الجاه عن والديه ، واتصل منذ شبابه بأحد كبار قادة الفاطميين فى أثناء وجوده بدمشق ، وهو أنوشتكين الدِّزبِرى ، رجل الحاكم بأمر الله القوى بالشام ، وكان عمر الشاعر فى أوّل لقائه بالدزبرى اثنتى عشرة سنة ، ومنذ ذلك الحين ، قويت صلة الشاعر بالقائد ، وتوالت مدائحه فيه ، وظلت هذه العلاقة قائمة نحو ثلاث عشرة سنة ، هى زمن بقاء القائد بدمشق .

ونلحظ فى مدائحه للدزبرى كثرة ترديده لقوله إنه لا يبغى مالاً ، بل كل ما يهدف إليه بلوغ مكانة لدى القائد وسادته من الفاطميين ، وتوفى الدزبرى فقصد الشاعر بمدائحه وإلى دمشق من بعده الأمير ناصر الدولة الحمدانى ، ثم اتّصل ببعض وزراء الفاطميين بمصر كاليازورى من كبار وزراء المستنصر الفاطمى ، ولقى الشاعر منه حفاوة فى رحلته إلى القاهرة ، وكان قد وفد إليها ، وبقى بها زمنا .

وتولّى الوزارة محمد بن جعفر المغربى ، فتوجّه إليه ابن حيوّس بالمديح عام ٤٥٤ ، وكان هذا آخر عهده بوزراء مصر ، ومن بعده اضطربت أحوال الوزارة والخلافة إلى حين ، كذلك اضطربت أحوال الفاطميين بالشام بخروج بعض أمراء القبايل العربية ورؤسائها على سلطة الخلافة ، ومنهم المرداسيون الذين استقلّوا بحكم حلب زمنا ، وشاءت ظروف الحياة بالشام أن يتوجّه بمديحه إلى من آلت إليهم السلطة من بنى مرداس ، فارتحل ابن حيوس إلى حلب ، لتقديم الولاء للسادة الجدد وإعلان ولائه من خلال عديد من مدائحه إلى أن توفى عن نحو ثمانين عاما .

ويمكن القول بأنه كـان مدّاحا يغلب عليه اتّخاذ المديح وسيلـة للقربى من ذوى السلطان ، وبأن شعره تقليدىّ فى معظمه .

* * * * *

قال ابن حيوس يمدح أمير الجيوش الدِّزْبرى :

هَــلْ للْخَلِيـطِ الْمُسْتَقِـلِّ إِيَـابُ ... أَمْ هَـلْ لأَيَّـامٍ مَضَـتْ أَعْقَـابُ (١)
سَرَتِ النَّـوائِبُ عَنْكَ رَوْنَقَ مَـنْ سَرٰى ... وَاسْتَحْقَبَـتْ لَـذَّاتِـكَ الْأَحْقَـابُ (٢)
مـا بَـالُ طَيْـفِ الْمـالِكيَّـةِ مُعْـرِضًـا ... ولَقَـدْ عَهِـدْنـا طَيْفَهَـا يَنْتَـابُ
أَلِـرِقْبَـةِ الْـوَاشِيـنَ أَوْجَـسَ رِيبَـةً ... فَـارْتَـاعَ أَمْ بِـوِدَادِنَـا يَـرْتَـابُ
يَـامَـيُّ هَـلْ لِـدُنُـوٍّ دَارِكِ رَجْعَـةٌ ... أَمْ لِلْعِتَـابِ لَـدَيْكُـمُ إِعْتَـابُ
لاَأَرْتَجِـى يَـوْمًـا سُلُـوًّا عَنْكُـمُ ... هَيْهَـاتَ سُـدَّتْ دُونَـهُ الْأَبْـوَابُ
أَوْصَـابُ جِسْمِـى مِنْ جِنَـايَةِ بُعْـدِكُمْ ... وَالصَّبْـرُ صَبْـرٌ بَعْـدَكُـمْ أَوْصَـابُ (٣)
دَامَـتْ سَحَـابَـةُ تَحْتَ ظِـلِّ سَحَـابَـةٍ ... وَجَـرٰى عَلَـى دَارِ آلـرَّبَـابِ رَبَـابُ (٤)
وَسَقَـى بِقَـاعَ الْجُـونِ جَـوْنٌ مُـرْزِمٌ ... مَـا لِلـذِّهَـابِ الْغَمْـرِ عَنْـهُ ذَهَـابُ (٥)
فَلَقَـدْ عَهِـدْتُ بِهَـا مَعَـاهِـدَ لِلصِّبَـا ... مَـأْهُـولَـةً تَحْتَلُّهَـا الْأَحْبَـابُ
وَأَمَـا وَمَـا عَهِـدُوا إِلَيْنَـا إِنَّـهُ ... عَهْـدٌ يُحَـقُّ لِحَقِّـهِ الْإِيجَـابُ
لاَخَـامَـرَ السُّلْـوَانُ قَلْـبَ مُتَيَّـمٍ ... هَـاجَتْ لَـهُ فِـى إِثْـرِهِـمْ أَطْـرَابُ (٦)
كَـاسٍ مِـنَ الْأَسْقَـامِ جُـرِّعَ لِلنَّـوٰى ... كَـأْسًـا لَهَـا رِيـقُ الْحُبَـابِ حَبَـابُ (٧)
وَتَعَـاوَرَتْـهُ نَـوائِبٌ بِنُيُـوبِهَـا ... إِنْ كَـلَّ نَـابٌ نَـابَ عَنْـهُ نَـابُ (٨)

(١) الخليط : القوم أو المخالط ويطلق على الشريك والجار والزوج وابن العم – المستقلّ : المرتحل .
(٢) يقال : سرا الشيء عنه بمعنى نزعه وكشفه وألقاه ، وسرا فلان أى شرُف – استحقبت : احتملت – الأحقاب : المدد الطويلة من الدهور .
(٣) أوصاب : أوجاع وأمراض الصاب : شجر عصارته بالغة المرارة .
(٤) لعل " سحابة " الأولى علم لامرأة أو مكان – الرباب الأولى : من أسمائهن ، والثانية : السحاب الأبيض .
(٥) الجَوْن بمعنى السحاب الأسود – المرزم : الشديد الصوت – الذِّهاب : الأمطار الغزار .
(٦) أطراب : أشواق .
(٧) الحباب – بضم الحاء : الحيّة ، وبفتحها : الفقاقيع تعلو الماء .
(٨) نوائب : كوارث – سَحُل : ضعف .

جَابَ الْفَيَافِي الْمُؤْيِدَاتِ وَآلُهُ ... آلٌ تَمَكَّنَ فِيهِ قَلْبٌ جَابُ (٩)
قَصَرَ الزَّمَانُ يَدِي وَطَالَتْ هِمَّتِي ... فَالْعَزْمُ لِي دُونَ الرِّكَابِ رِكَابُ
لَمْ أُكْثِرِ الإِضْرَابَ عَنْ تَرْكِ الْعُلَى ... إِلاَّ لِيَقْعُدَ دُونِيَ الأَضْرَابُ (١٠)
لاَ أَيْأَسُ الإِتْرَابَ مُذْ نَطَقَتْ بِهِ ... عِنْدَ الْمُظَفَّرِ أَنْعُمٌ أَتْرَابُ (١١)
مَلِكٌ إِذَا مَا الْجَوْدُ غَبَّ هُمُولُهُ ... فَلَدَيْهِ جُودٌ مَالَهُ إِغْبَابُ (١٢)
سَهُلَتْ خَلاَئِقُهُ لِبَاغِي نَيْلِهِ ... لَكِنَّهُنَّ عَلَى الْعَدُوِّ صِعَابُ
تُمْضَى الْوَسَائِلُ فِي ذَرَاهُ لِطَالِبِ الْـ ... ـجَدْوَى وَتُقْضَى عِنْدَهُ الآرَابُ (١٣)
بِشْرٌ يُبَشِّرُ مَنْ يَرُومُ نَوَالَهُ ... وَالْبِشْرُ مِنْ قَبْلِ الثَّوَابِ ثَوَابُ
تُرْجَى مَوَاهِبُهُ وَيُضْحِي خَوْفُهُ ... وَلَهُ بِأَلْبَابِ الْوَرَى إِلْبَابُ (١٤)
مُتَبَايِنُ الأَوْصَافِ أَمَّا عِرْضُهُ ... فَحِمَى وَأَمَّا مَالُهُ فَنِهَابُ (١٥)
غَدَتِ الأَمَانِي وَالْمَنُونُ بِكَفِّهِ ... فَالأَرْيُ فِيهَا بِالسِّمَامِ يُشَابُ (١٦)
يُقْنِي وَيُفْنِي وَعْدُهُ وَوَعِيدُهُ ... هَذَا جَنًى عَذْبٌ وَذَاكَ عَذَابُ (١٧)
وَإِذَا يُهَابُ الْخَطْبُ عِنْدَ حُلُولِهِ ... فِيهِ لِدَفْعِ النَّائِبَاتِ يُهَابُ (١٨)

---

(٩) الفيافى المؤيدات : الصحراوات ذات الدواهى – آله بمعنى شخصه – آل : ضامر – جأب : جاف غليظ .
(١٠) الإضراب : الكف والإعراض – الأضراب : جمع الضريب ، وهو الشبيه والنظير .
(١١) الإتراب : كثرة المال – أتراب : جمع التِّرب وهو المماثل .
(١٢) الجود – بفتح الجيم : المطر الغزير ، وبالضم : السخاء والبذل – همول : سيلان – غبّ : جاء فى الحين بعد الحين ، ويقال : فلان لايُغِبّنا عطاؤه أى يأتينا كل يوم .
(١٣) ذراه : كنفه – الجدوى : العطيّة – آراب : جمع إرب وهو الحاجة .
(١٤) الألباب – بفتح الهمزة : العقول ، وبكسرها : اللزوم والإقامة .
(١٥) نِهاب : جمع نهب أى غنيمة أو منهوب .
(١٦) الأرى : العسل – السِّمام : كلّ مادّة سامّة .
(١٧) أقناه : رضّاه وأغناه – الجنى : العسل أو كلّ ما يجنى من الشجر .
(١٨) يهاب – الأولى : من الهيبة أى الخشية ، والثانية : من أهاب به إهابة أى دعاه .

سَالِ عَنه الْبِيضِ الْحِسَانِ فَمَا لَهُ — إلاَّ هَوَى الْبِيضِ الْقَواضِبِ دَابُ (١٩)
لَيْثٌ أَظَافِرُهُ الأَسِنَّةُ وَالْقَنا — عِرِّيسُهُ وَلَهُ الظُّبَى أَنْيابُ (٢٠)
إِنْ بانَ بانَ الْمَوْتُ فى نَظَراتِهِ — أَوْ غابَ فَالسُّمْرُ الشَّواجِرُ غابُ (٢١)
خِرْقٌ إذا كَتَبَتْ إِلَيْهِ كَتِيبَةٌ — مَرَقَتْ فَلَيسَ سِوَى السُّيُوفِ جَوابُ (٢٢)
وَإِذا حمَى الأَصْحابُ نَفْسَ مُمَلَّكٍ — فَبِسَيْفِهِ يَسْتَعْصِمُ الأَصْحابُ
بِفَتَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيْفِهِ — عَمِرَتْ بِلادُ اللهِ وَهْىَ خَرابُ
نَزَلَتْ كِلابٌ بِالْجَنابِ وَأَتْهَمَتْ — طَىٌّ وَعَزَّتْ فى ذَراهُ جَنابُ (٢٣)
وَلِمُصْطَفَى الْمُلْكِ اعْتِزامُ الْمُصْطَفَى — لَمَّا أَحاطَ بِيَثْرِبَ الأَحْزابُ (٢٤)
فَتْحانِ يَوْمَ الأَرْبَعاءِ كِلاهُما — لِلْكُفْرِ عَنْ حَرَمِ الْهُدَى إِذْهابُ
يَوْمانِ لِلإِسْلامِ عَزَّ لَدَيْهِما — دِينُ الإلَهِ وَذَلَّتِ الأَعْرابُ
ذا لِلنَّبِىِّ وَذا لِمُنْتَجَبِ ابْنِهِ — رَدّا مَشِيبَ الْحَقِّ وَهْوَ شَبابُ
وَصَلَتْ عِداتُكَ لِلإِمَامِ بِصِدْقِها — فَتَقَطَّعَتْ بِعُداتِكَ الأَسْبابُ (٢٥)
وَدَعاكَ عُدَّتَهُ فَكُنْتَ ذَخِيرَةً — يُنْفَى بِها ضَيْمٌ وَيُدْفَعُ عابُ (٢٦)
أَلْهَيْتَ عَنْ يَوْمِ الْكُلاَبِ بِوَقْعَةٍ — شَقِيَتْ بِها عِنْدَ اللِّقاءِ كِلابُ (٢٧)

---

(١٩) السالى : التارك الناس - البيض القواضب : السيوف القاطعة - الدأب : العادة والشأن .
(٢٠) العِرّيس : الشجر الملتفّ يكون مأوى الأسد - الظبى : جمع الظبة وهى حدّ السيف والسنان وغيرهما .
(٢١) السمر الشواجر : الرماح المختلفة المتداخلة .
(٢٢) الخرق : الفتى الكريم فى سماحة ونجدة .
() كلاب وطيّ وجناب : قبائل عربية .
(٢٤) يثرب : المدينة المنوّرة - يوم الأحزاب هو غزوة الخندق .
(٢٥) العدات - بكسر العين : جمع عِدَة بمعنى الوعد - العداة - بالضم : جمع العادى وهو العدوّ
(٢٦) العاب : العيب والوصمة .
(٢٧) يوم الكُلاب من أيام العرب المشهورة كان بين ملوك كندة وبنى تميم .

وَرُمُوا بِداهِيَةٍ لِبَكْرٍ عِنْدَها ... بَكْرُ الْخُطُوبِ وَلِلضِّبابِ ضِبابُ (٢٨)
طَلَبُوا الْعِقابَ لِيَسْلَمُوا بِنُفُوسِهِمْ ... فَابْتَزَّهُمْ دُونَ الْعِقابِ عُقابُ (٢٩)
وَاسْتَشْعَرُوا نَصْرًا فَكانَ عَلَيْهِمُ ... وَتَقَطَّعَتْ دُونَ الْمُرادِ رِقابُ
كانُوا حَدِيدًا فِى الْوَغَى لَكِنَّهُمْ ... لَمَّا اصْطَلَوْا نارَ الْمُظَفَّرِ ذابُوا
نارٌ تُنِيرُ لِطارِقِيهِ عَلَى النَّدَى ... وَشَرارُها عِنْدَ الْحُرُوبِ حِرابُ
لَمْ يَبْلُغِ الآرابَ فِيكَ مَعاشِرٌ ... أَجْسامُهُمْ غِبَّ الْوَغَى آرابُ (٣٠)
فَلُحُومُهُمْ لِلْحائِمَاتِ مَطاعِمٌ ... وَدِماؤُهُمْ لِلْمُرْهَفاتِ شَرابُ (٣١)
وَحُماتُهُمْ قَتْلَى وَجُلُّ مَتاعِهِمْ ... نَهْبٌ وَكُلُّ سِلاحِهِمْ أَسْلابُ
فِى مَأْزِقٍ تُجْرِى الْقَنا فِيهِ قَنًى ... حُمْرًا لَها مُهَجُ الْكُماةِ عِذابُ (٣٢)
كَاللَّيْلِ لا بَرْقُ الأَسِنَّةِ خُلَّبٌ ... فِيهِ وَلا لَمْعُ النُّصُولِ سَرابُ (٣٣)
وَتَماطَرَتْ خَيْلُ اللِّقاءِ كَأَنَّها ... غَيْثٌ تَصَوَّبَ وَالْقَتامُ سَحابُ (٣٤)
لَمْ يَبْدُ لِلأَعْداءِ إِلاَّ عَسْكَرٌ ... أَوْ عِثْيَرٌ عَنْ عَسْكَرٍ مُنْجابُ (٣٥)
أَرْدَتْ سُيُوفُكَ صالِحًا فَأَقامَ فِى ... دارِ الْبِلَى وَحَدِيثُهُ جَوّابُ (٣٦)

---

(٢٨) بكر والضِّباب : قبيلتان عربيتان – وضباب – الثانية : جمع الضّب وهو الحقد والعداوة .

(٢٩) العقاب – بالكسر : مصدر عاقبه أى جزاه سوءا بما فعل ، وبالضم : طائر من الكواسر .

(٣٠) آراب – الأولى : بمعنى الحاجات ، والثانية : بمعنى الأعضاء ، مفرده : إرب ، والمعنى أن أجسامهم صارت أشلاء .

(٣١) الحائمات : الطيور التى تحوم وتدور حول الأشياء المرهفات : السيوف المرقّقة المحدّدة .

(٣٢) القنا : الرماح – القِنى : جمع القنوة وهو ما اكتسب – المهج : الأرواح ، واحدها : مهجة – الكُماة : جمع الكامى وهو المحارب الشجاع الجرىء الذى يستر نفسه بالدرع والبيضة + عذاب : جمع عذْب وهو السائغ من الشراب والطعام .

(٣٣) البرق الخُلّب : الذى يرعد ولا مطر معه – النصول : جمع النصل وهو حديد الرمح والسهم وغيرهما .

(٣٤) يقال : تماطر السحاب أى مطر ساعة وكفّ أخرى – تصوّب بمعنى انحدر – القتام : الغبار الأسود .

(٣٥) العثير : الغبار – منجاب : منكشف .

(٣٦) صالح : هو أسد الدولة صالح بن مرداس الكلابى أول ملوك بنى مرداس بحلب ، تملكها سنة ٤١٤ فجهز إليه الظاهر الفاطمى سنة ٤١٩ أنوشتكين الدزبرى فى عسكر كثيف ، فلما سمع الخبر خرج إليه وتقدم حتى تلاقيا على الأقحوانة بالقرب من طبرية وانجلت الوقعة عن قتل صالح المذكور سنة عشرين وقيل تسع عشرة وأربعمائة .

لَمْ تَحْمِهِ الأَصْحَابُ حِينَ اقْتَدْتَهُ ... وَلَهُ إِلَى حَوْضِ الرَّدَى إِصْحَابُ
غَادَرْتَ بِالزُّرْقِ الرِّهَافِ إِهَابَهُ ... وَعَلَيْهِ مِنْ قَانِى النَّجِيعِ إِهَابُ (٣٧)
فَبَلَغْتَ أَمْرًا لَوْ سِوَاكَ يَرُومُهُ ... لَثَنَاهُ طَعْنٌ دُونَهُ وَضِرَابُ
وَأَبَى الْمُهَنَّدُ أَنْ يُفَلَّلَ حَدُّهُ ... وَاللَّيْثُ أَنْ تَغْدُو عَلَيْهِ ذِئَابُ (٣٨)
صَفَحَتْ صِفَاحُكَ عَنْ أُنَاسٍ أَيْقَنُوا ... أَنَّ الْهَزِيمَةَ مِنْ سُطَاكَ صَوَابُ (٣٩)
فَمَضَتْ لِطِيَّتِهَا قَبَائِلُ طَيِّىءٍ ... فَرَقًا وَحَشْوُ صُدُورِهِمْ إِرْهَابُ (٤٠)
وَاسْتَنْفَقَ الرَّكْضُ الْجِيَادَ فَخَيْلُهُمْ ... مَهْرِيَّةٌ وَسُرُوجُهُمْ أَقْتَابُ (٤١)
وَانْقَادَ بَعْضُ الْمَارِقِينَ إِلَى الْهُدَى ... بَعْدَ الضَّلَالِ فَطِبْتَ لَمَّا طَابُوا
حَقَّقْتَ ظَنَّهُمُ الْجَمِيلَ وَزِدْتَهُمْ ... أَضْعَافَ مَا أَمَّلُوهُ حِينَ أَنَابُوا
هَذِى الْمَفَاخِرُ لَا مَفَاخِرُ تُدَّعَى ... مَيْنًا وَيَحْجُزُ دُونَهَا أَسْبَابُ (٤٢)
مَنْ مُبْلِغُ الأَتْرَاكِ أَنَّ أَمِيرَهُمْ ... بِفَعَالِهِ تَتَجَمَّلُ الأَنْسَابُ
وَالْمَرْءُ مَنْ كَسَبَ الْعُلَى لَمْ تَرْفَعِ الْ ... أَنْسَابُ مَنْ لَمْ تَرْفَعِ الأَحْسَابُ
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِى هَانَتْ بِهِ ... نُوَبُ الزَّمَانِ وَعَزَّتِ الآدَابُ
أَدْعُوكَ لِلْخَطْبِ الْمُبَرِّحِ عَالِمًا ... أَنَّ النِّدَاءَ إِلَى نَدَاكَ يُجَابُ
فِى حَيْثُ تَحْجُبُنِى عُلَاكَ مِنَ الرَّدَى ... كَرَمًا وَمَا دُونَ الثَّرَاءِ حِجَابُ
اِمْنَحْ مَقَالِى سَمْعَ مِثْلِكَ إِنَّهُ ... شَرَفِى فَأَنْتَ الْمَانِحُ الْوَهَّابُ

---

(٣٧) قانى النجيع : الدم الشديد الحمرة - الإهاب : جلد الحيوان قبل دبغه .
(٣٨) المهنّد : السيف - يفلّل : يثلم ويكسر فى حدّه .
(٣٩) الصفاح : جمع صفيحة وهى وجه السيف العريض - السُّطا : شدة البطش .
(٤٠) كان حسّان بن المفرج بن الجرّاح الطائى أمير طيىء محالفا لصالح بن مرداس ، وكان هو وقبيلته مع صالح فى وقعة الأقحوانة - طيّتها : حاجتها - الفرق الجزع وشدّة الخوف .
(٤١) الأقتاب : جمع القتب وهو الرحل الصغير على قدر سنام البعير.
(٤٢) المين : الكذب .

وَاسْعَــدْ بِتَشْــرِيـفِ الإِمــامِ فَــإِنَّ أَذْ　　نَــاهُ إِلـى أَعْلَــى الْمَــرَاتِـبِ بَــابُ
خِلَـعٌ لَبِسْـتَ بِهـا الْمَفـاخِـرَوَاكْتَسَـتْ　　بِـكَ فَـوْقَ مـا أَلْبَسْنَـكَ الأَثْـوابُ (٤٣)
وَسَــوابِــقٌ حُمِّلْـــنَ مِنْــكَ يَلَمْلَمًــا　　عَجَبًـا لِطِــرْفٍ تَمْتَطِيــهِ هِضَـــابُ (٤٤)
وَجَـواهِــرٌ غَمَـرَ النُّضــارَ شُعـاعُهـا　　فَعَلَيْـــهِ مِـــنْ أَنْـوارِهـا جِلْبــابُ (٤٥)
عَقَّـى عَلَـى الإِطْنـابِ وَصْـفُ مَنـاقِـبٍ　　لِخِيَـامِهَـا فَـوْقَ السُّهـا أَطْنَـابُ (٤٦)
حَسُنَـتْ أَحَـادِيـثُ الأَمِيـرِ فَحَسَّنَـتْ　　مَــا أَلَّــفَ الشُّعَــراءُ وَالْكُتَّــابُ
فَـوْقَ الْمَنَــابِـرِ نَثْـرُهـا وَبِنَظْمِهـا　　يَتَعَلَّـــلُ السَّـــارُونَ وَالشُّـــرَّابُ
وَمِــنَ الثَّنَــا عَـرَضٌ وَمِنْــهُ جَـواهِــرٌ　　وَمِــنَ الْجَـواهِــرِ جَـامِـدٌ وَمُـذابُ
رَوَّيْـتَ تِـرْبَ الْمَجْـدِ تُـرْبَ مَـدَائِحٍ　　لِسُهُـولِهـا وَوُعُـورِهـا إِعْشَـابُ (٤٧)
وَالأَرْضُ تُجْـدِبُ حِيـنَ يَهْجُـرُهـا الْحَيـا　　وَيُصـابُ فِيها الْخِصْبُ حِينَ تُصابُ (٤٨)

＊＊＊

(٤٣) الخلع : ما يخلعه المعطى على غيره من ثياب ونحوها ويلبسه إياها .
(٤٤) يلملم : جبل على مرحلتين من مكة - الطِّرْف : الكريم من الناس .
(٤٥) النضار : الذهب .
(٤٦) الإطناب : المبالغة والإكثار من الكلام - الأطناب : جمع الطنب وهو الحبل تشدّ به الخيام ونحوها - المناقب : المفاخر والفعال الكريمة - السها : كوكب .
(٤٧) الترب - بكسر التاء : المماثل ، وترب الرجل هو الذى وُلد معه ، وبالضم : التراب - إعشاب من قولهم أعشب المكان أى نبت عشبه .
(٤٨) تُصاب : تُمْطر، يقال : صاب المطرُ الأرض .

وقال يمدح الشريف فخر الدولة نقيب الطالبيين : (١)

هَـوَاكُـمْ وَإِنْ لَـمْ تُسْعِفُـونـا وَلَـمْ تُجْـدُوا عَلَى مـا عَهِدْتُـمْ وَالنَّوى لَـمْ تَحِنْ بَعْـدُ (٢)
وَفَيْنـا وَلَـمْ نَسْمَـعْ مَقـالَـةَ قـائِلٍ : إِذَا ظَلَـمَ الْمَفْقـودُ لَـمْ يُـؤْلِـمِ الْفَقْـدُ
وَحَكَّمَكُـمْ فِينـا الْغَـرَامُ فَجُـرْتُـمُ وَكَـمْ حَكَـمَ الْمَـوْلى بِمـا كَـرِهَ الْعَبْـدُ
غَـرَامٌ كَمـا شـاءَ التَّغَـرُّبُ وَالنَّـوى وَسُقْـمٌ كَمـا تَهْـوى الْقَطِيعَـةُ وَالصَّـدُّ
بَلَغْتُـمْ مِـنَ الْإِعْـرَاضِ وَالْهَجْـرِ وَالقِلـى مَـدىً لَـمْ يَـزِدْفِيـهِ التَّفَـرُّقُ وَالْبُعْـدُ (٣)
فَـإِنْ نَشَـدَ الْعُـذْرِيُّ فِـى الْحَـيِّ عَنْسَـهُ نَشَـدْتُ كَـرًى مـا لِلْجُفُـونِ بِـهِ عَهْـدُ (٤)
وَيـا حَبَّـذَا رِيـحٌ عَلَـى مـا تَحَمَّلَـتْ تَـرُوحُ بِـرَيَّـاكُـمْ مِـنَ الشَّـامِ أَوْ تَغْـدُو
تُهَيِّـجُ أَشْـوَاقًـا وَتَنْقَـعُ غُلَّـةً فَفِيهـا الضَّنـى وَالْبُرْءُ وَالصَّـابُ وَالشَّهْـدُ
وَرَبْـعٌ بِمُقْـرى لا الْعَقِيـقُ وَلاَ اللِّـوى وَوَرْدٌ بِسَطْـرى لاَ الْعَـرَارُ وَلاَ الْمَـرْدُ (٥)
وَحـالِيَـةٍ بِـالْحُسْـنِ خـالِيَـةٍ بِـهِ تَعَـرُّضُهـا هَـزْلٌ وَإِعْـرَاضُهـا جِـدُّ (٦)
هِـلاَلِيَّـةٍ فـى أَصْلِهـا وَمَـرَامِهـا حَمَتْهـا ظُبَـى هِنْـدِيَّـةٌ وقَنًـا مُلْـدُ (٧)
عَشِيَّـةَ لَـمْ نُعْـطَ الْعَـزَاءَ بِمَـوْقِـفٍ لَكُـمْ مَقْصَـدٌ مِـنْ بَعْـدِهِ وَلَنـا قَصْـدُ

(١) هـو الشريف فخر الدولة أبو يعلى حمزة بن الحسن بن العباس بن أبي الجن ولد سنة ٣٦٩ ، ولى النقابة بمصر) وولى قضاء دمشق من قبل الظاهر بن الحاكم الفاطمى ، وجدّد بدمشق مساجد ومنابر وقنوات وأجرى الفوّارة التى فى جيرون (عند باب الجامع الأموى الشرقى ويسميها الدماشقة اليوم النوفرة كما يسمون باب الجامع الشرقى باب النوفرة ويطلقون على المحلة كلها محلة النوفرة) وكان كريمًا كثير الصدقات وتوفى بدمشق سنة ٤٣٤
(٢) لم تجدوا : لم تعطوا .
(٣) القلى : الهجر والإبغاض .
(٤) نشد : طلب – العنس : الناقة القوية .
(٥) مقرى : قرية فى نواحى دمشق – العقيق : كلّ مسيل ماء شقّه السيل فى الأرض فأنهره ووسعه ، وفى بلاد العرب أعقّة كثيرة كعقيق اليمامة وعقيق المدينة وغيرهما – اللوى : منقطع الرمل وموضع بعينه وهو واد من أودية بنى سليم – سطرا : من قرى دمشق ومتنزهات الغوطه – العرار : النرجس البرىّ – المرد : ثمر الأراك .
(٦) حالية : مزيّنة بالحلى – خالية : فاتنة .
(٧) مُلد : ناعمة لينة ، واحدها : أملد .

بَكَيْنا فَأَضْحَكْنا الْحَسُودَ وَزادَنا بُكاءً هَديرُ الْبُزْلِ وَالرَّكْبُ قَدْ جَدُّوا (٨)
نُريكُمْ بُكاءَ السُّحْبِ وَالْبَرْقُ ضاحِكٌ وَإِضْعافَها التَّهْطالَ إِنْ قَهْقَهَ الرَّعْدُ
فَلاَ تُظْهِرُوا سُخْطًا إِذَا لَمْ يَكُنْ رِضًى وَلاَ تُكْثِرُوا ذَمًّا إِذَا لَمْ يَكُنْ حَمْدُ
وَلاَ تُنْكِرُوا فَالدَّهْرُ مُدْنٍ وَمُبْعِدٌ حَوَادِثَ فِيها ضاقَ بِالصَّارِمِ الْغِمْدُ
قَطَعْتُ مِنَ النَّيْلِ الزَّهِيدِ عَلاَئِقِي فَلِي أَبَدًا فِيهِ وَفِي أَهْلِهِ زُهْدُ
وَيَمَّمْتُ فَخْرَ الدَّوْلَةِ الْوَاهِبَ الْغِنَى وَشِيكًا وَفِي أَثْنائِهِ الْعِزُّ وَالْمَجْدُ
فَأَسْرَفَ فِي إِنْعامِهِ مُتَبَرِّعًا كَريمَ النِّجارِ ما لَهُ فِي الْوَرَى نِدُّ (٩)
بِهِ يَحْسُنُ الإِسْرَافُ لأَبهى وَبِالْمُنى وَيَقْبُحُ بِي مَعْ فِعْلِهِ لأَبِهِ الْجَحْدُ
وَكَيْفَ وَقَدْ شاعَتْ وَسارَتْ غَرَائِبٌ يُكَرِّمُ مَنْ يَشْدُو بِهِنَّ وَمَنْ يَحْدُو
وَيَبْقَى عَلَى الأَحْسابِ مِنْها مَياسِمٌ وَتَنْفَعُ إِذْ لاَ يَنْفَعُ الْمالُ وَالْوُلْدُ (١٠)
وَتَحْمِلُها هُوجُ الرِّياحِ مُغِذَّةً إِلَى كُلِّ أَرْضٍ قَصَّرَتْ دُونَها الْبُرْدُ (١١)
عَلَى أَنَّها دُونَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ وَإِنْ طالَتِ الأَقْوَالُ وَاسْتُفْرِغَ الْجَهْدُ
أَحاطَ بِها عِلْمًا وَأَثْنَى ثَوَابَها عَليمٌ كَريمٌ عِنْدَهُ النَّقْدُ وَالنَّقْدُ (١٢)
سَريعٌ إِلَى الإِقْدامِ وَالْجُودِ ما لَهُ إِذَا عَرَضا إِلاَّ اهْتِبالٌ لَهُما وَكْدُ (١٣)
فَما يَسْبِقُ الْعَدْوَى عَلَى ذِي جِنايَةٍ وَعِيدٌ وَلاَ الْجَدْوَى وَإِنْ لَمْ يُسَلْ وَعْدُ

---

(٨) هدير البعير : ترديد صوته فى حنجرته - البُزْل : جمع البازل وهو البعير الذى طلع نابه وذلك فى السنة الثامنة أو التاسعة .
(٩) ندّ : مثيل ونظير .
(١٠) المياسم : السمات وآثار الجمال .
(١١) الهوج : الرياح الشديدة الهبوب التى تقلع البيوت - مغذّة : مسرعة .
(١٢) النَّقد : التمييز، والنَّقد : الدرهم .
(١٣) الاهتبال : الاغتنام - الوكد : القصد والهمّ .

وَأَرْوَعَ تُصْبِيهِ الْمَكَارِمُ وَالْعُلى ... إِذَا غَيْرُهُ أَصْبَتْهُ زَيْنَبُ أَوْ هِنْدُ (١٤)

هَوىً لَنْ يَحُلَّ دُونَ الْمُرُوءَةِ فِى الصِّبى ... وَلاَ حُلَّ فِى عَصْرِ الْمَشِيبِ لَهُ عَقْدُ

لَهَا عَاذِلُوهُ فِى اللُّهى عَنْ مَلاَمِهِ ... فَعَذْلُهُمُ جَزْرٌ وَأَنْعُمُهُ مَدُّ (١٥)

فَهَلْ قَالَتِ الآمَالُ زَاجِرَةً لَهُمْ ... وَسَاخِرَةً وَالْحَقُّ لَيْسَ لَهُ رَدُّ

« أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لاَ أَبَا لأَبِيكُمُ ... مِنَ اللَّوْمِ أَوْسُدُّوا الْمَكَانَ الَّذى سَدُّوا » (١٦)

إِذَا رَامَ ذُو حَدٍّ وَجَدٍّ مَرَامَهُ ... نَبَا صَارِمٌ فِى كَفِّهِ وَكَبَا زَنْدُ (١٧)

نَدًى بَعْضُهُ أَغْنَى الْعُفَاةَ وَبَعْضُهُ ... إِلَى كُلِّ أَرْضٍ لَمْ يَفِدْ أَهْلُهَا وَفْدُ (١٨)

وَفِكْرٌ يُرِيهِ الأَمْرَ أَبْلَجَ وَاضِحًا ... وَمِنْ دُونِهِ لَيْلٌ مِنَ الْغَيْبِ مُسْوَدُّ

وَعَزْمٌ لَهُ حَدٌّ لَدَى الرَّوْعِ مَا نَبَا ... يُجَاوِرُهُ الْجُودُ الَّذى مَا لَهُ حَدُّ

فَلَوْ سَبَقَا لَمْ تَفْتَخِرْ بِابْنِ مَامَةٍ ... إِيَادٌ وَلَمْ تَذْكُرْ مُهَلَّبَهَا الأَزْدُ (١٩)

فَلاَ يُضِعِ الْبَاغِى مَدَاهُ عَنَاءَهُ ... فَأُخْرَاهُ إِكْدَاءٌ وَأَوَّلُهُ كَدُّ (٢٠)

أَلَسْتَ ابْنَ مَنْ رَدَّ الْخُطُوبَ كَلِيلَةً ... وَلَوْلاَهُ لَمْ تُقْلِعْ نَوَائِبُهَا الرُّبْدُ (٢١)

حَوَادِثُ سَادَ الشَّامُ فِيهَا بِكُلِّ مَنْ ... بِهِ وَدِمَشْقٌ دُونَ بُلْدَانِهِ مَهْدُ

وَإِنْ شِدْتَ لِلْبَيْتِ الَّذى أَنْتَ فَخْرُهُ ... مَنَاقِبَ يَسْتَعْلِى بِهَا الأَبُ وَالْجَدُّ

---

(١٤) تصبيه : تستميله .

(١٥) عاذلوه : لائموه – اللهى : جمع لهُوه وهى العطية الجزيلة – الجزر : انحسار ماء البحر عن الشاطىء ، وضده : المدّ .

(١٦) البيت للحطيئة ، أخذه ابن حيّوس على سبيل التضمين .

(١٧) نبا السيف : لم يصب – كبا الزند : لم يخرج ناره ، والزند هو العود الأعلى الذى تقدح به النار .

(١٨) العفاة : جمع العافى ، وهو كلّ من يطلب المعروف والفضل .

(١٩) ابن مامة وهو كعب بن مامة الإيادى – المهلّب هو ابن أبى صفرة الأزدى .

(٢٠) الإكداء : الافتقار بعد الغنى أو الإلحاح فى المسألة – الكدّ : طلب الرزق والاشتداد فى العمل .

(٢١) الرّبد : جمع الأربد ، وهو الذى اختلط سواده بكدرة .

أَسَامَكَ جَاؤُا فِى الـزَّمَانِ وَإِنَّهُمْ وَرَاءَكَ فِى الإِفْضَالِ وَالْفَضْلِ إِنْ عُدُّوا
تَفَرَّقَ فِيهِمْ سُؤْدُدٌ فَجَمَعْتَهُ وَزِدْتَ كَمَا أَرْبِى عَلَى الْخَبَبِ الشَّدُّ (٢٢)
كَذٰلِكَ أَنْوَارُ النُّجُومِ خَفِيَّةٌ إِذَا مَا جَلاَ أَنْوَارَهُ الْقَمَرُ الْفَرْدُ
وَإِنَّ أَدِيمَ الأَرْضِ لاَ شَكَّ وَاحِدٌ وَمَا يَسْتَوِي فِيهَا الشَّوَاهِقُ وَالْوَهْدُ (٢٣)
عَلَى أَنَّهُمْ طَالُوا الْكِرَامَ الأُلَى حَوَوْا مَنَاقِبَ لاَيُحْصَى لهَا وَلَهُمْ عَدُّ
وَقَدْ فَخَرَتْ قِدْمًا تَمِيمٌ بِدَارِمٍ عَلَى أَنَّهَا قُلٌّ وَإِنْ كَثُرَتْ سَعْدُ (٢٤)
غُيُوثُ نَدىً تَغْدِي عَلَى الْمَحْلِ كُلَّمَا عَدَا وَلُيُوثٌ وَالْجِيَادُ بِهِمْ تَعْدُو (٢٥)
وَكَمْ أَطْرَقُوا بَعْدَ الْمَوَاهِبِ حِشْمَةً وَكَمْ طَرَقُوا بَابَ الثَّنَاءِ فَمَا رُدُّوا
فَهُمْ فَضُلُوا مَنْ عَارَضُوا بِفَضَائِلٍ عُيُونُ الْوَرَى عَنْ طُرْقِهَا أَبَدًا رُمْدُ (٢٦)
إِذَا أُفْحِمُوا قَالُوا وَإِنْ خَنَعُوا نَخَوْا وَإِنْ بَخِلُوا جَادُوا وَإِنْ هَزَلُوا جَدُّوا (٢٧)
وَتَلْقَاهُمُ خُرْسًا لِذِى الْهُجْرِ وَالْخَنَا وَإِنْ فَاضَلُوا أَوْ نَاضَلُوا فَهُمُ لُدُّ (٢٨)
وَإِنَّكَ أَغْنَى النَّاسِ عَنْ ذِكْرِ سَالِفٍ إِذَا فَاحَ عَرْفُ الْمِسْكِ لَمْ يُذْكَرِ الرَّنْدُ (٢٩)
غَنِيتَ بِنَفْسٍ لاَتُنَافَسُ فِى عُلَى أُعِينَتْ بِجَدٍّ لاَيُفَارِقُهُ جِدُّ
لَئِنْ ذُدْتَ عَنْهَا كُلَّ ذِى شَغَفٍ بِهَا فَلاَ غَرْوَ أَنْ تَحْمِى عَرَائِنَهَا الأُسْدُ

---

(٢٢) الخبب : العَدْو والإسراع .
(٢٣) الشواهق : المرتفع من الجبال والأبنية - الوهد : الأمكنة المنخفضة .
(٢٤) تميم : قبيلة عظيمة من العرب العدنانية ، وبنو دارم بن مالك بطن من تميم وأشرافهم كثيرون ، وبنو سعد بن زيد مناة من تميم أيضا .
(٢٥) المحْل : الشدّة ، ويبس الأرض من الكلأ .
(٢٦) رمْد : جمع أرمد وهو الذى هاجت عينه وانتفخت .
(٢٧) خنعوا : ذلوا وخضعوا أو فجروا وأتوا أمرًا قبيحا - نخوا : افتخروا وتعظّموا .
(٢٨) الهُجْر : الهذيان والقبيح من القول - الخنا : الفحش فى الكلام - لدّ : جمع الألد وهو الذى اشتدّت خصومته.
(٢٩) عَرْف المسك : رائحته - الرّنْد : شجر طيّب الرائحة .

وَإِنْ جـاوَزَ الْجَـوْزَاءَ دَسْتٌ علـوْتـهُ فَقَـدْ طالَهـا مِـنْ قَبْـلِ أَنْ تُفْطَمَ الْمَهْـدُ (٣٠)
فَـلاَ زَالَـتِ الأَعْيـادُ تَـأْتِـى وَتَنْقَضِـى وَجُـودُكَ مُمْتَـارٌ وَظِلُّـكَ مُمْتَـدٌّ (٣١)
سَقـانِـى غَمـامٌ هـاطِـلٌ مـا انْتَجَعْتُـهُ فَـأَغْنـى كَمـا أَغْنـى عَـنِ الثَّمَـدِ الْعِـدُّ (٣٢)
وَأَحْسَنْـتَ بِـى عَـنْ عـادَةٍ أَنْـتَ وَالنَّدى وَقَصَّـرْتُ لاَعَـنْ عـادَةٍ أَنـا وَالْحَمـدُ
وَكـانَـتْ قَـوَافِـى الشِّعْرِ قِـدْمًا تَـدِينُ لِـى ومَـا خِلْتُهـا إِذْ أَمْكَـنَ الْقَـوْلُ تَـرْتَـدُّ
لَقَـدْ خَـذَلَتْنـى حِيـنَ حـاوَلْتُ نَصْـرَهـا ومَـازِلْـتُ غَـلاَّبًـا بِهـا وَهْـىَ لِـى جُنْـدُ
وَلاَعُـذْرَ فِـى التَّقْصِيرِ مِـنْ بَعْـدِ أَنْعُـمٍ بِـأَيْسَـرِهـا يُسْتَنْطَـقُ الْحَجَـرُ الصَّلْـدُ

* * *

(٣٠) الجوزاء : أحد بروج السماء - الدست : صدر المجلس ، ودست الوزارة أى منصبها .
(٣١) ممتار : مجلوب ، يقال مار أهله وعياله وامتار لهم أى جمع لهم الميرة وهى الطعام .
(٣٢) انتجع : طلب وقصد - الثمد : الماء القليل الذى ليس له مدد - العِدُّ : الماء الجارى الذى له مادة لاتنقطع .

ابن عَمّار

(٤٢٢ - ٤٧٧ هـ / ١٠٣١ - ١٠٨٤ م)

ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار المهريّ الأندلسيّ الشلبّى ، كاتب وشاعر هجّاء ، من قرية من قرى مدينة شلب المشهورة بحبّ أهلها للشعر وقدرتهم على نظمه . رحل إلى قرطبة ليكمل تأدّبه ، ثم طاف فى بعض المدن الأندلسيّة يتكسّب بشعره ، وأعجب به المعتضد (٤٣٣ - ٤٦١) صاحب غرب الأندلس ، فوصله وقربّه ، وتوثقت المودّة بينه وبين المعتمد بن المعتضد ، ولكنهما انصرفا إلى اللهو والغناء ، فأمر المعتضد بن عباد بالتفريق بينهما وإخراج ابن عمار عن بلده ، ولما تولى المعتمد بعد وفاة أبيه استدعاه وجعله وزيرا له ومشيرا ثم خلع عليه خاتم الملك ، واستنابه على مرسيه وكان ابن عمار قد أغراه بالاستيلاء عليها ، ولكنه ما لبث أن عصاه وتملكها ، وعبثًا حاول المعتمد أن يصلح من أمره ما فسد ، ولكنه تمادى وأبى أن يطلب الصفح ، وهجا المعتمد كما هجا زوجته ، بمثل قوله :

فيا عامرَ الخيلِ يا زَيْدَها منعتَ القِرَى وأبحتَ العِيالا

وقد نسب إليه البيتان المشهوران :

ممّا يُزَهِّدنى فى أرضِ أندلسٍ أسماءُ معتمدٍ فيها ومعتضدِ

ألقابُ مملكةٍ فى غير موضعِها كالهِرّ يَحْكى انتفاضًا صَوْلَة الأسد

فتلطّف المعتمد فى الحيلة معه حتى وقع فى يده ، فعاقبه عقابا أليما على سوء فعله ، وانحدر به إلى إشبيلية (ذات المركز الحضارى المرموق آنذاك) وأجهز عليه .

وكان ابن عمار بين المقدّمين من شعراء أهل زمانه ، وقد قيل فى وصفه : « هو يضرب فى أنواع الإبداع بأعلى السهام ، ويأخذ من التوليد والاختراع بأوفر الأقسام » .

* * *

ولابن عمّار رائية مشهورة مدح بها المعتضد . يقول فيها :

أدِرِ المدامة فالنسيمُ قد انبرى | والنجمُ قد صرف العِنان عن السُّرى (١)
والصبْحُ قد أهدى لنا كافُورَهُ | لمَّا استردَّ الليلُ منّا العَنْبرا
والروض كالحَسْنا كساه زَهْرُهُ | وشْيًا وقَلّدَهُ نَداه جَوْهَرا
رَوْضٌ كأنَّ النهرَ فيه مِعْصَمٌ | صافٍ أطَلَّ على رِداء أخضَرَا
وتهزّه ريحُ الصَّبا فتخالُهُ | سَيْفَ ابن عَبّادٍ يبدّد عَسْكرا
عَبّادٌ المخضرُّ نائلُ كفّهِ | والجوُّ قد لبِسَ الرداء الأغبرا (٢)
مَلِكٌ إذا ازدَحَمَ الملوكُ بمَوْرِدٍ | ونَحاه لا يَرِدُون حتى يَصْدُرا (٣)
أندى على الأكباد من قَطْر الندى | وألذّ في الأجفان من سِنَةِ الكَرى (٤)
يختار إذ يَهَبُ الخريدةَ كاعبًا | والطِّرفَ أجردَ والحسامَ مُجَوْهَرَا (٥)
قدّاحُ زَنْدِ المجدِ لا ينفكّ من | نارِ الوَغى إلّا إلى نارِ القِرَى (٦)
لا خَلْق أقرأ من شِفارِ حُسامه | إن كنتَ شبّهتَ المواكب أسْطُرا (٧)
أيقنتُ أنّي مِنْ ذَرَاه بجنّة | لمّا سقاني من نداه الكَوْثرَا (٨)
وعلمتُ حقًّا أنَّ رَبْعي مُخْصِبٌ | لمّا سألْتُ به الغَمامَ المُمْطِرا

---

(١) المدامة : الخمر - العنان : سير اللجام الذى تمسك به الدابّة - السُّرى : المسير ليلا .
(٢) الرداء الأغبر كناية عن الجدب .
(٣) نحاه : أبعده .
(٤) الكرى : النوم ، وسنة الكرى : الغفوة فى أوله .
(٥) الخريدة: البكر أو المرأة الحيّية - الكاعب: التى نهد ثديها - الطِّرف الأجرد: الفرس السبّاق القصير الشعر.
(٦) القرى : ما يقدّم إلى الضيف .
(٧) شفار: جمع شَفرة، وهى حدّ السيف .
(٨) ذراه : كنفه - الكوثر : نهر فى الجنّة .

مَــنْ لاتُــوازِنُــهُ الجبــالُ إذا احْتَبــى | مَــنْ لا تُسـابقُـه الـريـاحُ إذا جَـرَى (٩)
مــاضٍ وصَــدْرُالــرمــح يكْهَــمُ والظبُّــا | تَنْبـو وأيـدى الخيـلِ تعثـرُ فـى الثـرى (١٠)
قــاد الكتـائب كــالكــواكــب فـوْقَهُــمْ | مِـنْ لأمِهِــمْ مِثْـلُ السّحــاب كنَهْـورا (١١)
مِــنْ كـــلِّ أبْيــضَ قــد تقلّـــد أبيَضًــا | عَضْبًــا وأســمـرَ قَــدْ تقلّــد أسْمَــرا (١٢)
ملـــك يَـــرُوقُــكَ خَلْقُــــهُ أو خُلْقُــــه | كـــالـــرّوْض يَحْسُــنُ مَنْظَــرًا أو مخبــرا
أقْسَمْــتُ بـاسْــمِ الفضْــل حتى شِمْتُــه | فـــرأتُــه فـــى بُـــرْدَتَيْــهِ مُصَـــوَّرا (١٣)
وجَهِلْــتُ مَعْنــى الجـود حتــى زُرْتُــه | فقـــرَأتُـــه فـــى راحَتَيْـــهِ مُفَسَّـــرا
فـــاحَ الثــــرى مُتَعَطِّـــرًا بِثَنــــائِهِ | حتـــى حَسِبْنـــا كـــلَّ تُـــرْب عَنْبـــرا
وتتــوَّجَــتْ بــالـزّهْــر صُلْــعُ هضــابـه | حتــى ظننّـــا كـــلَّ هضــب قيصــرا
هَصَـرَتْ يــدى غُصْـنَ الغنــى مـن كفّــه | وجنـــت بـــه روضَ السّـــرورِ منـــوَّرا
حَسْبــى علــى الصُّنْـعِ الــذى أولاه أن | أسعـــى بِجِـــدّ أو أمُـــوتَ فـــأعْـــذَرا
يــا أيّهـــا الملـــكُ الــذى حـــازَ العُــلا | وحبَـــاه منـــهُ بمثـــل حمـــدى أنـــورا
السيـــفُ أفصـــحُ مـــن زِيـــادٍ خطبـــةً | فـى الحـربِ إن كانـت يمينُـك منبـرا (١٤)
مــا زلـتَ تُغنــى مَــنْ عَنــا لــك راجيًــا | نَيـــلاً وتُفْنـــى مَـــنْ عتـــا وتَجَبّـــرًا (١٥)

---

(٩) احتبى بمعنى جلس ، والاحتباء هو أن يجلس الإنسان ضامّا فخذيه وساقيه إلى بطنه بزراعيه ليستند .
(١٠) يكهم : يكلّ ويضعف .
(١١) اللأم : جمع لأمة وهى أداة الحرب كلها من رمح وبيضة ومغفر وسيف ودرع – الكنهور من السحاب : القطع منه أمثال الجبال ، أو الأبيض العظيم منه .
(١٢) الأبيض العَضب : السيف القاطع .
(١٣) شمته : نظرت إليه لأتحقق .
(١٤) زياد هو ابن أبي سفيان القائد الأموى .
(١٥) عنا : خضع وذلّ – عتا : استكبر وجاوز الحدّ .

حتـى حللـتَ مــن الـريـاسـة مَحْجِـرًا ... رحبًـا وضمَّــتْ منـك طَـرفًـا أحـورا [١٦]

شَقِيَــتْ بسيفــكَ أمَّــةٌ لــم تعتقــدْ ... إلاّ اليهـــودَ وإن تَسَمّـــتْ بَـــرْبَـــرا

أثـمْرتَ رُمْحَـكَ مـن رؤوسِ ملـوكهـم ... لمّـــا رأيـتَ الغصـــنَ يُعْشَــقُ مثمــرا

وصبغْـتَ درعكَ مــن دمـاء كُمـاتِهِـمْ ... لمّــا علمــتَ الحسـنَ يُلْبَـسُ أحمـرا

وإليكَهــا كـــالــروض زارتــه الصبَّــا ... وحنـــا عليــه الطَّـــلُّ حتـــى نـــورًا

نمَّقْتُهــا وَشْــيًا بــذكــركَ مُــذْهَبًــا ... وفتقتُهــا مسكًــا بحمــدكَ أذفــرا [١٧]

مــن ذا يُنــافحنــي وذكــرُكَ مَنْـدَلٌ ... أوردتُــهُ مــن نــارِ فكـرى مِجْمَـرًا [١٨]

فلئــن وجـدتُ نسيــمَ مـدحـىَ عـاطـرًا ... فلقـــد وجـــدتُ نَسيـمَ بِـــرّكَ أعطـــرا

وله يتغزّل :

جــاهُ الهــوى ، فــاستشعــروه ، عــارُهُ ، ... ونعيمُـــــه ، فـــاستعـــذبـــوه ، أُوارُهُ

لاتطلُبــوْا فــى الحُــبّ عــزًّا ، إنّمــا ... عُبْــدانــه فــى حُكمــه أحــراره [١٩]

قــالوا : " أَضَـرَّبـك الهـوى - ، فأجبتُهـم : ... " يـــا حَبَّــذاه وحَبَّـــذا إضـــرارُه "

قلبــى هـــو اختــار السَّقــام لجسمــه ... زِيًّـــا ، فخَلُّـــوه ومـــا يختـــاره

عَيَّــرْتُمــونــى بــالنُّحـول ، وإنَّمــا ... شَـــرَفُ المُهَنَّـــد أن تَـــرِقَّ شِفـــاره

وشَمِتُّـــمُ لفِـــراقِ مـــن آلفتُـــه ... ولَـــرُبَّمـــا حَجَـبَ الهــلالَ سِـراره

أحسبْتُـــمُ السُّلْــوانَ هـــبَّ نَسِيمُـــه ... أوأنَّ ذاك النـــوم عـــاد غِـــراره [٢٠]

---

(١٦) المحجرِ: الناصية أو الحديقة أو المرعى المنخفض - الطرف الأحور: العين التى اشتدّ بياض بياضها وسواد سوادها .

(١٧) مسك أذفر: طيّب الرائحة .

(١٨) المندل : العود الطيّب الرائحة - المِجمر : العود يتبخّر به أو ما يوضع فيه الجمر مع البخور.

(١٩) الأوار: حرّ الشمس والنار أو العطش - عبدان : جمع عَبْد .

(٢٠) سرار الشهر: آخر ليلة فيه - غرار النوم : القليل منه .

إن كان أعيا القلبَ عن حرب الجَوى خَذَلَتْه من دمعى إذًا أنصاره

مَن قَدَّ قلبى إذ تثنَّى قَدُّه وأقام عُذرى إذ أطَلَّ عِذاره ؟

أم مَنْ طوى الصبحَ المنيرَ نقابُه وَأحاط بالليل البَهيم خِماره؟

غُصنٌ ولكنَّ النفوسَ رياضُه رَشَأٌ ولكنَّ القلوبَ عَراره (٢١)

سَخِرَتْ ببدر التِّمِّ غُرَّتُه كما أَزْرَتْ على آفاقه أزْراره

* * *

(٢١) رياض : جمع روضة ، وهى البستان أو الأرض ذات الخضرة - الرشأ : ولد الظبى إذا قوى وتحرك ومشى مع أمه - العرار : نبت طيِّب الرائحة .

وكتب إليه المعتصم بالله ثلاثة أبيات في العتاب :

وزهّدنى فى النـاس معـرفتى بهـم ... وطول اختبارى صاحبًا بعد صاحب
فلـم تُـرِنـى الأيـامُ خِـلاً تَسُـرنـى ... بـواديـه إلّا ســاءنـى فـى العـواقـب
ولا صـرتُ أرجـوه لـدفـع مُلمّـةٍ ... مـن الـدهـر إلاكـان إحـدى النـوائب

فأجابه ابن عمار :

فـديتُـك لاتـزهـد فثـمّ بقيّـة ... ستُـرغـب فيهـا عنـد وقـع التجـارب
وأبْـقِ علـى الخُلْصَـانِ إن لـديهـم ... علـى البـدء كَرَّاتٍ بحسن العـواقـب [22]
تَكَنَّفَتنـى بـالنظـم والنثـر جـاهـدًا ... وسُقـتَ علـىّ القـولَ مـن كـلّ جـانـب
وقـد كـان لـى - لـو شئـتُ ردٌّ وإنّمـا ... أجـرّ لسـانـى بعـضُ تلـك المـواهـب
ولابـد مـن شكـوى ولـو بتنفّـس ... يُخفّـف مـن حـرّ الحشـا والتـرائب
كَتَبـتُ علـى رسْمـى وبعـد نَسيئـة ... قـرأتُ جـوابـى مـن سطـور المـواكـب
ثـلاثَـة أبيـات - وهيهـاتَ - إنّمـا ... بعثـتَ إلـى حـربـى ثـلاثَ كتـائب
وكيـف يلـذّ العيشُ فـى عتـب سيّـد ... ومـا لـذّ لـى يـومًـا علـى عتْب صـاحـب
وقبـلُ جَـرَتْ علـى بعـض كُتْبـى جَفـوةٌ ... أَلَحَّتْ علـى وجهى بغمر. الحـواجب [23]
ومـا كنـت مـرتـادًا ولكـن لنفحـة ... تعـوّدتُ مـن رَيحـان تلـك الضـرائب [24]
سلكـتُ سبيلـى للـزيـارة إثـرهـا ... فقـابلـتَ دَفْعًـا فـى صـدور الـركـائب
ولـو لمعـت لـى مـن سمـائك بـرقـة ... ركبـتُ إلـى مغنـاك هُـوجَ السحـائب

(٢٢) الخلصان : الخالص من الأصدقاء .

(٢٣) الحواجب : جمع الحاجب ، وهو ما أشرف من الجبل ، والمراد بالحواجب : النوق ، ولعله أراد أن يقول إن الجفوة منك حملتنى على قصدى إليك بتحريك النوق .

(٢٤) الضرائب : الطبائع والسجايا .

فقبّلتُ من يمناك أعذبَ مشرعٍ وقَضَّيْتُ من رؤياك أوكد واجب
وأُبْت خفيف الظهر إلاّ من النَّدى وخَلّفتُ للعافى ثقال الحقائب
سواك يَعِى قولَ الوشاة من العدا وغيرك يقضى بالظنون الكواذب

* * *

وقال يخاطب المعتمد، وهو بقرطبة، يتلّطف ويستعطف:

سَجايَاكَ، إنْ عافيتَ، أنْدى وأسْجَحُ ... وعذرُك، إن عاقبتَ، أجْلى وأوْضحُ (٢٥)
وإنْ كانَ بينَ الخُطّتَينِ مزيَّةٌ ... فأنت، إلى الأدنى من الله، أجْنَح
حَنانَيْك في أخْذِي برأيك، لا تُطِعْ ... عُداتي، ولو أثْنوا عليك وأفْصحوا
وماذا عسى الواشون أن يَتَزَيّدوا ... سوى أنّ ذَنْبي واضحٌ متصحّح
نعم لي ذنبٌ، غيرَ أنّ لِحلمه ... صَفاةً يَزِلُّ الذنبُ عنها فيَسْفَح (٢٦)
فإنّ رجائي أنّ عندك غيرَ ما ... يخوض عدوّي اليومَ فيه ويَمْرَح
ولِمْ لا، وقد أسلفتُ ودًّا وخِدمةً ... يكرّان في ليل الخطايا فيُصْبِح
وهَبْني وقد أعقبتُ أعمالَ مُفْسِدٍ ... أما تَفْسُد الأعمالُ ثُمّتَ تَصْلُح
أقِلْني بما بيني وبينَك من رضًى ... له نحو روحِ الله بابٌ مفتّح
وَعفٍّ على آثارِ جُرمٍ جنيتُه ... بَهبّة رُحمى منك تَمحو وتمصَح (٢٧)
ولا تلتفِتْ قولَ الوُشاة ورأيَهم ... فكلُّ إناءٍ بالذي فيه يرشَح
سيأتيك في أمري حديثٌ وقد أتى ... بزُورٍ بني عبد العزيز موشّح
وما ذاك إلاّ ما عَلِمْتَ فإنّني ... إذا ثُبْتُ لا أنْفكُّ آسو وأجرَح
تخيّلتُهم، لا دَرَّ الله دَرُّهم، ... أشاروا تجاهي بالشّمات وصرّحوا
وقالوا: «سيجزيه فلانٌ بفعْله» ... فقلتُ: «وقد يَعفُو فلانٌ ويَصْفَح»
ألا إنّ بَطْشًا للمؤيَّد يرتمي ... ولكنّ حِلمًا للمؤيَّد أرْجح

---

(٢٥) أسجح أي أسهل، وسجاحه الوجه: طوله واعتداله.
(٢٦) شبه ذنبه بماء يقع على الصفاة، وهي الحجر العريض الأملس.
(٢٧) تمصح: تزيل، يقال: مصحت الريح بالشيء أي ذهبت به.

وبيـــن ضلـــوعـــى مـــن هـــواه تَمِيمـــةٌ ... ستنفـــع لـــو أنَّ الحِمـــام مُجَلِّـــح (٢٨)

ســـلامٌ عليـــه كيـــف داربـــه الهـــوى ... إلَـــى فيـــدنـــو، أو علـــىَّ فينـــزَح

ويَهْنِيـــه، إن مـــتُّ، السلـــوُّ فـــإنَّنـــى ... أمـــوتُ ولـــى شـــوقٌ إليـــه مبَـــرِّح

* * *

(٢٨) مجلّح : آت ، ويقال : جلّح أى أقدم وسار سيرا شديدا ، وجلّح على القوم أى حمل عليهم - وأراد " ولو أن الحمام " ولكنه حذف الواو التى حقها أن تدخل على " لو " الوصليّة ، وهى " واو " الجملة الحالية ، لأن " لو " الوصلية جملة فى موضع الحال .

وكتب إلى المعتمد يعتذر ويتلطّف :

أأسْلُكُ قصدًا أم أعُوج عن الرَّكب ... فقد صِرتُ من أمرى على مركب صَعْبِ
وأصبحت لا أدرى أفى البعد راحتى ... فأجْعَلَه حظِّى أم الحظّ فى القرب
إذا أنْقذتُ فى أمرى مَشيتُ مع الهوى ... وإنْ أتَعَقَّبْه نكصت على عَقْبى
على أنّنى أدرى بأنّك مُؤثِر ... على كلِّ حال ما يُزَحْزِح من كربى
أهابُك للحقِّ الذى لك فى دمى ... وأرجوك للحبّ الذى لك فى قلبى
أيُظلم فى وَجْهى لذا قمر الدُّجى ... وتنبُو بكفّى صفحةُ الصارم العَضْب
حنانَيْك فيمن أنت شاهد نصحه ... وليس له غير انتصاحِك من حسب
وما جئتُ شيئًا فيه بَغْىٌ لطالبٍ ... يُضاف به رأى إلى العَجْز والعُجْب
سوى أنّنى أسلَمْتنى لمُلِمَّة ... فَلَلْتُ بها حَدِّى وكسرتُ من غَرْبى
وما أغرْبَ الأيامَ فيما قضتْ به ... تُرينَى بُعْدى عنك آنسَ من قُربى
أما أنّه لولا عوارفُك التى ... جرتْ جريانَ الماء فى الغُصُن الرطب
لَمَا سُمتُ نفسى ما أسومُ من الأذى ... ولا قلتُ إنّ الذنب فيما جَرَى ذَنْبى
سأستَمْنِحُ الرُّحْمَى لديك ضراعةً ... وأسألُ سَقْيًا مِن تجاوُزك العذب
فإنْ نَفَحَتْنى من سمائك حَرْجَفٌ ... سأهتفُ : " يا برد النسيمِ على قلبى " (٢٩)

* * *

(٢٩) الرحمى : الرحمة – الحرجف من الرياح : الباردة الشديدة الهبوب مع جفاف .

وكتب إلى الراضى :

قالوا : " أتى الراضى " ، فقُلْتُ : " لعلَّها ... خُلِعَتْ عليه مِن صفاتِ أبيه
فألٌ جَرى فعَسَى المؤَيَّدُ واهبًا ... لى مِن رضاه ومن أمان أخيه " (٣٠)
قالو: " نعم " ، فوضعتُ خَدِّى فى الثرى ... شكرًا له وتيمُّنًا ببنيه
يا أيها الراضى ، وإن لم تَلْقَنى ... مِن صفحة الراضى بما أدريه
هَبْكَ احتجبت لوجهِ عُذْرِيَّنِ ... بَذْلُ الشَّفاعة أيُّ عُذْرٍ فيه ؟
سَهِّلْ على يدِكَ الكريمةِ أَحْرُفًا ... فيمن أَسَرْتَ فتَنْثَنى تَفْدِيه

* * *

(٣٠) المؤيد لقب المعتمد ، وكان يلقّب بالمؤيد ، فلمّا ملك الجارية اعتماد لقّب المعتمد - ويعنى بـ " أخيه " : المأمون .

الحصرى القيروانى

(ت : ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م)

أبو الحسن على بن عبد الغنى الفهرى المقرىء الضرير الحصرى القيروانى ، (وهو ابن أخت أبى إسحاق الحصرى ، مؤلف : زهر الآداب) ، ترك القيروان بعد ما أصابها من المحن ، ودخل الأندلس ، واتصل بأمراء الطوائف مثل المقتدر بن هود أمير سرقسطة ، وعاش زمنا فى سبتة ، وقصد بلاط المعتمد بن عباد فى إشبيلية ومدحه ، ورُوى أنه لما كان الحصرى مقيما بمدينة طنجة ، أرسل غلامه إلى المعتمد فى حمص " اشبيلية " فأبطأ عنه ، وبلغه أن المعتمد لم يحتفل به ، فكتب :

نَـبِّهِ الرَّكْبَ الهَجُوعا   ولُمِ الدهرَ الفَجُوعا
حمص الجنّةُ قالتْ   لغُلامى لا رُجوعا
رحم اللهُ غلامى   ماتَ فى الجنّة جوعا

وقد التزم فى هذه الأبيات ما لا يلزم ، ورُوى أيضا أن المعتمد استقدمه ، وأرسل إليه مالاً يتجّهز به ، فكتب إليه الحصرى :

أَمَرْتَنى بركوبِ البحر أقطعُه   غيرى لك الخيرُ فاخصصْه بذا الداء
ما أنتَ نوحٌ فتُنْجِينى سفينتُه   ولا المسيحُ أنا ، أَمْشى على الماء

. ومن شعره يعلل ما يلبسه أهل الأندلس من البياض على موتاهم :

لئنْ كان البياضُ لباسَ حُزْنٍ   بأندلسٍ فذاك مِن الصوابِ
ألمْ تَرَنى لبستُ بياضَ شيْبى   لأنّى قد حزنْتُ على الشباب

ومما وصفه به ابن بسام : " كان بحر براعة ، ورأس صناعة ، وزعيم جماعة ، طرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة ، بعد خراب وطنه بالقيروان ، والأدب

يومئذ بـأفقنا نافق السوق ، معمـور الطريق ، فتهادتـه ملوك طوائفها تهادى الـرياض النـسيم ، وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأنس المقيم . . . " .

وقال عنه الحميدى : " كان عالما بالقراءات وطرقها ، وأقرأ الناس القرآن الكريم بسبته وغيرها . . . " .

وللحصرى ديوان شعر ، ومنظومـة في قراءة نافع ، عدد أبياتها مـائتان وتسعة ، وله أيضا موشحات ، قال الصفدى إنه ممن سبق إلى التوشيح ، ونسب إليه موشحة :

مَنْ عَلَّق القُرطا في أذنِ الشعرى وألحف المِرْطا الغُصَن النَّضرا

وأشهر قصـائده " ياليل الصب " ، وقـد عارضها كثيرون قـديما وحديثا ، ومنهـم أحمد شوقي في قصيدته :

مضنـاك جفـاه مـرقـده وجفـاه ورحـم عـوده

* * *

قصيدة : " ياليل الصبّ " :

يـــاليـــلُ الصَّـــبُّ متـــى غَـــدُه   أقيـــامُ الســـاعـــةِ مَـــوْعِـــدُه
رَقَـــدَ السُّمَّـــارُ، وأرّقَـــه   أسَـــفٌ لِلْبَيْـــن يُـــرَدِّدُه
فبكـــاه النَّجْـــم ورَقّ لـــه   ممـــا يَـــرْعـــاه ويَـــرْصُـــدُه
كَلِـــفٌ بغـــزالٍ ذى هَيَـــف   خَـــوْف الـــواشيـــن يشـــرِّدَه
نَصَبَـــتْ عَيْنـــاى لـــه شَـــرَكّـــا   فـــى النَّـــوْمِ ، فَعَـــزَّ تَصَيُّـــدُه (١)
وكَفَـــى عجبًـــا أنّـــى قنـــص   للسِّـــرْب سَبـــانـــى أغْيـــده
صَنَـــم للفتنـــة مُنْتَصِـــب   أهْـــواه ، ولاأتَعَبَّـــده (٢)
صـــاحٍ والخمـــرُ جَنَـــى فِمـــه   سَكْـــران اللَّحْـــظ مُعَـــرْبـــده (٣)
يَنْضـــو مـــن مُقْلَتـــه سَيْفًـــا   وكـــأنّ نُعـــاسًـــا يُغْمـــده (٤)
فيُـــرِيـــق دَم العشّـــاقِ بـــه   والـــوَيْـــلُ لمـــن يَتَقَلّـــده
كـــلاً لاذَنْـــبَ لمـــن قَتَلَـــتْ   عَيْنـــاه ، ولـــم تَقْتُـــل يَـــده
يـــا مَـــن جَحَـــدَتْ عَيْنـــاه دمـــى   وعَلـــى خَـــدَّيْـــه تَـــوَرُّدُهُ
خَـــدّاك قـــد اعتـــرفـــا بـــدمـــى   فعـــلامَ جُفُـــونُـــك تَجْحَـــدُه
إنّـــى لأُعِيـــذُك مِـــن قَتْلـــى   وأظُنّـــك لا تَتَعمّـــده
بـــالله هَـــبِ المشتـــاقَ كَـــرًى   فلعـــلَّ خَيـــالَـــك يُسْعِـــدُه
مـــا ضَـــرَّك لـــو داوَيْـــتَ ضَنَـــى   صَـــبٍّ يُـــدْنِيـــك وتُبعـــده

---

(١) شركا : ما ينصبه الصائد لصيده ، والمقصود هنا نوم العاشق لصيد طيف الحبيبة .
(٢) صنم : تمثال و المقصود الدمية ، وتشبه بها المرأة الجميلة .
(٣) جنى فمه : يعنى ريقه العذب المسكر .
(٤) ينضو : يستل .

لـــم يُبْـــق هَـــواك لــــه رَمَقــــا فَلْيَبْـــك عَلَيْـــه عُـــوَّده (٥)
وغـــدا يَقْضِـــى أو بعـــدَ غَـــد هـــلْ مـــن نَظَـــرٍ يَتَـــزَوَّده (٦)
يـــا أهـــلَ الشـــوق لنـــا شَـــرَق بـــالـــدَّمْـــع يفيـــض مُـــوَرَّده
يَهْـــوَى المشْتـــاق لقـــاءكـــم وصُـــروف الـــدَّهـــر تبعِـــده
مـــا أَحْلـــى الـــوَصْـــلَ وأَعْـــذبـــه لــــولا الأيَّـــامُ تُنَكِّـــده
بـــالبَيْـــن وبـــالهِجـــران فيـــا لفُـــؤادى كيـــف تَجَلُّـــده.

* * *

(٥) الرمق : بقية الروح - عُوَّده : مَن يعودونه فى مرضه .
(٦) يقضى : يموت ضنى .

وقال وقد ساءه ما بلغه من بعض أحبابه :

بَــرِمْــتُ بمــا أَلْقــاه مِمَّــن أُوافــق ... وأُوذِيــتُ حتَّــى لاأرى مــن أُصَــادق
إذا مــا امــرُؤٌ أَصْفَيْتَــه الــودَّ واثقًــا ... بخَلَّتــه لــم تَصْــفُ مِنــه الخــلائق (٧)
فيــا ليتَ شِعْــرى هــلْ إلــى النــاس كلِّهــم ... أنــا مُــذْنِــبٌ ؟ أم لِيــس فيهــمْ مُــوافــق
فــلا أنـــا مســـرورٌ بمـــنَ هـــو واصِلـــى ... حـــذارًا ولاآسَـــى علـــى مَـــنَ أُفـــارق (٨)
وَدِدْتُ بــأنْ أَلْقــى مــن النــاس مُنْصِفًــا ... إذا قُلْــتُ حقًّــا قــال لــى : أنــتَ صــادق
وإنْ قلــتُ غيــرَ الحــقِّ لــم يَــرْضَ لــى بــه ... وأَوْضَــحَ لـــى الفكْــرُ الـــذى هـــو لائق
ولكنهـــمْ صِنفـــان فـــىّ : فجـــاهـــلٌ ... يُـــدافـــع حقًّـــا أو عليـــمٌ مُنـــافـــق
انـــا لـــىَ عَمَّـــن كنـــتُ أَطْـــوِى ودادَه ... مقـــالٌ إلـــى الشنـــآنِ والحقـــدُ ســـائق (٩)
يقــولُ بظهْــر الغيــب مــا ليــس قــائلاً ... لـــدىَّ إذا اشتَـــدَّتْ عليـــه الطـــرائق
كـــذلـــك دأبـــى حيـــن ألقـــى منـــازعًـــا ... أُجـــاريـــه حتّـــى تحتـــويـــه المضـــائق
علـــى أنَّنـــى لاأَبْخَـــس المـــرءَ حقَّـــه ... وأُنصـــف خَصْمـــى حيـــن تـــأْتـــى الحقـــائق
إذا أَبــرقَ الخصـــمُ المعـــانِـــدُ بَـــرقـــةً ... فيـــا وَيْحـــه صُبَّـــتْ عليـــه الصـــواعـــق
وإنّ لســـانـــى حيـــن ينطـــقُ صـــارم ... حســـامٌ لهـــا مـــاِت المبـــايـــنِ فـــالـــق
إذا قلـــتُ قـــولاً طـــار فـــى النـــاس ذكـــرُه ... وســـارَبـــه فـــى الخـــافقَيْـــن الفُـــرانِـــق (١٠)
ولســـتُ كمـــنْ لـــو قـــال يـــومًـــا مقـــالـــةً ... يُطَـــوَّقهـــا فـــى جِيـــده ويُعـــانـــق

---

(٧) برمت : سئمت - أصفيته الودّ : أخلصته له - خلّته : صداقته - لم تصفُ : لم تخلص من الكدر.
(٨) لاآسى : لاأحزن .
(٩) الشنآن : البغض المختلط بعداوة .
(١٠) هامات : رءوس - الخافقان هما المشرق والمغرب - الفرانق : الدليل : أمام الجيش أو أمام خيل البريد .

وإنّـي لمـنْ يَبْغـي انتِقـاصـي لقـامـعٌ وإنّـي لمـن يَبْغـي وِدادي لـوامـق (١١)
فهـلْ أنـا فـي ذا يـا لَقـومـي ظـالـمٌ أمِ الحـقُّ بـادٍ فـي الـذي أنـا نـاطـق
أبى اللهُ أنْ يَلْقِـى سِـوى الحـقِّ سـاميًـا وأن تَتَـوارَى فـي القُلـوب المخـارق (١٢)

* * *

(١١) الجيد : العنق - وامق : راغب في ودّه .
(١٢) المخارق : واحدها مخرقة ، وهي الكذبة .

وقال فى ذكرى بَلَنْسية والثناء على بعض أدبائها :

قـامت لأسْقـامى مقـامَ طَبِيبهـا ... ذِكـرى بَلَنْبِيـةِ وذكْـر أديبهـا
حَـدَّثْتَنـى فشَفَيْتَ منِّـى لَـوْعَـةً ... أمْسَيْـتُ محتِـرقَ الحَشـا بلَهيبهـا
مـا زلـتُ أذكُـره ولكـن زِدْتَنـى ... ذِكـرًا وحَسْـب النَفْـس ذكْـر حبيبهـا
أَهْـوَى بَلَنْسِيَـةً ومـا سَبـبُ الهـوى ... إلاَّ أبـو العبـاس أُنْـس غَـرِيبهـا
هـبَّ النسيـمُ ومـا النسيـمُ بطيِّـبٍ ... حتَّـى يُشـاب بطِيبـه وبطيبهـا
أخَـى المعيـن علـى العَـدُوِّ بمِسْلـقٍ ... أزْرَى بـوائل فـى ذكـاء خطيبهـا (١٣)
إذ قـامـت الهَيْجـا ولـولا نصـرُه ... مـا كـان يُعـرف ليثُهـا مـن ذِيبهـا
غلـب العُـواءُ علـى الـزئيـر حَمِيَّـةً ... وخبـا ضيـاءُ الشمـس قَبْـلَ مَغيبهـا
فـأقـام أحمـدُ فـى مُجـادلـة العِـدا ... بُـرْهـانَ تَصْـديقـى علـى تكـذيبهـا
حتَّـى تبيَّـن فـاضـلٌ مـن نـاقـصٍ ... وانقـادَ مُخْطـىءُ حُجَّـةٍ لمُصِيبهـا

* * *

(١٣) المِسْلق : الخطيب البليغ الحادّ اللسان ، ويقال : لسان مِسلق أى حديد ذِلق .

- وهو بالأندلس -

وقال يتشوّق إلى القيروان بعد ارتحاله عنها :

أيـــا سَقَـــى اللهُ أرضَ القَيْـــروان حَيًـــا ... كـــأنـــه عَبَـراتـــى المسْتَهِـــلَّاتُ (١٤)

وكــفَّ عنهــا أيـادى المفسـديـن لهــا ... ولاعَـــدَتْهــا مــن الخيــرات عــادات

فــإنَّهــا لــذّةُ الأَحْبــاب ، تُــرْبَتُهــا ... مِسْكِيَّــةٌ ، وحَصــاهــا جَـوْهَــرِيــات

أَرْضٌ بهــا الخيــرُ مجمــوعٌ مبــاركــةٌ ... للهِ فيهـــابـــراهيـــنٌ وآيـــــات

كــمْ مِــن ولــىّ بهــا لله مُتَّقِيًـــا ... حيـاتُــه كلُّهـا نُسْــكٌ وإِخْبـات (١٥)

وكــمْ إمامِ هــدًى فــى مُــرتقى مَلِــك ... قــد تَــوّجَتْــه المعــالــى والمَهــابــات

* * *

---

(١٤) المستهلات : السائلة بالدمع .

(١٥) إخبات : خشوع بتواضع

وقال أيضا يتشوّق إلى القيروان :

عَلى العُدْوَة القُصْوى وإنْ عَفَتِ الدارُ ... سلامُ غريبٍ لا يَئُوب فيزدادُ
وحُقَّ بكاء العينِ والقلبُ مُسْعَرٌ ... لمَنْ باتَ مِثلى لا حبيبٌ ولا جارُ(١٦)
شَفَى اللهُ دارَ القيروانيْن بَعْدَنا ... فقد مَرِضَتْ للقيروانين أبْصار(١٧)
وكيفَ غناءُ الطيرِ فى غيرِ أيكِها ... وقد بَعُدَتْ عنّا فِراخٌ وأوْكار
ألا يا بُروقًا لُحْنَ مِن نَحْو صَبْرَةٍ ... وليسَ لها إلاّ دُموعِىَ أمطار
عَسى فيك من ماءِ الحبيباتِ شَرْبَةٌ ... ولو مِثْل ما يُوعِى من الماءِ مِنْقار

* * *

وقال فى الحكمة :

الناسُ كالأرض ومنها هُمُ ... من خَشِنِ اللَّمْسِ ومِن لَيِّنِ
مَروٌ تَشَكَّى الرِّجْلُ منه الأذى ... وإِثْمِدٌ يُجْعَلُ فى العَيْنِ(١٨)

* * *

وقال يتحدّث عن فقد بصره :

وقالُوا قد عَمِيتَ فقلتُ : كلاّ ... فإنّى اليومَ أبْصَرُ مِن بصيرِ
سوادُ العينِ زارَ سوادَ قَلْبى ... ليجتَمِعا على فَهْمِ الأمور

* * *

---

(١٦) يَزدار : يزور – مسعَّر : محترق ، يقال : أسعره أى أحرقه .
(١٧) عنى بالقيروانين مدينتى القيروان وصبرة التى هى المنصورية ، وكان عمرانهما قد اتّصل بعضه ببعض فى عصر الشاعر على الحصرى .
(١٨) المرو : حجر الصوان – الإثمد : ما يكتحل به .

وقـال :

كـمْ مـن أخٍ مذْ كـان عنـدي شُهْـدَةً — حتّـى بَلَـوْتُ المـرَ مـن أخـلاقـه
كـالمِلـح يُحْسَـبُ سُكَّـرًا فـي لَـوْنـه — ومَجَسِّـه ، ويَحُـول عنـدَ مَـذاقـه (١٩)

* * *

(١٩) الشهدة : القطعة من عسل النحل - مجسّه بمعنى مسّه باليد أو النظر إليه لاستبانته - يحول : يتغيّر.

المعتمد بن عبّاد

(٤٣١ - ٤٨٨ هـ / ١٠٤٠ - ١٠٩٥ م)

هو أبو القاسم محمد بن عبّاد بن محمد بن إسماعيل اللخميّ من بنى المنذر بن ماء السماء ، يلقب بالمعتمد على الله . ولد بإشبيلية التى خلف فيها أباه بعد مماته عام ٤٦٠ وقيل ٤٦١

ولما كان من أشدّ ملوك الأندلس طموحا وعزما ، فقد امتلك كثيرًا من بلدان الأندلس بادئا بقرطبة ومنتهيا بمرسيه ، إلا أنه لم يهنأ طويلا بهذا السلطان ، بل لقد ذهب به الأمر إلى حدّ أنه مالأ الأذفونس الفرنجى - هو الفونس السادس - صاحب طليطلة ، وراح يؤدى إليه الجزية فى كل سنة .

ولعل ذلك شجعه على التفكير فى غزو قرطبة ، فشخص المعتمد إليها ، فإذا قاضيها يشير عليه بالاستعانة بيوسف بن تاشفين رأسْ المرابطين فى أفريقيا .

وقد أسرع ابن تاشفين إلى نجدته بجيش عظيم عسكر فى إشبيلية ، ولما تسامع الفرنجة بذلك جيّشوا جيوشهم استعدادًا لملاقاة المعتمد وحلفائه . وفى معركة الزلاقة التى جرت عام ٤٧٩ دارت الدائرة على الفرنجة ، وغنم المسلمون من أموالهم وأسلحتهم ما لا يحصده عدٌّ .

ولم يعد ابن تاشفين إلى أفريقيا إلا كىّ يجهز جيشا يضرب به المعتمد ، وتم له ما يريد عام ٨٨٤ ، وقبض قائده على المعتمد وأرسل به مقيدًا إلى ابن تاشفين فحبسه فى أغمات Agmat إحدى قرى مراكش ، وهناك عاش حبيسا حتى مات .

وكان المعتمد فيما ذكره به النويرى فى " نهاية الأرب " من محاسن الزمان كرما وعلما ورئاسة . وفى « قلائد العقيان » أن ابن اللبانة كان يأتيه فى سجنه فيمدحه لإحسانه القديم إليه .

وقد شهر المعتمد بشدة البأس والشجاعة ، وبكثرة الجود والشهامة . كما شهر بالقريض وحسن النظم . وله غزل جميل وفخـر بنفسه وبأسرته يرد فى ثنايا غزلـه وفى رسائله إلى أبيه ، بمعنى أنه لم يقصد إلى الفخر قصدًا ، إلا فى واحدة جاءت بمناسبة فتح قرطبة ، وأخرى ذكر فيها سخاءه ، وثالثة اضطر إليها وهو أسير فـى أغمات . وإن يكن كلّ شعر الأسر بمثابة سلوى له ، يشكو به ألمه ويبثه شجنه . ويندب فيه حظـه !

* * *

قال المعتمد بن عبّاد يستعطف أباه حين خرج من مالقة :[1]

سكُـــنْ فـؤادَكَ ، لاتـــذهـــبْ بـكَ الفِكَـــرُ
مـــاذا يُعيـــد عليـــك البـــثُّ والحـــذَرُ

وازجُـــر جُفُـونَـــك ، لاتـــرضَ البكـاءَ لهـــا
واصبِـــر ، فقـــد كنت عنـــد الخَطـــب تصْطَبِـــرُ

وإنْ يكـــنْ قَـــدَرٌ قـــد عـــاق عـــن وطَـــرٍ
فـــلا مـــردَّ لمـــا يـــأتـــى بـــه القَـــدَرُ

وإن تكـــن خَيبـــةٌ فـــى الـــدّهـــر واحـــدةٌ
فكـــمْ غـــزوْتَ ومـــن أشيـــاعِـــك الظَّفَـــرُ

إن كنـــتَ فـــى حيـــرة مـــن جُـــرم مُجتـــرِمٍ
فـــإنَّ عُـــذرك فـــى ظَلْمـــائهـــا قَمـــرُ

كـــمْ زَفْـــرةٍ فـــى شَغَـــافِ القلـــبِ صـــاعـــدةٍ
وعَبـــرةٍ مـــن شـــؤون الـــدَّهـــر تنحـــدرُ[2]

فَـــوِّضْ إلـــى الله فِيمـــا أنـــت خـــائفُـــه
وثـــقْ بمعتِضـــدٍ بـــالله ، يغتفـــرُ

ولاتَـــرُغْـــك خطـــوبٌ ، إن عـــدا زمـــنٌ
فـــالله يَـــدْفـــع ، والمنصـــورُ ينتصـــرُ

---

(1) كان المعتضد بالله قد بعث بابنيه جابر ومحمد الملقب بعد بالمعتمد إلى مالقة بعد تقلص الظلال الحمودية عنها ، فاستوليا عليها سنة ٤٥٨ ثم لم يلبث المغاربة بها أن استصرخوا أميرهم باديس فأسرع إلى محاربة ابنى عباد فهزمهما واضطرهما إلى الفرار إلى رندة . . . فخاطب المعتمد أباه بهذا الشعر يستعطفه ويسليه عن مصابه فى هزيمته .

(2) شغاف القلب : غلافه أو حجابه أو حبّته أو سويداؤه - الشئون : مجارى الدمع إلى العين .

واصبرْ، فإنك من قوم أُولى جَلَدِ
إذًا أصابتهُم مكروهةٌ، صبرُوا
مَن مِثْلُ قومِك، من مثلُ الهمَامِ أبى
عمرو أبيكَ، له مجدٌ ومفتخَرُ
سميذَعٌ يَهَب الآلافَ مبتدِئًا ويستقلُّ عطاياهُ ويعتذرُ(٣)

(٣) السميذع: السيد الكريم الشريف السخيّ الموطأ الأكناف والشجاع.

لـــه يـــدٌ ، كـــلُّ جبّـــاريُقبّلهـــا ... لـــولا نَـــداهـــا لقلنـــا إنّهـــا الحَجـــرُ(٤)
يـا ضيغَمًـا ، يقتُـل الفُـرسـان مفتـرِسًـا ... لاتُـــوهِنَنّـــى ، فـــإنّـــى النّـــاب والظُّفـــرُ
وفـــارسًـــا ، تحـــذرُ الأبطـــالُ صـــولَتَـــه ... صُـنْ عبدَك القِـنَّ ، فهو الصّـارمُ الذّكـرُ(٥)
هـــو الـــذى لـــم تَشِـــمْ يُمنـــاك صفحتَـــه ... إلاتـــأتـــى مـــرادٌ ، وانقضَـــى وطَـــرُ(٦)
قـــد أخلَقتنـــى صُـــروفٌ ، أنـــت تعلمُهـــا ... وغـــالَ مـــوردَ آمـــالـــى بهـــا كـــدَرُ(٧)
فـــالنّفـــسُ جـــازعـــةٌ ، والعيـــنُ دامعـــةٌ ... والصّـوتُ منخفـضٌ ، والطَّـرْفُ منكسِـرُ
وحُلْـتُ لـونًـا ، ومـا بـالجسـم مـن سَقَـم ... وشِبـت رأسًـــا ، ولـــم يبلغنـــى الكِبَـــرُ
ومُـــتُ إلاّذَمـــاءً فـــيّ ، يُمسكـــه ... أنّـــى عهـــدتُـك تعفـو حيـــن تقتـــدرُ(٨)
لـــم يـــأت عبـــدُك ذنبـــا يستحـــقّ بـــه ... عتبًـــا ، وهـــا هـــو قـــد نَـــاداك يعتـــذرُ
مـــا الـــذّنب إلاّعلـــى قـــوم ذوى دغَـــلٍ ... وَفَـى لهـم عهـدُك المعهـودُ إذ غَـدروا(٩)
قـــومٌ نصيحتُهـــم غـــشٌ ، وحبُّهـــم ... بغُـضٌ ، ونفعُهُـــم - إن صَـرَّفـوا - ضَـرر
يُميِّـزُ البغـض فـى الألفـاظ ، إن نطقـوا ... ويُعـرف الحقـدُ فـى الألحـاظ ، إن نَظَـروا
إن يحـرق القلـبَ نفـثٌ مـن مقـالهـم ... فـإنّمـا ذاك مـن نـار القِلـى شَـررُ(١٠)
مـــولاى ، دعـــوةَ مملـــوكٍ بـــه ظمـــأٌ ... بَـرْحٌ ، وفى راحتَيـك السَّلْسَلُ الخَصِـر(١١)

---

(٤) يريد الحجر الأسود .

(٥) القنّ : العبد الذى كان أبوه مملوكا لمواليه - الذكر من الحديد : أيبسه وأشدّه وأجوده .

(٦) المراد : موضع اختلاف الإبل فى المرعى أو الموضع الذى يُذهب فيه الريح ويُجاء - الوطر : الحاجة فيها مأرب وهمّة .

(٧) أخلقتنى : أبلتنى ، ويقال أخلق شبابُ فلان أى ولّى - غالَ : أهلك .

(٨) الذماء : بقية النفس .

(٩) دغل : فساد .

(١٠) القِلى : البغض والهجر .

(١١) ظمأ برْح أى مُبَرِّح شديد - السلسل الخصر : الماء البارد العذب الصافى .

أجِبْ نداءَ أخى قلبٍ تملّكهُ أسًى ، وذى مُقلةٍ أودَى بها السَّهرُ
لم أُوتَ من زمنى شيئًا ألذُّ به فلستُ أعهدُ ما كأسٌ ولا وتَرُ
ولا تملّكنى دلٌّ ولا خَفَرٌ ولا سبَى خَلَدى غُنجٌ ، ولا حَوَرُ(١٢)
رضاك راحةُ نفسى لا فُجعتُ به فهو العتادُ الّذى للدّهرِ يُدَّخرُ
هو المُدَامُ التى أسْلُو بها فإذا عِدمتُها عَبِثَتْ فى قلبى الفِكَرُ
أجَلْ ، ولى راحةٌ أُخرى كَلفتُ بها نَظْمُ الكُلى فى القَنا والهامُ تنتثرُ
مَا تَركِىَ الخمرَ من زُهدٍ ولا ورَعٍ فلم يُفارق - لعَمرى - سِنّى الصِّغَرُ
وإنّما أنا سارعٍ فى رضاك ، فإن أخفقتُ فيه ، فلا يُفَسخ لَى العمُرُ
ما سرّنى ، وأحاشى عصرَ عطفكم يومٌ أخَلّ به فى عينىَ القِصَرُ(١٣)

* * *

وله إلى أبيه :

يا أيُّها الملكُ الذى كفَّاه بخَلّتَا السَّحابْ
أنْعَمْتَ بِالبيض الكَعَا ب ، علىَّ والخيلِ العِرابْ(١٤)
وغدوت تُخشى للعِقَا ب ، كما تُرجّى للثَّوابْ
برضاك أُبصرُ نائِىَ الآمالِ منِّى ذا اقْترابْ
وبطيب أيَّامى لديك عرفتُ أيَّامَ الشبابْ
فشكرتُ ما أوليتنيه من أياديك العِذابْ

(١٢) الغنج : التدلّل أو ملاحة العينين - الحور : شدة البياض فى بياض العين مع شدة السواد فى سوادها .

(١٣) أحاشى : أستثنى .

(١٤) الكعاب : التى نَهَد ثديها - العِراب : أى العربية المنسوبة إلى العرب .

بشَبـــا سِنَـــانِـــى فـــى الطّعـــا   ن وَحَـــد سيفـــى فـــى الضِّــرابْ
وشَبــا لِســانـــى فــى المحـــا   فــل ، بــالتَّعثُّــر لايُشَـــابْ
لازلـــت تنتَعِـــلُ النجـــو   مَ ، وخــدُّ قِتْلــكَ فــى التُّــرابْ (١٥)

* * *

وقال حين هوجمت إشبيلية ، فخرج مدافعا عن نفسه وأهله وكان قد أشار عليه وزراؤه بالخضوع والاستعطاف :

لَمَّــا تَمـــاسَكـــت الــدُّمــوعُ   وتَنَبَّــه القلــبُ الصَّـــديـــعُ
قـــالـــوا : الخضـــوعُ سيـــاسَـــةٌ   فلْيَبْـــدُ منــك لَهُــم خضُــوع
وألَـــذُّ مـــن طَعْـــم الخضـــوع   علـــى فمـــى السُّـــمُّ النَقيـــع
إن يسلُـــبِ القـــومُ العِـــدَا   مُلكـــى وتُسْلِمْنـــى الجمُـــوع
فـــالقلـــبُ بيـــن ضلُـــوعـــه   لـــم تُسلِـــمِ القلـــبَ الضُّلُـــوع
لـــم أُستَلـــب شَـــرفَ الطبـــا   عِ ، أيُسلَـــبُ الشّـــرفُ الـــرفيـــع ؟
قـــد رُمـــت يـــومَ نِـــزَالِهـــم   ألا تُحَصِّنَنِـــى الـــدُّرُوع
وبـــرزتُ ليـــس ســـوَى القَميـــص   علـــى الحشَـــاشـــىءٌ دَفُـــوع
وبـــذلـــتُ نفســـى كـــى تَسيـــلَ   إذا يَسيـــلُ بهـــا النَّجيـــع
أجَلِـــى تـــأخّـــر ، لـــم يكُـــن   بهـــواى ذُلِّـــى والخضُـــوع
مـــا ســـرتُ قـــطُّ إلـــى القِتـــا   ل وكـــان مـــن أمَلِـــى الـــرجـــوع
شيـــمُ الأُلـــى ، أنـــا منهـــمُ   والأصـــلُ تَتبعـــه الفـــروع

---

(١٥) القِتْل : المثل والنظير فى قتالٍ وغيره .

وقال يرثى ابنيه المأمونَ والرّاضيَ وقد رأى قُمريّة نائحة على سكنها . وأمامَها وكر فيه طائران يردّدان نغما : (١٦)

بكَتْ أن رأت إلْفَيـن ضَمَّهمَا وكـرُ ... مساءً ، وقد أخنى على إلفِها الدّهرُ (١٧)
بكَتْ ، لـم تُرِق دمعًا ، وأسْبَلتُ عَبْرةً ... يُقصّرُ عنهـا القَطْرُ مهما همَى القَطـرُ
ونَاحت وبَاحت ، واستَراحت بِسرِّها ... ومـانطقت حـرفًا ، يبوحُ بـه سـرّ
فمـا لِـىَ لاأبكى ! أمِ القلبُ صخـرةٌ ... وكـم صخرةٍ فى الأرض يجرى بها نهرُ
بكَت واحـدًا لـم يُشْجِهَـا غيـرُ فَقْـده ... وأبكـى لألآفٍ ، عـديـدُهُـم كُثْـرُ
بَنِـىَّ ، صغيـرٌ، أوخليـلٌ مُـوافِـقٌ ... يُمـزّقُ ذَا قَفْـرٌ، ويُغـرقُ ذا بَحْـرُ
ونجمـان ، زيـنٌ للـزّمـان ، احتـواهمـا ... بقـرطبـةَ النّكـداءِ ، أورنْـدةَ ، القبـرُ
غَـدرْتُ إذًا إنْ ضَـنَّ جَفنـى بقطـرِه ... وإنْ لَـؤُمَـتْ نفسـى ، فصـاحبَها الصّبرُ
فقُـل للنّجـوم الـزُّهـر تَبكيهمـا معـى ... لِمثلِهمـا فلتحـزَن الأنجـمُ الـزُّهُـر

* * *

وقال يندب ابنيه :

يـا غيمُ ، عَينَـى أقـوى منـك تَهتَـانَـا ... أبكـى لحزنـى ، ومـا حُمِّلتَ أحزانَـا (١٨)
ونـارُبـرقِـك تخبُـو إثْـرَ وقْـدَتِهـا ... ونـارُ قلبِـىَ تَبقَـى - الـدَّهـرَ - بُـركـانَـا

---

(١٦) المأمون لقب عباد بن المعتمد ويكنى أيضا أبا الفتح وأبا نصر ، وهو أكبر أولاد المعتمد ، استخلفه أبيه على قرطبة بعد تغلبه عليها وإخراج ابن عكاشة منها وقتله إياه انتقاما منه لسراج الدولة بن المعتمد الذى قتل سنة ٤٦٨ هـ وظل المأمون على قرطبة إلى أن زحف عليها أحد جيوش يوسف بن تاشفين بقيادة أبى عبد الله بن الحاج فقتل بعد دفاع مجيد عنها فى (صفر سنة ٤٨٤ هـ).

والراضى لقب يزيد بن المعتمد . كان والى الجزيرة الخضراء من قبل أبيه قبيل اجتياز يوسف للأندلس . وهو الذى قبض على ابن عمار فى شقوره سنة ٤٧٧ وكان والى رندة إلى سنة ٤٨٤ ، وظل معتصما بها مدافعا عنها الجيش الثانى ليوسف بقيادة جرور اللمتونى إلى أن قتل فيها بعد أخيه المأمون بقليل .

(١٧) أخنى عليه الدهر : مال عليه وأهلكه .

(١٨) التهتان : السيلان قطرة قطرة .

نــارٌ ومــاءٌ صميــمُ القلــبِ أصلُهمــا   متَـى حــوى القلـب نيـرانـا وطــوفـانــا
ضــدَّان ، ألَّـف صــرفُ الـدّهـر بينهمــا   لقــد تلَّــون فـــىَّ الـــدَّهـــرُ ألــوانَــا
بكيــتُ فَتْحًــا ، فــإذْ مـا رُمــتَ سلــوتَــه   ثَــوَى يــزيــدُ ، فـــزادَ القلــبَ نيــرانَــا
يــا فلَــذَتــىْ كِبــدى يــأبــى تَقطُّعُهــا   مـن وَجْـدِهـا بكمـا مـا عشـتُ ، سُلْـوانَـا
لقــد هـــوى بكمــا نجمــانِ مَــا رَمَيَــا   إلاّمــن العُلْـو بــالألحــاظِ كِيـوانــا (١٩)
مُخفَّــفٌ عـــن فـــؤادى أنّ ثُكلَكُمــا   مُثَقِّــلٌ لـــىَ يـــومَ الحَشـــرِ مِيــزانَــا
يـا فتحُ ، قـد فَتَحــتْ تلـك الشهـادةُ لـى   بــاب الطَّمـاعَــةِ فــى لُقيــاك جـذلانَــا
ويــا يــزيــدُ ، لقــد زاد الــرَّجــا بكمــا   أن يشْفَــع اللهُ بــالإحســان إحســانَــا
لمّــا شَفَعْــتَ أخــاك الفَتــح ، تتبعُــه   لقّــاكُمــا الله غُفــرانًــا ورضــوانَــا
منّـــى البّســلامُ ، ومـــن أُمّ مُفجَّعـــة   عليكُمـــا أبـــدا ، مثنـــى ووُحـــدانَــا
أبكـــى وتَبكـــى ، ونُبْكِـى غيـرَنــا أسفًــا   لَـــدى التّـــذكُّــرِ ، نُسْـــوانــا ووِلْـــدانَــا

* * *

وقال مِن قطعة يرثى فيها سعدًا ابنه :

إذا كـــانَ قـــد أودى الـــزّمـــانُ بمثلـــهِ   ولـــم يَبـق فـــى عَـــوْدٍ لـــه طمَــعٌ بعـــدُ
فـــلا بِتُـــرَت بُتّـــر ، ولا قُنِيـــت قَنًـــا   ولا زأرت أُســـدٌ ، ولا صهَلـــت جُـــردُ (٢٠)
ولازال ملـــذُوعًـــا علـــى سيّـــدٍ حشًـــا   ولا انفَــكَّ ملطُــومــا علــى مَلِــك خــدُّ

* * *

(١٩) كيوان : هو كوكب زحل .

(٢٠) البُتر السيوف القَاطِعَة - القنا : الرماح .

وقــال وهـو فـى الأسـر :

روى العماد الأصفهانّى فى خريدة القصر بإسناد عن قاضى الجماعة بإشبيلية : " أنّه لمّا خُلع المعتمد غُرِّبه يوسف بن تاشفين إلى العُدوة ، فوصل إلى موضع منها . وأهل البلد خارجون للاستسقاء فأنشد :

خــرَجُــوا ليسْتَسقُــوا ، فقلــتُ لهــم ... دَمعــى يَنــوبُ لكــمُ عــن الأنــواءِ (٢١)

قــالـوُا : حقيــقٌ ، فـى دمـوعـك مَقْنَــعٌ ... لكنَّهـــا ممـــزوجـــةٌ بـــدمـــاءِ

* * *

وقــال فـى الأســر . وقــد رأى بناته فـى أحد الأعياد يمشيــن فـى فقر وحزن :

فـى مَـا مضَـى كُنْـتَ بـالأعْيَـادِ مسـرُورًا ، ... فَجـاءَكَ العيــد فـى أغمــاتَ مَــأْسُــورا

رَّى بَنَــاتِـــكَ فــى الأَطْمَــارِ جَــائِعــةً ... يَغْــزِلْــنَ للنَّـاس ، مـا يمْلِكْــنَ قِطْمِيــرًا

بــرَزْنَ نَحْــوَكَ لِلتَّسْلِيــمِ خَــاشِعــةً ... أَبْصَــارُهُــنَّ ، حَسِيــرَاتٍ مَكَـاسِيــرًا (٢٢)

يطَــأْنَ فــى الطِّيــنِ وَالأَقْــدَامُ حَــافِيَــةٌ ... كَــأَنَّهَـــا لَــم تَطَــأْ مِسْكًــا وكَــافُــورَا

لاَخَــدَّ إِلاَّتَشَكَّــى الجـــدْب ظَــاهِــرُهُ ، ... وليـــس إِلاَّ مَـــع الأَنْفَـــاسِ مَمْطُـــورَا

أَفطَــرْتَ فـى العِيــد لاعــادَتْ إِســاءَتُــهُ ... وكَـــانَ فِطْـــرُكَ لِـــلأَكْبَـــادِ تَفْطِيـــرَا

قَــد كــانَ دَهْــرُكَ إِنْ تَــأْمُــرْهُ مُمْتَثِــلاً ... فـــردَّكَ الـــدَّهْـــرُ مَنْهِيًّـــا ومَـــأْمُـــورَا

مــنْ بَـاتَ بَعْــدَكَ فـى مُلْــكٍ يُسَرُّبــهِ ، ... فـــإِنَّمـــا بـــاتَ بِـــالأَحْـــلام مِغْـــرُورَا !

* * *

---

(٢١) الأنواء : الأمطار الشديدة .

(٢٢) الأطمار : جمع الطّمر ، وهو الثوب الخلِق البالى - القطمير : القشرة الرقيقة على النّواة كاللفافة لها ، والمراد : الشيء الزهيد حسيرات : بمعنى كاشفات عن وجوهن ، يقال حسرت الجارية خمارها عن وجهها- مكاسير : بمعنى حزينات .

وقـال وهو فـى الحبس - يشكو الوحشة :

بكيتُ إلـى سِرْبِ القَطـا إذْ مَرَرْن بـى ... ســوارحُ لاسجـنٌ يعــوقُ ولا كَبْـلُ [٢٣]
ولـم تـكُ - واللهُ المعيــذُ - حَســادةً ... ولكــنْ حنينًـا أنّ شكْلـى لها شكـل
فـأسْـرَحُ لا شَمْلٌ صَـدِيـعٌ ولا الحشـا ... وَجيــعٌ ولا عينــان يُبْكيهمـا ثُكْـل
ومـا ذاك ممّـا يعتـريـه وإنّمـا ... وصفتُ الذى فى جُبْلَـة الخلْقَ من قَبْل [٢٤]
هنيئًـا لهـا أنْ لـم يُفَـرَّقْ جميعُهـا ... ولا ذاق منهـا البعَـد عــن أهلـه أهـل
وإنْ لـم تَبِـتْ مثلـى تطيـرُ قلـوُبهـا ... إذا اهتـزَّ بـابُ السجِـن أو صَلْصَـل القُفْـل
لِنفسـى إلـى لُقيـا الحِمـام تشـوُّفٌ ... سِوِاى يحبُّ العيشَ فى سـاقه كَبْـل [٢٥]
ألاَ عَصَــمَ اللهُ القَطـا فـى فِـراخهـا ... فـإنَّ فِـراخـى خـانهـا المـاءُ والظـلّ

* * * *

وقــال يعبّر عن فرحته بما يملك :

ولقـد شـرِبـتُ الـراحَ يسطَـع نـوُرهـا ... والليــلُ قــد مــدَّ الظــلام رِداءَ
حتّـى تبـدّى البــدرُفــى جَـوْزائه ... مِلِكًــا تنــاهَــى بهجــةً وبهــاء
لمّــا أرادَ تنــزُّهًــا فــى غــربــه ... جعــل المظلّـــة فــوقــه الجــوزاء
وتنــاهضــتْ زهــر النّجــوم يحفّــه ... لألاؤهـــا فــاستكمـــل الآلاء
وتـرى الكـواكـبَ كـالمـواكـب حـولَـه ... رفعــتْ ثُـــرَيّــاهــا عليــه لــواء
وحَكَيْتُـه فــى الأرض بيــن مــواكــب ... وكَــواعِــبٍ جمعــتْ سنًـا وسنــاء

---

(٢٣) كَبْل : قيد .

(٢٤) صديع : متفرق - الضمير فى " يعتريه " يعود إلى " سرب القطا " فى البيت الأول - جُبْلة : طبْع ، مثل الجِبِلّة .

(٢٥) صلصل : صوّت - الحِمام : قضاء الموت وقدره .

إنْ نشَّرتْ تلك الدروعَ حَنادسًا ... ملأت لنا هَذى الكئوسَ ضياء (٢٦)
وإذا تغنَّت هذه فى مِزْهَر ... لم تَأل تلك على التَّريك غناء (٢٧)

* * *

وكان الوزير أبو العلاء زُهر بنُ عبد الملك بن زُهر بمراكش . قد استدعاه أمير المسلمين لعلاجه . فكتَب إليه المعتمد راغبا فى علاج بعض كرائمه ، ومطالعة أحوالها بنفسه . فقام بعلاجها ، ورفع قدر المعتمد بالتّبجيل . ودعا له بالبقاء الطّويل : فكتب إليه المعتمد إثر ذلك بهذه الأبيات :

دعَا لى بالبقاءِ ، وكيف يَهوى ... أسيرٌ أن يطولَ به البقاءُ
أليس الموتُ أروحَ من حياةٍ ... يطولُ على الشّقّى بها الشّقاءُ
فَمَن يكُ مِن هواه لِقاءُ حِبٍّ ... فإنّ هَواى من حَتفى اللّقاءُ (٢٨)
أأرغبُ أن أعيشَ أرى بناتى ... عَوارِىَ ، قد أضرَّبها الحَفاءُ
خَوادمَ بنتِ مَن قد كان أعْلَى ... مَراتبَه - إذا أبدُو - النّداءُ (٢٩)
وطردُ النّاس بين يَدىْ مَمَرِّى ... وكَفُّهمُ إذا غَصَّ الفِناءُ
وركضٌ عن يمين أو شمالٍ ... لنظم الجيش إن رُفع اللواءُ
يُعنّيه أمامٌ أو وراءٌ ... إذا اختلّ الأمامُ أو الوراءُ

(٢٦) الإشارة فى " تلك " إلى " المواكب " ، وفى " هذى " إلى " الكواعب " - حنادسًا : حال من " الدروع " والحنادس : جمع الحِنْدس ، وهو الظلمة ، أو الليل الشديد الظلمة .

(٢٧) المزهر : العود الذى يضرب به ، وهو من آلات الطرب - التريك : الغصن أو العنقود أو قنو النخلة .

(٢٨) الحِبّ : المحبوب .

(٢٩) قال بعض المؤرخين : « وبلغ من حال المعتمد على الله بأغمات أن آثر حظيّاته وأكرم بناته ألجئت أن تستدعى غزْلاً من الناس تسدّ بأجرته بعض حالها وتُصلح به ما ظهر من اختلالها ، فأدخل عليها فيما أُدخل غزل لبنت عريف شرطة أبيها ، كان بين يديه ، يزع الناس يوم بروزه ، لم يكن يراه إلاّ ذلك اليوم . . . » .

ولكنّ الدّعاءَ إذا دعاه ... ضميرٌ خالص نَفَع الدّعاءُ

جُزيتَ أبا العلاء جزاءَ بَرّ ... نوى بِرًّا ، وصَاحَبَك العَلاءُ

سيُبْلِى النّفْسَ عمّن فات علمى ... بأنّ الكلَّ يدركُه الفَناءُ

* * *

قال ابن عمّار[٣٠] فى بنى عبد العزيز أمراء بلنسية مغريا بهم وخاطبا لنفسه ، فى الاستيلاء على بلنسية – قصيدة طويلة ، ونحلها ابن المطرّز الشّاعر ، وأوّلها :

بشّر بلنسيةً وكانت جنّة ... أن قد تدلَّتِ فى سَواء النّارِ

ومنها :

كيف التّفلُّتُ بالخديعة من يَدَىْ ... رجُلِ الحقيقةِ ، من بَنى عمَّارِ

رجلٍ ، تَطعَّمه الزمانُ ، فجاءَه ... طَرَفين ، فى الإحلاَء ، والإمرارِ

سَلِسِ القيادِ إلى الجميل ، فإن يُهَجْ ... فَدع العِنَان لهبَّةِ البتَّار

طَبِنٍ بأغراض الأُمور ، مجرّبٍ ... فَطنٍ لأسرار المكايد دارِ[٣١]

كَشّافِ مُظلمة ، وسائِس أُمّةٍ ... نَفّاعِ أهل زمانه ، ضرّارِ

شرّابِ أكواس المُدام ، وتارة ... شرّابِ أكواس الدّم المهدار

جرّارِ أذيال القنا ، ظُنّوا به ... قد زاركم فى الجحفل الجرّارِ

---

(٣٠) هو محمد بن عمار ، ويكنى أبا بكر ، أصله من قرية من أعمال شلب ، يقال لها شنبوس ، مولده ومولد آبائه بها ، كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه فى الرئاسة فى قديم الدهر ولا حديثه حظّ . . . .

وكان ابن عمار بعد أن ضبط أمر مرسية قد طمع فى بلنسية .

(٣١) طبِن : فطِن .

فلمّا سمع المعتمد هذا القصيد ، وقرع سمعهَ فخارُ ابن عمّار بقوله : " كيف التّفلّت بالخديعة . . . " قال معرّضا به :

الأكثرين مسوَّدًا ، وُمملَّكا ... ومتَّوجًا ، فى سالفِ الأعصارِ

المكثرين من الكِباءِ لنارهم ... لايُوقدون بغيره للسَّارِى (٣٢)

والمؤثرين على العيال بزادهم ... والضّاربين لهامة الجبَّارِ

الناهضين من المهُود إلى العُلا ... والمُنهضين الغَارَ بعد الغارِ (٣٣)

إن كُوثروا كانوا الحصَى أو فاخَروا ... فَمَنِ الأكاسرُ من بنى الأحرار

يُضحِى مؤمِّلُهم يُؤَمِّل سَيْبَه ... ويبيتُ جارهُم عزيزَ الجارِ (٣٤)

تبكى عليهم شنبُّوس بعبْرَةٍ ... كأتِيّها المتدافِعِ التَّيَّارِ (٣٥)

يبكى لها القصرُ المنيفُ تلألأت ... شُرفاتُه فى خُضرة الأشجارِ

ماضا حكَتْه الشّمسُ إلّا خِلتَه ... نُضِحت جوانبُه بماء نُضارِ (٣٦)

تبكى القيانُ تجاوبت أوتارُها ... فى ساحتَيه تجاوبَ الأطيارِ

يا شمسَ ذاك القصر ، كيف تخلّصت ... فيه إليك طوارقُ الأقدارِ

لما تَنَكَّبكِ شَعُوبُ ، حتى جاوزت ... غُلبَ الرّجال وسامِىَ الأسوارِ (٣٧)

---

(٣٢) الكباء : عود البخور.

(٣٣) الغار : الخيل المغيرة .

(٣٤) السَّيْب : العطاء والمعروف .

(٣٥) الأتِىّ : السيل .

(٣٦) نُضحت : رُشّت ، ونضحتنا السماء أى أمطرتنا - النضار : الخالص من كلّ شىء ، يقال : ذهب نضار .

(٣٧) الشّعوب : عَلَمٌ على المنيّة - غُلْب : جمع أغلب وهو الغليظ الرقبة ، وكان السادة يوصفون بغلظ الرقبة وطولها - الأسوار : الواحد من أساورة فارس وهو الفارس المقاتل الجيّد الرمى بالسهام .

كـم كـان مـن أَسـدٍ هنـالـك خَـادِرٍ   لـك حـارسٍ ، بـأسنّـة وشِفَـارِ(٣٨)
مـنْ قـومِك الـزُّهرِ الـوجـوه ، إذا الـوغـى   كسـت الـوجـوهَ الغُـرَّ ثـوبَ القـارِ(٣٩)
مـن كّـل أشْـوسَ خـائِض فـى لجّـة   نحـو الكُمـاة ، بشعلـة مـن نـارِ(٤٠)
لمّـا نمـاهـم للعـلا عمّـارُهـم   تـركُـوا العُـداةَ قصيـرة الأعمـارِ

* * *

وقال في زوجه (اعتماد) :

بَكَـرتْ تلـومُ ، وفـى الفـؤاد بَـلابُـل   سَفَهًـا ، وهـل يَثْنى الْحليـمَ الجاهـلُ (٤١)
يـا هـذه ، كُفّـى ، فـإنّـى عـاشـقٌ   مـن لا يَـردُّ هَـواى عنهـا عـاذِلُ
حـبُّ اعتمـادٍ فـى الجـوانـح سـاكـنٌ   لاالقلـبُ ضـاق بـه ، ولاهـو راحـلُ
يـا ظبيـةً ، سَلَبـت فـؤادَ محمـدٍ   أوَلَـمْ يـروِّعْـك الهِـزَبْـر البـاسِـلُ (٤٢)
مـن شـكَّ أنّـى هـائمٌ بـك مغـرمٌ   فعلـى هَـواكِ لـهُ علـىَّ دلائلُ
لـونٌ كَسَتْـه صفـرةٌ ، ومـدامـعٌ   هطَلَـت سحـائبُهـا ، وجسـمٌ نـاحـلُ

---

(٣٨) خادر: مقيم فى عرينه – الشفار: جمع شفرة وهى حد السّيف .

(٣٩) القار: الزفت .

(٤٠) الأشوس : الشجاع الجرىء .

(٤١) البلابل : جمع البلبال والبلبالة : شدة الهمّ والوسواس .

(٤٢) الهزبر: الأسد الكاسر.

وقال :

ثـلاثـةٌ منَعتْهـا عـن زيـارتنـا
خَوفَ الـرّقيب ، وخـوفَ الحاسـد الحَنِقِ :
ضـوءُ الجبيـنِ ، وَوَسـواسُ الحلْـى ، ومَـا
تحـوى مَعـاطِفُهـا مـن عنبـرَ عَبِـقِ
هَـبِ الجبيـنَ بفَضـل الكُـمِّ تَستُـره
والحلْـىَ تنـزِعـه ، مـا حَيلُـة العـرَق

* * *

وقال :

أنَـا فـى عَـذابٍ مـن فِـراقِـك　　نَشْـوانُ مـن خَمْـر اشتيـاقِـكْ
صـبٌّ الفـؤادِ إلـى لِقـا　　ئِكَ ، وارتشَـافِـك ، واعتنـاقِـكْ
لاتَحسبـى أنّـى سلَـو　　تُ لمـا تَـوالَـى مـن فِـراقِـكْ
هـذى جُفـونـى أقسَمَـت　　لاتلْتَقـى مـا لـم تُـلاقِـكْ
فَصِلِـى جميـلَ الظّـنّ بـى　　وثِقِـى ، فقلبِـى فـى وثَـاقِـكْ

* * *

وقال فى الغزل :

أنَـا فـى عَـذابٍ مـن فِـراقـكْ　　سكـرانُ مـن خَمـرِ اشتيـاقِـكْ
صـبٌّ الفـؤادِ إلـى لِقـا　　ئِكَ وارتِشَـافِـك ، واعتِنـاقـكْ
لاتَحْسبـى أنّـى سَلَـوْ　　تُ لمـا تَـوالـى مِـن فِـراقِـكْ
هـذى جُفـونـى أقسَمَـتْ　　لاتَلْتقـى مـا لـم تُـلاقـك
فصِلـى جميـلَ الظـنِّ بـى　　وثِقـى ، فقلْبِـى فـى وَثـاقـك

وقال أيضا :

إنِّى رأيتُك فى المنام ضَجيعتى ... وكأنَّ ساعِدَك الوثيرَ وِسادى
وكأنَّما عانقْتِنى وشكوتِ ما ... أشكوه من وَجْدى وطُول سُهادى
وكأنَّنى قبَّلتُ ثَغْرَك والطُّلى ... والوَجْنَتَيْن ونلتُ منك مُرادى
وهواكِ لولا طيفُك زائرٌ ... فى الغِبِّ لى ماذقتُ طَعْم رُقاد (٤٣)

---

(٤٣) الطُّلاة : العنق أو صفحته ، والجمع : طُلًى - الغِبّ : الزيارة فى الحين بعد الحين .

ابن عبادة القزاز

(ت ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م)

هو أبو عبد الله محمد بن عبادة ويعرف بابن القزّار، من حصنى بِلّور من إقليم غرناطة ، وذكر بعض من ترجموا له أنه من أهل مالقة ، وهو واحد من خمسة وشاحين ، عنى ابن سناء الملك بالحديث عنهم وعن موشحاتهم فى كتابه : " دار الطراز " ، أما الأربعة الباقون ، فهم : ابن اللبانة والتطيلى وابن بقى من عصر المرابطين وابن زهر من عصر الموحّدين .

واشتهر ابن عبادة بأنه شاعر المعتصم بن صمادح أمير المريّة ، ويروى أنه أنشده :

ولو لم أكُنْ عبدًا لآلِ صُمادح   وفى أرضِهم أَصْلى وعَيْشى ومَوْلدى

لما كانَ لِى إلاّ إليهمْ تَرَحُّلٌ   وفى ظِلِّهم أُمْسى وأُضْحى وأَغْتَدِى

فالتفت إلى ابنه الواثق ولى عهده ، وقال له : " إذا اصطنعت الرجال فمثل هذا فاصطنع ، ضمّه إليك ، وافعل ما تقتضيه وصيّتى به ، ونبّهنى إليه فى كلّ وقت " .

وكان المعتمد بن عباد ممن مدحهم ابن عبادة بقصائده وموشحاته ، وقد وصفه ابن بسّام ، فقال عنه إنه " من مشاهير الأدباء الشعراء ، وأكثرُ ما ذُكر اسمُه وحُفظ نظمُه فى أوزان الموشحات التى كثر استعمالها عند أهل الأندلس ، وهو مِمَّن نسج على منوال ذلك الطراز ، ورقّم ديباجه ، ورصّع تاجه ، وألفاظه فى التوشيح شاهدة له بالتبريز والشفوف " .

* * *

من موشحات ابن عبادة القزاز :

بأبي ظبيُ حِمَى ... تكنُفُه أُسْدُ غِيلْ
مذهبي رَشْفُ لَمَى ... قَرْقَفُه سلسبيلْ (١)
يستبي قلبي بما ... يعطِفُه إذ يميلْ
ذو اعتدالْ يُعزى إلى ... ذي نِعْمةٍ ثابتِ
في ظلالْ تحت حُلَى ... قطرِ الندى بائتِ
وفتورْ ذو غَنْجِ ... ذو مرشفِ ألعسِ
العبيرْ في أرجِ ... والحسنُ في ملبِسِ
كم يثيرْ وَجْدَ شجِ ... بالدَّنَفِ مكتسِ (٢)
ذو اعتلالْ لو عُلَّلا ... أنطقَ عن ساكتِ
وغزالْ لو مُقِّلا ... ألْحَظَ عن باهتِ
نَيِّرٌ حَدُّ الهوى ... أن يجدوا حَدَّه
كوثرٌ سِرُّ الصَّدَى ... أنْ يَرِدُوا وِرْدَه
انظروا محمدًا ... واتئدوا عنده (٣)
في هلالْ لو يجتلَى ... جلَّ عن الناعتِ
وزُلالْ لو بُذلا ... يَرْتَقِي للقانتِ (٤)

---

(١) تكنفه : تصونه وتحفظه - الغيل : موضع الأسد - القرقف : الخمر أو الماء البارد الصافي - السلسبيل : الشراب العذب .

(٢) المَرْشف : موضع الرشف - ألعس : من اللَّعَس وهو سواد اللثة والشفة أو هو سواد في حمرة - أرج : انتشار الريح الطيبة - الشجى : من اهتمّ وحزن - الدَّنَف : المرض المثقل .

(٣) الصدى : العطش الشديد - اتئدوا : تمهَّلوا .

(٤) القانت : المطيع الخاضع لله .

بَــدْرُتِــمْ شَمْــسُ ضُحَــى　　غُصْــنُ نَقَــا مِنْــكُ شَــمّ(٥)
مــا أَتَــمْ مــا أوضَحَــا　　مــا أَوْرَقَــا مــا أَتَــمّ
لا جَــرَمْ مَــنْ لَمَحَــا　　قَــدْ عَشِقَــا قَــدْ حُــرِمْ
فــالــوصــالْ مــا قــد خَــلا　　مــن أَمَــلٍ فــائتِ
والخيــالْ مــا قــد عَــلاَ　　مــن نَفَــسٍ خــافــتِ
قــاتلــى أَهِــنْ دَمــا　　مَــنْ قَــدْ غَــدا مُلْحِــدا
واصلــى كنــتَ فمــا　　عمــا بَــدا قَــدْ عَــدا
ســائلــى مُستَفْهِمــا　　جيــشَ الــردَى أُغْتِــدَا
لا ســؤالْ عــن مبتلــى　　يَنْحَــتُ فــى صــامــتِ
لينــالْ مــا أَمَّــلا　　والأَمــرُللشــامــتِ
كــم يتيــهْ كَــمْ وَكَــمْ　　يــأبَــى الجَــوَى أَن يحــولْ
أَرتضيــهْ وإنْ حَكَــم　　حُكــم الهــوى فــى العقــولْ
قلــت فيــهْ والحــبُّ لــم　　يــرضَ عــامــا أَقــولْ
الجمــالْ وقــفٌ علــى　　ظبــيٍ بنــى ثــابــتِ
لا زوالْ فــى الحــبّ لا　　عــم عهــدِهِ الثــابــت

＊ ＊ ＊

(٥) بدرتِمّ : يعنى البدرليلة التمام وهى الرابعة عشرة من الشهر القمرى .

وقال مُوَشّحًا : (١)

رُحْ للـراحِ وباكِـر بالمُعَلِـم المَشوفْ غَبُـوقًا وصَبُـوحْ على الـوتَرِ الفَصيحْ (٦)

ليس اسمُ الخمـرِ عنـدى مـأخـوذًا فـاعلـمْ
إلا مـن خـاءِ الخَـدِّ وميـم المَبْسَـمْ
وراءِ ريـقِ الشَّهـدِ العـاطـرِ الفَـمْ

فكُنْ للهـمِّ هاجـر وصِلْ هذى الحـروف كى تغـدو لله وتروحْ بجسـمٍ له رُوح

بـالله سُقنيهـا فـى وُدِّ الـوائـق
فـإنَّ منـه فيهـا شبـهَ الخـلائق
مـن أعـدمَ الشبيهـا فـى المجدِ البـاسقِ

لـه مـن المفـاخِـرْ تليـدٌ وطـريـف دوحٌ من عهـد نـوحْ وروضـةٌ تفـوح

هـل تَحْسُـنُ المـدائحْ مـن كـلِّ مـادحْ
إلاعلـى الجَحـاجِـحْ بنـى صمـادحْ (٧)
فـإنهـم مصـابِـحْ علـى سـوانِـحْ

---

(٦) المعلم المشوف بمعنى القدح المنقوش المجلو.
(٧) الجحاجح : جمع الجحجاح ، وهو السيد السمح الكريم.

أكـارم أكابـرْ صيدٌ شُـمُ الأنوفَ حـازُوا المجـدَ الصَّريـح فَخُصُّوا بـالمديـح

محمـــــدٌ بعيـــــدْ مـرامُـه قـريـبْ
وحـــولَـــه جنـــودْ مِـــن آلـــهِ تُجِيـبْ
كـــأنهـــم أسُـــودْ فـى حومـةِ الحُروبْ

إذا سلّـوا البـواتـر فـالْحَيْـنُ والحُتـوف والنصـرُوالفتُـوحْ وآيـةٌ تَلُـوحْ (٨)

إذ لاح ابـــنُ معـــنِ فـى جيشِـه اللَّجِـبْ
ونـــادى كـــل قِـــرنِ بـاسمـه فـى اللَّعِـبْ
فـــالهَيْجـــا تغنـــى والسيـف قـد طـرِبْ

مـا أملحَـا العسـاكـر وتـرتيـبَ الصُّفوف والأبطـالْ تصيـحْ الـواثِقْ يـا مليـح

* * *

(٨) البواتر: السيوف القاطعة – الحتوف: جمع الحتف، وهو الهلاك.

وقال أيضا فى مُوَشّحة : (١)

كم فى قدودِ البانْ تحت اللِّمَمْ من أقمرٍ عواطِ
بأنمُل وبَنَانْ مثل العَنَمْ لم تَنْبرِ لِعَطِ (٩)

هُنّ الظِّباءُ الشمس قنيصُهُنَّ الضَّيغمُ
ما إن لها من كُنس إلا القلوبُ الهُيَّمُ
القربُ منها عُرْسْ والبعدُ عنها مأتَمُ
تلك الشفاهُ اللُّعْسْ يَحْيَى بهن المُغْرَمُ
لها لحاظَ نُعْسُ ترنو إلى من يَسْقَمْ (١٠)

بأعينِ الغزلانْ وتبتسمْ عن جَوْهَرِ الأسماطِ
قضى لها الغَيْرانْ أنْ تكتمْ فى مُضْمَرِ الأَنْيَاطِ (١١)

أهوَى رشًا ساحِرا هواهُ لى ما أقتلَهْ
قد مَسَخَتْ طائرًا ألحاظُه قلبى ولَهْ
ولم يزلْ سادِرًا على هوَى ما عللَهْ
لما غَدا قادرا غدا قليلَ المَعْدلَةْ (١٢)
يا حاكما جائِرا ظلمتَ من لاذنبَ لهْ

---

(٩) القدود : جمع القدّ ، وهو القامة والقوام - البان : شجر سبط لينّ ، يشبّه به الحسان فى الطول واللِّين - اللّمم : جمع اللمّة ، وهى شعر الرأس المجاور شحمة الأذن - العنم : نبات أملس دائم الخضرة .

(١٠) قنيص : صائد - الضيغم : الأسد - الكُنُس ؛ جمع الكناس ، وهو ما يأوى إليه الظبى ليستتر - الشفاه اللعس : التى اسوّد باطنها ، وهو سواد مستحسن .

(١١) قوله : « الأنياط » لعله جمع " النّيط " بمعنى الموت أو الأجل .

(١٢) السادر : التائه فى الغىّ ، أو الذى لا يبالى بما يصنع - المعدلة : العدل والاستقامة .

خف سطوةَ الرحمن إذا حَكَمْ بين البرِى والخاطى
سطوتَ بالهَيْمَانْ ظلما ولمْ يستنصِرِ يا ساطى

ياويح مَنْ شُوِّقَا إلى حبيبٍ قد سَلا
قَضى بأن يُغْرِقَا فى الدمعِ مَنْ قد أمحَلا(١٣)
ظُلْمًا وأن يَخْفِقَا منه الفؤادُ المبتلَى
كأنما عُلِّقَا منه على تلك الطُّلَى
فقلت مستنطِقا مَنْ ذا الذى أهدى إلى

فؤادِى الخَفقَانْ فقال قُمْ فلتنظُر فى الشاطى
إلى بنودِ الشوانْ عذواك ثَمْ واستخبِر أقراطى

أما تراها مثُولْ على قناها خافِقَةْ
فى جارياتٍ تجولْ مثلَ الجيادِ السابِقَةْ
إنشاءَ مَنْ فى المُحولْ يُنْشى السحابَ الوادِقَةْ(١٤)
سمتْ على النجم طُولْ منها فروعُ باسِقَةْ
إن الثريّا تقولْ وإنها لصادقَةْ

(١٣) يقال : أمحل المكان بمعنى أجرب واحتبس عنه المطر.
(١٤) مُحُول : جمع مَحْل ، وهو انقطاع المطر ويُبْس الأرض من الكلأ - الوادقة : التى يقطر ماؤها ويسيل .

مـــا فـــوق هـــذا المـــكـــانْ   مـــن الهـــمَمْ   فيـــه يـــرى   منـــاطِـــى
سَـــمَـــتْ عـــلى كِـــيـــوانْ   منـــه القَـــدَمْ   والمُشْـــتَـــرى   مـــواطِـــى [(١٥)]

أفـــلاكُ مُلـــكٍ تنيـــرْ   سعـــادةً للمسلميـــنْ
تســرى الـــدّجـــى وتَسيـــرْ   بـــالفتـــحِ والنصـــرِ المُبيـــنْ
يســـوءُ بعـــدَ النَّـــذيـــرْ   منهـــا صباحُ المنـــذريـــن
تُحْـــدَى بمـــدحِ الأميـــرْ   إلـــى بـــلادِ المُشْـــرِكيـــنَ
أنَّـــى نَحـــا فتطيـــرْ   بمثـــلِ أشفـــارِ الجُفـــونْ

ومَـــبْـــسَـــم الخُرصـــانْ   قـــد انتـــظَـــمْ   كـــأسطـــر   الأمشـــاطِ
والبحـــرُ كـــالبـــركـــانْ   قـــد اضطـــرمْ   بِمُسْعَـــرِ   الأنفـــاطِ [(١٦)]

ومهـــرجـــانٍ لـــــهُ   يـــومٌ أنيـــقٌ منظـــرُهْ
بحـــرٌ حكـــى رملَـــهُ   مـــن كـــلِّ طيـــب عنبـــرُهْ
والشّـــاط قـــد حلـــهُ   محمـــدٌ وعسكـــره
مـــركَّبـــا رجلَـــهُ   فُلْكَـــا حَكَتْهـــا ضُمَّـــرُهْ
فقـــال عبـــدٌ لـــهُ   متسحِســـنٌ مـــا يبصـــرُه :

---

(١٥) كيوان : كوكب زحل .
(١٦) أشفار : جمع شَفْر ، وهو حرف الجفن الذى ينبت عليه الهُدْب - الخرْصان : جمع الخرْص ، وهو الحلقة من الذهب والفضّة - المِسعر : الموقِد أو ما تحرك به النار من حديد أو خشب - الأنفاط : لعله بمعنى القطران .

مـا أملـحَ المهـرجـانْ رمـل يَتِـمْ كـالعنبـرِ للـواطـى
والفـلـكُ كـالعِقْبانْ والمعتـصِمْ بـالعسكَر فـى الشاطـى[17]

* * *

وقال أيضا :

دَعْنـى أَشِـمْ * بـرقًـا جَمَـدْ * مَـرْجـان * قـد انتظَـمْ * فيـه البَـرَدْ * فـازْدانْ

يـومُ النَّـوى فـى مـوقـف البيْـنِ
أهْـدَى الهـوى إلـىَّ ضِـدَّيْـنِ
نـارَ الجَـوَى وأدمُـعَ العَيْـن

فتضطـرِمْ * وتَتَّقِـدْ * أشجـانْ * وتنسجِـمْ * وتَطِـرِّدْ * أجْفـان

قـلْ للعِـدى قـد سَـلَّ سَيْفَيْـه
ديـنُ الهـدى مِـن عـزم ملكيـه
واكـدًا وُدَّ محبَّيْـه

شَمْـلٌ نُظِـمْ * حَبْـلٌ عُقِـد * بنيـانْ * لاينهَـدِم * لـه الأبَـدْ * أركـان

وَالَـى أبـو يحيـى أبـا القـاسِـمْ
قـالمشـربُ قـد لـذَّ للحـائم[18]
والمـذهـبُ قـد ضـاقَ بـالظـالـم

(17) فُلْك : سفن – الضمّر : من الخيول ، قليلة اللحم السريعة – العقبان : جمع العُقاب ، وهو طائر من الكواسر.
(18) الحائم : الظمآن.

بحـرا نِعَـم * لمـنْ وَرَدْ * ظمْـآن * سَيْفـا نِقَـم * لمـنْ مَـرَدْ * أوْ خـان

هـل أثْـلا سِـواهمـا المجْـدا
أو سُـزبِـلا حـاشـاهمـا الحمْـدا
بَـذرا عُـلا لـم يَعْـد مـا سَعـدا

حـازا حِكَـمْ * أغيَـثْ خَلَـد * لقمـان * إلـى هِمَـم * جـازتْ أمـدْ * كَيْـوان (١٩)

سحـلُّ الأنـامْ بـذاك يعتَـدّ
ففـى الكـرامْ كـلاهمـا فَـرْدُ
إن الحمـامْ فـى أيكِهـا تَشْـدو

* * *

قـل هـل عُلِـمْ * أو هـل عُهِـدْ * أو كـانْ * كـالمعتِصـمْ * والمعتضِـدْ * مَلِكـان

وقال يمدح ابن صمادح ، وخلط النسيب بالمديح :

نفـى الحـبُّ عـن مُقْلتـىَّ الكَـرى كمـا قـد نفـى عـن يَـدَىَّ العَـدَمْ
فقـد قـرَّ حبُّـك فـى خـاطـرى كمـا قـرَّ فـى راحتَيْـك الكـرم
وفـرَّ سُلُـوُّك عـن فكـرتـى كمـا فـرَّ عـن عِـرضـه كـلُّ ذَم
فحبِّـى وَمفْخَـرُه بـاقيـا نِ لا يـذهبـان بطُـول القِـدَم
فـأبْقى لـى الحـبُّ خـالٌ وخـدّ وأبقـى لـه الفخـرَ خـالٌ وعَـم

(١٩) كيوان : زحل .

ابن الهَبّاريّة

(٤١٤ - ٥٠٩ هـ / ١٠٢٣ - ١١١٥ م)

هو الشريف أبو يعلى محمد بن محمد بن صالح بن حمزة الهاشميّ العباسيّ، الملقب بنظام الدين الشاعر البغدادى المعروف، كان من شعراء نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان وابنه ملك شاه، وأما « الهبّارية » - بحسب تفسير ابن خلكان - فنسبة إلى هبّار، وهو جدّ الشاعر لأمه. وقد أقام مدة طويلة بأصبهان ثم اتجه بعد وفاة نظام الملك سنة ٤٨٥ إلى كرمان.

وكان لابن الهبارية ديوان ضخم، قيل إنه يقع فى أربعة مجلدات، لكنه فقد، وذكر بعض من ترجموا له أن شعره غلب عليه الهزل والسخف والخلاعة والمجون، مع إقدام بالهجو على أصحاب المناصب، وربما بلغ فى هجوه حد الإقذاع، أو اشتطّ وتجاوز المعقول كقوله يهجو الناس جميعهم :

خُذْ جملةَ البَلْوَى ودَعْ تَفْصِيلَها   ما فى البرِيَّة كلُّها إنسانُ

وله شعر تعليميّ، منه نظمٌ لقصص كليلة ودمنة، سماه : « نتائج الفطنة من نظم كليلة ودمنة »، وهو من وزن الرجز المزدوج، ومن غرائب نظمه - كما يقول ابن خلكان - كتاب الصادح والباغم » (الصادح : الذى يرفع صوته بالطرب، والباغم : الذى يخفضه فى لين) وقد نظمه أيضا أراجيزَ قصصية مزدوجة، ويتضمن مواعظ خلقية وحكما متعاقبة، وقليل منه يجرى على أسلوب كليلة ودمنة فى جريانه على ألسنة الحيوانات والطير، وعدد بيوته ألفا بيت نظمها على يد ولده إلى الأمير أبى الحسن صدقة بن منصور بن دبيس الأسدى صاحب « الحلة »، وهى مدينة بالعراق.

وفيما يلى افتتاحية كتاب « الصادح والباغم »، وتكشف عن مطاوعة النظم للشاعر، واتساع ثقافته فى الشعر القديم وأنساب العرب وأمثالهم ومآثرهم، ودرايته بأوجه المديح والحكمة فضلا عن دربته التى لا تبارى بطرائق التأليف القصصى.

* * * *

من « الصادح والباغم » :

الحمـــدُ للهِ الــذى حبـانـى بـالأصغـرَيْـن القلـبِ واللِّسـانِ
وإنمـا فضيلـةُ الإنسـانِ وفَخـرُهُ بـالعقـلِ والبيـانِ
حمـدًا يُجـزى فضلَـهُ ورحمتَـهْ وجـلَّ أنْ يُبْلـغ حمـدُ مِنَّتَـهْ
هـذا كتـابٌ فيـهِ علـمٌ وأدَبْ يفـوقُ أنـواعَ القـريـضِ والخُطَـبْ
عَمِلْتُـهُ لسيِّـدِ الملـوكِ ومَـوْئلِ الملهـوفِ والصُّعْلـوكِ
فجـاء مثـلَ الـذَّهَـبِ المسبـوكِ سلكْـتُ نَهْجـاً ليـس بـالمسلـوكِ
فـى نَظْمـه وسَبْكـهِ ووضعِـهِ لامِـنْ كـلامِ هِمَّتـى فـى جمعـهِ
وَضَعْتُـهُ مختـرعـاً معنـاهُ لملـكٍ مـا خـابَ مـن رَجَـاهُ
بحـرِ النـدَي ربَّ الأيـادى والمِنَـنْ شمسِ العُـلا صدرِ الهُـدَى أبـى حسن
الأسـدىِّ المـزيـدىِّ « صَـدَقَـهْ » ومَـنْ إذا كُـذِّبَ مـدحٌ صـدقَـهْ
الأرْيَحـىُّ المـزيـدىُّ الأسـدىُّ غُـرَّةِ عَـوْفُ الهِبْـرَزىّ الأسيـدىُّ (١)
مَلْجَـأ كـلِّ خـائفٍ مَلْهـوفِ مُـرتبـعِ الجيـرانِ والضيـوفِ
الأسـدىُّ وإنمـا بنـو أسـدْ روحُ العُـلَا وسـائرُ النـاسِ جَسَـدْ
القـاتلـو الملـوكِ والجَبَـابِـرَهْ والكـاسـر والقيـول والأكـاسِـرَهْ
ويُشْـربـون المـاءَ إذضَـنَّ البَـرَمْ وكـذّبَ الجـدْبُ الجِفـانَ والبُـرمْ (٢)
أدنـى نـزارٍ مِـنْ قـريـشٍ نَسَبـا إذا دَعَـوْا خُـزَيْمَـةَ الشيـخ أبـا
كـم فيهِـمُ مِـنْ ملـكٍ جَحْجَـاحِ مقـدَّمٍ فـى البـأسِ والسمـاحِ (٣)

---

(١) الهبرزى : الأسوار من أساور فارس ، ورجل هبزرى : جميل وسيم .
(٢) البُرَم : جمع بُرْمَة وهى القدر من الحجر ، ورجل بَرَم : شديد اللؤم والبخل .
(٣) الجحجاح : السيد الكريم .

مثــــل علــــيٌ وعلـــــيْ معتَمــــدْ ... للـــديـــن والـــدولـــة ركـــن وسنـــدْ
ثـــم دُبَيْــــسٌ ودبَيْــــسٌ غـــرَّةْ ... رحـــبُ الـــذراعِ زوسجـــا بـــامـــرَّةْ
كـم قـــد حمـى بيـــأسٍ نِفـيـسٍ مُـرَّةْ ... مَنَـــابِــــرَ الإســـلامِ والأسِـــرَّةْ
أنجـــدَ قـــرواشـــاً علـــى الأتـــراكِ ... وانتــاشَـــهُ مـــنِ مْخِلَـــبِ الهـــلاكِ
فـــي يـــومِ سنجـــارَ فلـــولاهُ هَـــرَبْ ... لكـــنْ دُبَيْـــسْ وحـــدَهُ أحيـــا العـــربْ
فهـــى بـــلا شـــكٍ عبيـــدٌ لأسَـــدْ ... فقـــلْ لهـــا خَلِّـــى العِنَـــادَ والحـــدْ
وطـــاوِعِـــيْ رَبَّـــك يـــا عُقَيْـــلُ ... فليـــس فـــى ذاك عليـــك مَبْـــلُ
وإنّمـــا تعتضـــدُ الأحيـــاءُ ... بمـــن بـــه الإهـــلاكُ والإحيـــاءُ
وهكـــذا منـــك بيـــومِ آمِـــدِ ... عليهـمُ فضـلٌ فهـل مِـنْ جاحـدِ ؟
ضَغْضَـــعَ عـــرشَ مسلـــمِ فَتَـــلا ... ثُـــمَّ فـــدَى أسْـــرَى عُقَيْـــلِ كـــلاَ
أنقـــذَهـــم مـــن أرْتُـــقٍ وجُنْـــدِهِ ... وانتـــاشهـــم مـــن حَبْسِـــهِ وقِـــدِّهِ (٤)
لـــولاهُ كـــانـــوا أبـــدًا عَبِيـــدَهْ ... وأصْبَحَـــتْ حُـــرَّتُهـــم وَلِيـــدَهْ
ولـــم تَـــزَلْ حِلَّتُهـــم مَعـــاذا ... لكـــلِّ مَـــنْ يهـــربُ مِـــنْ بغـــداذا
يقصـــدُهـــا الملـــوكُ والخـــلائفُ ... وجـــائعٌ ذو فـــاقـــةٍ وخـــائفُ
فيَشْبَـــعُ الجـــائعُ فـــى ذَراهـــا ... ويـــأمـــنُ الخـــائفُ فـــى حِمـــاهـــا
عنـد بنـى مَـزْيَـدَ فـرسـانِ العـربْ ... يَلْقَـى المـزيـلُ المُسْتَجِيـرُ مـا طلـبْ
يـــاليتـــى سكنـــتُ تلـــك الحِلَّـــهْ ... بيـــن شمـــوسِ المجـــدِ والأهِلَّـــهْ
فـــإنّهـــا كعبـــةُ أهـــلِ الفضـــلِ ... ومكّـــةُ المـــدحِ وقُـــدْسُ العقـــلِ
فـى خيـرِ دارٍ ضَيْـفَ خيـرِ مُـرْتجَـى ... ملـــكٍ يَعِـــزُّ عنـــدهُ أهـــلُ الحِجَـــا

---

(٤) انتاشهم: أنقذهم.

أوْ نَـــزَلَـــتْ حِلّتَـــهُ الأقمـــارُ ... مـــا خَسَفَـــتْ وصـانهـــا السِّـــرارُ (٥)
لكنّنـــى إذ فـــاتنـــى مُـــرَادِىْ ... مِـــنْ ذلـــك المســـرحِ والمَـــرَارِ (٦)
ولـــم أجـــدْ إلـــى المُنـــى سبيـــلا ... ولا رُزِقـــتُ ظِلّـــهُ الظّلِيْـــلَا
أحببـــتُ أنْ يكـــونَ لـــى فـــى خِـــدْمتِـــهْ ... ذِكْـــرٌ وعنّـــى نـــائبٌ فـــى حضـــرتِـــهْ
فلـــم أجِـــدْ إلّا كتـــابـــاً أنظِمُـــهْ ... أُتحِفُـــهُ بنظمـــهِ وأخـــدِمُـــهْ
يكـــونُ فـــى الخـــدمـــةِ عنـــىَ نـــائبـــا ... مـــلازِمـــا مَجْلِسَـــهُ مصـــاحِبـــا
لأنّـــه خيـــرُ الملـــوكِ أصْـــلا ... يهـــزّ منـــهُ مـــادحـــوهُ فَضْـــلا
وكـــلُّ مـــدحٍ قيـــل فـــى ســـواهُ ... إفـــكٌ خـــلا مـــا قيـــل فـــى عـــلاهُ
فـــإنّـــه وإنْ عـــلا فـــى صـــدقـــهِ ... وأطنـــبَ المـــادحُ دونَ حقّـــهِ
أكـــرمُ بيـــتٍ فـــى نـــزارٍ بيْتُـــه ... وخيـــرُ الملـــوك حيُّـــهُ ومَيْتُـــهُ
يعيـــشُ تحـــتَ ظلِّـــهِ الملـــوكُ ... كمـــا يعيـــشُ البـــائسُ الصُّعلـــوكُ
قـــد علّـــم الـــدهـــرَ الـــوفـــاءَ والكـــرمْ ... وكَشَـــفَ المَحْـــلَ وأعـــدمَ العَـــدَمْ (٧)
أبلـــجَ عـــوفـــىِّ النجـــارِ مـــاجـــدِ ... أروعَ جـــمِّ الفضـــلِ والمحـــامِـــد (٨)
مِسْعَـــرِ حَـــرْبٍ أصمعـــىِّ القلـــبِ ... مـــؤدِّبِ العبـــدِ حليـــمِ الكلـــبِ
فنَـــارُهُ سفيهـــةُ اللســـانِ ... وكلبُـــهُ فـــى الحِلْـــمِ كـــالجِبَـــانِ
يَـــأْمَـــنُ كـــلُّ خـــائفٍ فـــى داره ... غيـــرَ الصَّفـــايـــا الكـــومِ مِـــنْ عِشَـــارِهِ (٩)

---

(٥) السِّرار: آخر ليلة من الشهر، بمعنى حافظهم من النقص.
(٦) المرار - بفتح الميم: مكان لارتياد الإبل للرعى.
(٧) المحْل: الشدّة والجدب.
(٨) عوفىّ النجار: منسوب إلى عوف من مالك، من سادة العرب.
(٩) يعنى النياق الضخمة غزيرة اللبن.

فـــإنّهـــا خـــائفـــةٌ مَـــروُعَـــهْ سِقَـــابُهـــا جـــائعـــةٌ مفجـــوعَـــهْ(١٠)
مِجَـــنٌّ جـــانٍ يـــاســـرٍ فـــى الجَـــذْبِ مَـــوْئلٍ ملهـــوفٍ خطيـــبِ خطـــبِ(١١)
لـــوجحَـــدَتْ أيّـــامَـــهُ الأقـــرانُ أنبـــتْ بهـــا الـــذُّؤبـــانُ والعُقْبـــانُ
يُحَكِّـــمُ الجيـــرانَ والضيفـــانـــا ويُـــرغِـــمُ الملـــوكَ والـــزمـــانـــا
أوفـــى الملـــوكِ ذِمَّـــةً لجـــارِهِ شِنْشِنَـــةٌ تُعْـــرَفُ مِـــنْ نِجَـــارِهِ(١٢)
لـــونَـــزَلَ الشبـــابُ فـــى بـــلادهِ ردّ بيـــاضَ الشيـــبِ عـــن ســـوادهِ
أذْ كـــان مِـــنْ هِبَـــاتِـــهِ لمـــا نَصَـــلْ وامتـــدَ للنـــاسِ الشبـــابُ واتّصـــل
أو اقتـــدى بفعلـــهِ الـــزمـــانُ مـــا خُلِـــقَ الشـــرُّ ولا العـــدوانُ
أو أنّـــه يُجِيـــرُ مِـــنْ جـــورِ الـــرَّدَى مـــا علقـــتْ كـــفُّ المنـــونِ أحـــدا
أنفـــذتُ إذ عـــاقَ الـــزمـــانُ رَحْلـــى نَجْلـــى إلـــى مجلســـهِ وفضلـــى
وهـــو كتـــابُ حســـنٌ خطيـــرُ ليـــس لَـــهُ فـــى فَنِّـــهِ نظيـــرُ
كـــأنّـــهُ بيـــنَ القَـــريْـــضِ والخُطَـــبْ مخـــدومُـــهُ بيـــنَ الملـــوكِ والعـــربْ

* * *

(١٠) السقاب : مفردها سقب ، ولد الناقة .
(١١) المِجنّ : الترُس ، أى أنه يحمى من يلوذ به .
(١٢) الشنشنة : الخلق والسجية ، ومن أمثالهم : « شنشنة أعرفها من أخزم » .

ومن معانيه الغريبة قوله فى الردّ على من يقول إن السفر به يبلغ الوطر :

قالوا: أَقَمْتَ وما رُزِقْتَ وإنَّما ... بالسَّير يَكْتسب اللبيبُ ويُرزَق
فأجبتُهم : ما كلُّ سَيْرٍ نافعًا ... الحظُّ ينفعُ ، لا الرحيلُ المُقْلق
كم سَفْرةٍ نَفَعَتْ ، وأخرى مثلها ... ضَرّت ، وَيكْتَسب الحريصُ ويُخْفق
كالبدرِ يكتسبُ الكمالَ بسَيْره ... وبه إذا حُرم السعادةَ يُمْحَق

* * *

وله على سبيل الخلاعة والمجون :

يقول أبو سعيدٍ إذ رآني ... عَفيفًا منذُ عام ما شَرِبْتُ :
« على يدِ أيِّ شيْخٍ تبتَ قُلْ لى » ... فقلت : « على يدِ الإفلاس تُبْت »

* * *

أبو بكر بن اللّبّانة

(ت ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م)

هو الوزير أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد الدانيّ ، المعروف بابن اللّبّانة ، أصله من دانية التابعة لمملكة بَلَنْسِية ، من شرق الأندلس . قيل إن أمه كانت تبيع اللبن ، وقد عنيت به عناية فائقة واهتمت بتربيته وتثقيفه ، فظهرت مواهبه الأدبية مبكّرة .

تنقّل فى البلدان ، وأعجب به ملوك الطوائف ، واتصل بالمعتمد بن عباد ، وكان من شعرائه ، يميّزه- كما يقول ابن خاقان فى قلائد العقيان - «بالتقريب ويستغرب ما يأتى به من النادر الغريب» ولما دالت دولة المعتمد ظل بن اللبانة على وفائه الشديد له ، وقصده وهو محبوس بأغمات في بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش ، وبكى دولته أحرّ بكاء .

ومن أشهر ممدوحيه : ناصر الدولة مبشر بن سليمان بميورقة . وذكرت بعض المصادر أن من مؤلفاته : « سقيط الدرر ولقيط الزهر » ، واهتمّ بعضها برواية طائفة من موشحاته ، مثل دار الطراز لابن سناء الملك ، و« توشيع التوشيح » و« الوافى بالوفيات » للصفدى ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ، وجيش التوشيح للسان الدين بن الخطيب ، وعقود اللآل للنواجى .

* * *

قال ابن اللبانة يرثى دولة بنى عباد :

تبكى السماءُ بمُزن رائحٍ غادى على البَهاليل مِن أبناء عَبَّادِ ،
على الجبال التى هُدَّتْ قواعدُها وكانت الأَرضُ منهم ذاتَ أوتاد [1]
والرابياتِ عليها اليانعاتُ ذَوَتْ
أنوارُها ، فغدَت فى خفضِ أوْهاد
عرِّيسةٍ دخلتْها النائباتُ على أساودٍ لهمُ فيها وآساد
وكعبةٍ كانت الآمالُ تخدمُها فاليومَ لاعاكفٌ فيها ولا بادى [2]
يا ضيفُ أَقْفَرَ بيتُ المكرُمات فخُذْ
فى ضَمْ رَحْلك واْجمعْ فَضْلَةَ الزاد
ويا مؤَمِّلَ واديهم لِيسْكُنَهُ خَفَّ القطينُ وجفَّ الزرعُ بالوادى [3]
ضلَّت سبيلُ النَّدى بابن السبيلِ فسرْ
لغير قصدٍ فما يَهْديك من هادى
وأنت يا فارسَ الخيل التى جَعَلَتْ تختالُ فى عُدَدٍ منهم وأَعداد
أَلْقى السِلاحَ وخلِّ المَشْرفىَ فقد
أصبحْتَ فى لَهَوات الضَيْغم العادى

(١) رائح غادى : راجع ذاهب - البهاليل : السادة - أوتاد : جبال .
(٢) أنوار : جمع نور، وهو الزهر الأبيض - العِرّيسة : مأوى الأسد - الأساود : الحيّات الكبيرة - العاكف : المقيم فى البلد - البادى : الطارىء عليها .
(٣) خفّ القطين : رحل السكان .

تلك الرماحُ رماحُ الخطّ ثقّفها صَرْفُ الزمان ثِقافاً غير معتاد
والبيضُ بيضُ الظُّبى فُلَّت مضاربَها
أيدى الرَّدى وثنَتْها دون أغْماد
لمَّا دنا الوقتُ لم تُخْلِف بْه عِدَة ، وكلّ شىء لميقاتٍ وميعاد
كم مِن دَرارىّ سعدٍ قد هَوَتْ ووَهَتْ
هناك مِن دُررٍ للمجد أفْراد
إن يُخْلَعوا فبنو العبَّاس قد خُلِعوا وقد خَلَتْ قبل حِمْص أرضُ بغداد (٤)
حَموا حَريمَهُم حتّى إذا غُلِبوا سِيقوا على نَسَقٍ فى حَبْل مُقْتاد
وأُنْزِلوا عن مُتُون الشُهْب واحتُملوا
فُويقَ دُهْم لتلك الخيْل أنْداد (٥)
وعِيثَ فى كلّ طَوْق مِن دروعِهمُ
فصِيغَ منهنّ أغْلالٌ لأجياد
نسيتُ إلّا غَداةَ النَهْر كونَهُمُ فى المنْشَآتِ كأمواتٍ بألحاد
والناسُ قد ملأوا العَبْرَين واعتبروا
مِن لؤلؤٍ طافياتَ فوق أزباد

(٤) وهت : ضعفت - الدرر : جمع الدُّرّة ، وهى اللؤلؤة - حمص : إشبيلية .
(٥) نسق : نظام واحد - الشهب : النجوم - الدهم : جمع أدهم ، وهو الحصان الأسود .

حُطَّ القِناعُ فلم تُسْتَرْ مُخَدَّرةٌ   ومُزِّقَتْ أوجُهٌ تمزيقَ أبْراد[٦]

حانَ الوَداعُ فضجَّتْ كلُّ صارخةٍ   وصارخٍ مِن مُفَدَّاةٍ ومَنْ فادَى

سارَتْ سفائنُهم والنَوْحُ يَصْحَبُها   كأنَّها إبِلٌ يَحْدو بها الحادى

كم سال فى الماء من دَمْعٍ، وكم حَمَلَتْ
تلك القطائعُ من قِطْعات أكباد[٧]

من لى يا بنى ماءِ السماءِ إذا   ماءُ السماءِ أبى سُقيا حَشى الصادى

* * * *

وقال :

لِكلِّ شىءٍ من الأشياء ميقاتُ   وللمُنى مِن مناياهنَّ غاياتُ

والدهر فى صِبغةِ الحِرباءِ مُنْغَمِسٌ   ألوانُ حالاته فيها استحالاتُ

ونحن مِن لُعَبِ الشِطرنج فى يده   وربّما قُمِرَتْ بالبيذق الشاةُ[٨]

فانفُضْ يديك من الدنيا وساكنها
فالأرض قد أقفرَتْ والناس قد ماتوا

وقلْ لعالَمِها السُفلىّ قد كَتَمتْ   سريرةَ العالَم العُلْوىّ أغماتُ

طوَتْ مظلَّتُها لا بل مذلّتُها   مَنْ لم تزل فوقَه للعزِّ راياتُ

مَن كان بين الندى والبأس أنْصُلُه
هنديةٌ، وعطاياه هُنَيْداتُ[٩]

---

(٦) المنشآت : السفن - العبرين : الشاطئين - المخدّرة : السيّدة ملازمة الخدر أو البيت .
(٧) القطائع المراد بها السفن مثل المنشآت .
(٨) البيذق : أضعف حجارة الشطرنج - الشاة : الملك ، وهو أعظم الحجارة قيمة .
(٩) أغمات : البلدة التى أسر بها المعتمد بن عباد - الهنيدة : المائة من الإبل .

رماه من حيث لم تستره سابغةٌ ... دهر مصيباته نُبلٌ مصيبات
وكان ملءَ عيان العين تُبصره ... وللأمانيّ في مارعاه مرعاة
انكرتُ إلا التواءاتِ القيود به
وكيف تُنكر في الروْضات حيات
غلطتُ بين هَمَايينٍ عُقِدْنَ له ... وبينها ، فإذا الأنواع أشتات (١٠)
وقلتُ هنّ ذُؤابات فكم عُكِستْ
مِنْ رأسه نحو رجليه الذؤابات
حسبْتُها من قناه أو أعنَّته ... إذا بها لِثقاف المجد آلات
دَرَوْه ليثاً فخافوا منه عاديةً
عذرتُهم فلعُدْوى الليث عادات (١١)

* * * *

وقال :

بنفسي وأهلي جيرة ما أستعنتُهم ... على الدهر إلّا وأنثنيْتُ مُعانا
أراشوا جناحِي ثُمَّ بَلُّوه بالندى ... فلم أستطع مِن أرضهم طَيَرانا

* * * *

(١٠) همايين : جمع هميان وهو ما يشدّ به الوسط .
(١١) العُدوى بمعنى الظلم .

ومن موشّحاته :

شَـــاهِــدِى فــى الحُــبِّ حُــرقــى أدمـــع كـــالجمْـــرِ تنـــذرِفُ

تعجـــزالأوصـــاف عـــن قَمَـــر

خـــدّه يـــدمـــى مـــن النظـــرِ

بشـــرٌ يسمـــــو علـــى البَشَـــرِ

قـــد بـــراهُ اللهُ مـــن عَلَـــقِ مـــا عسى فـــى حسنِـــهِ أصِـــفُ

كيـــف للصـــبِّ الكئيـــب بقـــا

والكَـــرى عـــن جفنـــهِ أبِقَـــا (١٢)

هـــل يُطيـــقُ الصبـــرَ مَـــنْ عَشِقَـــا

شـــادِنًـــا يـــرمـــى مـــن الحـــدق أسهُمـــا قلبـــى لهـــا هَـــدَفُ

يـــا أُولـــى التفْنيـــد وَيْحَكُـــمُ (١٣)

أنـــا لا أُصغـــى لِنُصحِكُـــمُ

فـــى ثـــلاثٍ قـــد عصيتُكُـــمُ

غَسَـــقٌ داجٍ علـــى فَلَـــقِ فـــى قضيـــبٍ زانَـــه الهَيَـــفُ

بـــأبـــى مَـــنْ فـــاق شمـــسَ ضُحـــى

وكَـــا بـــدْرَالـــدُّجَـــى مُلَحـــا

فـــدليلـــى فيـــه قـــد وَضَحـــا

---

(١٢) الكرى : النوم - أبق : هرب .
(١٣) تفنيد الرأى : إبطاله و إضعافه .

لـــوجـــود الشمـــسِ فـــى الأفـــق   عَـــــدَمٌ والبـــــدرُ ينكسِـــــفُ

رُبّ راضٍ بَعْــــد مـــا غَضِبـــا

زارنـــى فـــى غفلـــةِ الـــرُّقَبـــا

عنـــدهـــا غنّيـــتُ : وا طـــربـــا

يـــا حبيبًـــا بـــات معتنِقِـــى   هـــا أنـــا بـــالـــوصـــلِ مُغْتَـــرِف

* * * *

ومن موشّحاته أيضا :

هـلّا عـــذولى قـد خلعـتَ العِـذارْ   لااعتِـذارْ   عـــن ظُبـا الإنْـسِ وشُـرْبُ العُقَـارْ

مـــا العيـــشُ إلا حُـــبُّ ظبـــى أنيـــسْ

مُهَفْهَـــفٍ أحـــوَى وحـــثُّ الكـــؤوسْ

مـــن قهـــوةٍ تحكـــى شُعـــاعَ الشُمـــوسْ

كـأنها فـى كـأسِهـا إذ تُـدارْ   شعلـةُ نـارْ   يقتُلُهـا الإبـريـقُ قبـل السُّـوارْ(١٤)

شَيْئـــان قلبـــى فيهمـــا ذُو غَـــرامْ :

القـــولُ بـــالغيـــدِ وشـــربُ المُـــدامْ

فلسْـــتُ أصْغِـــى فيهمـــا لِلـــوّامْ

(١٤) مهفهف : ضامر البطن دقيق الخصر - الأحوى : ما احمرَّ حُمرة تضرب إلى السواد ، يقال : حَوِيت شفتُها - قهوة : خمر - سُوار الخمر : شدّتها وسورتها .

لاوالـذى تُـوِّجَ تـاجَ الفخـار   بحـرُ البحار   بيحـرِ جَـدْواه وحـامـى الـذِّبـارْ

المَلِـك المـأمـونُ ذو المكـرُمـاتْ
الـواحِـدُ الفـردُ الجـزيـلُ الصِّفـاتْ
كـم مـادح أحْيـا وكـم قَـدْ أمـاتْ

تنهـلُّ يمنـاهُ علينـا بحـارْ   ثُـمَّ اليَسَـارْ   تجلـو دُجـى العُسْـر ببـذلِ اليَسَـارْ

فـى اسمـه للنصـر والفتـحِ فـالْ
قـد عـم أهـل الأرضِ طُـرًّا نَـوالْ
أصبـح فـى الجـودِ بغيـرِ مثـالْ

أنجدَ ذِكـراه الـكريم وغـارْ   فـى الأمصـارْ   حتـى حَـدَتْ فيه حُـداةُ القِطـارْ(١٥)

وغـادةٍ تشكـو بِعَـادَ الخليـلْ
غُـدوّهـا تَبْكـى ويـوم الـرحيـلْ
بصفـةِ البحـرِ وظلّـت تقـولْ

ياقرجونى ككرس بون امار   ليش الفـرار   وليش دمـار

* * * *

(١٥) الفأل ، وتسهَّل الهمزة أيضا : قول أو فعل يستبشر به – طرًّا : جميعًا – أنجد : ارتفع وأتى النجد ، وهو ما ارتفع من الأرض – غار : أتى الغور ، وهو المنخفض من الأرض – حدا الإبل يحدوها أى ساقها ، والحداة : السائقون – القطار : عدد من الإبل بعضه خلف بعض على نسق واحد .

وقال :

فــي نــرجــسِ الأحــداقْ وسَـــوسَـــنِ الأجيـــادْ [16]
نبــتُ الهَـــوى مغـــروسْ بيــــن القنــــا الميّــــادْ

وفــى نقـــا الكـــافُــورْ والمنـــدَلِ الـــرَّطْـــبِ
والهــــودجِ المــــزرورْ بـــالــوَشْـــيِ والعَصـــبِ
قُضـــبٌ مـــن البلـــورْ حُمِيـــن بـــالقُضـــبِ [17]

أذابــــت الأشـــــواقْ روحـــى علـــى أجســـادْ
أعــــارهــــا الطـــــاووسْ مـــن ريشـــه أبـــرادْ [18]

كـــواعـــبٌ أتـــرابْ تشـــابهـــت قَـــدّا
عضَّـــت علـــى العنـــاب بـــالبَـــرَدِ الأنـــدى
أوصـــت بـــى الأوصـــاب وأغـــرت الـــوجـــدا [19]
وأكثـــــر الأحبـــــاب أعـــدى مـــن الأعـــدا

تفتـــرّ عـــن أعـــلاقْ لآلــــــىءٍ أفـــــــرادْ
فيـــه اللمـــى محـــروسْ بـــألسُـــن الأغمـــادْ [20]

---

(١٦) الأحداق : العيون - الأجياد : الأعناق .
(١٧) المندل : عود طيب الرائحة - الوشى والعصب : ضربـان من أنواع الملابس الفاخرة - القضب الأولى هى الأغصان تشبه بها قدود النساء ، والثانية السيوف .
(١٨) أبراد : ثياب .
(١٩) العناب هنا الشفاه ، والبرد : الأسنان - الأوصاب : الأسقام .
(٢٠) تفتر : تبتسم - الأعلاق : ماندر وغلا - اللمى : سمرة الشفاه .

من جوهر الذكرى عَطِّل نحور الحور
وقلد الدُرَّا سلالةَ المنصور
جَاوِزْ به البحرا واخرق حجابَ النور
وقل له شعرا بفضلك المشْهُور

جمعتَ في الآفاق تنافر الأضدادْ
فأنت ليثُ الخِيس وانت بدرُ الناد(21)

خرجتُ مختالا أبغي سنا البَرْقِ
أقطعُ أميالا غربا إلى شرقِ
مؤمّلا حالا يكون من وِفقي
فقال من قالا وفاه بالصِّدقِ

دع قطعَك الآفاق يا أيُّها المرتادْ
واقصد إلى باديس خيرُ بني حمَّادْ

يا من رجا الظِّلا وأمَّل التعريسْ
إن شئتَ أن تحلا بطائل التأنيسْ
لاتعتمدْ إلّا على عُلا باديسْ
من فرقُه أعلى قدرا من البرْجيسْ(22)

مواطن الأرزاق أولئك الأمجاد
فاحطُط رحالَ العيسْ وانفض بقايا الزاد

* * * *

(21) الخيس : العرين .
(22) التعريس : نزول القوم في السفر من آخر الليل طلباً للراحة ثم يرتحلون - البرجيس : المشترى - فرقه : مفرقه ووسط رأسه .

وقال :

كذا يقتادْ * سنا الكوكبِ الوقّادْ * إلى الُجلّاسْ * مشعشعةَ الأكواس

أقِمْ عذرى　　فقد آن أن أعكِفْ
على خمرِ　　يطوف بها أوْطَفْ
كما تدرى　　هضيمُ الحشا مُخْطَفْ (٢٣)

إذا ما ماسْ * فى مخضَرَّةِ الأبرادْ * رأيتَ الآسْ * بأوراقه قد ماس

من الأنسِ　　وإن زاد فى النورِ
على الشمسِ　　وبدرِ الديجورِ
له نَفْسٌ　　وما نفسُ مهجورِ

غزالٌ صادْ * ضراغمةَ الآسادْ * بلحظٍ جاسْ * خلالَ ديار الناس

ألا دعْنى　　من الصدِّ والهجرِ
وخذ منى　　حديثين فى الفخرِ
وقل إنى　　أحدِّثُ عن بحرِ

سطا وجادْ * رشيدُ بنى عبادْ * فأنسى الناسْ * رشيد بنى العباسْ

جلا الأحلاكْ　　بنور الهدى مَرْآهْ
فما الأفلاكْ　　تريد سوى علياهْ
كذا الأملاكْ　　عبيدُ عُبيدِ الله

---

(٢٣) أوطف : طويل الأهداب (الرموش) - مخطف : ضامر.

فمــن أرادْ * قيــاسـك بــالأمجــادْ * فجهـلا قــاسْ * سنــا الشمـــس بــالنبــراسْ

لــك الفضــلُ وانـــــك مــــن آلِـــهْ
رأى الكـــلُّ بكـــم نيـــلَ آمـــالـــه
فمــا يخلـــو مــن ينشـــد فـــى حـــالـــه

بنــى عبــاد * بكــم نحــنُ فــى أعيــاد * وفــى أعــراسْ * لاعــــدمتمــو للنـــاس

المرتضى الشهرزوري

(٤٦٥ - ٥١١ هـ / ١٠٧٣ - ١١١٧ م)

هو أبو محمد عبد الله بن القاسم بن المظفر بن علي بن القاسم الشهرزوري المنعوت بالمرتضى ، ولد في الموصل ، وأقام في بغداد مدة يشتغل بالحديث والفقه ، ثم رجع إلى الموصل ، وتولى بها القضاء وروى الحديث ، وكان صالحا تقيًّا ناسكًا متعبدا مليح الوعظ مع الرشاقة والتجنيس ، لم يلبس خرقة الصوفية ولا لازم رباطا ، وكان صوفيّا سنيّا كبيرا .

ومن شعره :

يا لَيْلُ ما جئتكُمْ زائرًا إلاّ وجدتُ الأرض تُطْوى لى

ولا ثنيتُ العزمَ عن بابكم إلاّ تعثرتُ بأذيالى

وله حواريّة ، احتذى صفي الدين الحلي (ت ٧٥٠ تقريبا) طريقتها ، يقول فيها :

شكوتُ إليها ما بقلبى من الجوَى فقالتْ : وهل أبقى الفِراقُ له قَلْبا

فقلت : فهل لى فى وصالك مطمعٌ فقالت : إذا ما شَمْسُنا طلعتْ غَرْبا

فقلت : فهل من زَوْرَةٍ يَجْتَنى بها ثمارَ المنى ظمآنُ قد مُنِع الشُّربا

فقالت : إذا ما غاب عن كلِّ مشهد وخاضَ حِياضَ الموتِ واستسهل الصَّعْبا

وأصبحَ فينا حائرًا ذا ضلالةٍ يُواصلنا بُعْدًا ، ونهجُره قُرْبا

وأنشدوا له هذا الدوبيت (وهو وزن على غير العروض العربى) :

يا قلبُ إلامَ لايُفيد النُّصح دَعْ مَزْحَك كم جَنَى عليك المزْح

ما جارحةٌ فيك عداها جُرْح ما تَشْعُر بالخُمَارِ حتَّى تَصْحُو

ويدور شعره حول هذا الجانب الصوفى الـذى أبدع فيه ، وأشار العماد الأصبهانى إلى بعض كتاباتـه فى التصوف ، قال : « وجـدت من كلام القاضـى المرتضى أبى محمـد الشهرزورى رسالـة سلك بها مسلك الحقيقـة ، وسبق أهل الطـريقة ، مشحونـة بأبيات فى رقّـة السَّلْسال والشَّمول» .

وروى له ابن خلكـان قصيدة تعدّ من عيون القصـائد الصوفية فى الأدب العربـى ، وقد رواها كاملة ، لأنها - كما قال - قليلة الوجود ، وهـى مطلوبة ، وحكى عن بعض المشايخ أنه رأى فى النوم قائلا يقول : ما قيل فى الطريق مثل القصيدة الموصليّة .

* * *

القصيدة :

لمعتْ نارُهم ، وقد عَسْعَسَ اللَّيْلُ ، ومَلَّ الحادى ، وحارَ الدليلُ (١)

فتأمَّلتُها ، وفكرى من البيـ ـنِ عليل ، ولَحْظ عينى كَلِيل (٢)

وفؤادى ذاك الفؤادُ المعَنَّى ، وغرامى ذاك الغرامُ الدخيل

ثم قابلتُها وقلتُ لصحبى هذه النارُ نارُ ليلى فمِيلوا

فرَمَوا نحوها لحاظًا صحيحاتٍ ، فعادتْ خواسئًا وهى حُول (٣)

ثم مَالوا إلى الملام ، وقالوا : خُلَّبٌ ما رأيْتَ أمْ تَخْييل (٤)

فتجَنَّبْتُهم وملتُ إليها والهوى مركبى وشَوْقى الزميل

ومعى صاحبٌ أتى يقتفى الآثارَ ، والحبُّ شرطُه التَّطفِيل

وهى تعلُو ، ونحن نَدْنُو إلى أنْ حجزتْ دونها طُلُولٌ مُحُول

فدَنَوْنا من الطُّلول فحالتْ زَفَراتٌ من دونها وغَليلُ

قلت : منْ بالديار؟ قالوا : جريحٌ وأسيرٌ مُكبَّل وقتيل

ما الذى جئت تبتغى ؟ قلت : ضيف جاء يبغى القِرى فأين النُّزُول ؟

فأشارتْ بالرَّحْب دونك فاعْقِرها فما عندنا لِضَيْفٍ رحيل

مَنْ أتانا ألقى عصا السَّيْر عنه قلت : من لى بها وأينَ السبيل ؟

فحَطَطْنا إلى منازلِ قومٍ صَرَعَتْهم قبل المذَاق الشَّمول (٥)

---

(١) عسعس الليل : أقبل إظلامه .
(٢) كليل : ضعيف حسير.
(٣) خسيء البصر : كلّ وتعب .
(٤) خلّب : برق مُطمع مُخلف
(٥) الشمول : الخمر تشمل العقل وتغطّيه .

دَرَسَ الـوجْـد منهـم كـلَّ رسـمٍ فهــو رسْــمٌ والقــومُ فيــه حُلــول
مِنهـمُ مَـن عَفـا ، ولـم يُبـقِ للشَّكْـوى ولا للــدُّمُــوع فيــه مَقيــل
ليــس إلّا الأنفــاس تُخْبِــر عنــه وهــو عنهــا مُبَــرّأ مَعْــزول
ومِـنْ القَـوْم مَـن يُشيـر إلـى وَجْـد ، تَبَقَّــى عَليــه مِنــه القليــل
ولكــلٍّ رأيــتُ منهــم مَقَــامًــا شَـرْحُـه فـى الكتـاب مِمَّـا يَطُـول
قلـت : أَهْـلَ الهـوى سَـلامٌ عليكـم لـى فـؤادٌ عنكـمْ بكـمْ مشغـولُ
وجُفـونٌ قـد أقْـرَحَتْهـا مـن الـدَّمْـع حَثيثًـا إلـى لِقـاكـم سُيـول
لـم يـزلْ حـافـزٌ مـن الشـوق يَحْـدونـى إليكـم ، والحـادثـاتُ تحـول
واعتـذارِى ذَنْـبٌ ، فهـل عنـد مَـنْ يعلـم عُـذرى فـى تَـرْك عُـذرى قَبُـول
جئـتُ كـى أصْطَلى فهـل لـى إلـى نا ركـمُ هـذه الغـداةَ سبيـلُ
فـأجـابـتْ شـواهـد الحـال عنهـم كـلُّ حـدٌّ مـن دونهـا مَغْلـول (٦)
لا تَروقَنَّـك الـريـاضُ الأنيقـاتُ فمِـن دونهـا رُبًـا ودُحُـول (٧)
كـمْ أتـاهـا قَـوْمٌ علـى غِـرةٍ منهـا ، ورامـوا أَمْـرًا فعـزَّ الـوُصـول
وقفـوا شـاخصيـن حتّـى إذا مـا لاح للـوصـلِ غُـرّة وحُجُـول
وبَـدَتْ رايـةُ الـوَفـا بيـدِ الـوَجْـد ونـادى أهـلُ الحقـائق جُـولـوا
أيـن مَـن كـان يَـدَّعينـا فهـذا اليَـوْم فيـهِ صِبْـغُ الـدَّعـاوَى يَحُـول
حملـوا حَمْلَـة الفُحُـول ، ولا يُصْـرَع يــومَ اللّقَــاءِ إلّا الفُحــول
بـذلـوا أنفُسًـا سَخَـتْ حيـن شَحَّـتْ بـوصـالٍ ، واستُصْغِـر المبـذول

(٦) مغلول : متكسّر متثلّم .
(٧) دحول : جمع دخل وهو الحفرة فى الكهوف .

ثم غابوا مِن بعد ما اقتحموها ... بين أمواجها ، وجاءت سُيول

قذفتهم إلى الرُّسُوم فكلٌّ ... دمه فى طُلُولها مَطْلول (٨)

نارُنا هذه تُضىء لمن يَسْرى ... بليلٍ لكنها لاتُنِيل

مُنْتَهى الحَظِّ ما تزوَّدَ منها ... اللَّحْظ ، والمدرِكون قليل

جاءها مَن عَرَفْتُ يَبْغى اقتباسًا ... وله البَسْطُ والمنَى والسُّول (٩)

فتعالتْ عن المنالِ وعزَّتْ ... عن دُنُوٍّ إليه ، وهو رسول

فوقَفْنا كما عهدْت حَيارى ... كلُّ عَزْمٍ من دونها مَخْذول

نَدْفَعُ الوقتَ بالرجاءِ ، وناهيك ... بقلبٍ غِذاؤُه التعليل (١٠)

كلما ذاقَ كَأْسَ بأسٍ مرير ... جاء كأسٌ من الرَّجا مَعْسول

فإذا سَوَّلتْ له النفسُ أمرًا ... حِيدَ عنه وقيلَ : صَبْرٌ جَمِيل

هذه حالُنا ، وما وَصَلَ العِلْمُ ... إليه ، وكلُّ حالٍ تَحُول .

* * *

(٨) مطلول : مهدد .

(٩) السؤل - بتسهيل الهمزة : السؤال .

(١٠) النار وما ترمز إليه فى القصيدة هى نار موسى ، ونار أهل الطريقة .

الطّغرائى

(٤٥٥ - ٥١٣ هـ / ١٠٦٣ - ١١٢٠ م)

هو أبو إسماعيل مؤيد الدين الحسين بن على بن محمد الأصفهانى ، وقد اشتهر بلقب " الطغرائى " ، نسبة إلى الطُّغْراء ، وهى الطُّرَّة التى يكتبها من يتولّى ديوان الإنشاء ، فى أعلى الرسائل والمناشير ، فوق البسملة ، متضمنة اسم الحاكم أو الرئيس وألقابه .

وكان ذا ثقافات متنوعة فى الفقه واللغة والأدب ، وفى علوم أخرى مثل الصنعة (الكيمياء) التى ألف فيها بعض المصنفات ، ولذلك وصف بأن " له فى العربية قدمًا راسخًا ، وله البلاغة المعجزة فى النظم والنثر " .

وقد عمل الطغرائى لدى السلاجقة ، فكان كاتبا فى دواوين الوزير نظام الملك ، ثم وزيرا للسلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، ثم للسلطان مسعود بالموصل .

وله أشعار أجاد فيها التعبير عن تجاربه ومعاناته ، ومن ذلك قصائده فى الشكوى من الناس والدهر ، ومنها مراثيه الحزينة . وله أيضا أشعار غزلية حذا فيها حذو الشريف الرضى ومهيار الديلمى ، وأشعار أخرى تعليمية عن علم الكيمياء عنوانها : " مفتاح الرحمة ومصابيح الحكمة " .

ومن شعره فى الفخر بمعارفه وعلومه :

أما العلومُ فقد ظَفِرْتُ ببُغْيتى ... منها فما أحتاجُ أن أتَعَلَّما

وعرفتُ أسرارَ الخليقةِ كلّها ... عِلْمًا أنارَ لىَ البَهِيمَ المُظْلما

وأشهر قصائده هى المعروفة باسم " لاميّة العجم " ومن المرجح أنها سميت بذلك لأنه نظمها فى بلاد العجم ، والملحوظ أنها على قصيدة الشنفرى المسمّاه " لامية العرب " وقد حظيت قصيدة الطغرائى اللامية بعناية الشراح كالصفدى ، ونالت إعجاب الأدباء على مرّ العصور ، فعارضها كثيرون ، منهم محمود سامى البارودى فى العصر الحديث.

* * *

لامية الطغرائى :

أصالـةُ الـرأيِ صـانتْنى عـن الخَطَـلِ — وحِلْيَـةُ الفَضْـلِ زانَتْنـى لَـدَى العَطَـلِ (١)
مَجْـدِى أخِيـرًا ، ومَجْـدِى أوّلًا ، شَـرَعٌ — والشَّمْسُ رَأْدَ الضُّحَى كالشَّمْسِ فى الطَّفَل (٢)
فِيمَ الإقـامـةُ بـالـزَّوراء ، لا سَكَنِى — بهـا ، ولا نـاقَتـى فيهـا ، ولا جَمَلـى
نـاءٍ عَـنِ الأهْـلِ ، صِفْرُ الكَـفّ ، مُنْفَرِدٌ — كـالسَّيْـفِ عُرِّىَ مَتْنَـاه مِـنَ الخِلَـل (٣)
فَـلَا صَـدِيـقٌ إليه مُشْتَكَـى حَـزَنِـى — ولا أنِيـسٌ إلَيْـه مُنْتَهـى جَـذَلـى (٤)
طـالَ اغْتِـرابـى حَتَّـى حَـنَّ راحِلَتـى — ورحَلُهـا وقَـرَى العَسَّـالَـةِ الـذُّبُـل (٥)
وضَجَّ مـن لَغَبٍ نِضْـوى وعَـجَّ لِمَـا — يَلْقَـى رِكـابِـى ولَـجَّ الـرَّكْبُ فـى عَـذَلى
أُريـدُ بَسْطَـةَ كَـفٍّ أستعيـنُ بهـا — علَـى قَضـاءِ حُقُـوقٍ لِلْعُـلَا قِبَلـى
والـدهْـرُ يعْكِـسُ آمـالـى ويُقْنِعُنـى — مِـن الغَنيمـةِ بعْـدَ الكَـدِّ بـالقَفَـل (٦)
وذِى شِطَـاطٍ كصَـدْرِ الـرُّمْـحِ مُعْتَقِـلٍ — بمثلِـه غيـرِ هَيَّـابٍ ولا وَكِـل (٧)
حُلْـوِ الفُكـاهـةِ ، مُرِّ الجِدِّ ، قـد مُزِجَـتْ — بِقَسْـوة البَـأسِ فيـه رِقَّـةُ الغَـزَل
طَـرَدْتُ سَـرْحَ الكَرَى عـن وِرْدِ مُقْلَتـه — واللَّيْـلُ أغْـرَى سَـوَامَ النَّـوم بـالمُقَـل
والـرَّكْـبُ مِيـلٌ علـى الأكْـوارِ من طَـرَبٍ — صَـاحٍ وآخَـرَ مـن خَمْـرِ الكَـرَى ثَمِـل (٨)

---

(١) الخطل : الكلام الفاسد الكثير المضطرب – العطل : خلوّ المرأة من الحلْى ، والمقصود أنه صار بلا عمل مبعدًا عن الوزارة .

(٢) شرع : سواء – رأد الضحى : رونقه ، وقيل هو بعد انبساط الشمس وارتفاع النهار – الطَّفَل : إقبال الليل على النهار بظلمته .

(٣) متن السيف : جانبه – الخِلل : جمع الخِلّة وهى بطانة يُغَشّى بها جفنُ السيف تُنَقّش بالذهب وغيره .

(٤) جذلى : فرحى ، يقول إنه بلا أصدقاء يسمعهم شكواه أو يظهر لهم سروره .

(٥) العسالة الذبل : الرماح اللدنة الرقيقة – القرى : حدّ سنان الرمح .

(٦) القفل : الرجوع .

(٧) شطاط : طول واعتدال وحسن قوام – وكل : عاجز بليد .

(٨) الأكوار : جمع كور ، وهو الرحل الذى يوضع على ظهر البعير ليركب عليه .

فقلتُ أدْعوكَ للجُلَّى لتَنْصُرَني   وأنتَ تَخْذُلُني في الحادثِ الجَلَلِ
تنامُ عنّي ، وعينُ النَّجمِ ساهرةٌ   وتَسْتَحيلُ ، وصِبْغُ اللَّيْلِ لم يَحُلِ (٩)
فهلْ تُعِينُ على غَيٍّ هَمَمْتُ بهِ   والغَيُّ يَزْجُرُ أحيانًا عنِ الفَشَلِ (١٠)
إنّي أريدُ طُرُوقَ الحيِّ من (إِضَمٍ)   وقد حَماهُ رُماةٌ من (بَنِي ثُعَلِ)
يَحمُون بالبِيضِ والسُّمْرِ اللِّدَانِ به   سُودَ الغدائرِ حُمْرَ الحَلْيِ والحُلَلِ (١١)
فسِرْ بنا في ظَلامِ اللَّيْلِ مُهْتَدِيًا   بنَفْحةِ الطِّيبِ تَهْدِينا إلى الحِلَلِ
فالحِبُّ حيثُ العِدا ، والأُسْدُ رابِضةٌ   حولَ الكِناسِ لها غابٌ من الأَسَلِ (١٢)
نَؤُمُّ ناشِئةً بالجِزْعِ قد سُقِيَتْ   نِصالُها بمياهِ الدَّلِّ والكَحَلِ
قد زادَ طِيبَ أحاديثِ الكرامِ بها   ما بالكرائمِ من جُبْنٍ ومن بَخَلِ
تبيتُ نارُ الهَوَى مِنهُنَّ في كَبِدٍ   حَرَّى ، ونارُ القِرَى منهُمْ عَلَى القُلَلِ (١٣)
يَقْتُلْنَ أَنْضَاءَ حُبٍّ لا حَرَاكَ بِهِم   ويَنْحَرون كِرامَ الخَيْلِ والإِبِلِ (١٤)
يُشْفَى لَديغُ الغَواني في بُيُوتِهِمُ   بنَهْلَةٍ من لَذِيذِ الخَمْرِ والعَسَلِ
لعلَّ إلمامةً بالجِزْعِ ثانيةً   يَدِبُّ مِنْها نَسيمُ البُرْءِ في عِلَلي
لا أكْرَهُ الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ قد شُفِعَتْ   بِرَشْقَةٍ من نِبالِ الأَعْيُنِ النُّجُلِ
ولا أَهابُ صِفاحَ البِيضِ تُسْعِدُني   باللَّمْحِ من صَفَحَاتِ البِيضِ في الكِلَلِ (١٥)

---

(٩) تستحيل : تتحوّل وتتغيّر.
(١٠) الغيّ : الإمعان في الضلال ، والمقصود : مغامرة يريد أن يقوم بها .
(١١) البيض : السيوف – السمر اللدان : الرماح القوية التي لاتتكسر لليونتها .
(١٢) الحبّ : المحبوب – الأسل : الأعواد الطويلة لاعوج فيها .
(١٣) القلل : جمع قُلّة وهي قمة كلّ شيء وأعلاه .
(١٤) أنضاء : جمع نضو ، وهو المهزول من الحيوان ، ونضو حبّ هو من تيّمه الحبّ وأضناه وأنحله .
(١٥) الكلل : جمع كلّة ، وهي ستر رقيق مثقّب .

ولا أخِلُّ بغِزلانٍ أغازِلُها   ولوْ دهَتْنى أُسودُ الغِيلِ بالغِيَلِ (١٦)

حُبُّ السَّلامَةِ يَثْنى عَزْمَ صاحِبِه   عَنِ المعالى ، ويُغْرِى المرْءَ بالكَسَلِ

فإنْ جَنَحْتَ إليه فاتَّخِذْ نَفَقًا   فى الأَرْضِ ، أو سُلَّمًا فى الجوِّ، فاعْتَزِلِ

ودَعْ غِمارَ العُلا للمُقْدِمِين على   رُكُوبِها ، واقْتَنِعْ مِنْهُنَّ بالبَلَلِ (١٧)

يَرْضَى الذَّليلُ بخَفْضِ العَيْشِ مَسْكَنَةً   والعِزُّ تحتَ رَسيمِ الأَيْنُقِ الذُّلُلِ (١٨)

فادْرَأْ بِها فى نُحُورِ البِيدِ جافِلَةً   مُعارِضاتٍ مَثانى اللُّجْمِ بالجُدُلِ (١٩)

إنَّ العُلا حَدَّثَتْنى ، وهْىَ صادقةٌ   فيما تحدِّثُ أن العِزَّ فى النُّقَلِ

لوْ أنَّ فى شَرَفِ المأْوَى بُلوغَ مُنًى   لم تَبْرَحِ الشمْسُ يومًا دارةَ الحَمَلِ

أَهَبْتُ بالحظِّ لوْ ناديْتُ مُسْتَمِعًا   والحظُّ عنِّى بالجُهَّالِ فى شُغُلِ

لعلَّه إنْ بَدا فَضْلى ونَقْصُهُمُ   لعَيْنِه نامَ عنْهُم أو تَنَبَّه لى

أُعَلِّلُ النفسَ بالآمالِ أَرْقُبُها   ما أَضْيَقَ العَيْشَ لولا فُسْحَةُ الأَمَلِ

لم أرْتَضِ العَيْشَ والأَيامُ مُقْبِلَةٌ   فكيفَ أرضَى وقد ولَّتْ على عَجَلِ

غالَى بنفسى عِرْفانى بِقيمَتِها   فصُنْتُها عن رَخِيصِ القَدْرِ مُبْتَذَلِ

وعادةُ النَّصْلِ أن يُزْهَى بجَوْهرِه   وليس يَعْمَلُ إلَّا فى يَدَىْ بَطَلِ

ما كنتُ أُوثِرُ أنْ يَمْتَدَّ بى زَمَنى   حتَّى أرَى دَوْلَةَ الأَوْغادِ والسَّفَلِ

تَقَدَّمَتْنى أُناسٌ كانَ شَوْطُهُمُ   وراءَ خَطْوِى إذْ أَمْشى على مَهَلِ (٢٠)

---

(١٦) الغِيل : جمع غيلة وهى الاغتيال والخداع .

(١٧) الغمار : جمع غمرة ، وهى الماء الكثير.

(١٨) الرسيم : عدو الناقة أو تأثيرها فى الأرض من شدة الوطء – الأينق : جمع ناقة .

(١٩) الجدل : جمع جديل ، وهو الزمام أو الحبل المفتول .

(٢٠) الشوط : الجرى مَرّة إلى الغاية ، والمراد : أقصى جهدهم .

هـذا جـزاءُ امـرِئٍ أقـرانُـه دَرَجُـوا ... مـن قَبْلـه ، فتمنَّـى فُسْحَـةَ الأَجَـل

وإنْ عَـلانـى مِـن دُونـى فَـلا عَجَـبٌ ... لـى أُسْـوَةٌ بـانحطاطِ الشَّمْـس عـن زُحَـل

فـاصبِـرْ لهـا غيـرَ مُخْتـالٍ ولاضَجِـرٍ ... فى حادِثِ الـدَّهْرِ ما يُغْنى عـن الحِيَل (٢١)

أعْـدَى عَـدُوّك أدْنَـى مَـنْ وَثِقْـتَ بِـه ... فحـاذِرِ النـاسَ واصْحَبْهم عَلَـى دَخَـل (٢٢)

وإنَّمـا رَجُـلُ الـدُّنْيـا وواحِـدُهـا ... مَـنْ لايُعَـوِّلُ فـى الـدُّنْيـا على رَجُـل

وحُسْـنُ ظَنّـك بـالأيـامِ مَعْجَـزَةٌ ... فَظُـنَّ شَـرًّا وكُـنْ منهـا علـى وَجَـل

غـاضَ الوفـاءُ ، وفاض الغـدْرُ، وانْفَرَجَـتْ ... مسـافَـةُ الخُلْـفِ بَيْـن القَـوْل والعَمَـل

وشـانَ صِـدْقَـك عنـدَ النـاسِ كِـذْبُهـم ... وهَـلْ يُطَـابَـقُ مُعْـوَجٌّ بمُعْتَـدِل

إنْ كـانَ يَنْجَـعُ شَـىْءٌ فـى ثَبـاتِهِـمُ ... علَـى العهُـود فسَبْـق السَّيْـفِ للعَـذَل (٢٣)

يـاوارِدًا سُـؤْرَ عَيْـشٍ كُلُّـه كَـدَر ... أنفقْـتَ عُمْـرَك فـى أيـامِـك الأُوَل (٢٤)

فيـمَ اعتـراضُـك لُـجَّ البَحْـرِ تَـرْكَبُـه ... وأنـتَ يكْفيـك مِنـه مَصَّـةُ الـوَشَـل (٢٥)

مُلْـكُ القَنَـاعَـةِ لايُخْشَـى عليـه ولا ... تَحْتـاجُ فيـه إلـى الأنْصـار والخَـوَل (٢٦)

تَـرْجُـو البقـاءَ بـدارٍ لاثَبـاتَ لَهـا ... فهـلْ سَمِعْـتَ بظِـلٍّ غيـرِ مُنْتَقِـل

ويـا خبيـرًا علـى الأَسْـرار مُطَّلِعًـا ... أنصِـتْ ، ففى الصَّمْـتِ مَنْجاةٌ مـن الزَّلَـل

قـد رَشَّحـوك لأمْـرٍ إنْ فَطِنْـتَ لَـه ... فـارْبَـأْ بنَفْسِـك أن تَرْعَـى مـع الهَمَـل (٢٧)

* * *

(٢١) ضجر: متبرِّم ضائق بالصعاب .
(٢٢) الدخَل : العيب والريبة والفساد ، والمقصود : الحذر والحرص .
(٢٣) في المثل : " سبق السيف العذل " يضرب لما قد فات ولايستدرك .
(٢٤) السُّؤْرُ: البقيّة والفضلة .
(٢٥) الوشَل : الماء القليل يتحلّب من جبل أو صخرة ، ولايتّصل قطره .
(٢٦) الخول : عطيّة الله من النِّعَم والعبيد والإماء وغيرهم من الأتباع والحشم .
(٢٧) الهمل : الضوالّ من النَّعم التى لاراعى لها .

ابن الخياط

(٤٥٠ - ٥١٧ هـ / ١٠٥٨ - ١١٢٣ م)

شهاب الدين أبو عبد الله أحمد بن محمد بن على بن يحيى بن صدقة التغلبى ، ولد بدمشق لخيّاط ، فاشتهر بنسبته إليه .

عمل فى شبابه كاتبًا لأمير مدينة حماة ، ومدح حكامها ، وذهب إلى بنى مرداس فى حلب حيث لقى شاعر بلدته ابن حَيُّوس ، الذى نصحه بأن يقصد بنى عمّار فى طرابلس ليحظى بصلاتهم وجوائزهم ، ثم عاد ابن الخياط أدراجه إلى دمشق مسقط رأسه ، وكان يحكمها السلاجقة وأتيح له أن يصطحبه الوزير هبة الله الأصبهانى إلى الرىّ بفارس ، ورحل إلى خراسان ، ثم عاد إلى دمشق ، وامتدح أميرها حسان بن مسمار...

وشعره ملىء بمدح الرؤساء والوزراء والحكام وغيرهم من الأعيان والقواد،وآخر ما نظمه وهو مريض- قصيدة فى مدح ابن القلانسى المؤرخ،يقول فيها واصفا بلاغة ممدوحه :

لـه فِقَـرٌ لـو تَجَسَّـدْنَ لـم ... يُفَضّلْـن إلا بهـنّ العُقـودُ

فَيُظْلَمْـن إن قيـل نَـوْرٌ نَضِيـرٌ ... ويُبْخَسْـنَ إن قيـل دُرٌّ نَضِيـدُ

وعاصر استيلاء الصليبيين على بيت المقدس سنة ٤٩٢ وعلى غيرها من بلدان الشام بعد ذلك ؛ ومن شعره فى الحث على المقاومة والجهاد :

لقـد جـاشَ مـن أرْضِ إفْـرِنْجَـةٍ ... جيـوشٌ كمثـل جبـالٍ تُـرَدَّى

أنَـوْمًـا علـى مثـل هَـدِّ الصَّفَـاةِ ... وهَـزْلًا وقـد أصبـح الأمـر جِـدًّا

وكـم مـن فتـاةٍ بهـم أصبحـتْ ... تَـدُقُّ مـن الخـوف نَحْـرًا وخَـدًّا

فحامـوا علـى دِينكـم والحَـريـمِ ... محـامـاةَ مَـنْ لا يـرى المـوتَ فقـدا

فقـد أيْنَعَـتْ أرْؤُسُ المشـركيـن ... فـلا تُغْفِلـوهـا قطـافًـا وحَصْـدا

وقد وُصف بـأنه « شاعر مطبوع فصيح جـزل الألفاظ من غير إغراب ، واضـح المعانى ، فى شعره حـلاوة وطلاوة ، وأثر الطبع فيه أظهـر مـن جمـيع العناصر التى يتكـوّن منها الشعر ، وله بضع قصائد بلغ بها الذروة صحة معانٍ وحسن أداء » .

وذكـر ابن خـلكان أن ديوانـه مشهور ، وعبّر عن إعجابه بشعره ، وقال : « ولـو لـم يكن له إلّا قصيدته البائية (خذا من صبا نجد ...) لكفاه » .

* * * *

بائية ابن الخياط فى مدح أمير الجيش مجد الدين عضب الدولة أبق بن عبد الرزاق :[1]

خُـذا مِـنْ صبَـا نَجْـدٍ أَمـانًـا لِقَلْبِـهِ ... فَقَـدْ كـادَ رَيَّـاهـا يَطِيـرُ بِلُبِّـهِ
وَإِيّـاكُمـا ذاكَ ٱلنَّسِيـمَ فَـإِنَّـهُ ... إِذا هَـبَّ كـانَ ٱلْـوَجْـدُ أَيْسَـرَ خَطْبِـهِ
خَلِيلَـيَّ لَـوْ أَحْبَبْتُمـا لَعَلِمْتُمـا ... مَحَـلَّ ٱلْهَـوى مِـنْ مُغْـرَمِ ٱلْقَلْـبِ صَبِّـهِ
تَـذَكَّـرَ وَٱلـذِّكْـرى تُشَـوقُ وَذُو ٱلْهَـوى ... يَتُـوقُ وَمَـنْ يَعْلَـقْ بِـهِ ٱلْحُـبُّ يُصْبِـهِ[2]
غَـرامٌ عَلَـى يَـأْسِ ٱلْهَـوى وَرَجـائِهِ ... وَشَـوْقٌ علَـى بُعْـدِ ٱلْمَـزارِ وَقُـرْبِـهِ
وَفِي ٱلرَّكْـبِ مَطْوِيُّ ٱلضُّلُـوعِ عَلَى جَوًى ... مَتَـى يَـدْعُـهُ داعِـى ٱلْغَـرامِ يُلَبِّـهِ
إِذا خَطَـرَتْ مِـنْ جانِـبِ ٱلرَّمْـلِ نَفْحَـةٌ ... تَضَمَّـنَ مِنْهـا داءَهُ دُونَ صَحْبِـهِ
وَمُحْتَجِـبٍ بَيْـنَ ٱلأَسِنَّـةِ مُعْـرِضٍ ... وَفِـي ٱلْقَلْـبِ مِـنْ إِعْـراضِـهِ مِثْلُ حُجْبِهِ
أَغـارُ إِذا آنَسْـتُ فِـى ٱلْحَـىِّ أَنَّـةً ... حِـذارًا وَخَـوْفًـا أَنْ تَكُـونَ لِحُبِّـهِ
وَيَـوْمَ ٱلـرِّضـى وَٱلصَّـبُّ يَحْمِلُ سُخْطَـهُ ... بِقَلْـبٍ ضَعِيـفٍ عَـنْ تَحَمُّـلِ عَتْبِـهِ
جَـلالِـىَ بَـرّاقَ ٱلثَّـنـايـا شَتِيتَهـا ... وَحَـلَّأَنِـى عَـنْ بـارِدِ ٱلْـوِرْدِ عَـذْبِـهِ[3]
كَـأَنِّـىَ لَـمْ أَقْصُـرْ بِـهِ ٱللَّيْـلَ زائِرًا ... تَحُـولُ يَـدِى بَيْـنَ ٱلْمِهـادِ وَجَنْبِـهِ
وَلاذُقْـتُ أَمْنًـا مِـنْ سَـرارِ حُجُـولِـهِ ... وَلاارْتَعْـتُ خَـوْفًـا مِـنْ نَمِيمَـةِ حَقْبِهِ[4]
فَيـاَلسَّقـامِـى مِـنْ هَـوى مُتَجَنِّـبٍ ... بَكَـى عـاذِلاهُ رَحْمَـةً لِمُحِبِّـهِ
وَمِـنْ سـاعَـةٍ لِلْبَيْـنِ غَيْـرِ حَمِيـدَةٍ ... سَمَحْـتُ بِطَـلِّ ٱلـدَّمْـعِ فِيهـا وَسَكْبِـهِ
أَلالَيْـتَ أَنِّى لَـمْ تَحُـلْ بَيْـنَ حـاجِـرٍ ... وَبَيْنِـى ذُرى أَعْـلامِ رَضْـوى وَهَضْبِـهِ[5]

---

(١) أحد مقدمى أمراء دمشق ، توفى ليلة عيد النحر من سنة ٥٠٢
(٢) أصباه : شاقه واستماله .
(٣) شتيتها : متفرّقها ، يعنى الأسنان – حلأنى : أبعدنى .
(٤) الحجول : جمع الحجْل ، وهو الخلخال – الحَقْبُ : شىء تتخذه المرأة تعلق به معاليق الحلى ، تشده على وسطها ، وتسكين القاف للضرورة .
(٥) حاجر : منزل للحاج بالبادية – ورضوى : جبل بالمدينة .

وَلَيْتَ ٱلرِّيَاحَ ٱلرَّائحاتِ خَوالِصٌ إِلَىَّ وَلَوْ لاقَيْنَ قَلْبِى بِكَرْبِهِ
أَهِيمُ إِلى ماءٍ بِبُرْقَةِ عاقِلٍ ظَمِئْتُ عَلَى طُولِ ٱلْوُرُودِ بِشُرْبِهِ
وَأَسْتافُ حُرَّ ٱلرَّمْلِ شَوْقًا إِلى ٱللِّوى وَقَدْ أَوْدَعَتْنِى ٱلسُّقْمَ قُضْبانُ كُثْبِهِ
وَلَسْتُ عَلَى وَجْدِى بِأَوَّلِ عاشِقٍ أَصابَتْ سِهامُ ٱلْحُبِّ حَبَّةَ قَلْبِهِ
صَبَرْتُ عَلَى وَعْكِ ٱلزَّمانِ وَقَدْ أُرى خَبِيرًا بِداءِ ٱلْحادِثاتِ وَطِبِّهِ (٦)
وَأَعْرَضْتُ عَنْ غُرِّ ٱلْقَوافِى وَمَنْطِقِى مَلِىءٌ لِمُرْتادِ ٱلْكَلامِ بِخِصْبِهِ
وَما عَزَّنِى لَوْ شِئْتُ مَلْكٌ مُهَذَّبٌ يَرى أَنَّ صَوْنَ ٱلْحَمْدِ عَنْهُ كَسَبُّهِ
لَقَدْ طالَما هَوَّمْتُ فى سِنَةِ ٱلْكَرى وَلابُدَّ لى مِنْ يَقْظَةِ ٱلْمُتَنَبِّهِ
سَأَلْقى بِعَضْبِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلدَّهْرَ واثِقًا بِأَمْضى شَبًا مِنْ باتِرِ ٱلْحَدِّ عَضْبِهِ (٧)
وَأَسْمُو عَنِ ٱلآمالِ هَمًّا وَهِمَّةً سُمُوَّ جَمالِ ٱلْمُلْكِ عَنْ كُلِّ مُشْبِهِ
هُوَ ٱلْمَلْكُ يَدْعُو ٱلْمُرْمِلِينَ سَماحُهُ إِلى واسِعٍ باعَ ٱلْمَكارِمِ رَحْبِهِ (٨)
يُعَنِّفُ مَنْ لَمْ يَأْتِهِ يَوْمَ جُودِهِ وَيُعْذَرُ مَنْ لَمْ يَلْقَهُ يَوْمَ حَرْبِهِ
كَأَنِّى إِذا حَيَّيْتُهُ بِصِفاتِهِ أُمُتُّ إِلى بَدْرِ ٱلسَّماءِ بِشُهْبِهِ
هُوَ ٱلسَّيْفُ يُغْشِى ناظِرًا عِنْدَ سَلِّهِ بَهاءً وَيُرْضِى فاتِكًا يَوْمَ ضَرْبِهِ
يَرُوقُ جَمالًا أَوْ يَرُوعُ مَهابَةً كَصَفْحِ ٱلْحُسامِ ٱلْمَشْرَفِىِّ وَغَرْبِهِ (٩)
هُمامٌ إِذا أَجْرى لِغايَةِ سُؤْدَدٍ أَضَلَّكَ عَنْ شَدِّ ٱلْجَوادِ وَخَبِّهِ (١٠)
تَخَطَّى إِلَيْها وادِعًا وَكَأَنَّهُ تَمَطَّى عَلَى جُرْدِ ٱلرِّهانِ وَقُبِّهِ (١١)

---

(٦) الوعك : الشدّة والأذى . (٧) الشبا : جمع الشباه وهو حدّ السيف - العضب : القاطع .
(٨) المُرْمِل : الذى افتقر ونفد زاده . (٩) صفح السيف : عُرْضه - غَرْبه : حدّه .
(١٠) شدّ الجواد : عَدْوه - وخبه : نقل أيامنه وأياسره جميعًا فى العَدْو .
(١١) القُبّ : الضوامر .

وَمَا أَبَقٌّ إلا حَيَا مُتَهَلِّلٌ ... إذا جادَ لَمْ تُقْلِعْ مَواطِرُ سُحْبِهِ (١٢)
أَغَرُّ غِياثٌ لِلأَنامِ وَعِصْمَةٌ ... يُعاشُ بِنُعْماهُ ويُخْمِى بِذَنْبِهِ
يَقُولُونَ تِرْبٌ لِلْغَمامِ وَإِنَّما ... رَجاءُ الْغَمامِ أَنْ يُعَدَّ كَتِرْبِهِ (١٣)
فَتًى لَمْ يَبِتْ وَالْمَجْدُ مِنْ غَيْرِ هَمِّهِ ... وَلَمْ يَحْتَرِفْ وَالْحَمْدُ مِنْ غَيْرِ كَسْبِهِ
وَلَمْ يُرَ يَوْمًا راجِيًا غَيْرَ سَيْفِهِ ... وَلَمْ يُرَ يَوْمًا خائِفًا غَيْرَ رَبِّهِ
تَنَزَّهَ عَنْ نَيْلِ الْغِنَى بِضَراعَةٍ ... وَلَيْسَ طَعامُ اللَّيْثِ إلا بِغَصْبِهِ
أَلا رُبَّ باغٍ كانَ حاسِمَ فَقْرِهِ ... وَباغٍ عَلَيْهِ كانَ قاصِمَ صُلْبِهِ (١٤)
وَيَوْمِ فَخارٍ قَدْ حَوى خَصْلَ مَجْدِهِ ... وَأَعْداؤُهُ فِيما ادَّعاهُ كَحِزْبِهِ (١٥)
هُوَ السَّيْفُ لا تَلْقاهُ إلا مُؤَهَّلا ... لإيجابِ عِزٍّ قاهِرٍ أَوْ لِسَلْبِهِ
مِنَ الْقَوْمِ راضُوا الدَّهْرَ وَالدَّهْرُ جامِحٌ ... فَراضُوهُ حَتَّى سَكَّنُوا حَدَّ شَغْبِهِ
بِحارٌ إذا أَنْحَتْ لَوازِبُ مَحْلِهِ ... جِبالٌ إذا هَبَّتْ زَعازِعُ نُكْبِهِ (١٦)
إذا وَهَبُوا جادَ الْغَمامُ بِصَوْبِهِ ... وَإِنْ غَضِبُوا جاءَ الْعَرِينُ بِغُلْبِهِ (١٧)
إذا ما وَرَدْتَ الْعِزَّ يَوْمًا بِنَصْرِهِمْ ... أَمَلَّكَ مِنْ رَشْفِ النَّمِيرِ وَعَبِّهِ (١٨)
أَجابَكَ خَطِّيُّ الْوَشِيجِ بِلُدْنِهِ ... وَلَبّاكَ هِنْدِيُّ الْحَدِيدِ بِقُضْبِهِ (١٩)
أُعِيدَ لَهُمْ مَجْدٌ عَلَى الدَّهْرِ بَعْدَما ... مَضَى بِقَبِيلِ الْمَجْدِ مِنْهُمْ وَشَعْبِهِ
بِأَرْوَعَ لا تَعْيا لَدَيْهِ بِمَطْلَبٍ ... سِوَى شَكْلِهِ فِي الْعالَمِينَ وَضَرْبِهِ

---

(١٢) أبق : اسم الممدوح . (١٣) ترب : مماثل .
(١٤) صلبه : فقار ظهره . (١٥) المراد بالخصل : الرهان .
(١٦) أنحت : عرضت وأقبلت - لوازب بمعنى شدائد - الزعازع النكب بمعنى الرياح الشديدة .
(١٧) الغلب : جمع الأغلب وهو الغليظ الرقبة .
(١٨) رشيف النمير : مصّ الماء العذب بالشفتين ، وعبّه أى شربه بلا تنفّس ومصّ .
(١٩) الوشيج : شجر الرماح - لدْن : ليّنة المهزة - القضيب : السيف الدقيق .

تُرَوِّضُ قَبْلَ الرَّوْضِ أَخْلاقُهُ الثَّرى وَتَبْعَثُ قَبْلَ السُّكْرِ سُكْرًا لِشَرْبِهِ
وَتَفْخُرُ دارٌ حَلَّها بِمُقامِهِ وَتَشْرُفُ أَرْضٌ مَرَّ فِيها بِرَكْبِهِ
وَلَمَّا دَعَتْهُ عَنْ دِمَشْقَ عَزِيمَةٌ أَبى أَنْ يُخِلَّ الْبَدْرُ فِيها بِقُطْبِهِ (٢٠)
تَرَحَّلَ عَنْها فَهْيَ كاسِفَةٌ لَهُ وَعادَ إِلَيْها فَهْيَ مُشْرِقَةٌ بِهِ
وَإِنَّ مَحَلًّا أَوْطَنَتْهُ جِيادُهُ لَحَقٌّ عَلى الأَفْواهِ تَقْبِيلُ تُرْبِهِ
رَأَيْتُكَ بَيْنَ الْحَزْمِ وَالْجُودِ قائِمًا مَقامَ فَتى الْمَجْدِ الصَّمِيمِ وَنَدْبِهِ (٢١)
فَمِنْ غِبِّ رَأْيٍ لاتُساءُ بِوِرْدِهِ وَمِنْ وِرْدِ جُودٍ لاتُسَرُّ بِغِبِّهِ (٢٢)
وَلَمَّا اسْتَطالَ الْخَطْبُ قَصَّرْتَ باعَهُ فَعادَ وَجِدُّ الدَّهْرِ فِيهِ كَلِعْبِهِ
وَما كانَ إِلَّا الْعَرَّ دَبَّ دَبِيبُهُ فَأَمَّنْتَ أَنْ تُعْدى الصِّحاحُ بِجُرْبِهِ (٢٣)
وَصَدْعًا مِنَ الْمُلْكِ اسْتَغاثَ بِكَ الْوَرى إِلَيْهِ فَما أَرْجَأْتَ فِي لَمِّ شَعْبِهِ
فَغاضَ أَتِيٌّ كُنْتَ خائِضَ غَمْرِهِ وَأَصْحَبَ خَطْبٌ كُنْتَ رائِضَ صَعْبِهِ (٢٤)
حُبِيتَ حَياءً فِي سَماحٍ كَأَنَّهُ رَبِيعٌ يَزِينُ النَّوْرُ ناضِرَ عُشْبِهِ
وَأَكْثَرْتَ حُسّادَ الْعُفاةِ بِنائِلٍ مَتى ما يُغِرْ يَوْمًا عَلى الْحَمْدِ يَسْبِهِ (٢٥)
مَناقِبُ يُنْسِيكَ الْقَدِيمَ حَدِيثُها وَيَخْجَلُ صَدْرُ الدَّهْرِ فِيها بِعُقْبِهِ
لَئِنْ خَصَّ مِنْكَ الْفَخْرُ ساداتِ قُرْبِهِ لَقَدْ عَمَّ مِنْكَ الْجُودُ سائِرَ غُرْبِهِ
إِذا ما هَزَزْتُ الدَّهْرَ بِاسْمِكَ مادِحًا تَثَنّى تَثَنّي ناضِرِ الْعُودِ رَطْبِهِ

---

(٢٠) قطب الفلك : مداره أو كوكب يدور عليه .
(٢١) الندب : الرجل النجيب الظريف السريع .
(٢٢) الغِبّ : عاقبة الشيء وآخره ، والغِبّ فى الورد هو شرب الماء يوماً وتركه يوما .
(٢٣) العرّ : الجرب .
(٢٤) الأتيّ : السيل يأتى من بعيد - أصْحَب له : اتبعه وانقاد له .
(٢٥) أغار عليه أى أوقع به وهاجمه - سباه يسبيه أى أسره .

وَإِنَّ زَمَانًا أَنْتَ مِنْ حَسَنَاتِهِ حَقِيقٌ بِأَنْ يَخْتَالَ مِنْ فَرْطِ عُجْبِهِ (٢٦)
مَضَى زَمَنٌ قَدْ كَانَ بِالْبُعْدِ مُذْنِبًا وَحَسْبِي بِهَذَا الْقُرْبِ عُذْراً لِذَنْبِهِ
وَمَا كُنْتُ بَعْدَ الْبَيْنِ إِلَّا كَمُصْرِمٍ تَذَكَّرَ عَهْدَ الرَّوْضِ أَيَّامَ جَدْبِهِ (٢٧)
وَعِنْدِي عَلَى الْعِلَّاتِ دَرٌّ قَرَائِحٍ حَوى زُبَدَ الْأَشْعَارِ مَاخِضُ وَطْبِهِ (٢٨)
وَمَيْدَانُ فِكْرٍ لَا يُحَازُ لَهُ مَدَى وَلَا يَبْلُغُ الْإِسْهَابُ غَايَةَ سَهْبِهِ (٢٩)
يُصَرِّفُ فِيهِ الْقَوْلَ فَارِسُ مَنْطِقٍ بَصِيرٌ بِإِرْخَاءِ الْعِنَانِ وَجَذْبِهِ
وَغَرَّاءُ مَيَّزْتُ الطَّوِيلَ بِخَفْضِهَا فَطَالَ عَلَى رَفْعِ الْكَلَامِ وَنَصْبِهِ
مِنَ الزُّهْرِ لَا يُلْفَيْنَ إِلَّا كَوَاكِبًا طَوَالِعَ فِي شَرْقِ الزَّمَانِ وَغَرْبِهِ
حَوَالِيَ مِنْ حُرِّ الثَّنَاءِ وَدُرِّهِ كَوَاسِيَ مِنْ وَشْيِ الْقَرِيضِ وَعَصْبِهِ
خَطَبْتَ فَلَمْ يَحْجُبْكَ عَنْهَا وَلِيُّهَا إِذَا رُدَّ عَنْهَا خَاطِبٌ غَيْرَ خِطْبِهِ
ذَخَرْتُ لَكَ الْمَدْحَ الشَّرِيفَ وَإِنَّمَا عَلَى قَدْرِ فَضْلِ الزَّنْدِ قِيمَةُ قُلْبِهِ (٣٠)
فَجُدْهُ بِصَوْنٍ عَنْ سِوَاكَ وَحَسْبُهُ مِنَ الصَّوْنِ أَنْ تُغْرِي السَّمَاحَ بِنَهْبِهِ

---

(٢٦) وقريب من معنى هذا البيت قول المتنبي :
لقد حسنت بك الأيام حتى كأنك فى فم الدنيا ابتسام
(٢٧) أصرم الرجل فهو مصرم : افتقر فيه وتماسك .
(٢٨) على العِلات : على كل حال - الماخض الذى يخرج الزبد - الوطب : سقاء اللبن أو الثدى العظيم .
(٢٩) السهب من الخيل الشديد الجرى ، ومن الأرض : ما بعد منها واستوى فى سهولة .
(٣٠) العَصْب : الثياب اليمانية - الخِطب : المرأة المخطوبة - القُلب : السوار.

الأعمى التُّطيلىّ

(ت . نحو : ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م)

أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هريرة القيسى ، ويعرف بالأعمى التطيلى ، من كبار الشعراء والوشاحين فى عصر المرابطين ، ينسب إلى مدينة تطيلة Tudela موطن أهله في منطقة « الثغر الأعلى » فى شمال شرقي إسبانيا ، غير أنه ولد فى إشبيلية - وكانت تسمّى : حمص الأندلس - نحو سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، وقضى فيها معظم سنى حياته ، مادحًا كبراءها وولاتها ، مثل بنى الحضرمىّ وبنى زهر ، ولكنه أكثر الشكوى من الإقامة فيها ، كقوله :

مللتُ « حِمْصَ » وملَّتنى فلو نطقتْ ... كما نَطَقْتُ تلاحَيْنا على قَدَر

وسَوَّلَتْ لىَ نفسى أنْ أُفارقَها ... والماءُ فى المُزْنِ أصفى منه فى الغُدُر

وفى عصره كسد الشعر ، فتأخّر الشعراء ، وتقدّم الفقهاء ، وقد شكا ذلك ، فقال :

أيا رَحْمتنا للشعر أقْوَتْ ربوعُه ... على أنها للمكرُمات مناسك

وللشعراءِ اليومَ ثلتْ عروشهم ... فلا الفخرُ مختالٌ ولا العزُّ تامك

إذا ابتدرَ الناس الحظوظ وأشرقتْ ... مطالبُ قوم وهْى سودٌ حوالك

رأيتهم لو كان عندَك مدفعٌ ... كما كسدتْ خلف الرِّئال الترائك

فيا دولةَ الضَّيْم اجْملى أو تجاملى ... فقد أصبحتْ تلك العُرى والعرائك

ويا « قام زيد » أعرِضى أو تعارضى ... فقد حالَ من دون المنى « قال مالك »

وفى ديوانه مدائح كثيرة لقاضى قرطبة أبى القاسم بن حمدين ، وبنى عشرة أعيان مدينة سَلَا فى المغرب الأقصى ، والسيدة حواء وكانت من شهيرات بنى تاشفين ، وشعره فيها من نادر الشعر العربى الذى مدحت به نساء الرؤساء .

وقد برز التطيلى أيضا فى الرثاء، وله قصائد بديعة فى رثاء زوجته « زهر » .

وكانت شهرته بصفته وشاحًا أوسع من شهرته شاعرًا، وقد روى أنه اجتمع مع جماعة من الوشاحين فى مجلس بإشبيلية للإنشاد حضر يحيى بن بقىّ، فلما افتتح التطيلى موشحته بقوله :

ضاحكٌ عن جُمانْ　　سافرٌ عن بَدْرِ
ضاقَ عنه الزمانْ　　وحَواهُ صَدْرى

مزّق ابن بقى موشحته، وتبعه الباقون، لما وجدوه من عذوبة الألفاظ وبراعة التصوير، وقد وصل إلينا من موشحاته اثنتان وعشرون عالج فيها الغزل والمديح، أما خرجاتها فيتوزعها العامىّ والرومانتىّ والفصيح .

وقد وصفه بعض من ترجموا له بقولهم : « له أدب بارع، ونظر فى الغوامض واسع، وفهم لا يجارى، وذهن لا يبارى، ونظم كالسحر الحلال، ونثر كالماء الزلال » .

وتوفى فى تاريخ غير مؤكد، ولكنه - فيما يرجّح - ينحصر بين السنتين ٥٢٥ ، ٥٢٩ هـ

* * *

وقال فى رثاء زوجته :

ونُبِّئْتُ ذاك الوجهَ غَيَّرهُ البِلى ... على قُرْبِ عَهْدٍ بالطَّلاقة والبِشْرِ
بكيتُ عليه بالدموعِ ولو أَبَتْ ... بكيتُ عليه بالتجلُّدِ والصَّبرِ
فليتهُمُ وارَوْا ذُكاءَ مكانَهُ ... ولو عرفتْ فى أوْجُه الأَنجُم الزُّهرِ(١)
وليتهُمُ واروه بينَ جَوانحى ... على فَيْض دَمْعى واحتِدام لَظَى صَدْرى
أمُخبِرتى كيف استقرَّتْ بكِ النَّوى ... على أنَّ عندى ما يَزيد على الخبر
وما فعلتْ تلك المحاسِنُ فى الثَّرى ... فقد ساء ظنِّى بين أدْرى ولا أدْرى
يُهَوِّن وَجْدِى أنَّ وَجْهَك زَهْرَةٌ ... وأنّ ثَراها من دُموعى ذِكْر
ويَحْزُنُنى أنّى ولمْ أكنْ ... أسائِلُ عمّا يَفعَلُ الدمعُ بالزَّهر
دَعِينى أُعَلِّلْ نَفْسىَ بالمُنى ... فقد خِفْتُ ألَّا نلتَقى آخرَ الدهر
وإنْ تَسْتَطِيعى فابدئينى بزَوْرَةٍ ... فإنَّك أوْلى بالزِّيارة والبِرّ
مُنًى أتمنَّاها ولا يَدَ لى بها ... سِوى خَطَراتٍ لا تَريش ولا تبرى(٢)
وأحلامُ مَذْعورِ الكرى كُلَّما اجْتَلى ... سروراً رآه وهو فى صُورة الذُّعر
أآمِنَ إنْ أجْزَعْ عليكِ فإنّنى ... رُزِئتُك أحْلى مِن شَبابى ومن وَفْرى(٣)
أآمِنَ لا والله ما زِلتُ موفيًا ... ببينك لو أنّى أخَذْتُ له حِذْرى
خُذى حَدِّثينى هل أطَقْتِ على النَّوى ... أُحَدِّثْك أنّى قد ضَعُفْتُ عن الصَّبر
مُغالطةً لولا الأسى ما حَمَلْتُها ... على مَرْكَبٍ ممّا وصفْت به وَعْر
وبيتهم قد أجْمَعُوا عنكِ سَلْوةً ... لعشرينَ مَرَّتْ من فِراقك أو عَشْر
وأذْهَلَهُمْ حُبُّ التُّراثِ فكفكفوا ... به زَفْرَةً تعتادُ أو عَبْرَةً تَجْرى
ولم يبقَ إلّا ذكرةٌ ربّما امترتْ ... بقيّةَ دمعِ الشوقِ فى أكْؤُس الخَمْرِ(٤)

---

(١) الذكاء : الشمس .
(٢) لاتريش ولاتبرى أى لاتضرّ ولاتنفع .
(٣) الوفر : الغنى أو التامّ من المال والمتاع وغيرهما .
(٤) امترت : استخرجت .

وأمّا أنا فالْتَعْتُ - واللهِ - لَوْعَةً ... هى الخمرُ لو سامحتِ فى لَذَّة السُّكر
أَهُزُّ لها عِطفِىَ من غيرِ نَشْوة ... على ما بجِسْمى من كَلالٍ ومن فَترْ (٥)
وأُودِعُها عَيْنىَ لالِصَبابةٍ ... ولكن لتَمْرِى دَمْعَ عينى كما تمرى
فلا تَبْعَدى إنّ الصَّبابةَ خُطَّةٌ ... لِشَخْصِكِ فى قَلْبى وإنْ كانَ فى القَبْر
ولا تَبْعَدى إنّى عليكِ لواجدٌ ... ولكنْ على قَدْرِ الهَوى لاعلى قَدْرى
ذكرتُكِ ذكرَ المرءِ حاجةَ نفسِه ... وقد قيل إنّ الميْتَ مُنْقَطعُ الذِّكر
وواللهِ ما وفَّيْتُ رُزْءَكِ حَقّه ... ولكنه شىءٌ أقمْتُ به عُذرى
أصِخِى إلى الداعى فليس بناتجٍ ... وما بكِ عنه من وَقارٍ ولا وَقْر
ولا تَبْعَثى طَيفَ الخيالِ فإنّه ... سميرُ همومٍ لايُضِيفُ ولايَقْرى (٦)
متى يَسْرِ نَحْوى يلْقَ دونى كتائبًا ... من السُّهْدِ ألّتْ لاتَبِيرُ ولا تَسْرى
وعَهْدى به إنْ لمْ تُجِلْهُ يدُ البِلى ... جَدِيرًا بأنْ يَشْكو الوَنَى وهْى فى الخِدر (٧)
إذا أَجْرَسَ الحلْىُ استُطِيرَ وقلَّما ... مَشَى فيه إلا ريثَ يَختال للزَّهْر
فإنْ يأبَ إلّا بِرَّه فابْعَثى به ... على رِقْبةٍ ممّا هناك وفى سِتْر (٨)
وكان الأسَى نَذْرًا عليكِ نَذَرْتُه ... ولكنْ أرادَ الشَّوقُ أكبرَ من نَذْرى
ومَن لى بعينٍ تَحْمِلُ الدَّمْعَ كُلَّه ... فأبْكيكِ وَحْدى ، لا أقَرُّ ولا أدرى (٩)
ولى مُقْلةٌ أَفْضَتْ بها لَحَظاتُها ... إلى عَبَراتٍ جَمَّةٍ وكَرًى نَزْر
وكان حرامًا أن تَجُودَ بدَمْعه ... وقد تَرَكتْها الحادثاتُ بلا شَفْر
ولكنْ حداها الحزنُ فاسْتَوْسَقتْ به ... وأكبرُ ما يُعطى البخيلُ على قَسْر (١٠)

---

(٥) الفترة : الانكسار والضعف ، يقال : فتر فلان أو الشىء : سكن ولان .
(٦) وقار : رزانة وحلم - الوقْر : الصمم أو ثقل الأذن - لايضيف : لايغيث ولا يجير - لايقرى الضيف أى لايضيفه ولايكرمه .
(٧) الونى : الضعف والإعياء - الخدر : الستر وكلّ ما يوارى .
(٨) أجْرَس : صَوّت وعلا صوته - استُطِير بمعنى ذعر وأفزع - رقبة : تحفّظ وفَرَق .
(٩) يقال قَرَّ بالمكان يقِرّ : سكن واطمأن أو أقام ، قرّ يقَرّ : رضى وسرّ ، وأقرّ : انقاد وسكن .
(١٠) شُفْر الجفن : حرفه الذى عليه الجفن - استوسقت بمعنى اجتمعت وانضمت .

فإنْ أنا لم أَسْتَسْقِها لك نجدتى ... فلا عرك الورَّاد من سَبَل القطر[11]
أَتَمْضِى اللَّيالى لا أراكِ ورُبَّما ... عَدَتْنى العَوادى عن طِلابك فى الحَشْر
فلى عَزْمَةٌ لو خِفْتُها لسَبَقْتُها ... إليكِ ، ولو بين السِّماكيْن والنَّسْر[12]
ألَاليتَ شِعرى هل سمعتِ تأوُّهى ... فقد رغتُ لو أسمعْتُ قاسيةَ الصَّخر
وهلى لعبتْ تلك المعاطفُ بالنُّهى ... كسالفِ عَهْدى فى مجاسِدها الحُمر[13]
ونُبِّئْت ذاك الجِيدَ أصبحَ عاطلًا ... خُذى أدْمُعى إنْ كنِت غَضْبى على الدُّر
خُذى فانْظميها فهْىَ كالدّرّ إنّنى ... أرَى عِلّتى أوْرَى بها وهْى كالجَمْر[14]
خُذِى اللُّؤْلُؤَ الرَّطْب الذى لَهِجُوا به : ... مَحارتُه عَيْنى ولُجَّتُه صَدْرى
لعلّكِ يومًا أنْ تَرَيْهِ فتذكرى ... وسائلَ لمْ تَعْلَقْ بلوم ولا عُذْر
خذى ، فانِظميه أوكِلينى لنَظْمه ... حُلِيًّا على تلكَ التَّرائب والنَّحر[15]
ولا تُخْبِرى حُورَ الجِنان فربما ... غَصَبْنَكِه بين الخديعةِ والمكر
أيا قُرَّةَ العينِ اعتبارًا وحَسْرةً ... أجِدَّكِ قد أصبحتِ قاصمةَ الظهر
برغْمى خُلِّى بين جِسْمِك والثَّرى ... وإنْ كنْتُ لا أخْشى التُّرابَ على التِّبْر
هنيئًا لقبْرٍ ضَمَّ جسمَك إنّه ... مَقَرُّ الحَيا أو هالةُ القمرِ البدر[16]
وإنّك فيه كلّما عَبَثَ البِلى ... بأرجائِه كالغُصْنِ فى الوَرَقِ النَّضْر
إذا جِئْتِ عَدْنًا فاطْلُبِينا فقلَّما ... تَقَدَّمْتِنى إلّا مَشَيْتُ على الأثر[17]
ولا تَعْذُلينى إنْ أقَمْتُ فربَّما ... تَأخَّر إلى سَعْيٍ وأثْقَلَنى وِزْرى

* * *

(١١) استسقى : طلب السُّقيا - السَّبَل : المطر الهاطل .
(١٢) السماكان والنسر : من النجوم .
(١٣) مجاسد : جمع مِجسد ، وهو الثوب الملاصق للجسد .
(١٤) أورى بمعنى اشتعل ، يقال أورى الزند : خرجت ناره .
(١٥) الترائب : عظام الصدر مما يلى الترقوتين - النحر : أعلى الصدر .
(١٦) الحيا : المطر والخصب - هالة القمر : دارته .
(١٧) يقال جاء فى أثره ، بفتح الهمزة وكسرها أى على عقبه .

قال التطيلى يشكو أحد حكام إشبيلية ويحرض أهلها عليه :

إلــى الله أشكــو الــذى نحــن فيــه   أَسًــى لاتُنَهْنِهُــهُ منــه الأُسَــى [1]
علــى مثلهــا فلْتُشَــقَّ القلــوبُ   مكــانَ الجُيُــوبِ وإلّا فــلا [2]
فَشــا الظلْــمُ واغْتَــرَّ أشيــاعُــه   ولا مُسْتغــاث ولا مُشْتكــى
وســادَ الطغــامُ بتَمْــويههــم   وهــل يَقْــدَحُ الــرَّزْءَ إلّا كــذا [3]
وطــالــتْ خُطــاهــمْ إلــى التُّــرَّهــاتِ   ألا قَصَّــر اللهُ تلــك الخُطــا [4]
وأعجــبُ كيــفَ نضِــلُّ السبيــلَ   ولــم نــأتِــه واهْتَــدَتْــه القَطــا [5]
وكيــفَ تضــاحَــكَ هَــذى الــريــاض   وكيــف يَصُــوبُ الغمــامُ الحَصــى [6]
وهيهــاتَ لــم يعتمــدْ أن يجــود   ولكــنْ لمــا نحــن فيــه بَكــى
« ومــاذا بحمــص مــن المضحِكــات   ولكنــه ضَحِــكٌ كــالبُكــا » [7]
وذا اليــوم حَمّلْنــا فــادِحًــا   خَضَعْنــا لــه وانتظــرنــا غَــدا
وتُقْضِــى علــى حُكْــم صَــرْف الــزمــانِ   وبيــنَ الجــوانِــح جَمْــرُ الغضــا
ويــا ربّ إلــبٍ علــى المسلميــن   زَوَى الحــقَّ عــن أهلــه فــانــزوى [8]
هــو الكَلْــبُ أَسَّــده جهلُــه   وطــالَ فخــالــوه ليــثَ الشَّــرى [9]
وراعَهــم زأرُه فيهــم   ولــو كــانَ فــى غَيْــرهــم مــا عــوى

(١) الأَسى - بالفتح : الحزن ، وبالضم : جمع أُسوة وهو ما يُتَعَزَّى به ، والمعنى أن أساه شديد لا يجدى فيه التأسى.

(٢) الجيوب : جمع الجيب ويعنى به جيب القميص ونحوه وهو ما يدخل منه الرأس عند لبسه .

(٣) الطغام : الأراذل والجهال - التمويه : الكذب وزخرفة الحديث .

(٤) الترهات : الأباطيل .

(٥) القطا : جمع القطاة ، وهو طائر يضرب به المثل فى الهداية ، فيقال : « أهدى من قطا » .

(٦) يصوبه المطر والغمام : يمطره ويجوده .

(٧) « وماذا بحمص » إشارة إلى قول المتنبى ، ووضع « حمص » مكان « مصر » .

(٨) الإلب : القوم يجتمعون على عداوة شخص .

(٩) أسّده : هيّجه وأغراه - الشرى : موضع كثير الأُسْد ، وهو ليث الشرى أى شديد شجاع .

كفاه الهَوانُ احتقارَ الهوانِ ... فـإنَّ الأذى باحتمالِ الأذى

تهاونَ باللهِ والمسلمين ... وقد كان فى واحدٍ ما كفى

وقد خلع الدينَ خَلْعَ النِّجادِ ... وقد أكَلَ الدينَ أكْلَ الرِّبا (١٠)

فمرآه فى كلِّ عين قَذَى ... وذكراه فى كلِّ حَلْق شَجا (١١)

إذا سُئل العَسْفَ بالمسلمين ... فأجْوَدُ من حاتمٍ بالقِرى (١٢)

وإن أمْكَنَتْ منهم فُرصَة ... فأفْتَك من خالدٍ بالعِدا

ولا بُدَّ للحقِّ من دَوْلة ... تمُيتُ الضَّلالَ وتحيى الهُدى

فياسحرَ فِرعون ماذا تقولُ ... إذا جاءَ مُوسى وألْقى العَصا (١٣)

وقد عزَّ فى مَنع سلطانُه ... كُلَيْبٌ فكيفَ رأيتَ الحِمى (١٤)

وإنّ أمامَك لو قد عَلِمْـ ... ـتَ أشياءَ أيسرُهُنَّ الردى

فما غَفَلَ اللهُ عن أمَّةٍ ... ولا تَركَ اللهُ شيئًا سُدى

وعاقبةُ الظلمِ ما قد سمعت ... وعاينت لو نَهْنَهَتْك النُّهى (١٥)

أيا أهلَ حمص وقِدْمًا دَعَوْتُ ... وهل تسمعون إلى مَن دَعا

يقلّ لأقداركمْ كلُّ شىءٍ ... فكيف رَضِيتم بدونِ الرِّضا

ألا قد لَحَنْتُ لكم فاسمعوا ... وحاجَيْت إن كان يُغنى الحِجا (١٦)

* * *

(١٠) خلع النجاد : خلع حمائل السيف .

(١١) شجا : غُصَّة .

(١٢) العسف : الظلم والأخذ بالقوة - حاتم هو الطائى الذى يضرب به المثل فى الجود .

(١٣) قوله « إذا جاء موسى وألقى العصا » مستهلّ بيت شعرى قديم ، وتمام شطره الثانى : « فقد بطل السحر والساحر » .

(١٤) كليب : إشارة إلى كليب وائل .

(١٥) نهنهتك النّهى : ردّك العقل .

(١٦) لحنت : عرّضت وكنّيت ، يقول القتّال الكلابى :

ولقد لَحَنْتُ لكمْ لكَيما تَفْقَهوا ... ووحيت وحيا ليس بالمرتاب

وقال يمدح الأمير على بن يوسف بن تاشفين :

كم مقلة ذهبت في الغَيِّ مذهبها بنظرة هي شانٌ أولها شانُ
رهنٌ بأضغاثِ أحلامٍ إذا هجعت وربّما حلَمتْ والمرءُ يقظان
فانظرْ بعقلك إنّ العينَ كاذبة واسمع بحِسّك إن السّمع خوّان
ولا تقلْ كلّ ذي عينٍ له نظر إنّ الرعاة ترى ما لا ترى الضان
دعِ الغِنى لرجال يَنْصَبون له إنّ الغِنى لفضول الهمّ ميدان
واخلعْ لَبوسك من شُحٍّ ومن أمل لا يقطعُ السّيفُ إلّا وهْو عُريان
وصاحبٍ لم أزلْ منه على خطر كأنّني علمُ غيبٍ وهو حسّان (١٧)
أغراه حظّ تَوَخّاه وأخطأني أما دَرَى أن بعض الرّزق حِرمان
وغرّه أنْ رآه قد تقدّمني كما تقدّم لبسمِ الله عُنوان

ومن مديحها :

إنّي استجرْتُ على رَيْب الزّمان فتًى إن لا يكنْ ليثَ غابٍ فهو إنسان (١٨)
حسبي بعلْيا عليّ مَعقِلا أشِبًا زمانَ سَرَى به في الأمنِ أزمان
صعبُ المراقِي ولكنْ ربّما سَهُلَتْ على المنى منه أوْطار وأوطان
الواهبُ الخيل عِقبانا مسوَّمة لو سُوِّمَتْ قبلها في الجوّ عِقبان
مِن كلّ ساعٍ أمام الرّيح يَقْدُمها منه مَهاةٌ وإن شاءت فسِرْحان
دُجُنّة تصِفُ الأنوار غُرّتها ونَبْعة يَدّعِي أعطافَها البَان (١٩)
عَصا جذيمة أما لا أتيح لها من أمرِ موسى فجاءت وهْي ثعبان (٢٠)

---

(١٧) كذا . (١٨) كذا .
(١٩) سِرحان : ذئب - نبعة : شجرة تتّخذ منها القسيّ والسهام - البان : شجر ليّن سبط القوام .
(٢٠) العصا : اسم فرس كانت لجذيمة الأبرش ، وكانت من سوابق خيل العرب .

ومنها فى صفة السيف :

هِيمٌ رواءٌ لو أنّ الماء صافحها ... لذلّ أو زلّ عنها وهو ظمآن
يكاد يَخلِق مُهَراقُ الدّماء بها ... فَلَا تَقُل هى أنصاب وأوثان
مَوتَى فإن خلعَتْ أكفانها علمت ... أنّ الدّروع على الأبطال أكفان
نفسِى فداؤكَ لا كُفؤا ولا ثمنًا ... ولو غدا المشترِى منها وكَيْوان (٢١)
والتِّبر قد وزنوه بالحديد فما ... سَاوى ولكنْ مقاديرٌ وأوزان

* * *

لما كان الحصرى مقيمًا بمدينة طنجة ، أرسل غلامه إلى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية واسمها فى بلادهم : حمص - فأبطأ عنه ، وبلغه أن المعتمد ما احتفل به ، فقال :

نَبِّه الرَّكْبَ الهُجُوعا ... ولُمِ الدَّهْر الفَجُوعا
حمصُ الجنّة قالت ... لغلامى : لا رجوعا
رَحِمَ اللهُ غُلامى ... مات فى الجنّة جُوعا

وقد التزم فى هذه الأبيات لزوم ما لايلزم .

* * *

وله يرثى :

سلْ دمعىَ المبذولَ هل مِن حيلة ... لى أوله فى نومِىَ الممنوعِ
وحنينىَ الموصول كيف تعرَضت ... شُبهاته لرجائىَ المقطوع
لاتَركَننَّ إلى الزّمان وَصَرْفه ... فتك الزّمان بآمِن وَمرُوع

---

(٢١) أكفانها أى أغماد سيوفها - قوله « فداؤك » خطاب للسيف - المشترى : أكبر الكواكب السّياره - كيوان : هو كوكب زُحَل .

ودَعِ الأحبّـــةَ والـــدنُـــوَّ أو النَّـــوى ... مـــا أشبـــهَ التّسليـــمَ بـــالتّـــوديـــع
يــا وانيًــا يــأسَــى علــى مــا فــاتــه ... إنّ الـــونَـــىَ طـــرفٌ مِـــن التضييـــع
ومُـــداجِيــا تَخِــذَ الخــديعــةَ جُنّــة ... إنّ أنفَــتَ لــرأيــك المخــدوع (٢٢)
دافــعْ بعــزْمــك أوبجهْــدك إنّهــا ... عــزمــاتُ حكْــمٍ ليــس بــالمــدفــوع
وانظــرْ بعينــك أو بقلبــك هــل تــرى ... إلّا صــريعًــا أومثــالَ صــريــع
أبنــيِ عُبيــد الله أيــن ســرَاتكــم ... مِــن عــائــر بعنــانــه المخلــوع
دهــرٌ كــأنّ صُــروفَــه قــد جَمّعــتْ ... مِــن نثْــر منتظــم وشــتٌّ جميــع (٢٣)
يُهنــى البقيــعَ وليتَــه لــم يهنِــه ... قَبْــرٌ غــدا شــرفًــا لِكــل بقيــع (٢٤)
عجبًــا لــه وَســع المكــارم والعلــى ... ودَعــا لــه الــداعــونَ بــالتــوسيــع
وإذا عجبْــتَ مــن الــزّمــان لحــادثٍ ... فَلِتَــابــعٍ يَبْكــى علــى متبــوع
وإذا اعتبــرْت العمــر فهــو ظُــلَامَــة ... والمــوتُ منهــا مــوضِــعُ التــوقيــع

* * *

وله فى الرثاء أيضا :

اليــومَ حيــنَ لففــتُ المجــدَ فى كفــن ... نفسى الفداءُ على أنْ لَاتَ حينَ فِـدَا (٢٤)
يــا حسـرةً نشــأتْ بيــن الضّلــوع جَــوَى ... مــا ضــرّ لاعِجَهــا أن لايكــون رَدَا (٢٥)
فــى ذِمّــة الله قبــرٌ مــا مــررْتُ بــه ... إلّا اختبلْــت أسًــى إنْ لــم أمــتْ كَمَــدا
تضمّــنَ الــدّيــنَ والــدّنيــا بــأسْــرِهمــا ... والحــزَمَ والعــزمَ والإيمــان والــرَّشَــدا

(٢٢) الونى : الضعف - المداجى : الذى يساتر بالعداوة ولا يبديها - تخذ بمعنى اتّخَذ - جُنّة : سُتْرة ووقاية .
(٢٣) النثر والشتّ : المتفرّق - البقيع : مقبرة أهل المدينة ، والبقيع أيضا : المكان المتّسع فيه أشجار مختلفة .
(٢٤) لات : أداة نفى ، وهى كلمتان : لا النافية والتاء لتأنيث اللفظ ، تعمل عمل ليس ، وفى الأزمان غالبا ، ولا يذكر بعدها إلّا أحد المعمولين ، والغالب أن يكون المحذوف اسمها - الفدا : الفداء ، يقال : فداه بنفسه أو بماله .
(٢٥) جَوى : حزن - اللاعج : الهوى المحرق - ردى : هلاك

والسّؤددَ الضّخمَ مضروبًا سرادقُه ... فودّتِ الشمسُ لو كانت له عمَدا
أودَى الزّمانُ وكيف اسْطاعه بفتًى ... قد طال ما راح فى أتباعه وغدا
مِلْءَ القلوب جلالًا والعيونِ سنًا ... والحربِ بأسًا وأكنافِ النّديّ نَدَى [(٢٦)]
مَن لايُقدِّمُ فى غيرِ العلا قَدَمًا ... ولا يمُدُّ لغيرِ المَكْرُماتِ يدا
كأنّه كان ثأرًا باتَ يطلبه ... حتّى رآه فلم يَعْدِلْ به أحدا
يا يومَ مَنْعَى عُبيدِ الله أيُّ أسًى ... بين الجوانح يأبى أن يجيب نِدا
وأيّ غَرْبٍ مُصابٍ لا يكفْكِفُهُ ... دمعى الهَتُونُ ولا أنفاسى الصُّعَدا [(٢٧)]
ولا البلابل من مَثْنًى وَواحدة ... باتت تَسُلُّ سيوفًا أو تَسُنُّ مُدَى
ولا الهموم وقد أَعْيَتْ طَوَارِقُهَا ... كأنّما بِتْنَ لى أو للدّجى رَصَدا
قل للدّجى وقد التفّتْ غياهبُها ... فلو تصوّبَ فيها الماءُ ما اطّردا [(٢٨)]
إنّ الشِّهابَ الّذى كنا نجوبُ به ... أحوازَها قد خبا فى التُّرب أو خمدا
لَهفى وَلَهفَ المعالى جَاربى وبها ... صَرفُ الرّدى وأرَانا أيّةً قصَدا
يا صاحبىّ ولا يَخبِسْكُمَا ظمأ ... طال الحياء هٰذى أدمعى فَرِدَا [(٢٩)]
أجِدَّها قد عداها بُعْدُ أوْبَتِه ... عن أن تهيم بِذِكْرَاهُ أو تَجِدَا
وحدّثانى عن العَلْيا وقد رُزِئَتْ ... مَسْنونَها اللُّدْنَ أو مَصْقولها الفَرِدا
واهًا لها وترتْه ثمّ قد علمَتْ ... أن لا تنالَ به عَقْلًا ولا قَوَدا [(٣٠)]

---

(٢٦) النّديّ : القوم المجتمعون أو مجلسهم .
(٢٧) المَنْعَى : النّعى وهو إذاعة خبر موت الميّت - يقال : كفكف فلان دمعه أى مسحه مرّة بعد مرّة ليجفّ - هتون بمعنى كثير، يقال : هتن الدمع أى قطر .
(٢٨) بلابل : هموم ووساوس - الدجى : سواد الليل وظلمته - رصد أى راصد ورقيب - الغياهب : الظلمات الشديدة - تصوّب : انصبّ أو انحدر .
(٢٩) ردًا : فعل أمر، يقال : ورد الماء أى جاء إليه أو أشرف عليه .
(٣٠) واهًا : كلمة تفجّع أو تعجّب - وترته أى قتلته أو أدركته بمكروه - عقل : دِية - قوَد : قِصاص .

هـل نـافـعٌ والأمـانـى كلُّهـا خِـدَعٌ ... قُـولـى لـه اليـوم لاتَبْعَـدْ وقـد بَعِـدا
وهـل تـدَمّـم هـذا الـرُّزء مـن قلـقٍ ... قـام المصـابُ بـه أضعـافَ مـا قعـدا
أمـا ويـومُ عبيـد الله وهـو أسًـى ... لقـد تَخَيَّـرَ هـذا المـوتُ وانتقـدا
يـا مـاجـدًا أنجـزَ العليـاءُ مـوعـدَه ... اليـومَ أنجـزَ فيـك المـوتُ مـا وعـدا
إنّ الفـؤاد الّـذى مـا زلـتَ تَعْمُـرُه ... قـد رِيـعَ بعـدك حتـى صـار مفتَـأدا (٣١)
سـلِ المنـايـا علـى علـمٍ وتَجْـرِبـة ... فـى أىّ شـىء بغـى الإنسـان أو حَسَـدا
تنـافـس النّـاس فـى الـدّنيـا وقـد علمـوا ... أن سـوف تقتلهـم لَـذّاتهـا بَـدَدا
تبـادروهـا وقـد آذتهـم فشـلا ... وكـاثـروهـا وقـد أحْصَتْهـمُ عَـددا
قـل للمحـدّث عـن لُقمـان أو لُبَـد ... لـم يتـركِ المـوتُ لقمـانـا ولا لُبَـدا
ولا الـذى همُّـه البنيـانُ يـرفعـهُ ... « إنّ الرّدى لم يغادرْ فى الشّرى أسدا » (٣٢)
مـا لابـن آدم لا تفنـى مطـالبُـه ... يـرجـو غـدًا وعسـى أن لا يعيـش غـدا

* * *

وقال يشكو، ويشير إلى فقده لبصره ، وما بدا فى رأسه من الشعرات البيض :

أمـا اشْتَفَـتْ منّـى الأيـامُ فـى وطنـى ... حتّـى تُضـايـقَ فيمـا عـنَّ مِـن وَطَـرِى
ولا قَضَـتْ مِـن سَـواد العيـنِ حـاجتَهـا ... حتـى تَـكُـرَّ علـى مـا كـان فى الشَّعَـر (٣٣)

وقال متغزّلا :

بحيـاة عصيـانـى عليـكِ عـواذلـى ... إنْ كـانـتِ القُـرُبـاتُ عنـدكِ تَنْفَـعُ
هـل تـذكـريـنَ ليـاليًـا بِتْـنـا بهـا ... لا أنـتِ بـاخلـةٌ ولا أنـا أقْنَـع ؟

* * *

---

(٣١) مفتأد بمعنى محترق ، يقال : افتأد الخبز أى أنضجه فى الرماد الحار.

(٣٢) لقمان : هو المعروف بالحكيم ، قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ - لُبَد : اسم آخر نسور لقمان بن عاد ، سماه بذلك لأنه لبد ، فبقى لا يذهب ولا يموت - الشرى : موضع تكثر فيه الأسود .

(٣٣) الوطر : المأرب - تكرّ : تعاود من حين إلى حين ، ومنه : كرّ الليل والنهار .

وقال :

وُجوهٌ تَعِزُّ علَى مَعْشَرٍ ... ولكنْ تَهونُ على الشاعِرِ
قرونُهُمُ مثلُ ليلِ المحبّ ... وليلُ المحبِّ بلا آخِرِ

* * *

وقال :

أَسَدٌ ولو أنِّى أنا ... قِسْتُهُ الحسابَ ، لَقُلتُ : صَخْرَة
فكأنّه أسَدُ السَّما ... ءِ يمُجُّ مِن فِيهِ المَجَرَّة[٣٤]

* * *

موشّحه :

ضاحكٌ عن جُمانْ سافرٌ عن بَدْرِ ... ضاقَ عنه الزمانْ وحواه صدرِى
آه مما أجِدْ ... شفَّنِى ما أجِدْ
قامَ بى وقَعَدْ ... باطشٌ مُتَّئدْ[٣٥]
كلما قلتُ قَدْ ... قال لى أينَ قدْ
وانثنَى خُوطَ بانْ ذا مِهَزٍّ نَضْرِ ... عابثَتْهُ يدانْ للصَّبَا والقَطْرِ[٣٦]
ليس لى منك بُدْ ... خُذْ فؤادى عن يدْ
لم تدعْ لى جَلَدْ ... غير أنى أجهَدْ
مكْرَعٌ من شُهُدْ ... واشتياقى يشْهَدْ

---

(٣٤) الأسد : أحد بروج السماء – المجرّة : مجموعة كبيرة من الأجرام السماوية ، ويسميها بعضهم « سكّة التّبّانة » ، وكنّاها العرب قديما : « أمّ النجوم » .
(٣٥) جمان : لؤلؤ – سافر : كاشف ، مشرق – متئد : متمهّل متأن .
(٣٦) خوط : غصن ناعم – البان : شجر تشبه به الحسان فى الطول واللين .

مـا لِبِنْتِ الـدنـانْ ولـذاكَ الثغـرِ 		أين مُحَيَّا الزمانْ من حُمَيَّا الخمْرِ (٣٧)
بـى هـوًى مُضْمَـرُ 		ليـتَ جُهـدِى وفقُـهُ
كلّمـا يظهـرُ 		ففـؤادى أُفْقُـهُ
ذلـك المنظـرُ 		لا يُـداوَى عشقُـهُ

بـأبـى كيـف كـانْ فلكِـىٌّ دُرِّى 		راقَ حتى استبانْ عُذْرُه وعـذْرِى (٣٨)
هـل إليـكَ سبيـلْ 		أو إلـى أنْ أيـأسـا
ذُبْـتُ إلا قليـلْ 		عبـرةً أو نَفَسـا
مـا عَسَـى أنْ أقـول 		سـاءَ ظنـى بِعَسَـى

وانقضى كـلُّ شـانْ وأنـا أستشـرِى 		خـالعًـا مـن عِنانْ جَـزَعِـى وصبـرى
مـا علَـى مَـنْ يَلُـومْ 		لـو تَنَـاهـى عَنِّـى
هـل سِـوى حُـبِّ ريـمْ 		دينُـه التَّجَنِّـى
أنـا فيـهِ أهيـم 		وهـو بـى يُغَنِّـى

قـد رأيتُـكْ عَيـانْ ليـس عليـك سـاتَـذْرى سـايطـولُ الـزمـانْ وستنسَـى ذِكْـرى

* * *

---

(٣٧) بنت الدنان : الخمر ، والدنان أوعيتها - الحُمَيّا : الشدّة والسوْرة .
(٣٨) درّى : نسبة إلى الدر فى حسنه وبهائه ، والدّرى أيضا الكوكب المتلألىء الضوء .

ومن موشّحاته :

دَمْـعٌ سَفُـوح وضُلُـوعٌ حِـرَار   مـاء ونـار   مـا اجتمعـا إلا لأمـر كبَـار(٣٩)

بئْـس لعَمْـرى مـا أراد العَـذُولْ
عُمْـرٌ قصيـرٌ وعنـاءٌ طـويـلْ
يـا زفـراتٌ نطقـتْ عـن غَلِيـلْ
ويـا دمـوعًـا قـد أصابـتْ مَسِيـلْ

امتنـع النـومُ وشَـطّ المَـزَارْ   ولاقـرارْ   طـرت ولكـن لـم أصـادفْ مطـار(٤٠)

يـا كعْبـةً حَجَّـتْ إليهـا القُلـوبْ
بيـن هـوى داعٍ وشـوقٍ مُجِيـبْ
دعـوة أوّاه إليهـا مُنِيـبْ
لبيـكَ لا ألـوى لقـولِ الـرقيـبْ

جُـدْ لـى بحـج عنـدهـا واعتمـارْ   ولااعتـذار   قلبـى هَـدِىٌّ ودمـوعـى جِمـارْ(٤١)

أهـلاً وإنْ عـرّضَ بـى للمنـونْ
بمـائسِ الأعطـافِ سـاجـى الجفـون
يـا قسـوةً يحسبهـا الصَّـبُّ ليـنْ
علّمتنـى كيـف تُسـاءُ الظُّنـون

---

(٣٩) سفوح : منصبّ - حِرار : جمع حرّى ، يقال : حرّت كبده أى يبست من حزن أو عطش .
(٤٠) شطّ : بَعُد .
(٤١) أوّاه : كثير الدعاء - منيب : تائب راجع إلى الله - لا ألوى لقوله بمعنى لا أنتظره ولا أقيم عليه - الهَدِىّ : ما يُهْدَى إلى الحَرم من النّعم - الجمار : جمع جَمرة ، وهى الحصاة الصغيرة .

مُذْ بانَ عن تلكَ الليالِي القِصارْ دمعي غزارْ كأنمَا بين جفوني غرارْ[٤٢]

حَكَّمْتُ مولًى جارَ في حُكْمِهِ

أكني به لا مُفْصِحًا باسمه

وأعجب لإنصافي على ظلمِهِ

واسألهُ عن وصْلي وعن صَرْمِه

ألوى بحظِّي عن هوًى واختيارْ طوعِ النفارْ وكلّ أنس بعده بالخيار[٤٣]

لابُدَّ لي منه على كلِّ حالْ

مولًى تجنَّى وجَفا واستطالْ

غادرني رَهْنَ أسًى واعتلالْ

ثم شدا بين الهوى والدَّلال :

ما والحبيب دموا صار مادر شنار بنفيس رامش كف دموعار[٤٤]

* * *

(٤٢) مائس : متبختر مختال - الأعطاف : جمع عطف ، وهو من الإنسان جانبه - ساجي : فاتر ساكن - الغرار : القليل من النوم .

(٤٣) صرمه : هجره وقطيعته - ألوى بحظّه : ذهب به - النفار : الجران والمخاصمة .

(٤٤) ؛ كذا جاءت الخرجة في ديوان التطيلي ، وهي بالأعجمية أي بلغة الرومانث - انظر : د . محمد زكريا عناني ، الموشحات الأندلسية ، سلسلة عالم المعرفة ، ط الكويت ، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م ، ص ٢٣٧

ومن موشّحاته أيضا :

وليلٍ طَرَقْنا دَيْرَ خَمَّارِ   فمِن بين حُرَّاس وسُمَّارِ

فأتتْ لنا الخمرُ بتَعْجيلِ
وقامتْ بترْحيبٍ وتَبْجيل
وقد أقْسَمَتْ بما فى الإنْجيل

ما لبستها ثوبًا سِوى القار   وما عُرِضَتْ يومًا عَلى النَّار

فقلتُ لها يا أمْلَحَ الناس
فما عِندكم فى الشُّرب بالكاس
قالتْ ما عَلَيْنا فيه مِن بَاس

كُنَّا رَوَيْناه فى الأخْبار   عن جُمْلَة رُهْبان وأحْبار

أُقِرّ لكُم يا قومُ لا أجْحَد
أنّى مُسْتَهام فى هَوَى أحْمد
له مُقَلٌ تقتُلُنى بالصَّدّ

كتمتُ الهَوَى سِرًّا بمِضْمار   لكِن أدْمُعى باحتْ بأسْرار

باحتْ أدْمُعُ العُشَّاق بالعِشْق
فيمن وَجْهُه كالبَدْر فى الأُفْق
له مُقَلٌ تَفْتِكُ فى الخَلْق

فكـــمْ قَتَلَـــتْ مِـــن أَسَـــد ضَـــار	ومـــا لِقَتِيـــل الحـــبِّ مـــن ثـــار

وربَّ فتـــاةٍ فتنـــت فيـــه
تُعَلِّلـــه بـــالصَّـــدِّ والتِّيـــه
فقـــد أَنْشـــدت وهـــى تُغَنِّيـــه

أمـــان أمـــان يـــا مليـــح غـــار	بـــرقـــى نـــو قـــرش يـــا الله متـــار

* * *

ابن القـــارح

(٣٥١ - بعد ٤٢١ هـ / ٩٦٢ - بعد ١٠٣٠ م)

أبو الحسن على بن منصور بن طالب ، يلقّب بـ « دَوْخَلة » ، أديب شاعر عالـم من أهل حلب ، لازم أبا على الفارسى وخدمه وقرأ عليه جميع كتبه ، واشتغل بتدريس الأدب ، وتنقّل ما بين بغداد والموصل والقاهرة ، حيث كان مؤدّبا لولدى الحسين بن جوهر الصقلّى ، واتّصل بأبى القاسم المغربى ومدحه ، ثم تنكّر له فى محنته ، وله فيه هجو كثير.

وشعره ضئيل الشأن ، وأهمّ أعماله رسالته التى كتبها إلى أبى العلاء المعرّى ، وأجابه هذا عليها برسالة الغفران التى يرجّح أنه أملاها سنة ٤٢١ تقريبًا .

* * * * *

من " رسالة ابن القارح " :

[افتتاح الرسالة] .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

استفتاحًا باسمِه ، واستنجاحًا ببَرَكتِه . والحمدُ لله المبتدِئ بالنعم المنفردِ بالقِدَم ، الذى جَلَّ عن شَبَه المخلوقين ، وصِفاتِ المحدَثين ؛ ولىِّ الحَسَنات ، المُبَرّإِ من السّيئات ؛ العادلِ فى أفعالِه ، الصادقِ فى أقوالِه ؛ خالقِ الخلْقِ ومُبديه ، ومُبقيه ما شاءَ ومُفنيه . وصَلَواتُه على محمَّد وأبرارِ عِترتِه وأَهلِيه، صلاةً تُرضيه، وتُقَرِّبه وتُدْنيه، وتُزْلِفُه وتُحْظيه:(١)

كِتابى - أطال اللهُ بقاءَ مولاى الشيخ الجليل ، ومَدّ مُدّتَه ، وأدام كِفايتَه وسعادتَه ، وجعلنى فداءَه ، وقدَّمنى قبلَه على الصِّحةِ والحقيقة ، وبعد القَصدِ والعقيدة ، وليس على مَجازِ اللفظِ ومجرى الكتابة،ولا على تَنقُّص وخِلابة، وتحبُّب ومسامحة ، ولا كما قال بعضُهم وقد عاد صديقًا له: «كيف تَجدُكَ جعَلنى اللهُ فداك» وهو يقْصِدُ تَحبُّبًا ، ويُريدُ تملُّقًا ، ويَظنُّ أنه قد أسدى جَميلًا يَشْكُرُه صاحبُه إن نَهضَ واسْتَقَلَّ،ويُكافِئُه عليه إن أفَاقَ وأَبَلَّ (٢)-

(١) العترة : النسل والرهط والعشيرة - تزلفه تقربه .
(٢) استقلّ : نهض - أبلّ : شُفى وبرأ .

عن سلامةِ تَمامُها بحضورِ حَضْرته ، وعافيةِ نظامُها بالتشرُّفِ بشريفِ عِزَّته ، ومَيْمون نَقيبته وطلعتِه . ويَعلمُ اللهُ الكريمُ - تقدَّسَتْ أسماؤُه - أنّي لو حَنَنْتُ إليه - أدام اللهُ تأييدَه - حنينَ الوالِه إلى بِكْرِها ، أو ذاتِ الفَرْخ إلى وكْرِها ، أو الحمامةِ إلى إلْفِها ، أو الغزالةِ إلى خِشْفِها[1] ، لكان ذلك مما تُغيِّره الليالي والأيامُ ، والعصورُ والأعوام ؛ لكنَّه حنينُ الظمآن إلى الماءِ ، والخائفِ إلى الأمْنِ ، والسليم[2] إلى السَّلامة ، والغريقِ إلى النَّجاة والقَلِقِ إلى السكون ؛ بل حنينُ نَفْسِه النفيسةِ إلى الحمْدِ والمجْدِ ، فإني رأيتُ نِزاعَها إليهما نِزاعَ الاسْتُقُصَّاتِ إلى عناصرِها ، والأركانِ[3] إلى جواهرِها . فإن وَهَبَ الله لي مَلاءَ[4] من العمر يُونِسُني برؤيتِه ، ويُعْلِقُني بحبْلِ مَوَدّتِه ، صِرتُ كسارى الليلِ ألقى عصاه ، وأُحْمِدَ مَسْراه ، وقرَّ عَيْنًا ونَعِمَ بالاً ، وكان كَمنْ لم يَمسَسْهُ سوءٌ ، ولم يَتَخَوَّنْه[5] عَدُوٌّ ، ولا نهكَهُ رَواحٌ ولا غُدُوّ . وعسى اللهُ أن يَمُنَّ بذلك ، بيومِه أو بثانيه ، وبه الثِّقَةُ .

وأنا أسأَلُ الله على التَّداني والنَّوى والبعاد ، إمْتاعَه بالفضلِ الذى اسْتَعْلى على عاتِقِه وغاربِه ، واستولى على مَشارِقه ومَغاربه ، فَمنْ مرَّ على بَحْرِه الهَيَّاج . ونَظَرَ في لألاءِ بَدْرِه الوَهَّاج ، خليقٌ بأن يَكْبُوَ قلمُه بأنامِلِه ، ويَنْبُوَ طبْعُه عن رسائِله ، إلاّ أنْ يُلقِيَ إليه بالمقاليد ، أو يَسْتَوهِبَه إقْليدًا[6] من الأقاليد ، فيكونَ منسوباً إليه ، ومحسوباً عليه ، ونازلاً في شِعْبِه ، وأحَدَ أصحابِه وحِزْبِه وشرارةَ نارِه ، وقُراضَةَ ديناره ، وسَمَكَ بحره ، وثَمَد[7] غَمْرِه . وهيهات ! ضاق فِتْرٌ عن مَسير ، ليس التَكَحُّلُ في العينين كالكَحَل ، خُلقوا أسخياءَ لا متساخين وليس السخيُّ منْ يتساخى ، لاسيما وأخلاقُ النَّفسِ تَلْزَمُها لزومَ الألوانِ للأبدان، لا يَقْدِرُ الأبيضُ على السَّوادِ ، ولا الأسودُ على البياضِ ، ولا الشُّجاعُ على الجُبنِ ، ولا الجبانُ على الشَّجاعةِ ، قال « أبو بكر العرزمي » : [8]

---

(1) الخشف : ولد الظبي أوّل ما يولد .

(2) السليم : الملدوغ .

(3) الاستقصّات : العناصر - الأركان : الأجسام البسيطة التي تتكون منها المواد ، وكانت عند الأقدمين أربعة : النار والهواء والماء والتراب .

(4) ملاء : سعة وامتداد .

(5) يتخوّنه : يتنقّصه .

(6) الإقليد : المفتاح .

(7) الثمد : الماء القليل - الغمر : الماء الكثير .

(8) العرزميّ هو محمد بن عبيد الله ، أدرك أول الدولة العباسية ، ومعظم شعره آداب وأمثال .

يَفِـرُّ جبـانُ القـومِ عـن أُمِّ رأسِـهِ ويحمى شجاعُ القوم مَنْ لايناسبُـهْ
ويُـرزَقُ مَعْـروفَ الجـواد عَـدُوُّه ويُحـرَمُ معـروفَ البخيـلِ أقـاربُـهْ
ومَـنْ لايَكُـفُّ الجهْـلَ عَمَّـن يَـوَدُّه فسـوف يَكُـفُّ الجهـلَ عَمَّـنْ يُـواثِبُـه

ومِنْ أين للضبابِ صوبُ السحاب، وللغُرابِ هُوِيُّ العُقَاب !! وكيف وقد أصبح ذِكرُه في مواسِمِ الذكرِ أَذَاناً، وعلى مَعالِمِ الشُّكْرِ لسانًا ؟ فَمَنْ دَافَعَ العِيانَ، وكابرَ الإنْس والجان، واستَبَدَّ بالإفْكِ والبُهتان، كـان كَمَنْ صالَبَ بوقاحتِه الحجَر، وحَاسَنَ بقباحتِه القمَرَ، وهذَى وهذَر، وتعاطى فعقَر، وكـان كمحموم بُلِسِم فعفر [1]، ونادى على نفسه بـالنقصِ فى البدوِ والحضَر، وكان كما قال مَنْ يَعنيه ولايشك فيه :

كنـاطـحٍ صخـرةً يـومًـا لِيَفْلقَهـا فلـم يَضِرْهـا وأَوْهَـى قَـرنَـه الـوعِـلُ

ورُوِى أن رسولَ الله ﷺ - وزاده شرفًا لدَيه - قال : « لَعَنَ اللهُ ذا اللسانيـن ، لعنَ اللهُ كلَّ شقَّارٍ، لعنَ اللهُ كلَّ قتَّات » [2] .

* * *

(١) تعاطى الرجل : قام على أطراف أصابع الرجلين مع رفع اليدين إلى الشىء ليأخذه - بلسم : أصيب بالبلسام وهو ضرب من الحمَّى - عفر : تمرّغ فى التراب .
(٢) شقّار : كذّاب - القتّات : الذى يتسمّع كلام الناس من حيث لايعلمون ، سواء أنمّها أم لم ينمّها .

طِيَرة ابن الرومى :

« علىُّ بنُ العباس بنِ جُرَيج الـرومىّ » قال « أبو عثمانَ الناجمُ » : [1] « دخلتُ عليه فى علَّتِه التى مات فيها ، وعِندَ رأسِه جامٌ [2] فيه ماءٌ مَثلوجٌ وخِنجرٌ مُجَرَّدٌ لو ضُرِب به صَدْرٌ خرجَ من ظهْـر ، فقلتُ : ما هذا ؟ قـال : الماءُ أبلُّ به حَلْقـى فقلما يموتُ إنسانٌ إلا وهـو عطشانُ . والخِنجُر ، إن زاد علىّ الألمُ نَحَرْتُ به نَفسى . ثم قال : أقُصُّ عليك قِصَّتـى تَستَدِلُّ بِها على حقيقةِ تَلَفِى : أَرَدْتُ الانتقالَ من الكَرْخِ إلى بابِ البَصْـرَةِ ، فشاوَرْتُ صَديقَنا أبا الفضْلِ وهو مُشتَقٌّ مـن الإفضالِ ، فقال : إذا جِئـتَ القنطرة فخُذْ على يمينِـك - وهو مُشتَقٌّ مـن اليُمْن - واذهبْ إلى سِكَّةِ النعيمة - وهو مُشْتَق من النعيم - فاسكنْ دارَابنِ المُعَافَى - وهو مشتق من العافية - فخالفتُه لِتَعْسى ونَحْسى . فشاوَرْتُ صديقَنا جعفرًا - وهو مشتق من الجوع والفرار - فقال إذا جئتَ القنطـرَةَ فخذْ على شمالِك - وهـو مشتق من الشؤم - واسكن دارَابـن قِلَابة . وهى هذه لا جَـرَمَ ، قد انقلبت بى الدنيا ! وأَضَـرُّ ما علىّ ، العصافيرُ فى هـذه السِّدْرةِ تصيحُ : سِيقْ سِيقْ : فها أنا فى السياق ! ثم أنشَدَ :

أَبـا عثمـان ، أنـت قـريـعُ قـومِـكْ وجُـودُك للعشيـرةِ دونَ لَـوْمِـكْ [3]
تمتَّـعْ مـن أخيـك فمـا أُراه يـراكَ ولا تـراه بعـدَ يَـوْمِـكْ

وألَحَّ به البولُ فقلتُ له : البولُ مُلِحٌّ بِكَ ؛ فقال :

غَـدا ينقطـعُ البـولُ ويـأتـى الـويـلُ والعَـوْلُ [4]
ألا إنْ لِـقـاءَ اللـهِ هـولٌ دونَـه الـهـولُ

وماتَ من الغدِ » .

---

(١) ابن الرومى : الشاعر العباسى المشهور ، ت سنة ٢٨٤ هـ تقريبا - الناجم : سعد بن الحسن بن شداد : أديب شاعر ، كان بينه وبين ابن الرومى صحبة ومودّة ومخاطبات .

(٢) الجام : الكأس .

(٣) قريع قومك : سيدهم .

(٤) العول : رفع الصوت بالبكاء والصياح .

فأرجو أن يكـونَ هذا القولُ توبةً لـه مما كان اعتقَدَه مـن ذبْحِه نَفْسَه (٥) ، والرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ يقـول : « مَنْ وَجَأَ (٦) نفسَه بحديدةٍ حُشِـرَ يومَ القيامة وحديدتـهُ بيدِه يَجَأُ بها نفسَه خالِدًا مخلَّـدًا فى النار ؛ مَن تردَّى من شاهـق حُشِرَ يومَ القيامة يتردَّى علـى مِنْخربه فى النارِ خـالِدًا مخلَّـدًا ، من تحسَّى (٧) سُمًّا حُشِرَ يومَ القيامةِ وسُمُّهُ بيده يتحسَّاه خالدًا مُخَلَّدًا فى النار » .

* * *

(٥) يشير إلى قول ابن الرومى لأبى عثمان : « والخنجر، إن زاد على الألم نحرت به نفسى » .
(٦) وجأه بالسكين أى ضربه فى أى موضع كان .
(٧) تحساه : شربه شيئًا بعد شىء .

فى عَشْر الثمانين :

كنتُ فى حال الحداثةِ ، أقربُ الناسِ إلىَّ ، وأعزهم علىَّ ، وأقربُهم عندى ، وأجلُّهم فى نفسى مرتبةً ، مَنْ قال لى : « نسأ[1] الله فى أجَلِكَ ، جعلَ الله لكَ أمَدَّ الأعمار وأطولها » . فلما بلغتُ عشْرَ الثمانينَ جاءَ الجزعُ والهلعُ . فمِمَّ أرتاع وألتاعُ ، وأخلدُ إلى الأطماع ، وهو الذى كنت أتمنَّى ويتمنى لى أهلى ؟ أمِنْ صُدوفِ الغوانى عنى ؟ فأنا واللهِ عنهنَّ أصدف ، وبهنَّ وأدوائِهنَّ أعرَفُ ، إذ لست ممَّن ينشد تحسُّرًا عليهن :

للسودِ فى السودِ آثارٌ تركنَ بها ... لُمعًا من البيض تَثنى أعينَ البيضِ (٢)

وقولَ الآخر :

ولما رأيتُ النسرَ عَزَّ ابنَ دايةٍ ... وعشَّش فى وكريه ، جاشت له نفسى (٣)

ولأنشد لأبى عبادَة البحترى : (٤)

إن أيامَه من البيض بيضٌ ... ما رأين المفارقَ السودَ سودا
وإذا المحْلُ ثارَ ، ثاروا غيوثًا ... وإذا النقعُ ثار ، ثاروا أسودا
يحسن الذكرُ عنهمْ والأحاديـ ... ـثُ إذا حدَّثَ الحديدُ الحديدا
بلدةٌ تُنبت المعالى فما يثَّغـ ... ـرُ الطفلُ فيهمُ أو يسودا (٥)

وهذه صفةُ « مَعرَّةِ النعمانِ » (٦) به – أدام الله تأييده – لا خَلَتْ منه ومن النعمةِ عليه وعنده ، فقد وجدتُ أهلَها معترفين بعوارفهِ (٧) ، خلا « أبى العباس أحمد بنِ خلف المُمَتَّع » – أدام الله عزّه – فإنى وجدتُ آثارَ تفضُّلِه عليه ظاهرةً ، ولسانَه رطباً بشكره وذِكْرِه ، قد ملأ السماءَ دعاءً ، والأرض ثناء .

---

(١) نسأ : أطال وأجّل .
(٢) السود الأولى : هى الأعين السود ، والثانية : الشَّعر – البيض الأولى : الشيب ، والثانية : الغوانى .
(٣) ابن داية : الغراب .
(٤) البحترى : الوليد بن عبيد : الشاعر العباسى المشهور، توفى سنة ٢٨٤ هـ
(٥) المحْل : الجدْب – النقع : غبار المعارك – حدّث الحديد الحديدا : يعنى به ضراب السيوف وقراع الرماح – يثغر: ينبت ثغره .
(٦) معرّة النعمان : بلدة أبى العلاء المعرّى .
(٧) عوارف : جمع عارفة وهى الإحسان والعطية .

من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم :

قالت قريش للنبى عليه الصلاةُ والسلامُ : أَتبـاعُكَ مِنْ هـؤلاء الموالى ، كبِـلالٍ وعَمّارٍ وصُهَيب ، خيـرٌ من قُصىّ بن كـلاب ، وعبدِ مناف وهـاشم وعبدِ شمس ؟ فقـال : « نعم . واللهِ لئن كانوا قليـلًا ليكثُرُنَّ ، ولئن كانوا وُضَعاءَ ليَشْـرُفُنَّ حتى يصيروا نجومًا يُهتَـدى بهم ويُقتَدى ، فيقال : هـذا قولُ فلان وذِكرُ فـلان . فلا تُفاخـرونى بآبائكـم الذين مُـوِّتوا فى الجاهليـة ، فَلَمَا يُدَهْدِهُ الجُعَلُ (٨) بِمنْخرِهِ خيرٌ من آبائكم الذين مُوِّتـوا فيها . فاتَّبعونى أَجْعلْكم أَنسابًا ، والذى نفسى بيدِه ، لتَقْتَسِمُنَّ كُنوزَ كسرى وقيصر » .

فقال لـه عمُّه « أبو طـالب » : «أبقِ علـىّ وعلى نفسِك » فظـنَّ عليه الصلاةُ والسـلامُ أنه خاذلُه ومُسْلِمُـهُ ، فقال « يا عمِّ ، واللهِ لو وضعوا الشمـسَ فى يمينى والقمرَ فى شمـالى على أَن أَتركَ هذا الأمرَ حتى يُظْهِرَه الله أو أَهْلِكَ فيه ما تركتُه » .ثم استعبر باكيًا ، ثم قام. فلما ولَّى ناداه : « أقبل يا ابـن أخى » . فأقبلَ . فقال : « اذهـبْ وقلْ ما شئتَ ، فواللهِ لاأُسلمتُـك لسوءٍ أبدًا » .
فكان عليه الصلاة والسلامُ يذكرُ يوماً ما لقى من قومه من الجهْدِ والشدةِ ، قال :

« لقـد مـكَثْتُ أيامـًا وصـاحبى هذا - يشـيرإلى أَبـى بـكر - بضعَ عشرةَ ليلةً ما لنا طعامٌ إلاالبرير(٩) فى شُعَب الجبال » .

وكان « عُتبة بنُ غـزوان » يقول إذا ذكر البلاءَ والشدةَ التى كانوا عليهـا بمكة : « لقد مكثنا زمانـًا ما لنا طعـامٌ إلا ورق البَشام(١٠) أكلناه حتـى تقرَّحتْ أَشـداقُنا ، ولقـد وجدتُ يومًـا تمرةً فجعلتُها بَيْنى وبيـن « سعد »(١١) وما مِنَّا اليـومَ أَحدٌ إلا وهو أميرٌ علـى كُورة » . وكانوا يقـولون فيمن وجد تمـرةً فقسّمها بينه وبين صاحبه : إن أسعـدَ الرجلين من حَصلَت النـواةُ فى قِسمه ، يلوكُها يومَه وليلته ، من عَدَمِ القُوت .

---

(٨) يدهده : يدحرج - الجعل : ضرب من الخنافس .

(٩) البرير : ثمر الأرك ، وقيل هو أول ما يظهر من ثمره .

(١٠) البشام : جمع البشامة وهى شجرة طيبة الريح والطعم يستاك بها ، إذا قطع ورقها أو غصنها سـال منها لبـن أبيض .

(١١) هو سعد بن أبى وقاص من السابقين الأولين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنّة .

وكذا قال رسولُ اللهِ ﷺ : « لقد رعَيْتُ غُنيماتِ أَهل مكَّةَ لهم بالقراريط » .

وابتداءُ أمره أنه وقف على الصَّفا ونادى : يا صباحاه ، يا صباحاه ! ؛

فجاءُوا يهرعون فقالوا : ما دهَمكَ ؟ ما طرَقَك ؟

قال : بم تعرفونني ؟ قالوا : محمد الأمين .

قال : « أرأيتم إن قلتُ لكم إن خَيْلًا قد طرَقَتْكم في الوادي ، وإن عَسْكَراً قد غَشِيَكُم من الفجّ ، أكنتم تُصدقوني ؟ » قالوا : اللهمَّ نعم ، ما جَرَّبْنا عليكَ كذِباً قط .

قال : فَإن الذي أَنتم عليه ، ليس لله ولا من اللهِ ولا يرضاه الله ، قولوا : لا إلهَ إلَّا الله ، واشهدوا أنى رسولُه ، واتبعوني تُطِعْكُم العَربُ وتملكوا العجمَ ، وإن الله قال لى : استَخرِجْهم كما استخرجوك ، وابعثْ جيشًا أَبعثْ خمسةَ أَمثالِه ؛ وضمن لى أنه ينصرُني بقوم منكم ، وقال لى : قاتِلْ بمن أَطاعَكَ مَنْ عصاكَ . وضمن لى أنه يغلب سلطاني سلطانَ كسرَى وقيصر » .

ثم إنه عليه الصلاةُ والسلامُ غزا « تبُوكَ » (١٢) في ثلاثين أَلفاً ، وهذا من قِبَل اللهِ الذي يجعلُ من لا شيءَ كلَّ شيءٍ ، ويجعَلُ كلَّ شيءٍ لا شيءَ ، يُجمِّدُ المائعاتِ ، ويُميعِ الجامداتِ ، يُجَمِّدُ البحر ثم يفجرُ الصخر .

وما مثلُه في ذلك إلَّا كمثل من قال : هذه الزجاجةُ الرقيقةُ السخيفةُ ، أَحكُّ بها هذه الجبالَ الصَّلدةَ الصُّلْبَةَ المنيفة ، فَتَرضُّها وتَفُضُّها ؛ وهذه النملة الضعيفةُ اللطيفة ، تَهزِمُ العساكِرَ الكثيرةَ المُعَدَّةَ !

وكذا حقيقة أَمره عليه الصلاةُ والسلامُ ، حتى لقد قال « عُرْوَةُ بنُ مسعود الثَّقَفيُّ » لقريش ، وكان رسولَهم إليه ﷺ بالحُدَيْبِيةِ (١٣) « لقد وردْتُ على النجاشي وكسرى وقيصر ورأيتُ جُندَهم وأَتبَاعَهم ، فما رأيتُ أَطوع ولا أَوقَرَ ولا أَهيبَ من أَصحابِ محمدٍ لمحمدِهم ، هم حولَه وكأَن الطيرَ على رءُوسهم ، فإن أَشار بأَمْرٍ بادروا إليه . . . » .

---

(١٢) كانت سنة تسع ، وهي آخر غزواته - ﷺ - وتبوك : موضع بين وادى القرى والشام .

(١٣) الحديبية : قرية من قرى الحجاز ، عقد فيها الصلح المشهور سنة ست ، بين النبي - ﷺ - وقريش .

وكانوا له بعدَ موتِه أَطْوَعَ منهم في حياتِه ، حتى لقد قال بعضُ أَصحابِه :

« لا تَسُبُّوا أَصحابَ محمدٍ فإنهم أسلموا من خوفِ اللهِ ، وأَسْلَمَ الناسُ من خوفِ أسيافهم » .

فتأمَّلْ ، كيف استفْتَحَ دعوتَه - وهو ضعيفٌ وحدَه - بأن هذا سيكونُ ، فرآه العدوُّ والوليُّ . وما كان مثلُه في ذلك إلَّا مثلَ مَنْ قال : « هذه الهباءَةُ تعظُمُ وتصير جَبَلا يُغَطِّى الأرض كلَّها » ثم أنذر الناس بها في حالِ ضعفِها !

وجاءَ ﷺ يومًا ليدخلَ الكعبةَ ، فدفَعَه « عثمانُ بنُ طَلحَةَ العبْدَرِىَّ » فقال :

« لا تَفعلْ يا عثمانُ ، فكأَنَّكَ بمفتاحِها بيدى أَضَعُه حيث شئتُ » .

فقال :

« لقد ذَلَّتْ يومئذ قريشٌ وقَلَّتْ » . قال : « بل كثرتْ وعزَّتْ » .

* * *

وأَنا أَستعينُ بعصْمةِ اللهِ وتوفيقِه ، وأَجعلُهما مُعِينَىَّ على دفْعِ شهَواتِى ، وأَشكو إليه عُكُوفى على الأَمانى ، وأَسأَلُه فَهماً لمواعِظِ عِبَرِ الدنيا ، فقد عَمِيتُ عن كُلُومِ غيرِها ، بما جَثَمَ على خواطرى من الشعَفِ (١٤) . ولستُ أَجد مُنصفًا لى منها ، ولا حاجزًا لرَغبتى فيها عنها ؛ وأَين ودائعُ العقولِ وخزائن الأَفهام يا أُولى الأَبصار ؟ صَفَحْنا عن مساوىء الدنيا إغماضًا لعاجلِ مُونقِ التنغيص ، وتُومِىءُ إليه يدُ الزوالِ ، وتكمُنُ له الآفاتُ . قال « كُثَيِّر » :

كأَنى أُنادى صخرةً حين أعرضَتْ   من الصمِّ لو يمشى بها العُصْمُ زلَّتِ

* * *

(١٤) جثم : لزم مكانه فلم يبرح - الشعف : الحب والانشغال .

أبو العلاء المعرّى

من " رسالة الغفران "

[نزهة فى الفردوس ، شعراء الجنّة وبم غُفر لهم ؟] .

[الأعشى] .

. . . ثمّ إنه - أدامَ اللهُ تمكِينَه - يَخْطرُله حديثُ شىءٍ ، كان يُسمَّى النزهةَ فى الدارِ الفانية، فيَرْكَبُ نَجيبًا من نُجُبِ الجنّة خُلِق من ياقُوتٍ ودُرٍّ، فى سَجْسَجٍ بَعُدَ عن الحَرِّ والقَرِّ، ومعه إناءُ فَيْهَج (١) ، فيَسيرُ فى الجنّة على غيرِ مَنْهج ، ومعهُ شىءٌ من طعَامِ الخُلود ، ذُخِرَ لِوالد سَعِدَ أوْ مَوْلودٍ ، فإذا رأى نَجيبَهُ يُمْلِعُ بيْنَ كُثْبَان العَنْبَر ، وضَيْمُرانٍ وُصِلَ بِصَعْبَر (٢) ، رَفَعَ صَوْتَهُ مُتَمَثّلًا بِقَوْلِ « البَكْرِىّ » : (٣)

لَيتَ شِعرى متى تَخُبُّ بنا النا … قَةُ نَحْوَ « العُذَيْبِ فالصَّيُّونِ »
مُحْقِبًا زُكْرَةً ، وخُبْزَ رُقاقٍ … وحِباقًا ، وَقِطعَةً مِنْ نُونِ (٤)

يعنى بالحِباقِ جُرْزَةً (٥) البَقل . فيهتِفُ هاتفٌ : أتَشْعُرُ أيها العَبدُ المغفُورُ لهُ لمنْ هذا الشّعرُ؟ فيقول الشيخُ : نعمْ ، حدّثنا أهلُ ثِقَتِنا عن أهلِ ثِقَتِهِمْ ، يَتَوارَثُونَ ذلك كابِرًا عن كابِرٍ، حتى يَصِلُوهُ « بأبى عَمْرِو بن العَلاءِ (٦) » ، فَيَرْوِيَهِ لهم عن أشْيَاخِ العَرَبِ ، حَرَشَةِ الضِّبَابِ فى البِلادِ الكلدَت ، وجُنَاةِ الكَمْأَةِ فى مغانى البُدَاة ، الذين لم يأكُلوا شِيراز الألبان ، ولم يجعلوا

---

* سبقت ترجمته فيما ورد من مختاراته الشعرية .

(١) سجسج : لا حرّ فيه ولا برد - القرّ : البرد - الفيهج : الخمر الصافية أو مكيالها .

(٢) يُملع : يسرع ويخفّ ، والمليع : الناقة أو الفرس السريع - الضيمران : ضرب من الشجر، من ريحان البرّ - الصّعْبر : شجر كالسدر .

(٣) البكرى : هو الأعشى ميمون بن قيس بن جندل ، أبو بصير ، من شعراء الطبقة الأولى فى الجاهلية ، أدرك الإسلام ورحل إلى النبىّ ﷺ ، فردّته قريش .

(٤) العذيب والصيون : مكانان - أحقب : علق الشىء فى وسطه أو أردفه - الزكرة : وعاء من جلد للخمر ونحوه - الحباق : نبات طيّب الرائحة - النون : الحوت .

(٥) الجرزة : الحزمة .

(٦) أبو عمرو بن العلاء ، من أعلام القراءة واللغة ، توفى نحو سنة ١٥٤ هـ .

الشمرَ فى الثِّبان (٧) ، أنّ هذا الشِّعرَ « لِمَيمُونِ بنِ قيسِ بنِ جندَلٍ أخى بنى ربيعةَ بنِ ضُبَيْعَةَ بنِ قيسِ بنِ ثعْلَبَةَ بنِ عُكابةَ بنِ صَعبِ بنِ عليِّ بنِ بكرِبنِ وائِلٍ » . فيقولُ الهَاتفُ : أنا ذَلكَ الرَّجلُ ، مَنَّ اللهُ عليَّ بعْدَ ما صِرْتُ من جهنَّمَ على شَفِير ، ويَئِستُ من المَغْفِرَةِ والتَّكْفِير . فَيلتَفِتُ إليه الشيخُ هَشًّا بَشًّا مُرْتاحًا ، فإذا هو بِشابٍ غُرانِق ، غَبرَ فى النَّعيم المُفَانِق (٨) ، وقد صارَعَشَاهُ حَوَرًا معروفا ، وانحناءُ ظَهرِهِ قوامًا موصوفا ، فيقولُ : أخبرنى كيف كانَ خلاصُك منَ النار ، وَسلامتُكَ من قبيحِ الشنار ؟ فيقول : سَحبَتْنى الزبانيةُ إلى سَقَر ، فرأيتُ رَجلًا فى عَرَصاتِ القِيَامةِ يتلألأ وَجهُهُ تلألُؤَ القَمَر ، والنَّاسُ يَهتِفونَ به من كلِّ أوْبٍ : يا مُحَمَّدُ يا مُحَمدُ ، الشَّفاعةَ الشَّفَاعة ! ! نَمُتُّ بِكَذا ونمُتُّ بِكذا . فصَرَختُ فى أَيْدِى الزبانِيَة : يا مُحمدُ أغِثْنى فإن لى بِكَ حُرْمةً ! فقال : يا علِيُّ بادِرْهُ فانْظُرْ ما حُرْمَتُه ؟ فجاءَنى « عليُّ بنُ أبى طالبٍ » - صلواتُ الله عليه - وأنا أُعْتَلُ (٩) كَىْ أُلقَى فى الدرَكِ الأسْفلِ من النَّار ؛ فزَجرَهُم عنى ، وقال : ما حُرْمَتُك ؟ فَقُلتُ : أنا القائل :

ألا أيُّهذا السائلى أينَ يَمَّمَتْ ... فإنَّ لها فى أهلِ يَثْربَ مَوْعِدا (١٠)
فآليْتُ لا أرثى لها من كَلالةٍ ... ولا مِنْ حَفًى ، حتى تُلاقِى « مُحمَّدا »
متى ما تُناخِى عند بَابِ « ابنِ هاشِمٍ » ... تُراحى ، وتَلْقَىْ من فواضِلِه نَدا (١١)
أجِدَّكَ لَمْ تَسمَعْ وَصاةَ « مُحمَّدٍ » ... نبىِّ الإلٰهِ حينَ أوْصَى وأشْهدا
إذا أنت لم تَرحَلْ بزادٍ منَ التُّقى ... وأبصَرْتَ بعدَ الموتِ مَنْ قد تَزوَّدا
نَدِمتَ على أن لاتكونَ كمِثْلِه ... وأنَّكَ لم تُرْصِدْ لِما كانَ أرصدَا
فإيَّاكَ والمَيْتاتِ لاتَقْرَبنَّها ! ... ولا تأخُذَنْ سهمًا حديدًا لِتقصدَا

(٧) حرشة : جمع حارش ، وهو صائد الضبّ ، والحرشة : الخديعة - الكلدات : جمع كلدة ، وهى الأرض الغليظة - الكمأة : نبات يوجد تحت الأرض ، مستديرة كالقلقاس لا ساق له ولا عرق ، لونه يميل إلى الغبرة - الشيراز : اللبن الرائب المقطوع - الثمر والأثمار : جمع الجمع لثمار ، الواحدة ثمرة - الثبان : واحد الثبن ، شىء كذيل القميص تعطفه وتثنيه فتجعل فيه ما شئت ، ومنه : تثبن الشىء أى جعله فى الثبان وحمله بين يديه .

(٨) الغرانق بمعنى الشاب الأبيض الجميل - عيش مفانق : ناعم .

(٩) عتلة عتلا : جذبه وجره عنيفًا ، يقال : عتله إلى السجن أى دفعه بعنف .

(١٠) الأبيات من داليته المشهورة التى أعدها لينشدها الرسول ﷺ ، فصدّته قريش ، ومطلعها :

ألم تغمض عيناك ليلة أرمدا ... وعادك ما عاد السليم المسهّدا

(١١) كلالة : تعب وضعف - الحفى : رقة الخفّ من كثرة المشى - أناخ الناقة : أبركها .

وَلَا تَقْرَبَنَّ جَارَةً إِنَّ سِرَّهَا ... عليكَ حَرَامٌ فانْكِحَنْ أوْ تأبَّدَا (١٢)

نَبِيٌّ يَرَى مَا لا يَرَوْنَ، وذِكْرُهُ ... أغارَ لَعَمْرِي فِى البِلَادِ وأَنجدَا

وهو - أكملَ اللهُ زينةَ المحافِلِ بحُضورِهِ - يَعْرِفُ الأقوالَ فى هذا البيتِ، وإنما أذكُرُها لأنه قد يجوزُ أن يقرأَ هذا الهَذَيانَ ناشِيءٌ لم يَبْلُغْهُ: حَكَى «الفَرّاءُ (١٣)» وحدَهُ (أغارَ) فى معنى غارَ، إذا أتى الغَوْرَ، وإذا صَحَّ هذا البيتُ «للأعشَى» فلم يُرِدْ بالإغارة إلّا ضِدَّ الإنجاد.

ورُوِى عن «الأصمَعِى» (١٤) روايتان: إحداهما، أنّ أغارَ فى معنى عدَا عدْوًا شَدِيدًا، وأنشدَ فى (كِتابِ الأجناسِ (١٥)):

فَعدِّ طِلابَها وتَسَلَّ عنها ... بناجِيَةٍ إذا زُجِرَتْ تُغِيرُ

والأُخرَى أنَّهُ كانَ يُقَدِّمُ ويؤَخِّرُ فيقول:

* لَعَمْرِى غارَ فى البِلَادِ وأَنجدَا *

فيجىءُ بِهِ على الزِّحاف. وكانَ «سعيدُ بن مَسْعدَةَ (١٦)» يقولُ:

* غارَ لعمرِى فى البَلادِ وأنجدَا *

فيَخرِمُهُ فى النصف الثانى.

ويقولُ: «الأعشَى»: قلتُ لِعلِىّ: وقد كنتُ أُومِنُ باللهِ وبالحساب وأُصَدِّقُ بالبعثِ وأنا فى الجاهليّةِ الجَهْلاء، فمن ذَلِكَ قَولى:

فما أَيْبُلِىٌّ على هَيكلٍ ... بنَاهُ وصَلَّبَ فيهِ وصارا

يُراوِحُ مِن صَلَواتِ المليكِ ... طَوْرًا سُجودًا وطَوْرًا جُؤارا

بِأعْظَمَ منكَ تُقًى فى الحِسابِ ... إذَا النَّسَمَاتُ نَفَضْنَ الغُبارا (١٧)

---

(١٢) أرصد: قدّم خيرا ليجده - أقصده: طعنه فلم يخطئه - تأبّد: توحش، والمراد: اعتزل الناس.
(١٣) الفرّاء: أبو زكريا يحيى بن زياد، من أئمة نحاة الكوفة، توفى سنة ٢٠٧ هـ.
(١٤) الأصمعىّ عبد الملك بن قريب: لغوى نحوى إخبارى، قدم بغداد أيام هارون الرشيد، فقرّبه وأدناه.
(١٥) كتاب «الأجناس» للأصمعى فى اللغة مرتب الأبواب على الأجناس، لا الحروف، مثل: باب النخل وباب الإبل، وهو يشبه كتاب «المخصص» لابن سيدة.
(١٦) سعيد بن مسعدة: الأخفش الأوسط، يعد أعلم من أخذ عن سيبويه ومن أكابر أئمة النحاة البصريين، مات فى صدر القرن الثالث.
(١٧) الأبيات من رائية الأعشى فى مدح قيس بن معد يكرب الكندى، ومطلعها:
أأزمعت من آل ليلى ابتكارا
الأيبلىّ: الراهب أو عصا الناقوس - صلّب: رسم الصليب - راوح بين العملين: اشتغل بهذا مرّة وبهذا مرّة أخرى - النسمات: جمع نَسَمة، وهى نفس الروح أو كل دابة فيها روح.

فذَهَبَ « عليٌّ » إلى النَّبِي - صلى الله عليهما وسلَّمَ - فقال : يا رَسُولَ اللهِ ، هذا « أعْشَى قَيْسٍ » قد رُوِيَ مَدْحُهُ فِيكَ ، وشَهِدَ أنَّكَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ . فَقَالَ : هَلَّا جاءَنِي في الدَّارِ السَّابقة ؟ فقال « عليٌّ » : قد جاءَ ، ولكِنْ صَدَّتهُ قُرَيْشٌ وحُبُّهُ للخمر ، فشفَعَ لي ؛ فأُدْخِلْتُ الجنَّةَ على أن لا أشْرَبَ فيها خَمرًا ؛ فقَرَّتْ عَيْنَايَ بذلك ، وإنَّ لي مَنَادِحَ في العَسَلِ وماءِ الحَيَوان . وكَذَلِكَ مَنْ لم يَتُبْ من الخمرِ في الدارِ الساخِرَة ، لَم يُسقَها في الآخِرَة . (١٨)

* * *

[زهير بن أبي سلمى] :

ويَنظُرُ الشَّيخُ في رِياضِ الجَنَّةِ فيَرَى قَصرَيْنِ مُنِيفَيْنِ ، فيقولُ في نفسِهِ : لأبْلُغَنَّ هَذَيْنِ القَصْرَيْنِ فأسأل لِمَنْ هما ؟ فإذا قَرُبَ إليهما رأى على أحدِهما مَكْتُوبًا : « هذا القَصرُ لِزُهَيرِ بن أبي سُلْمَى المُزَنِيِّ (١٩) » وعلى الآخَرِ : « هذا القَصرُ لِعَبِيدِ بنِ الأبْرَصِ الأسَدِيِّ (٢٠) » فَيَعْجَبُ من ذلك ويقول : هذانِ ماتا في الجاهليَّةِ ، ولكنَّ رَحْمَةَ رَبِّنا وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ ؛ وَسَوْفَ ألْتَمِسُ لِقاءَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْن فأسألهما بِمَ غُفِرَ لهما . فيبتدئُ « بزُهَيْرٍ » فَيَجِدُهُ شابًّا كالزَّهْرَةِ الجَنِيَّة ، قد وُهِبَ له قَصرٌ من وَنِيَّةٍ (٢١) ، كأنَّهُ ما لَبِسَ جِلْبابَ هَرَمٍ ، ولا تأفف من البَرَم . وكأنهُ لم يَقُلْ في (الميميَّة) :

سَئِمْتُ تَكالِيفَ الحياةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمانِينَ حَوْلًا - لَا أبا لَكَ - يسأمِ ! (٢٢)

ولم يَقُلْ في الأخرَى :

ألَمْ تَرني عُمِّرتُ تِسْعِينَ حِجَّةً وعَشْرًا تِباعًا عِشْتُها ، وثَمانِيا ؟

---

(١٨) منادح : جمع مندوحة ، وهي السعة والفسحة - وحادثة خروج الأعشى للقاء النبي ﷺ ، وتعرض المشركين له مبسوطة في كتب الأدب والسير ، مثل الشعر والشعراء ، والأغاني وغيرهما .

(١٩) زهير بن أبي سلمى : من فحول الشعراء الجاهليين ، وهو والد الشاعرين الصحابيين كعب وبجير .

(٢٠) عبيد بن الأبرص : شاعر جاهلي مشهور ، عمر طويلاً حتى قتله المنذر بن ماء السماء .

(٢١) الجني : الذي جنى لساعته - الونيّة : اللؤلؤة أو الدّرة .

(٢٢) جملة « لا أبالك » اعتراضية ، وتقال في مواضع التعجّب أو الحثّ أو الزجر .

فيقول : جَيْرِ جَيْرِ (٢٣) ! أنت أبو « كَعْب وَبُجَير (٢٤) » ؟ فيقولُ : نَعَمْ . فيقولُ - أدامَ اللهُ عِزّه - : بِمَ غُفِرَ لك وقد كنْتَ في زَمانِ الفَتْرَةِ والنّاسُ هَمَلٌ ، (٢٥) لا يحسُنُ منهم العَمَلُ ؟ فيقول : كانت نفسِي من الباطلِ نَفُورًا ، فَصادفت مَلِكاً غَفُورًا ، وكنْتُ مُؤمنًا باللهِ العظيم ، ورأيتُ فيما يرى النّائِمُ حبْلًا نَزَلَ من السّماءِ فمَنْ تَعلَّقَ به من سُكانِ الأرْضِ سَلِم ؛ فعَلِمتُ أنهُ أمْرٌ من أمرِ اللهِ ، فأوْصيْتُ بَنيَّ وقلْتُ لهم عندَ الموْتِ : إنْ قامَ قائمٌ يدعوكُمْ إلى عبادة الله فأطيعوهُ . ولو أدْركتُ « مُحمدًا » لكنتُ أوّلَ المؤمنينَ . وقلتُ في (الميمِيّةِ) ، والجاهليةُ على السّكِنَةِ والسّفَهُ ضاربٌ بالجِرَانِ : (٢٦)

فلاَ تكْتُمُنَّ اللهَ ما في نفُوسِكُمْ ... ليَخْفَى ، ومهْما يُكتَمِ اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ ، فيوضَعْ في كتابٍ ، فيُدَّخَرْ ... ليوْمِ الحسابِ ، أو يُعجَّلْ فَيُنْقَمِ

فيقول : ألستَ القائِل ؟

وقدْ أغْدو على ثُبَةٍ كرام ... نَشاوَى واجدِينَ لما نشاءُ
يَجرُّون البُرودَ وقد تَمشّتْ ... حُمَيَّا الكأسِ فيهم والغِناءُ (٢٧)

أَفأُطْلِقَتْ لك الخمرُ كغيرِكَ من أصحابِ الخلود ؟ أم حُرِّمتْ عليك مِثلما حُرِّمتْ على « أعْشى قَيْس » (٢٨) ؟ فيقول « زُهَيرٌ » : إن « أخا بكرٍ » أدْركَ « مُحمَّدًا » فوَجبَتْ عليه الحُجة ، لأنهُ بُعثَ بتحريمِ الخمر ، وحَظْرِ ما قُبِحَ من أمرٍ ؛ وهَلَكْتُ أنا والخمرُ كغيرِها من الأشياء ، يشْرَبُها أتباعُ الأنبياءِ ، فلا حُجة عليَّ .

فيدعوه الشّيخُ إلى المُنادمةِ ؛ فَيجِدُهُ من ظِرَافِ النُّدَماء ، فيسألُهُ عن أخبارِ القُدَماء .

---

(٢٣) جَيْرِ : حرف جواب بمعنى نَعَمْ .

(٢٤) كعب بن زهير بن أبي سلمى من الصحابة الشعراء ، وكان الرسول - ﷺ - قد توعّده ، قبل إسلامه ، حين أرسل ينهى أخاه بجيرًا عن الإسلام ، ثم جاء الرسول ملثمًا مع أبي بكر ، فبايعه وكشف اللثام فأمّنه واستنشده ، فأنشد قصيدته المشهورة : « بانت سعاد » ، فكساه النبيّ بردة اشتراها معاوية بعد ذلك بعشرين ألف درهم . وكان بجير شاعرا ، وقد أسلم قبل أخيه كعب ، وشهد مع الرسول فتح مكة .

(٢٥) الفترة : ما بين كل رسولين من رسل الله تعالى - هَمَل بمعنى متروكة بلا هداية .

(٢٦) على السكنة أي على أحوالهم التي كانوا عليها - ضارب بالجران أي ثبت واستقرّ ، والجران هو باطن العنق من البعير وغيره .

(٢٧) الثبة : الجماعة أو العصبة من الفرسان - الحميا : سورة الخمر وشدّتها .

(٢٨) يشير إلى قول الأعشى آنفًا : « فأدخلتُ الجنّة على ألا أشرب فيها خمرًا » .

ومع المنصِف باطِيَةٌ[٢٩] من الزُّمُرُّدِ ، فيها من الرَّحيقِ المختوم شىءٌ يُمزَجُ بزَنْجَبِيل ، والماءِ أُخِذَ من سلسبيل . فيقولُ - زادَ اللهُ فى أنفاسِه - : أين هذه الباطِيَةُ من التى ذكرها «السَّرَوِىُّ *» فى قوله :

ولنا باطيَة مملوءَةٌ جَوْنَةٌ ، يَتبَعُها بَرْذينُها
فإذا ما حارَدَتْ أو بَكَأَتْ فُتَّ عن خاتَمِ أُخرى طينُها ؟[٣٠]

* * *

[عبيد بن الأبرص] :

ثم ينصَرفُ إلى «عَبِيد» فإذا هو قد أُعطىَ بقاءَ التأبيدِ[٣١] ، فيقولُ : السلامُ عليك يا «أخا بنى أَسَد» . فيقول : وعليك السلام - وأهلُ الجنَّةِ أذكياءٌ ، لا يُخالطُهُمْ الأغبياءُ - لعلّكَ تريد أن تسألَنى بِمَ غُفِرَلى ؟ فيقولُ : أَجَلْ ، وإنّ فى ذلك لعَجَبًا ! أَأَلْفَيْتَ حُكمًا للمغفرةِ مُوجِبًا ، ولم يكن عن الرحمةِ مُحجبًا ؟

فيقول «عبيدٌ» : أُخبِرُكَ أنّى دخلتُ الهاويةَ ، وكنتُ قلتُ فى أيامِ الحياة :

مَنْ يسألِ النَّاسَ يَحْرِموهُ وَسائلُ اللهِ لا يَخيبُ[٣٢]

وسار هذا البيتُ فى آفاقِ البلادِ ، فلم يَزَلْ يُنشَدُ ويَخِفُّ عنّى العذابُ حتى أُطلِقْتُ من القُيودِ والأصفادِ ؛ ثم كُرِّرَ إلى أن شَمِلتْنى الرحمةُ بِبَركَةِ ذلك البيتِ ، وإنّ ربّنا لَغفورٌ رَحيم .

فإذا سمِعَ الشَّيخُ - ثَبّتَ اللهُ وطْأتَهُ - ما قال ذانِكَ الرَّجلانِ ، طَمِع فى سلامةِ كثيرٍ من أَصنافِ الشُّعراء .

* * *

(٢٩) المنصف : الخادم - الباطية : إناء كبير من الزجاج وغيره يتخذ للشراب .

(٣٠) جَوْنة : سوداء - البرذين : إناء من قشر الطلع يشرب فيه - حاردت الناقة : قلّ لبنها - بكأت : قلّ لبنها ، وقيل : انقطع .

(٣١) التأبيد بمعنى الخلود .

(٣٢) البيت من بائية عبيد المشهورة التى مطلعها : «أقفر من أهله ملحوب» ، وقد جعلها التبريزى عاشرة المعلقات.

[عديّ بن زيد] :

فيَقولُ « لعبيدٍ » : أَلَـكَ عِلمٌ « بعَدِيّ بن زَيـدٍ العِبادىّ(٣٣) » ؟ فيقولُ : هـذا منْزِلُهُ قـريبًا منك . فيَقفُ عليه فيقـولُ : كيف كانت سلامتُكَ على الصِّراطِ ومَخلَصُـك من بغْدِ الإفراط ؟ فيقولُ : إنى كنـتُ على دينِ « المسيحِ » ومَنْ كـان من أتباعِ الأنبياء قبـلَ أن يُبعَثَ « مُحمَّدٌ » فلا بأس عليه ، وإنما التَّبِعةُ على مَنْ سجد للأصنامِ ، وعُدَّ فى الجَهَلَةِ من الأنام .

* * *

---

(٣٣) عدى بن زيد بن حماد العبادى ، شاعر جاهلى نصرانى مشهور ، سكن الحيرة ودخل الأرياف ؛ فلان لسانه وسهل منطقه .

[التقاء ابن القارح فى الطريق بآدم ، وسؤاله عن الشعر المنسوب إليه]

. . . فإذا رأى قِلّةَ الفوائدِ لديْهِم، تركَهم فى الشَّقاءِ السَّرمدِ [1] ، وعَمَد لمَحَلِّهِ فى الْجِنانِ ، فَيلقَى « آدمَ » عليه السلام ، فى الطريقِ فيقول : يا أبانا - صلّى اللهُ عليك - قد رُوِى لنا عنكَ شعرٌ، منهُ قَولُك :

نحنُ بَنو الأَرضِ وسكّانُها ... مِنها خُلِقْنا ، وإليْها نَعودْ
والسَّعْدُ لايَبْقى لِأصحابِهِ ... والنَّحْسُ تَمْحوهُ لَيالى السُعودْ

فَيقولُ : إنَّ هذا القَوْلَ حقٌّ ، وما نَطَقَهُ إلَّا بعضُ الحكماءِ ، ولكنّى لم أسْمعْ به حتى الساعة.

فيقولُ - وَفّرَ اللهُ قِسْمَهُ فى الثَّوابِ - : فَلَعلك يا أبانا قُلْتَهُ ثمّ نَسِيتَ ، فقد علمتُ أنّ النِسيانَ مُتَسرِّعٌ إليكَ ، وحَسبُكَ شَهيدًا على ذلك ، الآيةُ المَتْلُوَّةُ فى فرقانِ « مُحَمَّدٍ » صلّى اللهُ عليهِ : « ولَقَدْ عَهِدْنا إلى آدمَ منْ قَبْلُ فَنَسِيَ ولَمْ نجدْ لَهُ عَزْمًا » [2] وقد زَعَم بعضُ العلماءِ أنَّكَ إنما سمِيّتَ إنسانًا لِنسيانك ، واحْتَجَّ على ذلك بقَوْلهم فى التَّصغير: أُنَيْسِيان ، وفى الجمعِ : أناسِيّ ، وقد رُوِىَ أنَّ الإنسانَ من النِّسيانِ عنِ « ابْنِ عبَّاسٍ [3] » ، وقال « الطائيُّ » [4] :

لاتَنْسَيَنْ تِلكَ العُهُودَ وإنَّما ... سُمِيّتَ إنسانًا لأنّكَ ناسِ

وقرأ بعضُهم : « ثُمَّ أَفيضُوا مِن حَيْثُ أفاضَ ٱلنَّاسِ [5] » بِكَسرِ السين ، يُريدُ الناسِى ، فَحذف الياءَ ، كما حُذِفَتْ فى قوله : « سَوَاءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ » [6] . فأمّا البَصريُّونَ فيَعتَقِدُون أنَّ الإنسانَ مِن الأُنسِ ، وأنّ قَولَهُم فى التَّصغير: أُنَيْسِيان ، شاذٌّ ، وقَولَهم فى الجمع : أناسيّ، أصلُهُ أناسِينُ ، فأُبدِلَت الياءُ مِن النون . والقولُ الأوّلُ أحسنُ .

---

(١) السرمد : الدائم .　　(٢) سورة طه ١١٥

(٣) ابن عباس : عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ابن عم المصطفى ﷺ وصاحبه . ولد قبل الهجرة بثلاث سنين على الأرجح ، ومات رضى الله عنه بالطائف ٦٨ هـ ، ومن نسله أسرة بنى العباس التى أقامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

(٤) الطائى هو أبو تمام حبيب بن أوس ، الشاعر العباسى المشهور، توفى سنة ٢٣١ فى خلافة الواثق .

(٥) سورة البقرة ١٩٩ ، وقراءة الجمهور بضمّ السين .　　(٦) سورة الحج ٢٥

فيقول « آدمُ » - صلَّى اللهُ عليه وسلم - : أبَيْتُم إلاَّ عُقوقًا وأذِيَّةً ! إنَّما كُنْتُ أتكلَّمُ بالعَرَبيَّةِ وأنا فى الْجَنَّةِ ، فلَمَّا هَبَطْتُ إلى الأرضِ ، نُقِل لِساني إلى السُّريانيَّة ، فلم أنطِقْ بغيرِها إلى أن هَلَكْتُ ، فلمَّا ردَّني اللهُ - سُبحانَهُ وتعالى - إلى الْجَنَّةِ ، عادت علىَّ العربيَّةُ ، فأىَّ حينٍ نَظَمْتُ هذا الشعرَ : فى العاجلة أم الآجلةِ ؟ والذى قال ذلك ، يَجِبُ أن يكونَ قالَهُ وهو فى الدارِ الماكرةِ ؛ ألا ترَى قولَهُ :

* مِنْها خُلِقْنا وإلَيها نَعُودُ *

فكيف أقولُ هذا المقالَ ولِساني سُريانيٌّ ؟ وأما الْجَنَّةُ قبلَ أنْ أخْرُجَ منها ، فلَم أكُنْ أدرِي بالمَوْتِ فيها ، وأنَّهُ مِمَّا حُكِم على العِباد ، صُيرَّ كأطواقِ حَمام (٧) ، وما رَعَى لأحَدٍ مِن ذِمام ؛ وأمَّا بَعدَ رُجوعي إليها ، فلا مَعنَى لِقَولي : * وإليها نَعُودُ * لإنَّهُ كَذِبٌ لامَحالةَ ، ونحنُ مَعاشِرَ أهلِ الجَنَّةِ خالِدُون مُخَلَّدون .

فيقولُ - قُضِيَ لهُ بالسَّعد المُؤَرَّب - (٨) : إنَّ بعضَ أهلِ السِّيَرِ يَزْعُمُ أنَّ هذا الشعرَ وَجَدَهُ « يَعْرُبُ » فى مُتَقَدِّمِ الصُّحُفِ بالسُّريانيَّة ، فنَقَلَهُ إلى لِسانهِ ، وهذا لايَمتَنِعُ أنْ يكونَ .

وكذلك يَرْوُون لَكَ - صلَّى اللهُ عليكَ - لَمَّا قَتَل « قابيلُ » « هابيلَ » :

تَغَيَّرتِ البِلادُ ومَنْ عَلَيها ... فوَجْهُ الأرضِ مُغْبَرٌّ قَبيحُ

وأودَى رَبْعُ أهلِيها فبانُوا ... وغُودِرَ فى الثَّرَى الوجهُ المَليحُ

وبَعضُهم يُنشِد :

* وزَال بشاشةُ الوجهِ المَليحِ *

على الإقواءِ (٩) . وفى حِكايةٍ ، معناها ما أذكُرُ أنَّ رَجُلًا مِن بَعضِ وَلَدِك يُعرَفُ « بأبْن دُرَيْدٍ (١٠) » ، أنشَد هذا الشعرَ وكانت رِوايتُه :

* وزال بشاشةُ الوجهِ المليحِ *

---

(٧) أى لزمهم كطوق الحمامة فى عنقها . (٨) المؤرَّب : المحكَم الموثَّق .

(٩) الإقواء فى الشعر هو المخالفة بين حركة الرويّ المطلق بكسر وضمّ .

(١٠) ابن دريد : أبوبكر محمد بن الحسن من أكبر علماء اللغة ، وله المقصورة المشهورة ، توفى ٣٢١ هـ .

فقال أوَّلَ ما قال : أَقْوَى .

وكان فى المَجلِس « أبو سَعيدٍ السِّيرافىُّ(١١) » فقال : يجوزُ أنْ يكونَ قال :

* وزال بَشاشةَ الوجهُ المليحُ *

بِنصبِ (بشاشةَ) على التميزِ، وبِحَذْفِ التَّنوينِ لألْتِقاء السَّاكِنَيْنِ كما قال :

« عَمْرُو » الَّذى هَشَمَ الثريدَ لِقَوْمِهِ ورِجالُ « مَكَّةَ » مُسْنِتُونَ عِجَافُ (١٢)

قُلْتُ أنـا : هذا الـوَجهُ الذى قـالَهُ « أبـو سَعِيدٍ » ، شَـرٌّ مِن إقواءِ عشـرِ مَرَّاتٍ فـى القصيدةِ الواحدة !

فيقـول « آدَمُ » صلى اللهُ عليـه وسلم : أعـزِزْ علىَّ بِكُـمْ معشرَ أُبَيْنِـىَّ ! إنَّكم فـى الضَّلالـةِ مُتَهَوِّكُونَ (١٣) ! آلَيـتُ مـا نَطَقـتُ هـذا النَّظِيـمَ ، ولا نُطِق فـى عَصـرِى ، وإنَّمـا نَظَمَهُ بَعـضُ الفارِغين ، فلا حـولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ ! كذَبتُم علـى خالِقِكُم وربِّكم ، ثُمَّ على « آدمَ » أبيكُم ، ثُمَّ على « حَوَّاءَ » أُمِّكُم ، وكَذَبَ بَعضُكُمْ على بَعْض ، ومآلُكم فى ذلك إلى الأرض .

* * *

[روضة الحيّات : ذات الصَّفا] :

ثُمَّ يَضربُ سائرًا فى الفِـردَوسِ فإذا هو بِرَوضةٍ مُؤْنِقَةٍ ، وإذا هو بِحيَّـاتٍ يَلْعَبْنَ وَيَتَماقَلْنَ ، يتَخَافَفْـنَ ويتَثاقَلْـنَ ، فيقول : لا إلَـه إلَّا اللهُ ! وما تَصنَـعُ حَيَّةٌ فـى الجَنَّةِ ؟ فَيُنْطِقُهـا اللهُ - جَلَّتْ عَظَمَتُهُ - بَعدَ ما ألهَمَها المَعرِفةَ بِها جِيسِ الخَلَدِ فتقول: أما سَمِعتَ فى عُمرِكَ « بِذاتِ الصفَا » ، الوافِيَةِ لصـاحِبِ ما وَفى؟كـانت تَنزل بِوادٍ خَصيـب،ما زَمَنُها فى العِيشـةِ بِقَصيب(١٤)، وكانت

---

(١١) أبو سعيد السيرافى : الحسن بن عبد الله ، نحوىّ بصرىّ كبير ، له شرح كتاب سيبويه ، توفى ٣٦٨ هـ .
(١٢) هشم الثريد : كسر الخبز وأعدّه للثريد - مستون : أصابتهم سنة مُجد به .
(١٣) متهوِّك : متحير مضطرب .
(١٤) قصيب : معيب مذموم أو جديب .

تَصَنعُ إليه الجميلَ فى وِرْدِ الظاهِرَةِ والغبِّ ، ولَيسَ مَنْ كَفَرَ لِلمُؤْمِنِ بِسِبٍّ [15]. فلمَّا ثمَّرَ بودِّها ما لَه ، وأمَّل أن يجتذِبَ آمالَه ، ذكَرَ عِندَها ثارَه ، وأراد أن يَقتَفِرَ آثارَه ، وأكَبَّ على فأسٍ مُعْمَلَة ، يَحُدُّ غُرابَها لِلآمِلَة ، ووَقَفَ لِلسَّاعِيَةِ على صَخْرَة ، وهَمّ أنْ يَنتَقِمَ مِنها بِأَخَرَة [16] - وكان أخوهُ مِمَّنْ قَتَلَتْه ، جاهرَتْهُ فى الحادِثة أو قِيلَ خَتَلَتْه - فضرَبَها ضَرْبَةً ، وأهوِنْ بالمَقِرِ [17] شَرْبَةً ، إذا الرَّجُلُ أحَسَّ التَّلَف ، وفَقَد مِنَ الأنيس الخَلَف ! فلمَّا وُقِيَتْ ضَرْبَةَ فأسِه ، والحِقدُ يُمسِكُ بِأنفاسِه ، نَدِمَ على ما صنَعَ أشَدَّ النَّدَم ، ومَن له فى الجِدَةِ [18] بالعَدم ؟ فقال لِلْحَيَّةِ مُخادعا ، ولم يَكن بما كَتَم صادعا [19] : هَل لكِ أنْ نكونَ خِلَّيْنِ ، ونحفَظَ العهدَ إلَّيْنِ [20] ؟ ودعاها بالسفَه إلى حِلْف ، وقد سُقِيَ منَ الغَدْرِ بخِلْف [21] . فقالت : لا أفعل وإن طال الدَّهرُ ، وكم قُصِم بالغِيَرِ [22] ظَهْر ! إنّى أجِدُكَ فاجِراً مسحورا ، لم تَأْلُ فى خُلَّتِك حُورا [23] تأبى لي صَكَّةٌ فوقَ الرأس ، مارَستُها أبأسَ مِراس ، ويَمنَعُك مِن أرَبِكَ قَبرٌ محفور ، والأعمالُ الصالحةُ لها وُفور .

---

(15) الظاهرة من الورد : أن ترد الإبل كلّ يوم نصف النهار - الغبّ : ورد يوم وظمء يوم آخر ، وقيل هو أن ترعى يوما وترد من الغد - سبّك : مَن يُسابك .

(16) يقتفر : يتبع ويقتفى - غراب الفأس : حدّه - بأخَرة : ببطء أو أخيرا .

(17) المقر : نبات المرّ ، وهو الصبر أو شبهه .

(18) الجدة : الغنى .

(19) الصادع بالحقّ : المتكلّم به جهارًا .

(20) الإلّ : الجار .

(21) الخِلْف : حلمة ضرع الناقة .

(22) غِير الدهر : أحداثه .

(23) مسحور : مخدوع - الخُلة ، بضمّ الخاء الصداقة والخصلة - الحور : الهلاك والنقص .

منصور بن محمد الهروى

(ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م)

أبو أحمد منصور الهروىّ من أسرة عربية مشهورة بالعلم ، ينتهى نسبها إلى المهلب ابن أبى صفرة القائد الأموى المعروف (ت ٨٢) ، أما هراة التى ينسب إليها منصور وخلق كثير من العلماء فى كل فنّ ، فهى من أحسن مدن خراسان وأكثرها عمارة ، أهلها أشراف من العجم وبها قوم من العرب ، وقد أفاضت المصادر فى ذكر ما امتازت به من الخيرات ، وما اتصف به أهلها من الصلاح والديانة والعلم والثراء . (١)

وكان أبوه (ت ٤١٠) شيخ الشافعية ، وإماما يجمع بين الفقه والحديث ، وقاضيا بهراة قريبا من ثلاثين سنة ، وقد نشأ منصور – كأبيه – قاضيا فقيها محدّثا حسن الفضائل .

عاصره الثعالبى (ت ٤٢٩) والباخرزى (ت ٤٦٧) وجالساه وعرفاه ، وترجما له فى مؤلفاتهما ، ونوّها بفضله ، وأشادا بعلمه وأدبه ، فوُصف بأنه « أفضل مَن بخراسان على الإطلاق » و « مِن أعيان هراة وآحادها ومفاخرها وأفرادها . . . » وشاع ذكره فى الآفاق ، وامتدح الخليفة القادر بالله (تولّى فى ٣٨١ – ٤٢٢) .

وكان منصور شاعرا مجيدا ، بلغ ديوانه أربعين ألف بيت ، أكثر فيها من الأشعار الحِكميّة الواعظية ، كقوله :

إذا كنتَ ذا علمٍ ومَا راكَ جاهلٌ

فأعرِضْ ففى تركِ الجوابِ جوابُ (٢)

فإنْ لم يُصِبْ فى القولِ فاسكتْ فإنَّما

سكوتُك عن غيرِ الصوابِ صوابُ

---

(١) تقع هراة « غربىّ » أفغانستان، وتبعد عن كابول العاصمة ١٠٤٢ كيلومترا، وهى الآن مركز المحافظة الثالثة .
(٢) ماراك : جادلك وخالفك – أعرض : صدّ وابتعد .

وقولـــه :

إنْ شِئْــتَ أنْ تُــدْعَــىَ أخــا الــ ـــكَرَمِ السليــمَ مـــن العيـــوبِ
فــاصبــرْ علــى خمــسٍ ، بهــا يــدو التقــىُّ مــن المشُــوب :
كُــفَّ الأذى ، واخفِــضْ جنــا حــك ، واجْتَنِــبْ قُحَمَ الــذُّنــوب
واغــرسْ أُصــول العُــرْف واجــ ـــنِ بهــا مـــودّات القلـــوب
واعْجَــلْ إلــى الإنصــافِ طَلْــ ـــقَ الــوجــهِ مــأمــونَ القُطُــوب

وقولـــه في صفة الصديق المخلص :

إذا مــا كنــتَ معتقــدًا صــديقًــا فجــرِّبْــه بــأحــوال ثــلاثِ :
مشــاركــةٍ إذا مــا عَــنَّ خَطْــبٌ ، وإسعــافٍ بعَيْــن أو أثــاث
وسِــرِّك فــأْتَمِنْــه عليــه وانظــرْ أيكتــمُ أم يُــذيــعُ بــلا اكتــراث
فــإن صــادفْــتَ مــا تَــرْضَــى وإلَّا فــإنَّ المــرءَ ذو عُقَــدٍ رثــاث

وقد حفظ أبو الفضل الميداني (ت ٥١٨) قدرًا من نثر منصور الديواني والإخوانيّ ، في مجموعة أسماها : « منية الراضي برسائل القاضي » .

* * *

كتب منصور الهرويّ في التهنئة بالقدوم من الحج :

ما القمرُ يتبسَّم إلى السَّارى وهو لظلام الليل مُنْتهب ، والورد العَذْب يَرِده الصَّادى (٣) وهو بنار الظَّمأ مُلتهب ، والنُّجح يلقاه المخفِق وقد ترك سَعْيه عَتبا ، والغَيْث يُسقاه راعى سنين تتابعتْ جَدْبا - بأسَرَّ من قفول الشيخ صادرًا عن نُسُك مَقْضِيّ وسَعْى مَرْضيّ ، وسَفَر سافرٍ عن رُشْد وافر ، ويُمْن حاضر فى ظلّ من السعادة كَنِين وسِتْر من صُنع الله ثخين ، إلى ديارٍ طال ما انتظرتْه كما انتظرتْ أَوْبَة الهلالِ منازله ، وحَنَّت إليه كما حَنَّت الرياضُ إلى الغيثِ يَنْهَلّ فيها طَلُّه ووابلُه ، بعد ما كادت القلوبُ تَنْشَق شوقًا إلى رَجْعته ، والعيونُ تَبْيَض تشوُّقًا إلى طَلْعته ، وبعد ما خَلَّف بكلّ أرض حلَّها وبقْعة أظلّها عَبَقًا من محاسنه لا يَسْطع المِسْك سُطوعه ، وسناءً من فضائله لا يطلُع الفجرُ طُلوعه .

---

(٣) الورد : النصيب من الماء - الصادى : الذى اشتدّ به العطش .

ولله الحمدُ على ما يَسَّر من هذه العَودة الحميدة ، والقِدْمة السَّعيدة المؤذنة بالنِّعمة الجديدة والدولة العَتيدة ، وإليه - عَزَّتْ قُدرته - الرغبةُ في أن يتقبَّل منه النُّسُك الذى أَحْسَن لقضائه توفيقه ، وسَهّل إلى القيام بحقِّه طريقه ، وأن يُجْزِل ثوابَه على ما أدَّاه من تلك المواهب ، ويشكر له السَّعْى الذى تَحَمّل فيه ما تَحَمَّل من المشاقّ والمتاعب ، بمَنِّه .

* * *

وكتب في الشوق والحنين :

ما أُعُدّ أيامى التى سَعِدت فيها بلقائه إلا مفاتحَ السرور ، ومطالعَ السُّعود والحبور ، كأنّ آثارَها علينا مواقعُ القَطْر فى الرياض ، ولست أعيبُها إلّا بقِلّة البقاء وسُرعة الانقضاء ، وكذلك عمر السرور قَصير ، والدهر بتفريقِ الأَحِبّة بصير ، وربما اهتزّ العودُ بعد الذُّبول ، وطَلَع النجمُ بعد الأُفول ، وأُديل الوِصال من الفِراق ، وعاد العيشُ المرُّ حُلْوَ المذاق .

فأمّا الآنَ فلا أُزجى الوقتَ إلّا بقلبٍ شديدِ الاضطراب ، وجوانحَ لا تُفيق من التوقُّد والالتهاب ، وليس ذلك بمُسْتَنكر لمن فُجِع بوصاله ، ومُنى بزِياله ،

فإنْ أفقدِ العيشَ الذى طاب باللِّوى

فقد ما فقدتُ الظِّلَّ عند انتقالِه

وكيف لا ؟ وحالى حالُ من وَدَّع صَفْو الحياةِ يوم وَداعِه ، وانقطعَ عنه العيشُ ساعةَ انقطاعِه ، وطَوى الشَّوْق جوانحَه على غَليل ، وحَنَى أَضْلاعه على كَمَد دخيل .

وما يذكرُ أيامُه فى أكنافِ فضِله ونضرتِها ، ورياضِ أُنسه فى ظِلِّه وخُضرتها ، إلّا أوجبَ على عينِه أن تَدْمع ، وانثنى على كبِده خَشْية أن تَتَصدَّع . . .

وما أنسَ فلستُ بناسٍ أيامَنا التى هى تاريخُ زمانى وعنوانُ الأمانى ، أيامَ نَخْطِر فى حُلَل الصِّبا ، ونَتمايل من سُكْر الهَوَى ، ونفوزُ من دَهْرنا بالمُنى ، إذ ثمرُ الوِصال جَنِيّ ، ووِرْد العيش صافٍ هَنِيّ ، وماء الاجتماع عَذْب ، وغُصْن الازدِيار (٤) رَطب ، وأعينُ الحوادث راقدة ، وأسواق صُروف الدهر كاسدة .

* * *

---

(٤) زاره وازداره : قصده مكرمًا له .

وكتب في المدح والثناء :

لم أزلْ أعرفُ من فَضل الشيخ وشهامته وعَقله وصَرامته وطهارة خَلائقه واعتدال مذاهبه وطرائقه ما يُرَغِّبنى فى مُواصلته ويُحَرِّضنى على مُراسلته ، وأسمعُ الناسَ يُنشدون قول الحَكَمِيّ :

وليسَ لله بمستنكر أن يجمعَ العالمَ فى واحدِ

وقول البحترىّ :

ولم أرَ أمثالَ الرجالِ تفاوتَتْ لدَى المجدِ حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

فأحسبُهما لَغْوًا من الكلام ليس وراءه طائل ، وهَذْرًا من القول ما معه حَاصل ، حتى شاهدتُ منه ما صَدَّقهما ، وثبَّت قَواعدهما وحَقَّقهما ، وعلمتُ أن لا يُستنكر اجتماعُ الخَلْق فى واحد ، وتألُّف أشتات المكارم والمحامد لماجد ، حتى يكونَ أمّةً فى شخصِ رَجُل ، وجماعة فى صورة فَرد ، وعالِمًا فى تركيب إنسان ، فقد اطلعتُ منه على سيِّد ألقتْ المعالى إليه مَقاليدها ، ووقفتْ عليه أسانيدَها ، وقرّرتْ به الليالى المُظلمة معاذ يرَها ، واستصغرتْ معه الأكارمُ مقاديرَها ، وصَحِبَتْ منه كريمًا يشتملُ على الشِّيم الفائحِة بروائح الكرم ، ومُنْعمًا يطوِّق الرقابَ بنِعَمه ، ويعلو النجومَ بهِمَمه ، ويَسْتَرِقّ الأصرارَ بكرمه .

وماجدٍ زانَ آباءً له كَرَمًا وعادَ من بَعْدُ فيهمْ غُرَّةَ الغُررِ

* * *

وكتب فى الشكوى والاعتذار :

وصل كتابُه متضمِّنًا لصنوفٍ من الخطاب وضُروب من العِتاب والإعتاب ، وفهمتُه .

وحمدتُ الله – تعالى – على ما أَوْلاه ، واستدمتُ له ما أعطاه ، فأمّا ما ظنَّه من الظُّنون ، وتَصَرَّف فيه من الفُنون ، فالجميعُ معلوم ، وأنا فى الكلِّ مظلوم . . .

متى ظنَّ الشيخُ بى نهوضًا بما حَمَّلنى ، وصبرًا على ما كلَّفنى ، واحتمالاً لما ألْزمنى ، وجَلَدًا فيما جَشَّمنى ، حتى بَسَط لى العِنان ، وأَشْرَعَ لى السِّنان ، وجَرَّنى على الجَمْر بل أَصَرّ ، وجَرَّعنى الصَّبْر بل أَمَرّ ؟ من أين تَوَهَّم لى هذا القَلْب ، فأهْدى إلىّ هذا العَتْب ؟

أنا رجلٌ لا أسيغُ العسل ، فكيف أتجرّع الحَنْظَل ؟ ولا أسْتلين الحرير ، فكيف أفْتَرش الجَنْدَل ؟ ولا أسْتعذب الماء الزُّلال ، فكيف أسْتَفّ الخَرْدل ، ولا أستطيب العَنْبَر الوَرْد ، فكيف أشُمّ الحَرْمَل ؟ (٥)

فلو شاءَ عـدَل عن المصارَفة إلى المناصَفة ، ورجعَ من المخاشَنة إلى المـلايَنة ، وفعلَ الأليق بشَرفه ، والأحسن فى قَضِيَّة كرمه ، وجرَّ ذيلَ العفوِ على زلّات أوليائه ، وقابل بحُسْن الاحتمال هَفَوات أخِلّائه ، وأنا بجُرْمى مُعْتَرف ، ومِن بَحْرِ إحسانه مُغْترف ،

أنا المذْنب الخَطّاء والعفوُ واسعٌ | فلو لم يكنْ ذنبٌ لما عُرِف العَفْوُ
فإنْ تعفُ عنّى خَطْوى واسعًا | وإنْ لم يكن عَفْوٌ فقد قَصُر العفو

. . . وَيعلم الله - تعالى - أنىَ ما قَصَدْتُ غَضًّا منه ، ولا عَمَدْت إزراءً به ، ولا أرَدْت قَدْحًا فى حاله ، ولا إخلالًا بما يَلْزم من إجلاله ، ولكنى استرسلتُ على سَجِيَّة الانبساط ، وجريت مَجْرى من يَعْدِل عن سَنَن الاحتشام ، ولم أدرِ أنَّ ذلك مما يُؤثر فى نفسه ، وينالُ من قَلْبه ، ومن رَفَع اللهُ من قَدْره فلن يَضَعَه تَقْصيرى ، ومَن أعْلى مَحَلَّه فلن يَحُطَّه تَقْديمى وتأخيرى .

* * *

وكتب فى وصف الكتب :

تأمّلتُ الرُّقْعتين اللّتين هما فى الحُسن تَوْأمان ، وفى الفصاحة رَضيعا لَبان ، فوجَدْتُهما رَوْضَتين تَفَتّحت أنوارُهما (٦) ، وأيْنَعَتْ ثمارَهما ، وتَفَتّقَتْ أزهارُهما ، وتَسَلْسَلَت أنوارُهما ، فثمراتُ العقولِ منهما تُجْتنى ، وذَخائر الكتابِة من غَرائبهما تُقْتَنى ، وكَواكب الآداب منهما تَطْلُع ، ومِسْك الفضل من جوانبهما يَسْطَع .

ألفاظٌ لو مُدِح بها القِرْدُ لحَسُن ، ولو ضُمَّتْ إلى القلب الخافِق لسَكَن ، ولو وَرَدَتْ البحر الأُجاجَ لأصْبَح عَذْبًا فُراتًا ، أو عُرِضت على الميِّت البالى لاستفادَ حَياة . . .

* * *

(٥) الخردل : نبت له حبّ صغير حريف الطعم - الحرمل : حبّ كالسمسم لا يأكله إلّا المعزى .
(٦) الأنوار : جمع النَّور وهو الزهر.

وكتب في وصف رحلة صيد :

خرجْنا ، وقد كَسَت الشمسُ الأرضَ رداءً مُشمعاً ، ونَفَضَتْ على الأفُق الغَرْبىّ وَرْساً مُذَعْذَعاً (٧) ، إلى رَابية مُشرفة على السُّهول والأوْعار ، تسافرُ بالأبْصار فى الأقْطار ، وهى من الأنوار والأزهار فى أحْسن من الوَشْى فى أيْدى التُّجار ، وأطْيب من العِطْر فى جَوْنَة العَطَّار . . . راكبين كلَّ طِرْف يَسْبق الطَّرْف ، ويَسْتغرق الوَصْف من سَرَوات الخيلِ كريمِ الأعمام والأخوال ، لا يُفَرِّق بين الجِبال والرِّمال . . . ويُهْدِى السُّمَّ الناقع إلى العُفْر والأوْعال .

حين ولّى الشتاءُ بَبْرده ، وأتى الربيع بوَرْده ، وحَلَّت الشمس الحَمل ، وقام وزنُ الزمانِ واعْتَدل ، واعْتَمّ النبتُ واكْتَهل (٨) ، وتبَدَّى الزهرُ بالطَّلّ واكْتحل ، واحْتَشد الرَّوْض بشُكر القَطْر واحتفل ، وتبَلّجت الدُّنيا وتبَرَّجت ، وتَعَطَّرت الآفاقُ بروائح الأنْوار وتَأرّجت ، وضَحِكت وجوهُ الحدائق ، وشُقَّت جُيوب الشَّقائق . والأرض فى حُلَّتها الخضراء ، والجَوُّ فى كُسْوته الدَّكناء ، وقد تَصَنْدَل الماء ، وتَمَسَّك الهواء (٩) ، وصَفَت الرَّاحُ فى الدِّنان ، وحَكَاها الماء فى الغُدْران ، وفى كلِّ قلبٍ طَرَب ، وفى كلّ أُفُق للسُّعود مُضْطَرَب .

* * *

وكتب فى المداعبة والمطايبة إلى أبى بكر القُهُستانى : (١٠)

كتابى – أطال الله بقاءَ الشيخ – بلا هَنْدسة ولا هَنْدمة (١١) ، ولا تَنْجيم ولا فَلْسفة ، وقد وَصَل كتابه المقْصُور على عِلّة الغِلْظة والدِّقَّة ، وصِفَة الكَثافة والرِّقَّة ، وحَديث السَّعَة والضِّيق ، وما يَجْرى فى هذا الطريق .

---

(٧) الورس : صبغ أصفر – مذعذع : مفرق – وفيه أخذ من شعر ابن الرومى :

إذ ارتفعت شمس الأصيل ونفضت ... على الأفق الغربى ورسا مذعذعا

(٨) يقال : قام ميزان النهار أى انتصف – اعتمّ واكتهل : كلاهما بمعنى طال والتفّ .

(٩) الصندل : شجر طيب الريح ، ومنه الفعل : تصندل – تمسّك : تطيّب بالمسك .

(١٠) هو على بن الحسن ، كاتب شاعر كثير المزاح واللهو .

(١١) الهندمة : الإصلاح على مقدار مناسب .

وأنا يا مَوْلاى كما عَلِمت فى كِتاب إِقْليدس وحَـلِّ أَشْكاله ورَفْع إِشكاله ، ووسْم أَغْفاله ، وفتح أَقْفــاله ، خفيفُ البِضاعة ضعيـف الصناعة ، قليـلُ البَراعة ، قَصير اليَـراعة (١٢) ، ضَيِّق الباع ، قَفْر الـرِّباع ، أدلّ بذهنٍ كَليل وفَهْم عليـك ، وزَنْد كَاب وحَدّ ناب ، وطَمَـع آب ، يَدْخُل عليه العَجْز مِن كُلّ باب .

فياليـتَ شِعْرى ، كيـف فتحتَ رأسَ هـذا الجِراب ، وسَلَلْـت سيفَك مـن هذا القِـراب ، كأَنَّك أردتَ يا سَيِّدى أن تُعَلِّمنى كيف تَصَرُّفك فى الفنون ، وتَصَلُّفك بالجنون (١٣) ، وتَبَسُّطك فى الكلام ، وتَسَلُّطـك على الأقلام تُصَرِّفهـا كيف تريد ، وتُبْـدى بها ما تشاء وتُعيـد ، فتَقَلَّبْت يَمْنَةً ويَسْرَةً ، وأَوْرَثْتَ مُجاريك غَيْظًا وحَسْرَةً . . .

---

(١٢) اليراعة : القصبة ، وهو الأصل ، ويطلق على القلم .

(١٣) التصلّف : قلة الخير أو أن يكثر الرجل الكلام والمدح لنفسه .

هلال بن المحسِّن الصابى

(٣٥٩ - ٤٤٨ هـ / ٩٧٠ - ١٠٥٦ م)

كنيته أبو الحسين ، ولد فى بغداد ، وينتسب إلى الصابئة الحرنانية (نسبة إلى مدينة حرّان ، بين دجلة والفرات) ، ومنها : آل زهرون وآل قُرّة ، وقد نبغ منهم كثير ، صاروا ذوى مكانة اجتماعية رفيعة ، وتفوقوا فى ميادين الهندسة والحساب والطبّ والفلك والتنجيم والتأريخ والموسيقى والأدب . . . ، وكان جدّه أبو إسحق إبراهيم بن هلال (ت ٣٨٤) من ألمع من تولوا ديوان الرسائل للخلفاء العباسيين والأمراء البويهيين فى العراق ، وهو الذى وجّه حفيده هلالا وعلّمه أصول الصناعة وفنون الكتابة .

ويعدّ أوّل من أسلم من آل زهرون ، وكان إسلامه فى أواسط عمره سنة ٤٠٣ ، وتزوّج مسلمة ، ولدت له ابنه أبا الحسن محمدًا غرس النعمة (ت ٤٨٠) ، وترأس هلال ديوان الإنشاء للوزير أبى غالب فخر الملك محمد بن على بن خلف ، ولمّا قتل سلطان الدولة البويهى هذا الوزير سنة ٤٠٧ ، ترك العمل فى السياسة وكرّس جهده ووقته للتأليف والتصنيف ، وكانت له صلات قويّة ومودّة وثيقة ببعض أعلام عصره ، كالشريف المرتضى وابن بطلان البغدادى الطبيب .

وقد توفّى فى عمر يناهز التاسعة والثمانين ، ووصفه معاصروه بأنه كان ثقة صدوقا مقتدرا على الكلام الفصيح .

له شعر قليل نظمه فى بعض أصدقائه ، ولكنه ألّف عددا من المصنفات ذات القيمة العالية ، منها : « تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » أهداه إلى أبى منصور إبراهيم بن مافنّه وزير عماد الدولة ، و« غرر البلاغة » وأهداه إلى الوزير أبى منصور هبة الله بن أحمد الفسوى ، و« رسوم دار الخلافة » ، و« كتاب التاريخ » الذى قيل إنه أربعون مجلدا أرّخ فيه للسنوات ٣٦٠-٤٤٧ لم يصل إلينا منه إلّا جزء قليل يشتمل على حوادث خمس سنين ٣٨٩-٣٩٣ ، ومن مؤلفاته أيضا : « الأماثل والأعيان ومنتدى العواطف والإحسان » ، و« أخبار بغداد » و« الرسائل » و« الكتاب » و« السياسة » .

* * * * *

كتب هلال فى وصف أقلام :

.... أقلامٌ مِن بَناتِ الآجام (1) ، صحيحة القَوام ، فَصيحة الكلام ، ممشوقة القَدّ ، مَصقولة الخدّ ، طويلة المَسْرَح ، بعيدة المَطْرَح ، نَجيبة المَنْجَم ، صليبة المَعْجَم ، تَجوبُ الأرضَ وهى قاعدة ، وتُساوِر (2) الخَصْم وهى عاجزة ، قد خَرَجَتْ مِن أزكى مَغْرِس ، واعترضتْ فى أبهى مَلْبَس ، لم يَعِبْها قِصَر ، ولم يَشِنْها حَصَر ، ولم يُصِبْها خَفَر ، ولم يُهِنْها خَوَر . (3)

فمُها مفتوح ، ودمُها مسفوح ، ورأسُها مفروق ، ولسانُها مشقوق ، وعَلَمُها مرفوع ، وكَلِمُها مسموع ، تَخْضِبُ رءوسَ عَواليها ، بَدمِ غَواليها (4) ، وتُبْدِى بدائعَ رُقومها ، بآثارِ أقدامها ، وتُودِع بطونَ طُروسِها (5) ، بواطنَ نُفوسِها ، وتُظهر مَكْتُومات صدورِها ، فى مَنْظومات سُطورها .

تَرى لها إذا أرسلتْ أعِنَّتها ، وأعْملتْ أسِنَّتها ، ومَدّتْ أشْطانَها (6) ، وأطاعتْ شَيْطانها ، بَسْطَ إحسانٍ ، وبَسْطَةَ لِسان ، وفَضْلَ خَطابة ، وزيادة فَصاحة ، فإنْ نَضَبَ وِرْدُها ، وضَعُفَ أيْدُها ، وغارتْ مناهلُها (7) ، وخانتْ أنامِلُها ، بَطَلَ حِسُّها ، وخَفَتَ جَرْسُها ، وسَكَنَ زَجَلُها ، وهَدَأ وَجَلُها (8) ، وتَسْمَعُ لها فى تَصَرُّف أحوالِها ، وتَقَلُّب أفعالِها ، أنينَ وَصِبٍ ، ورَنينَ نَصِبٍ (9) ، وحَفيفَ أفاع ، وزَئيرَ سِباع ، وذكاء فَطِن ، وتَوَقُّد لَقِن ، وفَدامة غَبِيّ (10) ، وبَلادة عَيِيّ ، قد أُكْسِيَتْ ثَوْبَ بياضِها مِن بَزّ غِياضِها (11) ، واكتستْ لونَ غَلائلها ، مِن نَوْر خمائلها .

---

(1) الآجام : جمع الأجمة ، وهى الشجر الكثير الملتفّ .

(2) تُساور : تخاصم وتصارع .

(3) الحصر : العِىّ وعدم القدر على الكلام – الخَفَر : اشتداد الحياء – الخَوَر : الضعف والانكسار .

(4) الغوالى : جمع الغالية ، وهى أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر .

(5) الرُّقوم : جمع الرَّقم وهو العلامة – الطُّروس : جمع الطِّرس ، وهو الصحيفة .

(6) الأعنّة : جمع العنان ، وهو سير اللجام الذى تمسك به الدابة – الأسِنّة : جمع السّنان ، وهو نصل الرمح – الأشطان : جمع الشَّطن ، وهو الحبل الطويل .

(7) نضب وردها : غار ماؤها وذهب فى الأرض – أيْدُها : قوّتها – المناهل : جمع المنهل ، وهو المورد أى الموضع الذى فيه المشرب .

(8) زجلها : غناؤها وتطريبها – وَجَلها : خوفها .

(9) الوصب : الذى أصاب الوصب ، وهو المرض – النصب : الذى لحقه النصب ، وهو التعب والإعياء .

(10) اللقِن : الفطِن ذو العقل والذكاء – الفدامة : ضعف الفهم والعىّ عن الحجّة .

(11) البزّ : نوع من الثياب – الغياض : جمع الغيضة ، وهى الموضع يكثر فيه الشجر ويلتفّ – الغلائل : جمع الغلالة ، وهى الثوب الرقيق يلبس تحت الدّثار – الخمائل : جمع الخميلة ، وهى كل موضع كثر فيه الشجر والتفّ .

إذا نَفَضَتْ سوادَ مِـدادِها (١٢) على بياض صُحُفِهـا ، ودُجَى لَيْلها على ضِيـاء صُبْحها ، رأيتَ ما تَنْقُشُ الأكُفُّ الماهِرة ، وتَفْرِش الرياضُ الزاهرة .

لها أَلْسُنٌ كمناقيـرِ الطَّيْر ، وأَذْنابٌ كأذنابِ الخَيْل ، وأبْدانٌ كـأطراف العَذارَى ، وإغْضاءٌ كإطراق الحَيارَى .

فلإيثارِى أَلَّا أَجْعَلَ فَضائلَها غَيْبًا يُرْجَم ، وظَنًّـا يُتَوَهَّم ، ووصْفًا يُرْسَل ، وقَوْلًا يُجْمَل ، وأَنْ يكونَ ما بَطَـنَ مِن أمرِها ، عَـدِيلَ (١٣) ما ظَهَرَ مِـن مَنْظَرِها - ما اختبـرتُها بالبَرْى ، واعتبـرتُها بالجَـرْى ، فجاءتْ بـديعةَ الصِّفـات ، طويلةَ الجَلَفـات ، بِقَطٍّ هَـمَّ أَنْ يَتَحَرَّف ، وشَحْـم كادَ يتحَيَّف (١٤) ، وأسنانٍ مُتسـاوية ، وشُقـوق مُتَناسبـة ، ورُءُوس مَغْمودة فـى الأجْسام ، وأفْـواهٍ مَغْموسة فى الظَّلام ، تَتَسابَقُ كأفراسِ الرِّهان إسراعًا ، وتَتَناسَقُ كسِهام النِّضَال إقْصادًا . (١٥)

* * *

وكتب فى وصف المطر :

الحمدُ لله ذِى القُدرة القاهـرة ، والحِكْمة الباهِرة ، والرَّحمة الواسِعـة ، والنِّعْمة السَّابغة ، الـذى أزالَ الأَزْلَ وقـد أَجْحَف ، وأزاحَ الهَـزْلَ وقـد أَعْجَـف ، وكَشَفَ الجَـدْب وقـد أَرَبَّ ، وصَرَفَ المَحْـلَ وقد أَضَبَّ (١٦) ، وأنزلَ من السمـاء بعدَ استمرارِ القُحُوط ، واسْتيـلاء القُنوط ، ماءً ثَجَّاجـا ، مَلأَ البِقاعَ ، وَعَـلا اليَفاع ، وأَمْرَعَ الـرِّياض ، وأَتْرَعَ الحِيـاض ، وأَرْوَى العِطاش ،

---

(١٢) المداد : سائل يُكتب به .

(١٣) عديل : مِثْل ونظير .

(١٤) الجلفات من الأقلام : ما بين مبراها إلى سِنّها - القطّ : القطع - يتحيّف : يتنقّص ، يريد أن يقول إن القلم نحيل ، كأنّ شحمه قد ذاب .

(١٥) الإقصاد : الإصابة عند الطعن ، يقال : أقصد السهم إذا لم يُخطىء .

(١٦) الأزْل : الضيق - أجحف : اشتدّ فى الإضرار - الهَزْل : هزال المواشى وهزالها - أعجف : جعلها عجافا هزيلة ضعيفة - الجدْب : نقيض الخِصب - أربّ بمعنى دام واستمرّ - المحْل : الجدْب ويُبْس الأرض عن الكلأ لانقطاع المطر - أضبّ : لازم ولم يفارق .

وأَنْبَتَ الرِّياش ، وأَدَرَّ المَراضِع ، وأَقَرَّ المَضاجِع ، حَمْدًا أَمْتَرِى به المادَّة ، وأَقْتَضى فيه الزِّيادة (١٧) .

وكان المطرُ فى هذه السَّنَةِ المُقْشَعِرَّة جُلُودُها ، المُكْفَهِرَّة وُجُوهُها ، الكابِيَةِ زِنادُها ، الفارِغةِ مَزادُها (١٨) ، أَخْلَفَتْ وُعُودُه ، وأَخْدَجَتْ رُعُودُه ، وغارتْ عُيونه ، ورَعَمَتْ غُيونه ، ورَقَأَتْ دُمُوعُه (١٩) ، وجَفَّتْ ضُروعُه ، ونَضَبَ وَادِيه ، وسُدَّتْ مَجاريه ، وأَقْفَرَ نادِيه ، وخَرِس مُناديه ، فاغْبَرَّ وَجْهُ الأرض مُكلِّحًا ، واصْفَرَّ لَوْنُ الأرض مُصَوِّحًا (٢٠) ، وأَضْحَى الأَمَلُ مُخْفِقًا ، والوجَلُ مُحْدِقًا ، والرَّجاء ضعيفًا ، والبلاءُ مُطيفًا .

حتَّى إذا صَفِر الوِطاب ، وعَسُر الطِّلاب ، وضاقَتِ الرِّحاب ، وانْقَطَعَ الحِلاب (٢١) ، وعادَ الرافدُ مُقْفِرًا ، والواجِد مُقْتِرًا ، والعارِضُ المُخِيلُ بَخِيلًا ، والبارِقُ المُلِيحُ ضَنِينًا ، وكادَ اليَأْسُ يُدْرِك ، والإشفاقُ يَمْلِك ، والداءُ يُنْهِك ، والذَّماء يَهْلِك (٢٢) - وافَتْ رحمةُ اللهِ جَلَّ وعَلَا بغَيْثٍ رَجَّاج ، وغَوْثٍ فَرَّاج ، ورَوْح يَفُوح ، ومَطَرٍ دَلُوح (٢٣) ، فأَرْخَتِ السَّماءُ عَزالِيَها ونَثَرَتِ الأَنْواءُ لآلِيَها ، وفَضَّتِ السُّحْبُ رِتاجَها ، وفَرَّتِ الرِّياحُ أَوْداجَها (٢٤) ، وأَشْعَلَتِ البُروقُ نِيرانَها ، وأَسْبَلَتِ بالدُّموعِ أَجْفانَها ، فأَصْبَحَتِ الرُّبا مُعْلَمَه ، والزُّبَى مُفْعَمَة ،

---

(١٧) القُحُوط : القحط واحتباس المطر - القنوط : اليأس - ثجاج : شديد الانصباب - اليفاع : المرتفع من الأرض وكل شيء - أمرع الرياض : صيرها خصبة - أترع الحياض : ملأها - الرياش : جمع الرِّيش ، وهو الأثاث أو المال أو الخصب أو المعاش . . . ، والمقصود هنا الزرع والنبات وغيرهما - أدرّ المراضع أى جعل لبنها يدرّ ويغزر - امترى : استخرج واستدرّ.

(١٨) الكابية زنادها : يقال كبا الزّند أى لم يخرج ناره ، والزند هو العود الأعلى الذى تقدح به النار - المزاد : جمع المزادة ، وهى الراوية التى يحمل فيها الماء والطعام .

(١٩) أخدجت قلّت ونقصت - رعمت : اشتدّ هزالها ، والغُيون لغة فى الغيوم ، والمعنى أنها صارت قليلة ضئيلة - رقأت : جفّت وانقطعت .

(٢٠) اغبرّ: صار لونه كلون الغبار - مكلِّح : مُعَبِّس - مصوّح : يابس متشقّق .

(٢١) الوطاب : جمع الوَطْب ، وهو سقاء اللبن ، وصفِرتْ أى فرغت ، وفيه كناية عن الهلاك - الحلاب : اللبن .

(٢٢) الرافد : المعين - الواجد : الموسر الغنىّ - مُقْتِر: ضيّق العيش - العارض : السحاب الممطر - المخيل : هو السحاب الذى إذا رأيته تخاله ماطرًا لرعده وبرقه - المُليح : الظاهر البادى - الذّماء : بقية الرّوح .

(٢٣) رجّاج : له رجّة أى اضطراب وحركة - دلوح بمعنى متدفّق غزير، يقال دلحت السحابة أى أبطأت فى مسيرها من كثرة الماء .

(٢٤) العزالى : جمع العزلاء ، وهى مصبّ الماء من القربة ونحوها ، والمعنى أن السماء كثر مطرها - الأنواء : المطر الشديد - الرتاج : الباب العظيم ، وفضت السحب رتاجها أى أمطرت مطرًا غزيرا - فرّتْ : شقّت وفتّت - الأوداج : جمع الودج ، وهو عرق فى العنق .

والثَّرى مَفْضُوض الخِتام ، والحَيَا مَضْروب الخِيام ، والخِصْبُ جارى النِّطاف ، دَانِىَ القِطاف ما يَجِفُّ له دَمْع ، ولا يَخْبو له لَمْع ، ولا يَخْلُو منه رَبْع (٢٥) ، ولا يَنْفَضّ له جَمْع .

قد نَضَتِ الأرْضُ بُرْقُعَها الأغْبَر ، ولَبِسَتْ مِدْرَعَهـا الأخْضَر ، فالمواردُ مُغْدِقَـة ، والمناهلُ مُتْأَقَة ، والجِفـان مُتْرَعة ، والجِنان مُمْرِعَة ، وأَجْنِحـة الرِّيفِ مَزْفُوفة ، وأغصـانُ الخَيْرِ مُنْعَطفة ، وظِلُّ العَيْش مَمْدود ، ومَشْرَع الخَفْض مَوْرُود (٢٦).

قد أَخْرَجَنـا اللهُ . . . من ضِيقٍ إلى سَعَةٍ ، ومن انْـزِعاج إلى دَعَة ومِن شِقْـوَة إلى سَعادة ، ومن ضَغْطَـةٍ إلى فُسْحَـة ، فالحِمَـى مَنِيع ، والقِـرَى وَسِيع (٢٧) ، والخِصْبُ شَـائع ، والرَّخـاء جامِع ، والـدَّهرِ المعانِد مَصْدوع الصَّفَاة ، مَخطُـوم القَناة ، ذَليلُ القِياد ، قليلُ الجِيـاد ، طَرْفُه مَغْضـوض ، وكَفُّـه مَغْضـوض ، وعَقْـده مَنْقُوض ، وحُكْمُـه مَرْفُـوض ، وعَرْشُـهُ مَثْلُول ، وغَـرْبُه مَفْلُول (٢٨) ، وشَدُّه مَحْلـول ، وعِزُّه مَـذْلُول ، وسِهـامُه قاصِـرَةٌ عن مَرامِيهـا ، وناقِصـة عن مَباغِيها .

لا جَـرَمَ أنَّ النِّعمـةَ وَفِيَّة سـابِغَـة الظِّلِّ ، شامِلَـةُ الفَضْل ، فـائِضَة السِّجَـال ، جارِيـة الـجِـرْيا (٢٩) ، مُخْضَـرَّة الجَناب ، مُنْهَلَّـةالسَّحـاب ، قد لَبِسَـتْ أثـوابَ الجمال ، وحـازَتْ أَسْبابَ الكَمال ، فعُيون السُّـوءِ عنـها مَصْروفـة ، وعُيوبُ البَشَرِمن دُونها مَصْدُوفة (٣٠) ، ولِمَ لا تكونُ كذلـك ؟ وقد نَزلت فـى مَنْزِلها الأرْحَب ، ووقعـتْ فى مَوْقعها الأوْجـب ، ورَتَعَتْ فى

---

(٢٥) الزُّبى : جمع الزُّبيـة ، وهى الرابية التى لا يـعلوها الماء - مفعمـة : مملوءة - الحيا : الخصـب والمطر - الرَّبْع : المنزل أو الحىّ .

(٢٦) نَضَـتْ : ألقتْ ونزعت - المـدرع : ثوب من صوف ، أوجبّة مشقوقة القدم - مغدقة : كثيـرة غزيرة - متأقة : مملوءة ، وأتأق الوعاء أى ملأه - الجفان : جمع الجفنة ، وهـى القصعة - الجنان : جمع الجَنّة ، وهى الحديقة ذات النخل والشجر - ممـرعة : خصبـة - الرِّيف : الأرض فيهـا خصب وزرع - المشرع : المورد - الخفْض : الـدّعَة وسعة العيش.

(٢٧) الدَّعَة : الخفض والسـعة فى العيـش - القِرى : ما يُقدّم إلى الضيـف .

(٢٨) مصـدوع : مشقوق مكـسور - الصفاة : الحجر العريض الأملس ، والمعنى أنه مغلوب مهزوم - مثلول أى قد ذهب سلطانه - الغَرْب . حدّ السيف أو السكين أو غيرهما - مفلول : مثلوم مكسور.

(٢٩) السِّجال : جمع السَّجْل ، وهو الدلو العظيمة فيها ماء - الجريال : صبغ أحمر.

(٣٠) مصـدوفة أى معرضة مائلة .

مَرْتَعِها الأخْصَب ، وسَلَكَت فى مَسْلَكِها الألْحَب ⁽³¹⁾ ، وحازَتْ دَوَاعِى الاستحقاق من أصْلٍ راسٍ ، وفَرْع سامٍ ، وتَليدٍ كريمٍ ، وطريفٍ عظيمٍ ، وفضـائلَ ساريةِ الأخبار ، ومَحاسـنَ ظاهرةِ الآثار ، قد خَطَبَ بها لسانُ الدّهر ، وتَقَلَّدَ بها نِجَادَ الفَخْر⁽³²⁾ ، وتجاوزتِ الأوْهام فما تُدْرَك ، وزادتْ على التَّعداد فما تُحْصَر .

* * *

---

(٣١) الألْحب : الأوضح .
(٣٢) النِّجاد : حمائل السيف .

كتاب فى الصيد :

مَذَاهِبُ اللَّهْوِ يا سَيِّدِى تَخْتَلِفُ كَثِيراً وتَتَّفِقُ قَلِيلاً ، والأَغْرَاضُ فيه تَقَعُ ضُروباً ، وتَفْتَرِقُ فُنوناً ، والنَّفس مائِلَةٌ إليه بالطِّباع المُرَكَّبَة فيها ومُسَاعِدَةٌ عليه بالشَّهوَة المُتَمَكِّنَة منها ، ولَها فيه تَرَوُّحٌ مِن تَعَبِ الجِدِّ ، وتَخَلُّصٌ مِن كَلَفِ الكَدِّ . وقد قال النبىّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم : « رَوِّحوا هذه القُلوبَ تَعِ الذِّكْرَ ». ولا راحةَ لها كالشَّىء الَّذى يُلهِيها والأمرِ الذى يُصيبُ الهَوَى مِنها . وإذا كان ذَلك كذلك ، وعلِمْنا أنَّ فيه صَلاحاً لِلإنسَانِ ، ونَفْعاً لِلقُلُوبِ والأَبْدانِ ، فَقَدْ صَارَ من الأُمورِ الَّتى يُحمَد التَّعَرُّضُ لَها ، والتَّعَلُّلُ بِها ، ويَلُوحُ الحَظُّ مِنْهَا ، والفَضْلُ فِيها .

ويَبقَى بَعْدَ تَقَرُّرِ هذه القَاعِدَةِ ، وتَقَدُّمِ هذه المقدِّمة ، تَخَيُّرُ المَرَاكِبِ الَّتى تُركَبُ منه ، وتَبَيُّنُ المَسَالِكِ الَّتِى تُسْلَكُ فيه ، لِيُنَالَ الغَرَضُ على أَمْنٍ فى مَوْرِدِهِ ومَصْدَرِه ، وسَلَامةٍ فى أَوَّلِه وآخِرِه ، وتَكُونَ الفَائِدَةُ بَعيدةً من التَبِعَةِ ، واللَّذَّةُ سَليمةً من الشُّبْهَة ، فإنَّه لا خَيْرَ فى حَلَاوَةٍ تُحْدِثُ مَرارةً وشَهوَةٍ تَغلب مُروءةً ، وَوَطَرٍ يُوتِغُ دِيَانَةً (١) ، وأَرَبٍ يُفسِد عاقِبةً ، سِيَّمَا وقَدْ أَوْجَدَنا اللهُ سَعَةَ الطَّرِيق ، وأَخرَجَنا من ضَغْطَةِ المَضِيق ، وفَرَّق لَنا بَيْنَ مَذاهِب الحَلَال والحَرامِ ، ومَكاسِبِ الثَّوَابِ والآثَام ، ولم يَجعَل علينا فى الدِّين مِنْ حَرَجٍ ، ولا جَعَلَ لنا فى الهِدايَةِ مِنْ عِوَجٍ .

وإنَّ من أَحْسَنِه اسْماً ، وأَوْضَحِه حُكماً ، وأَفضَلِه رِفْقاً ، وأَكْثرِه غُنماً ، الصَّيْدُ الَّذى أحلَّه اللهُ لِخَلْقِه ، وَوَسَّعَ بِه فى رِزْقِه ونَصَّ على إِطلاقِه فى كِتَابه ، ورخَّص فى استِعْمالِه لِعِباده ، فقال تعالى : « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ . قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وما عَلَّمْتُم مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ الله . فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ واذْكُروا اسْمَ اللهِ عَلَيْه . واتَّقوا اللهَ . إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَاب » . (٢)

وهُوَ جَامِعٌ لِمَسَرَّةِ النَّفْسِ ، ورِياضَةِ الجِسْم ، وضَامِنٌ لِرِزْقِ الطَّالِبِ والمَطْلُوبِ بِه ، والآخِذِ والمَأْخُوذِ له – فالحَمْدُ للهِ على ما سهَّلَه من المَطلوبَات ، وحَلَّله من الطيِّبات ،

---

(١) وطر : حاجة فيها مأرب وهمّة – يوتغ : يفسد ويهلك .

(٢) سورة المائدة ٤

وأعطاه من المَواهِبِ السَّابِغَات ، وَوَعده من البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ ، حَمْداً يَحرِس مَوْجودَ النِّعمة ؛ ويُوجِبُ مَأْمُولَ الزِّيَادَة ، بِمَنِّه وقُدْرَتِه .

وكُنَّا خَرَجْنَا فى هَـذِه الأيَّام الَّتى طَابَ زَمَانُهَا وهَوَاؤُهَا ، واعْتَدَلَ لَيْلُهَا ونَهَارُهَا ،وحَرَكَتِ الشَّمْسُ فيهـا أسْبابَ النُّمُـو ، وكانَـت على مـا قِيل أوَّلَ أوْقَـاتِ البَدوِ إلـى مُتَنَزَّهٍ أرِج ، ثُـمَّ أَصْحَرْنَا (٣) منه إلى مُتَصَيَّدٍ فَرِج ، وَقَدِ اخضَـرَّتْ جُلودُ الأرْضِ ، واهتَـزَّتْ قُدُودُ الـرَّوْضِ ، وتَلَوَّنَـتِ الصَّحـراءُ بـالحَمْرَاءِ والصَّفْـراء ، وتَعَطَّرَتْ بِنَـوافِجِ البَيْضَـاء والزَّرْقَـاء ، وأبرزَ الـرَّبِيعُ حَدائقَه ، وضَرَبَ سُرادِقَه (٤) ، وعَرَضَ بَضائِعَه ، وأظهَرَ صَنَائِعَـه ، واكْتَسَى الشَّجَرُ أوْرَاقَه ، ومَدَّ النَّوْرُ رواقَـه ، وسَحبَ الـزَّهْرُ مَطَـارِفَه (٥) ، ونَشَـرَ زَخَارِفَـهُ ، والماءُ يَجْـرِى فى أنْهَـارِه مُتَدَفِّقـاً ، ويَنْسابُ فى سواقِيه مُتَرَقْرِقاً ، قَدْ لاحَ مِنْ صَفَائِه ، مَـواقِعُ حَصْبَائِه ، وبَدَا من زُرْقَةِ لَوْنِه ، مَكْنُونُ سِرِّه ، والطَّيـرُ مُتَنَاغِيَـةٌ بِلُغَاتِها الغَـرِيبةِ ، ومُتَنـادِيَة بـأصواتِها العَجِيبَـة ، ومُتَنَاظِـرَةٌ بألْحَـاظِها السَّاجِيَة ، ومُتَجَاوِبَةٌ بألْفَاظِهَا الشَّاجِيَة (٦) ، ومُتَجَادِلَةٌ بِحُجَجِهَا الصَّائِبَة ، ومُتَقَاتِلَةٌ بأجْنِحَتِها الضَّارِبَة ، بَيْنَ دَاعِى شَجَن ، وشَاكِى حَزَن ، وغائِرٍ على سَكَن (٧) ، ومُنَازِع على مَسْكَن .

ومَعَنَا بُـزَاة كريمَـةُ الجِنْسِ ، لَطِيفَـةُ الحُسْنِ ، صُفْـرُ الأحْدَاقِ ، مُهَـذَّبَةُ الأخْـلاَق ، كَثِيرَةُ التَّلَفُّتِ من الوَجَل (٨) ، شَدِيدَةُ التَقَلُّبِ مِـنِ العَجَل ، تَطِيرُ بأجْنِحةٍ ضَامِنَـةٍ لِلنَّجاح ، وتَبْطِشُ بِمَخَالِـبَ نَائِيَةٍ عن السِّـلاَح ، وتُخطِّفُ الطَّيْرَ بِمِثْلِ رَجْـعِ البَصرَ ، وتَمْنَعُه الوِرْد قَبْـلَ الصَّدَر – وصُقورٌ كبيرةُ الرُّؤوسِ ، عزيزَةُ النُّفُوس ، حَدِيدَةُ النَّظَـر قَلِيلَةُ الحَصَر ، لَهَا مَكْرٌ فى فِعْلها ، وكَيْدٌ فى خَتْلِها (٩) ، ودَهاءٌ فـى اقْتِنَاصِهـا ، ومَضَاءٌ فى اخْتِـلاَسِها ، وشَـواهِينُ خُـزْرُ العُيُونِ (١٠) ،

---

(٣) أصحرنا : برزنا إلى فضاء لا يوارينا فيه شىء أو إلى الصحراء .

(٤) النوافج : الرياح الشديدة الهبوب أو أوعية المسك – السرادق : ما أحاط بالشىء كالحائط أو غيره .

(٥) الرّواق : بيت كالفسطاط يحمل على عمود واحد – المطارف : أردية من خزّ ، والمراد : أن الأرض تلوّنت بالزهور المختلفة ألوانها .

(٦) الحصباء : صغار الحجارة – متناغية أى لها أصوات تشبه النغمات ، والنَّغية مثل النغمة ، والمناغاة : الملاطفة بالمحادثة – الساجية : الفاترة – الشاجية : المطربة أو المشوّقة .

(٧) السكن : الحبيب الذى تسكن النفس إليه .

(٨) البزاة : جمع البازى ، وهو نوع من الصقور له مهارة فائقة فى الصيد – الوجل : الخوف والفزع .

(٩) الحصر : السكوت أو العىّ – ختلها : خداعها ومراوغتها ، فهى تخدع الصيد قبل أن تفتك به .

(١٠) تقدير الكلام : « ومعنا بزاة وشواهين » – والشواهين : جمع الشاهين وهو طائر جارح من جنس الصقر – خزر العيون : ضيقتها .

صَحِيحَةُ الظُّنُونِ ، طَوِيلَةُ المَسَارِحِ ، بَعِيدَةَ المَطَارِحِ ، قَوِيَّةُ النَّشاط ، تَامَّةُ الإِنْبِسَاطِ ، تَعْلُو ثُمَّ تُسِفُّ ، وتَثْقُلُ ثُمَّ تَخِفُّ - وكِلابٌ سَلُوقِيَّةٌ (١١) خُمْصُ البُطونِ ، شِدادُ المُتُونِ خَفِيفَةُ الصُّدُورِ ، مَحْبُوكَةُ الظُّهورِ ، طِوَالُ الأَعْنَاقِ ، هُرْتُ الأَشْدَاقِ (١٢) ، عَرِيضَةُ المَناكِبِ ، مَشْحُوذَةُ المَخَالِبِ ، كَثِيرَةُ التَّعَطُّفِ ، قَلِيلَةُ التَّوَقُّفِ ، سَرِيعَةُ العَدْوِ ، نَشِيطَةُ الخَطْوِ - وأُخَرُ يُوَازِجُ ذَكِيَّةُ القُلُوبِ ، بَطِيئَةُ اللُّغُوبِ ، تَسْتَخْرِجُ الدُّرَّاجَ (١٣) مِنْ أَمَاكِنِه ، وتَلِجُ إِلَيه في مَكَامِنِهِ ، وتَسْتَدِلُّ عَلَيْه بآنافِها ، وتَقْتَنِصُه بأَفْوَاهِهَا - وفُهودٌ رُقْشُ الأَلوانِ ، صَلِيبَةُ الأَبْدانِ ، غُلْبُ الرِّقَابِ ، مُذَرَّبَةُ الأَنْيَابِ ، شَدِيدَةُ الإِرْهَاقِ ، سَرِيعَةُ اللَّحَاقِ ، كَثِيرَةُ الإِطْرَاقِ ، قَلِيلَةُ الإِخْفَاقِ ، عَظِيمَةُ التَوَحُّشِ ، دائِمَةُ التَّوَجُّسِ ، تَخِفُّ نَهْضَتُهَا عِنْدَ الحَرَاكِ ، وتَثْقُلُ وَطْأَتُهَا مَعَ الإِدْرَاكِ ، وتَفْرِسُ إِذَا دَنَتْ ، وتَخْنِسُ إذا نَأَتْ ، وتُجَارِي الظِّبَاءَ إذا طَمَعَتْ وَثْباً ، وتَخْنِسُ عَنْهَا إذا فَاتَتْ مَكْراً (١٥) - وتَحتَنَا كُلُّ فَرَسٍ رَائِعِ الصُّورَةِ ، وَاسِعِ الصَّهْوَةِ ، سائِلِ الغُرَّةِ ، سَرِيعِ الكَرَّةِ ، خَالِصِ العِرْقِ ، صَادِقِ العِتْقِ ، أَشَمِّ الحَارِكِ ، غَلِيظِ الوَرِكِ ، رَحْبِ اللَّبَانِ ، سَلِسِ العِنَانِ سَلِيمِ الأَعْضَاءِ ، شَدِيدِ الإِصْغَاءِ ، إن وَقَفَ فَطَوْد ، وإِنْ جَرَى فَرِيحٌ . (١٦)

فَأَرْسَلْنَا أَحَدَ بُزَاتِنَا عَلَى دُرَّاجَةٍ سَنَحَتْ ، فَمَا لَبِثَهَا أَنْ علاهَا وصَرَعَها ، وجَثَمَ عَلَيْهَا ومَلَكَها ، وأرسَلْنَا آخرَ على أُخرى فَسَقَطَتْ حِينَ رَأَتْه ، مُتَخَوِّفَةً مِنْه ، وتَنَجَّتْ في نَفَقٍ مِنَ الأَرْضِ مُتَخَفِّيَةً عَنْه ، وأَتْبَعْنَاها يُوزَجًا من يوازِجِنا ، فَتَتَبَّعَهَا حَتَّى ظَفِرَ بِهَا واقْتَلَعَهَا .

وأَطْلَقْنَا شَوَاهِينَنَا على ما طَارَ نَافِراً من الإِوَزِّ والحُبَارَى وطَيرِ المَاءِ فَتَحَلَّقَتْ في السَّمَاءِ صَاعِدَةً ، ثـم انقَضَّتْ بِمَا ضَرَبَتْه صَائِدَةً والخَيلُ تَركُضُ مُخْتَلِفَةً تَتبَعُ فُرسَانُهَا الآثَارَ ،

---

(١١) الكلاب السلوقيّة : كلاب قويّة تستعمل في الصيد ، منسوبة إلى سلوق وهي قرية باليمن .

(١٢) خُمص: ضامرة - المتون :الظهور- هُرْت: واسعة - الأشداق :جمع الشدق،وهو جانب الفم مما تحت الخدّ.

(١٣) اليوازج : من الطيور - اللغوب : التعب والإعياء - الدراج : طير أرقط من طيور العراق ، واحدته : درّاجة .

(١٤) فهود : جمع فهد ، وهو نوع من السباع بين الكلب والنمر يصاد به - رقش : جمع أرقش ، وهو ما فيه نقط بياض وسواد - صليبة : قويّة شديدة - غُلب : غليظة ، واحدة : أغلب - مذرّبة : حادّة .

(١٥) التوجّس : التحسّس والتسمّع إلى الصوت - تخنس أي تبلي في الصيد بلاء حسنًا ، يقال : خنس الفارس إذا لزم وسط المعركة شجاعة - تخنس : تتأخّر .

(١٦) الصهوة : موضع السرج من ظهر الفرس - الغرّة: بياض في جبهة الفرس - الحارك : أعلى الكاهل - اللّبان : الصدر من ذي الحافر خاصّة - الطود : الجبل العظيم .

ويَنتزعون الأظفار، ويأخُذون ما يَقَع إلى الأرضِ مُعَقَّراً، ويَحْصُل فيها مُعَفَّرا [١٧]، حَتَّى اكْتَفَيْنَا مِنَ الطُّيُورِ الحَاصِلَةِ فى أيْدِينَا، وتَجَاوَزْنَا مُقامنَا إلى صَحراءَ مُعْشِبَةِ الرُّبَى، مُفْعَمَةِ الزُّبَى، قَد وَسَمَهَا الغَيْثُ بِنُقُوشِه، ومَلأَهَا الرَّبِيعُ بِفُرُوشِه. وَسِرْنَا مُتَفَرِّقِين فى أوْسَاطِهَا وأطْرَافِها، ومُتَبَدِّدِين فى عُرُوضِهَا وأطْوالِها، إلى أنْ بَدَا لَنَا سِرْبٌ من الظِّبَاءِ، مُتَّبِعاً لِلأطْلَاءِ [١٨]، مُسْتَرْسِلاً فى مَنازِلِ ذَلك الفَضاءِ، غافِلاً عَمَّا غَشِيَه من نَوازِلِ القَضَاء، فَقَصَدْنَاه مُجِدِّينَ، وصِحْنَا من وَرائِه وأمَامِه مُرْهِجِين [١٩]، وخَلَّيْنَا الكِلابَ فَطَلَبَتْ، وأرْسَلْنَا الفُهودَ فَوَثَبَتْ، وأطْلَقْنَا الصُّقُورَ فَعَلَتْ، ومَضَى كُلُّ فَرِيقٍ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِه، ويَطْلُبُ على طَبِيعَتِه، فَلَمَّا عايَنَتِ الظِّبَاءُ ما أحَاطَ بِهَا من البَلاَءِ، انْبَسَطَتْ مُحَاوِلَةً لِلنَّجَاء، فكانتِ الرِّيحُ لَهَا حَامِلَةً، وبَيْنَ أرْجُلِهَا جَارِيةً، والصُّقُورُ حَائِمة على رُؤُوسِها، تَضرِب وُجُوهَها بأجْنِحَتِها، وتَسْتَوْقِفُها على طُلأَبِهَا، فلَحِقَتِ الكِلاَبُ ومَلَكَت، وفَرَسَتِ الفُهُودُ وبَرَكَت [٢٠]، وخَفَّتِ الخُيُولُ وأدْرَكَتْ حتَّى إذا أخَذْنَا العَدَدَ الكثيرَ مِنْهَا، وبَلَغْنَا الغَرَضَ المَقصُودَ فِيهَا، عَنَّتْ لَنَا عانَةٌ [٢١] مِنْ حَمِير، صادِرَةً عن غَدير، قد تَلَوَّنَتْ جُلُودُهَا بلَوْنِ السَّحَاب، وأمِنَتْ فى مَسَارِبها بَغَتَاتِ الطُّلاَّب، فَرَكَضَ الفُرْسَانُ نَحْوَهَا تَقْرِيباً وخَبَباً، وتَخْبِيباً [٢٢] وطَلَباً، فَلَمْ نَرَ مِنْهَا مَعَ قُوَّةِ جَدِّها، وسُرْعَةِ جَرْيِهَا، إلاَّ عَيْناً تَطرِف وبَرْقاً يَخْطِف، والخَيْلُ تَتْلُوهَا عادِيةً، وتَقْفُوها تَابِعَةً، لا تَطْلُبُ أمْراً إلاَّ كَانَتْ فيه مُسَاوِقة، ولا تُحاوِلُ شَأواً إلا كانَت إلَيْه مُسابِقَة [٢٣]. فَلَمَّا طَالَتْ عَلَيْهَا الأشْوَاطُ، وقَلَّ مِنْها الانْبِسَاطُ، ونَتْ حَيْرَةً وضُعْفاً، وقَصَرَتْ جَزَعاً وخَوْفاً، فأظَلَّهَا – أصحابُنا لاحِقِينَ، وأحَاطُوا بها مُحْدِقِين، وانْتَضَوا السُّيُوفَ واسْتَلْحَمُوها [٢٤]، وتَفَرَّقُوا أعضاءَها وتَقَسَّمُوهَا، ولَمْ يُفلِتْ إلَّا ما أُمِلِيَ لَه فى البَقاء، وخُلِّيَ عَنْه لِلْغَنَاء.

---

(١٧) معقّر بمعنى مجروح أو مذبوح – معفّر بمعنى ممرّغ فى العفَر أى التراب.

(١٨) الأطلاء: جمع طلى، وهو الولد من ذوات الظلف والخفّ.

(١٩) مرهج أى يثير الرهج وهو الغبار.

(٢٠) بركت أى جثمت.

(٢١) عنّت: ظهرت أمامه واعترضت – العانة: القطيع من حمر الوحش.

(٢٢) البغتات: الفجاءات – التقريب: ضرب من عدو الفرس دون الإسراع – الخبب: أن ينقل الفرس فى عدوه أيامنه وأياسره جميعا – التخبيب: الخداع والمخاتلة.

(٢٣) عادية: جارية – مساوقة: متابعة مجارية – الشأو: الشوط والغاية.

(٢٤) وَنَتْ: ضعفت – استلحموها: نالوا منها وأثروا فيها.

وتَقَضّى اليومُ إلاّ أقلَّه ، وتَصَرَّمَ النَّهارُ إلاّ بَعْضُه ، وعارَضَنا المَلالُ فاسْتَوقَفنا ، وأدْرَكَنا الكَلاَلُ فَقَطَعَنَا ، ولَوَينا عائِدين إلى مَنْزِل قد كُنَّا اسْتَحْسَنَّاه فى مُتَوَجَّهِنا ، وأَعْدَدْناه لِلإرَاحَةِ عِنْدَ مَرْجِعِنا ، ونَزَلْنا منه على نَشَزٍ أشْرَفَ بِنَا على مِياهٍ مُغْدِقَة وأنوارٍ مُونِقة قَدْ ضَحِكَ أُقْحُوانُهَا ، وتَفَتَّحَ آذْرِيُونُهَا ، واخْتَلَفَتْ ألوَانُهَا وغَنَّى ذُبَابُها ، وسَقَتْهَا المُزْنُ بِصَوْبِها ، وغَذَّتْهَا الوِهادُ بِصُباباتِها[٢٥] ، فأدَّيْنا فُروضَ صَلَوَاتِنَا ، وأَصَبْنَا مِنْ طَعَامٍ قد كان فِى صُحْبَتِنا ، وجَمَعْنا ما أفاءَهُ اللهُ عَلَيْنَا فى مُتَصَيَّدِنَا ، ورَكِبْنَا من بَعْدُ راجِعين إلى مَنَازلنا ، قد أنجَحَتْ مَسَاعِينَا ، وامْتلأتْ من الرِّزْقِ الحَلاَلِ أيْدِينَا .

فالحَمْدُ للهِ حَمْداً مُكَرَّراً على ما أوْلاه عِبادَه من الفَضْلِ ، وأسْنَاهُ لَهُمْ من الحَظِّ ، وأوجَبه عَلَيْهم مِن الحَقِّ ، فى مُتَصَرَّفَات الإحسان ، والطَّوْلِ الَّذِى جعل لهم من الطيور السائرات والوحوش الساريات أكلاً ، ومن السباع العاديات والجوارح الضاريات سخريًّا ، وإياه نسأل دوام لطفه ، وتمام صنعه ، وإيزاع شكره[٢٦] ، واستحقاق مزيده ، بجوده ومجده .

---

(٢٥) نشز : مكان مرتفع - الأقحوان والآذريون : من أنواع الزهور - المزن : السحاب الممطر - صوبها : مطرها - الوهاد : الأرض المنخفضة - صباباتها : ما تبقى فيها من المطر .

(٢٦) الطوْل : الفضل واليسر - سخريًّا أى مسخرة للإنسان ، مذللة له لقضاء مآربه - أوزعه الشكر إيزاعًا أى ألهمه إياه .

ابن حزم الظاهری

(٣٨٤ - ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٤ م)

هو أبو محمد على بـن أحمد بن سعيد بن حزم ، أجمعُ أهل الأنـدلس لعلوم الإسلام ومن أوفرهـم حظا مـن الشعر - وكـان يقولـه - ومن البـلاغة والأخبـار ، مع المشـاركة فـى المنطق والفلسفة . وقد كان له - مثلما كان لأبيه أبـى عمرو أحمد - رئاسة الوزارة وتدبير الملك ، إلا أن ذلك لـم يشغله عن التـأليف والانكباب على العلـوم حتى صار فقيهـا حافظا بحسـن استنباط الأحكام من مصادرها .

كان ابن حزم جريئـا لا يصانع أحدًا ولا يهاب سلطانًا ، فأثار عليـه جمعا كبيراً من العلماء والفقهاء وناقشهـم ، فغلبهم بلسانه الذى قيـل فيه « لسان ابن حزم وسيـف الحجاج شقيقان » وبازدياد حـدة المساجلات اتهم بالضلال مـن قبلهم ، ونهوا الناس عن مخالطتـه ، ثم نجحوا فى تخويـف ملوك الأندلس منه . فـأبعد وطورد ، وفى بادية لَبْلَـة غربى الأندلس حـط رحاله ، حتى توفاه الله تاركا نحو أربعمائة مجلد فى ثمانين ألف ورقة تقريبا .

ومن أبرز مؤلفـاته التى طبعت « جمهرة الأنساب » و « الفصل فى الملل والأهواء والنحـل و « الناسخ والمنسوخ » و « إبطـال القيـاس » و « المفاضـلـة بين الصحـابـة » و « الإحكام لأصول الأحكام » فى ثمـانى مجلدات ، و « مداواة النفوس » و « رسالـة فى الأخلاق » و « طوق الحمامـة فى الألفة والألّاف » نشـره بتـروف لأول مرة فى طبعــة لـيدن سنة ١٩١٤ ، وتـوالت الطبعات بعد ذلك . وللكتاب ترجمة إنجليزية نشرها نيكل عام ١٩٣١

والغريـب أن عدة من الذيـن كتبوا عن ابـن حزم لم يشيـروا إلى « طوْق الحمامـة » ضمن مؤلفاتـه . فـكأنهم يشـككون فيـه أو يحـاولون تخـليصه من وزر ترويجـه - وفيه مـا فيه مما لا يرضى به العلمـاء - وخالف هؤلاء المقرّى فى « نفـح الطيـب » وابن قيم الجوزية فـى أكثر من موضع بكتابه المشهور « روضة المحبين » . ومن جانـب آخـر يـرى بعض الذين عُنوا به مؤخرًا ، أن يد التحريف امتدت إليه بالزيادة والنقصان .

* * *

من كتاب : « طوق الحمامة فى الألفة والألاف » :

ا - باب : « علامات الحبّ » .

وللحبّ علامـاتٌ يَقْفُوها الفَطِن ، ويَهْتدى إليهـا الذكىّ ، فأوّلُها إدمـانُ النظر . . . فترى الناظرَ لا يَطْـرف ، يَتَنَقّل بتنقُّل المحبوب ويَنْزوى بانـزوائه ، ويميلُ حيثُ مال ، كالحِـرباء مع الشمس . . . (١)

ومنها الإقبـالُ بالحديـث ، فما يكادُ يُقبـل على سِوى محبـوبه ، ولو تَعَمَّـد ذلك ، وإنَّ التكلُّف ليستبينُ لمن يَرْمقـه فيه ، والإنصات لحديثه إذا حدّث ، واستغراب كلّ مـا يأتى به ، ولو أنّه عين المحال وخرْق العادات ، وتصديقه وإن كَذَب ، وموافقته وإن ظَلَم ، والشهادةُ له وإن جَار ، واتّباعُه كيف سَلَك وأىّ وجْهٍ من وُجوه القول تناول .

ومنها الإسراعُ بـالسير نحو المكان الـذى يكون فيه ، والتعمّد للقُعـود بقُرْبه والدُّنُـوّ منه ، واطّراح الأشغـالِ الموجبـة للزوال عنـه ، والاستهانـةُ بكلّ خطـب جليل داعٍ إلـى مُفارقتـه ، والتباطؤ فى المشى عند القيام عنه . . .

ومنها بَهتٌ (٢) يقع ورَوْعَةٌ تبدو على المُحِبّ عند رُؤية من يحبُّ فجأةً وطلوعِه بَغْتَة .

ومنها اضـطرابٌ يبـدو عـلـى المحبِّ عند رؤيـة من يُشبه محبوبَه أو عنـد سماع اسمه فجـأة . . .

ومنها أنْ يجودَ المـرءُ ببذل كلِّ ما كـان يقدرُعليه مما كان يشـحُّ به قبل ذلك ، كـأنّه هو الموهوب لـه والمسعىُّ فى حظّه ، كـلّ ذلك ليُبْدِى محاسنـه ويُرَغّب فى نفسـه ، فكم بخيلٍ جاد ، وقَطـوبٍ تَطَلّق ، وجَبانٍ تَشَجَّع ، وغليـظِ الطَّبع تَظَرّف ، وجـاهلٍ تأدّب ، وتَفِلٍ تـزيّن ، وفقير تجمَّل ، وذى سِنٍّ تَفَتَّى ، وناسكٍ تَفَتّك ، ومَصُونٍ تَهَتّك . (٣)

---

(١) الحرباء : دويبة يضرب بها المثل فى التلوّن ، تستقبل الشمس نهارها وتدور معها .

(٢) بهت : حيرة أو شحوب - رَوْعة : فزعة .

(٣) التَفِل : الذى يترك استعمال الطيب - تفتّى : صار فتىّ واتّخذ سبيل الفتوّة - تفتّك : مجُن ومضى غير مُبال - تهتّك : افتضح ولم يبال أن يهتك ستره .

وهذه العلامات تكون قبلِ استعارِ نارِ الحبِّ وتأجُّج حريقه ، وتوقُّد شُعَلِه ، واستطارةِ لَهَبه ، فإمّا إذا تمكنَّ وأخذَ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سِرارًا (١) ، والإعراضَ عن كلّ من حَضر إلا عن المحبوب جهارًا . . .

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكلّ بصير : الانبساطُ الكثير الزائد ، والتضايقُ في المكان الواسع ، والمجاذبةُ على الشيء يأخذه أحدهما ، وكثرةُ الغَمْز الخَفِيّ ، والميلُ بالاتكاء ، والتعمّد لمسِّ اليد عند المحادثة ، ولمس ما أمكنَ من الأعضاء الظاهرة ، وشربُ فَضْلَةِ ما أبقى المحبوبُ في الإناء ، وتحرّي المكانِ الذي يُقابله فمه .

ومنها علاماتٌ مُتضادّة ، وهي على قدر الدواعي والعوارض الباعثة والأسباب المحرّكة والخواطر المهيّجة ، والأضدادُ أندادٌ ، والأشياءُ إذا أفرطتْ في غايات تضادّها ، ووقفتْ في انتهاء حدودِ اختلافها تشابهَتْ ، قُدْرَةٌ مِن الله - عزّ وجلّ - تضلّ فيها الأوهام . فهذا الثلج إذا أُدْمِنَ حَبْسُه في اليد فَعَلَ فِعْلَ النار، ونجد الفَرَحَ إذا أفرط قتل ، والغمَّ إذا أفرط قتل ، والضحكَ إذا كثر واشتدّ أسال الدمعَ من العينين . وهذا في العالم كثير ، فنجد المحبَّيْنِ إذا تكافآ في المحبّة ، وتأكّدتْ بينهما تأكّدًا شديدًا كثر تَهاجُرُهما بغير معنًى ، وتضادُّهما في القول تعمّدًا ، وخروجُ بعضهما على بعض في كلّ يسيرٍ من الأمور ، وتتبّعُ كلٍّ منهما لفظةً تقعُ من صاحبه وتأوّلها على غير معناها ، كلّ هذه تجربة ليبدو ما يعتقده كلٌّ واحدٍ منهما في صاحبه .

والفرق بين هذا وبين حقيقةِ الهجرةِ . والمضادّةِ المتولّدة عن الشحناء ومحارجة (٢) التشاجر سرعَةُ الرّضى ، فإنّك بينما ترى المحبّيْن قد بلغا الغاية من الاختلاف الذي لا تُقَدِّرُه يصلحُ عند الساكن النفس السالم من الأحقاد في الزمنِ الطويل ، ولا يَنْجَبِر عند الحَقُود أبدًا ، فلا تلبثُ أن تراهُما قد عادا إلى أجمل الصُّحبة ، وأُهْدِرَت المعاتبة ، وسَقَط الخِلاف ، وانصرفا في ذلك الحين بعيْنه إلى المُضاحكة والمداعبة ، هكذا في الوقتِ

---

(١) السرار: المناجاة والإعلام بالأسرار.

(٢) المحارجة : تبادل الإحراج ، وهو إثارة التضايق بالمماحكة .

الواحـد مـرارًا . وإذا رأيـت هـذا مـن اثنين فـلا يخالجك شكٌّ ولا يَدْخُلَنَّكَ رَيْبٌ ألبتـة ، ولا تتمار[٣] فى أن بينهمـا سرًا من الحبّ دفينًا ، واقْطع فيه قَطْع من لا يصرفه عنـه صارف . ودونكها تجـربةً صحيحـةً وخبرةً صـادقة . هـذا لا يكون إلّا عـن تكافٍ فـى المودّة وائتـلافٍ صحيح ، وقد رأيته كثيرًا .

ومن أعـلامه أنك تجـد المحبَّ يستدعـى سماعَ اسم مَـن يحبّ ، ويستلذُّ الكـلام فى أخباره ويجعلهـا هِجِّيراه ، ولا يرتاحُ لشـىءٍ ارتياحَه لهـا ، ولا يُنَهْنِهُهُ[٤] عن ذلـك تخوّفُ أن يفطنَ السـامع ويفهَم الحاضـر ، وحبُّك الشىءَ يُعمـى ويُصِمّ . فلو أمكن المحـبَّ ألّا يكونَ حديثٌ فى مكانٍ يكون فيه إلّا ذِكْر من يُحِبّه لما تعدّاه .

ويعرض للصادق المودّة أن يبتدىء فى الطعام ، وهو لـه مُشْتَهٍ ، فما هو إلّا وقتَ ما يهتاجُ له ذكرُ مَن يحبّ صارَ الطعامُ غُصَّةً فى الحَلْق وشَجًى فى المرىء[٥] ، وهكذا فى الماء ، وفى الحديث ، فإنه يفاتحُكَه مُبتهجًا ، فتعرض لـه خَطْرَةٌ من خَطَرات الفكر فيمن يحبّ ، فتستبين الحَوالَة[٦] فى منطقه ، والتقصيرَ فـى حديثه ، وآيةُ ذلك الوُجـومُ والإطراقُ وشِدّةُ الانغلاق ، فبينما هو طَلْقُ الوجه خَفيفُ الحركات صار مُنْطبقًا مُتَثاقلاً حائرَ النفس جامدَ الحركة يَبْرَم من الكلمة ويَضْجَرُ من السُّؤال .

ومـن عـلاماته حبُّ الـوَحْدَة ،والأُنْسُ بالانفـراد، ونُحـولُ الجسم دون حَـرٍّ يكون فيه ، ولا وَجَعٍ مـانعٍ من التقلّب والحـركة والمشى ، دليلٌ لا يكـذب ، ومُخبرٌ لا يخون عن عِلّـةٍ فى النفس كامنة .

والسَّهَرُ من أعراض المحبّين ، وقد أكثر الشعراء فـى وصفه ، وحَكَوا أنهم رُعاةُ الكواكب وواصفو طولِ الليل . . .

---

(٣) لا تتمار : لا تجادل .
(٤) هجِّيراه : دأبه وعادته - ينهنهه : يكفّه ويزجره .
(٥) المرىء : مجرى الطعام والشراب ، وهو رأس المعدة .
(٦) الحوالة بمعنى الانتقال من حال إلى أخرى .

ويعرض للمحبّ القلقُ عند أحد أمرين : أحدُهما عند رجائه لقاءَ مَنْ يحبّ ، فيعرض عند ذلك حائل . . . والثانى عندَ حادثٍ يحدُث بينهما من عِتابٍ لا تَدْرى حقيقتُه إلّا بالوصف ، فعند ذلك يشتدّ القلق حتى يُوقَفَ على الجَليَّة ، فإما أن يذهبَ تحامله إنْ رَجَا العَفْو ، وإمّا أنْ يصيرَ القلقُ حزنًا وأسفًا ، إنْ تخوّفَ الهَجْر .

ويعرِضُ للمُحبّ الاستكانةُ لجفاء المحبوب عليه ، وسيأتى مفسّرا فى بابه إنْ شاء الله تعالى ، ومن أعراضه الجزَعُ الشديدُ والحسرة المفْظِعة تغلبُ عندما يرى من إعراض محبوبه عنه ونِفاره منه ، وآيةُ ذلك الزفيرُ وقِلّه الحركةِ والتأوُّه وتنفُّس الصُّعَداء . . .

ومن علاماته أنك ترى المحبَّ يحبُّ أهلَ محبوبِه وقرابتَه وخاصّتَه حتى يكونوا أحْظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصّته .

والبكاءُ من علامات المحبّ ، ولكن يتفاضلون فيه ، فمنهم غزير الدمع هامِل الشئون[7] تُجيبه عَيْنُه وتحضُره عَبْرتُه إذا شاء ، ومنهم جَمودُ العين ، عَديمُ الدَّمع ، وأنا منهم ، وكان الأصلُ فى ذلك إدمانى أكْل الكُنْدُر[8] لخفقانِ القلب ، وكان عَرَض لى فى الصِّبا ، فإنّى لأُصاب بالمصيبة الفادحة فأجدُ قلبى يَتَفَطّر ويتقطّع ، وأحِسّ فى قلبى غُصّةً أمرّ من العَلْقَم ، تَحُول بينى وبين تَوْفِية الكلام حقَّ مخارجِه ، وتكادُ تَشْرَقُنى بالنَّفَس أحيانًا ، ولا تجيبُ عينى البتّةَ[9] إلّا فى الندرة بالشىء اليسير من الدمع . . .

ويعرِضُ فى الحبِّ سوءُ الظنّ واتّهامُ كلِّ كلمةٍ من أحدهما وتَوْجيهُها إلى غير وَجْهها ، وهذا أصلُ العتاب بين المحبّين ، وإنى لأعلمُ من كان أحسنَ الناس ظنًّا ، وأوسعَهم نفسًا ، وأكثرَهم صَبرًا ، وأشدَّهم احتمالًا ، وأرْحَبَهم صدرًا ، ثم لا يحتمِلُ ممّن يُحبّ شيئًا ، ولا يقع له معه أيسر مخالفة حتى يُبدىَ من التَّعَرْبُد[10] فنونًا ، ومن سوء الظن وجوهًا وفى ذلك أقول شعرًا ، منه :

---

(7) شئون العين : مجاريها الدمعيّة – هامل : سائلة .

(8) الكندر : اللبان .

(9) البتة : أى قطعًا بلا رجعة .

(10) العربدة : سوء الخُلُق .

أســـــىء ظَنّـــــى بكــــلِّ مُحْتَقَـــــر   تــــأتــــى بــــه ، والحقيــــرُ مــــن حَقَّــــرَهْ
كــــى لايُــــرَى أصـــلُ هِجْـــرةٍ وقِلًـــىً   فــــالنــــارُ فــــى بَــــدْء أمــــرِهــــا شَــــرَرَه
وأصْـــــلُ عُظْـــــمِ الأمـــــورِ أهـــــونُهــــا   ومِــــن صَغيــــرِ النَّــــوى تــــرى شَجَــــره

وترى المحبَّ إذا لم يَثِق بنقاء طويَّةِ محبوبِه له ، كثيرَ التحفُّظ ممّا لم يكنْ يتحفّظ منه قبل ذلك ، مثقّفًا لكلامــه ، مزيِّنًا لحركاته ، ومرامى طرفه ، ولاسيّما إنْ دُهى بمُتَجَنٍّ وبُلى بمُعَرْبِد .

ومن آياته مراعاةُ المحبّ لمحبوبه ، وحفظُه لكلِّ ما يقعُ منه ، وبحثُه عن أخباره حتّى لايَسْقُطَ عنه دقيقه ولا جليله ، وتتبُّعُه لحركاتِه ، ولعمرى لقد ترى البليد يصبرُ فى هذه الحالة ذكيًا ، والغافلِ فطِنًا .

* * *

٢ - باب « من أحبّ من نظرة واحدة » :

وكثيرًا ما يكونُ لُصُوق الحبِّ بالقلْب من نظرةٍ واحدة ، وهو ينقسم قسمين ، فالقسمُ الواحد مخالفٌ للذى قبل هذا ، وهو أن يَعْشَق المرءُ صورةً لا يعلم مَنْ هى ولا يدرى لها اسمًا ولا مستقرًّا ؛ وقد عرض هذا لغير واحد .

خــبر :

حدثنى صاحبُنا أبو بكر محمد بن أحمد بن إسحاق عن ثِقة أخبره - سَقَط عنّى اسمُه ، وأظنّه القاضى ابن الحذاء - أن يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرمادىّ (١١) كان مُجتازًا عند باب العطّارين (١٢) بقرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمعَ النساء ، فرأى جاريةً أخذت بمجامع قلبه ، وتخلّل حبّها جميعَ أعضائه ، فانصرف عن طريق الجامع ، وجعل يَتبعها ،

(١١) ابن الحذاء هو محمد بن يحيى فقيه أندلسىّ متفنّن فى العلوم ، توفى سنة ٤١٦ وكان ابنه أحمد قاضيا ، توفى فى ٤٦٧ - يوسف بن هارون الرمادىّ شاعر أندلسىّ بارز ، توفى فى ٤٠٣
(١٢) ويعرف أيضا بباب إشبيلية ، وهو أحد أبواب قرطبة السبعة .

وهى ناهضةٌ نحو القنطرة (١٣) ، فجازتْها إلى الموضع المعروف بالرَّبَض . فلما صارتْ بين رياضِ بنى مَرْوان - رحمهم الله - المبنيَّةِ على قُبورهم فى مقبرة الربض خَلْف النهر نظرتْ منه منفردًا عن الناس لاهمَّةَ لها غيرها ، فانصرفت إليه ، فقالت له : «ما لك تمشى ورائى ؟» فأخبرها بعظيم بليّته بها ، فقالت له : «دَع عنك هذا ولا تطلُب فضيحتى فلا مطمع لك فىَّ البتّة ولا إلى ما ترغبه سبيل ، فقال : إنى أقنع بالنظر ، فقالت : ذلك مُباح لك ، فقال لها : يا سيّدتى ، أحُرَّة أم مملوكة ؟ قالت : مملوكة . فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : خلوة ، قال : ولمن أنت ؟ فقالت له : علمك والله بما فى السماء السابعة أقربُ إليك مما سألت عنه ، فدع المُحالَ . فقال لها : يا سيدتى ، وأين أراك بعد هذا ؟ قالت : حيث رأيتَنى اليومَ فى مثل تلك الساعة من كلِّ جمعة . فقالت له : إمّا تنهض أنت أو أنهض أنا . فقال لها : انهضى فى حفظ الله . فنهضت نحو القنطرة ، ولم يمكنْه اتباعها لأنّها كانت تلتفتُ نحوه لترى أيُسايرُها أم لا ، فلما تجاوزتْ باب القنطرة أتى يَقْفُوها ، فلم يقعْ لها على مسألة .

قال أبو عمر - وهو يوسف بن هارون - «فوالله لقد لازمتُ باب العطّارين والرَّبَض من ذلك الوقت إلى الآن فما وقعتُ لها على خبر ولا أدرى أسَماءٌ لَحِسَتْها أم أرض بَلَعَتْها ، وإنّ فى قلبى منها لأحَرّ من الجَمْر ، وهى خلوة التى يتغزّل بها فى أشعاره ، ثمّ وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله فى سببها إلى سَرَقُسْطة فى قصّة . . .

والقسمُ الثانى مخالفٌ للباب الذى يأتى بعد هذا الباب - إن شاء الله - ، وهو أن يعلَق المرءُ من نظرةٍ واحدة جاريةً معروفةَ الاسم والمكان والمنشأ ، ولكنّ التفاضُلَ يقعُ فى هذا فى سرعة الفناء وإبطائه ، فمن أحبَّ من نظرة واحدة وأسرع العلاقةَ من لمحة خاطرة فهو دليلٌ على قلّة الصبر ومُخبرٌ بسرعةِ السُّلُوّ وشاهدُ الطرافة (١٤) والملَل . هكذا فى جميع الأشياء : أسرعُها نموًا أسرعُها فناء ، وأبطؤُها حُدوثًا أبْطؤها نفادًا .

---

(١٣) تقع هذه القنطرة شمالى قرطبة الجنوبىّ ، بناها أغسطس قيصر ، ورمّمت مرارًا ، وقد رمّمها الحكم المستنصر سنة ٣٦٠

(١٤) الطرافة : من قولهم فلان طِرف أى لا يثبت على امرأة ولا صاحب ولا عهد .

خــبر :

إنى لأعلـم فتًى من أبنـاء الكتاب ، ورآته امـرأةٌ سَرِيَّةُ النشـأة ، عاليةُ المنصـب ، غليظةُ الحجاب ، وهو مُجتاز ، ورآته فى موضع تَطَّلِعُ منـه ، كان فى منزلها ، فعلقتْه وعَلقها ، وتهادَيا المراسلةَ زمانًا علـى أدقّ من حدّ السيف ، ولولا أنّى لـم أقصدْ فى رسـالتى هذه كشفَ الحيل وذكرَ المكايـد لأوردتُ مما صحّ عندى أشياءَ تحيّـر اللبيبَ وتُذْهِش العاقـل ، أَسْبَلَ اللهُ علينا ستره ، وعلى جميع المسلمين بمَنِّه ، وكفانا .

* * *

٣ - باب « المساعد من الإخوان » :

ومن الأسبابِ المتمنّـاةِ فى الحبّ أنْ يَهَبَ اللهُ - عـز وجلّ - للإنسان صـديقًا مخلصًا ، لطيفَ القَوْلَ ، بسيطَ الطَّوْل ، حسَنَ المأخذ ، دقيـقَ المنفذ ، متمكّنَ البيان ، مُرهَفَ اللسان ، جليلَ الحلم ، واسعَ العلم ، قليلَ المخالفة ، عظيمَ المساعفة ، شديدَ الاحتمال ، صابرًا على الإدلال ، جمَّ المـوافقة ، جميلَ المخـالفة ، مُستوىَ المطـابقة . محمودَ الخـلائق ، مكفوفَ البوائق ، محتومَ المساعدة ، كارهًا للمباعدة، نبيلَ المداخل ، مصروفَ الغوائل (١٥) ، غامضَ المعانى ، عـارفًا بالأمانى ، طيّبَ الأخـلاق ، سريَّ الأعراق ، مكتومَ السرّ، كثيـرَ البِرّ، صحيحَ الأمانة ، مأمونَ الخيانة ، كريمَ النفس ، صحيحَ الحدس(١٦)، مضمونَ العون ، كاملَ الصون ، مشهورَ الـوفاء ، ظـاهرَ الغنـاء ، ثابـتَ القريحـة ، مبذولَ النصيحـة ، مستيقِنَ الـوداد ، سهـلَ الانقياد ، حسنَ الاعتقـاد ، صادَق اللّهجة ، خفيفَ المُهجة ، عفيفَ الطبـاع ، رَحْبَ الذراع ، واسـعَ الصـدر ، متخلّـقًا بـالصبر، يـألفُ الإمحـاض ، ولا يعرفُ الإعـراض ، يستريـحُ إليه ببَلابله (١٧) ، ويشاركُـه فى خلوةِ فكـره ، ويفاوضهُ فـى مكتومـاته ، وإن فيه للمحـبّ لأعظمَ الراحات ، وأين هذا ؟!

---

(١٥) البوائق والغوائل ، كلاهما . بمعنى الدواهى والشرور .

(١٦) الحدس : الفراسة أو الإدراك .

(١٧) الإمحاض : إخلاص النصيحة - البلابل : الهموم والوساوس .

فإن ظفِرَتْ به يداك فشُدَّهما عليه شدَّ الضَّنين ، وأَمسِك بهما إمساك البخيل ، وصُنْه بطارفك وتالدك ، فمعه يكمل الأُنس ، وتنجلي الأحزان ، ويَقْصُرُ الزَّمانُ ، وتَطيبُ الأحوال ، ولن يفقدَ الإنسانُ من صاحبِ هذه الصفِة عونًا جميلًا ، ورأيًا حَسَنًا ، ولذلك اتّخذ الملوكُ الوزراءَ والدخلاءَ كيَ يخفّفوا عنهم بعضَ ما حُمّلوه من شديد الأمور، وطُوِّقوه من باهظ الأحمال ، ولكي يستغنُوا بآرائهم ، ويستمدّوا بكفايتهم ، وإلّا فليس في قوّة الطبيعة أن تقاوِم كلّ ما يَرِد عليها دون استعانة بما يشاكلها وهو من جنسها .

ولقد كان بعضُ المحبّين - لِعُدْمِه هذه الصِّفَةَ من الإخوان ، وقلّةِ ثقته منهم لِما جَرَّبه من الناس وأنه لم يَعْدَم ممّن باح إليه بشيء من سرِّه أحدَ وجهين : إمّا إزراءً على رأيه وإمّا إذاعة لسرّه أقام الوحدةَ مقامَ الأُنس ، وكان ينفرد في المكان النازح عن الأنيس ، ويُناجي الهواء ، ويُكلّم الأرضَ ، ويجد في ذلك راحةً كما يجدُ المريض في التأوُّه ، والمحزونُ في الزَّفير ، فإن الهمومَ إذا ترادفتْ في القلبِ ضاق بها ، فإن لم يَفِضْ منها شيءٌ باللسان ، ولم يُسْتَرَحْ إلى الشكوى لم يلبثْ أن يهلكَ غمًّا ويموتَ أسفًا .

وما رأيت الإسعادَ[18] أكثرَ منه في النساء ، فعندهنّ من المحافظة على هذا الشأن والتواصِي بكتمانه والتواطؤ على طيّه إذا اطّلَعْنَ عليه ما ليس عند الرجال ، وما رأيتُ امرأةً كشفتْ سِرَّ متحابَّيْن إلّا وهي عند النساء ممقوتةٌ مستثقَلةٌ مَرْمِيَّةٌ عن قوس واحدة . وإنه ليوجدُ عند العجائز في هذا الشأن ما لا يُوجد عند الفتيات ، لأنّ الفتيات منهنّ ربمّا كشفْنَ ما عَلِمْن على سبيل التغايُر، وهذا لا يكون إلّا في النُّدْرة ، وأمّا العجائز فقد يئِسْن من أنفسهن فانصرف الإشفاقُ مَحْضًا إلى غيرهن .

خــبر :

وإني لأعلمْ امرأةً مُوسِرةً ذاتَ جَوارٍ وخَدَم ، فشاع على إحدى جواريها أنها تعشقُ فتىً من أهلها ويعشقُها ، وأنَّ بينهما معانيَ مكروهة ، وقيل لها : إنَّ جاريتك فلانة تعرف ذلك وعندها جَليّة أمرها ، فأخذتها وكانت غليظة العقوبة ، فأذاقتها من أنواع الضرب والإيذاء مالا يصبر على مثله جُلَداءُ الرجال ، رجاءَ أن تبوحَ لها بشيء مما ذُكر لها ، فلم تفعل البتة .

---

(١٨) الإسعاد : الإسعاف والمعاونة .

خـــبـــر :

وإنى لأعلمُ امـرأةً جليلةً حافظـة لكتاب الله - عـزّ وجلّ - ناسكةً مُقْبلـةً على الخير، وقـد ظَفَـرتْ بكتاب لفتـىً إلى جارية كان يَكْلَف بهـا ، وكانت فى غير مِلْكها ، فعـرّفته الأمر فرام الإنكار فلـم يتهيّأ لـه ذلك ، فقالت لــه : مـالك ؟ ومـن ذا عُصِـم ؟ فـلا تُبـال بهــذا ، فوالله لا أطلعتُ على سرّكما أحدًا أبدًا ، ولو أمكنتنى أن أبتاعها لك من مالى ، ولو أحاط به كلّه لجعلتُها لك فى مكانٍ تصلُ إليها فيه ، ولا يشعرُ بذلك أحد .

وإنك لترى المرأةَ الصالحةَ المُسِنّة المُنقطعة الرجـاء من الرجال ، وأحبُّ أعمالِها إليها وأرجاها للقبول عندها سَعْيُها فى تزويج يتيمةٍ ، وإعارةُ ثيابِها وحليّها لعروسٍ مُقِلّة .

٤ - خـــبـــر :

وإنى لأُخبـرك عنى أنـى أَلِفتُ فـى أيّام صبـاى أُلفةَ المحبّـة جاريـةً نشأتْ فـى دارنا ، وكانت فى ذلك الوقـت بنتَ ستة عشر عامًا ، وكانت غايةً فـى حُسْن وجهها وعقلها وعَفافها وطهارتها وخَفرها ودَمـاثتها ، عَديمة الهزل ، منيعةَ البذْل ، بديعـة البِشْر ، مُسْبَلَةَ السَّتر ، فَقيدة الذام (١٩) ، قليلـة الكلام ، مَغْضـوضـةَ البصر ، شـديـدة الحذر ، نقيّـةً مـن العيوب ، دائمـةَ القُطوب ، كثيرةَ الوَقـار ، مُسْتَلَذّة النّفار ، لا توجَّهُ الأراجـىّ نحوها ، ولا تقفُ المطـامعُ عليها ، ولا مُعَرَّس (٢٠) للأمل لديها ، فـوجْهها جالبٌ كلَّ القلوب ، وحالها طـاردٌ مَن أمّها ، تزدان فى المنع والبخل، ما لا يزدان غيرها بالسماحةِ والبذل، مـوقوفةٌ على الجدّ فى أمرها غير راغبة فى اللهو، علـى أنها كانـت تُحْسِـنُ العُـودَ إحسانًا جيّـدًا ، فجنحتُ إليها وأحْببتهـا حبًّا مفـرطًا شديدًا ، فسعيـتُ عامين أو نحوهما أن تجيبنى بكلمـةٍ وأسمع مِن فيها لفظةً ، غيرَ مـا يقعُ فى الحديث الظاهر إلى كلِّ سامع ، بأبلغِ السعيِ فما وصلْتُ من ذلك إلى شىء البتة .

---

(١٩) مسبلة : مُرْسلة مُرخاة - الذام : العيب .

(٢٠) القطوب : العبوس - الأراجىّ : جمع الأرْجيّة وهى ما أُرْجى وأُخرّ - معرّس : مكان .

فلعهدي بمُصْطَنَع كان في دارنا لبعض ما يُصْطَنَعُ له في دُور الرؤساء تجمّعتْ فيه دَخَلتُنا(٢١) ودَخَلة أخي: من النساء ونساء فتياننا ومن لاثَ بنا(٢٢) من خدمنا، ممن يخفُّ موضعهُ ويلطفُ محلّه، فلبثن صدرًا من النهار، ثم تَنَقَّلْن إلى قَصَبَةٍ(٢٣) كانت في دارنا مشرفةٍ على بستانِ الدار، ويُطَّلَعُ منها على جميع قُرْطُبَةَ وفُحُوصِها، مفتّحةِ الأبواب، فصرْنَ ينظرن من خلال الشراجيب، وأنا بينهنّ(٢٤).

فإني لأذكرُ أني كنتُ أقصدُ نحو الباب الذي هي فيه أُنسًا بقُربها مُتَعَرِّضًا للدُّنُوّ منها، فما هو إلاّ أنْ تراني في جوارها فتترك ذلك البابَ وتقصد غيره في لطف الحركة، فأتعمدّ أنا القصدَ إلى الباب الذي صارتْ إليه فتعود إلى مِثل ذلك الفعل من الزّوال(٢٥) إلى غيره، وكانت قد علمتْ كَلَفي بها، ولم يشعر سائرُ النسوانِ بما نحن فيه، لأنهنّ كُنّ عددًا كثيرًا، وإذ كلّهن يتنقلن من باب إلى باب لسبب الاطّلاع من بعض الأبواب على جهات لا يُطَّلَعُ من غيرها عليها، واعلمْ أن قيافةَ النساء فيمن يميل إليهنّ أنفذ من قيافة مُدلج(٢٦) في الآثار. ثم نزلْن إلى البستان، فرغب عجائزُنا وكرائمنا إلى سيّدتها في سماع غنائها، فأمَرْتُها فأخذت العودَ وسَوَّته بخَفَر وخجلٍ لا عهدَ لي بمثله، وإن الشيءَ يتضاعف حسنُه في عين مُسْتحسنه، ثم اندفعت تغنّي بأبيات العباس بن الأحنف(٢٧)، حيث يقول:

إني طَرِبْتُ إلى شمسٍ إذا غَرَبَتْ ... كانت مغاربُها جوفَ المقاصير
شمسٌ مُمَثَّلَةٌ في خَلْقِ جاريةٍ ... كأنَّ أعطافَها طيُّ الطّوامير
ليست من الإنس إلّا في مناسبةٍ ... ولا من الجنّ إلّا في التصاوير
فالوجهُ جوهرةٌ، والجسمُ عبهرةٌ ... والرّيح عنبرةٌ، والكلّ من نور
كأنها حين تخطو في مجاسدِها ... تخطو على البَيْض أوحَدِّ القوارير(٢٨)

---

(٢١) مصطنع: وليمة - الدخلة: من يكثر دخولهم على قوم منهم أو ليسوا منهم.
(٢٢) لاث: اختلط.
(٢٣) قصبة: غرفة أو غرف مشرفة في الدار.
(٢٤) فحوص قرطبة: ضواحيها - الشراجيب: الشبابيك أو الطاقات.
(٢٥) الزّوال: التحوّل.
(٢٦) القيافة: المعرفة القائمة على التتبّع - مدلج: رجل من كنانة كان مشهورًا بالقيافة أي قصّ الأثر.
(٢٧) العباس بن الأحنف: الشاعر العباسي المعروف، توفي سنة ١٩٢ وقد اشتهر بحبّه لفوز.
(٢٨) المقاصير: جمع المقصورة، ومن معانيها: الستر يزيّن للعروس في جوف البيت - الطوامير: الصحف - عبهرة: ممتلىء ناعم، والعبهرة: الياسمين - المجاسد: الأثواب الملاصقة للجسد.

فلعمرى لكأن المِضرابَ إنَّما يقعُ على قلبى ، وما نسيتُ ذلك اليومَ ولا أنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا ، وهذا أكثرُ ما وصلتُ إليه من التمكّن من رؤيتها وسماع كلامها ، وفى ذلك أقول :

لاتَلُمْها على النِّفار ومَنْعِ الـ ... وَصْلِ ما ذاكُمُ لها بنكيرِ
هل يكونُ الهلالُ غيرَ بعيدٍ ... أو يكونُ الغزالُ غيرَ نَفُور

وأقول :

منعتِ جمالَ وجهِك مُقْلَتَيَّا ... ولفظُك قد ضَنَنتِ به عَلَيَّا
أراكِ نذرْتِ للرحمنِ صَوْمًا ... فلستِ تكلّمين اليوم حيًّا (٢٩)
وقد غَنَّيتِ للعباسِ شِعْرًا ... هنيئًا ذا لعبّاسٍ هَنيّا
فلو يلقاك عَبّاسٌ لأضْحى ... لفوزٍ قاليًا وبكم شجِيّا

ثم انتقل أبى – رحمه الله – من دُورنا المحدَثَةِ بالجانب الشرقىّ من قرطبة فى رَبَضِ (٣٠) الزاهرة إلى دورنا القديمة فى الجانب الغربىّ من قرطبة ببلاط مغيث فى اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدىّ بالخلافة ، وانتقلتُ أنا بانتقاله ، وذلك فى جمادى الآخرة سنةَ تسع وتسعين وثلاثمائة ، ولم تنتقل هى بانتقالنا لأمورٍ أوجبتْ ذلك . ثم شُغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنّكبات وباعتداءِ أرْبابِ دولته ، وامتُحِنّا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار ، وأرْزَمت الفتنة ، وألقتْ باعَها (٣١) وعمَّت الناسَ وخصَّتنا ، إلى أن توفّى أبى الوزير – رحمه الله – ونحن فى هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة عام اثنين وأربعمائة ، واتّصلت بنا تلك الحالُ بعده إلى أنْ كانت عندنا جنازةٌ لبعض أهلنا ، فرأيتُها – وقد ارتفعت الواعية (٣٢) – قائمةً فى المأتم وسط النساء فى جُملة البواكى والنوادب ، فلقد أثارتْ وجدًا دَفينًا وحرّكت ساكنًا ، وذكّرتنى عهدًا قديمًا ، وحبًّا تليدًا ، ودهرًا ماضيًا ، وزمنا عافيًا ، وشهورًا خوالى ، وأخبارًا تَوالى ، ودُهورا فَوانى ، وأيّامًا قد ذهبت ، وآثارًا

---

(٢٩) قال تعالى : « إنى نذرت للرحمن صومًا فلن أكلّم اليوم إنسيًا » – سورة مريم ٢٦

(٣٠) الرَّبَض : ما حول المدينة .

(٣١) أى اشتدّت ، وأرزمت الريح وغيرها : صوّتت ، والباع : مسافة ما بين الكفّين إذا انبسطت الذراعان يمينا وشمالا .

(٣٢) الواعية : الصراخ على الميّت .

قد دُثِرت ، وجَدَّدت أحْزاني ، وهَيَّجتَ بَلابلي ، على أنّى كنت فى ذلك النهار مُرزأً(٣٣) مُصابًا من وجوه ، وما كنتُ نسيتُ ، الأسف ، واستجلب الوجدُ ما كان منه كامنًا فلبّاه مجيبًا ، فقلت قطعة ، منها :

يبكّى لميْتٍ مات وهو مُكَرَّم ... ولَلْحَىُّ أوْلَى بالدموع الذوارفِ
فيا عجبًا من آسِفٍ لامرىءٍ ثَوَى ... وما هو للمقتُول ظلمًا بآسِف

ثم ضرب الدهر ضَرَبانَه (٣٤) ، وأُجْلينا عن منازلنا ، وتغلّب علينا جندُ البَرْبر ، فخرجتُ عن قرطبة أوّل المحرم سنة أربع وأربعمائة ، وغابتْ عن بصرى بعد تلك الرُّؤية الواحدة ستّةَ أعوام وأكثر ، ثم دخلتُ قرطبة فى شوّال سنة تسع وأربعمائة ، فنزلتُ على بعض نسائنا ، فرأيتها هنالك ، وما كدت أن أميّزها حتىّ قيل لى هذه « فلانة » ، وقد تغيّر أكثرُ محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنيتْ تلك البهجةُ ، وغاض ذلك الماءُ الذى كان يُرى كالسَّيْف الصقيل والمرآة الهِنْديّة ، وذبل ذلك النُّوار (٣٥) الذى كان البصرُ يقصدُ نحوه منبهرًا ، ويرتاد فيه متخيّراً ، وينصرف عنه متحيّرًا ، فلم يبق إلّا البعضُ المُنْبىءُ عن الكلّ ، والخبر المُخِبر عن الجميع ، وذلك لقلّة اهتبالها بنفسها وعدمها الصيانةَ التى كانت غُذِيت بها أيامَ دولتنا وامتدادِ ظِلِّنا ، ولتبذُّلها (٣٦) فى الخروج فيما لابدَّ لها منه ، مما كانت تُصانُ وترفع عنه قبل ذلك ، وإنمّا النساءُ رياحين متى لم تُتعاهد نقصت ، وبَنِيَّة متى لم يُهْتَبَل بها استهدمت ، ولذلك قال من قال : إن حُسْنَ الرجالِ أصْدَقُ صدقًا وأثبتُ أصلاً وأعتَقُ جَوْدَةً لصبره على ما لو لقى بعضَه وجوهُ النساء لتغيّرتْ أشدَّ التغيير ، مثل الهَجير والسَّمُوم والرِّياح واختلاف الهواء وعدم الكِنّ (٣٧) – وإنّى لو نلتُ منها أقلّ وصلٍ وأنِستُ بعضَ الأنس لخولطتُ طَربًا أو لمتُّ فرحًا ، ولكن هذا النفار الذى صبرّنى وأَسْلانى .

---

(٣٣) مرزأ : مصاب برزء كثير – الشجى : الحزن .
(٣٤) الضَرَبان كالضرب بمعنى التفريق والمباعدة .
(٣٥) النّوار : الزهر ، واحدته نوّارة .
(٣٦) البّذْل : ترك التصوّن والتحرزّ أو ترك التزينّ والتجملّ .
(٣٧) الهجير : نصف النهار فى القيظ خاصّة – السَّمُوم : الحرّ الشديد – الكِنّ : ما يقى ويستر .

وهذا الوجه من أسباب السلوّ صاحبه فى كلا الوجهين معذور وغير ملوم ، إذا لم يقع تثبّتٌ يُوجبُ الوفاء ، ولا عهدٌ يقتضى المحافظة ، ولا سَلَفَ ذِمامٌ ، ولا فَرَط تصادُقٌ يُلام على تَضييعه ونِسيانه .

* * *

ابن رشيق القيرواني

(٣٩٠ - ٤٦٣ هـ / ١٠٠٠ - ١٠٧١ م)

هو أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي ، ولد في المسيلة بالمغرب ، وكان أبوه مملوكا روميا من موالي الأزد ، صَنْعته الصياغة ، وقد انصرف ابن رشيق إلى الأدب وعالج الشعر وتقدّم فيه وصار أحد البلغاء المبرزين ، ومن شيوخه الذين أخذ عنهم أبو عبد الله القزاز القيرواني وعبد الكريم النهشلي .

وفي عام ٤٠٦ ارتحل إلى القيروان لملاقاة أهل الأدب ، ومدح صاحبها المعزّ بن باديس بن المنصور ، ولما هجم عليها البدو من بني هلال وقتلوا أهلها وخرّبوها انتقل إلى صقلية وأقام بقرية صغيرة من قراها تسمى مازر إلى أن توفي .

وكان بينه وبين ابن شرف القيرواني مناقضات ومهاجاة ، وصنف عدّة رسائل في الرد عليه ، منها رسالة سمّاها « ساجور الكلب » ، ورسالة « نجح الطلب » ، ورسالة « قطع الأنفاس » ورسالة « رفع الإشكال ودفع المحال » .

ومن مؤلفاته : « شرح موطأ مالك » ، و« الغرائب والشذوذ في اللغة » و« ميزان العمل في تاريخ الدول » و« المساوي » و« قراضة الذهب في صناعة الأدب » وهي عن السرقات الشعرية والنقد الأدبي ، و« أنموذج الزمان في شعراء القيروان » ترجم فيه لحوالي مائة من معاصريه .

وأشهر كتبه : « العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده » ، ويتميز بحسن الترتيب ، ويشتمل على أكثر من مائة باب ، جمع فيه الآراء المختلفة التي وردت في مؤلفات البلاغيين والنقاد الذين سبقوه ، وعرض فيه لمسائل الشعر البيانية والبديعية المختلفة ، وتحدث عن فضل الشعر ومنافعه ومضارّه ، وأن الإسلام لم يحاربه ، وأخبار الشعراء القدامى والمحدثين ، وقضايا اللفظ والمعنى ، والطبع والصنعة ، والأوزان والقوافي والبديع وأنواعه ، والأغراض الشعرية . . . ، وقد نال هذا الكتاب الاستحسان على مرّ العصور ، قال ابن خلدون عنه « وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة (أي صناعة الشعر) وإعطائها حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله » .

وكان شاعرا ، ومن شعره :

وقائلةٍ : ماذا الشُّحُوب وذا الضَّنَى ؟ فقلتُ لها قولَ المشُوقِ المتيَّمِ :
هواكِ أتاني ، وهو ضَيْفٌ أُعِزُّه فأطعمتُه لحمي ، وأسقيتُه دَمي

* * *

اللفظ والمعنى :

اللفظ جسم ، وروحهُ المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم : يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختلّ بعضُ اللفظ كان نقصًا للشعر وهُجْنة عليه [1] ، كما يعرض لبعض الأجسام من العَرَج والشَّلَل والعَوَر وما أشبه ذلك ، من غير أن تذهب الروح ، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذى يعرض للأجسام من المرض بعرض الأرواح ، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ ، وَجَرْيه فيه على غير الواجب ، قياسًا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح ، فإن اختل المعنى كلهُ وفد بقى اللفظ مَوَاتًا لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطُّلاوة فى السمع [2] ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شىء فى رأى العين ، إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة ، وكذلك إن اختلَ اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ؛ لأنا لا نجد روحًا فى غير جسم البتة .

ثم للناس فيما بعد آراء ومذاهب : منهم من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايتَهُ ووُكْده ، وهم فرق : قومٌ يذهبون إلى فخامة الكلام وجَزَالته ، على مذهب العرب من غير تصنع ، كقول بشار :

إذا ما غضِبنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً ... هتكنا حجاب الشمسِ أو قطرتْ دما [3]
إذا ما أعرنا سَيِّداً من قبيلة ... ذَرَى مِنْبَرَ صلىَّ علينا وَسلما

وهذا النوع أدل على القوة ، وأشبه بما وقع فيه من موضع الافتخار، وكذلك ما ملح به الملوك يجب أن يكون من هذا النحت .

---

(١) هجنة : عيب وقبح .
(٢) المَوات : ما لا حياة فيه - الطلاوة : الحسن والرونق .
(٣) حجاب الشمس : ضوؤها .

وفرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلا القليل النادر : كأبي القاسم بن هانيء ومن جرى مجراه ؛ فإنه يقول أول مُذَهَّبته :

أصاخت فقالت : وَقْع أجْرِدِ شَيْظَم وشامت فقالت : لمع أبيض مِخْذَم

وما ذُعِرَتْ إلَّا لِجَرْسِ حُلِيِّها ولا رَمَقَتْ إلَّا بُرَى في مخدَّم(٤)

ولَيْس تحت هذا كله إلا الفسادُ ، وخلافُ المراد ، ما الذي يفيدنا أن تكون هذه المنسوب بها لبست حليها فتوهمته بعد الإصاخة والرَّمْقِ وَقْعَ فرس أو لمع سيف ؟ غير أنها مغزوة في دارها ، أو جاهلة بما حملته من زينتها ، ولم يخف عنا مراده أنها كانت تترقبه !! فما هذا كله ؟ وكانت عند أبي القاسم مع طبعه صنعة ، فإذا أخذ في الحلاوة والرقة ، وعمل بطبعه وعلى سجيته ؛ أشبه الناس ، ودخل في جملة الفضلاء ؛ وإذا تكلّف الفخامة ، وسلك طريق الصنعة أضَرَّ بنفسه ، وأتعب سامع شعره . ويقع له من الكلام المصنوع والمطبوع في الأحايين أشياء جيدة ، كقوله في المطبوع يصف شجعانًا :

لا يأكل السِّرْحَانُ شِلْوَ عقيرهم مما عليه من القَنَا المتكسر(٥)

« العقير » ههنا منهم ، أي : لم يمت لشجاعته حتى تحطم عليه من الرماح مالا يصل معه الذئب إليه كثرة ، ولو كان العقير هو الذي عقروه هم لكان البيت هجواً ؛ لأنه كان يصفهم بالضعف والتكاثر على واحد . وقوله في المصنوع :

وجنيتم ثمرَ الوقائع يانعاً بالنصر من ورق الحديد الأخضر

فهذا كله جيد بديع ، وقد زاد فيه على قول البحتري :

حملت حمائله القديمة بقلةً من عهد عاد غضة لم تَذْبُل

---

(٤) أصاخت : استمعت - الأجرد : الفرس القصير الشعر - شيظم : طويل الجسم - شامتْ السحاب أو البرق أي نظرت إليه تتحقّق أين يكون مطره - المخذم : السيف القاطع - البُرى : جمع بُرَة وهو الخلخال - المخدّم : موضع الخدمة « أي الحلقة » من المرأة .

(٥) الشلو : العضو أو البقية من كل شيء - العقير بمعنى القتيل .

ويروى : « من عهد تبع » .

ومنهم من ذهب إلى سهولة اللفظ فعُنِيَ بها ، واغتفر له فيها الركاكة واللين المفرط : كأبي العتاهية : وعباس بن الأحنف ، ومَنْ تابعهما ، وهم يرون الغاية قول أبى العتاهية :

يا إخوتي ، إن الهوى قاتلي فيسِّروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا في أتباع الهوى فإنني في شُغُلٍ شاغل
عيني على عتبةَ مُنْهَلّةٌ بدمعها المُنْسَكِبِ السائل
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى من شدة الوجدِ على القاتل
بَسَطْتُ كفي نحوكم سائلا ماذا تردون على السائل ؟
إن لم تنيلوه فقولوا له قولا جميلا بَدَلَ النائل
أو كنتمُ العام على عُسْرة منه فَمَنُّوهُ إلى قابلَ (٦)

وقد ذكر أن أبا العتاهية وأبا نواس والحسين بن الضحاك الخليع اجتمعوا يومًا ، فقال أبو نُوَاس : لينشد كل واحد قصيدة لنفسه في مراده من غير مدح ولا هجاء ، فأنشد أبو العتاهية هذه القصيدة ، فسلما له وامتنعا من الإنشاد بعده ، وقالا له : أما مع سهولة هذه الألفاظ ، وملاحة هذا القصد ، وحسن هذه الإشارات ؛ فلا ننشد شيئا ، وذلك في بابه من الغزل جيد أيضًا لا يفضله غيره .

ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ، ولا يبالي حيث وقع من هُجْنة اللفظ وقبحه وخشونته : كابن الرومي ، وأبي الطيب ، ومن شاكلهما : هؤلاء المطبوعون ، فأما المتصنّعون فسيرد عليك ذكرهم إن شاء الله تعالى .

وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى ، سمعتُ بعض الحذّاق (٧) يقول : قال العلماء : اللفظ أغلى من المعنى ثمناً ، وأعظم قيمة ، وأعز مطلبا ؛ فإن المعاني موجودة في

---

(٦) يقال هو في شُغْل شاغلٌ للمبالغة - النائل : العطية - قابل : مستقبل ، ويقال عام قابل أي مُقبل .
(٧) حُذّاق : جمع حاذق وهو الماهر في العمل ، الموغل في ممارسته .

طباع النـاس ، يستوى الجـاهل فيهـا والحاذق ، ولكـن العمـل علـى جَوْدة الألفـاظ ، وحسن السبك ، وصحة التأليف ، ألا ترى لو أن رجلا أراد فى المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه فى الجود بالغيـث والبحر ، وفى الإقدام بالأسد ، وفـى المَضَاء بالسيف ، وفى العزم بـالسيل ، وفى الحسن بـالشمس ، فإن لم يحسـن تركيب هذه المعـانى فى أحسـن حُلاها من اللفـظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قَدْر .

وبعضهم – وأظنـه ابن وكيع – مثـل المعنى بالصـورة ، واللفظ بالكُسْـوَة ؛ فإن لم تقـابل الصورة الحسناء بمـا يشاكلها ويليق بهـا من اللباس فقد بخسـت حقها ، وتضاءَلت فـى عين مبصرها .

وقال عبد الكريم – وكان يؤثر اللفظ على المعنى كثيراً فى شعره وتآليفه - : الكلام الجزل أغنى عن المعانى اللطيفة [مِنَ المعانى اللطيفـة] عن الكلام الجزل ، وإنما حكاه ونقله نقلا عمن روى عنه النحاس .

ومن كلام عبـد الكريم : قال بعض الحـذاق : المعنى مثال ، واللفظ حَـذْوٌ ، والحذْوُيتبع المثال ؛ فيتغيربتغيره ، ويثبت بثباته .

ومنه قول العباس بن حسـن العَلَوِى فى صفة بليغ : معانيه قَوَالِـبُ لألفاظه ، هَكذا حكى عبد الكريم ، وهـو الذى يقتضيه شرط كلامه ، ثم خـالف فى موضع آخر فقال : ألفـاظه قوالب لمعانيه ، وقوافيه مُعَدَّة لمبانيه ، والسجع يشهد بهذه الرواية الأخرى ، وهى أعرف .

والقالب يكـون وعاء كالذى تفـرغ فيه الأوانى ، ويعمل بـه اللَّبِنُ والآجُرُّ (٨) ، وقد يكون قدراً للوعاء كالـذى يقام به اللوالك، وتصلح عليه الأخفاف ،ويكون مثـالا كالذى تحذَى عليه النعال ، وتفصل عليه القلانس ، فلهذا احتمل القالب أن يكون لفظاً مرةً ومعنى مرةً . (٩)

---

(٨) اللبن : المضروب من الطين يُبنى به دون أن يُطبخ – الآجرّ : اللبِن المحرّق المعدّ للبناء .

(٩) تحذى : تقطع – القلنسوة : لباس للرأس .

وللشعراء ألفـاظ معروفة ، وأمثلةٌ مـألوفة ، لا ينبغـى للشاعر أن يعدوهـا ، ولا أن يَستعمل غيـرها ، كما أن الكتّـاب اصطلحوا على ألفاظ بـأعيانها سموهـا الكتابية لا يتجاوزونهـا إلى سواهـا ، إلا أن يريد شـاعر أن يتظرّف بـاستعمال لفظ أعجمـىٍّ فيستعمله فى النُّـدْرَة ، وعلى سبيل الخَطْرَة ، كما فعل الأعشى قديماً ، وأبو نـواس حديثًا ، فلا بأس بذلك ، والفلسفة وجرُّ الأخبار باب آخر غير الشعر ؛ فإن وقع فيـه شىء منهما فبقدر ، ولا يجب أن يجْعَلَا نُصْبَ العين فيكونا متكئًا واستراحـة ، وإنما الشعر ما أطرب ، وهز النفوس ، وحرَّك الطبـاع ، فهذا هو باب الشعر الذى وضع له ، وبنى عليه ، لا ماسواه .

ومن مُلَـح الكلام علـى اللفظ والمعنى مـا حكاه أبـو منصور عبد الملـك بن إسمـاعيل الثعالبى ، قـال : البليغ مَنْ يحوك الكلام علـى حسب الأمانى ، ويخيط الألفـاظَ على قدود المعانى .

وقال غيره : الألفاظ فى الأسماع كالصورة فى الأبصار .

وقال أبو عبادة البحترى (١٠) :

وكـأنهـا والسمـع معقـودٌ بهـا ... وَجْـهُ الحبيـب بَـدَا لِعَيْـنِ مُحِبِّـهِ

المطبوع والمصنوع :

مـن الشعر مطبـوع ومصنـوع ، فالمطبـوع هـو الأصل الـذى وضـع أولا ، وعليه المَـدَار . والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلّفًا تكلف أشعـار المولدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذى سموه صنعة مـن غير قصد ولا تَعَمُّل ، لكن بطباع القوم عفواً ، فـاستحسنوه ومالوا

---

(١٠) البيت فى وصف آثار قلم الممدوح من قصيدة يمدح فيها الحسن بن وهب ، وأولها قوله :

من سائل لمعذل عن خطبه ... أو صافح لمقصر عن ذنبه

وقبل البيت قوله :

وإذا دجت أقلامه ثم انتحت ... برقت مصابيح الدجى فى كتبه

باللفظ يقرب فهمه فى بعده ... منـا ، ويبعـد نيلـه فى قربه

كالروض مؤتلفا بحمرة نوره ... وبياض زهـرتـه وخضرة عشبه

إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره ، حتى صنع زهير الحوليّات (١١) على وجه التنقيح والتثقيف : يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفا من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها فى ساعة أو ليلة ، وربما رَصَدَ أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك ، والعرب لا تنظر فى أعطاف شعرها بأن تجنّس أو تطابق أو تقابل ، فتترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها فى فصاحة الكلام وجَزَالته ، وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وإحكام عقد القوافى ، وتلاحُم الكلام بعضه ببعض حتى عَدُّوا من فضلِ صنعه الحطيئة حسنَ نسقِه الكلامَ بعضه على بعض فى قوله :

فلا وأبيك ما ظلمتْ قريعٌ بأن يبنوا المكارم حيث شاءوا
ولا وأبيك ما ظلمت قُرَيع ولا بَرِمُوا لذاك ولا أساءوا
بِعَثْرَةِ جارهم أن ينعشوها فيغبُر حوله نعمٌ وَشاءُ
فيبنى مجدهُمْ ويقيم فيها ويمشى إن أريد به المُشَاءُ
وإن الجارَ مثلُ الضيف يغدو لِوجهته وإن طالَ الثَّواءُ (١٢)
وإنى قد علقتُ بحبل قوم أعانهمُ على الحسب الثراءُ

وكذلك قول أبى ذؤيب يصف حُمرُ الوحش والصائد :

فوَردنَ والعَيُّوقُ مَقْعَدَ رابىء الـ ـضُّرَبَاءِ خَلْفَ النجم لا يتَتَلَّعُ (١٣)
فكَرَعْنَ فى حَجَرات عذبٍ بارد حَصِبِ البطاح تغيب فيه الأكْرُعُ (١٤)
فشربن ثم سمعن حِسّاً دونه شَرَف الحجاب ، وَرِيْبَ قرع يقرع (١٥)

---

(١١) كان زهير بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى يسمى كبار قصائده « الحوليات » ، وذلك لأنه كان يصنع كلاً منها فى حول كامل ، أى فى سنة بأسرها .

(١٢) بنو قُريع : بطن من العرب - برموا : سئِموا وضجروا - ينعشه : يتداركه من الورطة - يغبرُ: يمكث - يمشى : تكثر ماشيته - الثواء : الإقامة .

(١٣) العيوق : كوكب أحمر يتلو الثريّا ولا يتقدّمها - الضرباء : جمع الضريب الذى يضرب بالقداح - الرابىء بمعنى المراقب والوسيط المرجوع إليه - لا يتتلّع : لا يتقدّم .

(١٤) الحجرات : النواحى - حِصب البطاح أى فى أبطحه حصباء تبقى ماءه صافيا - الأكرع : جمع الكراع وهو مستدق الساق العارى من اللحم .

(١٥) شرف الحجاب : ما ارتفع من جبل أو أرض يستتر بها الصائد - القرْع يعنى به قرع قوس الصائد .

فنكـرنـه فنقَـرْنَ فـامتـرسـت بـه هـوجـاءُ هـاديـةٌ وهـادٍ جُـرْشـعُ (١٦)
فـرمـى فـأنفـذ مـن نَحُـوصٍ عـائطٍ سهمـا فخـرَّ وريشـه متصمِّـعُ (١٧)
فبـدا لـه أقـراب هـادٍ رائغـاً عنـه فعيَّـث فـى الكنانـة يُرْجَـع (١٨)
فـرمْى فـألحـق صـاعـديًـا مِطْحَـراً بـالكشـح فـاشتملـت عليـه الأضلـع(١٩)
فـأبَـدَّهُـنَّ حتُـوفهـن فهـاربٌ بـذمَـائه أو بـاركٌ متجعجـع(٢٠)

فأنت ترى هذا النسق بالفاء كيف اطَّرد له ، ولم ينحلَّ عقده ، ولا اختلَّ بناؤه ، ولولا ثقافة الشاعر ومراعاته إياه لما تمكّن له هذا التمكن .

واستطرفوا ما جاء من الصنعة نحو البيت والبيتين فى القصيدة بين القصائد ، يستدل بذلك على جودة شعر الرجل ، وصدق حسه ، وصفاء خاطره ؛ فأما إذا كثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع ، وإيثار الكلفة ، وليس يتجه البتة أن يتأتى من الشاعر قصيدة كلها أو أكثرها متصنعٌ من غير قصد ؛ كالذى يأتى من أشعار حبيب والبحترى وغيرهما . وقد كانا يطلبان الصنعة ويُولَعَانِ بها : فأما حبيب فيذهب إلى حزونة (٢١) اللفظ ، وما يملأ الأسماع منه ، مع التصنيع المحكم طوعا وكرهًا ، يأتى للأشياء من بُعْد ، ويطلبها بكلفة ، ويأخذها بقوة . وأما البحترى فكان أملح صنعة ، وأحسن مذهباً فى الكلام ، يسلك منه دَمَاثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ ، لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة . وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعا من عبد الله بن المعتز ؛ فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر فى بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندى ألطف أصحابه شعراً ، وأكثرهم بديعا وافتنانا ، وأقربهم قوافى وأوزانا ، ولا أرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب ، غير أنا لا نجد المبتدىء فى طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعا منه بمطالعة شعر حبيب

---

(١٦) امترست به : دنتْ منه ولزمته - هادية : متقدّمة - جرشع : منتفخ الجنبين .
(١٧) النحوص : الحمارة التى لم تحمل - عائط : لم تحمل سنتين أو ثلاثا - متصمّع : متلطخ بالدم .
(١٨) الأقراب : الخواصر - رائغ : هارب عجل - عيّث : ردّ يده إلى خلف - يُرجع : يهوى بيده .
(١٩) صاعدىّ : فَحْل من نسل صعدة - المطحر : السهم البعيد الذهاب - الكشح : مابين الخاصرة والضلوع .
(٢٠) أبَدَّهنّ : فرّق سهامه فيهن - الحتوف : الهلاك - الذماء : بقيّة النفس - مجعجع : ساقط .
(٢١) الحزونة : الخشونة .

وشعر مسلم بن الوليد ؛ لما فيهما من الفضيلة لمبتغيها ، ولأنهما طَرَقَا إلى الصنعة ومعرفتها طريقا سابلة [٢٢] ، وأكثرا منها فى أشعارهما تكثيرا سَهَّلها عند الناس ، وجسّرهم عليها [٢٣] على أن مسلما أسهل شعراً من حبيب ، وأقل تكلفا ، وهو أول من تكلف البديع من المولدين ، وأخذ نفسه بالصنعة ، وأكثر منها ولم يكن فى الأشعار المحدثة قبل مسلم صريع الغوانى إلا النبذ اليسيرة وهو زُهَيْر المولّدين : كان يبطىء فى صنعته ويجيدها .

وقالوا : أول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد ، وابن هَرْمَةَ ، وهو ساقة العرب وآخر من يستشهد بشعره . ثم أتبعهما مقتديا بهما كلثوم بن عمرو العَتَّابى ، ومنصور النمرى ، ومسلم بن الوليد ، وأبو نواس . واتبع هؤلاء حبيب الطائى ، والوليد البحترى ، وعبد الله ابن المعز ؛ فانتهى علم البديع والصنعة إليه ، وختم به. وشبه قوم أبا نواس بالنابغة لما اجتمع له من الجزالة مع الرشاقة، وحسن الديباجة، والمعرفة بمدح الملوك . وأما بشار فقد شبهوه بامرىء القيس؛ لتقدمه على المولّدين وأخذهم عنه ، ومن كلامهم : بشار أبو المحدثين .

وسمعت أبا عبد الله غير مرة يقول : إنما سمى الأعشى صَنَّاجةالعرب لأنه أول من ذكر الصنج[٢٤] فى شعرهه قال: ويقال: بل سمى صناجة لقوة طبعه ، وحلية شعره ، يخيل لك إذا أنشدته أن آخَرَ ينشد معك . ومثله من المولدين بشار بن برد ، تنشد أقصر شعره عروضا وألينه كلاما فتجد له فى نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع ؛ وقد أشبهه تصرفا وضربا فى الشعر وكثرة عروض مدحا وهجاء وافتخارا وتطويلا . انقضى كلام أبى عبد الله ورجعنا إلى القول فى الطبع والتصنيع .

ولسنا ندفع أن البيت إذا وقع مطبوعا فى غاية الجودة ثم وقع فى معناه بيت مصنوع فى نهاية الحسن لم تؤثر فيه الكلفة ولا ظهر عليه التعمّل كان المصنوع أفضلهما ، إلا أنه إذا توالى ذلك وكثر لم يجز البتة أن يكون طبعا واتفاقا : إذ ليس ذلك فى طباع البشر . وسبيل الحاذق بهذه الصناعة - إذا غلب عليه حب التصنيع - أن يترك للطبع مجالا يتسع فيه ، وقيل : إذا كان الشاعر مصنعا بان جيده من سائر شعره : كأبى تمام ؛ فصار محصورا معروفا

---

(٢٢) سابلة : مسلوكة .

(٢٣) جسّرهم : شجعّهم .

(٢٤) الصنج : آلة تكون فى الدفوف ، تُتّخذ من النحاس يضرب بها على أخرى .

بأعيانه ، وإذا كان الطبع غالبا عليه لم يبن جيده كل البينونة ، وكان قريبا من قريب : كالبحترى ومَنْ شاكله . وقد نص ابن الرومى فى بعض تسطيراته على محمد بن أبى حكيم الشاعر حين عاب عليه قوله فى الفرس من قصيدة رثى بها عبد الله بن طاهر :

فله شهامةُ سَوْذَنِيقٍ باكر   وحوافرٌ خُفْرٌ ورأس صُنْتُع(٢٥)

وذكر قول حبيب :

بحوافرٍ حُفْرٍ وصُلْبٍ صُلَّبِ(٢٦)

فحفل به ، واعتذر له ، وخَرَّج التخاريج الحسان ، وذكر أن الحافر الوأب والحافر المقعّب(٢٧) ونحوهما أشرف فى اللفظ من الحافر الأحفر ، إلا أن الطائى عنده كان يطلب المعنى ولا يبالى باللفظ ، حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لأتى بها ، والذى أراه أن ابن الرومى أبصر بحبيب وغيره منا ، وأن التسليم له والرجوع إليه أحزم ، غير أننى لو شئت أن أقول - ولست راداً عليه ، ولا معترضاً بين يديه - إن المعنى الذى أراده وأشار إليه من جهة الطائى إنما هو معنى الصنعة كالتطبيق والتجنيس وما أشبههما ، لا معنى الكلام الذى هو روحه ، وإن اللفظ الذى ذكر أنه لا يبالى به إنما هو فصيح الكلام ومستعمله ، ويدلك على صحة ما ادعيته على ابن الرومى قوله « إن الحافر الوأب والمقعب أشرف فى اللفظ من الحافر الأحفر » ؛ فكلامه راجع إلى ما قلته فى الطائى ، غير مخالف له ، وإن كان فى الظاهر على خلافه ؛ لينساغ ذلك ، إلا أن أكثر الناس على ما قال ، وإنما هذا معرض للكلام ، لا مخالفةٌ.

---

(٢٥) السَّوْذنيق : الصقر أو الشاهين - باكر : مبكرٌ - حوافر خُفْر : أى شديدة الوطء تحفر فى الأرض - صُنْتُع أى حمار صُلب الرأس ناتىء الحاجبين عريض الجبهة .

(٢٦) هذا صدر بيت من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن وهب والبيت بتمامه مع بيت سابق عليه قوله :

ما مُقْرَب يختال فى أشطانه   ملآنُ من صَلَفٍ به وتَلَهْوق
بحوافر حفر وصُلب صلّب   وأشاعرٍ شُعْرٍ وخَلْق أخلق

(٢٧) الوأب : الشديد المنضمّ السنابك - المقعّب : المستدير كأنه القَعْب أى القدح .

وقال الجاحظ : كما لا ينبغى أن يكون اللفظ عامياً ، ولا ساقطاً سُوقياً ؛ فكذلك لا ينبغى أن يكون وَحْشياً ، إلا أن يكون المتكلم به بدوياً أعرابياً ؛ فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس ، كما يفهم السوقى رَطَانَة السوقى . (٢٨)

قال : وأنشد رجل قوماً شعراً فاستغربوه ، فقال : والله ما هو بغريب ، ولكنكم فى الأدب غرباء .

وعن غيره : أن رجلا قال للطائى فى مجلس حفل وأراد تبكيته (٢٩) لما أنشد : يا أبا تمام ، لم لا تقول من الشعر ما يفهم ؟ فقال له : وأنت لم لا تفهم من الشعر ما يقال ؟ ففضحه .

ويروى أن هذه الحكاية كانت مع أبى العَمَيْثَل وصاحبين له خاطباه فأجابهما .

وقال بعض من نظر بين أبى تمام وأبى الطيب : إنما حبيب كالقاضى العدل : يضع اللفظة موضعها، ويعطى المعنى حقه،بعد طول النظر والبحث عن البينة ، أو كالفقيه الورع : يَتَحَرّى فى كلامه ويتحرّج خوفاً على دينه . وأبو الطيب كالملك الجبار : يأخذ ما حوله قهراً وعنوة ، أو كالشجاع الجرىء : يهجم على ما يريده لا يبالى مالقى ، ولا حيث وقع .

وكان الأصمعى يقول : زهير والنابغة من عبيد الشعر ، يريد أنهما يتكلفان إصلاحه ويشغلان به حواسهما وخواطرهما .

ومَن أصحابهما فى التنقيح وفى التثقيف والتحكيك طُفَيْلٌ الغَنَوِى . وقد قيل : إن زهيراً روى له ، وكان يسمى « محبرًا » لحسن شعره .

ومنهم الحطيئة ، والنمر بن تَوْلَب ، وكان يسميه أبو عمرو بن العلاء الكَيِّس .

(٢٨) الرطانة : الكلام الذى لا يفهمه الجمهور، وإنما هو مواضعه بين اثنين أو جماعة .
(٢٩) التبكيت : التوبيخ والتقريع .

وكان بعض الحذاق بالكلام يقول : قُلْ من الشعر ما يخدمك ، ولا تَقُلْ منه ما تخدمه ، وهذا هو معنى قول الأصمعى ، وسأحلى هذا الباب من كلام السيد أبى الحسن بحلية تكون له زينة فائقة ، وأختمه بخاتمة تكسوه حلة رائقة ؛ لأوفى بذلك بعض ما ضمنت ، وأقضى به حق ما شرطت ، إن شاء الله .

فمن ذلك قول بِتَاهَرْتَ سنة خمس وأربعمائة يتشوق إلى أهله :

ولى كبد مكلومة من فراقكم ... أُطامنها صبراً على ما أجنَّتِ
تمتَّكمُ شوقا إليكم وصبوةً ... عسى الله أن يدنى لها ما تمنَّتِ
وعينٌ جَفَاهَا النومُ واعتادها البكا ... إذا عنَّ ذكرُ القيروان استهلتِ(٣٠)

فلو أن أعرابياً تذكر نجداً فحنّ به إلى الوطن ، أو تشوق فيه إلى بعض السَّكَن ؛ ما حسبته يزيد على ما أتى به هذا المولّد الحضرى المتأخر العصر ، وما انحط بهذا التمييز فى هَوَاىَ ، ولا أتنفقُ بهذا القول عند مولاى ، ولا الخديعة مما تظن به ، ولا فيه ، ولكن رأيت وجه الحق فعرفته ، والحق لا يتلثم ، وما هو فى بلاغته وإيجازه إلا كما قال الأحيمر السعدى فى وصيّته :

من القول ما يكفى المصيبَ قليلُهُ ... ومنه الذى لا يكتفى الدهرَ قائلُهْ
يصدّ عن المعنى فيترك ما نَحَا ... ويذهبُ فى التقصير منه يطاولُهْ
فلا تك مكثاراً تزيد على الذى ... عنيتَ به فى خطبِ أمرٍ تزاولُهْ

الرثاء :

ليس بين الرثاء والمدح فرق ؛ إلا أنه يخلط بالرثاء شىء يدل على أن المقصود بِهِ ميت مثل « كان » أو « عدمنا به كيت وكيت (٣١) » وما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت .

---

(٣٠) مكلومة : مجروحة - أطامنُها : أسَكّنها - أجَنَّتْ : سترتْ - اعتادها : انتابها - عنّ : عَرَض - استهلّت : تساقط دمعها وانهلّ .

(٣١) كيت وكيت - بفتح التاءين أو كسرهما : كناية عن القصّة أو الأحدوثة ، ولا تستعملان إلا مكرّرتين .

وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجّع ، بينّ الحسرة ، مخلوطاً بالتلهّف والأسف والاستعظام ، إن كان الميت ملكا أو رئيساً كبيراً ، كما قال النابغة فى حِصْنِ بن حُذَيفة ابن بدر:

يَقُولون حِصْنٌ ثم تأبى نُفُوسُهُمْ ... وَكَيْفَ بحِصنٍ والجبالُ جُنُوحُ
ولم تلفظ الموتى القبورُ، ولم تَزُلْ ... نجومُ السماء ، والأديم صَحِيحُ
فعمَّا قليل ثُمّ جاءَ نَعِيُّه ... فظلّ نَدِيُّ الحىّ وهْوَ يَنُوحُ

فهذا وما شاكله رثاء الملوك والرؤساء الجِلّةِ ، وإلى هذا المعنى ذهب أبو العتاهية حين قال :

* مَاتَ الخَلِيفَةُ أيها الثقلَانِ *

فرفع النّاس رءوسهم ، وفتحوا عيونهم ، وقالوا : نَعَاهُ إلى الجن والإنس ، ثم أدركه اللين والفَتْرة فقال :

* فكأنّنى أَفْطَرْت فى رَمَضَانِ *

يريد : إنى بمجاهرتى بهذا القول كأنما جاهرت بالإفطار فى رمضان نهارا وكل أحد ينكر ذلك علىّ ، ويستعظمه من فعلى ، وهذا معنى جيد غريب فى لفظ ردىء غير مُعْرِب عما فى النفس .

ومن أفضل الرثاء قول حسين بن مطير يرثى معن بن زائدة ، ويروى لابن أبى حَفْصَة :

فَيَا قَبْرَ مَعْن ، كنت أوّلَ حُفْرَةٍ ... من الأرْضِ خُطّتْ للسَّماحَةِ مَضْجَعَا
ويا قبر معن ، كيف وارَيْتَ جودهُ ؟ ... وقد كان منه البر والبحرُ مُتْرَعَا
بلى قد وسعتَ الجودَ والجودُ ميت ... ولو كان حيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدّعَا
فتى عِيشَ فى معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مَرْتَعَا (٣٢)

(٣٢) واريت : أخفيت – مترع : ملآن – المرتع : موضع اللهو والنعمة أو مَرْعى الماشية فى خصب وسعة .

وما قصر أبو تمام فى رثائه محمد بن حُمَيْد بالقصيدة التى يقول فيها :

ألا فى سبيل الله مَنْ عُطِّلَتْ له ... فِجَاجُ سَبِيلِ الثغر وانثغر الثغرُ
فتى كلما فاضتْ عُيُونُ قبيلة ... دَمًا ضَحِكَتْ عنه الأحاديثُ وَالنشرُ
وما مات حتى مات مضربُ سيفه ... من الضَّرْبِ وَاعْتَلَّت عليه القَنَا السُّمْرُ
فتى مات بين الطَّعن والضرب مِيتَةً ... تقوم مقام النصر إذ فاته النصرُ
وقد كان فوتُ الموت سهلا فردَّهُ ... إليه الحفاظ المرُّ والْخُلُقُ الوَعْرُ
وَنَفْسٌ تَخَافُ العَارَ حتى كأنما ... هو الكفر يوم الرَّوعِ أوْ دُونه الْكُفْرُ
فأثبت فى مستَنْقع الموت رِجْلَه ... وقال لها من تحت أخمصك الحشرُ(٣٣)

وقد أجاد أيضا فى القصيدة التى رثى بها إدريس بن بدر السامى يقول فيها :

ولم أنس سَعْيَ الْجُودِ خَلْفَ سريره ... بأكْسَفِ بَالٍ يَسْتَقِلُّ وَيَظْلَعُ
وتكْبِيرَه خَمْسًا عليه مُعَالنًا ... وإن كَانَ تكبِيرَ المُصَلِّين أرْبَعُ
وما كنت أدرى - يعلم الله - قَبْلَها ... بأن النَّدى فى أهله يتشيَّع(٣٤)

وليس فى ابتداءات المراثى المولّدة مثل قوله :

أصمّ بك الناعى وَإنْ كان أسْمَعَا ... وأصْبحَ مَغْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

يرثى بها محمد بن حميد ، وجعل خاتمتها :

فإن تُرْمَ عن عُمْرٍ تَدَانى به المدى ... فخانكَ حتَّى لم تَجِدْ عنه مَنْزعاَ
فما كنْتَ إلَّا السَّيْفَ لاقى ضَرِيبَة ... فَقَطَّعَهاَ ثمَّ انْثَنى فَتَقَطَّعَا(٣٥)

---

(٣٣) الحفاظ : الدفاع عن المحارم والمنع عند الحروب - الرَّوع : الحرب - الأخمص : باطن القدم الذى يتجافى عن الأرض .

(٣٤) أكسف بال : أسوأ حال - يظلع : يعرج فى مشيه - قوله : « وتكبيره خمسا ... » يعنى أن الجود كبّر عليه خمسًا لأن الميّت كان شيعيا ، فأراد أن الجود يتبعه .

(٣٥) أصمّه : صيّره أصمّ - الناعى : الذى يأتى بخبر الميّت - المغنى : المنزل الذى غنى به أهله - البلقع : المكان القفر الخالى من كل شىء - الضريبة : المضروب بالسيف .

وأبو تمام من المعدودين فى إجادة الرثاء ، ومثله عبد السلام بن رغبان ديك الجن ، وهو أشهر فى هذا من حبيب ، وله فيه طريق انفرد بها ، وذلك أنه قتل جاريته واتهم بها أخاه ، ثم قال يرثيها :

يا مُهجةً جَثَمَ الحِمامُ عليها ... وجنى لها ثمرَ الرَّدَى بيديْها
رَوَّيْتُ من دَمِها الترابَ ، وربما ... رَوَّى الهوى شَفَتَيَّ من شَفَتَيْها
حكَّمت سَيْفى فى مجال خِناقها ... ومدامعى تجرى على خَدَّيْهَا
فوَحقِّ نعليْها لما وَطِىء الحصىَ ... شىءٌ أعزُّ علىَّ من نعليها
ما كان قَتْلِيها لأنى لم أكن ... أخشى إذا سقطَ الغبارُ عليها
لكنْ بخِلتُ على الأنام بحسنها ... وَأنِفْتُ من نظر العيونِ إليها (٣٦)

وقال أيضا فيها على بعض الروايات :

أشفقتُ أن يردَ الزمانُ بغَدْرِهِ ... أوْ أُبْتَلَى بَعْدَ الوصال بِهَجْرِهِ
فقتلته ، وله علىَّ كرامة ... مِلْء الحَشَا ، وله الفؤادُ بأسرِهِ
قمرٌ أنا اَسْتخرجته من دَجْنِهِ ... لِبَلِيّتى وزَفَفْتُهُ من خِدْرِهِ
عَهدِى بهِ مَيْتاً كأحْسَن نائم ... والحزنُ ينحرُ دمعتى فى نحرِهِ (٣٧)

الذى أعرف « ينحر مقلتى » وهو أصح استعارة .

لو كان يدرى الميتُ ماذا بعده ... بالحىِّ مِنْهُ بكَى لهُ فى قَبْرِهِ
غُصَصٌ تكادُ تفيضُ منْها نَفْسه ... ويكادُ يخرجُ قلبه من صَدْرِهِ

---

(٣٦) الحمام : قضاء الموت وقدره - الردى : الهلاك - أنِف : استنكف واستكبر .
(٣٧) الدَّجن : إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء - الخدر : السِّتر وكلّ ما يوارى أو أجمة الأسد - النحر : أعلى الصدر .

والرواية الأخرى أن المتهم بالجارية غلام كان يهواه قتله أيضاً ، فصنع فيه هذه الأبيات ، فصنعت فيه أخت الغلام :

يا ويح دِيك الجن ، بل تبًّا له ... ماذا تضمّن صدرُه من غدرِه (٣٨)
قتلَ الذى يهوىَ وعُمِّرَ بعده ... يارَبِّ لا تمدُدْ له فى عُمْرِه

ويكون الرثاء مجملا كالمدح المجمل فيقع موقعًا حسناً لطيفًا : كقول ابن المعتز فى المعتضد :

قَضَوْا ما قَضَوْا من أمره ثم قَدَّمُوا ... إماماً إمام الخير بين يديْه
وصَلَّوْا عليه خاشعين كأنهم ... صُفُوفٌ قِيَامٌ للسلام عليه

وقال فى عبيد الله بن سليمان بن وهب :

قدِ اسْتَوى الناسُ وماتَ الكمالْ ... وَصَاحَ صَرْفُ الدهر : أين الرجال !
هذا أبو العباس فى نعشه ... قوموا انظروا كيف تسير الجبال
يا ناصر الملك بآرائه ... بعدك للملك ليالٍ طوالْ

وذكر غير واحد أنَّ أرثى بيت قيل :

أرَادوا ليُخْفُوا قَبْرَهُ عَنْ عَدُوِّه ... فطِيبُ تُرَابِ القبرِ دلَّ عَلَى القبر

ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال فى المراثى بالملوك الأعزة ، والأمم السالفة ، والوعول الممتنعة فى قلَل الجبال ، والأسود الخادرة فى الغياض (٣٩) ، وبحُمُرِ الوحش المتصرّفة بين القفار ، والنسور ، والعقبان ، والحيات ؛ لبأسها وطول أعمارها ، وذلك فى أشعارهمَ كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر .

---

(٣٨) يقال فى الدعاء « تبًّا له » أى خسارة وهلاكاً له .

(٣٩) الوعول : جمع الوعل ، وهو جنس من المعز الجبلية - قُلل : قمم - الخادرة : التى تلازم عُرُنها وتقيم بها - الغياض : جمع الغيضة وهو الموضع يكثر فيه الشجر ويلتفّ .

قال أبو علي : فأما المحدثون فهم إلى غير هذه الطريقة أميل ، ومذهبهم في الرثاء أمثل ، في وقتنا هذا وقبله ، وربما جَرَوْا على سنن مَن قَبْلهم اقتداء بهم وأخذاً بسنتهم كالذي صنع أبو أيوب في رثائه أبا البيداء الأعرابي وخلف بن حيان الأحمر ومراثيه فيهما فائيتان وقافية مشهورات : إحداهن قوله :

لا تَئِلُ العُصْمُ في الهضابِ ولا ... شَغْوَاءُ تَغْدُو فَرْخَيْنِ في لجف (٤٠)

والثانية قوله :

* لو كان حِيٌّ وائلا من التَّلَفْ *

والثالثة قوله في أبي البيداء :

هَلْ مخطىءٌ يَوْمَهُ عُفْرٌ بشاهقةٍ ... تَرْعَى بأَخْيَافِهَا شَثا وطُبَّاقا (٤١)

وكما صنع ابن المعتز يرثي أباه بالقصيدة اللامية المقيدة في الرمل :

رُبَّ حَتْفٍ بين أثناء الأمل ... وَحياةُ المَرْءِ ظِلٌّ مُنْتَقِلْ

وهي أيضاً معروفة ، ولولا اشتهار هذه القصائد ، ووجودها ، وخفية التطويل بها ؛ لأثبتها في هذا الموضع .

وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء ، وقال ابن الكلبي – وكان علامة – : لا أعلم مَرْثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة :

أرَثَّ جَدِيدُ الحبلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ ... بعافية وأخلفت كل موعد ؟(٤٢)

---

(٤٠) لا تئل : لا تلجأ – العُصم : الوُعول – الشغواء : العقاب وهو طائر من الكواسر – اللّجَف : سُرّة الوادى أو الحفر في مولج الشجر.

(٤١) العفر : جمع الأعفر وهو الظبي يعلو بياضه حمرة – الشاهقة : الجبال المرتفعة – الأخياف : جمع خيف وهو جلد الضرع حين يخلو من اللبن ويسترخي – الشثّ والطبّاق : من أنواع الشجر.

(٤٢) رثّ وأرثّ أي بَلِي .

وعن على بن سليمان ، عن أبى العباس الأحول ، أن القصيدة التى لأبى قحافة أعشى باهلة ، إنما هى لابنة المنتشر ، واسمها الدعجاء .

قال : وقال على بن سليمان : حدثنى أبى أن أولها .

هَاجَ الفؤادَ عَلَى عِرْفانِهِ الذِّكَرُ ... وذكر خَوْدٍ على الأيام ما يَذَرُ(٤٣)

قد كُنْتُ أذكرها والدار جامِعَةٌ ... والدهر فيه هَلَاكُ الناسِ والشَّجَرُ

هكذا أنشده النحاس والذى أعرف « وذ كرميت » وأعرف أيضاً « والدهر فيه هلاك الناس والغير » كذلك أنشدنيه الموصلى فى الأغانى ، ثم عطف النحاس فقال : هذان البيتان لا يُعْرَفَانِ فى أول هذه القصيدة ؛ ومما يزيد الاسترابة بهما أن المتعارف عند أهل اللغة أنه ليس للعرب فى الجاهلية مرثية أولها تشبيب إلا قصيدة دريد ، وأنا أقول : إنه الواجب فى الجاهلية والإسلام ، وإلى وقتنا هذا ، ومن بعده ؛ لأن الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هو فيه من الحَسْرَة والاهتمام بالمصيبة ؛ وإنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة ، وحين أخذ ثأره ، وأدرك طلبته . وربما قال الشاعر فى مقدمة الرثاء « تركت كذا » أو « كبرت عن كذا » و « شغلت عن كذا » وهو فى ذلك كله يتغزل ويصف أحوال النساء ، وكان الكميت ركاباً لهذه الطريقة فى أكثر شعره ؛ فأما ابن مُقْبِل فمن جَفَاء(٤٤) أعرابيته أنه رثى عثمان بن عفان رضى الله عنه بقصيدة حسنة أتى فيها على ما فى النفس ، ثم عطف وقال :

فَدَعْ ذا ، ولكن علقت حبل عاشق ... لإحدى شعاب الحين والقتل أريب

ولم تُنْسِنِى قَتْلَى قريشٍ ظعائنًا ... تحَمَّلْنَ حتى كادت الشمسُ تغرب

يطفنَ بغرِّيدٍ يعطلل ذا الصبا ... إذا رامَ أُركوب الغوايَةِ أركبُ

من الهِيفِ مبدان ترى نطفاتها ... بمهلكة أخراصهنَّ تذبذب

---

(٤٣) الخَود : جمع الخَوْد وهى الشابة الناعمة الحسنة الخلق .

(٤٤) الجفاء : غلظ الطبع ، يقال : رجل جافى الخِلْقة وجافى الخُلُق .

والنسيب فى أول القصيدة على مذهب دريد خير مما ختم به هذا الجلف ، على تقدمه فى الصناعة ، إلا أن تكون الرواية « ظعائن » بالرفع .

ومما عيب به الكميت فى الرثاء قوله فى ذكر رسول الله ﷺ :

وبُوركَ قَبْرٌ أنْتَ فيهِ ، وبُوركت ... بهِ - ولهُ أهْلٌ - بذلك يَثْرِبُ
لقد غَيَّبُوا بِرًّا وَحَزْمًا ونائِلًا ... عشيةَ واراهُ الضريحُ المنصبُ

حكاه الجاحظ وغيره ، وأظن أن المراد بما عيب الثانى من هذين البيتين ، فأما الأول فجيد .

ومن العجب أن يقول عبدة بن الطبيب فى تأبين قيس بن عاصم :

عَلَيْكَ سَلامُ الله قَيْسُ بْنَ عاصم ... وَرَحْمَتُهُ ماشاءَ أن يَتَرَحَّمَا
تحيةُ منْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ نِعْمَةً ... إذا زارَعن شِحْطٍ بِلَادَكَ سَلَّمَا (٤٥)
فما كان قيسٌ هُلكُهُ هُلْكَ وَاحِدٍ ... وَلَكِنَّهُ بُنْيانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

ويقول الكميت فى تأبين رسول الله ﷺ هذا القول ، فهلا قال مثل قول فاطمة رضى الله عنها :

أغْبَرَّ آفاقُ السَّماءِ وكُوِّرَتْ ... شَمْسُ النَّهارِ وأظْلَمَ العَصْرَانِ
فالأرْضُ مِنْ بَعْدِ النبيّ كئيبةٌ ... أسفاً عليهِ كثيرَةَ الرَّجفَانِ
فليبكهِ شَرْقُ البلادِ وغَرْبُهَا ... ولْيَبْكهِ مُضَرٌ وكل يَمَانى
وليبكهِ الطَّوْدُ المُعَظَّمُ جَوُّهُ ... والبيتُ ذو الأستار والأركان
يا خاتم الرُّسُل المبارك صنوه ... صلّى عليكَ مُنَزِّلُ القُرآن

صلى الله عليه وسلم ، ورحم وكرم وعظم .

---

(٤٥) الشحط : بُعْد المكان .

والنساء أشجى الناس قلوباً عند المصيبة ، وأشدهم جزعًا على هالك ؛ لماركَّبَ الله عز وجل فى طبعهن من الخَوَرِ وضعف العزيمة .

وعلى شدة الجزع يبنى الرثاء ، كما قال أبو تمام :

لَـوْلَا التَّفَجُّـعُ لادّعَى هَضْـبُ الحمى　　وَصَفَـا الْمُشَقَّـرِ أنـه مَحْـزُونُ(٤٦)

فانظر إلى قـول جَليلة بنت مرة ترثى زوجهـا كُلَيْبًا ، حين قتله أخوها جَسَّـاس ، ما أشجى لفظها ، وأظهر الفجيعة فيه ! ! وكيف يثير كوامن الأشجان ، ويقدح شَرَرَ النيران ، وذلك :

يـا ابنـة الأقـوام إن لُمْـتِ فـلا　　تعجلـى بـاللـوم حتـى تسـألـى
فـإذا أنـت تَبَيَّنْـتِ التـى　　عنـدهـا اللَّـوْمُ فَلُـومِـى واعْـذِلِـى
إن تكـن أختُ امرىء ليمتْ علـى　　جَـزَعٍ منهـا عَلَيْـهِ فـافعلـى
فعـلُ جَسَّـاسٍ علـى ضَنِّـى بـهِ　　قـاطـعٌ ظهـرِى وَمُـدْنٍ أجَلِـى
لـوْ بَغَيْـنٍ فُـدِيَـتْ عينـى سِـوَى　　أختهـا وانفقـأَتْ لـم أحْفِـلِ
تحمـلُ العيـن قـذَى العيـنِ كمـا　　تحمـل الأمُّ قـذَى مـا تفتلـى(٤٧)
إننـى قـاتلـة مقتـولـة　　فلعـل الله أن يَـرْتَـاحَ لـى
يـا قتيـلًا قَـوَّضَ الـدَّهْـرُ بـهِ　　سَقْـفَ بَيْتَـىَّ جميعًـا مـن عَـلِ
ورمـانـى فقـدُه مـن كَثَـبٍ　　رَمْيَـةَ الْمُصْمَـى بـه المستـأْصَلِ(٤٨)
هـدمَ البيـتَ الـذى استحـدثتـهُ　　وسَعَـى فـى هَـدْمِ بيتـى الأولِ

---

(٤٦) الهضب : جمع الهضبة وهى الرابية أو الجبل المنبسط الممتد على وجه الأرض - الصفا : العريض الأملس من الحجارة - المشقر : موضع .
(٤٧) القذى : ما يتكون فى العين من رمص وغمص وغيرهما .
(٤٨) قوض : هَدَم - من كثب : من قرب وتمكن - المُصْمَى به : المصاب إصابة مميتة - المستأصَل : الذى اقتلع بأصله .

مَتّنِى فَقْدُ كلَيْبٍ بِلَظَى مِنْ وَرَائى وَلظَى مُسْتَقْبِلِى
لَيْسَ مَنْ يبكى ليومَيْن كمن إنما يبكى ليوم ينجلى
دَرَكُ الثَّائر شافيه وفى دركى ثأرىَ ثُكْلُ المثكل
ليته كان دمى فاحتلبوا دِرَراً منه دمى من أكحلى(٤٩)

ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثى طفلا أو امرأة ؛ لضيق الكلام عليه فيهما ، وقلة الصفات ، ألا ترى ما صنعوا بأبى الطيب – وهو فحل مجوّد إذا ذكر المحدثون – فى قوله يذكر أم سيف الدولة :

صلاة الله خالقنا حَنُوطٌ على الْوَجْهِ المكفّن بالجمال (٥٠)

فقالوا : ماله ولهذه العجوز يصف جمالها ؟ وقال الصاحب بن عباد : استعرة حداد فى عرس ، فإن كان أراد الصاحب بالاستعارة الحنوط فقد والله ظَلّم وتعسّف ، وإن كان أراد استعارة الكفن بجمال العجوز فقد اعترض فى موضع اعتراض إلى مواضع كثيرة فى هذه القصيدة ، على أن فيها ما يمحو كلَّ زَلّةٍ ، ويعفّى على كل إساءة .

قال الصاحب بن عباد : ولقد مررت على مرثية له فى أم سيف الدولة تدلّ مع فساد الحسّ على سوء أدب النفس ، وما ظنك بمن يخاطب ملكا فى أمه بقوله :

رِوَاقُ العزِّ فوقَكِ مُسْبَطِرٌّ ومُلْكُ علىٍّ ابنِكِ فى كمال(٥١)

ولعل لفظه الاسبطرار فى مراثى النساء من الخذلان الصفيق الرقيق ، وأنا أقول : إن أشد ما هَجَّنَ هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة هجاء أنه قرنها بفَوْقك ؛ فجاء عملا تامّا لم يبق فيه الاقضاء .

---

(٤٩) اللظى : لهب النار – الثّكل : فقد الولد أو الحبيب – المُثكِل : المرأة التى لزمت الثكل – الأكحل : عرق فى اليد أو هو عرق الحياة .
(٥٠) صلاة الله : مغفرته ورحمته – الحنوط : كلّ ما يخلط من الطيب لغسل الميّت .
(٥١) الرواق : البيت أو مقدّمه – مسبطر : ممتدّ .

ومن صعب الرثاء أيضًا جمع تعزية وتهنئة في موضع ، قالوا : لما مات معاوية اجتمع الناس بباب يزيد ، فلم يقدر أحد على الجمع بين التهنئة والتعزية ، حتى أتى عبيد الله ابن هَمَّام السَّلُولي فدخل فقال : يا أمير المؤمنين ، آجرك الله على الرزيّة ، وبارك لك في العطيّة ، وأعانك على الرعيّة ، فقد رُزِئْتَ عظيما ، وأعطيت جسيما(٥٢) ، فاشكر الله على ما أُعطيت ، واصبر على ما رزئت ، فقد فَقَدْتَ خليفة الله ، وأعطيت خلافة الله ، ففارقت جليلا ، ووهبت جزيلا ؛ إذ قضى معاوية نَحْبه ، ووليت الرياسة ، وأعطيت السياسة ، فأورده الله موارد السرور ، ووفّقك لصالح الأمور .

فاصبرْ يزيدُ فقد فارقْتَ ذا ثِقَةٍ ... واشْكُرْ حِبَاءَ الذى بالملك أصفاكا (٥٣)

لارُزْءَ أصبح في الأقوام نعلمهُ ... كما رُزِئْتَ ولا عُقْبَى كعُقْباكا

أصْبَحْتَ والىَ أمرِ الناس كلهم ... فأنتَ تَرْعَاهُم والله يرعاكا

وفي معاويةَ الباقي لنا خَلَفٌ ... إذا نُعِيتَ ولا نَسْمَعْ بمَنْعاكا

ففتح للناس باب القول .

وعلى هذا السَّنَنِ جرى الشعراء بعده ؛ فقال أبو نواس يعزى الفضل بن الربيع عن الرشيد ، ويهنئه بالأمين :

تَعَزَّ أبا العباس عن خَيْرِ هَالِكٍ ... بأكْرَمِ حَيٍّ كان أوْ هُوَ كائنُ

حوادثُ أيام تَدُورُ صروفُهَا ... لَهُنَّ مَسَاوٍ مَرَّةً وَمَحَاسِنُ

وفي الحي بالميت الذى غَيَّبَ الثَّرَى ... فلا الْمُلْكُ مَغْبُونٌ ولا الموت غَابِنُ

ويروى :

* فلا أنت مغبون *

---

(٥٢) آجرك : أعطاك أجرًا - يقال : رزأته رزيئة أى أصابته مصيبة - الجسيم : العظيم .

(٥٣) حباء : عطاء - أصفاك : آثرك واختصك .

واتبعه أبو تمام بالقصيدة التى أولها :

* مَا لِلدُّمُوعِ تَرومُ كُلّ مَرَامِ *

يقولهـا للواثق بعد مـوت المعتصم ، صَرَّفَ الكـلام فيها كيف شاء ، وأطنـب كما أراد ، واحتـج فيها فـأسهب ، وتقـدم فيها على كل من سلك هذه النـاحية من الشعـراء ، وأراد ابن الزيات مُجَاراته فعلم من نفسه التقصير فاقتصر على قوله :

قـد قلـتُ إذ غَيَّـبوكَ واصْطفقـت   عليـك أيـدٍ بـالتـربِ والطيـنِ
اذْهَبْ فنعـم المُعِينُ كنـتَ علـى الـدُّ   نيـا وَنِعْـمَ الظهيـر للـديـن
لـن يَجْبُـرَ اللهُ أمـةً فقـدتْ   مثلـكَ إلاّ بمثـل هـارونِ

ومن جيد ما رثى بـه النساء وأشجاه وأشده تأثيرًا فـى القلـب وإثـارة للحزن قول محمد ابن عبد الملك هذا فى أم ولده :

ألا مـن رأى الطِّفْـلَ المُفَـارِقَ أمّـهُ   بُعَيْـدَ الْكَـرَى عينـاه تَبْتَـدِرَانِ
رَأى كـلّ أُمٍّ وَابنَهَـا غَيْـرَ أمـه   يبيتـان تحـتَ الليـل يَنْتَجيـان
وبـات وَحِيـداً فـى الفـراش تحثُّـه   بـلابـلُ قَلْـبٍ دائِمِ الخَفَقَـانِ (٥٤)

يقول فيها بعد أبيات :

ألا إن سَجْـلًا واحـدا قـد أرَقْتُـهُ   مـن الـدمـع أو سَجْلَيْنِ قـد شَفيَانـى
فـلا تَلْحَيَـانـى إن بكيت ؛ فـإنمـا   أداوى بهـذا الـدمـع مـا تـريـانِ
وإن مكـانـاً فـى الثـرى خُـطَّ لَحْـدُهُ   لمـن كـان فـى قلبـى بكـل مكـان
أحـقُّ مكـانٍ بـالـزيـارة والهـوى   فهـل أنتمـا إن عُجْـتُ مُنْتَظِـرَانِ (٥٥)

---

(٥٤) الكرى : النوم - تبتدان : تسيل دموعهما - ينتجيان : يناجى بعضهم بعضا .
(٥٥) السَّجل : الدلو العظيمة - لاتلحيانى : لاتلومانى - اللحد : القبر - عُجْتُ : رجعت .

ومن أشجى الشعر رثاء قوله فى هذه القصيدة :

فهبنى عَـزَمْـتُ الصَّبْـرَ عَنْهَـا لأننِـى جَليـدٌ ، فمـنْ بِـالصبـر لابـن ثَمَـانِ ؟؟
ضَعِيـفِ القـوَى لايعـرف الأجر حِسْبَـةً ولا يـأْتسـى بـالنـاس فـى الحـدَثـانِ [٥٦]
ألا مـــن أمنيـــه المنـــى فَـــأعُـــدُّه لعثـرة أيـامـى وصَـرْفِ زمـانـى
ألا مـن إذا مـا جئـت أكْـرَمَ مجلسـى وإن غِبْـتُ عنـه حَـاطَنِـى وَرَعـانـى
فلـم أركـالأقْـدَارِ كيـف تصيبنـى ولا مِثْـلَ هـذا الـدهـر كيـف رمـانـى

فهذه الطريقة هى الغاية التى يجرى حُـذَّاق الشعراء إليها ، ويعتمدون فى الرثاء عليها ، ما لـم تكن المرثيـة من نسـاء الملوك ، وبنات الأشـراف ، وغير ذوات محارم الشـاعر؛ فـإنه يتجافى عن هذه الطريقة إلى أرفع منها ، نحو قول أبى الطيب :

وَلَـوْ أنّ النِّسَـاءَ كَمَـنْ فَقَـدْنَـا لَفُضِّلَـتِ النسـاءُ علـى الـرجـال

وقوله فى هذه القصيدة :

مَشَـى الأمَـرَاءُ حَـوْلَيْهَـا حُفَـاةً كـأنّ الْمَـرْوَ مـن زِفِّ الـرئال [٥٧]

ونحو قوله لأخت سيف الدول :

يـا أُخْتَ خَيْـر أخٍ ، يـا بنت خيـر أبٍ كِنَـايـةً بهمـا عـن أشْـرفِ النسـبِ
أجِـلُّ قَـدْرَكِ أنْ تُـدْعَـى مُـؤَنَّثَـةً وَمَـنْ يَصِفْـكِ فَقَـدْ سَمَّـاكِ لِلْعَـرَبِ

ورثاء الأطفـال أن يذكر مخـايلهم [٥٨] ، ومـا كانـت الفراسـة تُعْطِيه فيهـم ، مع تَحَزّن لمصابهم ، وتفجّع بهم ، كالذى صنع أبو تمام فى ابنى عبد الله بن طاهر .

---

(٥٦) جليد : صابر على المكروه – حدثان الدهر : نوائبه وحوادثه .
(٥٧) حوليْها كحولها – المَرْو : حجارة بيض براقة – الزِفّ : صغار الريش – الرئال : جمع رأل وهو ولد النعام .
(٥٨) يقال : ظهرت فيه مخايل النجابة أى دلائلها ومظنّتها .

الخطيب البغدادى

(٣٩٢ - ٤٦٣ هـ / ١٠٠٢ - ١٠٧١ م)

هو الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، نشأ في بغداد ، وأخذ الفقه عن أبي الحسن المحاملي والقاضي أبي الطيب الطبري وغيرهما ، وقام برحلات كثيرة لاستكمال دراسته ، فذهب إلى مكة والبصرة والدينور والكوفة . . . ، ثم عاد إلى بغداد واستقرّ واعظا فيها ، مقرَّبا من رئيس الرؤساء ابن مسلمة - وزير القائم العباسي - وقد اضطر إلى أن يترك بغداد بسبب بعض الاضطرابات السياسية وغيرها ، وأقام مدّة في دمشق ، فرّبعدها إلى صور وحلب ، ولم يتمكّن من العودة إلى بغداد إلا سنة ٤٦٢ ، وهناك توفي بعد قليل .

وكان من الحفّاظ المتقنين - وقد عدّه كثيرون حافظ المشرق في وقته الذى لا يدافع - مع التبحرّ في علوم مختلفة كالفقه والتاريخ والأدب ، ونظم الشعر ، والولع بالمطالعة والتأليف .

صنّف قريبًا من مائة كتاب ، منها : الكفاية في معرفة أصول الرواية - تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن نوادر التصحيف والوهم - البخلاء - الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع - الرحلة في طلب الحديث - شرف أصحاب الحديث المؤتنف في تكملة المؤتلف والمختلف - الوفيات - رسالة في علم النجوم - التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم - المتفق والمفترق - تقييد العلم (وفيه يتحدث عن تدوين الحديث ومن دوّنوه من الأوائل) ...

وكتابه « تاريخ بغداد » أشهر كتبه ، وهو في أربعة عشر مجلدًا ، الأوّل منه عن مدينة بغداد وتاريخها وأحيائها ومعالمها وفضائلها ، أما ما بعد ذلك من المجلّدات فترجمات لكلّ من عاش فيها من الأعيان ولاسيما العلماء والأدباء .

* * *

من كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي :

ذكر محال مدينة السلام وطاقاتها وسككها ودوروبها وأرباضها ، ومعرفة من نسبت إليه ، من ذلك : نواحي الجانب الغربي :

* أخبرنا محمد بن على بن مخلد وأحمد بن على بن الحسين التوزى . قالا : أنبأنا محمد بن جعفر التميمي النحوى قال نبأنا الحسن بن محمد السكوني قال نبأنا محمد ابن خلف وكيع . قال : طاقات العكّى ، هو مقاتل بن حكيم أصله من الشام . وطاقات الغطريف بن عطاء ، وهو أخو الخيزران خال الهادى والرشيد ولّى اليمن ويقال إنه من بنى الحارث بن كعب ، وأن الخيزران كانت لسلمة بن سعيد اشتراها من قوم قدموا من جرَش مولّدة ، طاقات أبى سُويَد ، اسمه الجارود مما يلى مقابر باب الشام . ربض العلاء ابن موسى ، عند درب أبى حيّة . ربض أبى نُعَيم موسى بن صُبَيح من أهل مرو عند يقال شيرويه ويقال : إن أبا نُعَيم خال الفضل بن الربيع .

* قال الشيخ أبوبكر : يقال شيرويه : هو اسم موضع فى هذا الربض . وربض أبى عون عبد الملك بن يزيد ، الدرب النافذ إلى درب طاهر . وربض أبى أيوب الخوزى ، وربض ، الترجمان يتّصل بربض حرب : الترجمان بن بلخ .

مربّعة شبيب بن روح المروروذى : كذا ذكر لى ابن مخلد وابن التوزى وإنما هو شبيب بن وأج . قال ذلك : أحمد بن أبى طاهر وإبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدى ومحمد بن عمر الجعابى . مربّعة أبى العباس : وهو الفضل بن سليمان الطوسى وهو من أهل أبيَورد . قال محمد بن خلف وقال أحمد بن أبى طاهر حدثنى أبو جعفر محمد بن موسى ابن الفرات الكاتب : أن القرية التى كانت فى مربّعة أبى العباس كانت قرية جده من قبل أمه من دهاقين يقال لهم بنوزرارى وكانت القرية التى تسمى الوردانية وقرية أخرى قائمة إلى اليوم مما يلى مربّعة أبى قرة . قال محمد بن خلف : ومرّبعة أبى قرّة هو عُبيد بن هلال الغسانى من أصحاب الدولة . وزعم أحمد بن الحارث عن إبراهيم ابن عيسى قال : كان فى الموضع الذى هو اليوم معروف بدار سعيد الخطيب قرية يقال لها شرقانية ولها نخل قائم [إلى] اليوم مما يلى قنطرة أبى الجوز ، وأبو الجوز من دهاقين بغداد من أهل القرية .

قال محمد بن خلف : وربض سليمان بن مجالد . وربض إبراهيم بن حُميد وربض حمزة بن مالك الخزاعى . وربض رواد بن سنان أحد القواد . وربض حُميد بن قحطبة بن شبيب بن خالد بن معدان بن شمس الطائى . وقرية معدان بعمان على ساحل البحر يقال لها بوس ، وربض نصر بن عبد الله : وهو شارع دُجَيْل يعرف بالنصرية . وربض عبد الملك ابن حميد ، كاتب المنصور قبل أبى أيوب . وربض عمرو بن المهلب . وربض حميد بن أبى الحارث أحد القواد وربض إبراهيم بن عثمان بن نهيك عند مقابر قريش . وربض زُهير بن المسيب وربض الفرس ومربعتهم أقطعهم المنصور.

ثم قال محمد بن خلف وقال الفراشى - أحمد بن الهيثم - أقطاع المسيب بن زهير فى شارع باب الكوفة ما بين حد دار الكندى إلى حد سويقة عبد الوهاب إلى داخل المقابر. وأقطاع القحاطبة من شارع باب الكوفة إلى باب الشام * أخبرنى أبو القاسم الأزهرى قال أنبأنا أحمد بن إبراهيم قال نبأنا إبراهيم بن محمد بن عرفة قال : وأما شارع القحاطبة ، فمنسوب إلى الحسن بن قحطبة وهنالك منزله وكان الحسن من رِجَالات الدولة ومات سنة إحدى وثمانين ومائة * أخبرنا بن مخلد وابن التوزى . قالا : أنبأنا محمد بن جعفر قال نبأنا السكونى : قال قال محمد بن خلف : وأقطع المأمون طاهر بن الحسين داره ، وكانت قبله لعُبَيد الخادم مولى المنصور قال : والبغيِّين أقطاع المنصور لهم وهو من درب سوار إلى آخر ربض البر جلانيَّة وفى البر جلانية منازل حمزة بن مالك . الخوارزميةُ جند من جند المنصور الحربية ، نسبت إلى حرب بن عبد الله صاحب حرس المنصور. الزُّهيرية ، إلى زهير بن محمد قائد من أهل ابيورد . منارةُ حميد الطوسى الطائى . قال محمد بن خلف: قال أبو زيد الخطيب وسمعتُ أبى يقول : شهارسوج (1) الهيثم : هو الهيثم بن معاوية القائد . وقال أبو زيد الخطيب : المنار الذى فى شارع الأنبار بناه طاهر وقت دخوله . قال محمد بن خلف : بستان القَسّ : قسٌّ كان ثَـمَّ قبل بناء بغدد سويقة عبد الوهاب بن محمد بن إبراهيم الإمام * أخبرنا محمد بن أحمد بن رزق قال أنبأنا عثمان بن أحمد الدقاق قال نبأنا محمد بن أحمد بن البراء قال نبأنا على بن أبى مريم . قال : مررت بسويقة عبد الوهاب وقد خربت منازلها وعلى جدار منها مكتوب :

(1) أصلها بالفارسية : جهاسوج ومعناه بالعربية أربع جهات .

هـٰـذي منـازل أقـوام عهـدتهُـمُ   فـي رغـد عيـش رغيـب مـالـه خَطَـر
صـاحـت بهـم نـائبـات الـدهـر فـانقلبوا   إلـى القبـور فـلا عيـنٌ ولا أثـر

* أخبرنا ابن مخلد وابـن التوزى . قالا : أنبأنا محمد بن جعفر قال نبـأنا السكونى قال: قال محمد بـن خلف : ودور الصحابة منهم أبـو بكـر الهذلى ولـه مسـجـد ودرب ومحمـد ابـن يـزيد ، وشبّه بن عقـال ، وحنظلة بن عقّال ولهـم درب ينسب إلى الاستخراجـى اليوم . ولعبد الله بـن عياش دار على شاطـىء الصراة . ولعبـد الله بن الـربيع الحـارثى دار فـى دور الصحابة ، ولابن أبى سعد الشاعر. ولأبى دُلامـة - زيد بن جون - إقـطـاع هـكذا فى روايـة محمـد بن جعفـر عن السكونى زيـد بالياء * وقد أخبرنـا محمد بن حسن الاهـوازى قال لنا أبو أحمد الحسن بـن عبد الله بن سعيد العـسكرى قال أنبـأنا أبو العباس بن عمار قـال أنبأنا ابن أبى سعد . قالِ قال أحمد بن كلثوم : رأيتُ أبا عثمان المازنى والجمّاز عند جدى محمد ابن أبى رجاء فقال لهم : ما اسم أبى دُلامة ؟ فلـم يردوا عليه شيئا . فقال جدى : هو زند إياك أن تصحف فتقول زيد . قال أبو أحمد العسكرى : أبو دُلامة هو زند بن الجون مولى قصاقص الأسدى ، صحب السفـاح والمنصور ومدحهما ، وفـى أجداد النبى ﷺ فى نسـب إسماعيل زند بن برى بن أعراق الثرى * أخبرنى عبد الله بـن أحمد بن عثمان الصيرفى قال نبأنا محمد ابن عبد الله بـن أيوب قـال أنبـأنا أبو العبـاس أحمد بن عبيد الله بن عمـار الثقفى قـال:قال أبو أيوب - يعنى سليمان بن أبى شيخ - : كان أبو جعفر المنصـور أمـر بدور من دور الصحابة أن تُهدم أو تُقبض وفيها دار لأبى دلامة فقال : -

يـا بنـى وارث النبـى الـذى حـ   ـلّ بكفّيـه مـالُـه وعقـارُهُ
لكـم الأرضُ كلُّهـا فـأعيـروا   عبـدكـم مـا احتـوى عليـه جـداره
وكـأنْ قـد مضـى وخلّـف فيكـم   مـا أعـرتُـم وحـلّ مـالا يعـاره

* أخبرنا ابن مخلد وابـن التوزى . قالا : أنبأنا محمد بن جعفر قال نبـأنا السكونى قال: قال محمـد بن خـلف : كـان موضع السجن الجديد أقطاعا لعبد الله بن مـالك نزلها محمد ابن يحيـى بن خالـد بن برمـك ثم دخَلَت فـى بناء أمّ جعفر أيـام محمد الذى سمتـه القرار. وكانـت دار سليمان بن أبـى جعفر قطيعة لهشـام بن عمـرو والفزارى . ودار عمرو بـن مسعدة للعبـاس ابـن عبيد الله بـن جعفر بن المنصـور دار صالـح المسكين أقطعه أيـاها أبـو جعفر.

وسويقة الهيثم بن شعْبة بن ظُهير مولى المنصور توفى سنة ست وخمسين ومائة وهو على بطن جارية . دار عُمارة بن حمزة أحد الكتَّاب البُلغاء الجلّة يقال : هو من ولد أبى أسامة مولى رسول الله ﷺ ، ويقال : هو من ولد عِكْرمة . قصر عبدويه من الأزد من وجوه الدولة تولى بناءه أيام المنصور. دار أبى يزيد الشروى مولى على بن عبد الله بن عباس . سكة مُهَلْهِل بن صفوان مولى على بن عبد الله . صحراء أبى السرى الحكم بن يوسف قائدٌ : وهو مولى لبنى ضبّة . الرهينة كانت لقوم أخذوا رهينة أيام المنصور وهى متّصلة بربض نوح بن فرقد قائدٌ صحراء قيراط مولى طاهر وابنه عيسى بن قيراط . دار إسحاق كانت جزيرة أقطعها المأمون إسحاق بن إبراهيم . سويقة : أبى الورد هو عمر بن مطرف المروزى كان يلى المظالم للمهدى ويتصل بها . قطيعة إسحاق الأزرق الشروى من ثقات المنصور * حدُثت عن أبى عبيد الله المرزبانى قال حدثنى عبد الباقى بن قانع . قال : إنما سُميت سويقة أبى الورد ، لأنّ عيسى بن عبد الرحمن كان يقال له أبو الورد وكان مع المنصور فالسويقة به سُميتْ * أخبرنا ابنِ مخلد وابن التوزى . قالا : أنبأنا محمد بن جعفر قال نبأنا السكونى قال : قال محمد بن خلف : بركة زلزل الضارب وكان غلامًا لعيسى بن جعفر فحفر هذه البركة للسبيل * أنشدنا الحسن بن أبى بكر قال أنشدنا أبى قال أنشدنا إبراهيم بن محمد ابن عرفة نفطويه لنفسه :

لو أنّ زُهَيرًا وامرأ القَيْسِ أبصَرَا ... ملاحة ما تَحويه بركةُ زَلْزَلِ
لما وَصفَا سلمى ولا أُمّ سالمٍ ... ولا أكثَرَا ذِكْرَ الدّخول فَحَوْمَلِ

* أخبرنا ابن مخلد وابن التوزى . قالا : أنبأنا محمد بن جعفر قال نبأنا السكونى قال نبأنا محمد بن خلف قال قال أحمد بن أبى طاهر حدثنى أحمد بن موسى من دهاقين بادوريا قال : كانت قطيعة الربيع مزارع للناس من قرية يقال لها بناورىٰ من رستاق الفروسيج [1] من بادوريا واسمها إلى الساعة معروف فى الديوان . قال محمد بن خلف . وقالوا : أقطع المنصور الربيع قطيعته الخارجة وقطيعة أخرى بين السورين ظهر درب جميل وإن التجار وساكنى قطيعة الربيع غصبوا ولد الربيع عليها وكانت قطيعة الربيع وسويقة

(١) الفروسيج قال ياقوت : بفتح أوله وثانيه وسكون الواو وسكون السين فالتقى ساكنان لأنها أعجمية وياء مثناه من تحت مفتوحة وآخره جيم .

غالب تسمى قبل ذلك وِرْثالاً . ويقال : إن الخارجة أقطعها المهدى للربيع والمنصور أقطعه الداخلة* أخبرنى أبو القاسم الأزهرى قال أنبأنا أحمد بن إبراهيم قال نبأنا إبراهيم بن محمد بن عرفة . قال : وأما قطيعة الربيع فمنسوبة إلى الربيع مولى المنصور. وأما قطيعة الأنصار فإن المهدى أقدمهم ليكثربهم أنصاره ويتيمن بهم فأقطعهم هذه القطيعة وكانت منازل البرامكة بالقرب منهم . قال ابن عرفة : وأما قطيعة الكلاب فأخبرنى بعض الشيوخ عن رجل من أهلها عن أبيه . قال : لما أقطع أبو جعفر القطايع بقيت هذه الناحية لم يقطعها أحدًا وكانت الكلاب فيها كثيراً فقال بعض أهلها : هذه قطيعة الكلاب فسميت بذلك . وأما سكك المدينة فمنسوبة إلى موالى أبى جعفر وقواده . منها سكة شيخ بن عميرة ، وكان يخلف البرامكة على الحرس وكان قائدًا . وأما دار خازم . فهو خازم بن خزيمة النهشلى وهو أحد الجبابرة قَتَل فى وقعة سبعين ألفًا وأسر بضعة عشر ألفًا فضرب أعناقهم وذلك بخراسان . وأما درب الأبرد : فإنه الأبرد بن عبد الله قائد من قواد الرشيد ، وكان يتولى همدان . وأما درب سليمان فمنسوب إلى سليمان بن أبى جعفر المنصور وسكة الشرط فى المدينة كان ينزلها أصحاب شرط المنصور. وسكة سيابة منسوبة إليه ، وهو أحد أصحاب المنصور. وأما الزُّبَيْدِيَة التى بين باب خراسان وبين شارع دار الرقيق ، فمنسوبة إلى زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور. وكذلك الزبيديَّة التى أسفل مدينة السلام فى الجانب الغربى . وأما قصر وضاح : فمنسوب إلى وضاح الشروى مولى المنصور. وأما دور بنى نهيك التى تقرب من باب المحول : فهم أهل بيت من أهل سمَّرة وكانوا كتَّابًا وعمالا متصلين بعبد الله بن طاهر. وأما درب جميل ، فهو جميل بن محمد وكان أحد الكُتَّاب . وأما مسجد الأنباريين ، فينسب إليهم لكثرة من سكنه منهم ، وأقدم من سكنه منهم زياد القندى ، وكان يتصرف فى أيام الرشيد ، وكان الرشيد ولى أبا وكيع - الجراح بن مليح - بيت المال فاستخلف زيادًا ، وكان زياد شيعيًا من الغالية فاختان هو وجماعة من الكتاب واقتطعوا من بيت المال وصحَّ ذلك عند الرشيد فأمر بقطع يد زياد . فقال : يا أمير المؤمنين لا يَجِبُ علىَّ قطع اليد إنما أنا مؤتمن وإنما خُنْتُ فكفَّ عن قطع يده . قال ابن عرفة : وممن نزل مسجد الأنباريين من كبرائهم أحمد بن إسرائيل ومنزله فى درب جميل ودلَيل بن يعقوب ومنزله فى دور بنى نهيك . وهنالك دار أبى الصقر إسماعيل بن بلبل ، وممن أدركنا من سراة الأنباريين أبو أحمد القاسم بن سعيد

وكان كـاتباً أديبـاً * أخـبرنا بـن مخلد وابـن التوزى . قالا أنبـأنا محمـد بن جعفـر قال نبـأنا السكونى قال قال محمد بن خلف : طـاق الحـرانى إبـراهيم بن ذكوان ثم السوق العتيقة إلى باب الشعير.

* قال الشيخ أبوبكـر : وفى السوق العتيقة ، مسجد تغشاه الشيعة وتـزوره وتعظمه وتزعم أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلى فـى ذلك الموضع ولـم أرَ أحدًا من أهل العلم يثبت أن عليا دخـل بغداد ولا رُوى لنا فـى ذلك شىءٌ غير ما أخبرنا القاضـى * أبو عبد الله الحسين ابن على الصَيمـرى قال نبأنا أحمـد بن محمد بن علـى الصيرفى قال نبـأنا القاضى أبـو بكر محمد بن عمر الجعابى الحافظ – وذكر بغـداد – . فقال : يقال إن أمير المؤمنين على بن أبى طالب اجتاز بها إلى النهروان راجعاً منه وأنه صلـى فى مواضع منها فإن صح ذلك فقد دخلها من كان معه من الصحابة .

* قال الشيخ أبو بـكر : والمحفوظ أن عليًّا سلك طريق المدائن فى ذَهابه إلى النهروان ، وفى رجوعه والله أعلم .

* حـدثنى أبـو الفضـــل عيسى بن أحمد بن عثمـان الهمدانى قال سمعـت أبا الحسن ابن رزقـويه يقول: كنـت يومًا عنـد أبى بكر بن الجعـابى فجاءه قـوم من الشيعة فسلمـوا عليه ودفعوا إليه صُرّة فيها دراهم . ثم قالوا له : أيها القاضى أنك قد جمعت أسماء محدثى بغداد وذكـرت من قدم إليهـا ، وأمـير المـؤمنين عـلـىٌّ بـن أبـى طالب قد وردها فنسألـك أن تذكره فى كتابك . فقال : نعـم ! يا غلام هات الكتاب فجىء به فكتب فيـه وأمـير المـؤمنين عـلـى ابن أبى طالب . يقال : إنه قدمها . قال ابن رزقويه فلما انصرف القوم . قلت له : أيها القاضى هـذا الذى ألْحَقْتَهُ فى الكتـاب مَن ذَكَرَهُ ؟ فقال : هؤلاء الذين رأيتهم . أو كمـا قال * أخبرنا ابن مخلد وابن التوزى [القـاضى] . قالا : أنبأنا محمد بن جعفر السكـونى قال: قال محمد ابن خلـف : مسجد ابن رغبان عبد الرحمن بن رغبان مولى حبيب بن مسلمة . ونهر طابق إنما هو نهـر بابك بـن بهرام بـن بابك وهـو الذى اتخذ العقـر الذى عليـه قصـر عيسى بـــن على واحتفـر هذا النهـر ونهر عيسـى غربيُّـه من الفـروسيـج وشرقيُّـه من رستـاق الكرخ . وفيـه دور المعبديين وقنطرة بنى زريق ودار البطيخ ودار القطـن . وقطيعة النصارى إلى قنطرة الشوك من

نهر طابق شرقيُّه وغربيُّه من قرية بناوريٰ . ومسجد الواسطين مع ظلّة ميشويه وميشويه - نصراني من الدهاقين - إلى خندق الصينيات إلى الياسرية . وما كان غربيّ الشارع فهو من قرى تعرف - ببراثا - وما كان من شرقيه فهو من رستاق الفروسيج وما كان من درب الحجارة وقنطرة العباس شرقيا وغربيا فهو من نهر كرخايا : [وهو من براثا وإنما سمى كرخايا لأنه كان يسقى فى رستاق الفروسيج والكرخ فلما أحدث عيسى الرحا المعروف بأبى جعفر قطع نهر كرخايا] وشق لرستاق الكرخ شرباً من نهر رفَيْل . العباسية قطيعة للعباس بن محمد الياسرية لياسر مولى زبيدة . قنطرة بنى زريق دهاقين من أهل بادوريا . قنطرة المعبديّ عبد الله ابن معبد المعبدى . ارحاء البطريق : وافد لملك الروم واسمه طارث بن الليث بن العيزار ابن طريف بن فوق بن مَوْرق ، بنى هذا المستغلّ ثم غلت فقبضت عنه * أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع - فيما أذن أن نرويه عنه - قال أنبأنا على بن محمد ابن السرى الهمدانى قال أنبأنا القاضى أبوبكر محمد بن خلف . قال أنبئتُ : أن يعقوب ابن المهدى سأل الفضل بن الربيع عن أرحاء البطريق فقال أخبرنى إسحاق بن محمد ابن إسحاق قال . له : مَنْ هذا البطريق الذى نسبت إليه هذه الارحاء ؟ فقال الفضل : إن أباك رضى الله عنه لما أفضت إليه الخلافة قدم عليه وافدٌ من الروم يهنيه فاستدناه ثم كلمه بترجمان يعبر عنه . فقال الرومى : إنى لم أقدم على أمير المؤمنين لمال ولا غرض وإنما قدمت شوقا إليه وإلى النظر إلى وجهه لأنا نجد فى كتبنا أن الثالث من أهل بيت نبى هذه الأمة يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً . فقال المهدى : قد سرَّنى ما قلت ولك عندنا كل ما تحبُّ ، ثم أمر الربيع بإنزاله وإكرامه فأقام مدة ، ثم خرج يتنزه فمر بموضع الإرحاء فنظر إليه . فقال : للربيع أقرضنى خمسمائة ألف درهم أبنى بها مستغلاً يؤدى فى السنة خمسمائة ألف درهم . فقال : افعل ، ثم أخبر المهدى بما ذكر فقال أعطه خمسمائة ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ، وما أغلت فادْفعه إليه ، فإذا خرج إلى بلاده فأبعث به إليه فى كل سنة . قال : ففعل ! فبنى الإرحاء ثم خرج إلى بلاده فكانوا يبعثون بغلتها إليه حتى مات الرومى ، فأمر المهدى أن يضم إلى مستغله . قال : واسم البطريق طاراث بن الليث ابن العيزار بن طريف ، وكان أبوه ملكا من ملوك الروم فى أيام معاوية بن أبى سفيان * أخبرنى أبو القاسم الأزهرى قال أنبأنا أحمد بن إبراهيم قال نبأنا إبراهيم بن محمد بن عرفه

قال : وأما قطيعة خزيمة فهو خزيمة بن خازم أحد قواد الرشيد ، وعاش إلى أيام الأمين وعمِيَ في آخر عمره . وأما شاطىء دجلة فمن قصر عيسى إلى الدار التي ينزلها في هذا اليوم على قرن الصَّراة إبراهيم بن أحمد فإنما كان أقطاعا لعيسى بن علي - يعني ابن عبد الله ابن عباس - وإليه ينسب نهر عيسى وقصر عيسى ، وعيسى بن جعفر وجعفر بن أبي جعفر وإليه ينسب فرضة جعفر وقطيعة جعفر ، وأما قصر حميد فأحدث بعد . وأما شاطىء دجلة من قرن الصراة إلى الجسر ومن حد الدار التي كانت لنجاح بن سلمة ثم صارت لأحمد ابن إسرائيل ثم هي اليوم بيد خاقان المفلحي إلى باب خراسان فذلك الخلد . ثم ما بعده إلى الجسر ، فهو القرار نزله المنصور في آخر أيامه ثم أوطنه الأمين * أخبرنا علي بن محمد ابن عبد الله المعدّل قال أخبرنا الحسين بن صفوان البرذعي قال نبأنا أبو بكر عبد الله ابن محمد ابن أبي الدنيا قال حدثني الحسن بن جهور . قال : مررت مع علي بن أبي هاشم الكوفي بالخلد والقرار فنظر إلى تلك الآثار فوقف متأملا وقال :

بنَوْا وقالوا لا نموت ... وللخراب بنى المبَنِّي
ما عاقلٌ فيما رأيتُ ... إلى الحياة بمطمئن

* أخبرني الأزهري قال أنبأنا أحمد بن إبراهيم قال نبأنا ابن عرفة . قال : وأما دار إسحاق فمنسوبة إلى إسحاق بن إبراهيم المصْعبي ، ولم يزل يتولى الشرطة من أيام المأمون إلى أيام المتوكل ومات في سنة خمس وثلاثين ومائتين ، وسِنُّه ثمان وخمسون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوما . وأما قطيعة أم جعفر فمنسوبة إليها .

* * *

من كتاب " التطفيل وحكايات الطُّفَيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم " :

معنى التطفيل فى اللغة وأول من نُسب إليه :

قال الأصمعىّ : الطفيلىّ الداخل على القوم من غير أن يُدْعى ، مأخوذ من « الطَّفَل » وهو إقبال الليل على النهار بظلمته ، وأرادوا أن أمره يظلم على القوم فلا يدرون من دعاه ، ولا كيف دخل إليهم . . .

وقال : قولهم طفيلى للذى يدخل وليمة لم يُدْع إليها ، وهو منسوب إلى « طُفَيْل » ، رجل من أهل الكوفة من بنى غَطفان ، وكان يأتى الولائم ، من غير أن يُدعى إليها ، فكان يقال له : طفيل الأعراس والعرائس .

والعرب تسمّى الطفيلىّ : الرائش والوارش ، والذى يدخل على القوم فى شرابهم ولم يدع إليه : الواغل .

[مختارات من نوادر الطفيليين] :

نزل بعض أهل البصرة على مدينىّ ، وكان صديقاً له ، فألحّ على المدينىّ بطول المقام ، فقال المدينىّ لامرأته : إذا كان غدًا فإنى أقول لضيفنا : كم ذراعا تقفز؟ فأقفز أنا من العتبة إلى باب الدار، فإذا قفز الضيف أغلقى الباب خلفه .

فلما كان من الغد قال له المدينىّ : كيف قفزك يا أبا فلان ؟ » .

قال : جيد .

فوثب المدينىّ من داخل منزله إلى خارج الدار أذرعًا ، فقال له : ثبْ .

فوثب إلى داخل الدار ذراعين ، فقال له : أنا وثبت إلى خارج الدار أذرعًا ، وأنت وثبت إلى داخل الباب ذراعين !

قال : ذراعين إلى داخلٍ ، خيرٌ من أربعة إلى « برا » .

* * *

اجتمع قوم من الطفيليين ، فأرادوا وليمة ، فقال رئيسهم : اللهم لا تجعل البواب لكّازًا في الصدور[1] ، دفّاعا في الظهور، طرّاحا للقلانس ، هب لنا رأفته وبشره ، وسهل لنا إذنه ، فلما دخلوا تلقاهم الخباز، فقال رئيسهم : « غُرّة مباركة موصول بها الخِصب ، معدوم معها الجدب » فلما جلسوا على الخوان[2] ، قال : « جعلك الله في البركة كعصا موسى وخوان إبراهيم ، ومائدة عيسى ، ثم قال لأصحابه : « افتحوا أفواهكم وأقيموا أعناقكم وأجيدوا اللفّ ، وأشرعوا الأكفّ ، ولا تمضغوا مضغ المتعلّلين الشباع المتخمين ، واذكروا سوء المنقلب وخيبة المضطرب » .

* * *

قيل لطفيليّ مرّة : كيف علمك بكتاب الله ؟

قال : أنا من أعلم الناس به .

فقيل له : ما معنى قوله : « واسأل القرية التي كنا فيها[3] » ؟

فقال : معناه : واسأل أهل القرية .

قيل له : وما الدليل على ذلك ؟

قال : كما تقول : « أكلت سفرة فلان[4] » ، وإنما تريد أكلت ما فيها .

* * *

وقال طفيلي : « خير البقاع ثلاثة : دكان الرواس ، والشواء ، والهراس» .[5]

* * *

(١) اللّكاز : الذي يضرب بجُمع كفّه في صدور الناس - القلانس : جمع قلنسوة ، وهي لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال.

(٢) الخوان : ما يؤكل عليه .

(٣) من الآية ٨٢ سورة يوسف .

(٤) السفرة : ما يحمل فيه الطعام أو المائدة وما عليها منه .

(٥) الرواس يريد به بائع رءوس الحيوان - الشواء : محترف الشواء ، وهو اللحم المشويّ بالنار لإنضاجه - الهراس : صانع الهريسة أو بائعها ، وهي الحب المدقوق بآلة الهرس ، أو الحلوى المصنوعة من الدقيق والسمن والسكر.

قيل لطفيلى مرة : ما بالك أصفر اللون ؟

فقال : من الفترة التى بين الغضارتين (٦) أخاف أن يكون الطعام قد فنى .

* * *

حدثنا أبو مسلم أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن بندار القاضى بقاسان ، قال : قرأت فى كتاب أبى بخطّه : قيل لبعض الطفيليين : أتحبّ أبا بكر وعمر ؟

قال : ما ترك الطعام فى قلبى حبًّا لأحد .

* * *

سمعت من يذكر عن بعض الطفيليين قال : إذا كنت على مائدة فلا تتكلمن فى حال أكلك ، وإن كلّمك من لابدّ لك من جوابه فلا تجبْه إلّا بقول « نعم » ، فإن الكلام يشغل عن الأكل ، وقول « نعم » مضغة .(٧)

* * *

خرج طفيلىّ مع نفر فى سفر ، فعزموا أن يُخرج كل واحد شيئا للنفقة ، فقال: كلّ واحد علىّ كذا .

فلما بلغوا إلى الطفيلىّ ، قال لهم : « علىّ » وسكت .

فقالوا له : فإيش (٨) عليك ؟

قال : لعنة الله .

فضحكوا منه ، وأعفوه من النفقة ، وحملوه طول سفرهم .

* * *

---

(٦) الغضارة : قصعة كبيرة من الخزف .
(٧) المضغة : المرّة الواحدة من مَضْغَ الطعام أى لاكه بأسنانه .
(٨) أى : أىّ شىء .

صحب طفيليّ رجلًا فى سفره ، فقال له الرجل : امض فاشتر لنا لحمًا .

قال : لا والله ما أقدر .

فمضى هو فاشترى ، ثم قال له : قم فاطبخ .

قال : لا أحسن .

فطبخ الرجل ، ثم قال له : قم فاثرد(٩) .

قال : أنا والله كسلان .

فثرد الرجل ، ثم قال له : قم فاغرف .

قال : أخشى أن ينقلب على ثيابى .

فغرف الرجل ، فقال له : قم الآن فكلْ .

قال الطفيليّ : « قد والله استحييت من كثرة خلافى عليك » . وتقدّم فأكل .

* * *

قيل لطفيليّ : كم اثنان فى اثنين ؟ قال : أربعة أرغفة .

وقال طفيليّ آخر : انتظرت « فلانًا » مقدار ما يأكل إنسان رغيفًا .

* * *

دعا رجل قومًا فجاءوا ، وأتبعهم طفيليّ ، ففطن به الداعى ، فأراد أن يعلمه أنه فطن به ، فقال : ما أدرى لمن أشكر منكم، لكم إذ أجبتم دعوتى ، أم لهذا الذى تجشّم من غير دعوة .

* * *

---

(٩) ثَرَد الخبز : فتّه ثم بلّه بمرق .

مرّ بُنان بعرس ، فأراد الدخول ، فلم يقدر ، فذهب إلى بقّال[10] ، فوضع خاتمه عنده على عشرة أقداح علاكية ، وجاء إلى باب العرس ، فقال : يابواب افتح لى .

فقال له البواب : من أنت ؟

قال : أراك ليس تعرفنى ، أنا الذى بعثونى أشترى لهم الأقداح .

ففتح له فدخل ، فأكل وشرب مع القوم ، فلما فرغ أخذ الأقداح ، ونادى البواب : افتح لى حتى أردّ هذه .

فخرج ، فردها إلى البقال ، وأخذ خاتمه .

* * *

جاء بنان إلى وليمة ، فأغلق الباب دونه ، فاشترى سلما ووضعه على حائط الرجل ، وتسّور[11] ، فأشرف على عيال الرجل وبناته ، فقال له الرجل : يا هذا أما تخاف الله ؟ ، رأيت أهلى وبناتى .

فقال : يا شيخ ، لقد علمت ما لنا فى بناتك من حقّ ، وإنك لتعلم ما نريد .

فضحك الرجل ، وقال له : انزل فكلْ .

فقال له بنان : « يا هذا ، لاتسىء بالمشايخ الظنّ ، واستغفر الله مما كان » .

* * *

كان ابن درّاج الطفيلى من أهل حرّان ، قدم بغداد ، فمرّ بباب قوم وعندهم وليمة ، فدخل فإذا صاحب الدار قد وضع سلّمه، فكلما رأى إنسانا لايعرفه قال : اصعد يا أبى .

---

(10) البقّال : بائع البقول ونحوها .
(11) اكترى استأجر – تسوّره : علاه وتسلّقه .

قال ابن دراج : فصعدت إلى غرفة مفروشة ، حتى وافينا فيها ثلاثة عشر طفيليًا ، ثم رفع السلم ، ووضعت الموائد ، فبقى أصحابى قد تحيرّوا وقالوا : ما مرّ بنا مثل ذا قطّ .

قال : قلت : يا فتيان إيش صناعتكم ؟ قالوا : الطفيلية ، قلت : فإيش عندكم فى هذا الأمر الذى وقعنا فيه ؟

قالوا : ما عندنا فيه حيلة . قلت : فإذا احتلت لكم حتى تأكلوا وتنزلوا تقرّون لى أنى أعلمكم التطفيل ؟

قالوا : ومن تكون بالله ؟ قال : أنا ابن دراج .

قالوا : قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا .

قال : فجئت إلى صاحب الدار ، فاطّلعت عليه والناس يأكلون ، قال : قلت : يا صاحب الدار ، قال : ما لك ؟ قال : قلت أيمّا أحبّ إليك ، تصعد إلينا بخوان كبير نأكل وننزل أو أرمى بنفسى راسية فيخرج من دارك قتيل ويصير عرسك مأتما ؟

قال : وجعلت أجرّ سراويلى ، كأنى أريد أن أعدو وأرمى بنفسى .

قال : فجعل صاحب الدار يقول : اصبر ويلك لا تفعل ، وجعل يعجلهم ويقول : هذا مجنون ، فأصعدوا إلينا خوانا فأكلنا ونزلنا .

ولابن دراج هذا حكايات فى التطفيل معروفة .

* * *

قيل لابن دراج ، وكان رأسه طويلا : من أى شىء طال رأسك ؟

قال : من مزاحمة الأبواب .

أى يعصرونه مع الحائط بالأبواب .

* * *

قال يحيى الفراء : كنت قاطعت ابن دراج الطفيلي على أن يُملى عليّ ثلاثين نادرة بدرهم ، فكان إذا ذكر نادرة باردة لم أحسبها له ، قال : إن أردت التقاوة عشرة بدرهم .

* * *

قال رجل لبنان : « أوصنى » ، قال : لا تنادم أحدا ، فإن كنت لابدّ فاعلاً ، فنادم من لا يستأثر عليك بالمخ ، ولا ينتهب بيضة البقلية ، ولا يلتقم جلد الدجاجة ، ولا يختطف كُلية الجَدْى ، ولا يزدرد قانصة الكُركىّ (١٢) ، ولا يقتطع سرّة الشصان ، ولا يعرض لعيون الرأس ، ولا يستولى على صدر الدُّرّاج (١٣) ، ولا يتناول إلا ما بين يديه ، ولا يلاحظ ما بين يدى غيره ، وإن أتى بجدى شواء كشح (١٤) كل شيء عليه ، لا يرحم ذا سنّ لضعفه ، ولا يرقّ على حَدَث لحدّة شهوته ، ولا ينظر للعيال ، ولا يبالى كيف دارت بهم الحال .

* * *

مرض بعض الطفيليين ، فقال له غلامه : أوصنى ، قال : مَنَّ الله عليك بصحة الجسم وكثرة الأكل ودوام الشهوة ونقاء المعدة ، ومتعك بضرس طحون ومعدة هضوم مع السعة والدعة والأمن والعافية ، إذا قعدت على مائدة ، وعزبك الماء (١٥) فغصصت بلقمتك ، فضع يدك اليمنى فوق رأسك ، وحركها كأنك تسوّى كُمّتك (١٦) ، فإنها تنزل بإذن الله .

وإذا قعدت على مائدة ، وكان موضعك ضيّقا ، فقل للذى إلى جانبك : يا أبا فلان لعلى قد ضيّقت عليك ، فإنه يتأخر إلى خلف ، ويقول : « سبحان الله ! لا ، والله موضعى واسع » ، فيتسع عليك موضع رجل .

ولا تصادفنّ من الطعام شيئا فترفع يدك عنه ، وتقول : لعلى أصادف ما هو أطيب منه .

---

(١٢) الكركىّ : طائر كبير ، والقانصة للطير كالمصارين لغيرها ، وجمعها قوانص .
(١٣) الدُّرّاج : نوع من الطير يدرج فى مشيه .
(١٤) كشح بمعنى قشر .
(١٥) يريد : عزب الماء عنك أى بعد وغاب .
(١٦) الكمّة : القلنسوة المدوّرة تغطى الرأس .

قال : زدني ، قال : إذا وجدت خبزًا فيه قلّة ، فكل الحروف ، فإذا كان كثيرا فكل الأوساط ، ولا تكثر شرب الماء وأنت تأكل فإنه يمنعك من الأكل ، وهذا عين الحماقة .

قال : زدني ، قال : إذا وجدت الطعام فكل منه أكل من لم يره قطّ ، وتزوّد منه زادَ من لايراه أبدًا .

قال : زدني ، قال : إذا وجدت الطعام فاجعله زادك إلى الله ، ولا تأكل الكزمازك (١٧) مطويّا فإنه يعذبك ، كُلْه مشوشًا حتى تقع عليه الأضراس ، وهو أخفّ في المضغ ، وإذا دخلت إلى عرس كثير الزحام فمُرْ وانْهَ ، وإن كان البواب غليظا وقاحا (١٨) فمره وانهه من غير أن تعنف عليه ، ويكون كلامًا بين النصيحة والإدلال ، فإني دخلت يوما إلى بعض الولائم وعنده بغيض ، يعني الخباز ، وكنت عليه واجدا من شيء فعله ، فجئت وقد عمل بَزْما وَرْدا(١٩) ليضعه وسط المائدة عند الفراغ من الطعام ليطلب الراشن ، فقلت له : استأذنت في هذا صاحبنا ؟ وما كان عرفني بعد ، ولايدري من أنا ، فقال : يا شيخ وهذا مما يستأذن فيه أحد قلت : أسكران أنت تريد أن تعزم أحدهم أكثر مما أكل وتنغّص عليه ، إنك لجاهل أحمق ! صاحب الوليمة لا يرضى بهذا ، وهذا مما لا يجوز أن أكتمه ، ولولا خوفي لاثمته لم آسف بشيء يصير إليك . قال الخباز : فهل لك أن تكفيني مؤنته ، ولك نصف ما أصبت ؟ فقلت : أفعل . ولزمته وجعلت آكل كل شيء أشتهي وآمر وأنهى ، وكان الخباز يظن أن بيني وبين الرجل حرمة أو قرابة للمرأة ، وقاسمت الخباز ، وأخذت منه نصف ما أصاب ، ثم عرفني بعد ذلك وصالحني .

---

(١٧) الكزمازك : ثمرة الطرفاء ، وهي جنس من النبات .
(١٨) وقاح الوجه : قليل الحياء .
(١٩) البزما ورد : طعام من البيض واللحم .

ابن زيدون

* الرسالة الجدّية . وقد خاطب بها ابن جهور من موضع اعتقاله :

يا مَولاَيَ وسَيِّدِي ، الَّذي وِدَادِي لَهُ ، واعْتِدَادِي بِهِ ، واعْتِمادِي عَلَيْهِ ، وَامْتِدَادِي مِنْهُ ؛ أَبْقَاكَ اللهُ ماضِيَ (١) حَدِّ العَزْمِ (٢) ، وَارِيَ (٣) زَنْدِ الأَمَلِ . ثابِتَ عَهْدِ النِّعْمَة .

إِنْ سَلَبْتَنِي - أَعَزَّكَ اللهُ - لِباسَ إِنْعَامِك ، وعَطَّلْتَنِي مِنْ حَلْيِ إِيناسِك ، وَأَظْمَأْتَنِي إِلَى بَرُودِ (٤) إِسعَافِك (٥) ، وَنَفَضْتَ (٦) بِي كَفَّ حِياطَتِك (٧) ، وغَضَضْتَ عَنِّي طَرْفَ حِمَايَتِك ، بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الأَعْمَى إِلى تَأْمِيلي لَكَ ، وسَمِعَ الأَصَمُّ ثَنائي عَلَيْك ، وأَحَسَّ الجَمَادُ بِإِسْنَادِي (٨) إِلَيْك ، فَلاَ غَرْوَ ، فَقَدْ يَغَصُّ بالمَاءِ شارِبُهُ ، ويَقْتُلُ الدَّوَاءُ المسْتَشْفِيَ بِهِ ، وَيُؤْتَى الحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِه ، وتَكُونُ مَنِيَّةُ المُتَمَنِّيْ فِي أُمْنِيَّتِه « والحَيْنُ (٩) قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ الحَرِيصِ » .

كُلُّ المَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ على الفَتَى وَتَهُونُ غَيْرَ شَمَاتَةِ الحُسَّادِ

وَإِنِّي لأَتَجَلَّدُ (١٠) ، وَأُرِي الشَّامِتِينَ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاأَتَضعْضَع (١١)، فَأَقُول : هَلْ أَنَا إِلا يَدٌ أَدْماها (١٢) سِوارُها ، وجَبِينٌ عَضَّهُ إِكْلِيلُهُ (١٣) ومَشْرَفِيٌّ (١٤) أَلْصَقَه بالأَرْضِ

---

* سبقت ترجمته في القسم الخاصّ بالشعر.

(١) الماضي : السيف النافذ . (٢) العزم : العزيمة .

(٣) وارى زند الأمل : ورى الزند أي خرجت ناره وقت الاقتداح .

(٤) برود : بارد (٥) إسعافك : إنجادك .

(٦) نفضت . طرحت . يريد : طرحتني من كف حوزك لي .

(٨) حياطتك : إحاطتك .

(٨) الإسناد في الحديث : أن ترفعه إلى قائله . يريد إسناده إليه كل مفخرة من المآثر الجهورية .

(٩) الحين : الموت ، وهذا نصف بيت لعدى بن زيد وهو :

قد يدرك المبطىء من حظه والحين قد يسبق جهد الحريص

(١٠) لأتجلد : أتكلف الصبر.

(١١) لاأتضعضع : لاأنهدم .

(١٢) أدماها : أسال دمها .

(١٣) إكليله : تاجه .

(١٤) المشرفي : السيف ينسب إلى مشارف ، وهى قرية .

صاقِلُه(١٥) ، وسَمْهَرِيٌّ (١٦) عَرَضَهُ على النَّارِ مُثَقِّفُه (١٧) ، وعَبْدٌ ذَهَبَ بِهِ سَيِّدُهُ مَذْهَبَ الَّذِى يَقُول :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ راحِماً ... فَلْيَقْسُ أَحْيَاناً على مَنْ يَرْحَمُ (١٨)

هذا العَتْبُ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ ، وَهٰذِهِ النَّبْوَة (١٩) غَمْرَةٌ (٢٠) ثم تَنْجَلِى (٢١) ، وَهٰذِهِ النَّكْبَةُ سَحابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ (٢٢). وَلَنْ يَرِيبَنِى مِنْ سَيِّدِى أَنْ أَبْطَأَ سَيْبُه ، أَوْ تَأَخَّرَ - غيرَ ضَنِينٍ - غَنَاؤُه (٢٣) ؛ فأَبْطَأُ الدِّلاءِ فَيْضاً أَمْلَؤُهَا ، وَأَثْقَلُ السَّحَائِبِ مَشْياً أَحْفَلُها (٢٤)، وأَنْفَعُ الحَيا (٢٥) ما صادَفَ جَدْباً ، وَأَلَذُّ الشَّرابِ ما أصاب غَلِيلاً (٢٦) ، ومَعَ اليَوْمِ غَدٌ ، ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتاب ؛ لَهُ الحَمْدُ عَلَى اهْتِبَالِهِ (٢٧) ، ولا عَتْبَ عَلَيْهِ فِى إِغْفَالِهِ .

فإِنْ يَكُنِ الفِعْلُ الَّذِى ساءَ واحِدًا ... فأَفْعَالُهُ اللَّائِى سَرَرْنَ أُلُوفُ (٢٨)

وَأَعُودُ فأَقُول :

ما هٰذا الذَّنْبُ الَّذِى لَمْ يَسَعْهُ عَفْوُكَ ؟ وَالجَهْلُ الذِى لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ حِلْمُكَ ؟ وَالتَّطَاوُلُ (٢٩) الَّذي لَمْ يَسْتَغْرِقْهُ تَطَوُّلُكَ (٣٠) ؟ وَالتَّحَامُلُ الَّذِى لَمْ يَفِ بِهِ احتمالُك ؟ ولا أَخْلُو مِنْ أَنْ أَكُونَ بَرِيئاً ، فَأَيْنَ الْعَدْلُ ؟ أَوْ مُسِيئاً ، فَأَيْنَ الْفَضْلُ ؟

إِلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعُ ... أَوْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعُ

---

(١٥) صاقله : الذى يجلو السيف .
(١٦) السمهرى : الرمح الصلب أو المنسوب إلى سمهر، وهو رجل كان يصنع الرماح .
(١٧) مثقفه : مقومه .
(١٨) ليزدجروا : ليمتنعوا . والبيت من قصيدة لأبى تمام يمدح بها مالك بن طوق .
(١٩) النبوة : من نبا السيف ، بمعنى ارتد عن الضريبة .
(٢٠) غمرة : شدة .
(٢١) تنجلى : تتكشف وتذهب .
(٢٢) تقشع : تقلع .
(٢٣) غناؤه : نفعه .
(٢٤) أحفلها : أملؤها .
(٢٥) الحيا : المطر .
(٢٦) غليلا : عطشا شديدا .
(٢٧) اهتباله : اغتنامه .
(٢٨) البيت لأبى الطيب .
(٢٩) التطاول : من الطول : ضد العرض .
(٣٠) تطولك : فضلك .

حَنانَيْك (٣١) ، قَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى (٣٢) ونَالَنِي ما حَسْبِي بِهِ وَكَفَى ؛ وَمَا أُرانِي إلَّا لَوْ أُمِرْتُ بالسُّجُودِ لآدَمَ فأَبَيْتُ وَاسْتَكْبَرْتُ ، وقال لي نوحٌ « ارْكَبْ مَعنا » ، فَقلْتُ : « سآوِي إلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الماء » ، وَأَمَرْتُ بِبِنَاءِ الصَّرْحِ « لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى » ، وَعَكَفْتُ عَلَى الْعِجْلِ ، وَاعْتَدَيْتُ فِي السَّبْتِ ، وَتَعَاطَيْتُ فَعَقَرْتُ ، وَشَرِبْتُ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي ابْتُلِيَ بِهِ جُيُوشُ « طالوتَ » ، وَقُدْتُ الفِيلَ لأَبْرَهَةَ ، وَعَاهَدْتُ قُرَيْشاً عَلَى مَا فِي الصَّحِيفَةِ (٣٣) ، وَتَأَوَّلْتُ (٣٤) فِي بَيْعَةِ العَقَبَةِ ، وَنَفَرْتُ إِلَى الْعِيرِ (٣٥) بِبَدْرٍ ، وَانْخَذَلْتُ بِثُلُثِ النَّاسِ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَتخلَّفْتُ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَجِئْتُ بِالإِفْكِ عَلَى عَائِشَةَ الصِّدِّيقَةِ ، وَأَنِفْتُ مِنْ إِمَارَةِ أُسامَةَ ، وَزَعَمْتُ أَنَّ بَيْعَةَ أبي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً ، وَرَوَّيْتُ رُمْحِي (٣٦) مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ ، وَمَزَّقْتُ الأَدِيمَ (٣٧) الَّذِي بارَكَتْ يَدُ اللهِ عَلَيْهِ ، وَضَحَّيْتُ بِالأَشْمَطِ (٣٨) الَّذِي عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ، وَبَذَلْتُ لِقَطَامِ (٣٩).

ثَلَاثَةَ آلافٍ وَعَبْداً وَقَيْنَةً ... وَضَرْبَ عَلِيٍّ بِالْحُسامِ الْمُسَمَّمِ

وَكَتَبْتُ إِلَى عَمْرِو بْنِ سَعْدٍ : « أَنْ جَعْجِعْ (٤٠) بِالْحُسَيْنِ » ، وَتَمَثَّلْتُ عِنْدَما بَلَغَنِي مِنْ وَقْعَةِ الحَرَّةِ (٤١) :

---

(٣١) حنانيك : مثنى حنان وهو الرحمة .

(٣٢) الزبى : جمع زبية ، وهي حفرة في مكان مرتفع لا يعلوه الماء ، فإذا بلغها السيل كان جارفا .

(٣٣) الصحيفة : يقصد بها تلك التي كتبتها قريش وتعاهدت فيها على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب حتى يسلموا إليهم النبي عليه الصلاة والسلام ، وذلك في أوائل الدعوة .

(٣٤) تأولت في بيعة العقبة : نقضتها متأولا .

(٣٥) يشير بهذا إلى ضمضم بن عمرو الغفاري الذي بعثه أبو سفيان إلى مكة مستنفرًا قريشا لأموالهم .

(٣٦) يشير إلى أبي شجرة السلمي الذي حارب في صفوف أهل الردة ضد خالد بن الوليد ، وقال :

ورويت رمحي من كتيبة خالد ... وإني لأرجو بعدها أن أعمرا

ثم أسلم بعد ذلك .

(٣٧) يشير إلى قول الشاعر في رثاء عمر بن الخطاب ، وهو :

جزى الله خيرا من إمام وباركت ... يد الله في ذاك الأديم الممزق

(٣٨) الأشمط : هو عثمان بن عفان .

(٣٩) قطام : امرأة من الخوارج أراد أن يتزوجها ابن ملجم ، فاشترطت عليه ثلاثة آلاف وعبدا وقينة ، وقتل علي ، فأجابها ، وقال البيت المذكور .

(٤٠) يشير إلى عبيد الله بن زياد الذي كتب إلى عمرو بن سعد أن جعجع : أي ضيق على الحسين .

(٤١) يشير إلى يزيد بن معاوية الذي ينسب إليه هذا البيت . ووقعة الحرة حدثت عند حرة واقم بالمدينة .

لَيْتَ أَشْيَاخِى بِبَدْرٍ عَلِمُوا جَزَعَ الخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأَسَلْ

وَرَجَمْتُ (٤٢) الكَعْبَة ، وَصَلَبْتُ العائِذَ عَلَى الثَّنِيَّة ، لكانَ فِيما جَرَى عَلَيَّ ما يَحْتَمِلُ أَنْ يُسَمَّى نكالاً ، وَيُدْعَى - وَلَوْ عَلَى المَجازِ - عِقابا .

وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بامْرِئٍ تَرَى حاسِدِيهِ لَهُ راحِمِينا

فكَيْفَ ولا ذَنْبَ إِلَّا نَمِيمَةٌ أَهْدَاها كاشِحٌ (٤٣) ، وَنَبَأٌ جاءَ بِهِ فاسِقٌ ؟

وَهُمُ الهَمَّازُونَ المَشَّاءُون بِنَمِيم ، وَالوَاشُونَ الَّذِينَ لا يَلْبَثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا العَصَا ، والغُوَاةُ الَّذِينَ لا يَتْرُكونَ أَديماً صَحِيحا ، وَالسُّعَاةُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ، فَقَالَ : « مَا ظَنُّكَ بِقَوْمِ الصِّدْقُ مَحْمُودٌ إِلَّا مِنْهُمْ » .

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَلَيْس - وَرَاءَ اللهِ - لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

وَاللهِ ، مَا غَشَشْتُكَ بَعْدَ النَّصِيحَة ، ولا انْحَرَفْتُ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاغِيَة (٤٤) ، ولا نَصَبْتُ (٤٥) ، لَكَ بَعْدَ التَّشَيُّع ، ولا أَزْمَعْتُ (٤٦) ، يَأْساً مِنْكَ مَعَ ضَمَانٍ تَكَفَّلَتْ بِهِ الثِّقَةُ عَنْكَ ، وَعَهدٍ أَخَذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ عَلَيْك . فَفِيمَ عَبِثَ الجَفَاءُ بِأَذِمَّتِى (٤٧) ، وَعَاثَ (٤٨) العُقُوقُ (٤٩) ، فِى مَواتِّى (٥٠) ، وتَمَكَّنَ الضَّياعُ مِنْ وَسائِلى ؟ وَلِمَ ضَاقَتْ مَذاهِبِى ، وَأَكْدَتْ (٥١) ، مَطَالِبِى ؟

---

(٤٢) ورجمت الكعبة وصلبت العائذ على الثنية : يشير إلى ما فعله الحجاج حينما حارب عبد الله بن الزبير، الذى لقب بالعائذ ، لأنه عاذ بالبيت الحرام .
(٤٣) الكاشح : الذى يضمر العداوة .
(٤٤) الصاغية : الميل .
(٤٥) نصبت : يشير إلى النواصب الذين يبغضون عليا .
(٤٦) أزمعت الأمر وعليه : أى جمعت .
(٤٧) أذمتى : عهودى وحرمى .
(٤٨) عاث : أفسد .
(٤٩) العقوق : ضد الطاعة .
(٥٠) مواتى : وسائلى .
(٥١) أكدت : تعبت .

وَعَلامَ رَضِيتُ مِنْ المَرْكَبِ (٥٢) ، بالتَّعْلِيق ، بَلْ مِنْ الْغَنِيمَةِ بالإِيَاب ، وَبأَنْ غَلَبَنِي المُغلَّب (٥٣) ، وفَخَرَ عَلَيَّ العاجِزُ الضَّعِيف ، وَلَطَمَتْنِي غَيْرُ ذاتِ سِوَار (٥٤) ، ومالَكَ لَمْ تَمْنَعْ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُفْتَرَس ، وتَدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمَزَّقْ ؟ أَمْ كَيْفَ لاتَتَضَرَّمُ (٥٥) ، جَوانِحُ (٥٦) ، الأَكْفَاءَ حَسَدًا لِي عَلَى الخُصُوصِ بِك ؟ وَتَتَقَطَّعُ أَنْفَاسُ النُّظَراء مُنَافَسَةً فِي الْكَرَامَةِ عَلَيْكَ ؟ فَكَيْفَ وَقَدْ زَانَنِي قَدِيمُ خِدْمَتِك ، وَزَهَانِي وَسْمُ نِعْمَتِك ، وَأَبْلَيْتُ البَلاءَ الْجَمِيلَ فِي سِمَاطِك (٥٧) ، وَقُمْتُ المَقَامَ المَحْمُودَ عَلَى بِسَاطِك ؟

أَلَسْتُ المُوَالِي فِيكَ غُرَّ قَصَائِدٍ هِيَ الأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمَا
ثَنَاءٌ يَظَلُّ الرَّوْضُ مِنْهُ مُنَوَّرًا ضُحىً وَيُخَالُ الوَشْيُ فِيهِ مُنَمْنَمَا

وَهَلْ لَبِسَ الصَّبَاحُ إِلَّا بُرْدًا طَرَّزَتْهُ بِفَضَائِلِك وَتَقَلَّدَتِ الجَوْزَاءُ إِلَّا عِقْدًا فَصَّلَتْهُ بِمآثِرِكَ ؟ وَاسْتَمْلَى الرَّبِيعُ إِلَّا ثَنَاءً مَلأْتَهُ بِمَحَاسِنِكَ ؟ وَبَثَّ المِسْكُ إِلَّا حَدِيثاً أَذَعْتَهُ فِي مَحَامِدِكَ ؟ مَا يَوْمُ حَلِيمَةَ بِسِرٍّ (٥٨) ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَكْسُكَ سَلِيباً ، وَلاَ حَلَّيْتُكَ عُطْلًا ، وَلَا وَسَمْتُكَ غُفْلًا ، بَلْ وَجَدْتُ آجُرًّا وَجِصًّا فَبَنَيْتُ ، وَمَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَقُلْتُ : حَاشَ لَكَ أَنْ أُعَدَّ مِنَ العَامِلَةِ النَّاصِبَةِ (٥٩) ، وَأَكُونَ كَالذُّبَالَةِ المَنْصُوبَةِ تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَتَحْتَرِق ، فَلَكَ المَثَل الأَعْلَى ، وَهُوَ بِكَ وَبِي – فِيكَ أَوْلَى ، وَلَعَمْرِي إِنَّ صَرِيحَ الرَّأْيِ أَنْ أَتَحَوَّلَ إِذَا بَلَغَتْنِي الشَّمْسُ ، وَنَبَا بِيَ المَنْزِلُ ، وَأَصْفَحَ عَنِ المَطَامِعِ الَّتِي تَقْطَعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ .

فلا أَسْتَوْطِنُ العَجْزَ ؛ ولا أَطْمَئِنُّ إلى الغُرُورِ . وَمِنَ الأَمْثَالِ المَضْرُوبَةِ : خَامِرِي (٦٠) أُمَّ عَامِرٍ » وَإِنِّي – مَعَ المَعْرِفَةِ أَنَّ الجَلَاءَ سِباء ، وَالنُّقْلَةَ مُثْلَةٌ :

---

(٥٢) رضيت من المركب بالتعليق : أى من الأمر العظيم الصغير . (٥٣) المغلب : المغلوب عليه مرارا .
(٥٤) ذات سوار : امرأة حرة ، لأن الأمة لاتلبس السوار . والمقصود : لو لطمني من هو كفء لى .
(٥٥) تتضرم : تتوقد . (٥٦) جوانح : أضلاع .
(٥٧) السماط : الصنف من الناس ، يجتمعون فى الحفل ، وعند الأمر المهم .
(٥٨) هذا مثل يضرب لكل أمر سار واشتهر . وحليمة : هى بنت الحارث بن أبى شمر الغسانى ، وقد احتالت على قتل المنذر بن ماء السماء ، وأفلحت فى ذاك .
(٥٩) يشير إلى قوله تعالى « وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى نارا حامية » .
(٦٠) خامرى أم عامر : استترى ، كأنه من الخمار ، هذا مثل يضرب لمن عرف الدنيا وتقلباتها ، ومع ذلك فقد أحسن الظن واغتر بها .

وَمَنْ يَغْتَرِبْ عَنْ قَوْمِهِ لَمْ يَزَلْ يَرَى　　مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجَرًّا وَمَسْحَبَا
وتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ وَإِنْ يُسِئْ　　يَكُنْ مَا أساءَ النَّارَ فِى رَأْسِ كَبْكَبَا (٦١)

عَارِفٌ أَنَّ الأَدَبَ الوَطَنُ لا يُخْشى فِرَاقُهُ، وَالْخَلِيطُ (٦٢) لَا يُتَوَقَّعُ زِيَالُهُ (٦٣)، وَالنَّسِيبُ لَا يُجْفَى، وَالجَمَالُ لَا يَخْفَى. ثمَّ مَا قِرَانُ السَّعْدِ بالْكَوَاكِبِ أَبْهَى أَثَرًا، وَلَا أَسْنَى خَطَرًا، مِنَ اقْتِرَانِ غِنى النَّفْس بِهِ، وَانْتِظامِهَا نَسَقاً مَعَهُ؛ فَإِنَّ الْحَائِزَ لَهُمَا، الضَّارِبَ بِسَهْمٍ فِيهِمَا - وَقَلِيلٌ مَاهُمْ - أَيْنَمَا تَوَجَّهَ وَرَد مَنْهَلَ بِرٍّ، وَحَطَّ فِي جَنَابِ قَبُولٍ، وَضُوحِكَ قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ، وَأُعْطِيَ حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ.

وَقِيلَ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَباً　　فَهَذَا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَمَقِيلُ

غَيْرَ أَنَّ الْوَطَنَ مَحْبُوبٌ، وَالْمَنشأَ مَألوفٌ، وَاللَّبِيبَ يَحِنُّ إِلَى وَطَنِهِ، حَنِينَ النَّجِيبِ إِلَى عَطَنِهِ، وَالْكَرِيمَ لَا يَجْفُو أَرْضاً فِيهاَ قَوَابِلُهُ، وَلا يَنْسَى بَلَدًا فِيهاَ مَرَاضِعُهُ. قَالَ الأَوَّلُ:

أَحَبُّ بِلَادِ اللهِ ما بَيْنَ مَنْعِجٍ　　إِلَيَّ وَسَلْمَى أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا (٦٤)
بِلَادٌ بِهَا حَلَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي　　وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا

هٰذَا إِلَى مُغَالَاتِي بِعَقْدِ جِوَارِكَ، وَمُنَافَسَتِي بِلَحْظَةٍ مِنْ قُرْبِكَ، وَاعْتِقَادِي أَنَّ الطَّمَعَ - فِي غَيْرِكَ - طَبَعٌ (٦٥)، وَالغِنى - مِنْ سِوَاكَ - عَنَاء (٦٦) وَالبَدَلَ مِنْكَ أَعْوَر (٦٧)، وَالْعِوَضَ لَفَاء. (٦٨)

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمِيرِي زَادَنِي　　ضَنًّا بِهِ نَظَرِي إِلَى الأُمَرَاءِ

(٦١) كبكب: اسم جبل. والبيتان للأعشى.
(٦٢) الخليط: المخالط.
(٦٣) زياله: مفارقته.
(٦٤) منعج بكسر العين: اسم بلدة. يصوب: يمطر.
(٦٥) طبع: دنس.　(٦٦) العناء: التعب.
(٦٧) البدل أعور: مثل قيل لما ولي يزيد بن المهلب خراسان بدل قتيبة بن مسلم الباهلي، وكان أعور بخيلا.
(٦٨) لفاء: خسيس.

وَكلُّ الصَّيْدِ فى جَوْفِ الفَرَا(٦٩) ، وَفى كُلِّ شَجَرَةٍ نَارٌ، وَاسْتَمْجَدَ المَرْخَ والعَفار(٧٠) . فمَا هٰذِهِ البَـراءَةُ مِّمن يَتَـوَلَّاكَ ، وَالمَيْلُ عَمَّنْ لايَمِيلُ عَنْكَ ؟ وَهَلَّا كَانَ هَـواك ، فِيمَنْ هَوَاهُ فِيكَ ، وَرِضَاكَ ، لِمنْ رِضَاهُ لَكَ :

يَـا مَـنْ يَعِـزُّ عَلَيْنَـا أَنْ نُفَـارِقَهُـمْ ... وِجْدَانُنَـا كُـلَّ شَـىْءٍ بَعْـدَكُـمْ عَـدَمُ(٧١)

أُعِيذُكَ وَنَفْسِى مِنْ أَنْ أَشِيمَ خُلبا(٧٢) ، وَأَسْتَمْطِرَ جَهَاما(٧٣) ، وَأَكْدِمَ(٧٤) فى غَيْرِ مَكْدَمٍ ، وَأَشْكُوَ شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَـى الْعِقْبَانِ والرَّخَمِ(٧٥) . فما أَبْسَسْتُ(٧٦) لَكَ إِلَّا لِتَدُرَّ، ومـا حَرَّكْتُ لَكَ الحُوَارَ إِلَّا لِتَحِنَّ ، ومـا نَبَّهْتُكَ إِلا لأنَام ، وَمَا سَرَيْتُ إِلَيْكَ إِلَّا لأَحْمَدَ السُّرَى لَدَيْكَ ، وَإِنَّكَ إِنْ سَنَّيْتَ(٧٧) عَقْدَ أَمْرِى تَيَسَّـرَ، وَمَتَى أَعْذَرْتَ فى فَـكِّ أَسْرِى لَمْ يَتَعَذَّرْ. وَعِلْمُـكَ مُحِيطٌ بِأَنَّ الْمَعْرُوفَ ثَمَرَةُ النِّعْمَةِ ، وَالشَّفَاعَةَ زَكَاةُ المُرُوءَةِ ، وَفَضْلَ الجَاهِ – تَعُودُ بِهِ – صَدَقَةٌ .

وَإِذَا امْـرُؤٌ أَهْـدَى إِلَيْـكَ صَنِيعَـةً ... مِـنْ جَـاهِـهِ(٨٧) فَكَـأَنَّها مِنْ مَـالِـهِ

لَعَلِّىَ أُلْقِى العَصَـا بِذَرَاك(٧٩) ، وَتَسْتَقِرُّ بِىَ النَّـوَى(٨٠) فـى ظِلِّـكَ ، وَأَسْتَأْنِـفُ التَّأَدُّبَ بِأَدَبِـكَ ، وَالاحْتِمالَ عَلَى مَذْهَبِـكَ . فَلَا أُوجِدَ لِلْحَـاسِدِ مَجَالَ لَحْظَةٍ ، ولا أَدَعَ لِلْقَـادِحِ مَسَاغَ لَفْظَةٍ : واللهُ مُبَشِّـرُكَ مِنْ إِطْـلَابِى(٨١) بِهَذِهِ الطَّلِبَـةِ(٨٢) ، وَإِشْكَائى(٨٣) مِـنْ هٰذِهِ الشَّكْـوَى ، بِصَنِيعَةٍ(٨٤) تُصِيبُ مِنْهَا مَكَانَ المَصْنَعِ ، وَتَسْتَوْدِعُهَا أَحْفَظَ مُسْتَوْدَعٍ ، حسْبمَا أَنْتَ خَلِيقٌ لَه ، وَأَنَا مِنْكَ حَرِىٌّ بِه . وَذٰلِكَ بِيدِهِ ، وَهَيِّنٌ عَلَيْهِ .

* * *

---

(٦٩) الفرا : الحمار الوحشى .
(٧٠) المرخ والعفار : شجر سريع الاحتراق .
(٧١) البيت للمتنبى ، يخاطب به سيف الدولة .
(٧٢) الخلب : البرق لاغيث معه .
(٧٣) جهاما : سحابا لامطر فيه .
(٧٤) أكدم : أعض . وهو يشير إلى المثل المشهور « كدمت غير مكدم » أى طلبت شيئا فى غير مطلبه .
(٧٥) هذا عجز بيت للمتنبى هو:
ولاتشك إلى خلق فتشمتهم ... شكوى الجريح إلى العقبان والرخم
(٧٦) الإبساس : الرفق بالناقة قبل الحلب .
(٧٧) سنيت : سهلت .
(٧٨) جاهه : قدره ومنزلته .
(٧٩) بذراك : الذرى بالفتح ماتستتر به .
(٨٠) النوى : الجهة التى يقصدها المسافر .
(٨١) إطلابى : إسعافى .
(٨٢) الطلبة : ما طلبته من شىء .
(٨٣) إشكائى : إزالة شكواى .
(٨٤) بصنيعة : بمعروف وإحسان .

وَلَمَّا تَوَالَتْ عِذَرُ[85] هٰذَا النَّثْرِ، وَاتَّسَقَتْ[86] دُرَرُه، فَهَزَّ عِطفَ غُلَوائِهِ، وَجَرَّ ذَيْلَ خُيَلَائِه، عَارَضَهُ النَّظْمُ مُباهِيا، بَلْ كايَدَهُ مُداهِيا، حِينَ أَشْفَقَ أَنْ يَسْتَعْطِفَكَ اسْتِعْطَافُه وَتَمِيلَ بِنَفْسِكَ أَلْطَافُه[87]، فَاسْتَحْسَنَ الْعَائِدَةَ مِنْه، وَاعْتَدَّ بِالْفَائِدَةِ لَهُ، فَمَازَالَ يَسْتَكِدُّ الذِّهْنَ العَلِيلَ، وَالخاطِرَ الْكَلِيلَ، حَتَّى زَفَّ إِلَيْكَ عَرُوساً مَجْلُوَّةً فِي أَثْوابهَا، مَنْصُوصَةً[88] بِحَلْيِهَا وَمَلابِها.[89]

الهَوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ النُّجومِ　　　وَالمُنَى فِي هُبُوبِ ذاكَ النَّسِيمِ

«إلى آخر القصيدة».

وقال الأَحْنَفُ بْنُ قَيْس:

لَيْسَ دهْرِي بِوَاحِدٍ مِنْ ظَلُومِ　　　وَبَلَاءٍ مِنَ حَادِثٍ وَقَدِيمَ

لَيْسَ يُسْتَنكَرُ النُّحُولُ لِمِثْلِي　　　جَسَدِي مُبْتَلَى بِقَلْبٍ مَشُومِ

هاكَهَا - أَعَزَّكَ اللهُ - يَبْسُطها الأَمَل وَيَقْبِضهَا الخَجَلُ، لها ذَنْبُ التَّقْصِيرِ وَحُرْمَةُ الإِخْلَاصِ. فَهَبْ ذَنْباً لحِرْمَة، وَاشْفَعْ نِعْمَة بِنِعْمَة، لِتَأْتِيَ الإِحْسَانَ مِنْ جِهَاتِهِ، وَتَسْلُكَ إِلَى الْفَضْلِ مِنْ طرقَاتِهِ. إن شاءَ اللهُ تَعَالَى.

* * *

---

(٨٥) عذر: جمع عذرة وهى الدرة التى لم تثقب.
(٨٦) اتسقت: انتظمت.
(٨٧) ألطافه: خيره وبره.
(٨٨) منصوصة: مرفوعة على المنصة فى ليلة الزفاف.
(٨٩) الملاب: الزعفران.

* **الرسالة الهزلية :**

أَمَّا بَعْدُ ، أَيُّهَا المُصَابُ بِعَقْلِه ، المُورَّطُ بِجَهْلِهِ ، البَيِّنُ سَقَطُه (١) ، الفاحِشُ غَلَطُه ، العاثِرُ فى ذَيْلِ اغترِاره (٢) ، الأعْمَى عن شَمْسِ نهارِه ، السَّاقِطُ سُقوطَ الذُّبَابِ عَلَى الشَّراب ، المُتهافِتُ (٣) - تَهَافتَ الفَرَاشِ - فى الشِّهَاب (٤) ؛ فَإِنَّ العُجْبَ أَكْذَب ، وَمَعْرِفَةَ المَرْءِ نَفْسَهُ أَصْوَب ، وَإِنَّكَ رَاسَلْتَنِى مُسْتَهْدِيا - مِنْ صِلَتِى - مَا صَفِرَتْ (٥) مِنْهُ أَيْدِى أَمْثَالِك ، مُتَصَدِّيا (٦) مِنْ خُلَّتِى (٧) لمَا قُرِعَتْ دُونَهُ أُنُوفُ (٨) أَشْكالِك، مُرْسِلًا خَلِيلَتَكَ (٩) مُرْتَادَة (١٠) ، مُسْتَعْمِلًا عَشِيقَتَكَ قَوَّادَة ، كاذِباً نَفْسَكَ أَنَّكَ سَتَنْزِلُ عَنْهَا إِلَىَّ ، وَتَخْلُفُ بَعْدَهَا عَلَىَّ .

وَلَسْتَ بِأَوَّلِ ذِى هِمَّة دَعَتْهُ لمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ (١١)

ولا شَكَّ أَنَّهَا قَلَتْكَ (١٢) إِذْ لَمْ تَضَنَّ بِك ، وَمَلَّتْكَ إِذْ لَمْ تَغَرْ عَلَيك ، فإنها أَعْذَرَتْ فى السِّفَارَةِ لَك ، وَما قَصَّرَتْ فى النِّيَابَةِ عَنْك ؛ زَاعِمَةً أَنَّ المُرُوءَةَ لَفْظٌ أَنْتَ مَعْنَاهُ ، وَالإِنْسَانِيَّةَ اسْمٌ أَنْتَ جِسْمُهُ وهُيولاه (١٣) ، قاطِعَةٌ أنكَ انْفَرَدْتَ بِالْجَمَال ، وَاسْتَأْثَرْتَ بِالكَمَالِ ، وَاسْتَوْلَيْتَ عَلَى مَحَاسِنِ الخِلَالِ ، حَتَّى خَيَّلْتَ أَنَّ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَاسَنَكَ ، فَغَضَضْتَ مِنْه ، وَأَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ رَأَتْكَ فَسَلَتْ عَنْهُ ، وَأَنَّ قَارُونَ أَصابَ بَعْضَ مَا كَنَزْت ،

---

(١) سقطه : خطؤه .
(٢) اغتراره : نسيانه .
(٣) المتهافت : المترامى .
(٤) الشهاب : الشعلة من النار.
(٥) صفرت : خلت .
(٦) متصديا : متعرضا .
(٧) خلتى : مودتى .
(٨) معنى العبارة : أنك تخطب من مودتى مالا يصلح له أمثالك الذين طلبوها فدفعوا وردوا عنها .
(٩) خليلتك : صاحبة مودتك . أو حليلتك ؛ أى زوجتك ، وكلا المعنيين ذم للمرسل .
(١٠) مرتادة : طالبة .
(١١) هذا البيت للمتنبى .
(١٢) قلتك : أبغضتك .
(١٣) هيولاه : مادته التى يتكون منها .

وَالنَّطِف (١٤) عَثَرَ عَلَى فَضْلٍ (١٥) ما رَكَـزَتَ (١٦) ، وكِسْرَى حَمَلَ غاشِيَتَكَ (١٧) وَقَيْصَرَ رَعَى مَاشِيَتَـك ، وَالإِسْكَنْدَرَ قَتَلَ دارا في طَاعَتِك ، وَأَرْدَشِيرَ جاهَـدَ مُلُوكَ الطَّوَائِف بخُرُوجِهِـمْ عَنْ جَماعَتِك ، وَالضَّحَّاكَ اسْتَدْعَى مُسَـالَمَتَك ، وَجَذِيمَةَ الأَبْرَشِ (١٨) تَمَنَّى مُنَادَمَتَـك ، وَشِيرِينَ قَدْ نَافَسَتْ بُورانَ (٢٠) فِيكَ ، وَبَلْقِيسَ غَايَرَتِ الزَّبَّاءَ عَلَيك ، وَأَنَّ مَالِكَ بْـنَ نُوَيْرَةَ إِنَّمَا أَرْدَفَ لَكَ (٢١) وَعُرْوَةَ بْنَ (٢٢) جَعْفَرٍ إِنَّمـا رَحَلَ إِلَيْك ، وَكُلَيْبَ بْـنَ رَبِيعَةَ (٢٣) إِنمات حَمَى الْمَرْعَى بِعِزَّتِك ، وَجَسَّاساً (٢٤) إِنَّمَا قَتَلَهُ بِـأَنَفَتِك ، وَمُهَلْهِلاً (٢٥) إِنما طَلَبَ ثَـأْرَهُ بِهِمَّتِك ، وَالسَّمَوْءَلَ إِنمَّا وفَى عَنْ عَهْدِك ، وَالأَحْنَفَ إِنَّمَا احْتَبَى (٢٦) فى بُرْدَتِـكَ ، وَحَاتِمـاً إِنَّمَـا جَـادَ بِوَفْرِك (٢٧) وَلَقِي الأَضْيَافَ بِبِشْـرِك ، وَزَيْـدَ بْـنَ (٢٨) مُهَلْهِـلٍ إِنمَـا رَكِبَ بِفَخْـذَيك ، وَالسُّلَيْكَ (٢٩)

---

(١٤) النطف : رجل من العرب كان فقيرا فاغتنى ، فضرب به المثل .

(١٥) فضل : بقية . (١٦) ركزت : دفنت .

(١٧) الغاشية هنا : السرج .

(١٨) جذيمة الأبرش : كان ملكا على عرب الحيرة قبل الإسلام .

(١٩) شيرين : زوجة أحد ملوك الفرس ، وهو أبرويز بن هرمز ، وكانت يهودية .

(٢٠) بوران بنت أبرويز ، تولت عرش فارس فى زمن النبى محمد عليه الصلاة والسلام .

(٢١) مالك بن نويرة : هو مالك بن نويرة بن شداد اليربوعى ، كان من فرسان العرب فى الجاهلية . وأردف لك : الردف ألجالس عن يمين الملك ، وقد ينوب عن الملك فى حال غيبته .

(٢٢) عروة بن جعفر : هو عروة بن عتبة بن جعفر من بنى عامر بن صعصعة ، وكان يعرف بعروة الرحال لرحلته إلى الملوك ، وكان عاقلا شهما ، وهو من أرداف الملوك .

(٢٣) هو كليب بن ربيعة بن الحارث الوائلى ، ضرب به المثل . فقيل : أعز من حمى كليب . وكان يحمى المراعى فإذا مر بمرعى قذف فيه جروا ، فيعوى فلا يرعى أحد فيه .

(٢٤) جساس : هو ابن مرة بن ذهل ، وهو قاتل كليب . وسبب ذلك أن كليبًا رأى بين إبله ناقة كانت لخاله جساس ، فأنكرها ورماها بسهم فى ضرعها ، فعظم ذلك على جساس وخالته ، فلم يزل بكليب حتى قتله .

(٢٥) مهلهل : هو ابن ربيعة بن الحارث أخو كليب المتقدم ذكره ، وهو خال امرىء القيس .

(٢٦) الأحنف : هو الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصن السعدى . ويكنى بأبى بحر ، ويضرب به المثل فى الحلم والسيادة ، وتوفى بالكوفة سنة ٦٧ هـ . واحتبى بالثوب : جمع : بين ساقيه وظهره ، وهى جلسة للأعراب فى مجالسهم وناديهم ، يحتبى الرئيس ، ويجلس حوله أهله وعشيرته وذوو الرأى محتبين يتبادلون الرأى فى المهمات .

(٢٧) الوفر : هو المال الكثير .

(٢٨) زيد بن مهلهل : هو زيد مهلهل بن زيدان الطائى : كان فارسًا مظفرًا مشهورًا ، أدرك النبى وأسلم ، فسماه النبى زيد الخير ، وكان قبل ذلك يسمى زيد الخيل ، لكثرة خيله .

(٢٩) السليك : هو ابن عمرو بن يشربى ، أحد بنى مقاعس . والسلكة أمه ، وهو جاهلى ، وكان من صعاليك العرب ولصوصهم العدائين ، الذين كانوا لا يلحقون ولا تتعلق بهم الخيل .

(٣٠) عامر بن مالك بن جعفر من بنى صعصعة ، عرف بملاعب الأسنة ، لقول أوس بن حجر فيه :

يلاعب أطراف الأسنة عامر   فراح له حظ الكتائب أجمع

ابْنَ السُّلَكَةِ إِنَّمَا عَدَا عَلَى رِجْلَيْك ، وعامِرَ بْـنَ مَالِكٍ (٣٠) إِنَّمَا هُـو لاَعَبَ الأسِنَّةَ بِيَـدَيْك ، وَقَيْسَ ابْنَ (٣١) زُهَيْرٍ إِنَّمَـا اسْتَعَانَ بِدَهَـائِك ، وَإِيَاسَ بْنَ مُعَـاوِيَةَ (٣٢) إِنَّمَا اسْتَضَـاءَ بِمِصْبَاحِ ذَكَائِك ؛ وَسَحْبَانَ (٣٣) إِنَّمَا تَكَلَّـمَ بِلِسَانِك ، وَعَمْرَو بْـنَ الأَهْتَمِ (٣٤) إِنَّمَا سَحَرَ بِبَيَـانِك ؛ وَأَنَّ الصُّلْحَ - بَيْـنَ بَكْرٍ (٣٥) وَتَغْلِـبَ - ثَمَّ بِرِسَـالَتِك ، والحَمَـالاتِ (٣٦) بَيْـنَ عَبْسٍ وَذُبْيَـانَ - أُسْنِدَتْ إِلَـى كَفَالَتِكَ ، وَأَنَّ احْتِيَـالَ هَرِمٍ (٣٧) - لِعَلْقَمَـةَ وعامِرٍ حَتَّى رَضِيـا - كانَ ذاكَ عَـنْ إِشَارَتِكَ ، وَجَـوَابَهُ لِعُمَرَ - وَقَدْ سَـأَلَهُ عَنْ أَيِّهِمَا كَـانَ يَنْفِرُ - وَقَعَ عَنْ إِرَادَتِـك ، وَأَنَّ الحَجَّـاجَ تَقَلَّدَ وِلاَيَةَ الْعِـرَاقِ بِجَدِّكَ ، وَقُتَيْبَةَ (٣٨) مَا وَرَاءَ النَّهْرِ بِسَعْـدِك ؛ والمُهَلَّبَ أَوْهَنَ شَوْكَـةَ الأَزَارِقَةِ بِيَـدِك ، وَفَـرَّقَ ذاتَ بَيْنِهِمْ بِكَيْـدِكَ ، وَأَنَّ هُـرْمُـسَ (٣٩) أَعْطَى بَلِينُـوس (٤٠) مـا أَخَـذَ مِنْـك ، وَأَفْلاطونَ أَوْرَدَ عَلَى أَرِسْطَالِيسَ مَا نَقَلَ عَنْك ، وَبَطْلَيْمُوسَ سَوَّى الأَصْطرْلابَ بِتَدْبِيرِك ، وَصَوَّرَ الكُرَةَ عَلَى تَقْدِيرِك ، وَبِقْـرَاطَ عَلَّمَ الْعِلَلَ وَالأَمْرَاضَ بِلُطْـفِ حِسِّك ، وَجَالِينُوسَ عَـرَفَ طَبَائِعَ

---

(٣١) قيس بن زهير بن جذيمة العبسي صاحب الحروب بين عبس وذبيان بسبب الفرسين : داحس والغبراء ، وكان فارسًا شاعرًا داهية ، يضرب به المثل فيقال : « أدهى من قيس » .

(٣٢) إياس بن معاوية بن قرة المزني ، ولي قضاء البصرة في زمن عمر بن عبد العزيز ، وكان صادق الفراسة ، وضرب به المثل في الذكاء ، توفي سنة ١٢١ هـ ، وهو ابن ست وتسعين سنة .

(٣٣) هو سحبان بن زفر بن إياس الوائلي ، كان خطيبا مفوهًا ، يضرب به المثل في البيان : أدرك الإسلام وأسلم ، ومات سنة ٥٤ هـ .

(٣٤) عمرو بن الأهتم التميمي : كان من أكابر سادات بني تميم وشعرائهم وخطبائهم في الجاهلية والإسلام وفد على النبي هو والزبرقان وأسلما ، وتوفي سنة ٥٧ هـ .

(٣٥) يقصد الصلح في حرب البسوس .

(٣٦) الحمالات : جمع حمالة ، بالفتح وهي ما يتحمله الرجل عن القوم من دية أو غرامة . وهو يشير إلى ما حدث من شروط الصلح بين عبس وذبيان ، بواسطة هرم بن سنان والحارث بن عوف ، اللذين حملا عن القوم المغارم والديات .

(٣٧) هرم بن قطبة بن سيار من بني فزارة ، كان من حكماء العرب وقضاتهم . وعامر : هو ابن الطفيل بن مالك . وعلقمة بن علاثة من بني عامر بن صعصعة . وكان عامر وعلقمة قد تنافرا إلى هرم بن سيار ، ليحكم أيهما أفضل وأكرم حسبا . فكره هرم أن يفضل أحدهما على الآخر ، وسوى بينهما ، خشية من وقوع العداوة بينهما ، بسبب تفضل أحدهما على الآخر ، وجوابه لعمر أي عمر بن الخطاب ، حين سأل هرم عن أيهما كان يفضل . فقال هرم : لو قلت الآن فيهما كلمة لعادت جذعة ، يعني الحرب بينهما ، فأعجب عمر بهذا الجواب ، وقال بحق حكمتك العرب .

(٣٨) قتيبة : هو ابن مسلم بن عمرو الباهلي ، أسندت إليه ولاية خراسان من قبل عبد الملك بن مروان .

(٣٩) هرمس : هو كما يزعم الصابئة أنه نبي مرسل ، وأنه إدريس عليه السلام ، ويسندون إليه شرائعهم .

(٤٠) بلينوس : خلف هرمس ، وأخذ عنه العلوم والأسرار .

الحَشائِشِ بِدِقَّـةِ حَذْسِـك ، وكِلاهُما قَلَّـدَكَ في العِـلَاج ، وَسَأَلَكَ عَـنِ المزاج واسْتَـوْصَفكَ تَرْكِيبَ الأَعْضَاءِ ، وَاسْتَشَارَكَ فِي الـدَّاءِ وَالدَّوَاءِ ، وَأَنكَ نَهجتَ لأبي مَعْشرٍ(٤١) طَرِيقَ القَضاء ، وَأَظْهَرْتَ جَابِرَبنَ حَيَّانَ(٤٢) عَلَى سِرِّ الكِيمِيـاء ، وَأَعْطَيْتَ النَّظَّامَ(٤٣) أَصْلًا أَدْرَكَ بِهِ الحَقَائِقِ ، وَجَعَلْتَ(٤٤) لِلكِنْدِيِّ رَسْمـاً اسْتَخْرَجَ بِهِ الـدَّقَائِق ، وَأَنَّ صِنَاعَةَ الأَلْحَـانِ اخْتراعُك ، وَتَـأْلِيفَ الأَوْتَارِ وَالأَنْقَارِ تَـوْلِيدُكَ وَابْتِدَاعُك . وَأَنَّ عَبْـدَ الحَمْيدِ(٤٥) بْنَ يَحيَى بَـارِي أَقْـلَامِك ، وَسَهْـلَ ابْنَ هارُونَ(٤٦) مُدَوِّنُ كلامِك ، وَعَمْرَو بْنَ بَحرٍ(٤٧) مُسْتَمْلِيك ، وَمَالِكَ بْنَ أَنَسٍ(٤٨) مُسْتَفْتِيك ، وَأَنَكَ الَّذِى أَقَامَ البَرَاهِينَ،وَوَضَعَ القَوَانِينَ،وحَدَّ المَاهِيَّةَ(٤٩) ، وَبَيَّنَ الكَيْفِيَّةَ وَالكَمِّيَّة،وَناظَرَ في الجَوْهَـرِ(٥٠) والعَـرَضِ ، وَمَيَّـزَ الصِّحَّـةَ مِـنَ المَرَضِ ، وفَـكَّ المَعمَّـى ، وَفصَـلَ بَيـنَ الإسْـمِ والمسَمَّى ، وَصَرَفَ(٥١) وَقَسَّم ، وَعَـدَّلَ(٥٢) وَقَوَّمَ ؛ وَصَنَّـفَ الأَسْمَاءَ وَالأَفْعَـالَ ، وَبَوَّب الظَّـرْفَ والحالَ ، وَبَنَى وَأَعرَب ، وَنَفَى وَتَعَجَّب ، وَوَصَلَ وَقَطَع ، وثَنَّى وَجَمَع ، وَأَظْهَرَ وَأَضْمَر ، وَاسْتَفْهَمَ

---

(٤١) أبو معشر:هو جعفـر بن محمد بن عمر البلخي المنجـم المشهور، كان أول أمره من أهل الحـديث ببغداد ، وكان يشنـع على الكنـدي الفيلسوف ويغري به العامـة ، فدس لـه الكندي من حسـن له النظـر في علمـى الحساب والهندسـة فاشتغل بهمـا ، ثم عدل إلـى أحكام النجوم ، فمهـر فيها وانقطـع شره عن الكنـدي . توفى سنـة ٢٧٢ هـ . والمراد بالقضاء هنا : حكم المنجمين بتأثير الكواكب .

(٤٢) جابر بن حيان : كيمائى كوفى من تلاميذ الإمام جعفر الصادق .

(٤٣) النظام : هو إبراهيـم بن سيار ، وكنيته أبو إسحاق ، وهـو أحـد شيـوخ المعتزلة . تـوفـى سنة ٢٢١ هـ وهـو ابن ست وثلاثين سنة .

(٤٤) الكندى: هو يعقوب بن إسحاق ، وكنيته أبو يوسف . كان متبحرا فى الحكمة اليونانية والفارسية والهندية .

(٤٥) عبد الحميد بن يحيى بن سعيـد العامرى . كان كاتبا مجيدا ضرب به المثل . وكتـب لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . قتله السفاح سنة ١٣٢ هـ .

(٤٦) سهل بـن هارون وكنيته أبـو عمرو ، من نيسـابور ، نزل البصـرة ، فنسب إليها . وقـد انفرد فى زمـانه بالبـلاغة والحكمة ، حتى قيل له بزرجمهر الإسلام . وكان المأمون معجبا به . وقد توفى سنة ٢١٥ هـ .

(٤٧) عمرو بن بحر : هو الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .

(٤٨) هو مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر التميمى إمام دار الهجرة ، المتوفى سنة ١٧٩ هـ .

(٤٩) المـاهية . ماهية الشىء : تصوره فى الفكر ، ومعرفة ما هو . والماهية والكيفية والكمية من اصطلاحات علم المنطق .

(٥٠) الجوهر : الجسم ، والعرض : الحال والوصف المتعاقب .

(٥١) صرف وقسم: الصرف:نوع من المعارضة واستبدال القطعة من العملة بقطع أقل منها.وقسم:قسم الأموال.

(٥٢) عدل وقوم : يـريد به تعديل الأقسـام وتقويمها ، فإن المـال إذا كانت أجزاؤه مختلفة فـى الصور والقيمة ، كالـدور والبسـاتين ، فإذا أريـد قسمتها ، فتعدل بالتقـويم ، ثم تقسم ؛ مثـلا إذا كان البسـتان بين ثـلاثة بالسـوية ، تقوم البسـتان فـى الأول ، ثم تعدل الأجزاء باعتبار ذلـك ، فتجعل الثلاثة الأجزاء متـاوية ، ثـم تقسم بالإقـراع ، أو بتعيين الحاكم ، وكل هذا داخل فى أبواب الفقه .

وَأَخْبَر ، وَأَهْمَلَ (٥٣) وقَيَّد ، وَأَرْسَلَ (٥٤) وَأَسْنَد ، وبَحثَ وَنَظر ، وتَصَفَّحَ الأَدْيان ، وَرَجَّحَ بَيْنَ مَذْهَبَيْ مانِي (٥٥) وَغَيْلان ، وأشارَ بِذَبْحِ الجَعْد (٥٦) ، وَقَتَل بَشّارَبْنِ بُرْد ، وَأَنَّكَ لَوْ شِئْتَ خَرَقْتَ العادات ، وخَالَفْتَ المَعْهُودَات ، فَأَحَلْتَ البِحارَ عَذْبَة ، وَأَعَذْتَ السِّلَامَ (٥٧) رَطْبَة ، وَنَقَلْتَ غَدًا فَصارَ أَمْسا ؛ وَزِدْتَ في العَنَاصِرِ فكانَتْ خَمْسا . وَأَنَّكَ المَقُولُ فِيهِ « كُلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفَرا (٥٨) » و :

لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ ... أَنْ يَجْمَعَ العالَمَ في واحِدِ (٥٩)

وَالمَعْنِيُّ بِقَوْلِ أَبِي تَمّام :

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْها ... عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّبَاعِ

والمُرادُ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّب :

ذَكَرَ الأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً ... كُنْتَ البَدِيعَ الفَرْدَ مِنْ أَبْيَاتِهَا

فكَدَمْتَ غَيْرَ مَكْدَم (٦٠) ، واسْتَسْمَنْتَ ذا وَرَم ، وَنَفَخْتَ في غَيْرِ ضَرَم ، ولَمْ تَجِدْ لِرِيحٍ مَهزًّا ، ولَا لِشَفْرَةٍ مَحزًّا ، بَلْ رَضِيتَ مِنَ الغَنِيمَةِ بالإِياب ، وتَمَنَّيْتَ الرُّجُوعَ بُخُفَّي حُنَيْن ، لأَنِّي قُلْت :

---

(٥٣) وأهمل وقيد : إما أن يكون المراد الحروف المهملة ، والمقيدة : أي التي عليها نقط .

(٥٤) والمرسل والمسند : من اصطلاحات علم الحديث ، فالمرسل قول التابعي الكبير : قال رسول الله ﷺ كذا . والمسند : ما اتصل سنده من راويه إلى منتهاه .

(٥٥) ماني وغيلان : ماني : كان راهبا بنجران ، يدين بنبوة المسيح ، ثم زنى فسقطت مكانته ، وكان في الأصل مجوسيا . فأحدث دينا جديدا ودعا إليه ، وكان ذلك في أيام سابوربن أردشير ، فتبعه خلق عظيم من المجوس ، ثم قتل في زمن بهرام بن سابور . وإليه تنسب المانوية وأما غيلان : فهو ابن يونس القدري الدمشقي ، وهو أول من تكلم في القدر وخلق القرآن . وقد قتل في زمن هشام بن عبد الملك .

(٥٦) الجعد: هو ابن درهم مولى بني الحكم، كان يسكن دمشق ، ويعلم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، فنسب إليه ، وقيل له مروان الجعدي . وكان الجعد يقول بخلق القرآن . ثم طلب فهرب إلى الكوفة ، فتعلم منه الجهم بن صفوان القول الذي نسب إليه الجهمية . ولم يزل الجعد بالكوفة ، حتى قتله خالد بن عبد الله القسري ، بأمر من هشام بن عبد الملك .

(٥٧) السلام : الحجارة الصلبة ، واحدتها سلمة بفتح فكسر .

(٥٨) هذا مثل يضرب للشيء المربي على غيره . والفرا : حمار الوحش .

(٥٩) البيت لأبي نواس .

(٦٠) فكدمت غير مكدم : الكدم ، العض بأدنى الفم . والمكدم : موضع العض ، وهو مثل يضرب لمن طلب شيئا في غير مطلبه .

« لَقَدْ هانَ مَنْ بالَتْ عَلَيْه الثَّعالِبُ (٦١) .

وَأَنْشَدْتُ :

عــلــى أنّهــا الأيَّــامُ صِــرْنَ كُلُّهـا عجَـائِبَ حَتَّـى لَيْـسَ فيهـا عَجَـائِبُ (٦٢)

وَنَخرْتُ (٦٣) فَكَفَرْت ؛ وعَبَسْتُ (٦٤) وبَسَرْت (٦٥) ، وَأَبْدَأْتُ وأعَدْت ، وَأَبْرَقْتُ وأرْعَدْت وَهَممْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ ، وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي ، ولَوْلَا أَنَّ لِلجِوارِ ذِمَّةً ، وَلِلضِّيافَةِ حُرْمَةً ، لكَانَ الجوابُ في قَذَالِ الدُّمُسْتُقِ (٦٦) ، والنَّعْلُ حاضِرَةٌ (٦٧) إنْ عـادَتِ العَقْرَبُ ، والعُقُـوبَـةُ مُمْكِنَةٌ إنْ أَصَـرَّ المُذْنِب، وهَبْهـا لَمْ تُلَاحِظْكَ بِعَيْـنٍ كَليلَة عَنْ عُيُوبِك، مِلْـؤها حَبِيبُها ، حَسَنٌ فيهـا مَنْ تَوَدُّ ، وكانَت إنَّمـا حَلَّتْكَ بِحُلَاكَ ، وَوَسَمَتْكَ بِسِيمَـاكَ ، وَلَمْ تُعِرْكَ شَهَادَةً ، وَلَا تَكَلَّفَـتْ لَكَ زِيادَةً ، بَلْ صَدَقَـتْ سِنَّ (٦٨) بَكْرِهـا فِيما ذَكَرَتْـهُ عَنْكَ ، وَوَضَعَـت الهِنَاءَ (٦٩) مَـوَاضِـعَ النُّقْبِ بما نَسَبَتْهُ إِلَيْكَ ، وَلَمْ تَكُنْ كاذِبَةً فِيما أَثْنَتْ بِهِ عَلَيْك . فالمُعَيْدِيُّ (٧٠) تَسْمَعُ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَراه .

---

(٦١) هذا مثل يضرب لمن بلغ الغـاية فى الذل ، وهو عجز بيت ينسب لغاوى بن ظـالم السلمى ، أو للعباس بن مرداس السلمى ، وصدر البيت هو:

* أرب يبول الثعلبان برأسه *

(٦٢) البيت لأبي تمام . (٦٣) نخرت : النخر : صوت من الأنف ، أكثر ما يكون عند الغضب والإنكار .

(٦٤) عبست : تجهمت . (٦٥) بسرت : من البسر وهو القطوب .

(٦٦) يشير بذلك إلى جيش الروم الذى قاده الدمستق ، فهزمه سيف الدولة شر هزيمة . والعبارة حل لبيت المتنبى هو:

وكنت إذا كاتبته قبل هذه كتبت إليه فى قذال الدمستق

(٦٧) هذه العبارة حل لبيت الفضل اللهبى ، أحد شعراء الهاشميين ، المتوفى فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، والبيت هو:

إن عادت العقرب عدنا لها وكانت النعل له حاضره

(٦٨) هذا مثل يضرب فى الصدق . وأصله أن رجلا ساوم رجلا فى بعير فقال : ما سنه ؟ فأخبره بأنه بكر فكشف عنه فوجده صادقا .

(٦٩) هذا المثل يضرب لمن يضع الأمور فى محلها . وأصله أن الهانىء وهو واضع القطران على البعير الأجرب ، يتتبع النقب ، وهى مبادىء الجرب فى جسم البعير. وهذا المثل نصف بيت لدريد بن الصمة ، قاله فى الخنساء ، وهو:

متبذلا تبدو محاسنه يضع الهناء مواضع النقب

(٧٠) هذا مثل يضرب لمن يكون خبره خير من منظره ، وكان المعيدى يغير على قوافل النعمان بن المنذر وينهبها ويهرب ، ويطلب فلا يقدر عليه . فأعجب النعمان بمغامراته ، وتاقت نفسه إلى رؤيته ، فأمنه . فلما حضر أمامه وجد منظره زريا ، فقال : لأن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، فذهب مثلا . ومعيد : تصغير معد بن عدنان .

هَجِينُ (٧١) القَذَال ، أَرْعَنُ (٧٢) السِّبَال ، طَوِيلُ العُنُقِ وَالعِلاوَة (٧٣) ، مُفْرِطُ الحُمْقِ وَالغَبَاوَةَ ، جافي الطَّبْع ، سيءُ الجابَةِ (٧٤) والسَّمْع ، بَغِيضُ الهَيْئَة ، سَخِيفُ الذَّهاب وَالجَيْئَة ، ظاهِرُ الوَسْواس ، مُنْتِنُ الأنْفاس ، كَثِيرُ المَعايب ، مَشْهُورُ المَثالِب (٧٥) كَلامُكَ تَمْتَمَة (٧٦) ، وحَديثُكَ غَمْغَمَة ، وَبَيانُكَ فَهْفَهَة (٧٧) ، وضَحِكُكَ قَهْقَهَة (٧٨) ، ومَشْيُكَ هَرْوَلَة (٧٩) وَغِناكَ مَسْأَلَة ، ودِينكَ زَنْدَقَة ، وعِلْمُكَ مَخْرَقَة (٨٠) :

مَسَاوٍ ، لَوْ قُسِمْنَ على الغَواني   لَمَا أُمْهِرْنَ إِلَّا بالطَّلاقِ (٨١)

حَتَّى إِنَّ باقِلًا (٨٢) مَوْصُوفٌ بالبَلاغَة إِذَا قُرِنَ بِك ، وَهَبَنَّقَةَ (٨٤) مُسْتَوْجِبٌ لاسْمِ العَقْلِ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْك ، وطُوَيْساً (٨٤) مَأْثُورٌ عَنْهُ يُمْنُ الطَّائِر إِذَا قِيسَ عَلَيْك . فَوَجُودُكَ عَدَم ، والاغْتِباطُ (٨٥) بِكَ نَدَم ، والخَيْبَةُ مِنْكَ ظَفَر ، والجَنَّةُ مَعَكَ سَقَر كَيفَ رَأيتَ لُؤْمَكَ لِكَرَمي

---

(٧١) هجين القذال : الهجين من الناس من فى نسبه هجنة : أى قبح . والقذال : جماع مؤخر الرأس . وخص القذال ، لأن الذى يعرف لؤم نسبه إذا ولى طأطأ رأسه حياء وذلا . فكأن اللؤم يتبين من قذاله . وقيل : لكثرة انهزامه فى الحروب .

(٧٢) أرعن السبال : الأرعن الأحمق . والسبال : جمع سبلة ، وهى شعر الشفة العليا ، شبهت بسبل المطر ، لما فيها من التحدر . وخصت الرعونة بالسبال لأنها علامة الرجل .

(٧٣) العلاوة : الرأس ما دام على العنق .

(٧٤) سيء الجابة : أى يسمع الشيء على غير حقيقته ، ويجيب كذلك ، إما من البله أو الطرش . وهو مثل ، يقال : ساء سمعا أو أساء سمعا ، فأساء جابة .

(٧٥) المثالب : النقائص والعيوب .

(٧٦) التمتمة والغمغمة ؛ من معايب النطق المعدودة . والأولى معناها التردد فى التاء . والغمغمة : أن يسمع الصوت ولا يبين تقطيع الحروف .

(٧٧) الفهفهة : عى فى المنطق .

(٧٨) القهقهة : صفة الضحك الشديد ، كأن الضحاك يقول : قه قه .

(٧٩) هرولة : بين المشى والعدو . وعدها هنا من المعايب لاقترانها بذكر المسألة ؟ يعنى أنه سائل نهم سريع المشى للطلب .

(٨٠) مخرقة : أى شعبذة وتحايل وغش .

(٨١) البيت لأبى تمام من أبيات يهجو بها الأعمش .

(٨٢) باقل : هو عمرو بن ثعلبة الإيادى ، الذى يضرب به المثل فى العى .

(٨٣) هبنقة : هو يزيد بن ثروان أحد بنى قيس بن ثعلبة ، الملقب هبنقة ، والمكنى بأبى الودعات ، لأنه نظم ودعا لنفسه فى سلك ، وجعله علامة له ، لئلا يضيع .

(٨٤) طويس : هو عيسى بن عبد الله مولى بنى مخزوم ، كان مخنثا ماجنا ظريفا يسكن المدينة . وقد ضرب به المثل فى الشؤم ، لأنه ولد يوم توفى النبى عليه الصلاة والسلام ، وفطم يوم مات أبو بكر ، وختن يوم قتل عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان .

(٨٥) الاغتباط : حسن الحال .

كِفَاء (٨٦) وضَعَتَكَ لِشَرَفِي وَفَاء ، وأنّى جَهِلْتَ أَنَّ الأشْيَاءَ إنَّما تَنْجَذِبُ إِلَى أشْكَالِها ، والطَّيْرَ إِنَّما تَقعُ على أُلاَفِها ، وهَلَّا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ والغَرْبَ لايَجْتَمِعَان ، وشَعَرْتَ أَنَّ المُؤْمِنَ والكافِرَ لايَتَقَارَبان ، وقُلْتَ : الخَبِيثُ والطَّيِّبُ لايَسْتَوِيان . وتَمَثَّلْتَ :

أيُّهَا المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا   عَمْرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتَقِيانِ ؟ (٨٧)

وذَكَرْتَ أنّي عِلْقٌ (٨٨) لايُبَاعُ مِمَنْ زاد ، وطائرٌ لايَصِيدُهُ مَنْ أراد ، وَغَرَضٌ لايُصِيبُهُ إِلّا مَنْ أَجَاد . ما أَحْسَبُكَ إِلّاكُنْتَ قَدْ تَهيَّأْتَ (٨٩) لِلتَّهْنِئَة ، وَتَرَشَّحْتَ (٩٠) لِلتَّرْفِيةِ . ولَوْلَا أَنَّ جُرْحَ (٩١) العَجْمَاءِ جُبَارٌ ، لَلَقِيتَ مِنَ الكَواعِبِ مالاقى يَسَار (٩٢) ، فَمَا هَمَّ إِلّا بِبَعْضِ ما بِهِ هَمَمْتَ ، ولا تَعَرَّضَ إِلّا لأيْسرِ مالَهُ تَعَرَّضْتَ . أَيْنَ ادِّعاؤُكَ رِوَايَةَ الأشْعَارِ ، وتَعاطِيكَ حِفْظَ السِّيَرِ والأخْبار ؟ أما ثاب (٩٣) إليك قول الشاعر :

بَنُو دارِمٍ أَكْفَاؤُهُمُ آلُ مِسْمَعٍ   وتُنْكَحُ فِي أَكْفَائِها الحَبِطَاتُ ؟ (٩٤)

---

(٨٦) كفاء : نظير .

(٨٧) البيت لعمر بن أبي ربيعة .

(٨٨) العلق : النفيس من كل شيء .

(٨٩) تهيأت للتهنئة : طمعت بحصول القصد .

(٩٠) وترشحت للترفية . الترشيح ، استعداد للشيء . والترفية : التنعم والتوسع في العيش .

(٩١) جرح العجماء جبار : هذا حديث . والعجماء : البهيمة . والجبار : الدم الهدر . والمعنى عدم القصاص في جرح البهيمة . وضرب به المثل لمن يستهان به .

(٩٢) الكواعب : جمع كاعب ، وهي الجارية تكعب ثدياها ، أي برزا . ويسار : عبد . وهذا مثل معروف . وسببه أن يسارا هذا كان عبدا أسود قبيحا . وسمي يسار الكواعب ، لأن النساء كن يضحكن منه لقبحه ، فكان يظن أنهن يضحكن إعجابا . وقد دفعه هذا الوهم إلى أنه أراد أن يزني بامرأة مولاه . فتظاهرت بالرضا والقبول ، ثم أحضرت موسى وجبت مذاكيره .

(٩٣) ثاب إليك : رجع إلى ذهنك .

(٩٤) البيت للفرزدق ، قاله لرجل من بني الحرث بن عمرو ، خطب إلى بني دارم . ودارم : هو مالك بن حنظلة التميمي ، وهو أبو مجاشع ، وبيته أكبر بيوت بني تميم . وآل مسمع : بيت بكر بن وائل في الإسلام ، وهو من بني قيس ابن ثعلبة . والحبطات : بنو الحارث بن عمرو بن تميم ، يجمعهم البيت مع بني دارم . وقد نقص قدر الحبطات لقول الشاعر فيهم :

وجدنا الشيب من شر المطايا   كما الحبطات شر بني تميم

وَهَلّا عَشِيتَ (٩٥) وَلَمْ تَغْتَرَّ؟ وما أشكُّ أَنَّكَ تَكُونُ وافِدَ البراجِم (٩٦)، أَوْ تَرْجِعُ بِصَحِيفَةِ (٩٧) المُتَلَمِّس، أَوْ أَفْعَلُ بِكَ مَا فَعَلَهُ عَقِيلُ (٩٨) بْنُ عُلَفَةَ بالجُهَنِيِّ إِذْ جَاءهُ خَاطِباً، فَدَهَنَ اسْتَهُ بِزَيْتٍ، وَأَدْنَاهُ مِنْ قَرْيَةِ النَّمْلِ، وَمَتَى كَثُرَ تَلَاقِينا، وَاتَّصَلَ تَرَائِينا، فَيَدْعُونِي إِلَيْكَ مادَعا ابْنَةَ الخُسِّ (٩٩) إلى عَبْدِها - مِنْ طُولِ السَّوَادِ وَقُرْبِ الوِسادِ؟ وَهَلْ فَقَدَتُ الأراقم (١٠٠) فأَنْكِحَ فِي جَنْبٍ؟ أَوْ عَضَلَنِي هَمَّامُ بْنُ مُرَّةَ فأَقُولَ زَوْجٌ مِنْ عُودٍ خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ؟

وَلَعَمْرِي لَوْ بَلَغْتَ هٰذا المَبْلَغَ، لارْتَفَعْتُ عَنْ هٰذِهِ الحِطَّة، وَلا رَضِيتُ بِهٰذِهِ الخُطَّة، فَالنَّارُ وَلا العَار، وَالمَنِيَّة ولا الدَّنِيَّة، وَالحُرَّةُ تَجُوعُ وَلا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا.

فَكَيْفَ وَفِي أَبْنَاءِ قَوْمِي مَنْكَحٌ وَفِتْيَانُ هِزَّانَ الطُّوالِ الْغَرَانِقَة (١٠١)

---

(٩٥) عشيت : رفقت .

(٩٦) وافد البراجم : رجل من تميم . والبراجم : خمسة من أولاد حنظلة . والعرب تضرب المثل بوافد البراجم . وذلك أن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين رجلا من بنى تميم ؛ وقد كان آلى أن يحرق منهم مائة . فبينا هو يلتمس بقية المائة، إذ مر رجل من البراجم يسمى عمارا، قادم من سفر، فاشتم رائحة القتار، فظن أن الملك اتخذ طعاما، فعدل إليه، فقيل له : ممن أنت؟ قال : من البراجم . فألقى فى النار، وقيل إن الشقى وافد البراجم .

(٩٧) صحيفة المتلمس : هذا مثل يضرب لمن يحصل له الضرر من جهة النفع . والمتلمس : هو جرير ابن عبد المسيح، أحد بنى صعصعة، شاعر مجيد من شعراء الجاهليلة . وهو ابن أخت طرفة بن العبد . وكان عمرو ابن هند قد كتب له صحيفة إلى عامله بالبحرين ليقتله . وأوهمه أنه إنما كتب إلى عامله ليحسن إليه . فلما خرج المتلمس من لدن عمرو بن هند، عرض صحيفة على غلام كان يحسن القراءة، فقرأها له، فإذا هى أمر إلى عامل البحرين بقتله . فهرب المتلمس إلى الشام وهجا عمرو بن هند .

(٩٨) هو عقيل بن علفة بن الحارث اليربوعى، يكنى أبا العملس، وكان أهوج جافيا، شديد الغيرة والعجرفة والبذخ بنسبه . وكان لا يرى له كفؤا، وكانت قريش ترغب فى مصاهرته، وتزوج إليه من حلفائها وأشرافها . وقد خطب إليه عبد الملك بن مروان بعض بناته لبعض ولده، فأطرق ساعة، ثم قال : إن كان ولا بد فجنبنى هجاءك، فضحك عبد الملك، وعجب من كبر نفسه على ضائقته، وشدة عيشه بالبادية، وتزوج يزيد بن عبد الملك بعض بناته .

(٩٩) ابنة الخس : هى هند بنت الخس الإيادى، كانت فى الجاهلية . وحدث أن زنت بعبد لها، فلامها الناس، وقالوا لها : ما حملك على الزنا؟ فقالت : قرب الوساد وطول السواد، والسواد : السرار .

(١٠٠) الأرقم : حى من تغلب . وجنب : حى من اليمن، وهو يشير إلى هرب المهلهل، حين طالت عليه حرب البسوس، ونزوله على حى من اليمن . فخطبوا إليه ابنته فأبى، فساقوا المهر، وهو جلود من أدم، وغصبوه على الزواج، فقال من عدة أبيات :

أنكحها فقدها الأرقم فى جنب وكان الحباء من أدم

(١٠١) البيت لأعشى قيس . وهزان بكسر الهاء : اسم قبيلة . والغرانقة : الشباب .

مَا كُنْتُ لأتَخَطَّى المِسْكَ إلى الرَّمَادِ ، ولا أمْتَطِى الثَّوْرَ بَعْدَ الجوادِ ، فإنَّمَا يَتَيَمَّمُ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً ، وَيَرْعَى الهَشِيمَ (١٠٢) مَنْ عَدِمَ الجَمِيمَ (١٠٣) ، وَيَرْكَبُ الصَّعْبَ مَنْ لا ذَلُولَ لَهُ ، وَلَعَلَّكَ إنما غَرَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صَبْوَتِى إلَيْهِ ، وَشَهِدْتَ مُسَاعَفَتِى لَهُ ، مِنْ أقْمَارِ العَصْرِ ، وَرَيْحَانِ المِصْرِ ، الَّذِينَ هُمُ الكَوَاكِبُ عُلُوُّ هِمَمٍ ، وَالرِّيَاضُ طِيبُ شِيَمٍ :

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلُ النُّجُومِ الَّتى يَسْرِى بِهَا السَّارِى (١٠٤)

تَحِنُّ (١٠٥) قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، مَا أنْتَ وَهُمْ ، وَأنَّى تَقَعُ مِنْهُمْ . وَهَلْ أنْتَ إلَّا وَاوُ عَمْرٍو فِيهِمْ ، وَكَالوَشِيظَةِ (١٠٦) فى العَظْمِ بَيْنَهُمْ . وَإنْ كُنْتَ إنَّمَا بَلَغْتَ قَعْرَ تَابُوتِك ، وَتَجَافَيْتَ عَنْ بَعْضِ قُوتِك ، وَعَطَّرْتَ أرْدَانَك ، وَجَرَرْتَ هِمْيَانَك (١٠٧) ، وَاخْتَلْتَ فى مِشْيَتِكَ ، وَحَذَفْتَ فضولَ لحيَتِكَ ، وَأصْلَحْتَ شارِبَك ، وَمَطَّطْتَ حاجِبَك ، وَرَقَّقْتَ خَطَّ عِذارِك ، وَاسْتَأنَفْتَ عَقْدَ إزَارِك ، رَجَاءَ الاكْتِنَانِ فِيهِمْ ، وَطَمَعًا فى الإعْتِدَادِ مِنْهُمْ ، فَظَنَنْتَ عَجْزًا ، وَأخْطَأَتِ اسْتُكَ (١٠٨) الحُفْرَةَ . واللهِ لَوْ كساكَ مُحَرِّقُ البُرْدَيْنِ ، (١٠٩) وَحَلَّتْكَ مَارِيَةُ (١١٠) بالقُرْطَيْنِ ، وَقَلَّدَكَ عَمْرٌو (١١١) الصَّمْصامَةَ ، وَحَمَلَكَ الحارِثُ عَلَى النَّعامَةِ (١١٢) ،

---

(١٠٢) الهشيم : النبات اليابس .

(١٠٣) الجميم : النبات الكثير . وإن كانت بالحاء فهى النبات المقتبل .

(١٠٤) هذا البيت ينسب للعرندس .

(١٠٥) تحن قدح : مثل يضرب لمن يتشبه بقوم ليس منهم ، ويتمدح بما ليس فيه .

(١٠٦) الوشيظة : قطعة عظم تكون زيادة فى العظم الأصلى . والمقصود : أنه حشو فيهم .

(١٠٧) هميانك : وعاء للدراهم شبه الحزام فوق السراويل . فارسى معرب .

(١٠٨) أخطأت استك الحفرة : مثل يضرب لمن يطلب أمرا فيخطئه ولا يناله .

(١٠٩) محرق : هو عمرو بن هند . وسمى محرقا لأنه أحرق مائة من بنى تميم . فأما البردين ، فروى أن الوفود اجتمعت عنده . فأخرج بردين وقال : ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما . فقام عامر بن أحيمر ، فأخذهما وأثبت أنه من أعز العرب قبيلة .

(١١٠) مارية : هى بنت ظالم بن وهب الكندى زوجة الحارث الأكبر الغسانى . وكان له قرط به لؤلؤتان عجيبتان يتوارثهما الملوك ، وقد وصلتا إلى عبد الملك بن مروان . وروى أن مارية أهدت قرطيها إلى الكعبة ، وهما درتان فى حجم بيض الحمام .

(١١١) عمرو بن معدى كرب بن عبد الله الزبيدى . وهو فارس مشهور صاحب غارات ووقائع فى الجاهلية والإسلام . والصمصامة : سيفه المشهور .

(١١٢) النعامة : اسم فرس الحارث بن عباد البكرى أكبر سادات بنى وائل . وهو الذى اعتزل حرب البسوس ، وقال : لا ناقة لى فيها ولا جمل . فلما قتل ابنه نهض للحرب قائلا :

قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيال

مَا شَكَكْتُ فِيكَ ، ولا سَتَرْتَ أَبَاكَ ، ولاكُنْتَ إِلَّا ذاكَ . وَهَبْكَ سَامَيْتَهُمْ فِي ذِرْوَةِ المَجْدِ وَالحسبِ ، وَجَارَيْتَهُمْ فِي غَايَةِ الظَّرْفِ وَالأَدَبِ،أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَى بَيْتِ قَعِيدَتُهُ(١١٣) لَكاعِ ؟ إِذْ كُلُّهُمْ عَزَبٌ(١١٤) خَالِي الذِّرَاعِ(١١٥) وَأَيْنَ مَنْ أَنْفَرِدُ بِه ، مِمَّنْ لا غَلَبَ إِلَّا عَلَى الأَقَلِّ الأَخَسِّ مِنْه ، وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يَعْتَمِدُنِي بِالقُوَّةِ الظَّاهِرَة ، وَالشَّهْوَةِ الوافِرَة ، والنَّفْسِ المَصْرُوفَةِ إِلَيَّ ، وَاللَّذَّةِ المَوْمُوقَةِ عَلَيَّ ، وَبَيْنَ آخَرَ قَدْ نَصَبَ غَدِيرُه(١١٦) ، وَنَزَحَتْ بِيرُه ، وذَهَبَ نَشَاطُـه ، ولَمْ يَبْقَ إِلَّا ضُرَاطُه ، وَهَلْ يَجْتَمِعُ لِي فِيكَ إِلَّا الحَشَفُ(١١٧) وسُوءُ الكِيْلَةِ ، وَيَقْتَرِنُ عَلَيَّ بِكَ إِلَّا الغُدَّةُ(١١٨) ، وَالمَوْتُ فى بَيْتِ سَلُولِيَّة .

تَعَالَى اللهُ يَا سَلْمَ بْنَ عَمْرٍو   أَذَلَّ الحِرْصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ(١١٩)

ما كانَ أَخْلَقَكَ(١٢٠) بأَنْ تَقْدِرَ(١٢١) بِذَرْعِكِ ، وَتَرْبَعَ بِذَلِكَ(١٢٢) عَلَى ظَلْعِكَ ، وَلاتَكُنْ بَرَاقِشَ(١٢٣) الدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا ، وَعَنْزَ السُّوءِ(١٢٤) المُسْتَثِيرَةَ لِحَتْفِهَا ، فَمَا أَرَاكَ إِلَّا سَقَطَ بِك

---

(١١٣) قعيدته : القعيدة امرأة الرجل . ولكاع : لئيمة النفس ، مبنى على الكسر . يشير إلى بيت الحطيئة :

أطوف ما أطوف ثم آوى   إلى بيت قعيدته لكاع

(١١٤) عزب : البعيد عن الزوجة ، مأخوذ من العازب فى طلب الكلإ ، وهو المتباعد .

(١١٥) خالى الذراع ، كقولنا خالى اليد ، كناية عن الفراغ .

(١١٦) هذه العبارة والتى بعدها كناية عن ضعف ابن عبدوس عن النكاح .

(١١٧) الحشف وسوء الكيلة : هذا مثل يضرب فى الخلتين السيئتين يجتمعان . والحشف : أردأ أنواع التمر .

(١١٨) هذا مثل آخر فى معنى المثل المتقدم . وقائله هو عامر بن الطفيل عندما توعد رسول الله ﷺ . فدعا عليه وقال : اللهم اكفنى عامرا بما شئت . فظهر فى رقبته غدة ، مات منها فى بيت امرأة من سلول وجعل يقول : غدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية .

(١١٩) البيت لأبى العتاهية ، ويخاطب سلما الخاسر   (١٢٠) ما أخلقك : ما أولاك .

(١٢١) تقدر بذرعك : تقيس الأمر بجهدك . وأصل الذرع : بسط اليد كأنه جهد فى بسطها .

(١٢٢) وتربع على ظلعك : مثل للعرب يضرب لمن يكلف نفسه مالا يقدر عليه . والظلع فى البعير : الغمز فى مشيه . وربع : إذا أقام . فالمعنى أقم على ضعفك ، وارفق بنفسك .

(١٢٣) ولاتكن براقش : هذا مثل يضرب لمن يعمل عملا يرجع ضرره عليه . قيل : إن براقش اسم كلبة نبحت قوما قصدوا الغارة على قوم ، فخفى عليهم مكانهم . فلما نبحت براقش عرف المغيرون مكان خصومهم فاجتاحوهم . فقيل : أشأم من براقش . وقيل : غير ذلك .

(١٢٤) عنز السوء : هذا مثل يضرب لمن يعين على ضرر نفسه . وأصله أن رجلا وجد عنزا ، فأراد ذبحها فلم يجد سكينا ، فبينما هو كذلك ، إذ بحثت الشاة بظلفها فاستثارت سكينا فذبحها بها .

الْعَشَاءُ (١٢٥) عَلَى سِرْحَان ، وَبِكَ لا بِظَبْيٍ (١٢٦) أَعْفَر ، أَعْذَرْتَ (١٢٧) إِنْ أَغْنَيْتَ شَيْئًا ، وَأَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا .

إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِذِى الْحِلْمِ   وَالشَّىْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِى (١٢٨)

وَإِنْ بادَرْتَ بالنَّدَامَة ، وَرَجَعْتَ عَلَى نَفْسِكَ بالمَلَامَة ، كُنْتَ قَدِ اشْتَرَيْتَ العَافِيَةَ .

---

(١٢٥) سقط بك العشاء على سرحان : مثل يضرب لمن أراد أمرا ، فوقع على حتفه . وأصله أن دابة خرجت تطلب عشاء ، فوجدها ذئب فأكلها .

(١٢٦) وبك لا بظبى أعفر : مثل يضرب للشماتة بالرجل ، يقول نزل به المكروه ، ولا نزل بظبى ، لأن عنايته بالظبى أشد من عنايته به . والأعفر : ما كان لونه كالتراب .

(١٢٧) أعذرت : بلغت العذر فى نصيحتك إن قبلت منى ، وتركت التعرض إلى .

(١٢٨) قرعت له العصا : مثل يضرب لمن ينصح ، وينبه على ما هو أصلح . وقوله : إن العصا قرعت والشىء تحقره ؛ مثلان فى التحذير ، منظومان فى قول الحارث بن وعلة اليشكرى ، وقد قتل بعض سادات قومه . فقال من أبيات :

وزعمت أنا لا حلوم لنا   إن العصا قرعت لذى الحلم
إن يأبروا نخلا لغيرهم   والشىء تحقره وقد ينمى

ابن سنان الخفاجي

(٤٢٣ - ٤٦٦ هـ / ١٠٣٢ - ١٠٧٣ م)

أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الحلبي ، الشاعر الأديب ، أخذ الأدب عن أبي العلاء المعري وأبي نصر المنازي ، وكان يرى رأي الشيعة الإمامية .عمل مع محمود ابن صالح حاكم حلب ، وقد أوفده رسولا إلى ملك الروم بالقسطنطينية ، ثم ولّاه قلعة عَزاز، وكان بين ابن سنان وأبي نصر بن النحاس وزير محمود بن صالح مودّة مؤكدة ، فأمر محمود أبا نصر أن يكتب إلى بن سنان كتابا يستعطفه ، ويعلمه أنه لا يؤمن إلا إليه ، ولا يثق إلا به . فكتب إليه كتابا ختمه بقوله إن شاء الله تعالى ، مشددًا النون من « إن » فلما قرأه ابن سنان فكر مليّا ، وخرج هذا التشديد على أنه إشارة إلى قوله تعالى : « إن المَلأَ يأتمرون بك ليقتلوك » ، وكتب ردّا قال فيه : « أنا الخادم المعترف بالإنعام » ، وكسر الف من « أنا » وشدّد « النون » وفتحها ، فلما قرأ أبو نصر الرسالة سُرّ، وعلم أن قصده : « إنّا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها » ، وعلى الرغم من هذا الحذر توفي ابن سنان بقلعة عزاز مسموما ، ويروى أنه قال حين أحسّ بالموت :

خَفْ مَنْ أمنتَ ولا تركنْ إلى أحدٍ   فما نصحتُك إلّا بعدَ تَجْرِيبِ

ولابن سنان ديوان شعر ، فيه مدائح وغزليّات وعظات وكثير من المرثيات رثى بها والدته وبعض أهله وأصدقائه .

واشتهر بكتابه « سرّ الفصاحة » ، وهو من أمهات المصنّفات العربية في الدراسات البلاغية ، فسّر فيه الفصاحة وما تتطلبه من الصور البيانية والبديعية والفنون البلاغية المختلفة ، ومن المسائل التي عرض لها في كتابه : أحكام الأصوات ومخارجها ، والفرق بين الفصاحة والبلاغة ، والصفات التي ينبغي توافرها في الكلمة المفردة ثم في الكلام . . .

* * *

الكلام فى الفصاحة :

الفصاحة والظهور والبيان ، ومنها أَفْصَحَ اللبن إذا انجلتْ رُغْوته ، وفَصُح فهو فصيح قال الشاعر:

وتحت الرغوة اللبن الفصيح

ويقال أفصح الصبح إذا بدا ضوؤه ، وأفصح كل شيء إذا وضح وفى الكتاب العزيز «وأخى هارونُ هو أفصحُ منى لسانًا فأرسلْه معى» (١) وفصح النصارى عيدهم وقد تكلمت به العرب ، قال حسان بن ثابت :

ودنا الفِصْحُ فالولائد ينظمن سراعا أكلَّة المرجان(٢)

ويجوز أن يكون ذلك لاعتقادهم أنَّ عيسى - عليه السلام - ظهر فيه ، وسُمِّى الكلام الفصيحُ فصيحاً كأنّهم سموه بيانا ولإعرابه عمّا عبرَّبه عنه ، وإظهاره له إظهارًا جليا . روى عن النبى ﷺ وآله وسلم أنه قال : « أنا أفصح العرب بيْد(٣) أنى من قريش » ، والفرق بين الفصاحة والبلاغة ، أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لاتكون إلَّا وصفًا للألفاظ مع المعانى . لايُقالُ فى كلمة واحدة لاتدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة ، وإن قيل فيها إنها فصيحة . وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغاً ، كالذى يقع فيه الإسهاب فى غير موضعه .وقد حدَّ النَّاس البلاغة بحدود إذا حُقِقِّت كانت كالرُّسوم والعلائم وليست بالحدود الصحيحة ، فمن ذلك قول بعضهم « لمحةٌ دالة » ، وهذا وصف من صفاتها ، فأما أن يكون حاصرًا لها ، وحدًا يُحيط بها فليس ذلك بممكن لدخول الإشارة من غير كلام يُتلفَّظ به تحت هذا الحق , وكذا قال آخر : « والبلاغة معرفة الفصل من الوصل » ، لأن الإنسان قد يكون عارفاً بالفصل والوصل ، عالما بتمييز مختار الكلام من مُطَّرحه ، وليس بينه وبين البلاغة سبب ولا نسب ، ولا يمكنه أن يؤلف

---

(١) سورة القصص ٣٤

(٢) أكلّة : جمع إكليل ، وهو شبه عصابة مزيّنة بالجوهر - المرجان : صغار اللؤلؤ .

(٣) بيْد بمعنى « من أجْل » أو بمعنى « غير » .

ما يختاره من تأليف غيره ، والحدود لا يحسن فيها التأوّل ، و إقامه المعاذير ، وغرابة ألفاظ تدلّ على المقصود ، لأنها مبنيّة على الكشف الواضح ، موضوعة للبيان الظّاهر ، والغرضُ بها السلامة من الغامض ، فكيف يوقع في غامض بمثله . وكذلك قول الآخر : « البلاغة أن تُصيب فلا تخطىء ، وتسرع فلا تبطىء » ، لأن هذا يصلح لكل الصنائع وليس بمقصور على صناعة البلاغة وحدها ثم إنما سئل عن بيان الصواب في هذه الصناعة من الخطأ فجعل جواب السائل نفس سؤاله . وبهذا أيضا يفسد قول من ادّعى أن حدّها « الإيجاز من غير عجز ، والإطناب من غير خطل » . وقول من قال : « البلاغة اختيار الكلام ، وتصحيح الأقسام » ، لأنّ هذين إنما سئلا عن حدٍ يُبين الكلام المرفوض من المختار ، والخطأ من الصواب ، ويوضح كيف يكون الإنجاز مختارًا ، ومتى يقع الإطناب مرضيا محمودًا ، فأحالا على ما السؤال فيه باق، وعدم العلم معه موجود حاصل .

وفي البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو ،وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزءيها ، فكلامي على المقصود ، وهو الفصاحة غير متميز إلا في الموضع الذي يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قدّمت ذكره ، فأما ما سوى ذلك فَعامٌ لا يختصّ ، وخليط لا ينقسم وسأذكر بمشيئة الله ما يخطر لي ، ويسنح بفكري في موضعه .

وأقول قبل ذلك إن الناس قد أكثروا من الدلالة على شرف الفصاحة ، وعظم قدر البيان والبلاغة ، ونبهوا بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة ، وقد قال عزّ اسمه « الرحمنُ . عَلَّم القرآنَ خَلَقَ الإنسانَ . علَّمه البيان »(٤) ولم يكن تعالى يذكر البيان هاهنا إلّا وهو من عظيم النعم على عبيده ، وجميلِ البلاء عندهم ، لا جرم وقد قرن ذلك بذكر خلقهم فجعله مضافًا إلى المِنّة بخروجهم من العدم إلى الوجود من جانب النفي إلى الإثبات ، وأنا أقول قولا مختصرا كافيا : قد ثبت أن الفرق الواضح بين الحيوان الناطق والصامت هو النطق ، وبه وقع التمييز في الحدّ المنسوب إلى الحكيم ، وإن كان يفسره أصحابه بغير هذا الظاهر فالشرف منه يؤخذ ، والفضل به يقع ، ولا خلاف في أن الصمت أفضل من مُطَّرَح الكلام ومنبوذه ، وأوفق للسامع من كلف

---

(٤) سورة الرحمن ١ - ٤

ذلك، فقد صار مع هذا التخريج الفصل المميز، والفضل اللائح إنما هو للإفصاح، والبيان والبلاغة، وحسن النطق، دون ما يسمى كلامًا فقط ووجب على من أراد أن يخرج من حيز ذلك الصامت الناطق سلوك الطريق الذى به توجد الفضيلة،وعنه تدرك الميزة باجتهاده، إن كان لادربة له، وتكلفه إن كان لا طبع عنده. وليعلم أن من شارك الناطق بالصورة، وخالفه بالمعنى الموجب للشرف، أسوأ حالاً، وأقبح صفة من الصامت المخالف فى الأمرين معا. لأن هذا غريب فى الموضع الذى وجد فيه آهلا، ووحيد فى المكان الذى خلق به آنساً.

وما أحسن ما قال إبراهيم بن محمد المعروف بالإمام: «يكفى من من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا الناطق من سوء فهم السامع». وهذا كلام مختار فى تفضيل البلاغة.

وقال سهل بن هارون الكاتب: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم. وأولى من هذا بالحجة قول النبى ﷺ للعباس وقد سأله: فيم الجمال؟ فقال: «فى اللسان».

وقالوا لما دخل ضَمْرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر احتقره لما رأى من دمامته، وقال: «تسمع بالمعيدىّ خير من أن تراه». (٥) فقال: أبَيْتَ اللَّعْن، إن الرجال لا تكال بالقُفزان(٦) وليست تستقى فيها، وإنما المرء بأصغريْه قلبه ولسانه إن صال صال بجَنان، وإن نطق نطق بلسان، وأنشدوا لأبى الأعور السُّلَمى:

وكائِنْ تَرى من صامتٍ معجبٍ زيادتُه أو نقصُه فى التَّكلّم
لسان الفتى نِصْفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبقَ إلّا صورة اللّحم والدّم

(٥) هذا مثل يُضرب لمن خَبَرُه خيرٌ من مَرْآه.

(٦) القفزان: جمع القفيز وهو من المكاييل، قال الشاعر:

زعموا أننى ضئيل لعمرى ما تكال الرجال بالقفزان
إنما المرء باللسان وبالقلـ ـب وهذا قلبى وهذا لسانى

وهذان بيتان قد ذكرتهما فيما تقدم حكايةً عن أبي طالب العبدي لكن هذا موضعهما .

وقيل لزيد بن على -عليهما السلام -: « الصمت أفضل أم الكلام » فقال : « أخزى الله المساكتة فما أفسدها للسان ، وأجلبها للحَصَر ، (٧) والله إن المماراة على ما فيها لأقلّ ضررًا من السكتة التي تورث أدواءً أيسرها العِيّ » وأنت إذا سمعتهم يمدحون الصمت وينظمون القريض في مدحه ويذكرون جنايات اللسان وكلومه ، ويروون عن النبيّ صلّى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «وهل يَكبُّ الناس على مناخرهم في النار إلّا حصائدُ ألسنتهم » ويقولون : « لو كان الكلام من فضّة كان الصمت من ذهب » ، وأشباه هذا ونظائره فإنما يريدون الكلام الذي ليس بجميل ، واللفظ الذي لا يُستحسن . فأما أن يكون الحسن يتواتر حتى يصير قبيحًا ، والقبيح يتضاعف حتى يكون حسنًا فهذا شيء خارج عن حد العقل ونظامه ، وليس هذا المذهب مما يمكن وقوع الخلاف فيه فيحتاج إلى إطالة في بيانه ، وقد أوردنا لمحةً يُستدل بها على غيرها وأن المذكور في هذا النحو لا ينحصر ولا تستوفى غايته . وأقول قبل كلامي في الفصاحة وبيانها إنني لم أر أقلّ من العارفين بهذه الصناعة ، والمطبوعين على فهمها ونقدها ، مع كثرة من يدّعي ذلك ويتحلّى به وينتسب إلى أهله ويماري أصحابه في المجالس ويجاري أربابه في المحافل،وقد كنت أظن أن هذا شيءٌ مقصورٌ على زماننا اليوم، ومعروفٌ في بلادنا هذه حتى وجدت هذا الدّاء قد أعيا أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدي وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قبله وأشكاهُما حتى ذكراه في كتبهما . فعلمت أن العادة به جارية ، والرَّزيَّة فيه قديمة . ولمّا ذكرته رجوت الانتفاع به من هذا الكتاب وأمّلت وقوع الفائدة به إذ كان النقص فيما أبنته شاملا ، والجهل به عاما ، والعارفون حقيقته قرْحَةَ الأدهم بالإضافة إلى غيرهم والنسبة إلى سواهم .

ونبتدئ الآن بالكلام فيما أجرينا القول إليه ونقول إن الفصاحة على ما قدّمنا نعتٌ للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة ، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة

---

(٧) الحَصَر : عدم القدرة على الكلام - المماراة : المجادلة ومخالفة الآخرين والتلوّي عليهم - العِيّ : العجز عن التعبير اللفظيّ بما يفيد المعنى المقصود .

تلك الألفاظ ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف ، وبوجود أضدادها تستحق الاطّراح والذم ، وتلك الشروط تنقسم قسمين ؛ فالأول منها يوجد فى اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شىء من الألفاظ وتؤلف معه ، والقسم الثانى يوجد فى الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض فأما الذى يوجد فى اللفظة الواحدة فثمانية أشياء ؛ الأول أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج على ما ذكرناه فى الفصل الرابع ، وعلة هذا واضحة وهى أن الحروف التى هى أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ، ولا شك فى أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت فى المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة ولقرب ما بينه وبين الأصفر وبعدما بينه وبين الأسود ، وإذا كان هذا موجودا على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه كانت العلة فى حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هى العلة فى حُسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة ، وقد قال الشاعر فى هذا المعنى :

فالوجه مثل الصبح مبيضٌّ ... والفرع مثل الليل مسودُّ

ضدّان لما استجمعا حَسُنا ... والضدُّ يُظْهِرُ حسنَه الضدُّ

وهذه العلّة يقع للمتأمّل وغير المتأمل فهمها ، ولا يمكن مُنازع يجحدها ، ومثال التأليف من الحروف المُتباعدة كثير ، جُلُّ كلام العرب عليه فلا يحتاج إلى ذكره . فأمّا تأليف الحروف المتقاربة فقد قدمنا فى الفصل الرابع مثالا حكى منه وهو الهعخع ، ولحروف الحلق مزيَّةٌ فى القبح إذا كان التأليف منها فقط ، وأنت تدرك هذا وتستقبحه كما يقبح عندك بعض الأمزجة من الألوان وبعض النَّغم من الأصوات . والثانى أن تجد لتأليف اللفظة فى السمع حُسنًا ومزيَّةً على غيرها وإن تساويا فى التأليف من الحروف المتباعدة ، كما أنك تجدُ لبعض النغم والألوان حُسنًا يتصوّرُ فى النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه كل ذلك لوجه يقع التأليف عليه ، ومثاله فى الحروف : « ع ذ ب » ، فإن السامع يجد لقولهم « الْعُذَيْب اسم موضع ، وعذيبة اسم امرأة ، وعَذْبٌ وعِذَابٌ وعَذَب وعَذَباتٌ » ما لا يجده فيما يقارب هذه الألفاظ فى التأليف ، وليس سبب ذلك بعد الحروف فى المخارج فقط ولكنه تأليف مخصوصٌ مع البُعد ، ولو قدمت الذّال أو الباء لم تجد الحسن

على الصفة الأولى فى تقديم العين على الذال لضرب من التأليف فى النغم يفسده التقديم والتأخير، وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغُصن غصنًا أو فننًا، أحسن من تسميته عُسلوجاً، وأن أغصان البان أحسن من عساليج الشوحط فى السمع، ويقال لمن عساه ينازعنا فى ذلك لو حضرك مغنّيان وثوبان منقوشان مختلفان فى المزاج، هل كان يجوز عليك الطَّرب على صوت أحد المغنيين دون صاحبه، وتفضيل أحد الثوبين فى حسن المزاج على الآخر! فإن قال: لا يصح أن يقع لى ذلك خرج عن جملة العقلاء وأخبر عن نفسه بخلاف ما يجد، وإن اعترف بما ذكرناه قيل له: فخبّرنا ما السبب الذى أوجب عليه ذلك، فإنه لا يجد أمراً يشير إليه إلا ما قلناه فى تفضيل إحدى اللفظتين على الأخرى، وقد يكون هذا التأليف المختار فى اللفظة على جهة الاشتقاق فيحسن أيضًا كل ذلك لما قدمته من وقوعه على صفة يسبق العلم بقبحها أو حسنها من غير المعرفة بعلتها أو بسببها، ومثال ذلك مما يختار: قول أبى القاسم الحسين بن على المغربى فى بعض رسائله: « ورعوا هشيما تأنَّفت روضه »(٨) فإن « تأنّفت » كلمة لا خفاء بحسنها لوقوعها الموقع الذى ذكرته، وكذلك قول أبى الطَّيِّب المتنبِّى:

إذا سارت الأحداجُ فوق نباته ... تفاوح مسك الغانيات ورنده(٩)

فإن « تفاوح » كلمة فى غاية من الحسن، وقد قيل إن أبا الطيب أول من نطق بها على هذا المثال، وإن وزير كافور الإخشيدى سمع شاعرًا نظمها بعد أبى الطيب: فقال أخذتموها! ومثال ما يكره قول أبى الطيب أيضا:

مبارك الاسم أغرّ اللقب ... كريم الجِرِشَّى شريف النَّسب(١٠)

فإنك تجد فى « الجرشَّى » تأليفاً يكرهه السمع وينبو عنه، ومثل ذلك قول زهير بن أبى سلمى:

تقىٌّ نقىٌّ لم يُكَثِّر غنيمةً ... بنَهْكة ذى قُربى ولا بَحَقَلَّدِ(١١)

(٨) الهشيم: ما يبس من الورق وتكسّر - المتأنّف من المرعى: الذى لم يؤكل بعد.
(٩) الأحداج: مراكب النساء فوق الإبل كالهوادج - الرند: نبات من شجر البادية، طيب الرائحة، يشبه الآس.
(١٠) الجِرِشَّى: النفس.
(١١) النهكة: النقص والإضرار - الحقلّد: البخيل السيّء الخلق، يقول: إنه لم يكثّر غنيمة بأن ينتهك ذا قرابة، ولا هو بلئيم سيّء الخلق.

و « الحقلّد » كلمة توفى على قبح « الجرشَّى » وتزيد عليها . والثالث أن تكون الكلمة كما قال أبو عثمان الجاحظ غير متوعّرة وحشية كقول أبى تمام :

لقدَ طَلَعَتْ فى وَجْهِ مضرَ بوجْهه   بلا طائرٍ سَعدٍ ولا طائر كهل (١٢)

فإن « كهلًا » ها هنا من غريب اللغة ، وقد روى أنَّ الأصمعى لم يعرف هذه الكلمة وليست موجودة إلا فى شعر بعض الهذليين وهو قوله :

فلو كان سَلْمى جارَه أو أجاره   رياحُ بنِ سعد ردَّه طائرٌ كَهْلُ (١٣)

وقد قيل : إن « الكهل » الضخم و « كهلٌ » لفظة ليست بقبيحة التأليف لكنها وحشية غريبة لا يعرفها مثل الأصمعى ، ومن ذلك أيضاً ما يروى عن أبى علقمة النحوى من قوله : « ما لكم تتكأكؤون علىَّ تكأكؤكم على ذى جِنّة افرنقعوا عنى » . فإن « تتكأكؤون » و « وافرنقعوا » وحشى وقد جمع لَعَمْرى العِلّتين مع قُبح التأليف الذى يمجّه السمع والتوعّر ، وما أكثر ما تجتمع العلّتان فى هذا الجنس ومن الأمثلة قول أبى تمام :

بِنَداك يُوسَى كُلُّ جُرحٍ يَعْتَلى   رَأبَ الأُساةِ بَدرْدَبِيسٍ قِنْطَرِ (١٥)

وكذلك قوله :

قَدْكَ اتَّئِدْ أرْبَيْتَ فى الغُلَواء (١٦)

فإن هذه الألفاظ كما ترى وحشيّة ، ويوجد هذا الجنس فى شعر العجّاج وابنه رؤبة كثيرًا ، ومنه قول بعضهم :

فشحا جَحَافِلَه جُرَافٌ هِبْلَع (١٧)

---

(١٢) الذى فى ديوان أبى تمام : « بلا طالع سعد ولا طائر سهل » .

(١٣) ربمّا جعله « كهلًا » مبالغة فى الشدّة ، ويقال طار لفلان طائر كهل إذا كان له جدّ وحظ فى الدنيا .

(١٤) تكأكأ القوم : ازدحموا وتجمّعوا – جِنّة : جنون – افرنقعوا : تفرّقوا وتحوّلوا وانكشفوا .

(١٥) يوسى : يداوى ويصلح – الأساة : الأطباء ، جمع : آسٍ – الرأب : الإصلاح – دردبيس وقنطر : كلاهما بمعنى الداهية .

(١٦) قَدْكَ بمعنى حسبك – أربيت : زدت – الغلواء : الإفراط ومجاوزة الحدّ .

(١٧) شحا فمه : فتحه – جحافل الخيل : أفواهها – الجراف : الرجل الذى يأتى على الطعام كله – الهبلع : الأكول ، العظيم اللقم الواسع الحنجور .

وقال الاخر :

غَرْبًا جَرورًا وجُلالا خُزْخُز(١٨)

وقال غيره فى صفة اللبن :

وآخِذ طَعْم السِّقاء سامط وخاثر عُجُلَّط عُكالط (١٩)

وقول الاخر :

يأكلن من قُرّاص وحَمَّصيص واص (٢٠)

وفى هذه الألفاظ ماجمع الصفتين معًا على ما ذكرناه ، وقد روى أن أبا العتاهية قال لمحمد بن مناذر : إن كنت أردت بشعرك شعر العَجَّاج ورؤبة فما صنعت شيئًا ، وإن كنت أردت أهل زمانك فما أخذت مأخذنا ، أرأيت قولك : « ومن عاداك لاقى المرمريسا » أى شىء المرمريس (٢١) ؟ ولهذا كله اعتمد الحذاق من الشعراء على اختيار أسماء المنازل والنساء فى الغزل وتجنبوا ما لا يحسن لفظه للشروط التى ذكرناها وعابوا قول جرير بن عطية :

وتقول بَوْزَعُ قد دببْتَ على العصا هَلّا هَزِئْتَ بغيرِنا يا بَوْزع

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك قال له : « أفسدت شعرك ببوزع » ، وهجّنوا اتباع الخليل بن أحمد له فى هذا الاسم حين قال :

أمّ البنين وأسماء والرّباب وبوزع

(١٨) جُلال : جليل عظيم - بعير خزخز أى قوى شديد - ويسبق هذا البيت قول الراجز :
أعددْتُ للوِرْد إذا الوِرْدُ حَفَزْ

(١٩) السامط : اللبن الذى ذهبت عنه حلاوة الحلب ولم يتغير طعمه - العُجالط والعكالط : كلاهما بمعنى اللبن الطيب الخاثر غير الرقيق .

(٢٠) القارص : الحامض من ألبان الإبل خاصة - الحمّصيص : بقلة طيبة الطعم تُؤكل - الواصى : النبت المتصل.

(٢١) المرمريس : الداهية .

واستقبحوا قول أبى تمام :

يقول أناسٌ فى حَبِيناء عاينوا عِمارةَ رَحْلى مِن طَرِيفٍ وتَالِدِ(٢٢)

وقالوا : ما الفائدة فى ذكر « حَبِيناء » ، وليس أبو تمَّام مضطرًا إلى ذكر الموضع الذى قيل له فيه هذا ، وقد ذكروا أن الفرزدق أنكر على مالك بن أسماء بن خارجة وقد أنشده :

حبَّذا ليلتى بتَلِّ يُونَّى

وقال أفسدت شعرك بذكر « يونّى » ، قال له : « ففى يونى كان ذلك » ، قال : « وإن كان » وأما قول أبى عبادة البحترى :

وأنا الشجاعُ وقد رأيت مواقفى بعَقْرَقَسٍ والمشْرَفِيّة شُهَّدى(٢٣)

فله فى ذكر « عقرقس » عذر واضح ، لأنه الموضع الذى شاهد الممدوح به قتاله ، وليس يحسن أن يذكر موضعاً غيره ولم يحمد فيه ، وهذا ليس بموجب حسن اللفظة ، ولكنه يبسط عذر ناظمها حسبُ ، ومن هذه الألفاظ المذكورة قول عنترة :

شَرِبَتْ بماء الدحرُضَيْن فأصبحت زَوْرَاءَ تَنْفِر عن حِياض الدَّيْلَم(٢٤)

ولعل عنترة أراد ذكر الماء المشروب على الحقيقة ، وإلا لو أمكنه أن يذكر اسم مورد من الموارد الذى يجرى هذا المجرى كان أحسن وأليق ، وأمّا قول الكميت :

وأدنين البرود على خُدود يُزَيّنَّ الفداغم بالأسيل(٢٥)

فإن « الفداغم » كلمة رديئة كما ترى .

---

(٢٢) حَبِيناء : بلد بالشام .

(٢٣) عقرقس : وادٍ فى بلاد الروم .

(٢٤) الدحرضين والديلم : من الأمكنة - زوراء : مائلة .

(٢٥) الفدغم : الحسن الممتلىء التام الجمال - البرّود : كل ما بَرّد به شىء كالشراب والكحل تبرُد به الخدّ - الأسيل : السهل اللين المسترسل .

ومن الوحشىّ قول امرىء القيس بن حجر :

وسِنّ كسُنَّيْقٍ سَناءً وسُنّمًا

فإن هذا على ما ذكر لم يعرفه الأصمعى ولا أبو عمرو ، وقال : هو بيت مسجدىٌّ يريد من عمل أهل المسجد . وقال غيرهما « سُنيق » جبلٌ و « سُنمٌ » هى البقرة ، فأما « السِنُّ » فالثور ، ومن هذا أيضًا قول العَجّاج :

وفاحمًا ومَرْسِنًا مُسَرَّجًا

فإن « المرسن » الأنف ، و « المسرج » لا يعرف ، حتى خُرِّج له أنه أراد بالمسرج « المحدّد » ، من قولهم للسيوف « السريجيّات » منسوبة إلى قَيْن [٢٦] يعرف بسُريج ، وهذا القصد على ما تراه وحشى غريب .

وما زال أهل العلم بالشعر يكرهون قول ذى الرمة :

عَصَا عَيْسَطُوسٍ لِينها واعْتدالها

وفى عيسطوس ضروب من العيوب المذكورة ، وقيل إنه الخيزران ، وقد كان يمكن ذا الرُّمَّة أن يقول : « عصا خيزران » ، وإن كان هؤلاء الشعراء أرادوا الإغراب حتى يتساوى فى الجهل بكلامهم العامة وأكثر الخاصة ، فما أقبح ما وقع لهم ، وقد رأيت أنا جماعة يتعمّدون هذا فقلت لهم : « إن سررتم بمعرفتكم وحشىّ اللغة فيجب أن تغتمّوا بسوء حظكم من البلاغة » . وجرى بين أصحابنا فى بعض الأيام ذكر شيخنا أبى العلاء بن سليمان ، فوصفه واصف من الجماعة بالفصاحة واستدل على ذلك بأن كلامه غير مفهوم لكثير من الأدباء ، فعجبنا من دليله وإن كنا لم نخالفه فى المذهب وقلت له : « إن كانت الفصاحة عندك بالألفاظ التى يتعذر فهمها فقد عدلت عن الأصل ، أولا فى المقصود بالفصاحة التى هى البيان والظهور ، ووجب عندك أن يكون الأخرس أفصح من المتكلم ، لأن الفهم من

---

(٢٦) القين : الحدّاد .

إشـارتـه بعيـد عسيـر . وأنت تقول كلما كان أغمض وأخفى كان أبلـغ وأفصح » . وعارضه أبو العلاء صاعد بـن عيسى الكاتب وقال : « صدقت إننا لانفهـم عنه كثيرًا مما يقول ، إلا أن على قيـاس قولك يجب أن يكـون ;ميمون الزنجي الذى نعرفـه أفصح من أبى العـلاء ، لأنه يقول مالانفهمه نحن ولا أبو العلاء أيضًا » ! فأمسك .

وأنا أكره من قول كُثَيِّر بن عبد الرحمن صاحب عزَّة :

وما رَوْضَةٌ بالحَزْن طيبة الثرى ... يَمُجُّ النّدى جثجاثها وعرارها (٢٧)

ذكر « الجثجاث » لأنـه اسـمٌ غير مختار ، ولو أمكنه ذكر غيره كـان عندى أليق وأوفق ، ولا أحبُّ أيضًا تسمية أبى تمام صاحبه « علاثة » ونداءه بالترخيم فى قوله :

قِفْ بالطُّلُول الدارِسات علاثا ... أضْحَتْ حبالُ قَطينِهِنَّ رِثاثا (٢٨)

وإن كان الرَّوِىّ قاده إلى ذلك ، فليت شعرى مَن حظر عليه القوافي واقتصر به على الثآء دون غيرها من الحروف ! وليـس يؤثر منه إلّا الشعر الحسن على أقرب الـوجوه وأسهل السبل ، دون ما يتكلّف المشقّة فى نظمه والعناء فى تأليفه ، وليـس يغفر للشاعر لأجل ما يلزم به نفسه ذنب ولا يغفـل لـه عن خطـأ إذ كان حظر المباح ، وحـرم الحلال ، واعتمد تكلـف النَّصَب طوعًـا ، واختيارًا ، وهـوًى ، وقصدًا . لكنـه لعمرى إذا أتانـا بالسليـم من الـزلل ، البعيـد من التكلُّف والخطل ، وكـان كذلك فى مـأخذ صعب ومسلك وعـرٍ ، حمدناه الحمد الكـامل ، ووصفناه الوصف التام .

ومن الألفاظ التى ذكرناها قول أبى عبادة البحترى :

فلا وَصْلَ إلّا أنْ يُطيفَ خيالُها ... بنا تحتَ جُؤْشُوشٍ من الليل مُظْلمِ (٢٩)

---

(٢٧) الحَزْن : موضع معروف كانت ترعى فيه إبل الملوك - الجثجاث : شجر أصفر مرّ طيب الريح ، يكثر ذكره فى أشعار العرب - العرار : نبت طيب الريح ، وهو النرجس البرىّ .

(٢٨) الطلول الدارسات : بقايا الديار التى ذهبت وبليت وتقادم عهدها - القطين : أهـل الدار - الرثاث : جمع رثّ وهو البالى الردىء .

(٢٩) يقال : مضى من الليل جؤشوش أى صَدْر أو قطعة منه .

فليس بقبح « جؤشوش » خفاء ، هذا على أنني لـم أعرف شاعرًا قديمًا ولا حديثًا أحسن سبكا من أبى عبادة ، ولا أحذق فى اختيار الألفاظ وتهـذيب المعانى ، ومن ذلـك أيضًا قول أبى تمام :

صَهْصَلِــقٌ فــى الصَّهِيــلِ تَحْسِبــه ... أُشْــرِجَ حُلْقُــومُــه علــى جَــرَسِ (٣٠)

وقول القطامى :

إلــى حَيْزَبــونٍ تُــوقِــدُ النــارَ بعــد مــا ... تَصَــوَّبَــتِ الجــوزاءُ قَصْـدَ المغــارب (٣١)

فهل تعـرف أوعر من « صهصلـق » أو « حيزبون » ، وعلـى كل حـال فالبدوى صـاحب الطبـع فى هـذا الفن أعـذر مـن القروىّ المتكلّـف ، لأن هـذا لا يعرف هـذه إلا بعد البحـث والطلب وتجشّم العناء فى التصفح ، وعلى قدر ذلك يجب لومه والإنكار عليه .

والرابع : أن تكون الكلمـة غير ساقطة عـامية كما قـال أبو عثمان أيضا ، ومثـال الكلمة العامية قول أبى تمام :

جَلَّيْــتَ والمــوت مُبْــدٍ حُــرَّ صَفْحَتــه ... وقــد تَفَــرْعَــنَ فــى أفعــالــه الأَجَــلُ (٣٢)

فإن « تفرعن » مشتقٌ من اسم فرعون ، وهو من ألفاظ العامة ، وعادتهم أن يقولوا : تفرعن فلان ، إذا وصفوه بالجبريَّة ، ومنه قول أبى نصر عبد العزيز بن نباتة :

أقــام قــوامُ الــدِّيــن زَيْــغَ قنــاتِــه ... وأَنْضَــجَ كَــيَّ الجُــرْحِ وَهْــو فَطيــرُ (٣٣)

---

(٣٠) صَهْصَلِق : شديد الصوت – أشرج : شدّ – يزيد أنه مع شدة صوته طيّب الصهيل ، وهذا مستحبّ ، لأن دالّ على سعة جوفه .

(٣١) الحيزبون : العجوز من النساء – تصوّبت بمعنى انحدرت – الجوزاء : أحد بروج السماء .

(٣٢) صفحة الموت : جانبه – يقال : أبدى له صفحته إذا أمكنه من نفسه .

(٣٣) قوام الدين : نظامه وعماده – الزيغ : الميل عن القصد – الفطير : كلّ ما أُعْجِل به قبل نضجه .

فتأمل لفظة « فطير » تجدها عامية مبتذلة ، وإن كانت لعمرى قد وقعت هُنا موقعًا لو كانت فصيحة هجنها ، وأذهب طلاوتها . كيف وهى على ما تراه ، فأما قول أبى الطيب المتنبى :

إنّى على شَغَفى بما فى خُمْرِها ... لأَعِفُّ عَمَّا فى سَراويلاتها (٣٤)

فلا شىء أقبح من ذكر« السراويلات » وما أعرف كناية أشهد الله أن التصريح أجمل منها ، ووصف عفّةِ سلوك الريب والنهم ، أحسن من التلفظ بها ، إلّا كناية أبى الطيب هذه ونعته عفافه هذا النعت .

ومن الألفاظ العامية أيضًا قوله :

خَلُوقيَّةٌ ، فى خَلُوقِيِّها ... سُوَيْداء مِن عِنَبِ الثَّعْلَبِ (٣٥)

فإن عنب الثعلب مما أقول إن العامة لو نظمت شعرًا لترفّعت عن ذكره .

وليس إيرادى هذه الأمثلة على جهة الطعن على هؤلاء الشعراء الفضلاء والغض منهم ، وكيف يكون ذلك وسأورد من غرائبهم وبدائع كلامهم ما يعلم معه أننا تحت تقصير عن شأوهم ، ويقع العجز عن إدراك القريب من غاياتهم . لكنى إذا احتجت إلى إيراد الأمثلة فى المختار والمنبوذ ، والمحمود والمذموم ، فلا مَعْدِلَ لى عن أشعارهم وتصفّح نظمهم ، وأخذ ما أريده منها وإيراده عنها فى الصنفين معًا .

ومن الألفاظ العامية أيضا قول أبى تمام فى رواية أبى القاسم :

لو كان كَلَّفها عُبَيْدٌ حاجةً ... يَوْمًا لزنَّى شَدْقمًا وجَدِيلا (٣٦)

---

(٣٤) الخمْر : جمع خمار وهو ما تغطى به المرأة رأسها - السراويلات جمع سراويل ، فارسىّ معرّب ، وهو اللباس الذى يستر النصف الأسفل من الجسم .

(٣٥) خلوقيّة : نسبة إلى الخَلُوق وهو ضرب من الطيب أصفر اللون - يقول فى وصف طائر الباز : مقلته صفراء مثل لون الخلوق يتوسط صفرتها إنسان - إنسان عين - أسود كأنه الحبّة الصغيرة من عنب الثعلب .

(٣٦) شدقم وجديل : فحلان من فحول العرب النجيبة المذكورة لما يرى من سرعتها - عُبَيْد : بيطار كان يعالج الإبل - والمعنى : لو ركبها عبيد لحقّر هذين الفحلين .

« فزنّى » فى القبح يوفى على كلِّ قبيح ، فأما قول زهير بن أبى سلمى فى قصيدته المختارة :

وأقْسَمْتُ جَهْدًا بالمنازِل مِن مِنًى   وما سحقتْ فيه المقادمُ والقُمَّل [37]

فإن « القُمَّل » من الألفاظ التى تجرى هذا المجرى ، وقول أبى تمام :

قَدْ قلتُ لما لَجَّ فى صَدِّه   اعطفْ على عَبْدِك يا قابرى [38]

غاية فى السخافة ! لأن « قابرى » من ألفاظ عوام النساء وأشباههن . وليس لأحد أن يتخيل أن العذر فى إيراد هذه الألفاظ وأمثالها تعذر ما يقع موقعها فى النظم كما يظن ذلك بعض المتخلّفين فى هذه الصناعة ، وذلك أنه ليس يجب على الإنسان أمن يكون شاعرًا ولا كاتبًا ولا صاحب كلام يؤثر ولفظ يروى ، ولا يجب عليه لو وجب هذا أن ينظم تلك القصيدة التى وردت فيها هذه اللفظة ولا البيت من القصيدة ، فكيف نعذره إذا أورد لفظة قبيحة جارية مجرى ما ذكرناه ، وهو قادر على حذف البيت كله واطّراح ذكر جميعه إن لم يكن قادرًا على تبديل كلمة منه .

ونعود إلى ذكر الألفاظ العاميَّة ، ونقول من الأمثلة قول أبى نصر بن نباتة :

فقد رَفَعَتْ أبصارَها كلُّ بلدةٍ   من الشوق حتى أوْجَعَتْها الأخادع [39]

فإن « أوجعتها » من أشد ألفاظ العامة ابتذالا ، وإن كانت « الأخادعُ » قبيحة ، ومنها قول أبى تمام :

لِيَزِدْكَ وَجْدًا بالسَّماحَةِ ما ترى   مِن كِيمَياء المجدِ تَغْنَ وتَغْنَم [40]

(٣٧) القُمَّل : دُوَيبَّة من جنس القردان تركب البعير عند الهزال ، أو شىء يقع فى الزرع ليس بجراد ، يأكل السنابل وهى غضّة .
(٣٨) القابر : الدافن .
(٣٩) الأخادع : جمع الأخدَع ، وهو العِرْق فى العنق .
(٤٠) كيمياء كلّ شىء : جوهره - يقول : ازدد من السماحة والبذل لما ترى من تمام ، وواظبْ عليه لتغنم مما تريد منه .

و « كيمياء » من ألفاظ العوامّ المبتذلة وليست من ألفاظ الخاصة ولا يحسن نظم مثلها ، وكذلك أيضا قول أبى الطيب المتنبى :

تَسْتَغْرِقُ الكَفُّ فَوْدَيهِ ومَنْكِبهِ وتَكْتَسِى منه رِيحَ الجَوْرَبِ الخلِقِ (٤١)

و « الجورب » مما يكره إيراد مثله لما ذكرته. وأمثال هذا كله فى الأشعار المطّرحة كثيرٌ، ولو تأملت قصيدة واحدة من شعر من يدعى القريض فى هذا العصر وجدت فيها عدّة أمثلة لكل ما أكرهه وأنكره ، إلّا أنى أعتمد على التمثيل بأشعار هؤلاء الفحول المتقدمين فى هذه الصناعة لأمور: أوّلها صيانة هذا الكتاب عن تهجينه بذكر غيرهم ، وثانيها أنّ اللفظة التى تكره فى نظم هؤلاء الحذّاق تقع فريدة وحيدة يظهر مباينتها لكلامهم ، فالعلم بها واضحٌ وكشفها جلىٌّ، وقد قال حبيب بن أوْس :

وَكَذَاكَ لم تُفْرِطْ كآبَةُ عاطِلٍ حتى يُجَاوِرَها الزَّمانُ بحالِ

وقال غيره قبله :

الجهلُ فى الجاهلِ المغمور مغمورُ والعيبُ فى الكامل المذكور مذكورُ

كفوفةِ الظُّفْرِ تُخْفى من مَهانته وبعضُها فى سواد العينِ مشهور (٤٢)

وليس مكانها فى أشعار غيرهم كذلك ، بل هى منظومة مع غيرها فى القبح وأشكالها ، وثالثها إيثارى أن أعلمك أن مقدمى الفصاحة سامحوا نفوسهم،وأصبحوا فى طاعة أهوائهم، ليتحقق أنَّ الزلل فى طباع البشر موجود ، والعصمة عن أكثرهم بائنة ، هذا على مالى فى طلب ذلك من الكلفة والنّصب ، إذ كان قليلا فى كلامهم مغمورًا بمحاسنهم ، وكنت أفتقر إلى تأمل الديوان الكامل حتى أظفر منه بالكلمات اليسيرة فأوردها مثالا .

---

(٤١) الفودان : جانبا الرأس - الجورب هو « الشراب » الذى توضع فيه الرجل من قطن أو صوف أو حرير - الخلق : البالى - يصف الشاعر مهجوه بأنه حقير قصير العنق ، فإذا صُفع استغرقت أكف الصافعين هذه المواضع من جسمه ، فتكتسى أكفّهم نتنًا منه لنتن رائحته .

(٤٢) الفوفة : البياض الذى يكون فى أظفار الأحداث .

فأما اقتصارى فى أكثر ما أمثل به على المنظوم دون المنثور، مع أن كلامى عليهما واحدٌ، فإنما أقصد ذلك لكثرة المنظوم واشتهاره، ورغبتى فى أن يسهل الوزن عليك حفظ ما أذكره، فإنه داع قوى، وسبب وكيد.

والخامس: أن تكون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح غير شاذة، ويدخل فى هذا القسم كل ما ينكره أهل اللغة، ويردّه علماء النحو من التصرّف الفاسد فى الكلمة، وقد يكون ذلك لأجل أن اللفظة بعينها غير عربية، كما أنكروا على أبى الشيص قوله:

وجناحِ مَقْصوصٍ تَحَيَّفَ ريشَه ... رَيْبُ الزَّمانِ تحيُّفَ المِقراض (٤٣)

وقالوا ليس «المقراض» من كلام العرب، وتبعه أبو عبادة فقال:

وأَبَتْ تَرْكِيَ الغُدَيَّاتُ والآ ... صالُ حتى خضبتُ بالمقراض (٤٤)

فعابوه عليهما معًا، وقد تكون الكلمة عربية إلا أنها قد عُبِّر بها عن غير ما وضعت له فى عرف اللغة، كما قال أبو تمام:

حلَّتْ مَحلَّ البحرِ مِن مُنْطَى وقد ... زُفَّتْ من المُعْطى زِفافَ الأَيِّم (٤٥)

وقال أبو عبادة:

تَشُقُّ عليه الريحُ كلَّ عَشِيَّةٍ ... جُيُوبَ الغمامِ بين بِكْرٍ وأَيِّمِ

فوضع «الأيم» مكان الثيّب وليس الأمر كذلك. ليس الأيمّ الثيّب فى كلام العرب، إنما الأيم التى لا زوج لها، بكرًا كانت أو ثيبًا، قال الله عز وجل «وأنكِحوا الأيامى منكم

---

(٤٣) تحيّفه: تنقّصه وأخذ من حافاته - ريب الزمان: نوائبه - المقراض: المقصّ، وهو ما يُقرَض أى يقطع به الثوب أو غيره.

(٤٣) الغداة: الوقت ما بين الفجر وطلوع الشمس - الأصيل: حين تصفرّ الشمس لمغربها.

(٤٥) المعنى أن هذه الصنيعة سرّته كما يُسَرّ المتزوج بالبكر، إذا تزوّجها فى يسر وكأنها امرأة قد مات زوجها فليس يتصعّب فى زواجها كما يتصعّب فى زواج البكر.

والصَّالحين من عبادِكم وإمائكم» (٤٦) ، وليس مراده تعالى نكاح الثيّبات من النساء دون الأبكار، وإنما يريد النساء اللواتى لا أزواج لهن ، وقال الشَّمَّاخ بن ضِرار :

يَقَــرُّ بعينــى أنْ أحــدِّثَ أنهــا - وإنْ لــم أنلْهــا - أيِّــمٌ لــم تــزوَّج

وليس يسرّه أن تكون ثيبًا ، وقد حُكى أن بعض كبار الفقهاء ، وهو محمد بن إدريس الشافعى ، غلط فى ذلك والصحيح ما ذكرناه .

ومثال هذا أيضا قول أبى تمام :

مــا مُقْــرَبٌ يختــالُ فــى أشْطــانــه مَــلآنُ مِــن صَلَــفٍ بــه وتَلَهْــوُقِ (٤٧)

يريد بالصَّلف هنا الكِبر والتِّيه ، وهذا مذهب العامة فى استعمال هذه اللفظة ، وأما العرب فتقول : صَلِفت المرأة عند زوجها إذا لم تحظ عنده ، وصَلِف الرجل أيضًا كذلك إذا كرهته ، قال جرير :

إنّــى أُواصِــلُ مــن أردْتُ وِصــالَــه بحبــالِ لاصَلِــفٍ ولالَــوَّامِ

والصلِف الذى لا خير عنده ، ومن أمثالهم : « رُبَّ صَلَفٍ تحتَ الراعِدة » (٤٨) ، ومن ذلك أيضا قول أبى عبادة :

شَــرْطِــىَ الإنصــافُ إنْ قيــل اشتــرطْ وصَــديقــى مَــن إذا صَــافــى قَسَــطْ

وأراد « بقَسَط » عدل ، لأن الأمر عليه وليس الأمر كذلك وإنما يقال أقسط : إذا عدل ، وقسط : إذا جار ، قال الله تعالى : « وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حَطَبًا » (٤٩) وقد يكون ما ذكرناه على جهة الحذف من الكلمة كما قال رؤبة بن العَجّاج :

قَواطِنًا مكّةَ من وُرْق الحما (٥٠)

---

(٤٦) سورة النور ٣٢

(٤٧) المُقْرَب : الفرس التى تُكرم ، فيُقرّب مربطها ومعلفها - التلهوق بمعنى المبالغة فى الأشياء أو التكلّف لأكثر ما يمكن .

(٤٨) الصَّلَف : قلّة الخير - الراعدة : السحابة ذات الرعد - والمثل يضرب للبخيل مع سعته وكثرة ما له .

(٤٩) سورة الجن ١٥

(٥٠) الورق : الحمام ، واحدته ورقاء .

يريد « الحمام » ، كقول خفاف بن ندبة :

كنَـواحِ ريــشِ حمــامــةٍ نَجْــديَّــةٍ ... ومسخــت بــاللثتيْــن عَضْــفَ الإثمــد

يُريد : « كنواحى » ، وكما قال غيره [هو مضرس بن ربعى] :

وطِــرْتُ بمُنْصُلــى فــى يَعْمُــلاتٍ ... دوامــى الأيــدِ يَخْبِطْــنَ السَّــريحــا

والوجه : « الأيدى » ، ومن ذلك قول النجاشى :

فلســتُ بــآتيــهِ ولاأستطيعُــه ... ولاكِ اسقنــى إنْ كــانَ مــاؤكَ ذا فضــلِ

أراد : « ولكن اسقنى » ، وقال الآخر :

أو مُعْــبَرُ الظَّهــرِ يُنْبِــى عــن وليَّتــه ... مــا حــجَّ ربــهُ فــى الــدنيــا ولااعتمــرا (٥١)

يُريد « ما حجَّ ربّه » ، وقال مالك بن حرَيم الهمدانىّ :

فــإنْ يــكُ غثّــا أو سمينًــا فــإنــى ... ســأجعــلُ عينيــه لنفســهَ مقْنَعــا

يريد « لنفسه » ، وقال أبو الطيب المتنبّى :

تَعَثَّرَتْ بــه فــى الأفْــواهِ ألْسُنُهــا ... والبُــرْدُ فــى الطُّــرْقِ والأقْــلام فــى الكُتُــب (٥٢)

وقد يكون علـى وجـه الزيـادة فى الكلمـة مثل أن يشبع الحركة فيها فتصير حرفا ، كما قال :

وأنــتَ علــى الغَــوايــةِ حيــن تُــرْمَــى ... وعــن عيــبِ الــرجــالِ بمُنْتَــزاح (٥٣)

---

(٥١) المُعْبَر من الشاء أو الإبل : كثير الصوف أو الوبر .

(٥٢) لم يلحق الياء فى « به » بالهاء ، واكتفى بالكسرة ضرورة - البُرْد : جمع بريد - يقول : تلجلجت الألسن فى الأفواه بهذا الخبر المحزن ، وتعثرت الرّسل الحاملة له فى الطرق ، ورجفت أيدى الكتاب فى كتابته .

(٥٣) أشبع الشاعر فتحة الزاى فتولّدت الألف ، يقال : أنت بمتزح من كذا أى بيعد منه .

أى « بمنتزح » ، وقال غيره :

وإنَّنى حيثُ ما يسرِى الهوى بَصَرى … من حيثُ ما نَظَرُوا أدْنُو فأنْظُورُ(٥٤)

يريد « أدنو فأنظر » ، وقال الآخر :

تَنْفِى يَداها الحَصَا فى كلِّ هاجِرَةٍ … نَفْىَ الدَّراهِيمِ تَنْقادُ الصياريفِ(٥٥)

يريد « الدراهم والصيّارف » .

وقد يكون إيراد الكلمة على الوجه الشاذّ القليل ، وهو أردأ اللغات فيها لشذوذه ، والكثير أبدًا خفيف ، كما يقول النحويّون فى خفة الأسماء لكثرتها ، ومن هذا قول البُحترىّ :

مُتَحَيِّرون فباهتٌ مُتَعَجِّبٌ … ممَّا يَرى أو ناظِرٌ مُتَأمِّلُ

فقوله « باهت » لغة رديئةٌ شاذَّة ، والعربى المستعمل : « بُهِت الرّجل يُبْهَت فهو مبهوت » ، ومنه قول المتنبى :

وإذا الفَتَى طَرَحَ الكَلَامَ مُعَرِّضًا … فى مَجْلِسٍ أَخَذَ الكَلَامَ اللَّذعَنَا(٥٦)

فإنَّ « اللَّذ » ، فى « الذى » ، لغة شاذة قليلة ، ومنه قوله أيضا :

أَيَفْطِمُه التَّوْرابُ قبلَ فِطامِه … ويأكُلُه قبلَ البلوغ إلى الأكلِ

« فالتوراب » لغة فى التراب شاذة غير كثيرة ، وقد يكون لأن الكلمة بخلاف الصِّيغة فى الجمعَ أو غيره ، كما قال الطِّرِمّاح :

وأكْرَه أنْ يَعِيبَ علىَّ قَوْمى … هِجاىَ الأرْذَلِين ذوى الحناتِ

---

(٥٤) أشبع الشاعر ضمه الظاء ، فتولّدت الواو .

(٥٥) الصيارف : جمع الصيرفىّ وهو النقّاد – وقد احتاج الشاعر إلى تمام الوزن فأشبع كسرة الهاء وكسرة الراء من الكلمتين : « الدراهم » و « الصيارف » .

(٥٦) اللّذعنا : يريد « الذى عناه » .

فجمع « إحنة » على غير الجمع الصحيح ، لأنها : إحنةٌ وإحنٌ ، ولا يقال : حِنات .(٥٧)

وقد روى أبو بصير أنّ عبد الملك بن قريب الأصمعيّ قال : كنا نظن أن الطِّرِمَّاح شيء حتى سمعنا قوله هذا البيت ، وكما قال الآخر :

من نَسْجِ دَاوُدَ أبي سلام

يريد أبا سليمان :

ومن هذا الفصل أيضا أن يبدل حرف من حروف الكلمة بغيره كما قال الشاعر [هو رجل من بني يشكر] :

لهـا أشـاريـرُ مِـن لَحْـمٍ مُتَمَّـرَةٍ مِـن الثَّعـالـي ووَخْـزٌ مـن أرانيهـا

يريد : من الثعالب وأرانبها ، وقال الآخر :

وَمَنْهَـلٍ ليـس لـه حَـوازِقُ ولضفـادِي جَمِّـه نَقـانِـقُ(٥٨)

يريد : « ولضفادع » .

ومنه أيضا إظهار التضعيف في الكلمة مثل قول الشاعر : [هو قعنب بن أم صاحب].

مَهْـلًا أعـاذِلَ قـد جَـرَّبْـتِ مِـن خُلُقـي أنـي أَجُـودُ لأَقْـوامٍ وإنْ ضَنِنُـوا(٦٠)

---

(٥٧) الإحنة : الحقد ، وجمعه إحَن وإحْنات ، أمّا حنات - جمع حنة - فلغة قليلة وقال بعضهم إنها ليست من لغة العرب .

(٥٨) يصف الشاعر فرخة عقاب شبّه راحلته بها - الأشارير : جمع إشرارة وهي القطعة من القديد - المتمّرة : المجفّفة - الثعالي : الثعالب - الوخز : القليل أو الشيء بعد الشيء .

(٥٩) المنهل : الموضع الذي فيه المشرب - الحِزْقة : الجماعة ، وربما قالوا « حازقة » وجمعها : حوازق - جمّه يعني به ماءه ، يقال : جمّ الماءُ أي تركه ليجتمع ، وجمّت البئر : تراجع ماؤها بعد الأخذ منها - النقانق : جمع النقنقة وهو صوت الضفادع إذا ضوعف .

(٦٠) ضَنّ : بخل وأمسك .

وأما صرف ما لا ينصرف كقول حسان بن ثابت :

وجِبْريلٌ أمينُ اللهِ فينا ... وروحُ القُدْسِ ليسَ لهُ كفاءُ

ومنع الصرف مما ينصرف كما أنشدوا قول العبّاس بن مرداس :

وما كانَ حِصْنٌ ولا حابِسٌ ... يَفُوقانِ مِرْداسَ فى مَجْمعِ (٦١)

وكما قال البُحتريُّ :

هَزِجُ الصَّهيلِ كأنَّ فى نَغَماتِهِ ... نَبَراتِ مَعْبَدَ فى الثَّقيلِ الأوَّلِ (٦٢)

فمنعا الصرف عن « مرداس » و « معبدِ » .

وقصر الممدود كقول الآخر :

والقارحِ العدَا وكُلّ طِمِرَّةٍ ... ما إن تنال يدُ الطويلِ قَذالَها (٦٣)

ومدّ المقصور على ما روى بعضهم :

سيغنيني الذى أغناك عنّى ... فلا فَقْرٌ يَدُومُ ولا غِناء (٦٤)

وحذف الإعراب للضرورة مثل قول امرىء القيس بن حجر :

فاليَوْمَ أَشْرَبْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إثْماً منَ اللهِ ولا وَاغِلِ (٦٥)

---

(٦١) منع الشاعر « مرداس » من التنوين ، وجعل بعضهم ذلك من ضرورة الشعر وأنكره آخرون ولم يجوّزوه .

(٦٢) معبد : من أئمة الغناء فى العصر الأمويّ - الثقيل الأول : ثلاث نقرات متتالية ثقال فى الإيقاعات الموسيقية العربية.

(٦٣) العَدَا : أراد « العداء » أى الشديد الجرى ، فقصر الممدود - القارح : الفرس إذا انتهت أسنانه ، وإنما تنتهى فى خمس سنين - الطِمِرّة : المشرفة الطويلة القوائم - القذال : جماع مؤخرّ الرأس من الفرس .

(٦٤) يعنى أن « غِناء » بكسر الغين ممدود « الغِنى » وهو كثرة المال .

(٦٥) يعنى أنه حذف الضمة من باء فى « أشرب » وجعلها ساكنة - المستحقب : الجامع المحتمل - الواغل : الداخل على القوم فى طعامهم أو شرابهم غير مدعوّ إليه .

وتأنيث المذكر على بعض التأويل كقول الشاعر :

وتَشْرَقُ بالقَوْلِ الذى قد أذَعْتَه كما شَرِقَتْ صَدْرُ القناةِ من الدم (٦٦)

وتذكير المؤنث كما قال الآخر : [هو عامر بن جوين الطائى] :

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقها ولا أرْض أبْقَلَ إبقالها (٦٧)

فإن هذا وأشباهه وما يجرى مجراه ، وإن لم يؤثر فى فصاحة الكلمة كبير تأثير ، فإننى أوثر صيانتها عنه ، لأن الفصاحة تنبىء عن اختيار الكلمة وحسنها وطلاوتها . ولها من هذه الأمور صفة نقص فيجب اطراحه . على أن ما ذكرته يختلف قبحه فى بعض المواضع دون بعض على قدر التأويل فيه وحكمه ، فأما إدخال الألف واللام على الفعل فى نحو قول الشاعر :

يَقُولُ الخَنا وَأبْغَضُ العُجْمِ ناطِقًا إلى رَبِّنا صَوْتُ الحمار اليُجَدَّعُ

وتشديد الكلمة المخففة مثل قول الشاعر :

كَأنَّ مَهْواها عَلَى الكَلْكَلِّ (٦٩)

وقول الآخر : [هو رؤبة] :

ضَخْمٌ يحبُّ الخُلُقَ الأَضْخَمَّا (٧٠)

وتحريك الياء التى تقع قبلها كسرة فى الرفع والجرّ مثل قول الشاعر :

ما إن رأيت ولا أرى فى مدّتى كجوارى يلعبن فى الصّحراء

---

(٦٦) الصدر مفرد الصدور، وهو مذكّر، وقد أنّثه الأعشى فى قوله « شرقت » .

(٦٧) كلمة « الأرض » مؤنث ، وقد ذكّرها الشاعر ، ولعله أراد بها الموضع أو المكان - المزنة : السحابة تحمل الماء - الودق : المطر - أبقل : أنبت البقل .

(٦٨) الخنا : الفحش - اليُجَدَّع أراد الذى يُجَدّع أى تُقطع أذنه .

(٦٩) الكلكل : الصدر، وربما جاء فى ضرورة الشعر مشدّدا .

(٧٠) الضخم : الغليظ من كلّ شىء ، وقد وقف الراجز على « الأضخمّ » بالتشديد كلغة من قال : « رأيت الحجرّ » .

فإنّ هذا كُلّهُ داخلٌ فى باب الزيادة التى ذكرناها وأشرنا إليها ، وهى مكروهة على ما تقدم .

والسادسُ : أن لا تكون الكلمة قد عُبِّر بها عن أمرٍ آخر يكره ذكره ، فإذا أوردت .، وهى غير مقصود بها ذلك المعنى ، قبحت وإن كملت فيها الصفات التى بيَّنّاها ، ومثال هذا قول عروة بن الورد العبسىّ :

قلتُ لقومٍ فى الكنيف تَروَّحوا عَشِيَّةَ بِتْنا عندَ ماوانَ رُزَّح (٧١)

والكنيف أصله الساتر، ومنه قيل للتُّرس كنيف ، غير أنه قد استعمل فى الآبار التى تستر الحَدَث وشهرتها . فأنا أكرهه في شعر عروة ، وإن كان ورد موردا صحيحًا لموافقة هذا العرف الطارىء . على أن لعروة عُذْرًا وهو جواز أن يكون هذا الاستعمال حدث بعده . بل لا أشك أنه كذلك لأن العرب أهل الوبر لم يكونوا يعرفون هذه الآبار، فهو وإن كان معذورًا وغير ملومٍ فبيته ممَّا يصح التمثيل به .

ومنه عندى قول الشريف الرضى رحمه الله :

اعْزِزْ علىَّ بأن أراك وقد خَلَتْ من جانبيك مقاعدُ العُوَّاد (٧٢)

فإيراد « مقاعد » فى هذا البيت صحيح ، لأنه موافق لما يكره ذكره فى مثل هذا الشأن ، لاسيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليهم وهم العُوّاد ، ولو انفرد كان الأمر فيه سهلا ، فأما إضافته إلى ما ذكره ففيها قبح لاخفاء به ، ومن هذا النحو قول أبى تمام :

مُتَفَجِّرٌ نادمتهُ فكأنَّنى للدَّلْوِ أو للمِرزَمَيْن نديمُ (٧٣)

« فالدلو » هاهنا أحد البروج ولا اختاره لموافقته اسم الدلو المعروف ، وأنت تجد بأقرب تأمّل فرق ما بين قول القائل لمن يمدحه : « أنت المِرزَم جودا والجنّة لمن تقصده

(٧١) تروّح : سار فى العشِىّ – ما وان : موضع – رزّح : جمع رازح وهو الضعيف الذى ذهب ما فى يده .
(٧٢) العُوّاد : من يعودون المريض أى يزورونه .
(٧٣) المرزمان : نجمان ، هما : العَبُور والغُمَيْصاء .

الأيام عزا » وبين قوله : « أنت الدلو كرمًا والكنيف لطريد الدهر سعّة » ، والمعنيان صحيحان ، وحسن أحدهما وقبح الآخر ظاهر لا خفاء به ، ولولا ما ذكرته ونبّهت عليه لم يكن لذلك وجه ولا علة .

ومن هذا أيضًا قول أبى صخرٍ الهُذلى :

قد كان صَرْمٌ فى المماتِ لنا   فعجِلْتَ قبلَ الموتِ بالصَّرْمِ (٧٤)

وإنما أنكرت هذا لموافقته إيراد العامة هذه اللفظة على هذه الصيغة بالصاد فيما هى بالسين ، فكان إيثارى تجنبها لذلك ، فأما قول عمرو :

وكمْ من غائطٍ مِن دُونِ سَلْمى   قَليلِ الأُنْسِ ليس به كَتِيعُ (٧٥)

فجارٍ هذا المجرى ، و« الغائط » البطن من الأرض ، إلاَّ أنَّهُ يُستعمل الآن فى الحَدَث على ذلك الأصل ، فذكره قبيح على ما تقدَّم ، لكنْ عمرٌو معذورٌ كعروة ، لأنه على ما ذكر وعرف حدث . فلعلَّ عمرًا قبله .

وممَّا يوضح ما ذكرته لك وبيّنه أنك تجد « تصرّم » فى قول أبى عبادة :

تَصَرَّمَ الدهْرُ لا وَصْلٌ فيُطْمعنى   فيما لَدَيْك ولا يَأْسٌ فيُسْلِينى (٧٦)

مختارًا مرضيًا ، وكذلك « يتصرّم » فى الشعر المنسوب إلى يزيد بن معاوية وهو :

خُذُوا بنصيبٍ مِن نعيمٍ ولَذَّةٍ   فكُلٌّ وإنْ طالَ المدى يَتَصَرَّمُ

ولا يقبحان لمخالفتهما الاسم الذى ذكرته فى اللفظ ، وهو قبيح فى بيت الهذلى ، للموافقة ، لا علَّة غير ما أعلمتك به ، ومنه أيضًا قول أبى تمَّام :

وعزائمًا فى الرَّوْعِ مُعْتَصِمِيَّةً   مَيْمونةَ الإدبارِ والإقبالِ

« فالإدبار » من الألفاظ المكروهة لما ذكرته ، وكذلك قوله :

---

(٧٤) الصَّرْم : القطيعة والهجر.

(٧٥) ليس به كتيع أى ليس به أحد .

(٧٦) تصرّم : تقطّع - يسلينى : يجعلنى أسلو أى أنسى وتطيب نفسى .

يَضْحَكْـنَ مِـن أَسَـفِ الشبـابِ المـدْبِـرِ   يَبْكِيـنَ مِـن ضَحِكـاتِ شَيْـبٍ مُقْمِـرِ

لأن « المدبر » هاهُنا مثل « الإدبار » فى البيت الأول والكلمة الفصيحة غيرهما على ما بُيِّن ، ومنه قول الشريف الرضىّ رحمه الله :

سـلامٌ علـى الأطـلالِ لاعـن جَنـابـةٍ   ولكـنَّ يَـأْسًـا حيـنَ لـم يبـقَ مَطْمَـعُ

فإن « جنابةً » هُنا لفظة غير مرضيّة للوجه الذى ذكرته ، وإن كانت لولا ذلك فصيحةً مختارة لخُلوّها من العُيوب غيره .

والسابع : ممّا قدمناه أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قَبُحَت وخرجت عن وجهٍ من وجوه الفصاحة ، ومن ذلك قول أبى نصر بن نباته :

فـإِيـا كـمُ أنْ تكشِفـوا عـن رُؤوسكـم   ألا إنّ مَغْنـاطِيسَهُـنَّ الـذوائب (٧٧)

« فمغناطيسهنّ » كلمة غير مرضيّة لما ذكرته وإن كان فيها أيضًا عُيوبٌ أخر ممّا قدّمناه ، ومن هذا النوع أيضًا قول أبى تمّام :

فِـلأَذْرِبيجـانَ اختيـالٌ بَعْـدَ مـا   كانـتْ مُعَـرَّسَ عَـبْرةٍ ونَـكالِ (٧٨)

سَمُجَـتْ ونَبَّهنـا علـى اسْتِسْمـاجِهـا   مـا حَـوْلهـا مِـن نَضْـرةٍ وجمـالِ

فقوله : « فلأذربيجان » كلمة رديئةٌ لطولها وكثرة حروفها وهى غير عربيّة ولكن هذا وجه قبحها ، وكذلك قوله فى البيت الثانى : « استسماجُها » ردىءٌ لكثرة الحروف وخروج الكلمة بذلك عن المعتاد فى الألفاظ إلى الشاذ النادر، ونحو من هذا قول أبى الطيب المتنبى:

إن الـكِـرامَ بـلا كِـرامٍ منهـمُ   مِثْـلُ القُلُـوبِ بـلا سُـوَيْـداواتِهـا (٧٩)

« فسُويداواتها » كلمةٌ طويلةٌ جدًا فلذلك لا أختارها ، ومنه أيضًا قول أبى تمام :

---

(٧٧) المغنطيس : حجر يجذب الحديد - الذوائب : جمع الذؤابة وهى شعر مقدّم الرأس.

(٧٨) المعرّس : المكان ينزل فيه المسافر آخر الليل - نكال : عقاب أو نازله - سمُجت : قبحت .

(٧٩) السويداوات : جمع سويداء وهى حبّة القلب ، ومعنى البيت : إن الكرام من الخيل إذا لم يكن عليها فرسان من هؤلاء الممدوحين كالقلب دون سويداء .

أَنِلْــه بــاسْتِمــاعِكَــه مَحَــلًّا يَفُــوتُ عُلــوُّهُ الطَّــرْفَ الطَّمُــوحــا

فليس بقبح قوله : « باستماعكه » خفاءٌ لكثرة الحروف على ما ذكرناه لا غير ، وكذلك قوله أيضًا :

العِيــسُ تَعْلَــمَ أن حَــوْبــاواتِهــا رَيْــخٌ إذا بَلَغَتْــك إنْ لــم تُنْــحَــرِ (٨٠)

« وحوباواتها » كلمة طويلة ، ومنه قوله أيضًا ، « وليس فى كُل الروايات » :

وإلــى محمــدِ ابْتَعَثْــتُ قَصــائِدى ورَفَعْــتُ للمُسْتَنْشِــديــنِ لــوائى

« فالمستنشدين » كلمة كثيرة الحروف على ما تراه ، وهذا قد يُستدل به على غيره ، وإن أمثاله كثيرة .

والثامن : أن تكون الكلمة مصغرة فى موضع عُبّر بها فيه عن شىء لطيفٍ أو خفى أو قليل أو ما يجرى مجرى ذلك ، فإنى أراها تحسن به ويجب ذكره فى الأقسام المفصلة ، ولعل ذلك لموقع الإحصار بالتصغير ، ومثال ذلك قول الشريف الرضى رحمه الله :

يُــولِّــع الطَّــلُّ بُــرْدَيْنــا وقــد نَسَمَــتْ رُوَيْحَــةُ الفَجْــرِ بيــنَ الضَّــالِ والسَّلَــمِ (٨١)

فلما كانت الرّيح المقصودة هُناك نسيما مريضًا ضعيفًا حسُنت العبَارة عنه بالتصغير، وكان للكلمة طلاوة وعذوبة ، ومثاله أيضا قول أبى العلاء صاعد بن عيسى الكاتب :

إذا لاحَ مــن بَــرْقِ العَقِيــق وُمَيْضَــةٌ تَــدِقُّ علــى لَمْــحِ العيُــونِ الشَّــوائمِ (٨٢)

أفلا تراه لما أراد أنها خفيّة تدقّ على من ينظرها حَسُن التصغير فى العبارة عنها ، وكذلك قول شيخنا أبى العلاء بن سليمان :

---

(٨٠) العيس : الإبل الكريمة – حوباوات : جمع حوباء وهى النفس – الريْخ بمعنى السهولة والانقياد .

(٨١) يولّع : يلمع – الطلّ : الندى أو المطر الخفيف يكون له أثر قليل – البُرْد : كساء مخطط – الضالّ والسَّلم : نوعان من الشجر .

(٨٢) وَمْضة البرق : لمعته الخفيفة وظهوره – تدِق : تصغر وتغمض – الشوائم : المتطلّعة الناظرة .

إذا شَـربَـتْ رأيْـت المـاءَ فيهـا أُزَيْـرقَ ليـس يَسْتُـرُه الجِـران (٨٣)

لما كان ماءً قليلا يلوح ودونه حائل من أعناق الإبل وساتر على كل حال، حسنُ وُروده مصغَّرًا، وكذلك قول الرضيّ رحمة الله :

زَالَ وأبْقى عـنـد وُرَّاثِـه جُـذَيْـمَ مـالٍ عَـرَقَتْـه الحقـوق (٨٤)

فصغّر لما أراد القلّة، وأما قول المخزومي :

وغـابَ قُمَيْـرٌ كنـتُ أرجـو طُلُـوعَـه ورَوَّحَ رُعيـانٌ وَنـوَّمَ سُـمَّـرُ (٨٥)

فإنما جعله قميرًا لأنه كان هلالاً غير كامل، ويمكن الدلالة على ذلك بقولهُ : إنه غاب في أول الليل وقت نوم السُّمَّر، والقمر إذا كان هلالاً غاب في ذلك الوقت بلا شك، وهذا تصغير مختار في موضعه، فأما الأسماء التي لم يُنطق بها إلا مصغرة كالُّلجيْن والثُّرَيا وما أشبههما فليس للتصغير فيهما حسن يذكر، لأنه غير مقصود به ما قدمناه، ولذلك لا أختار التصغير في قول أبي الطيب :

إذا عَـذَلُـوا فيهـا أَجَبْـتُ بَـأنَّـةٍ حُبَيِّبَتَـا قَلْبـى فُـؤَادى هَيَـا جُمْـلُ (٨٦)

لأنه عار من الوجه الذي ذكرته، فأمّا ما يذهب إليه من التصغير بمعنى التعظيم في مثل قول الشاعر :

وكـلُّ أُنـاسٍ سـوفَ تَـدْخُـلُ بينَهـم دُوَيْهِيَـةٌ تَصْفَـرُّ مِنهـا الأنـامـلُ (٨٧)

فقد حكى أن أبا العباس المبرّد كان ينكره ويزعم أن التصغير في كلام العرب لم يدخل إلا لنفي التعظيم، ويتأوّل « دويهية » وما يجرى مجراها بأن يقول أراد خفاءها في الدخول

---

(٨٣) الجران : باطن العنُق من البعير وغيره.

(٨٤) الجذم : الأصل أو البقيّة - عرقته : نالت منه وذهبت به.

(٨٥) الرعيان جمع الراعي وهو من يرعى الماشية ويحفظها.

(٨٦) عذلوا : لاموا - الأنّة : الواحدة من الأنين، يكون من شدّة الوجع - هَيَا : حرف نداء - جُمْل : اسم الحبيبة.

(٨٧) الدويهية : مصغّر الداهية وهي الأمر المنكر العظيم، ويعني به الشاعر : الموت.

فصغّرها لهذا الوجه وهو ضد التعظيم المذكور، ويقوى عندى ما ذهب إليه أبو العباس المبرد أنهم إذا وضعوا التصغير أمارة للتحقير والتعظيم معًا فقد زالت الفائدة به ، ولم يكن دليلا على واحد منهمًا بل يرجع إلى المقصود باللفظة ويلتمس بيان ذلك من جهة المعنى دون اللفظ فليس للتصغير تأثير، وعلى كلا القولين فليس التصغير عندى وجهًا من وجوه الفصاحة إلا فى الموضع الذى ذكرته دون ما يسمونه تصغيرًا فى التعظيم وعلى هذا أحمل قول المتنبى :

أُحَادٌ أمْ سُداسٌ فى أُحادِ   لُيَيْلَتُنا المنُوطَةُ بالتَّنادِ(88)

فلا أختار التصغير فى « لييلتنا » لأنه تصغير تعظيم وليس على الوجه الذى ذكرته ، فأمّا قول أبى نصر بن نباتة يصف الحيّة :

فَفِى الهَضْبَةِ الحَمْراءِ إنْ كُنْتَ سارِيًا   أُغَيْبِرُ يأْوِى فى صُدُوعِ الشَّواهِقِ(89)

فإن تصغيره هاهُنا مرضىّ على ما ذكرته لأن الحيّة توصف بأنها لا تغتذى إلا بالتراب فقد جفّ لحمها وذهبت الرطوبة منها ، ألا ترى إلى قول النابغة :

فبِتُّ كَأنِّى ساوَرَتْنى ضَئِيلَةٌ   مِن الرُّقْشِ فى أنيابِها السُّمُّ ناقِعُ(90)

فوصفها بأنها ضئيلة لما ذكرته ، وأما قولُ أبى الطّيب :

ظَلِلْتُ بينَ أُصَيْحَابى أُكَفْكِفُه   وظَلَّ يَسْفَحُ بينَ العُذْرِ والعَذَلِ(91)

فالتصغير فيه مختارٌ، لأن العادة جارية فى قلة عدد من يصحب الإنسان فى مثل هذه المواضع ، ولهذا كانوا السبب كما قال امرؤ القيس :

---

(88) التنادى : يوم القيامة .

(89) صدوع الشواهق : شقوق الجبال .

(90) ساورتنى : واثبتنى - الرُّقْش : الأفاعى فيها نقط سود وبيض .

(91) أكفكفه : أكفّه مرة بعد أخرى - يسفح : يجرى ويسيل - بين العذر والعذل أى أصحابى بين عاذر لى وعاذل أى لائم .

خَـليلىَّ مُـرَّا بى عَـلَـى أمِّ جُنـدُبٍ نَقَـضِ لُبـانـاتِ الفـؤادِ المعَـذَّبِ [92]

وقال أبو نصر بن نباتة :

قِفـا فـاقْضيـانـى لـذَّةً مـن حَـدِيثـه عَلانـيِـةً إنّ السِّـرار مُـريـب

وأمثال هذا يعرفها كل أحدٍ ، وهى أكثر من أن يحاط بها أو تحصى .

فهذه الأقسام الثمانية هى جملة ما يحتاج إلى معرفته فى اللفظة المفردة بغير تأليفٍ ، فتأمّلها وقس عليها ما يرد عليك من الألفاظ فإنك تعلم الفصيح منها من غيره ، إن شاء الله تعالى .

---

(٩٢) لُبانات : حاجات .

عبد القاهر الجرجانى

(ت ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م)

أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى ، من كبار أئمة العربية ، عالم فى البلاغة واللغة والنحو والصرف والعروض ، فقيه شافعى ، ومتكلم على مذهب الأشعرية ، ولد فى جرجان - وهى مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان - وفيها أمضى حياته ، ويقال إنه ظل بها لا يبرحها حتى توفّى .

وكان تلميذا لعلى بن عبد العزيز الجرجانى ولأبى الحسين محمد بن الحسن الفارسى وهو ابن أخت أبى على الفارسى - فاستمع إلى دروسه وأخذ عنه علمه .

وله مؤلفات كثيرة ، منها : المختار من دواوين المتنبى والبحترى وأبى تمام - كتاب التتمة - شرح كتاب الإيضاح لأبى على بن أحمد بن عبد الغفار - المسائل المشكلة - كتاب الجمل ، وهو منظومة نحوية - العوامل المائة (أو : مائة عامل) ، وهو كتاب فى النحو ، وقد شرحه كثيرون ، وترجم إلى بعض اللغات كالتركية والهندوستانية . . .

وأشهر مؤلفاته - بل أشهر ما كتب فى تاريخ البلاغة العربية - كتاباه : « دلائل الإعجاز » و« أسرار البلاغة » فقد أودع فيهما عبد القاهر نظرياته الجديدة فى صيغتها المكتملة عن علمى المعانى والبيان ، وأهمها نظرية النَّظْم ، وذلك أن اللفظة المفردة من حيث هى لفظة ، لا وزن لها فى البلاغة أو الفصاحة أو البيان أو البراعة وإنما المُعَوّل أو الفضيلة يرجعْ إلى النظم وصور الصياغة وخصائصها وترتيب الكلام تبعًا لترتيب المعانى فى النفس ، وقد استقصى مباحث بيانية مختلفة عرضها عرضا طريفا رائعا ، مثل مباحثه عن المجازات اللغوية والعقلية ، والاستعارات التصريحية والمكنيّة والتمثيلية ، والتشبيهات وما لها من أشكال وتفريعات .

* * *

١ - من كتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر:

في معنى النظم وأهميّته :

اعلمْ أنّ ههنا أسرارًا ودقـائقَ لا يمكن بيانُها إلّا بعد أن نُعِدّ جملة مـن القول في النَّظْم ، وفي تفسيره والمراد منه ، وأيّ شيء هو ، وما محصوله ، ومحصول الفضيلة فيه .

فينبغي لنـا أنْ نأخذ في ذكـره وبيان أمره ، وبيان المـزِّية التي تُدّعـى له من أين تـأتيه ؟ وكيف تعرض فيه ؟ وما أسباب ذلك وعِلله ؟ وما الموجِبُ له ؟

وقد علمـتَ إطباق العلمـاءِ على تعظيـم شأن النظم وتفخيـم قدره ، والتنـويه بـذكره ، وإجماعَهم أنْ لا فضلَ مع عَدمه ، ولا قدرَ لكلام إذا هو لـم يستقمْ له ، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ . . .

وأعلمْ أنْ ليس النظم إلّا أنْ تضع كلامك الوضـع الذي يقتضيه علمُ النحو، وتعملَ على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجَتْ فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسمت لك ، فلا تخلّ بشيء منها .

وذلك أنّا لا نعلمُ شيئا يبتغيه الناظم بنَظْمه غير أن يَنْظُر في وجوه كلّ باب وفروقه .

فينظر في الخبـر إلى الوجوه التي تراهـا في قولك : زيدٌ مُنْطَلق ، وزيـد يَنْطلق ، ويَنْطلق زيد ، ومُنْطلق زيد ، وزيد المُنْطلق ، والمُنْطلق زيد ، وزيد هو المنطلق ، وزيد هو مُنْطلق .

وفي الشرط والجـزاء إلى الوجوه التـي تراها في قـولك : إن تخرجْ أخرجْ ، وإن خـرجْتَ خرجْتُ ، وإن تَخْرُجْ فأنّا خارج ، وأنا خارجٌ إنْ خرجْتَ ، وأنا إنْ خرجتَ خارجٌ .

وفي الحـال إلى الوجـوه التي تراهـا في قولك : جـاءَني زيدٌ مُسْـرعًا ، وجاءنـي يُسْرع ، وجاءني وهـو مُسْرع ، أو هو يُسْرع ، وجاءني وقـد أَسْرَع ، وجاءني وقد أَسْرَع . فيعـرف لكلٍّ من ذلك موضعَه ، ويجيء به حيث ينبغي له .

وينظر في الحروف التي تشتـرك في معنى ، ثم ينفرد كلّ واحد منها بخصـوصيّة في ذلك المعنى فيضـع كُـلّا من ذلـك في خـاص معنـاه ، نحو أن يجيء بـ « مـا » فـي نفي الحال ، وبـ « لا » إذا أراد نفـي الاستقبـال ، وبـ « إن » فيمـا يتـرجّـــح بين أن يـكـون وأن لا يـكون ، وبـ « إذا » فيما علم أنه كائن .

وينظر فى الجمل التى تُسْرَد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقُّه الوصل موضع «الواو» من موضع « الفاء » ، وموضع « الفاء » من موضع « ثمّ » ، وموضع « أو » من موضع « أم » ، وموضع « لكن » من موضع « بل » .

ويتصرّف فى التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير ، فى الكلام كلّه ، وفى الحذف والتكرار ، والإضمار والإظهار ، فيضع كلّا من ذلك مكانه ، ويستعمله على الصحّة وعلى ما ينبغى له .

هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأً إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم ، إلّا وهو معنىً من معانى النحْو ، قد أصِيبت به موضعُه ووُضع فى حقّه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأُزيلَ عن موضعه واستُعْمل فى غير ما ينبغى له ، فلا ترى كلامًا قد وُصِف بصحّة نظم أو فساده ، أو وصف بمزيّة وفضل فيه ، إلّا وأنت تجِدُ مرجع تلك الصّحة ، وذلك الفساد ، وتلك المزيّة ، وذلك الفضل ، إلى معانى النحو وأحكامه ووجدته يدخل فى أصل من أصوله ، ويتّصل بباب من أبوابه .

هذه جملةٌ لا تزداد فيها نظرًا ، إلّا ازددتَ لها تصوُّرًا ، وازدادت عندك صحّة ، وازددت بها ثِقة ، وليس من أحد تحرّكه لأن يقول فى أمر النظم شيئا إلّا وجدته قد اعترف لك بها أو ببعضها ، ووافق فيها ، دَرَى ذلك أو لم يَدْر .

* * *

فى الكلام على من زَهِدَ فى رواية الشعر وحفظه ، وذمَّ الاشتغالَ بعلمه وتَتَبُّعه :

لا يخلو من كان هذا رأيه من أمور :

أحدها : أن يكون رَفْضُه له وذمُّه إياهُ من أجل ما يَجِدُه فى هزل أو سُخف ، وهجاء وسَبٍّ . وكذِبٍ وباطلٍ على الجملة .

والثانى : أن يَذُمّه لأنه موزونٌ مُقَفًّى ، ويرى هذا بمجرَّدِه عيباً يقتضى الزُّهدَ فيه والتَّنزُّهَ عنه .

والثالث : أنْ يَتعلّق بـأحوال الشعراء وأنهـا غيرُ جملةٍ فى الأكثـر ، ويقول : قد ذُمُّـوا فى التنزيل .

وأىٌّ كان مـن هـذه رأيـاً لـه ، فـهـو فـى ذلك علـى خطأٍ ظاهـرٍ وغلَطٍ فاحـشٍ ، وعلى خلاف ما يُوجبه القياس والنَّظَر ، وبالضِّد ما جاءَ به الأثرُ ، وصَحَّ به الخَبَرُ .

أمّا من زعم أنَّ ذمَّهُ له من أجل ما يَجِـدُ فيه من هَزْل وسُخْف وكذبٍ وباطل ، فينبغى أن يَذُمَّ الكـلامَ كُلَّه ، وأن يُفَضِّل الخَـرَسَ على النُّطْق ، والعِىَّ علـى البيان . فمنثور كـلام الناس على كـل حال أكْثرُ مـن منظومـه ، والذى زَعَم أنـه ذَمّ من أجْله وعـاداه بسببه فيـه أكثرُ ، لأن الشعراء فى كل عصر وزمانٍ معدودون ، والعامة ومن لا يقول الشعر من الخاصَّة عَديدُ الرمل . ونحن نعلم أنْ لو كان منثورُ الكلام يُجَمَعُ كما يُجْمَع المنظوم ، ثم عَمَدَ عـامِدٌ فجمع ما قيل من جنس الهـزْل والسخف نثرًا فى عصر واحد ، لأرْبَـى على جميع ما قاله الشعـراءُ نظماً فى الأزمان الكثيرة ، ولغَمَره حتى لا يظهر فيه .

ثم إنَّك لـو لم تـَرْو مـن هـذا الضـرب شيئاً قـطُّ ، ولم تحفـظ إلا الجـدَّ المَحْـضَ ، وإلا مَا لا مَعَاب عليـك فى روايتِه ، وفى المحاضرَة بـه ، وفى نسخه وتَدْوينه ، لكـان فى ذلك غنىً ومَندوحـةٌ ، ولَوَجَدْتَ طَلبتَكَ ونِلْتَ مُرادك ، وحصـل لك ما نحن ندعوك إليـه من علم الفَصاحة ، فَآخْتَرْ لنفسك ، ودع ما تَكْرَهُ إلى ما تُحِبّ .

هذا ، وراوى الشعر حَـاكٍ ، وليس على الحاكـى عَيْبٌ ، ولا عليه تَبِعةٌ ، إذا هـو لم يَقْصِد بحكايتـه أن ينصُرَ بـاطلًا ، أو يسـوءَ مُسْلِمًا ، وقد حكـى الله تعالـى كلام الكفـار . فانظـرْ إلى الغرَض الذى لـه رُوِىَ الشعر ، ومن أجله أرِيدُ ، ولـه دُوِّنَ ، تعْلَمْ أنك قد زُغْـتَ عن المنهج ، وأنك مُسِىءٌ فى هـذه العدواة ، وهو العصبية منك على الشعر . وقد استشهـد العلماءُ لغريب القرآنِ وإعرابِه بالأبيـات فيهـا الفُحْشُ ، وفيهـا ذِكْرُ الفعـل القبيـح ، ثـم لـم يَعِبْـهم ذلك ، إذْ كـانـوا لم يَقْصـدِوا إلى ذلك الفحش ولم يُريدوه ، ولم يَرْووا الشعر من أجله . . .

وإن زعم أنه ذَمَّ الشعـرَ من حيث هو موزونٌ مُقَفًّـى ، حتى كأنَّ الوزن عَيْـبٌ ، وحتى كأن الكلاَم إذَا نُظِم نَظْم الشعر ، اتَّضع فى نفسه ، وتغيرتِ حاله ، فقد أبْعدَ ، وقال قولاً لا يُعْرَف له

معنىً ، وخالف العلماء فى قولهم : «إنَّما الشِّعر كلامٌ فحسنه حَسَنٌ ، وقبيحُه قَبيحٌ » ، وقد روى ذلك عن النبى ﷺ مرفوعاً أيضاً .(١)

فإن زَعم أنه إنَّما كره الوزن ، لأنه سببٌ لأنْ يُتَغنَّىَ فى الشعر ويُتَلَهَّى به ، فإنَّا إذا كنا لم نَدْعُه إلى الشعر من أجل ذلك ، وإنما دعوناه إلى اللَّفظ الجَزْل ، والقولِ الفَصْل ، والمَنْطِقِ الحسن ، والكلام البيِّنِ ، وإلى حُسْن التمثيل والاستعارة ، وإلى التلويح والإشارة ، وإلى صَنْعَةٍ تَعْمِد إلى المعنى الخسيس فتُشَرِّفه ، وإلى الضَّئيل فتُفَخِّمُه ، وإلى النَّازل فترفعُه ، وإلى الخاملِ فتُنَوِّهُ به ، وإلى العَاطِل فتُحَلِّيه ،(٢) وإلى المُشْكِل فتُجَلِّيه – فلا مُتَعلَّق له علينا بما ذكر ، ولا ضَرَرَ علينا فيما أنكر ، فليقل فى الوزن ما شاء ، وليَضَعْه حيث أراد ، فليس يعنينا أمْرُه ، ولا هو مُرادُنا من هذا الذى راجَعنَا القول فيه .

وهذا هو الجواب لمتعلق إن تعلَّق بقوله تعالى : (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ) [سورة يس : ٦٩] وأراد أن يجعله حُجَّة فى المنع من الشعر ، ومن حفظه وروايته . وذاك أنَّا نعلم أنه ﷺ لَم يُمْنَع الشعرَ من أجْلِ أنْ كانَ قولًا فصلًا ، وكلاماً جزْلًا ، ومَنْطِقاً حسَناً ، وبياناً بيِّناً ، كيفَ ؟ وذلك يقتضى أن يكون الله تعالى قد مَنَعه البيانَ والبلاغة ، وحمَاه الفَصَاحة والبراعةَ ، وجعله لا يبلغ مبلغَ الشعراء فى حُسْن العبارة وشرف اللفظ . وهذا جهل عظيمٌ ، وخلاف لما عرفه البلغاءُ وأجمعوا عليه أنه ﷺ كان أفصح العرب ، وإذا بطل أن يكون المنع من أجل هذه المعانى ، وكنا قد أعلمناه أنَّا ندعُوهُ إلى الشعر من أجْلها ، ونَحْدُوهُ بطلبه على طَلَبها ، كان الاعتراضُ بالآية محالًا ، والتعلُّقُ بها خَطلًا من الرأى وانحلالاً .

فإن قال : إذا قال الله تعالى : (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ) [سورة يس : ٦٩] فقد كَرِه للنبى ﷺ الشعر وَنزَّهه عنه بلا شُبْهة ، وهذه الكراهةُ وإن كانت لا تَتَوجَّه إليه من حيث هو

---

(١) روى الدارقطنى فى الأفراد عن عائشة ، والبخارى فى الأدب المفرد رقم : ٨٦٥ ، ٨٦٦ والطبرانى فى الأوسط ، وابن الجوزى فى الواهيات عن عبد الله بن عمر ، والشافعى والبيهقى عن عروة مرسَلًا : « الشعر كلام بمنزلة الكلام ، فحَسَنه حسن الكلام ، وقبيحه قبيح الكلام » .

(٢) « العاطل » من النساء التى لا حَلْيَ عليها .

كلامٌ ، ومن حيث أنـه بَليغٌ بيِّن وفَصيحٌ حسن ونحو ذلـك ، فإنّها تتوَجَّه إلى أمـرٍ لابُدَّ لك من التلبُّس به فـي طلب ما ذَكرتَ أنه مُرادُك مـن الشعر ، وذاك أنه لا سبيلَ لك إلى أن تميِّـز كونَهُ كلاماً عن كونه شعرًا ، حتى إذا رَوَيته التبستَ بـه من حيث هو كلامٌ ، ولم تلتبس به من حيث هو شِعْرٌ، هذا محال ، وإذا كان لابُدَّ من مُلَابسة موضع الكراهة ، فقد لزم العَيْبُ برواية الشّعر وإعمالِ اللِّسان فيه .

قيل له: هذا منك كلامٌ لايتحصَّل. وذلك أنه لو كان الكلام إذا وُزِن حَطَّ ذلك من قدره ، وأزرَى به ، وجلب على المفْرِغِ لـه فى ذلك القَالَبِ إثْماً ، وَكَسَبَهُ ذَمًّا ، لكـان من حقِّ العيْب فيه أن يكـون على واضع الشِّعـر، أو من يريده لمكـان الوزن خصُوصـاً ، دون من يريـده لأمر خارج منه ، ويطلبه لشىء سواه .

فأمَّا قولك : إنـك لاتستطيع أن تطلبَ من الشّعر مالا يُكْرَه حتى تلتبـس بما يكره ، فإنى إذا لم أقْصدْهُ مـن أجل ذلك المكروه ، ولم أُرِدْه لـه ، وأردته لأعرف به مكانَ بـلاغةٍ ، وأجعلَه مِثالاً فـى براعة ، أو أحتـجَّ به فـى تفسيرِ كتابٍ وسُنَّـة ، وأنْظُرَ إلى نظمـه ونَظْم القـرآن ، فأرى موضـع الإعجاز ، وأقِفَ علـى الجهة التى منهـا كان ، وأتبيَّن الفَصْـلَ والفُرْقَان - فحـقٌّ هذا التلبُّس أنْ لا يُعتَـدَّ علىَّ ذنباً ، وأن لا أُؤاخـذ به ، إذ لاتكون مُؤاخـذةٌ حتى يكونَ عَمْـدٌ إلى أن تُواقـع المكروه وقَصْدٌ إليـه ، وقد تتبع العلماء الشَّعْـوَذة والسحرَ، وعُنُوا بـالتوقُّف علـى حِيَل المُمَوِّهين ، ليعـرفوا فَرْق ما بيـن المعجزة والحيلة ، فكان ذلـك منهم من أعظم البِـرِّ، إذْ كان الغرضُ كريماً والقصْدُ شريفاً .

هذا ، وإذَا نحن رجعنا إلى مـا قدَّمنا من الأخبار، وما صحَّ من الآثـار، وجدنا الأمر على خلاف ما ظنَّ هذا السائل ، ورأينا السبيلَ فى منع النبى ﷺ الوزنَ ، وأن ينطلق لسانه بالكلام الموزون ، غَيرَ ما ذهبوا إليه . وذاك أنَّه لو كان مَنْع تنزيهٍ وكراهةٍ ، لكان ينبغى أن يُكْرَه له سماعُ الكلام موزوناً ، وأن يُنَزَّه سمعه عنه كما نُزِّه لسـانه ، ولكان ﷺ لا يأمُر به ولا يَحثُّ عليه ، وكان الشاعر لا يُعانُ على وزن الكلام وصِياغَتِه شعراً ، ولا يؤيَّد فيه برُوح القدس .

وإذا كـان هـذا كذلك ، فينبغى أن يُعْلَم أنْ ليس المنـعُ فى ذلك مَنْعَ تنزيـهٍ وكَـراهـةٍ ، بل سبيلُ الـوزن فى منع عليه السـلام إيـاه سَبيـلُ الخَطِّ ، حين جُعِلَ عليـه السلام لا يقرأُ

ولا يكتب ، فى أن لـم يكن المَنْع من أجل كراهـة كانت فى الخطِّ ، بـل / لأن تكون الحجةُ أبهرَ وأقهرَ، والـدلالة أقوى وأظهرَ، ولتكون أكْعَـمَ للجاحد [٣] ، وأقْمَعَ للمعانـد ، وأردَّ لطالب الشبهة ، وأمنعَ من ارتفاع الريبة .

وأما التعلُّق بأحوالِ الشعراء بأنهم قد ذُمُّوا فـى كتاب الله تعالى ، فما أَرى عاقلاً يرضىَ به أنْ يجعلَه حُجَّة فى ذمِّ الشعر وتهجينه ، والمنعِ من حفظـه وروايته ، والعلم بما فيه من بلاغة ، وما يَختَـصّ به من أدَب وحكمـة ، ذاك لأنه يلزمُ علـى قَوْدِ هـذا القولِ أنْ يَعِيبَ العلمـاءَ فى استشَادهم بشعر أمرىء القيس وأشعار أَهْلِ الجاهليَّة فى تفسير القرآن [٤] ، وفى غريبه وغريبِ الحديث ، وكذلك يلزمه أنْ يدفع سائرَ ما تقدَّم ذكرُهُ من أمر النبى ﷺ بالشّعر ، وإصغائه إليه ، واستحسانه له .

(٣) « أكعم » من « كعم البعير » ، إذا شد فاه بالكعام عند هياجه لئلا يعضّ ، أو لأجل منعه الأكل .
(٤) قوله : « على قود هذا القول » ، أى على سياقه واطّراد قياسه .

٢ - من كتاب « أسرار البلاغة » :

حدّ الحقيقة والمجاز، وما فيه من الشروط :

اعلمْ أنّ حدَّ كل واحـد من وصفى المجاز والحقيقة إذا كان الموصـف به المفرد - غيرُ حدّه إذا كان الموصـوف بـه الجمـلـة ، وأنا أبدأ بحـدّهما فى المفـرد : كـلُّ كلمة أريد بها ما وقعتْ له فى وَضْع واضع - وإن شئت قلت : فـى مُـواضعـة - وقـوعًـا لا تستند فيـه إلـى غـيره فهـى « حقيقة » . وهذه عبـارةٌ تنتظم الوضعَ الأوّل وما تأخّر عنه كلُغـةٍ تحدث فى قبيلة من العرب ، أوفـى جميع العرب ، أو فى جميع النـاس مثلًا ، أو تحدُثُ اليوم ، ويـدخل فيها الأعلام منقولةً كانت كزيد وعمرو ، أو مرتجلةً كغَطَفان . وكلُّ كلمة استُؤْنِف لها على الجملة مواضعةٌ ، أو ادُّعِيَ الاستئناف فيها .

وإنما اشترطتُ هذا كلَّه ، لأنّ وصف اللَّفظة بـأنها حقيقة أو مجازٌ، حُكمٌ فيها من حيث إنّ لها دِلالةً على الجمـلة ، لا مـن حيث هـى عربيـة أو فـارسية ، أو سابقــة فى الـوضـع ، أو مُحدَثة مولَّدة ، فمن حقّ الحدِّ أن يكون بحيث يجرى فى جميع الألفاظ الدالَّة .

ونظيرُ هذا نظيـرُ أن تضع حدًّا للاسم والصفة ، فـى أنك تضعه بحيث لو اعتبـرتَ به لغةً غير لغة العرب ، وجدته يجرى فيها جَرَيانه فى العربية ، لأنك تَحُدُّ من جهةٍ لا اختصاصَ لها بلُغةٍ دون لــغــة . ألا تَـرى أن حـــدَّك « الخبر » بأنــه « مـا احتمـل الصـدق والكـذب » مما لا يخُـصُّ لسانًا دون لسـان ؟ ونظائر ذلك كثيـرةٌ ، وهو أحدُ مـا غَفَل عنه النـاس ، ودخل عليهم اللبس فيه ، حتى ظنُّوا أنه ليس لهذا العلـم قوانينُ عقليةٌ ، وأنَّ مسائلَه مُشبَّهة باللّغة ، فى كونها اصطلاحًـا يُتوهَّم عليه النقل والتبديل . ولقد فَحُش غلَطُهم فيـه ، وليس هذا موضعُ القولِ فى ذلك .

وإن أردت أن تمتحن هـذا الحدَّ ، فانظرا لى قولـك : « الأسد » ، تريد به السَّبُعَ ، فإنك تراه يـؤدِّى جميعَ شـرائطه ، لأنَّك قـد أردت به مـا تَعلم أنّـه وقع له فـى وضع واضـع اللغة . وكذلك تعـلم أنـه غيـر مستند فى هذا الوقوع إلى شىء غيـر السَّبُعِ ، أى : لا يحتاج أن يُتصوَّر له أصـلٌ أدّه إلى السبع مـن أجل التباسٍ بينهمـا وملاحظة . وهـذا الحكمُ إذا كانـت الكلمة

حادثةً، ولو وُضعت اليوم، متى كان وضعُها كذلك، وكذلك الأعلام. وذلك أنّي قلت: « ما وقعتْ له في وضع واضع أو مواضعةٍ » على التنكير، ولم أقل: « في وَضْع الواضع الذي ابتدأ اللغة » . ، أو « في المواضَعة اللغوية » ، فيُتَوهَّمَ أن الأعلام أو غيرها مما تأخّر وَضْعُه عن أصل اللغة يخرج عنه. ومعلومٌ أن الرجل يُواضِع قومَه في اسم ابنه، فإذا سمّاه « زيدًا » ، فحاله الآن فيه كحال واضع اللغة حين جعله مصدرًا « لزاد يزيدُ » ، وسَبْقُ وَاضع اللغة له في وضعه للمصدر المعلوم، لا يقدَحُ في اعتبارنا، لأنه يقع عند تسميته به ابنه وقوعًا باتًّا، ولا تستند حالهُ هذه إلى السابق من حاله بوجه من الوجوه.

* * *

وأمّا المجاز، فكلُّ كلمة أريد بها غيرُ ما وقعت له في وَضْع واضعها، لملاحظةٍ بين الثاني والأوّل، فهي مجاز، وإن شئت قلت: « كل كلمة جُزْتَ بها ما وقعتْ له في وَضْع الواضع إلى ما لم تُوضع له، من غير أن تستأنف فيها وضعًا، لملاحظةٍ بين ما تُجُوِّزَ بها إليه، وبين أصْلها الذي وُضعتْ له في وضع واضعها، فهي « مجاز » .

ومعنى « الملاحظة » : هو أنها تستند في الجملة إلى غير هذا الذي تريده بها الآن، إلّا أنّ هذا الاستنادَ يَقْوَى ويَضْعُف. بيَانُه ما مضى من أنّك إذا قلت: « رأيت أسدًا » ، تريد رجلًا شبيهًا بالأسد، لم يشتبه عليك الأمرُ في حاجة الثاني إلى الأوّل. إذ لا يُتَصَوَّر أن يقع الأسدُ للرجل – على هذا المعنى الذي أردته على التشبيه على حدّ المبالغة، وإيهامِ أنّ معنًى من الأسد حصل فيه – إلا بعد أن تجعل كونهُ اسمًا للسبع إزاء عينيك. فهذا استنادٌ تعلمه ضرورةً، ولو حاولتَ دَفْعَه عن وَهْمك حاولت محالًا. فمتى عُقِل فَرْعٌ من غير أصْل، ومشبَّهٌ من غير مشبَّهٍ به؟ وكلُّ ما طريقُه التشبيه فهذا سبيله، أعني: كل اسم جرى على الشيء للاستعارة، فالاستناد فيه قائمٌ ضرورةً.

وأما ما عَدا ذلك، فلا يَقْوَى استنادُه هذه القُوّةَ، حتى لو حاول محاوِلٌ أن يُنكره أمْكَنَه في ظاهر الحال، ولم يلزمه به خُروجٌ إلى المحال. وذلك كاليَد للنِّعْمة: لو تكلَّفَ متكلّفٌ فزعم أنه وضْعٌ مستأنفٌ أو في حُكم لُغةٍ مفردةٍ، لم يُمكن دفعُه إلا برفقٍ وباعتبارٍ خَفِيٍّ، وهو ما قدّمتُ من أنّا رأيناهم لا يوقعون هذه اللفظة على ما ليس بينه وبين هذه الجارحة التباسٌ واختصاصٌ.

ودليل آخر، وهو أن « اليد » لا تكاد تقع للنعمة إلا وفى الكلام إشارةٌ إلى مَصْدَر تلك النعمة، وإلى المُولِى لها، ولا تصلح حيث تراد النعمة مجرَّدةً من إضافةٍ إلى المُنْعِم أو تلويحٌ به.

بيان ذلك: أنك تقول: « اتسعت النعمةُ فى البلد »، ولا تقول: « اتسعت اليد فى البلد »، وتقول: « أَقْتَنى نعمةً »، ولا تقول: « اقتنى يدًا »، وأمثال ذلك تكثر إذا تأملت - وإنما يقال: « جلَّت يدُه عندى »، و « كُثرت أياديه لدَىَّ »، فتعلم أن الأصل صنائعُ يده وفوائده الصادرةُ عن يده وآثارِيده. ومحالٌ أن تكون « اليد » اسمًا للنعمة هكذا على الإطلاق، ثم لا تقع موقع النعمة. لو جاز ذلك، لجاز أن يكون المترجم للنعمة باسم لها فى لغة أخرى، واضعًا اسمَها من تلك اللغة فى مواضعَ لا تقع النعمة فيها من لغة العرب، وذلك محالٌ.

* * *

ونظير هذا قولهم فى صفة راعى الإبل: « إنَّ له عليها إصْبعًا »، أى: أثرًا حَسَنًا، وأنشدوا:

ضَعِيفُ العَصَا، بادِى العروقِ، ترى له عليها إذا ما أجدبَ النَّاسُ إصْبَعَا

وأنشد شيخنا رحمه الله مع هذا البيت قولَ الآخر:

*** صُلْبُ العَصا بالضَّرب قد دَمَّاها ***

أى: جعلها كالدُّمَى فى الحُسن. وكأن قولَهُ: « صُلْب العَصا »، وإن كان ضِدَّ قول الآخر: « ضَعيفُ العَصا »، فإنهما يرجعان إلى غرض واحد، وهو حُسن الرِّعْية، والعملُ بما يُصلحها ويحسُنُ أثره عليها. فأراد الأول بجعله « ضَعيف العصا » أنه رفيقٌ بها مُشفقٌ عليها، لا يقصد من حمل العصا أن يُوجِعَها بالضرب من غير فائدة، فهو يتخيَّر ما لانَ من العِصِيّ، وأراد الثانى أنه جيِّد الضبْط لها عارفٌ بسياستها فى الرَّعى، يزجُرها عن المراعى التى لا تُحمَد، ويتوخَّى بها ما تسمَنُ عليه، ويتضمّن أيضًا أنه يمنعها عن التشرُّد والتبدُّد - وأنها، لِمَا عَرَفت من شدّة شكيمته وقوة عزيمته، تنساق وتَستوسق فى الجهة التى يريدها، من غير أن يجدّد لها فى كل حال ضربًا.

وقال آخر :

* صُلْبُ العَصَا جَافٍ عن التَّغَزُّلِ *

فهذا لم يبيّن ما بيّنه الآخر - وأعود إلى الغرض .

فأنت الآن لاتشكُّ أن « الإصبع » مشارٌ بها إلى إصبع اليد ، وأن وقوعها بمعنى الأثر الحسن ، ليس على أنه وضعٌ مستأنَفٌ في إحدى اللغتين . ألا تراهم لا يقولون : « رأيت أصَابع الدار » ، بمعنى : آثارَ الدار - و « له إصبع حسنة » ، و « إصبعٌ قبيحة » ، على معنى : أثرٍ حسن وأثرٍ قبيح ونحو ذلك ، وإنّما أرادوا أن يقولوا : « له عليها أَثَرُ حِذْقٍ » ، فدلّوا عليه بالإصبع ، لأن الأعمال الدقيقة لها اختصاص بالأصابع ، وما من حِذْقٍ في عمل يَدٍ إلا وهو مستفاد من حسن تصريف الأصابع ، واللُّطف في رفعها ووضعها ، كما تعلم في الخطّ والنقش وكُلِّ عمل دقيق . وعلى ذلك قالوا في تفسير قوله عزّ وجل : (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) [سورة القيامة : ٤] ، أي : نجعلَها كخُفِّ البعير فلا تتمكّن من الأعمال اللَّطيفة .

فكما علمتَ ملاحظةَ « الإصبع » لأصلها ، وامتناعَ أن تكون مستأنفةً بأنك رأيتها لا يصحُّ استعمالها حيث يراد الأثر على الإطلاق ، ولا يُقصد الإشارة إلى حِذْقٍ في الصنعة ، وأن يُجعل أثر الإصبع إصبعًا - كذلك ينبغي أن تعلم ذلك في « اليد » لقيام هذه العلّة فيها ، أعني : أن لم يُجْعَل أثرُ اليد يدًا ، لم تقع للنعمة مجرَّدةً من هذه الإشارات ، وحيثُ لا يُتَصوَّر ذلك كقولنا : « أقتني نعمة » ، فأعرفه .

ويُشبه هذا في أن عُبِّر عن أثر اليد والإصبع باسمهما ، وضعُهم الخاتَم موضع الخَتْم كقولهم : « عليه خاتمُ الملك » ، و « عليه طابَعٌ من الكرم » ، والمحصول أثَر الخاتَمَ والطابَع ، قال :

وقُلْنَ حَرَامٌ قد أُخِلَّ بربِّنا وتُتْرَكُ أموالٌ عليها الخواتِمُ (١)

(١) يقال : خَلّ الرجل ، وأُخِلَّ به ، إذا افتقر وذهب ماله واحتاج .

وكذا قولُ الآخر :

إذا فُضَّت خَواتِمُها وفُكَّت ... يقال لها دمُ الوَدَجِ الذبيحُ

وأما تقدير الشيخ أبي عليٍّ في هذين البيتين حَذْفَ المضاف ،(٢) وتأويلُه على معنى : « وتترك أموالٌ عليها نقشُ الخواتم » و« إذا فُضَّ خَتْمُ خواتمها » ، فبيانٌ لما يقتضيه الكلام من أصله ، دون أن يكون الأمر على خلاف ما ذكرتُ بل المعنى : أن مَثَلَهم مع كثرتهم في وجوب الاتّفاق بينهم ، مَثَلُ اليد الواحدة ، فكما لا يُتصوَّر أن يخذل بعضُ أجزاء اليد بعضًا ، وأن تختلف بها الجهة في التصرف ، كذلك سبيل المؤمنين في تعاضُدهم على المشركين ، لأن كلمةَ التوحيد جامعةٌ لهم ، فلذلك كانوا كنفس واحدة . فهذا كله مما يعترف لك كل أحد فيه ، بأنّ « اليد » على انفرادها لا تقع على شيء ، فيُتوهَّمُ لها نقلٌ من معنى إلى معنى على حدِّ وضع الاسم واستئنافه.

فأمَّا ما تكون « اليد » فيه للقدرة على سبيل التلويح بالمثَل دون التصريح ، حتى ترى كثيرًا من الناس يُطلق القول : إنها بمعنى القدرة ، ويُجريها مَجرَى اللفظ يقع لمعنيين ، فكقوله تعالى : (وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) [سورة الزمر: ٦٧] ، تراهم يُطلقون « اليمين » بمعنى : القدرة ، ويصِلون إليه قولَ الشمّاخ :

إذَا مَا رَايةٌ رُفِعَتْ لمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عَرابةُ باليمينِ

كما فعل أبو العباس في الكامل ، فإنه أنشد البيت ثم قال : « قال أصحاب المعاني : معناه : بالقوة » ، وقالوا مِثْل ذلك في قوله تعالى : (وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) .

وهذا منهم تفسيرٌ على الجملة ، وقصدٌ إلى نَفْي الجارحة بسرعةٍ ، خوفًا على السامع من خَطَراتٍ تقع للجُهّال وأهلِ التشبيه جلَّ الله وتعالى عن شبه المخلوقين = ولم يقصدوا إلى بيان الطَّريقة والجهة التي منها يُحصَل على القُدرة والقوة . وإذا تأمّلت علمت أنه على طريقة المَثَل .

(٢) « أبو علي » ، هو أبو عليّ الفارسيّ .

وكما أنّا نعلم في صَدْرِ هذه الآية وهو قوله عز وجل: (وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [الزمر: ٦٧] ، أن محصول المعنى على القدرة ، ثم لا نستجيز أن نجعل القبضةَ أسمًا للقدرة ، بل نَصير إلى القدرة من طريق التأويل والمَثَلِ ، فنقول : إنّ المعنى – والله أعلم – أن مَثَل الأرض في تصرُّفها تحت أمر الله وقدرته ، وأنه لا يشذّ شيءٌ مما فيها عن سلطانه عزّ وجلّ ، مَثَلُ الشيء يكون في قبضةِ الآخذِ له مِنّا والجامعِ يده عليه .

كذلك حقُّنا أن نسلك بقوله تعالى : (مَطْوِيَّات بِيَمِينِهِ) هذا المسلَك ، فكأنّ المعنى – والله أعلم – أنه عزّ وجلّ يخلق فيها صفةَ الطيّ حتى تُرَى كالكتاب المطويّ بيمين الواحد منكم ، وخصَّ « اليمين » لتكون أعلى وأفخمَ للمثل .

وإذا كنت تقول : « الأمرُ كُلُّه لله » ، فتعلم أنه على سبيل أنْ لا سلطان لأحد دونه ولا استبداد – وكذلك إذا قلت للمخلوق : « الأمر بيدك » ، أردت المَثَل ، وأنَّ الأمر كالشيء يَحْصُل في يده من حيث لا يمتنع عليه .

فما معنى التوقُّف في أن « اليمين » مَثَلٌ ، وليست باسم للقُدْرة ، وكاللغة المستأنَفة ؟ ومن أين يُتصوَّر ذلك وأنت لا تراها تصلُح حيث لا وجه للمَثَل والتشبيه ؟ فلا يقال : « هو عظيم اليمين » ، بمعنى عَظِيم القدرة ، و « قد عرفتُ يمينك على هذا » ، كما تقول : « عرفتُ قدرتك » .

وهكذا شأن البَيْت ،[٣] إذا أحسنت النَّظر وجدتَه = إذا لم تأخذه من طريق المثل ، ولم تأخذ المعنى من مجموع التلقّي واليمين على حدّ قولهم : « تقبّلته بكلتا اليدين » ، وكقوله :

ولكن تَلَقَّت باليَدَيْنِ ضَمَانَتي   وحَلَّ بفَلْجٍ فالقنافذِ عُوَّدي[٤]

---

(٣) يعني بيت الشماخ السالف .

(٤) هو لأوس بن حجر في ديوان ، يذكر فضل حليمة بنت فضالة بن كلدة ، ويدها عليه حين صرعته ناقته . وشرح البيتين على ترتيبهما . « الثَّواء » الإقامة . و « الثويّ » الضيف المقيم . و « ألقى مراسي مقعد » ، يريد حين استقرّ عندها لا يقدر على الحركة . و « الضمانة » العاهة والداء . و « فلج » و « القنافذ » موضعان . و « والعوّد » جمع « عائد » وهو الذي يعود المريض .

وقبل هذا البيت :

لَعَمْـرُكَ مَـا مَلَّـت ثَـواءَ ثَـوِيِّهـا　　　حَلِيمـةُ ، إذْ أَلْقَـى مَـراسِـيَ مُقْعَـدِ

- وهو[5] يشكوك إلى طبع الشعر، ورأيت المعنى يتألَّم وَيَتظلَّم .

وإن أردت أن تختبرَ ذلك فقل :

إذا مـا رايـةٌ رُفعـت لمجـد　　　تلقّـاهـا عَـرابـةُ بـاقتـدارِ

ثم انظر، هل تَجِدُ ما كنت تجد ، إن كنت ممَّن يعرف طعمَ الشعر، ويُفَرِّق بين التَّفِه الذى لا يكون له طعمٌ وبين الحلو اللذيذ ؟

وممّا يبيّن ذلك من جهة العِبارة : أنّ الشعر كما تعلم لمدح الرَّجل بالجود والسخاء ، لأنه سألَ الشمّاخَ عمَّا أقدَمه؟ فقال : « جئتُ لأمْتار » ،[6] فأَوْقَرَ رواحله تمرًا وبرًّا وأتْحفه بغير ذلك[7] وإذا كان كذلك . كان المجدُ الذى تطاوَل ومدَّ إليه يده ، من المجد الذى أراده أبو تمام بقوله :

تَـوَجَّـعُ أن رأتْ جِسْمـى نحيفًـا　　　كـأنَّ المَجْـدَ يـدرك بـالصِّـراعِ

ولو كان فى ذكر البأس والبطش وحيث تراد القوة والشدّة ، لكان حَمْلُ اليمين على صريح القُوّة أشبه ، وبأن يقع منه فى القلب معنًى يتماسك أجدر. فإن قال : أراد تلقّاها بجدّ وقوّةِ رغبةٍ - قيل فينبغى أن يضع اليمين فى مثل هذه المواضع . ومن التزم ذلك فالسكوت عنه أحسن . وما زال الناسُ يقولون للرجل إذا أرادوا حثَّه على الأمر، وأن يأخذ فيه بالجِدّ : « أخرج يدك اليُمْنى ! » ، وذاك أنها أشرف اليدين وأقواهما ، والتى لا غناء للأخرى دونها . فلا عُنى إنسان بشىء إلا بدأ بيمينه فهيّأها لنَيْله . ومتى ما قصدوا جعل الشىء فى جهة العناية ، جعلوه فى اليد اليمنى ، وعلى ذلك قول البحترى :

وإنَّ يـدى ، وَقَـدْ أسْنَـدتَ أمـرى　　　إليـه اليـومَ ، فـى يَـدِكَ اليميـنِ

---

(5) السياق : وهكذا شأن البيت إذا أحسنت النظر، وجدته = إذا لم تأخذه من طريق المثل ... = وهو يشكوك ... » .

(6) « امتار » خرج يجلبُ الميرة لأهله ، و« الميرة » ، الطعام .

(7) « أوقر الراحلة » أى حمَّلها وِقْرًا ، أى حِمْلًا ثقيلًا .

- « إليه » ، يعنى إلى يونس بن بُغا ، وكان حظيًّا عند الممدوح ، وهو المعتز بالله . ولو أن قائلًا قَال :

إذَا مـــا رايـــةٌ رُفعـــت لمَجـــدٍ ... ومَكْـــرُمـــةٍ مـــددت لهـــا اليَمِينـــا

- لم تره عادلاً باليمين عن الموضع الذى وَضَعها الشمّاخ فيه .

ولو أن هذا التأويل منهم كان فى قول سُلَيْمان بن قتّة لعَدَوِىّ : (٨)

بَنـــى تَيْـــمِ بـــنِ مُـــرّةَ إنّ ربّـــى ... كَفَـــانـــى أمْـــرَكـــم وكَفـــاكُمُـــونـــى

فحَيُّـــوا مـــا بَـــدَا لكـــمُ ، فـــإنِّـــى ... شـــديـــدُ الفَـــرْسِ للضَغِـــنِ الحَـــرُونِ (٩)

يُعـــانـــى فَقْـــدَكُـــمْ أَسَـــدٌ مُـــدِلٌّ ... شـــديـــدُ الأسرِ يَضْبِـــثُ بـــاليميـــنِ (١٠)

- لكان أعذرَ فيه ، لأن المدح مدحٌ بالقوة والشدة . وعلى ذلك فإنّ اعتبار الأصل الذى قدّمتُ ، وهو أنك لا ترى « اليمين » حيث لا معنى لليد ، يقف بنا على الظاهر ، كأنه قال : إذا ضَبَثَ ضَبَثَ باليمين .

ومما يبيِّن موضوعَ بيت الشمّاخ ، إذا اعتبرتَ به ، قولُ الخنساء :

إذَا القـــومُ مَـــدُّوا بـــأَيْـــديهـــمُ ... إلـــى المَجْـــد مَـــدَّ إليـــه يَـــدَا

فنـــالَ الـــذى فَـــوْق أَيْـــديهـــمُ ... مـــن المجـــد ، ثـــم مَضَـــى مُصعِـــدَا

إذا رجعت إلى نفسك ، لم تجد فرقًا بين أن يمُدَّ إلى المجد يدًا ، وبين أن يتلقَّى رايته باليمين . وهذا - إن أردت الحقَّ - أبينُ من أن تحتاج فيه إلى فَضْلِ قَوْلٍ . إلّا أنّ هذا الضرب من الغلط ، كالداء الدَّوِىّ ، حقُّه أن يُستقصَى فى الكىّ عليه والعلاج منه ، فجنايتُه على

---

(٨) شاعر إسلامى من شعراء الشيعة فى عصر التابعين ، من بنى غنيم بن كعب .

(٩) الفَرْس : مصدر « فرس الأسد الفريسة » ، دق عنقها - الضغِن : المنطوى على الضَغَنْ ، وهو الحقد - الحرون : الصعب الإنقياد .

(١٠) أسدٌ مُدِلّ : جرىءٌ يَدِلّ بجرأته - الأسر : شدّة الخلق - يضبث من « ضَبَث بالشىء » ، إذا أخذه وقبض عليه بقوة .

معانى ما شَرُف من الكلام عظيمة ، وهو مادَّةٌ للمتكلفين فى التأويلات البعيدة والأقوال الشَّنِيعة .

ومَثَلُ من تَوقَّف فى التفات هذه الأسامى إلى معانيها الأُوَل ، وظَنَّ أنها مقطوعة عنها قطعًا يرفع الصلةَ بينها وبين ما جازت إليه ، مَثَلُ مَنْ إذا نَظر فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [سورة ق : ٣٧] ، فرأى المعنى على الفهم والعقل -[(١١)] أخذه ساذجًا وقَبِله غُفْلًا ، وقال : القلب ، ههنا بمعنى : العقل » - وترك أن يأخذه من جهته ، ويدخُلَ إلى المعنى من طريق المَثَل فيقول : « إنه حين لم ينتفع بقلبه ، ولم يفهم بعد أن كان القلب للفهم ، جُعِلَ كأنه قد عدِم القلبَ جملةً وخُلع من صدره خَلْعًا ، كما جُعل الذى لايَعِى الحكمة ولايُعمل الفِكْر فيما تُدركه عَيْنه وتسمَعُه أُذُنه ، كأنه عادمٌ للسمع والبصر ، وداخلٌ فى العَمَى والصمم » -[(١٢)] ويذهبُ عن أنّ الرجل إذا قال : « قد غاب عنى قلبى » ، و« ليس يحضُرنى قلبى » فإنه يريد أن يُخيِّل إلى السامع أنه قد فقد قلبه ، دون أن يقول : « غابَ عنى علمى وعَزَب عقلى » ، وإن كان المرجع عند التحصيل إلى ذلك ، كما أنه إذا قال : « لم أكن ههنا » ،

يريد شدّة غفلته عن الشىء ، فهو يضع كلامه على تخييل أنه كان غاب هكذا بجملته وبذاته ، دون أن يرد الإخبار بأنّ علمه لم يكن هناك .

وغرضى بهذا أنْ أُعلِمك أنّ من عَدَل عن الطريق فى الخَفِىّ ، أفضى به الأمرُ إلى أن يُنكر الجلىّ ، وصار من دَقيق الخطأ إلى الجليل ، ومن بعض الانحرافات إلى ترك السبيل . والذى جلب التَّخليط والخَبْطَ الذى تراه فى هذا الفنّ ، أنَّ الفَرْق بين أن يكون الشَّبَهُ مأخوذًا من الشىء وحده ، وبين أن يُؤْخذ ما بين شيئين ، ويُنتَزع من مجموع كلام ، هو كما عرَّفتُك - فى الفرق بين الاستعارة والتمثيل - بابٌ من القول تدخل فيه الشُّبهة على الإنسان من حيث لايعلم ، وهو من السّهل الممتنع ، يُريك أن قد انقاد وبه إباءٌ ، ويُوهمك أنْ قد أثَّرَتْ فيه رياضتُك وبه بَقيَة شِمَاسٍ .[(١٣)]

---

(١١) السياق : « مَثَل مَنْ إذا نظر فى قوله تعالى ... أخذه ساذجًا ... » .

(١٢) السياق : « وقال القلب ههنا بمعنى العقل .... ، ويذهب عن أنّ الرجل ... » ، عطف جملة على جملة .

(١٣) الشّماس : مصدر « شَمَسَت الدابة » شردتْ وجمحت ومنعت ظهرها .

ومن خاصّيته أنك لا تفرق فيه بين الموافق والمخالف ، والمعترفِ به والمُنكِر له ، فإنك ترى الرجل يُوافقك فـى الشيء منه ، ويُقِرُّ بأنه مَثَلٌ ، حتى إذا صار إلى نظيـرِ له خَلَّط : إمَّا فى أصل المعنى ، وإمَّا فى العبارة .

- فالتخليط فـى المعنى كما مضى ، من تـأوُّل اليمين على القوة ، وكذِكْـرهم أن القلب فى الآية بمعنى العقل ، ثم عَدِّهم ذلك وجهًا ثانيًا .

- والتخليط فى العبارة ، كنحو ما ذكره بعضهم فى قوله : [من المتقارب]

هـوِّن عليـك فـإنّ الأُمـورَ ... بكـفُّ الإلـهِ مقـاديـرُهـا

فإنه استشهد به فى تأويل خبرٍ جاء فى عِظَـم الثواب على الزكاة إذا كانت من الطّيب ثم قـال : الكـفُّ ههنا بمعنـى : السلطان والمُلك والقـدرة ، قال : وقيـل الكف ههنـا بمعنى : النعمة » . والخبـر هو مـا رواه أبو هريـرة عن النبـى ﷺ : « إنّ أحدكم إذا تصـدّق بالتمـرة من الطَّيِّب - ولا يقبـل الله إلا الطيب - جعل الله ذلـك فى كفّه ، فيُـرّبيها كما يـربّى أحدُكـم فَلُوَّه حتى يبلغَ بالتمرة مثل أُحُد » ،(١٤) . ما يُظَنُّ بمن نَظَر فى العربيـة يومًا أن يَتَوهَّم أن « الكفّ » يكون على هذا الإطـلاق، وعلى الإنفراد، بمعنى السلطان والقدرة والنعمـة ،ولكنه أراد المثَل فأساء العبارة ، إلاّ أنّ من سُوء العبارة ما أثَرُ التقصير فيه أظهر، وضررُه على الكلام أبين .

وٱستقصاءُ هذا الباب لا يتـمّ حتى يُفرَد بكلام ، والوجهُ الرجـوع إلى الغرض . ويجب أن تَعلم قبـل ذلك أنّ خِـلاف مَن خالـف فى - اليـد - و« اليمين » ، وسائر مـا هو مجـاز لا من طريق التشبيه الصريح أو التمثيل ، لا يقدح فيما قـدّمتُ من حـدِّ الحقيقـة والمجـاز، لأنـه لا يخـرج فى خِلافه عن واحدٍ من الاعتبارين ، فمتى جَعَل « اليمين » على انفرادها تُفيد القوة ، فقد جعلها حقيقـةً ، وأغناها عن أن تستند فـى دلالتها إلى شىء - وإن ٱعتـرف بضَربٍ من الحـاجـة إلى الجـارحة والنظر إليها ، فقد وافق فـى أنها مجاز . وكذا القياس فى الباب كلِّه ، فٱعـرفه .

---

(١٤) « الفِلْوُ» و« الفَلـوُّ» : المهر إذا فطـم - ومعنى : بلوغ التمـرة مثل أحـد أنّ ثوابها يكـون عظمه كعظـم ذلك الجبل.

ابن أبى الشخباء

(ت ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م)

هو الحسن بن محمد بن عبد الصمد ، أبو على العسقلانى ، ويلقب بالمجيد ذى الفضيلتين ، فقد برع فى النثر وفى الشعر ، ومما وصفه به العماد الأصبهانى قوله : « المجيد مجيد كنَعْته ، قادر على ابتداع الكلام ونَحْته ، له الخطب البديعة والملح الصنيعة » .

ويعدّ من كتاب الدولة الفاطمية النابهين ، و« أبرع كاتب قاهرىّ فى القرن الخامس الهجرى » ، عاصر الخليفة المستنصر حاكم مصر (٤٢٧-٤٨٧) وكتب فى ديوان الرسائل ، وقد توفى مقتولا فى خزانة البنود - وهو سجن بالقاهرة - سنة ٤٨٦ هـ (أو ٤٨٢ هـ) .

ترجمت له بعض المصادر ، مثل : معجم الأدباء ، والخريدة ، والذخيرة ، ووفيات الأعيان ، وأوردت نماذج من نظمه ومجموعة من رسائله ولاسيما الإخوانية والوصفية ، كشفت عن مقدرته البيانية ومرتبته الرفيعة بين كتاب العربية ، وقد اقتدى به القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى واستمدّ من رسائله ، ومن أبلغ ما وصف به دلالة على عظم منزلته ، قول ابن خلكان عنه : « صاحب الخطب المشهورة ، والرسائل المحبّرة ، كان من فرسان النثر ، وله فيه اليد الطولى » .

* * *

كتب ابن أبى الشخباء فى قدوم شهر رمضان :

١ - شهرُ الصيامِ ذو فضلٍ مشهور، ورتبتُهُ عَلَتْ جميعَ الأيامِ والشهور، فما تُنتَهكُ للشرعِ فيه حُرُماتٌ، ولا تُسْمَعُ للأوتارِ نَغَمات، ولا تنطقُ باللّغوِ أفواه، ولا ترشفُ رُضابَ الكؤوس شفاه، وإذا اعْتُبِرتْ أوقاتُ الحضرةِ المنصورة، وُجِدَ أكثرها على هذه الصفةِ المذكورة، إلّاأنّ الشهر اختصَّه الله بشرفِ القضية، وفرض صيامَهُ على جميع البريّة، فلا زال على الحضرة العالية عائدًا، ولها للأعمال الصالحةِ شاهداً، تطلعُ فى لياليه الحسناتُ شموساً، وتجمعُ بينَ الشفقِ والفَلَقِ تسبيحاً وتقديساً، خاطرةً فى جلابيب عزٍّ يعتلقُ الدهر بأسبابه، وكرمٍ يَغْرَقُ البحرُ فى عبابه، ومجدٍ تعشو النيراتُ إلى أنواره، وتعتصمُ الملوكُ الخائفةُ بجواره، وتَتَرَبُ بمكارمها الأيدى التربة،[1] وتثبتُ بسعدها بروجُهُم المتقلّبة، ويجدون ترابها فى أفواهم عسلاً، وفى أجفانهم كَحَلًا، ويرون وظائفَ النُّوبِ عنهم تُرْفع، وأنفَ الحوادثِ تُجْدَعُ :[2]

قد ودَّ هذا الشهرُ أنّ هلالَهُ ... أضحى على غُررِ الشهورِ يُرَفَّعُ
أَلْبَسْتَه تقوى وأَلْبَسَ حُلَّةً ... من سرمدٍ وكلاهما لا ينزع
وبرزتَ فى جيشٍ تَغَصُّ به الفلا ... وترى ذُكاءَ بنقعه تتقنَّعُ[3]
لجبٍ شَكَتْ كفُّ البسيطةِ ثِقْلَهُ ... حتى لكادتْ تحته تتصدَّع
لابدّ تُعْرَفُ بالعراقِ جيادُهُ ... ونسيمُ ذكْرِكَ فوقها يتضوّع
وعلى مَطَاها دارعون سيوفُهُمْ ... تدعُ السَّرابَ كأنما هو أَيْدَعُ[4]
وتقيم شرعَ بنى النبىّ بأرْضِهِ ... والبيضُ تَرْعَفُ والذوابلُ تُشْرَعُ[5]

---

(١) تَتْرَب : يكثر مالها - التربة بمعنى المفتقرة .
(٢) يقال : « للدنيا وظائف » أى نُوَب ونوازل ودول - تُجدع : تُقطع .
(٣) الفلا : الأرض الواسعة المقفرة - ذكاء : شمس - نقع : غبار .
(٤) مطاها : ظهرها - دارعون : لابسو الدروع - أيدع : صبغ أحمر .
(٥) البيض تُرْعف أى السيوف تسيل منها الدماء - الذوابل تُشرع : أى الرماح تُسدّد .

لم ترضَ معروفَ العوارفِ نفسُهُ ... فتراه يُغْرِبُ فى السَّماح وَيُبدع
وإذا تمنَّى المال يُودَعُ كفَّهُ ... خابتْ أمانيه وباتَ يُوزّع
تركَتْ سيوفُكَ كلَّ خالعِ طاعةٍ ... وفؤادُهُ من خوفِ بأسك يُخْلَعُ

* * *

٢ - وكتب فى المديح والشكر :

لقد أسعد الرحمنُ مَنْ بات ثانياً ... إليكَ عِنانَىْ رغبةٍ وثناءِ
إذا ما الحيا جاراكَ فى حَلْبَةِ الندى ... رمى فوق فَوْدَيْهِ قناعَ حياء
وما يتساوى قطُّ بحرٌ وجدولٌ ... ولا كلُّ أعضاءِ الفتى بسواء
وأنت سماءُ الملك وابنك شمسُهُ ... وهل نُظِرَتْ شمسٌ بغير سماء
إذا لم تُحَطْ نظماً ونثراً بمدحِهِ ... فما حيلةُ الكتاب والشعرَاء
فككْتَ إسارى مُنْعِمًا وتركتنى ... لآلائك الحسنى من الأُسرَاء (٦)

والذى جعلِ الأرضَ بساطاً يبسطُ قدرها فى الآفاق ، ويجعلُ أيامها ينابيعَ الأرزاق ، حتى لاينطق بسوى شكرِها لسان ، ولايُرى لغيرها على أحدٍ إحسان .

* * *

٣ - ومن رسالة فى العناد والشفاعة والاستمناح :

وحضر « فلان » ، وعليه من نعمته آثار قد حَلَّتْ عَطَلَه ، وسَدَّتْ خَلَلَهُ ، وظهر فى زىٍّ يكبتُ كلَّ عذولٍ وشامت (٧) ، وينطقُ بالمنَةِ عنه وهو صامت ، وقد سيّر من ذلك ما سّير غوراً

(٦) إسارى : تقييدى - الأسراء : جمع الأسير وهو المأخوذ فى الحرب .
(٧) عَطَلَهُ : عنقه - يكبت : يذل ويغيظ .

ونجداً ، ونظم فى ترائِبِ الأيام منها عِقْداً[٨] ، ولا زالتْ منه لذوى الآداب قاطِرَة ، وعِراصُهُ بلطائم الثناء عاطِرَة ،[٩] يتغايَرُ النثرُ والنظمُ على مدائِحِهِ ، وتفيض على العافين غروبُ مواهِبِهِ ومنائِحِهِ .[١٠] ولمَّا اعتزم العودةَ إلى ذلك الظلِّ المديد ، والعيش الرغيد ، زوَّدْتُهُ هذه الرُّقعةَ مستدعياً له الزيادةَ من كرم العادةِ ، والحظوظ السَّنِيَّةَ المستفادَة .

* * *

٤ – ومن أخرى :

أُنبئتُ – أطال الله بقاءَ مولاى – بشىءٍ أنا فيه مكذِّبٌ ومصدِّقٌ ، ومدافِعٌ ومحقِّقٌ ، واحتجت بحكم ذلك إلى مطالعته ...

فالخِلُّ كالماء يُبدى لى ضَمَائِرَهُ   مع الصفاءِ ويُخْفيها مع الكَدَرِ[١١]

عرفتُ أن هذا الراقصَ البغدادى قد رفضَ مودّته خلْفاً ، وسلك به من الخِلافَةِ[١٢] عسفاً ، فوصله وهجر ديوانَهُ ، وأرْضَاهُ وأسخطَ خِلَّانه ، واستبذل فيه مصوناً من قدره ، واستذلَّ عزيزاً من تأتِّيه وَبِرِّه ، وصار يهبُ النفس بلمسةٍ من إهابه ، وجميعَ سَقْى النيل برشفةٍ من رضابه ،[١٣] وينشدُ إذا تراكضت خيولُ اللهوِ واللعبِ، وغلظ عليه قولُ اللاحى المؤنِّب :

غزالٌ تمتعتُ فى قُرْبِهِ   ونازعنى الكاسَ حتى غَلَبْ
إذا ما تَنَفَّسَ فى نَوْمِهِ   تَنَفَّسَ عن مثلِ ما قد شرب
فيا ليلُ ليتكَ لاتنقضى   ويا صُبْحُ ليتك لاتقترب

فوجدتُ والله من إشاعةِ هذه الحال ما يجدُهُ الخائِفُ غاب واقيه ، والسليمُ عَدِمَ طبيبه وراقيه ،[١٤] خوفاً على جاه مولاى أن يميل ، وَيَشْنُعَ فيه القالُ ، والقيلُ ، فيصلَ إلىَّ من

---

(٨) غور : منخفض من الأرض والنجد ما ارتفع منه – الترائب : مواضع القلائد فى الصدور.
(٩) قاطرة : سائلة قطرة قطرة – عراصه : ساحاته – لطائم : أوعية المسك .
(١٠) العافين : طالبى المعروف والفضل – منائح : جمع منيحة وهى العطيّة .
(١١) الخِلّ : الصديق المختصّ .
(١٢) الخلافة هنا بمعنى الخلاف .
(١٣) إهابه بمعنى جلده – السَّقْى : ما يُسْقى من أرض وزرع .
(١٤) واقيه : من يصونه ويحفظه من الأذى – راقيه : من يصنع الرقية أى العوذة التى يرقى بها المريض ونحوه .

المصاب بذلك ما يُغشى الناظر، ويخذلُ الناصر، لا سيَّما والنسبُ حظُّهُ من الشرف الخطير، وقسطُهُ من الإعظام والتوقير، والصغيرُ يُعَدّ به كثيراً، والحصاةُ تُحْسَبُ معه ثبيراً،[15] ولو كان مولاى مدَّ على هذه السقطة سَجْفاً، وشرب ذلك العُقَارَ مَزْجاً لا صِرْفاً،[16] لجاز أن تخفى القِصَّة، وتَنْساغَ قليلًا هذه الغُصَّةِ فالعقلُ نعمَ الرقيب، والليلُ نهارُ الأديب[17] ويجبُ أن يتحقَّقَ مولَايَ أنى ما أطلقتُ هذه اللفظة إلّا وقد حَصَرَ الكتمان، والتقتْ حلقتا البطان،[18] وسَمِعْتُ ما يُصِمُّ الآذان.

* * *

٥ - وله من أخرى يمدح :

ما زال يختارُ الزمانُ ملوكَهُ ... حتى أصابَ المصطفَى المُتَخَيَّرا

قل للألى ساسوا الورى وتقدّموا ... قُدُماً هلموا شاهدوا المتأخرا

تجدوه أوسعَ فى السياسةِ منكم ... صدراً وأحمدَ فى العواقب مَصْدَرا

إن كان رأياً شاوروه أحنفاً ... أو كان بأساً نازلوه عنترا[19]

قد صام والحسناتُ ملء كتابِهِ ... وعلى مثالِ صيامِهِ قد أفطرا

ولقد تخوَّفَكَ العدوُّ بجهده ... لو كان يقدرُ أن يردَّ مقدَّرا

إنْ أنت لم تبعثْ إليه ضُمَّراً ... جُرْداً بعثَ إليه كيداً مُضْمرا[20]

تسرى وما حملت إليه رجالٌ أبيضاً ... فيه ولا أدَّرَعَتْ كماةٌ أسمرا[21]

---

(١٥) ثبير: جبل بمكة.

(١٦) سجف: ستر - العُقار: الخمر.

(١٧) قوله: «الليل نهار الأديب» فيه إشارة إلى قصة ليحيى البرمكى حين بلغه أن ابنه الفضل قد تشاغل باللذات عن النظر فى أمور الرعية - وكان واليا بخراسان - فكتب إليه يلومه، وضمن رسالته أبياتا يقول فيها:

فكابد الليل بما يشتهى ... فإنما الليل نهار الأديب

(١٨) يقال للأمر إذا اشتدّ «التقت حلقتا البطان»، والبطان: حزام يشدّ على البطن.

(١٩) الأحنف بن قيس يضرب به المثل فى الحلم، وعنترة بن شداد العبسىّ أشهر فارس عربى فى الجاهلية.

(٢٠) الضمّر الجرد: الخيول السريعة السبّاقة.

(٢١) ادّرعت: لبست دروع الحديد - أسمر: رمح.

خطـروا إليـك فخـاطـروا بنفـوسهـم وأمَـرْتَ سيفـك فيهـمُ أن يخطـرا
عجبـوا لحلمـك أن تحـوَّل سطـوةً وزلالِ خُلُقِـكَ كيـف عـادَ مكـدّرا
لاتعجبـوا مـن رقـةٍ وقسـاوةٍ فـالنـارُ تقـدحُ مـن قضيـبٍ أخضـرا
فلـذاك عـدَّكَ حيـن يعـرضُ عـارضٌ وُسْطَـى البنـانِ وعـدَّ غيـرك خنصـرا
لـو رام قُسْطَنطينـةَ لاجلَّقـاً بـك لـم يَـدعْ فـى أرضهـا متنصّـرا[٢٢]
ولقـد قضـتْ آيُ الكتـابِ لكـلِّ مَـنْ نصـر الشـريعـةَ أن يعـانَ وينصـرا

فلا برحت الحضرة - حرس الله أيامها - تفترُّ عن مباسمها الحسانِ، وتفتخرُ بمناقبها قبائلُ غسَّان، فلو شاهد أهلُ جفنةَ جِفَانَها، وأَهـلُ جَبَلَة بنِ الأيهم ضِرابِهَا وَطِعَانَهَا، لعلموا أنَّ الله أتـاحَ السماحـةَ والبسالـة ملكاً منهم يحفظُ ما ضيَّعَهُ النـاسُ من عـهودها، ويسـرِّحُ مـا ذَخَرُوهُ من نقـودها، فما يزيدُ المدحُ منـاقبَهُ ضياءً، ولا مراتَبهُ اعتلاءً، وإنمـا هو فى ذلك كالمسكِ يطيبُ بنفسه طبعاً، ويزيد المحارض[٢٣] تضوعاً ونشراً، وإن أطال العبدُ فى نشر فضائلها مِقْوَدَه، [٢٤] واستخدمَ فى ذلك لسانَهُ وَيَدَهُ، فإنما هو كَمَنْ يوقدُ فى الشمسِ ذُبالًا، وَيُهْدِي إلى الفراتِ نطاقاً أَوْشَالًا، [٢٥] والذى مدَّ الأَرْضَ وجعل فيهـا رواسيِ وأنهاراً، يجعلُ أمـدادَ النعيم علـى الحضرةِ مُغْـدِقَةً، ووفـودَ المواهـبِ بساحـاتها مُحَـدِقَةً، ويمتّـعُ الدنيـا بمحاسنها التى يتطامَنُ لها ذوو الأبصار، وتتأرَّجُ تأرُّجَ القَطْرِ فى جميعِ الأقطار.[٢٦]

* * *

(٢٢) جِلّق: الاسم القديم لدمشق.
(٢٣) يقال: ثوب محرّض أى مصبوغ بالعصفر، والمحارض: أوعيةَ الحُرُض، وهو شىء تُغسل به الأيدى على أثر الطعام.
(٢٤) المقود: ما تقاد به الدابة من حبلٍ ونحوه.
(٢٥) ذبال: جمع ذُبالة وهى الفتيلة التى تسرج - النطاقة: القليل من الماء - الأوشال: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره.
(٢٦) يتطامن: يسكن وينخفض - تتأرّج: تفوح - القَطْر: المطر.

٦ - وله من أخرى يصف مجلس لهو :

فولجتُ منزلاً قد استعار من قلبِ العاشق حَرّاً ورَهَجاً ، (٢٧) ومن أخلاقِ مالِكِهِ ضيقاً وحَرَجاً ، كأنما زَفَرَتْ فيه النار ، ونُقِّطَ على جُدْرَانِهِ بالقار ، فجلستُ طويلاً إلى أن حضر الإخوان ، وقُدِّمَ الخوان (٢٨) ، فرأيتُ أرغفةً قد أُحْكِمَتْ في الصِّغر والإلطاف ، ولم تتعوَّدْ قطّ من الأضياف ، قد مرَّت عليها أيام ، وعُنِيت بقولِ ابن بسَّام : (٢٩)

أتانا بخبزٍ له يابسٍ | كمثلِ الدراهم في خِلْقَتِهْ
إذ ما تنفَّستُ عندَ الخوانِ | تطايرَ في البيتِ من خفَّتِهْ

وثلاثةِ صحافٍ ، واسعةِ الأكناف ، بعيدة الأوساط من الأطْراف ، قد جُعِلَ في قرارةِ كلٍّ منها ما لا يَدْفَعُ السَّغَبَ ، (٣٠) ولا تجدُهُ اليد إلّا بالتَّعَبِ ، فَجُلْنا جَوْلَةً وعينُهُ تطرف علينا شمالاً ويميناً ، وتتفقَّدُ منا حركةً وسكوناً ، وقمنا ولم نقاربْ الكفافَ ، وقد ظَنَّ بنا الإسرافَ ، فحضرنا مجلسَ المعاقرة فأُديرتْ علينا قهوةٌ قد خُصَّتْ باللون الكدر ، وكُثِّرَتْ بالماءِ الخَصِرِ. (٣١)

كالمُهْلِ تَغْلي في البطونِ لو أنها | يَوْماً تُعَدّ لكافرٍ لم تَحْرُمَ (٣٢)

فَحَسَوْنَا أوّلاً وثانياً ، وَكَرَعْنَا منها حميماً آنياً ، (٣٣) وقلنا لعلَّ ما يحضر من الملهيات يُصْلِحُ فاسِدَهَا ، وَيُنَفِّقَ كاسِدَهَا ، ولم يكنْ بأسرعِ من أنْ افتتحتْ قَيْنَةٌ يَحْرُمُ لها السماعُ ، وتستلذّ الصمَمَ الأسماعُ :

تُكَدِّرُ صَفْوَ الراح في شَدْوِهَا | وتنفرُ الأنقارُ من ضَرْبِهَا
لم تكنِ العلجةُ مطبوعةً | بل كان مطبوعاً على قلبِها

---

(٢٧) رهج : غبار.
(٢٨) الخوان : ما يؤكل عليه .
(٢٩) هو علي بن بسام (ت ٣٠٢ هـ) .
(٣٠) السغب : الجوع مع التعب .
(٣١) المعاقرة : ملازمة الخمر والمداومة عليها - قهوة : خمر - الخصر : البارد .
(٣٢) المهل : المعدن المذاب .
(٣٣) حميم : ماء حار - آن : بلغ الغاية في الحرارة .

فسمعنا ولأمر الله سَلَّمنا ؛ فحين جرَّ الظلامُ علينا الـذَّيْلَ ، وغشَّىَ النهارَ الليلُ ، زُفَّتْ إلينا خريدةٌ رأسُهَا مقطوع ، ووسطها مشعوبٌ مرقوع [٣٤] ، قد حَفِظَتْ عن عـادٍ عَهْدَهُ ، واستعارتْ من يأجوجَ قَدَّهُ ،تبص كعيونِ الجنـادب، وتضىء في الظلماء كنـار الحباحِب [٣٥] ، فقوَّضنا خياماً ، وسكرنا همّاً لا مُداماً ؛ فالحمـدُ لله الذى صدَّ مولاى عن هذا المقـام وَمَنَعَهُ ، وَحَمَى عمَّا حضرناهُ مُسْتَمَعَهُ .

* * *

٧ - وله من أخرى يعزى بموتِ ولدِ فخرِ الدولة غريقاً :

غيرُ بِـدعٍ من الزمـان - أطال الله بقاء حضرة سيـدنا - أن تُنْكَثَ حبـالُهُ ، وتَصْرَدَ نبـالُهُ ، وتراشَ في قصدِ الكرام سهامه وتُرْهَفَ نصالُهُ وتفهـقَ بالغَدْرِ فجاجُهُ ، ويمزَج بالسُّمِّ أُجَاجُهُ ، ويُثارَ في النفوسِ عجاجه [٣٦] ، ولذلك عـرفتِ النفوسُ مواقعَ نُكْرِهِ ، وأنِسَـتْ بغرائِب غَدْرِهِ ومكـره ، واطمأنّـتْ الضلوعُ وقد أصمتَ ضرائبه ، وهجعتْ العيـون وقـد استيقظتْ نوائبـه ، ما يُـرَاعَ رَوْعٌ بما جناه ، وتجـذل نفسٌ بمـا منحه وأقناه . فـإذا اصطلم [٣٧] يوماً أنـف المجد وجدع ، وفطر قلـوب المكارم وصدع ، وخرج عن العـادةِ المألوفَةِ فابتـدع ، فهناك يحسنُ أن تُطْلَقَ بذمِّه الألْسُنُ ، ويجبُ أنْ يُلْقَى بجيشِ اللَّوْمِ اللَّجِبِ .

ولمَّا طرق الفـادحُ بمن لاأسميه تفادياً من تحقيـقِ الخبرِبمصرعِهِ ، وصوناً لـه من مَوْرِدِ الحمامِ وَمَشْرَعِهِ ، رأيتُ المحامدَ ذَات نورٍ خامـد ، والمآثر ذاتَ عِقْدٍ متناثر ، والقمرَ قد سئم هالَتَهُ ، والصُّبْـحَ قد خلع الليلُ عليه غِلالَتَـهُ ، وشاهدت الكتابة مقصورة الممـدود ، والبلاغة مخموشة الخدود والأدب قـد اسودَّتْ سِحْنَتُهُ ، واشتدَّتْ على الزمـن وامتدت إحنته ، [٣٨] إذ طرق بما يتجاوزُ القدرَ، ويُوحِشُ الأضالعَ من صحبة الصَّدْرِ.

---

(٣٤) مشعوب : مفرّق .
(٣٥) تبصّ : تلمع - الجنادب : نوع من الجراد - نار الحباحب ما تطاير من شرر النار فى الهواء .
(٣٦) تصرد : تخطىء - تراش : يركب عليهـا الريش - تـرهف برّقـق وتحدّد - تفهق : تمتلىء حتى تنصب - الأجاج : شديد المرارة والملوحة - العجاج : الغبار .
(٣٧) اصطلم : قطع واستأصل .
(٣٨) سحنته : لونه أو هيئته - إحنته : حقده وضغنه .

شمسُ العُلا غَرَبَتْ بحيثُ ترى ... أبداً غروبَ الشمسِ والبدرِ
من بِرِّه بكَ أَنْ يُخَطَّ له ... جَنَنٌ بقربِ عطائكَ الغمرِ(٣٩)
وكأنما هو دُرَّةٌ دُفِنَتْ ... في جَنْبِ ما ولدت من البحرِ
وتنزَّهَتْ عن أنْ يصافحها ... سَمْكُ الصفيحِ وظلمةُ القبرِ

فتعالى الله كيف استُرِدَّ ذلك البدرُ قبل تمامِهِ، وذبل ذلك الزَّهْرُ في كمامه قبل أن تشرف بموكبه الأعلام، وتروَى من بنانِهِ الأقلام، ويَعْبَقَ دَسْتُ الوزارةِ بنشره، ويُنْشَرَ رميمُ السيادةِ بطيّه ونشره، ويتاح للطروسِ من ألفاظه الدرّية ما يَفْضَحُ العقودَ الدريَّةَ، وتَعْسْعِسُ معه الليالي البدريّة.(٤٠)

وقبلَ يُرى من جودِهِ ما رأيتَهُ ... ويسمعَ فيه ما سمعتَ من العذلِ

هذا والله هو المصابُ الذي تستعذِبُ فيه الحلومُ هَفَوَاتِها وتفارقُ له القلوبُ سُوَيداواتِهَا،(٤١) وتستخفُّ النفوسُ حَمْلَ الأوزار، وتأنف العيون من لقائِهِ بالدموع الغزار، حتى تجعل ذلك دابَهَا، وتخضبَ بالنجيع(٤٢) أهدابها، إلَّا أنه نزل بالحضرة ممن شُدَّت بالتقوى مريرتُه،(٤٣) وتساوَتْ في طاعة الله علانيته وسريرته، فالجزع لا يصبحُ مالكَهُ، والخطوبُ لا تخطبُ تهالُكَه، والنازلُ يُطيفُ منه بالعَوْدِ البازل، الذي يتحقَّقُ أنَّ الدنيا نسيمُها شرَار، وطعمهَا مرار، والمقيم فيها مُوجِفٌ، والرائد مُنْبَتٌّ مُعْجِفٌ.(٤٤)

وذكرتُ بهذا الفصل ما أنشدته لبعضِ أهلِ عصري يصف غلاماً وسيماً عامَ فانحسر منه العزم ونجا بعد أن أشرف على الموت من جملة أبيات:

---

(٣٩) جنن: كفن أو قبر.
(٤٠) تعسعس: تقبل بظلامها.
(٤١) السويداء: حبّة القلب.
(٤٢) النجيع: دم الجوف.
(٤٣) مريرته بمعنى عزيمته.
(٤٤) معجف: هزيل.

شجانى المقام الصَّعْبُ لما شهدتُهُ وقد ضاقتِ الأَنْفاسُ والنفسُ تذهبُ
وقد بُهتت فيه اللواحظُ إذ رَنَتْ إلى درَّةٍ تطفو أواناً وترسب
كأنَّ خليجَ الماء كان مجرَّةً وأنت بها شمسٌ تلوحُ وتغرب
كُسيت اصفرار الروضِ عند ذبوله ولكن على الحالين مرآك أعجب
عدا الماء من ماءِ الصبا فيكَ غيرة وما خلتُ أن الماء للماءِ يَغْضَبُ
ستبقى بهذا النهرِ للناس عبرةٌ مؤرّخةٌ فى الكتب تتلى وتكتب
وتبنى على شاطىء نجاتك كعبةٌ يحجُّ لها بالحبِّ مَنْ يتقرب

* * * *

٨ - وله من أخرى :

لدىّ - أطال الله بقاء مولاى الشيخ - نفسٌ ترى النِّعَمَ مع المهانة نِقماً، وتجدُ طَعْمَ العيشِ مع عَدَمِ الإنصافِ عَلْقَماً، ولو سُمْتها خروجاً عن هذا الأسلوب، ونزولاً عن ذلك الظهر المركوب، لرأتِ الخروجَ من الصدرِ أخفَّ عليها محملًا، وأعْذَبَ لديها مَنْهَلًا :

لكل امرىءٍ من دهرِهِ ما تعوَّدا

وهذا بثٌّ اقتضاه كثرةُ تعجّبِ مولاىَ من انقطاعى عن الحضرة التى بأنوارِ مجدها تَوَضَّحتُ، وفى بحبوحة عزِّها دُرْتُ وسَرَحْتُ، وما أطلقَ من الألفاظِ التى لو حاسب لسانَهُ عليها لأنفَ من ذكرها، واستغفر من إثمها ووزْرِهَا، وقبيحٌ بمثله ممن أعطاه السؤدَدُ مقادَتَهُ، وركبَ مَتْنَ الشرف وجادّته، أن يأكلَ لحم أخيه حيًّا، ويرى غِيبةَ خُلْطائِهِ (٤٥) طعاماً مَرِيًّا، ولو عرف أصلَ ذلك وفزعَهُ، وناجتْ به الحقيقةُ لسانه وَسَمْعَهُ، فكيف أن يُزْرى وهو لا يدرى، ويتكلم وهو لا يعلم، ويستحسن قواريضَ من القريض تترك شملَ المحامدِ مُفَرّقاً، وأَدِيمَ الأعراض ممزقاً. ولقد كنتُ مُزْمِعاً على فراق العادة، واتباعِ قولِ ابن ميادة :

وحِكْتُ لهم مما أقول قصائداً تخبُّ بها صُهْبُ المهارَى وَجُونُهَا (٤٦)

---

(٤٥) الخلطاء : الشركاء أو المخالطون عموما .

(٤٦) صُهْب : جمع أصهب، وهو ذو اللون الأصفر الضارب إلى شىء من الحمرة والبياض - جُون : جمع جَوْن، وهو الأسود .

ورأيتُ أنْ أنبّـهَ مولاى على ما أنكـرته : أن يكونَ بين أمـرين : إمَّا أن يسأل عـن السّببِ الموجبِ لبعدى عن تلك الحضرة ، أو يمسكَ عن الخوضِ فى ما لا تحيطُ به الخِبْرة ، فلعلَّهُ إذا علم الحقيقةَ مهَّدَ المعذرَةَ ، وبرَّد لَفَحاتِ اللومِ المستعـرة ، وتبين أنى ما ثنيتُ عنانى عن هذا المـورد إلّا وقد تَرَنَّقَتْ مشـارِعُه ،(٤٧) ولا زويتُ وجهـى عن ذلـك المتَجَع إلَّا وقـد ذوتْ مراتِعُهُ ؛ وبعـد ذلك فبين أضلعى ولاءٌ تشتبـكُ أوَاصِرُهُ والأَنْسَابُ منفصمة ، ويشـرقُ صباحُهُ وأَسِرَّة الشمس مُظلمَـةٌ إذا حفَّتْ بـه الحفائظ رقَّ نسيمـه ، وتسـاوى فى الإخـلاص حديثُـهُ وقديمه :

فــإن أُنْصِــف فــإن يــداً تــولَّــتْ ... كُسُــورِى تَهْتــدى لمكــانِ جَبْــرى
وإنْ أُحْــرَمْ قَضــاءَ العــدلِ أَرْجِــعْ ... إلــى كَنَفَيْــنِ مــن هَجْــرٍ وصبــر

(٤٧) ترنّقت : كدرت - المشارع : موارد المياه .

الراغب الأصفهانى

(ت ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م)

أبو القاسم الحسين بن محمد بن محمد بن المفضل ، من أهل أصفهان ، سكن بغداد ، جمع بين الحكمة والشريعة حتى كان يقرن بالإمام الغزالى ، وكان مفسّرا فقيها عالما فى اللغة والأدب ، وصفه الذهبى بأنه « العلامة الماهر ، المحقق الباهر . . . من أذكياء المتكلّمين » ، ووصفه البيهقى بأنه « من حكماء الإسلام . . . وله تصانيف كثيرة . . . وكان حظّه من المعقولات أكثر » .

من مؤلفاته : تفسير القرآن – حلّ متشابهات القرآن – مقدمة التفسير – رسالة منبّهة على فوائد القرآن – درّة التأويل (وهو عن الآيات المكررة فى مواضع كثيرة من القرآن بألفاظ مختلفة) – تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين – الأخلاق – الذريعة إلى مكارم الشريعة (وهو كتاب فى الأخلاق) ،قيل إن الغزالى كان دائما يحمله معه » – أدب الشطرنج – تحقيق البيان) (وهو كتاب فى الأدب) – كلمات الصحابة . . .

وأشهر كتبه معجم « المفردات فى غريب القرآن » أو « مفردات ألفاظ القرآن » ، مرتب على الحروف مع أمثلة من القرآن والحديث والأشعار والروايات ، وهو كتاب نافع جدا لا مثيل له لا يستغنى عنه المفسرّ الناظر فى الآيات المتبيّن فى دلالات الألفاظ .

أما « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء » فقد بلغ قيمة لغوية وأدبية وتاريخية عالية ، وهو بمثابة خزانة أدب حوت موضوعات أخلاقية واجتماعية شتىّ كالعلم والجهل والإنصاف والظلم والأبوّة والنبوة والصناعات والمكاسب والصفات وغيرها ، جمع لكلّ منها أشعاره وكلماته البليغة .

* * *

١ - من المفردات فى غريب القران للراغب :

جن : أصلُ الجَنِّ سَتْرُ الشيءِ عنِ الحاسَّةِ ، يُقالُ جَنَّهُ اللَّيْلُ وأجَنَّهُ وجَنَّ عليه فَجَنَّهُ سَتَرَهُ وأجَنَّهُ جعلَ لهُ ما يَجُنُّهُ كقولِكَ قَبَرْتُهُ وَأقْبَرْتُهُ وسَقَيْتُهُ وأسْقَيْتُهُ . وجَنَّ عليه كذا سَتَرَ عليه قال عزَّ وجلَّ : (فلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا) والجَنانُ القَلْبُ لكونِهِ مَسْتُورًا عنِ الحاسَّةِ وَالمِجَنُّ والمِجَنَّةُ التُرْسُ الذى يَجُنُّ صاحبَهُ قال عزَّ وجلّ : (اتَّخذُوا أيْمَانهُمْ جُنَّةً) وفى الحَديثِ : « الصَّوْمُ جُنَّةٌ » والجَنةُ كلُّ بُسْتَانٍ ذِى شَجَرٍ يَسْتُرُ بأشْجارِهِ الأرضَ، قال عزَّ وجلَّ : (لقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فى مَسْكَنِهِمْ آيةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمينٍ وَشِمالٍ - وَبَدَّلْنَاهُمْ بجنتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ - ولوْلَا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ) قيلَ وقد تُسمَّى الأشجَارُ السَّاتِرَةُ جَنَّةً ، وعلى ذلك حُمِلَ قولُ الشاعرِ :

* مِنَ النَّوَاضِحِ تَسقِى جَنَّةً سَحِقًا *

وسُمِّيَتِ الجِنَّةُ إمَّا تشبيها بالجَنَّةِ فى الأرْضِ وإن كان بَيْنَهُمَا بَوْنٌ ، وإمَّا لِسِتْرِهِ نِعَمَهَا عنا المشارَإليها بقولِهِ تعالى (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) قال بنُ عبَّاسٍ رضى الله عنه : إنمّا قال جَنَّاتٍ بِلَفْظِ الجَمعِ لِكَوْنِ الجِنَانِ سَبْعًا جَنَّةِ الْفِردَوْسِ وَعَدْنٍ وَجَنَّةِ النَّعيمِ وَدارِ الخُلْدِ وجَنَّةِ المأْوَى ودارِ السَّلام وَعِلِّيِّين . وَالجَنِينُ الوَلَدُ مادَام فى بَطْنِ أُمِّهِ وَجَمْعُهُ أجِنَّةٌ قال تعالى (وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) وذلك فَعِيلٌ فى مَعْنَى مفعولٍ ، والجَنِينُ القَبْرُ، وذلك فعيلٌ فى معنىَ فاعِلٍ ، وَالجِنُّ يُقَالُ عَلَى وَجهَينِ : أحَدُهُمَا لِلرُّوحَانِيِّينَ المُسْتَتِرةِ عنِ الحَوَاسِّ كلِّهَا بإزَاءِ الإنْسِ فعلى هذا تَدْخُلُ فيه الملائكةُ والشياطينُ فكُلُّ ملائكةٍ جِنٌّ وليسَ كُلُّ جِنٍّ ملائكة وعلى هذا قال أبُو صَالح : الملائكةُ كلُّها جِنٌّ ، وَقِيبَ بَل الجِنُّ بَعْضُ الرُّوحَانِيِّينَ ، وذلك أنّ الرُّوحَانِيِّينَ ثلاثةٌ: أخيَارٌ وهُمُ الملائكةُ ، وأشْرَارٌ وَهُمُ الشياطِينُ ، وأوْساطٌ فيهِمْ أخْيَارٌ وأشرارٌ، وهُمُ الجِنُّ وَيَدُلُّ على ذلك قولُه تعالى (قُلْ أُوحِيَ إلىَّ) إلى قولِهِ عزوجلّ (وَأَنَّا مِنَّا المُسْلِمُونَ وَمِنَّا القَاسِطُونَ) وَالجِنَّةُ جَماعَةُ الجِنِّ قال تعالى : (مِنَ الْجِنَةِ وَالناس) وقال تعالى : (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَينَ الْجِنَةِ نَسَبًا) وَالجِنَّةُ الجُنُونُ . وقال تعالى : (مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنةٍ) أى جُنُونٍ والجُنُونُ حَائِلٌ بَينَ النَّفْسِ والعَقْلِ وجُنَّ فُلَانٌ قِيلَ أَصَابَهُ الجِنُّ وَبُنِيَ فِعْلُهُ عَلَى فُعِلَ كَبِنَاءِ الأدْوَاءِ نحوُ: زُكِمَ وَلُقِيَ وَحُمَّ ، وقيلَ اصِيبَ جنانُهُ وقيلَ حِيلَ

بينَ نَفْسِهِ وعَقْلِهِ فَجُنّ عَقْلُهُ بذلك وقولُه تعالى (مُعَلّمٌ مَجْنُونٌ) أى ضامّهُ مَنْ يُعَلّمُهُ من الجِنّ وكذلك قوله تعالى : (أئِنّا لَتَارِكُوا آلِهتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ) وَقِيلَ جُنّ التّلاعُ والآفاقُ أى كَثُرَ عُشْبًا حتى صَارَتْ كأنها مَجْنُونَةٌ وقولُهُ تعالى (وَالجَانّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السّمُومِ) فَنَوْعٌ مِنَ الجِنّ وقوله تعالى (كَأنّها جَانٌّ) قيل ضَرْبٌ منَ الحَيّاتِ .

جنب : أصلُ الجَنْبِ الجارِحَةُ وَجَمْعُهُ جُنُوبٌ ، قال اللهُ عزّ وجلّ : (فَتُكْوَى بهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ) وقال تعالى : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ) وقال عزّ وجلّ : (قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ) ثم يُسْتَعَارُ في الناحِيَةِ التى تَليها كعادتهم فى اسْتِعارةِ سائر الجوارح لذلك نحوُ اليمينِ والشّمالِ كقولِ الشاعر :

* مِنْ عَنْ يَمِينِى مَرّةً وَأمَامِى *

وقيلَ جَنْبُ الحائطِ وجانِبُهُ (والصّاحِبِ بالجَنْبِ) أى القَرِيبِ ، وقال تعالى : (يَا حَسْرَتَى عَلَى مَافَرّطْتُ فى جَنْبِ اللهِ) أى فى أمْرِهِ وَحَدِّهِ الذى حَدّهُ لنا ، وسارَ جَنِيبَهُ وَجَنِيبَتَهُ وجَنَابَيْهِ وجنابِيَتَهُ ، وَجَنَبْتُهُ أصَبْتُ جنْبَهُ نحوُ : كَبَدْتُهُ وَفَأدْتُهُ ، وَجُنِبَ شَكَا جنْبَهُ نحوُ كُبِدَ وَفُئِدَ ، وَبُنِيَ منَ الجَنْبِ الفِعْلُ عَلَى وَجْهينِ أحدُهُمَا الذّهابُ عَلَى نَاحِيَتِهِ والثانى الذهابُ إليه فالأوّلُ نحو جَنَبْتُهُ وأجْنَبْتُهُ ومنه (الجُنُبُ) أى البَعِيدِ ، قال الشاعرُ :

* فلا تَحْرِمَنّى نائِلًا عنْ جَنَابةٍ *

أىْ عَنْ بُعْدٍ ، ورجُلٌ جَنِبٌ وَجَانِبٌ قال عزّ وَجلّ (إنْ تَجْتَنِبُوا كَبائرَ مَا تُنْهَوْنَ عنهُ – الّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائرَ الإثْمِ) وقال عزّوجل : (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزّورِ – واجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ) عبارة عن تركهم إياها (فَاجْتَنِبُوهُ لعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ) وذلك أبلَغُ مِنْ قولِهِمْ اترُكُوهُ ، وَجَنّبَ بَنُو فُلانٍ إذا لم يكُنْ فى إبِلِهِم اللّبَنُ ، وَجَنّبَ فُلَانٌ خَيْرًا وَجَنّبَ شَرًّا قال تعالى فى النار : (وَسَيُجَنّبُهَا الأتْقَى الّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكّى) وَإذا أُطْلِقَ فقيلَ جَنّبَ فُلانٌ فمعناهُ أُبعِدَ عَنِ الخَيْرِ وكذلك يقالُ فى الدّعَاءِ فِى الخَيْرِ وقوله عزّ وَجلّ (وَاجْنُبْنِى وبَنِيّ أنْ نَعْبُدَ الأصْنَامَ) مِنْ جَنَبْتُهُ عن كذا أى أبْعَدْتُهُ وقيلَ هُوَ مِنْ جَنَبْتُ الفَرَسَ كأنما سألهُ أن يَقُودَهُ عَنْ جَانِبِ الشّرْكِ بألطافٍ منه وأسبابٍ خَفِيّةٍ . وَالجَنَبُ الرّوَحُ فى الرّجْلينِ وذلكَ إبْعَادُ إحدَى الرّجْلينِ عن الأخرَى خِلْقَةً

وقوله تعالى : (وَإِنْ كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا) أى إن أصابَتْكُمُ الجَنَابَةُ وذلك بإنْزالِ الماءِ أَوْ بالتِقَاءِ الخِتَانَيْنِ . وقد جَنُبَ وَأَجْنَبَ وَاجْتَنَبَ وَتَجَنَّبَ وَسُمِّيَتِ الجَنَابَةُ بذلك لكونها سَبَبًا لِتَجَنُّبِ الصَّلاةِ فى حُكْمِ الشَّرْعِ ، والجَنُوبُ يَصِحُّ أَنْ يُعْتَبَرَ فيها مَعنى المجىءِ مِنْ جانِبِ الكَعْبَةِ وأَنْ يُعْتَبَرَ فيها مَعْنَى الذَّهَابِ عنه لأنَّ المَعْنَيَين فيها مَوْجُودَانِ ، وَاشْتُقَّ مِنَ الجَنُوبِ جَنَبَتِ الرِّيحُ هَبَّتْ جَنُوباً فأَجْنَبْنَا دَخَلْنَا فيها وَجُنِبْنَا أصابَتْنَا وَسحابةٌ مَجْنُوبةٌ . هَبَّتْ عَلَيْهَا .

جنح : الْجَنَاحُ جَنَاحُ الطائرِ يُقَالُ جَنَحَ الطائر أى كَسَرَ جَنَاحَهُ قال تعالى : (وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) وسمّىَ جَانِبَا الشىءِ جناحَيْهِ فَقِيلَ : جناحَا السَّفِينَةِ وَجنَاحَا الْعَسْكَرِ وَجناحَا الوادِى وَجناحَا الإنسانِ لِجَانِبَيْهِ ، قال عزَّ وجلَّ : (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَنَاحِكَ) أى جانبك ، واضْمُمْ إليكَ جَناحَكَ عِبارةٌ عنِ اليَدِ لكوْنِ الجَناحِ كاليَد ، ولذلك قِيلَ لِجَناحَىِ الطائرِ يَدَاهُ وقوله عزّوجلّ : (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) فَاستِعارةٌ ، وذلك أنه لمَّا كَانَ الذُّلُّ ضَرْبَيْنِ : ضربٌ يضَعُ الإنسانَ ، وضربٌ يرفعُهُ ، وَقُصِدَ فى هذا المكَانِ إلى ما يَرْفَعُهُ لا إلى ما يَضعُهُ استعارَلفظَ الْجناحِ فكأنه قيلَ استعملِ الذُّلَّ الذى يَرْفعُكَ عِندَ اللهِ تعالى مِنْ أَجْلِ اكْتِسابِك الرَّحمَةَ أو مِنْ أَجْلِ رَحْمَتِكَ لَهُمَا (واضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ) وجنَحَتِ العيرُ فى سَيرِها أَسْرَعَتْ كَأنها اسْتعانَتْ بجَنَاحٍ ، وجنَح الليلُ أظَلَّ بِظَلامِهِ والجُنْحُ قطعةٌ مِنَ الليلِ مُظْلِمةٌ ، قال تعالى : (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا) أى مالُوا مِنْ قولِهِمْ جَنَحتِ السَّفِينة أى مالَتْ إلى أحَدِ جانبَيْهَا وسمِّىَ الإِثْمُ المائِلُ بالإنْسانِ عن الحَقِّ جُنَاحًا ، ثمَّ سُمِّىَ كلُّ إثم جُنَاحًا نحوُ قولِهِ تعالى : (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ) فى غيْرِ موْضعٍ ، وجوانحُ الصَّدْرِ الأَضْلاعُ المُتَّصِلَةُ رُءُوسُهَا فى وسَطِ الزَّوْرِ ، الواحِدةُ جانِحَةٌ وَذلك لِما فيهَا مِنَ المَيْلِ .

خمر : أصلُ الْخمرِ سَتْرُ الشىءِ وَيقَالُ لِما يُسْتَرُ بِهِ خِمَارٌ لكِن الخِمارُ صَارَ فى التعارُفِ اسمًا لِما تُغَطِّى به المَرْأَةُ رَأْسَهَا وَجَمْعهُ خُمُرٌ ، قَالَ تعالى : (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) ، وَاختَمَرَتِ المَرْأَةُ وَتَخَمَّرَتْ وَخمَّرْتُ الإنَاءَ غَطَّيْتُهُ ، وَرُوِى « خَمِّرُوا آنِيَتَكُمْ » ، وَأَخْمَرْتُ العجينَ جَعَلْتُ فِيهِ الخَمِيرَ ، وَالْخَمِيرةُ سُمِّيَتْ لِكَوْنِهَا مخمورَةً مِنْ قبْلُ . ودَخلَ فى خِمَارِ الناس أى فى جَمَاعَتهِمْ الساترةِ لهُمْ ، وَالْخمرُ سُمِّيَتْ لكونها خامرَةً لِمَقَرِّ العقلِ ، وهو عندَ بعضِ النَاسِ اسمٌ لكلِّ مُسْكرٍ . وعندَ بعضِهم اسمٌ للمتخَذِ منَ العِنَبِ التمرِ لما رُوِىَ

عنهُ ﷺ: « الْخَمْرُ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ النَّخْلَةِ وَالعِنَبَةِ » وَمنهمُ مَنْ جَعلهَا اسمًا لغيْرِ المطبُوخِ ، ثم كميَّةُ الطَّبخِ التى تُسْقِطُ عنهُ اسمَ الْخمرِ مختَلَفٌ فيهَا ، والخُمارُ الداءُ العارضُ مِنَ الخَمرِ وَجُعِلَ بنَـاؤُهُ بِنَاءَ الأدْوَاءِ كالزُّكَـامِ وَالسُّعالِ ، وَخُمْـرةُ الطيِّبِ ريحُــهُ وخامرهُ وَخَمَرَهُ خـالَطَهُ ولَزِمَهُ ، وَعنهُ استُعيرَ:

* خامِرِى أُمَّ عَامِرِ *

زين : الزِّينَةُ الحقيقةُ مالا يشِينُ الإنْسانَ فى شىءٍ مِنْ أحْواله لا فى الدنيا ولا فى الآخرةِ ، فأمّا مـا يَزينهُ فى حـالةٍ دون حالةٍ فهـو منْ وجْهٍ شَيْنٌ ، والـزِّينَةُ بالقوْل المُجْمَـل ثَلاثٌ : زينَةٌ نَفْسِّـةٌ كالـعلْم والاعْتِقاداتِ الحَسَنـةِ ، وزينةٌ بَـدَنِيَّةٌ كـالقُوَّةِ وطُـول القامَـةِ ، وزِينةٌ خـارِجيّةٌ كالمالِ والجاهـه . فقوله (حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَـهُ فى قُلُوبِكُمْ) فهو منَ الـزِّينةِ النَّفسيَّةِ . وقوله : (مَنْ حَرَّمَ زِينَـةَ اللهِ) فقد حُمِلَ عَلَى الزِّينَةَ الخارجيّةِ وذلك أنه قـد رُوِى أنّ قومًا كانُوا يَطُوفون بـالبيتِ عُرَاةً فَنُهُوا عَن ذلـك بهذ الآية ، وقال بعضهُـم : بلِ الزِّينةُ المذكـورَةُ فى هذه الآيةِ هى الكَرَمُ المذكورُ فى قوله : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) وعلى هذا قالَ الشاعِرُ:

* وَزِينَةُ المَرْءِ حُسْنُ الأدَبِ *

وقولهُ : (فَخَرَجَ عَلَـى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ) هى الـزِّينةُ الدُّنْيَوِيةُ مِنَ المـالِ والأثاثِ والجاه ، يُقال زانـهُ كذا وزيَّنَهُ إذا أظْهـرَ حُسْنَه إمّا بـالفعْل أو بالقـوْل وقد نسب الله تعـالى التَّزيِيـن فى مواضِعَ إلى نفسه وفـى مواضِعَ إلى الشيطان وفى مواضِعَ ذَكرَهُ غيْرَ مُسَمًّـى فاعِلهُ ، فَممَّا نَسبهُ إلى نفسهِ قولهُ فى الإيمانِ (وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) وفى الكفر قـوله : (زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ - زَيَّنَّا لِـكُلِّ أُمَّـةٍ عَمَلَهُمْ) وممّا نَسبهُ إلى الشيطان قـولهُ : (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) وقول تعالـى : (لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِـى الأَرْضِ) ولم يذكـر المفعولُ لأنَّ المعنـىَ مَفْهُومٌ . وممّا لـم يُسَمَّ فاعِلُه قوله عـزّ وجل : (زُيِّنَ لِلنَّـاسِ حُـبُّ الشَّهَوَاتِ - زُيِّنَ لَهُمْ سُـوءُ أَعْمَالِهِمْ) وقال (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) وقولهُ (زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِـنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ) تقْديرُهُ زينَهُ شُـرَكاؤُهُمْ وَقولـهُ (زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَـا بمَصَابِيحَ) وقولـه : (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الـدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ - وَزَيَّنَّـاهَا لِلنَّاظِرِيـنَ) فإشارةٌ إلى الـزِّينَةِ التى تُدْرَكُ بـالبَصرِ التى يعرفُهَـا الخَاصّة

والعامَّةُ وإلى الزِّنَة المعقُولةِ التى يختَصُّ بمَعْرفتهَا الخَاصَّة وذلك أحْكَامُهـا وسَيَرُها . وتَزْيينُ الله للأشياء قـد يكونُ بإبْداعِهَا مُـزَيَّنَةً وإيجَادِهَا كـذلك ، وتَزْيينُ الناسِ للشيءِ بِتَزْوِيقِهِمْ أو بقولِهِمْ وهوَ أنْ يَمْدَحُوهُ وَيَذكُرُوهُ بما يرْفَعُ منهُ .

سبح : السَّبْحُ المَرُّ السَّريعُ فى الماءِ وفى الهَواءِ ، يُقَالُ سَبَحَ سَبْحًا وَسِبَاحَةً وَاسْتُعِيرَ لِمَرِّ النجوم فى الفَلَكِ نحوُ (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُـونَ) ولَجرْيِ الفَرَسِ نحوُ (فَالسَّابحَات سَبْحًا) وَلِسُرْعَةِ الذَّهَابِ فـى العَمَلِ نحوُ (إنَّ لَكَ فى النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا) والتَّسْبِيـحُ تَنْزِيهُ الله تعالى وأصْلُهُ المَرُّ السَّريعُ فى عِبَادَةِ اللهِ تعالى وَجُعِلَ ذلـك فى فِعْلِ الْخَيْرِ كما جُعِلَ الإبْعَادُ فى الشَّرِّ فقيلَ أبْعَدَهُ اللهُ ، وَجُعِـلَ التَّسْبِيحُ عَامًّا فى العبـادَاتِ قَـوْلا كَانَ أو فِعْـلًا أو نِيَّـةً ، قَـالَ (فَلَوْلاَ أنَّهُ كـانَ مِنَ المُسَبِّحِيـنَ) قيلَ مِـنَ المُصَلِّينَ وَالأوْلى أنْ يُحْمـلَ عَلَـى ثَـلاثَتِهَا ، قـــال : وَنَحْنُ نُسَبِّـحُ بِحَمْدِكَ - وَسَبِّـحْ بِالْعَشِـيِّ - فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـارَ السُّجُودِ لَـوْلاَ تُسَبِّحُونَ) أى هـلا تَعْبُدُونَهُ وَتَشْكُرُونَهُ وَحمِلَ ذلك على الاَسْتِثْنَاءِ وهـو أن يقولَ إنْ شاءَ اللهُ وَيَدُلُّ على ذلك قولُه : (إذْ أقْسَمُوا لَيَصْـرِ مُنَّهَا مُصْبِحِيـنَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ) وقال : (تُسَبِّـحُ لَهُ السَّمٰـوَاتُ السَّبْعُ وَالأرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) فذلك نحوُ قولِهِ : (وَلِلهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰـوَاتِ وَالأرْضِ طَوْعًـا وَكَرْهًا - وَلِلهِ يَسْجُـدُ مَا فـي السَّمٰوَاتِ وَمَـا فـي الأرْضِ) فذلك يَقْتَضِـى أنْ يـكُونَ تَسْبِيحًا عـلــى الحقيقةِ وَسُجُودًا لـه علـى وجْـهٍ لانَفْقَهُهُ بدلالـةِ قولـهِ : (وَلٰكِنْ لاَتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُـمْ) ودلالة قـولِهِ (وَمَنْ فِيهِـنَّ) بَعْدَ ذِكْـرِ السَّمٰوَات وَالأرْضِ ولا يصحُّ أنْ يكونَ تَقْدِيرُهُ: يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ،وَيَسْجُدُ لَهُ مَنْ فى الأرْضِ،لأنَّ هٰذَا مِمَّا نَفْقَهُهُ وِلأنه مُحَالٌ أنْ يكونَ ذلك تَقْدِيرُهُ ثم يُعْطَفَ عليه بقولِهِ (وَمَنْ فِيهِنَّ) والأشياءُ كُلُّهَا تسَبِّحُ له وتَسْجُدُ بَعْضُهَا بالتَّسْخِيـرِ ، وَبَعْضُهَا بالاخْتيَارِ ولا خِلَافَ أنَّ السَّمٰوَاتِ والأرْضَ وَالدَّوَابَّ مُسَبِّحَـاتٌ بالتَّسْخِيرِ مِنْ حَيْثُ إنَّ أحْوَالَهـا تَدُلُّ علـى حِكْمَةِ اللهِ تعـالى ، وإنمـا الخِـلَافُ فى السمـوات والأرضِ هَلْ تُسَبِّحُ باخْتِيَـارٍ ؟ والآيَة تَقْتَضِـي ذلك بمـا ذَكَرْتُ مِـنَ الدَّلاَلَةِ ، وسُبْحَانَ أصْلُـهُ مَصْـدَرٌ نحـوُ غُفْرَانٍ قال (فَسُبْحَانَ الله حِيـنَ تُمْسُـون - وَسُبْحَانَكَ لاَعِلْمَ لَنَا) وقولُ الشاعرِ:

* سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الفاجِرِ *

قِيلَ تَقْدِيرُهُ سُبْحَانَ عَلْقَمَةَ على طريقِ التَّهَكُّم فَزَادَ فيه مِنْ رَدًّا إِلَى أَصْلِهِ ، وقِيلَ أَرَادَ سُبْحَانَ اللهِ مِنْ أَجْلِ عَلْقَمَةَ فحُذِفَ المُضَافُ إليه . والسُّبُّوحُ القُدُّوسُ مِنْ أسماءِ الله تعالى ولَيس في كلامهم فُعُّولٌ سواهما . وقد يُفتحان نحو كَلُّوبٍ وسَمُّورٍ، والسُّبْحَةُ التسبيحُ . وقد يُقال للخَرَزَاتِ التي بها يُسَبِّحُ سُبْحَةً .

سقى : السَّقْيُ والسُّقْيَا أَنْ يُعْطِيَهُ مَا يشْرَبُ ، وَالإِسْقَاءِ أن يجْعَلَ لهُ ذلك حتى يتَنَاوَلَهُ كَيْفَ شَاءَ ، فَالإِسْقاءُ أَبْلَغُ مِنَ السَّقْيِ لأنَّ الإسقَاءَ هُوَأن تجْعَلَ لهُ مَا يُسْقَى منه وَيشْرَبَ ، تَقُولُ أَسْقَيْتُهُ نَهَرًا ، قَالَ تعالى : (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) وقال : (وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا - وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ)وقال في الإِسقاءِ(وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا) وقال:(فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ) أي جَعَلْنَاهُ سَقْيًا لَكُمْ وقال : (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فى بُطُونِهَا) بالفتح والضم وَيُقَالُ للنَّصِيبِ مِنَ السَّقْيِ سَقْيٌ، وَلِلأَرْضِ التى تُسْقَى سِقْيٌ لِكونهمَا مفعُولَينِ كَالنَّقْضِ ، وَالاسْتِسْقاءُ طَلَبُ السَّقْيِ أوِ الإِسقَاءِ ، قال تعالى : (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسى) وَالسِّقَاءُ مَا يُجْعلُ فيه ما يُسْقَى وَأَسْقَيْتُكَ جِلْدًا أَعْطَيْتُكَهُ لِتَجْعَلَهُ سِقَاءً ، وَقولُه تعالى : (جَعَلَ السِّقَايَةَ فى رَحْلِ أَخِيهِ) فهو المُسمَّى صُوَاعَ المَلِكِ فتَسْمِيَتُهُ السِّقَايَةَ تنبيهًا أنه يُسْقَى به وَتَسْمِيتهُ صُوَاعًا أنهُ يُكالُ به .

سكب : ماءٌ مَسْكُوبٌ مَصْبُوبٌ وَفَرَسٌ سَكْبُ الجَرْيِ وَسَكَبْتُهُ فَانْسَكَبَ وَدَمْعٌ سَاكِبٌ مُتَصَوَّرٌبِصُورةِ الفاعِلِ ، وقد يُقَالُ مُنْسَكِبٌ وَثوبٌ سَكْبٌ تشبيهًا بالمُنْصَبِّ لِدِقَّتِه وَرِقَّتِه كأنه ماءٌ مَسْكوبٌ .

سكت: السُّكُوتُ مُخْتَصٌّ بِتَرْكِ الْكلام ورَجُلٌ سِكِّيتٌ وساكُوتٌ كثِيرُ السُّكُوتِ وَالسَّكْتَةُ وَالسُّكَاتُ مَا يَعْتَرِى مِنْ مَرَضٍ ، وَالسَّكْتُ يَخْتَصُّ بِسُكُونِ النَّفَسِ في الْغِنَاءِ والسَّكَتَاتُ فى الصلاةِ السُّكُوتُ فى حَالِ الافْتِتَاحِ وبَعْدَ الْفَرَاغِ ، وَالسُّكَيْتُ الذى يَجِيءُ آخِرَ الْحَلْبَةِ ، وَلَمَّا كان السُّكُوتُ ضَرْبًا مِنَ السُّكُونِ اسْتُعِيرَ لهُ في قَوْلِه : (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) .

سكر : السُّكْرُ حَالَةٌ تَعْرِضُ بَيْنَ المَرْءِ وَعَقْلِهِ ، وَأَكْثَرُ ما يُسْتَعْمَلُ ذلك فى الشَّرَابِ ، وقد يَعْتَرِى مِنَ الغضَبِ والعِشْقِ ، ولذلك قال الشاعر:

* سُكْرَانِ سُكْرُ هَوًى وَسُكْرُ مُدَامِ *

ومنه سَكَرَاتُ المَوْتِ ، قال تعالى (وَجَاءَتْ سَكْـرَةُ المَوْتِ) وَالسَّكَرُاسمٌ لِماَ يكُونُ منه السُّكْرُ، قال تعالى : (تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَـكَـرًا وَرِزْقًا حَسَنًا) والسَّكْرُ حَبْسُ المَاءِ ، وذلك باعْتِبَارِ ما يَعْـرِضُ مِنَ السَّـدِّ بَيْنَ المَـرْءِ وَعَقْلِهِ ، والسُّكْرُ المَـوْضِعُ المسْـدُودُ ، وقولـهُ تعالـى : (إِنَّمَا سُكِّرَتْ أبْصَـارُنَا) قيلَ هو مِـنَ السَّكْرِ ، وقيلَ هـو مِنَ السُّكْرِ ، وَلَيْلَـةٌ ساكِرَةٌ أى ساكِنَـةٌ اعْتِبَارًا بالسُّكُونِ العَارِضِ مِنَ السُّكْرِ .

سكن : السُّكُونُ ثُبُوتُ الشـىءِ بَعْدَ تحرُّكٍ ، وَيُسْتَعْملُ فى الإسْتِيطانِ نحـوُ : سَكَنَ فلانٌ مَكانَ كذا أى اسْتَوطَنَـهُ ، وَاسـمُ المـكَانِ مَسْكَنٌ وَالجمـعُ مَسَاكِـنُ ، قـال تعـالى : (لاَ تُـرَى إلاّ مَسَاكِنُهُمْ) وقال تعالى : (وَلَهُ مَا سَكَنَ فى اللّيْلِ وَالنّهَارِ – وَلِتَسْكُنُوا فِيهِ) فَمِنَ الأوّلِ يُقَالُ سَكَنْتُهُ ، وَمِـنَ الثانى يُقَالُ أسْكَنْتُـهُ نحوُ قولِـهِ تعالى : (رَبّنَـا إنِّى أسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِـى) وقال تعالى : (أَسْكِنُـوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِـنْ وُجْدِكُمْ) وقولُـهُ تعالى : (وَأَنْزَلْنَا مِـنَ السَّماءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنّاهُ فـى الأَرْضِ) فتَنْبِيهٌ منه عَلَى إيجَادِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى إفْنَـائِهِ ، وَالسَّكَنُ السُّكُونُ وَمَا يُسْكَنُ إليْهِ ، قـال تعالى : (وَاللهُ جَعَلَ لَكُـمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًـا) وقال تعالى : (إنَّ صَـلاَتَكَ سَكَنٌ لهُـمْ – وَجَاعِلُ اللّيْـل سَكَنًا) والسَّكَنُ النـارُالّتى يُسْكَـنُ بهَا ، والسُّكْنَى أنْ يَجْعَـلَ لهُ السُّكُونَ فى دَارٍ بِغَيْـرِ أُجْرَةٍ ، والسَّكْنُ سُكّانُ الـدّارِ نحوُ سَفْرٍ فى جَمْـعِ سَافِرٍ ، وقيلَ فـى جَمْعِ ساكِنٍ سُكّانٌ ، وَسَكّانُ السَّفِينَـةِ مَا يَسْكُنُ بِهِ ، وَالسِّكِّينُ سُمِّىَ لإزَالَتِهِ حَرَكَـةَ المَذْبُوحِ ، وقولُهُ تعالى : (أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فى قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ) فقد قيلَ هو مَلَكٌ يُسَكِّنُ قَلْبَ المُؤْمِنِ وَيُؤَمِّنُهُ ، كماَ رُوِىَ أنَّ أَمِيرَ المُـؤْمِنِينَ عليه السلامُ قال : إنَّ السَّكِينَـةَ لَتَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَـرَ ، وقيلَ هوَ العَقْـلُ . وقيـلَ لـهُ سَكِينَةٌ إذَا سَكَّنَ عَـنِ المَيْلِ إلى الشَّهَـوَاتِ ، وَعَلَى ذلك دلَّ قوْلُهُ تعـالى : (وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْـرِ اللهِ) وقيلَ السَّكِينَةُ والسَّكَنُ وَاحِدٌ وهو زَوَالُ الرُّعْبِ ، وَعَلَـى هذا قولُهُ تعالى : (أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) وَمَا ذُكِرَ أنّهُ شىءٌ رَأْسُهُ كَرَأْسِ الْهِرِّ فمَا أرَاهُ قوْلاً يَصِـحُّ . وَالْمِسْكِينُ قيلَ هـو الذى لا شىءَ لـه وَهو أبْلَـغُ مِنَ الْفَقِيرِ ، وقـولُهُ تعالـى : (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَـانَتْ لِمَسَاكِـينَ) فإنهُ جَعَلَهُـمْ مَسَاكِينَ بَعْـدَ ذهَـابِ السَّفِينَةِ أوْ لأنَّ سفِينَتَهُمْ غيْرُ مُعْتَدٍّ بهَا فـى جَنْبِ مَـا كانَ لَهُمْ مِنَ المَسْكَنَـة ، وقـولُـهُ : (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الـذِّلَّةُ وَالمسْكَنَةُ) فالمِيمُ فى ذٰلِكَ زَائِدَةٌ فى أصَحِّ القَوْلَيْنِ .

سل : سَلُّ الشيءِ مِنَ الشيء نَزْعُهُ كَسلِّ السيْفِ مِنَ الغِمْدِ وَسَلُّ الشيءِ مِن البيتِ على سَبِيلِ السَّرِقَةِ وَسَلُّ الوَلَدِ مِنَ الأبِ ومنه قيلَ للولَدِ سَلِيلٌ قال تعالى : (يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا) وقولُهُ تعالى : (مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) أى مِنَ الصَّفوِ الذى يُسَلُّ مِنَ الأَرْضِ وقيلَ السُّلَالَةُ كِنَايَةٌ عَنِ النطفَةِ تُصُوِّرَ دُونَهُ صَفْوُ مَا يَحْصُلُ منه . والسُّلُّ مَرَضٌ يَنْزِعُ به اللَّحْمُ والقُوَّةُ وقد أسَلَّهُ اللهُ وقولهُ عليه السلامُ : « لا إِسلَالَ وَلا إِغلالَ » وتَسَلْسَلَ الشيءُ اضطَرَبَ كأنه تُصُوِّرَ منه تَسلُّلٌ مُتَرَدِّدٌ فَرُدِّدَ لَفْظُهُ تنبيهًا على تَرَدُّدِ مَعْنَاهُ ومنه السِّلْسِلَةُ ، قال تعالى : (في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا) وقال تعالى: (سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا) وقال: (والسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ) ورُوِىَ « يا عَجَبًا لقومٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بالسَّلَاسِلِ ».وماءٌ سَلْسَلٌ مُتَرَدِّدٌ فى مَقَرِّهِ حتى صفَا ، قال الشاعرُ:

* أَشْهَى إِلَىَّ مِنَ الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ *

وقولُهُ : (سَلْسَبِيلًا) أى سَهْلًا لَذِيذًا سَلِسًا حَدِيدَ الْجِرْيَةِ وقيلَ هو اسمُ عَيْنٍ فى الْجَنَّةِ وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ ذلك مُرَكَّبٌ مِنْ قولِهِمْ سَلْ سَبِيلًا نحوُ الحَوْقَلَةِ وَالبَسْمَلَةِ ونحوهما مِنَ الألفاظ المُرَكَّبَةِ وَقيلَ بلْ هو اسمٌ لِكُلِّ عَيْنٍ سَرِيعِ الجرْيَةِ ، وأَسَلَةُ اللِّسانِ الطَّرَفُ الرَّقِيقُ .

عين : العَيْنُ الجارِحَةُ ، قال (وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ - لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ - وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ - قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ - كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا) ويُقَالُ لِذِى العَيْنِ عَيْنٌ ، وَللمُرَاعِي للشيءِ عَيْنٌ ، وفلَانٌ بِعَيْنِى أى أَحْفَظُهُ وَأُرَاعِيهِ كقولك هوبِمَرْأًى مِنِّى وَمَسْمَعٍ ، قال (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) وقال (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا - وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا) أى بحيثُ نرى وَنحفَظُ (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) أى بِكَلاءَتى وحِفْظِى ومنه عينُ اللهِ عَلَيْكَ : أى كنت فى حفظِ اللهِ ورِعايَتِه ، وقيل جَعَلَ ذلك حَفَظَتَهُ وَجُنُودَهُ الذين يحفَظُونَه وَجَمْعُهُ أَعْيُنٌ وَعُيُونٌ ، قال (وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ - رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ) ويُستَعارُ العَيْنُ لِمعانٍ هى مَوْجُودَةٌ فى الجَارِحَةِ بِنَظَرَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، واسْتُعِيرَ لِلثُّقْبِ فى المِزَادَةِ تشبيهًا بهَا فى الهيْئَةِ وفى سَيَلانِ الماء منها فاشْتُقَّ منها سِقَاءٌ عَيِنٌ وَمَعِينٌ إذا سال منها الماءُ ، وقولُهُم عَيِّنْ قِرْبَتَكَ أى صُبَّ فيها ما يَنْسَدُّ بِسَيَلانِه آثارُ خَرْزِه ، وقيلَ للمُتَجَسِّسِ عَيْنٌ تشبيهًا بها فى نَظَرِهَا وذلك كما تُسَمَّى المرْأَةُ فَرْجًا وَالمَرْكُوبُ ظَهْرًا ، فيقَالُ فُلانٌ يَمْلِكُ كذا فَرْجًا وكذا ظَهْرًا لمَّا كان المقْصُودُ منهما العِضْوَيْنِ ، وقيلَ لِلذَّهبِ عَيْنٌ تشبيهًا بها فى كوْنِهَا أَفْضَلَ الجَوَاهِرِ كما أنَّ هذه الجارِحَةَ

أفضَلُ الجوَارح ومنه قيل أعيَانُ القوم لأفَـاضِلِهِمْ ، وأعْيَانُ الإخْوَةِ لبَنى أبٍ وَأُمّ ، قال بعضهم : العَيْنُ إذا اسْتُعْمِلَ فى مَعْنى ذاتِ الشىءِ فَيُقَالُ كَلُّ مالِهِ عَيْنٌ فكَاسْتِعْمالِ الرَّقَبَةِ فى المَمَالِيكِ وَتَسْمِيَةِ النِّساءِ بِالفَرْجِ مِنْ حَيْثُ إنه هو المقْصُـودُ مِنْهُنَّ ويُقالُ لِمَنْبَعِ الماءِ عَيْنٌ تشبيهًا بها لما فيهـا من الماءِ ، ومنْ عَينِ الماءِ اشْتُقَّ مـاءٌ مَعِينٌ أى ظَاهِـرٌ لِلعُيُون ، وَعَيْنٌ أى سـائِـلٌ ، قـال (عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا – وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا – فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ – عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ – وَأَسَلْنَا لَـهُ عَيْنَ القِطْـرِ – فى جَنَّـاتٍ وَعُيُونٍ – مِـنْ جَنَّاتٍ وَعُيُـونٍ – وَجَنَّاتٍ وَعُيُـونٍ وَزُرُوعٍ) وعِنْتُ الرَّجُـلَ أصَبْتُ عَيْنَهُ نحو رَأَسْتُهُ وَفَأَدْتُـه ، وَعِنْتُه أَصَبْتُه بِعَيْنى نحو سِفْتُـه أَصَبْتُه بِسَيْفِى ، وذلك أنه يُجْعَل تَارَةً من الجارِحَةِ المَضْرُوبَةِ نحوُ رَأَسْتُـهُ وفأَدْتُه وتارَةً من الجارِحَةِ التى هى آلَةٌ فى الضَّرْبِ فَيَجْرى مَجْرَى سِفْتُهُ وَرَمَحْتُه ، وعَلَى نحوه فى المَعْنَيَيْنِ قولهمْ يَدَيْتُ فإنهُ يُقالُ إذا أصَبْتَ يَدَهُ وإذا أصَبْتَـهُ بِيَدِكَ ، وتَقولُ عِنْتُ البِئْرَ أثَـرْتُ عَيْنَ مائِهَا ، قَال (إِلَـى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ – فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) وقيل المِيمُ فيـه أَصْلِيَةٌ وإنمَا هو منْ مَعَنْتُ . وَتُسْتَعَارُ العيْنُ لِلْمَيْلِ فـى الميزَانِ ويُقَالُ لِبَقَـرِ الْوَحْشِ أعْيَـنُ وَعَيْنَاءُ لُحُسْنِ عَيْنِـه ، وَجَمْعُهَا عِينٌ ، وَبهَـا شُبِّهَ النِّسَاء ، قَال : (قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ – وَحُورٌ عِينٌ) .

عيى : الْإعْيَاء عَجْـزٌ يَلْحَقُ البَدَنَ منَ المَشْى ، وَالعِـىُّ عَجْزٌ يَلْحَقُ مِنْ تَوَلّـى الأَمْرِ والكلامِ قال : (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ – وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ) ومنه عَىَّ . فى مَنْطِقِهِ عَيًّا فهو عَيِىٌّ ، وَرَجُلٌ عَيَايَاءُ طَبَاقَاءُ إذَا عَيِىَ بالكلامِ وَالأمرِ ، وَدَاءٌ عَيَاءٌ لَا دوَاءَ له ، واللهُ أعلمُ .

* * *

٢ – من « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء » :

مما جاء فى الأخلاق الحسنة والقبيحة :

الحث على حسن الخلق ومدح ذلك :

قال الله تعالـى :(خذ العفو وأمر بالعرف) قيـل : ما عفا لك من محاسـن أخلاق الناس . وقال تعالى :(واخفض جنـاحك لمن اتبعك من المؤمنين) وقال النبـى ﷺ : إنكم لن تسعوا

الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم . ويقارب ذلك ما قيل لفيلسوف : هل من جود يتناول به الخلق ؟ فقال : نعم أن تحسن الخلق وتنوى لكل أحد الخير . وقال ﷺ : إن أحبكم إليّ أحاسنكم أخلاقاً ، الموطئون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون . وقال ﷺ : حرم الله النار على كل هين لين سهل قريب . وقال لأبى الدرداء : ألا أدلك على أيسر العبادة وأهونها على البدن ؟ قال : بلى يا رسول الله ؛ فقال : عليك بالصمت وحسن الخلق فإنك لن تعمل مثلهما . وقيل : فى سعة الأخلاق كنوز الأرزاق . وقال مكحول : المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف ، إن قدته انقاد ، وإن أنخته على صخرة استناخ .

شاعر : ما لم يضقْ خلقُ الفتى فالأرضُ واسعةٌ عليه .

وقال آخر :

لو أننى خيّرتُ كل فضيلةٍ ... ما اخترتُ غيرَ مكارمِ الأخلاق !

الممدوح بحسن الخلق :

سئلت عائشة – رضى الله عنها – عن خلق النبى ﷺ فقالت : أو ما تقرؤون القرآن : (وإنك لعلى خلق عظيم)؟ وقيل : فلان على خير ما تبنى عليه الضرائب . وقال البحترى :

سلام على تلك الخلائق إنها ... مسلمة مِن كل عارٍ ومأثمِ

أبو الفرج الأصبهانى :

خلائقُ كالحدائقِ طاب منها النسيمُ وأينعَتْ مِنها الثمارُ

وقيل : صفاء الأخلاق من نقاء الأعراق .

النهى عن سوء الخلق :

قال النبى ﷺ : من ساء خلقه عذب نفسه . وقال عليه السلام : خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق وقيل : سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الصبر العسل .

وقال الأحنف : الداء الدوى الخلق الردئ واللباس البذئ ، بئس الملبوس العبوس. وقيل : ليس لسيء الخلق توبة ؛ لأنه كلما خرج من ذنب دخل فى آخر؛ لسوء خلقه .

المذموم بسوء الخلق :

صحب رجل رجلًا سيىء الخلق فلما فارقه قال : قد فارقته وخلقه لم يفارقه . وقال أعرابى لرجل : إنك شكس الخلق دائم القطوب !

عمروبن كلثوم :

وكنت امرأ لو شئتَ أن تبلغَ المنى ... بلغتَ بأدنى غايةٍ تستديمُها

ولكن فطام النفسِ أثقلُ محملًا ... من الصخرة الصمَّاء حين ترومُها

وقيل : لا مداراة للخلق السيىء القبيح ، كالشجرة لو طليت بالعسل لم تثمر إلا مراً ، أو كذنب الكلب لو أدخلته القالب سنين لعاد إلى اعوجاجه .

المتمدح بمصابرة سيىء الخلق :

قال رجل لأحمد بن أبى خالد : لقد أعطيت ما لم يعط رسول الله ﷺ ! فقال : لئن لم تخرج من ذلك لأضربنك ! فقال الرجل : إن الله تعالى قال لنبيه﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ وأنت فظ ونحن لا ننفض من حولك . وقال شعيب بن حرب : خطبت امرأة فأجابتنى ، فقلت : إنى سيىء الخلق فقالت: أسوأ خلقاً منك من يلجئك إلى سوء الخلق ! وقال حبيب لرجل سيىء الخلق : إن استطعت أن تغير خلقك وإلا فليسعك من أخلاقنا ما ضاق به ذرعك .

الحث على الأمانة والنهى عن الخيانة :

قال الله تعالى :﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ وقال :﴿ولا تكن للخائنين خصيما﴾ وقال :﴿إن الله لا يهدى كيد الخائنين﴾ وقال النبى ﷺ : لا إيمان لمن لا أمانة له .

ومن دعائه عليه السلام : أعوذ بك من الخيانة فبئست البطانة ! وقال الجاحظ : سقى الله قبر الأحنف حيث يقول : الزم الصحة يلزمك العمل . وقال : إذا لم تكن خائناً فبت آمناً . وقيل : أفحش الزمانة عدم الأمانة . إذا ذهب الوفاء نزل البلاء ، وإذا مات الاعتصام عاش الانتقام . خيانة الناس أقبح الإفلاس . وقال معاوية : الزم الرفيعين : الأمانة والعدل .

الحث على الوفاء ومدحه :

قال الله تعالى :(وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون). وقال :(يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود). وقال :(وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها). وقيل : إذا ذهب الوفاء نزل البلاء ، وإذا ظهرت الخيانات استمحقت البركات . وقيل : الوفاء من شيم الكرام والغدر من همم اللئام . وقيل في قوله تعالى ،(وثيابك فطهر): لا تلبس ثيابك على الغدر.

مدح ذوى الوفاء :

قال الله تعالى :(والموفون بعهدهم إذا عاهدوا)(والذين هم لأماناتهم راعون).

شاعر:

ولم توقد لها بالغدر نار

المسيب بن علس :

أنت الوفى فما تذم وبعضُهم   يوفى بذمته عقاب ملاع

وقال أعرابى : فلان لا يشكره الخنا ولا يشكوه الوفا .

التنوخى :

عظائم لو أنّ السموءلَ خافَها   لخانَ امرأ القيس الوكيدِ من العهدِ

من التزم مكروهاً فى التزام الوفاء :

قيل : أكرم الوفاء ما كان عند الشدّة ، وألأم الغدر ما كان عند الثقة . كان السموأل أودعه امرؤ القيس دروعاً ، فقصده الملك وأخذ ابنه وقال: إن دفعت الدروع إلى و إلا ذبحت ابنك ! فقال : أجلنى يومًا ، فجمع عشيرته واستشارهم ، فكل أشار بأن يدفع إليه . فلما أصبح قال : ليس إلى دفعها سبيل فافعل ما بدا لك ! فذبح الملك ابنه ؛ فوافى السموأل بالدروع الموسم ودفعها إلى ورثة امرىء القيس . فقال :

وفيت بأدرع الكندى إنى إذا ما خان أقوامٌ وفيتُ

وفيه قال الأعشى ، وهى أبيات جيدة رائقة :

كنْ كالسموأل إذ طاف الهمامُ به فى جحفلٍ كسوادِ الليلِ جرارِ
بالأبلق الفردِ من تَيماء مَنزله حَصنٌ حصينٌ وجارٌ غير غدارِ
قد سامَهُ خطتى خسف فقال له : قل ما بدا لك إنى سامع دار !
فقال : ثكل وغدر أنت بينهما فاختر ، وما فيهما حظٌّ لمختار !
فكرَّ غير طويل ثم قال له : اقتل أسيركَ إنى مانعٌ جارى !

وعمير بن سليم الحنفى كان يقصده السواقط فلا يتعرض لقصاده . وكان مرداس فى سجن عبيد الله بن زياد فقال له السجان : أنا أحب أن أوليك حسنى ، فإن أذنت لك فى الانصراف إلى دارك أتدلج على ؟ فقال : نعم فكان يفعل ذلك به ، فلما كان ذات يوم قتل بعض الخوارج صاحب شرطة زياد ، فأمر زياد أن يقتل من فى الحبس من الخوارج ، وكان مرداس خارجاً ، فقال أهله : اتقِّ الله فى نفسك فإنك مقتول إن رجعت ! فقال : ما كنت لألقى الله غادراً وهذا جبار، ولا آمن أن يقتل السجان ، فرجع . وقال للسجان : تساقط إلىَّ ما عزم صاحبك عليه من قتل أصحابنا فبادرت لئلا يلحقك مكروه ! فقال السجان : خذ أى طريق شئت فانج نجاك الله !

الوفيات من النساء :

قال أبو عبيدة : لم تف امرأة لزوجها إلا قضاعيتان : نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان رضى الله عنه ، وذلك أنه خطبها معاوية لما قتل عثمان فدعت بفهر فقلعت ثنيها وقالت : إنى رأيت الحزن يبلى فلم آمن أن يبلى حزنى فتدعونى نفسى إلى التزوج ! وامرأة هدبة ، فإنها حين قتل زوجها قطعت أنفها وكانت حسنة الأنف ، لئلا يرغب فيها .

ومما جاء فى الغناء والمغنين والملاهى وآلاتها :

الرخصة فى الغناء :

قيل لأبى حنيفة وسفيان رحمهما الله : ما تقولان فى الغناء ؟ فقالا : ليس من الكبائر ولا من أسوأ الصغائر. وقيل للعتابى فقال : حلال من الفائق حرام من غير الحاذق . وسئل بعضهم فقال : هو من ارتياح الكرم وامتياح النعم ، من قال هو مباح و إلا قال ليس فيه جناح ، قد يعفو الله عما فوقه ويأخذ بما دونه . وقال ابن الراوندى : اختلفوا فى جواز الغناء وأنا أخالف الفريقين فأقول : هو واجب . مر عمر رضى الله عنه بدار قوم فسمع ضجة فقال : ما هو ؟ فقيل : عرس . فقال : وما يمنعهم أن يخرجوا غرابيلهم فإنها من أمارة العرس ؟ وحضر الشعبى وليمة فقال : كأنكم فى نائحة ، أين الدف ؟ وقال عبد الملك لعبد الله بن جعفر : من أين استجزتم معشر أهل المدينة الغناء الذى استقبحناه ؟ فقال له ابن جعفر : أنت تأتى ما هو أقبح من هذا وأنت فى غفلة عنه ، يأتيك أعرابى جلف مهلب العجان منتن الإبطين ، فيقذف عندك المحصنات ويشبب بربات الحجال ويقول فيهن الزور ، ثم يشبهك مرة بحجر ومرة بشجر ، ومرة بالأسد والسيل والبحر ، فتصغى إليه وتخلع عليه . قال بعض الفقهاء بحضرة الرشيد لابن جامع : الغناء يفطر الصائم فقال : ما تقول فى بيت عمر بن أبى ربيعة إذ أنشد :

أمن آل نعمٍ غادٍ فمبكر

أيفطر الصائم ؟ قال : لا . قال : إنما هو أن أمد به صوتى وأحرك به رأسى .

فضل الغناء :

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : مدار الدنيا على أربع : البناء والنساء والطلاء والغناء . وقيل : اللذات أربع : أكل وشرب وسماع ونكاح ، وكل يوصل إليه بتعب إلا الغناء لا يكره الغناء إلا من عرضت له آفة في حاسته ، كما لا يكره الطيب إلا من في شمه آفة . وحكى أهل الهند أن الزنديبل إذا أخذ امتنع من العلف ، فيغنى له بالألحان الشجية حتى تطيب نفسه . من سمع الغناء فلم يرتح له كان عديم الحس أو سقيم النفس . وكان حكماء الهند يسمعون المريض الغناء ، ويزعمون أنه يخفف العلة ويقوى الطبيعة . وبالأصوات الطيبة ينوّم الطفل ، وتحدى الإبل ، وتجمع السمك في حظائرها ، وتصطاد الظباء والأسود من مرابضها . وقيل : الغناء غذاء الأرواح كما أن الطعام غذاء الأشباح . وهو يصفي الفهم ويرقق الذهن ويلين العريكة ، ويثني الأعطاف ويشجع الجبان ويسخي البخيل .

أبو حامد الغزالى

(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٩ - ١١١١ م)

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطُّوسى الغزالى ، ولد بطوس، وكان أبوه فقيرا صالحا لا يأكل إلا من كسب يده فى عمل غزل الصوف ، شغوفا بمجالس العلماء يتوفّر على خدمتهم .

ورث الغزالى حب العلم عن أبيه ، فقرأ فى صباه طرفا من الفقه وأتقن الخطّ ، وسافر إلى جرجان لتلقى العلم ، ثم رجع إلى بلده طوس ، ومكث بها فترة ، رحل بعدها إلى نيسابور ، لازم فيها إمام الحرمين الجُوَينى - إمام الأئمة لعصره على الإطلاق (ت ٤٧٨) وجدّ واجتهد حتى برع فى الجدل والمنطق والحكمة والفلسفة ، وصنّف كتبا فى فنون مختلفة ، أحسن تأليفها وحازت شهرة طبقت الآفاق ، وبعد أن توفى أستاذه الجوينى قدم على نظام الملك ملكشاه السلجوقى فولّاه تدريس الفقه الشافعىّ فى مدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٨٤ ، ثم شرفت نفسه عن رذائل الدنيا وأعرض عما فيها من الجاه والمناصب ، فاستناب أخاه أحمد فى التدريس ، وقصد بيت الله الحرام فحجّ وتوجه إلى الشام سنة ٤٨٨ وجاور بيت المقدس ، ثم عاد إلى دمشق ، واعتكف فى زاويته بالجامع الأموى وقد عرفت بالغزالية نسبة إليه ، وارتحل الغزالى بعد ذلك مرة أخرى إلى بغداد ، فعقد بها مجالس للوعظ حدّث فيها بكتابه « الإحياء » ، ثم عاد إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدّة يسيرة ، رجع بعدها إلى طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية واشتغل بإدامة الصلاة والصيام والتدريس لطلبة العلم ومجالسة أرباب القلوب .

وقد عُرف عنه الزهد والورع وسلوك طريق التصوف ، والرغبة فى ترك المجادلات والخلافات فى الفروع لأنها ليست من الدين فى شىء ، والدعوة إلى تنمية الشعور الدينى القوى ليصبح تجربة نفسية قلبية مصحوبة بالإخلاص وصدق الشعور الباطنى .

وله مؤلفات كثيرة ، منها : « جواهر القرآن » فى العقيدة ، و« المنحول فى الأصول » و« المستصفى من علم الأصول » و« البسيط فى الفروع » ، ومختصره « الوسيط المحيط

بأقطار البسيط » و« الوجيز » وهو مختصر للكتاب السابق ، وهذه المؤلفات فى الفقه ، أما فى التفلسف ، فممّا لـه : « تهافت الفلاسفـة » ، و« مقـاصـد الفـلاسفـة » و« فـاتحـة العلوم » و« المنقذ مـن الضلال » ، وفى الأخـلاق والتصوف : « مشكاة الأنـوار » و« منهاج العابـدين إلى جنة رب العالمين » ، ويعد كتابه « إحياء علـوم الدين » عمدة كتبه ، وقد أوضح فيه مدى فهمه وإدراكه وإلهمـاته لإمكانية إحيـاء الدين على أسـاس من حياة أخلاقيـة سليمة تعمق الإخلاص وتؤكد المشاعر الدينية الصادقة .

* * *

أما المتعلّم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل :

الوظيفة الأولى : تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف ، إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى ؛ وكما لا تصحّ الصلاة التى هى وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث [1] فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلّا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف . قال ﷺ « بنى الدين على النظافة [2] ، وهو كذلك باطنًا ظاهراً قال الله تعالى ﴿ إنما المشركون نَجَس ﴾ [3] تنبيهًا للعقول على الطهارة ، والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحسّ ، فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ، ولكنه نجس الجوهر أى باطنه ملطخ بالخبائث . والنجاسة عبارة عما يُجتنب ويُطلب البعد منه ، وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب ، فإنها من خبثها فى الحال مهلكات فى المآل . [4] ولذلك قال ﷺ : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب [5] ، والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحلّ استقرارهم ؛ والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة ، فأنّى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ، ونور العلم لا يقذفه الله تعالى فى القلب إلا بواسطة الملائكة ﴿ وما كان لبشرٍ أن يكلِّمه اللهُ إلا وَحْيًا أو من وراءِ حجابٍ أو يُرسلَ رسولًا فيُوحِيَ بإذنِه ما يَشاء ﴾ [6] وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولّاها الملائكة الموكلون بها ، وهم المقدّسون المطهّرون المبرّءون عن الصفات المذمومات ، فلا يلاحظون إلّا طيبا ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة

---

(١) الجوارح : الأعضاء - الأحداث : موجبات الوضوء والاغتسال - الأخباث : الأوساخ والأقذار .

(٢) ورد فى هامش « إحياء علوم الدين » قول ناشره : « حديث (بنى الدين على النظافة) لم أجده هكذا . وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة (تنظفوا فإن الإسلام نظيف) وللطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف جدًا من حديث بن مسعود (النظافة تدعو إلى الإيمان) » .

(٣) سورة التوبة ٢٨

(٤) المآل : المصير والعاقبة .

(٥) حديث « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب » متفق عليه من حديث أبى طلحة الأنصارى .

(٦) سورة الشورى ٥١

الله إلا طيبًا طاهـرا . ولست أقول المراد بلفظ « البيت » هو القلب و « بالكلب » هو الغضب والصفات المذمومـة ، ولكنى أقول هو تنبيه عليه ، وفرق بين تعبير الظواهر إلى البـواطن وبين التنبيه للبواطـن من ذكر الظواهـر مع تقرير الظـواهر، ففارق الباطنيـة بهذه الدقيقة ، فـإن هذه طريق الاعتبـار وهو مسلك العلماء والأبـرار ، إذ مـعـنى الاعتبار أن يعبـر ما ذكر إلى غيـره فلا يقتصر عليه ، كما يـرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيهـا له عبرة بأن يعبر منها إلـى التنبه لكونه أيضًا عرضة للمصائب وكون الدنيا بصدد الانقلاب ، فعبوره من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محمودة ، فاعبر أنت أيضا من البيت الذى هو بناء الخـلق إلى القـلب الذى هـو بيت مـن بناء الله تعـالى ، ومـن الـكلب الـذى ذمّ لصفتـه - لا لصورته - وهو ما فيه من سبعية ونجاسة إلى الروح الكلبيّة وهى السبعيّـة . وأعلم أن القلب المشحون بالغضب والشره إلى الدنيـا والتكلّب عليها والحرص على التمـزيق لأعراض الناس كلب فـى المعنى وقـلب فى الصـورة ، فـنور البصـيرة يـلاحـظ المـعانـى لا الصور ، والصور فى هذا العالم غالبة على المعـانى ، والمعـانى بـاطنه فيهـا ، وفى الآخـرة تتبع الصـور المعانـى وتغـلب المعـانى ، فـلذلك يُحـشر كلّ شخص علـى صـورته المعنويـة « فيحشر الممّزق لأعراض النـاس كلبًا ضاريًا ، والشره إلى أموالهـم ذئبًا عادياً ، والمتكبرّ عليهم فى صورة نمر ، وطالـب الرياسة فى صورة أسد [7] ، » وقد وردت بذلك الأخبار وشهد به الاعتبار عند ذوى البصائر والأبصار * فإن قلت : كـم من طالب ردىء الأخـلاق حصل العلوم ، فهيهـات ما أبعده عن العلـم الحقيقى النافع فى الآخرة الجالب للسعادة ، فإن مـن أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصى سموم قاتلة مهلكة ، وهل رأيـت من يتناول سمًّا مع علمه بكونه سمًّا قاتـلاً ؟ إنما الذى تسمعهِ من المترسّمين حديث يلفّقـونه بألسنتهم مرّة ويردّدونه بقلوبهم أخرى ، وليـس ذلك من العم فى شىء ، قال ابـن مسعود رضى الله عنه : « ليـس العلم بكثرة الروايـة إنما العلم نور يقـذف فى القلب » ، وقـال بعضهم : « إنمـا العلم الخشيـة لقولـه تعالـى ﴿ إنما يَخْشـى الله مَن عبـادِهِ العلماءُ ﴾ » [8] ، وكأنه أشار إلى أخصّ ثمرات العلـم ، ولذلك قال بعض المحقّقين : معنى

---

(٧) حديث « حشر الممـزق لأعراض الناس فى صورة كلب ضـار .. .الحديث » أخرجه الثعلبى فـى التفسير من حديث البراء بسند ضعيف .

(٨) سـورة فاطر ٢٨

قـولهم « تعلمنا العلـم لغير الله فـأبى العلم أن يـكون إلاّ لله » أن العلم أبى وامتنـع علـيـنـا فـلم تنكشـف لنا حقيقته ، وإنمـا حصل لنا حديثـه وألفاظه * فـإن قلت : أرى جماعـة من العلماء والفقهاء المحققين برزوا[٩] في الفروع والأصول وعُدُّوا من جملة الفحول وأخلاقهم ذميمة لم يتطهّروا منهـا ؟ فيقال : إذا عـرفت مـراتب العـلوم وعرفت علـم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغناء[١٠] من حيث كونه علما ، وإنما غنـاؤه من حيث كونه عملا لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى وقد سبقـت إلى هذه إشارة . وسيأتيك فيه مزيد بيان وإيضاح إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثانية: أن يقلل عـلائقه مـن الاشتغال بـالدنيا ويبعـد عن الأهـل والوطـن فإنّ العلائق شاغلة وصارفة ﴿ ما جـعـلَ اللهُ لـرجلٍ من قلبيـن في جـوفه ﴾[١١] ومهما تـوزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل « العلـم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فإذا أعطيته كلك فـأنت من إعطائه إياك بعضه علـى خطر » ، والفكرة المتوزّعة على أمـور متفرقة كجدول تفـرّق ماؤه فنشفت الأرض بعضــه ، واختطف الهواء بعضه فـلا يبقى منه مـا يجتمع ويبلغ المزدَرع .

الوظيفة الثالثة : أن لا يتكبّر علـى العلم ولا يتـأمّر على المعلـمّ بل يلقـى إليه زمـام أمره بـالكلية فـي كـل تفصيـل ويذعـن لنصيحتـه إذعان المـريض الجاهــل للطبيب المشفـق الحـاذق[١٢]. وينبغي أن يتواضـع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته . قال الشعبي : « صلّى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليـركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خـل عنه ابن عـمّ رسول الله ﷺ ، فقـال يا بن عبـاس : هكذا أمرنـا أن نفعل بـالعلماء والـكبراء ، فقبّل زيـد بن ثابت يـده وقال : هكذا أمرنـا أن نفعل بأهل بيـت نبينا ﷺ[١٣] » ،

(٩) برزوا : تفوقوا ونبغوا .
(١٠) الغناء : الفائدة .
(١١) سورة الأحزاب ٤
(١٢) المشفق : الحريص – الحاذق : الماهر .
(١٣) حديث « أخذ ابـن عباس بركاب زيد بن ثابت » ، وقـوله : « هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء » ، أخـرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل ،إلاّ أنهم قالوا : « هكذا نفعل » ، قال الحاكم : صحيح الإسـناد على شرط مـسلم .

وقال ﷺ : « ليس من أخلاق المؤمن التملّق إلّا في طلب العلم »(١٤)، فلا ينبغى لطالب العلم أن يتكبّر على المعلم ومن تكبُّره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلّا من المرموقين المشهورين ، وهو عين الحماقة فإن العلم سبب النجاة والسعادة ، ومن يطلب مهربًا من سَبُع ضارٍ يفترسه لم يفرّق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل ، وضراوة سباع النار بالجهّال بالله تعالى أشدّ من ضراوة كلّ سبع ، فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ، ويتقلد المنّة لمن ساقها إليه كائنا من كان ؛ فلذلك قيل :

العلمُ حربٌ للفتى المتعالى   كالسيل حربٌ للمكان العالى

فلا يُنال العلم إلا بالتواضع و إلقاء السمع قال الله تعالى ﴿ إنّ في ذلك لَذِكْرى لمنْ كانَ له قَلْبٌ أو أَلْقى السمْعَ وَهُوَ شَهيد ﴾ (١٥) ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلًا للعلم فهمًا ، ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقى السمع وهو شهَيد حاضر القلب ليستقبل كل ما أُلقى إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنّة . فليكن المتعلّم لمعلّمه كأرض دمثة (١٦) نالت مطرًا غزيرًا فتشرّبت جميع أجزائها وأذعنت بالكلية لقبوله ، ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعلم فليقلّده وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه ، إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها ،فكم من مريض مَحْرور يعالجه الطبيب في بعض أوقاته بالحرارة ليزيد في قوته إلى حدّ يحتمل صدمة العلاج فيعجب منه مَن لا خبرة له به ، وقد نبّه الله تعالى بقصة الخِضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر ﴿ إنك لنْ تستطيعَ معيَ صبرًا . وكيف تصبرُ على مالم تُحِطْ به خُبْرا ﴾ ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال ﴿ فإن اتّبعتني فلا تسألني عنْ شيء حتى أُحْدثَ لكَ منه ذِكرا ﴾(١٧) ثم لم يصبر ولم يزل في مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما . وبالجملة كل متعلّم استبقى لنفسه رأيًا واختيارا دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران .

---

(١٤) حديث « ليس من أخلاق المؤمن الملق إلّا في طلب العلم » ، أخرجه بن عديّ من حديث معاذ وأبي أمامة بإسنادين ضعيفين .
(١٥) سورة ق ٣٧
(١٦) دمثة : طيبة .
(١٧) سورة الكهف ٦٧ - ٦٨ ، ٧٠

* فإن قلت : فقد قال الله تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إنْ كنتمْ لاتعلمون ﴾ (١٨) فالسؤال مأموربه ؟ فاعلم أنه كذلك ولكن فيما يأذن المعلم فى السؤال عنه فإن السؤال عما لم تبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم ،ولذلك منع الخضر موسى عليه السلام من السؤال : أى دع السؤال قبل أوانه ، فالمعلم أعلم بما أنت أهل له وبأوان الكشف . ومالم يدخل أوان الكشف فى كل درجة من مراقى الدرجات لايدخل أوان السؤال عنه . وقد قال على رضى الله عنه : « إنّ من حقّ العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ولا تُعْنِته فى الجواب ، ولا تلحّ عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشى له سرّا ولا تغتابن أحدًا عنده ولا تطلبن عثرته ، وإن زلّ قبلت معذرته ، وعليك أن توقّره وتعظّمه لله تعالى ما دام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقتَ القوم إلى خدمته » .

الوظيفة الرابعة : أن يحترز الخائض فى العلم فى مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس ، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أومن علوم الآخرة فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه (١٩) ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع ، بل ينبغى أن يتقن أولا الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه ، ثم بعد ذلك يصغى إلى المذاهب والشبه ، وإن لم يكن أستاذه مستقلًا باختيار رأى واحد وإنما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه ، فإن إضلاله أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم ، ومن هذا حالهُ يُعدّ فى عَمى الحيرة وتيه الجهل ، ومنع المبتدىء عن الشبه يُضاهى منع الحديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار ، وندب القوىّ إلى النظر فى الاختلافات يضاهى حثّ القوىّ على مخالطة الكفار؛ولهذا يمنع الجبان عن التهجّم على صفّ الكفار ويندب الشجاع له . ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظنّ بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز ، ولم يدرِ أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء ، وفى ذلك قال بعضهم : من رآنى فى البداية صار صديقًا ، ومن رآنى فى النهاية صار زنديقاً ، إذ النهاية ترد الأعمال إلى الباطن وتسكن الجوارح إلا عن رواتب الفرائض ؛ فيتراءى للناظرين أنها

---

(١٨) سورة النحل ٤٣

(١٩) يُفتِر : يُضعِف .

بطالة وكسل وإهمال ، وهيهات فذلك مرابطة القلب في عين الشهود والحضور وملازمة الذكر الذى هو أفضل الأعمال على الدوام ؛ وتشبُّهُ الضعيف بالقوى فيما يرى من ظاهره أنه هفوة يضاهى اعتذار مَن يُلقى نجاسة يسيرة فى كوز ماء ويتعلل بأن أضعاف هذه النجاسة قد يُلقى فى البحر ، والبحر أعظم من الكوز فما جاز للبحر فهو للكوز أجوز ، ولا يدرى المسكين أن البحر بقوته يحيل النجاسة ماء فتنقلب عين النجاسة باستيلائه إلى صفته والقليل من النجاسة يغلب على الكوز ويحيله إلى صفته ، ولمثل هذا جَوّز للنبى ﷺ ما لم يجوّز لغيره حتى أبيح له تسع نسوة (٢٠) إذ كان له من القوة ما يتعدّى منه صفة العدل إلى نسائه وإن كثرن ، وأما غيره فلا يقدر على بعض العدل بل يتعدّى ما بينهن من الضرار إليه ، حتى ينجرّ إلى معصية الله تعالى فى طلبه رضاهن ، فما أفلح من قاس الملائكة بالحدادين .

الوظيفة الخامسة : أن لا يدع طالبُ العلم فنًّا من العلوم المحمودة ولا نوعًا من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحّر فيه ، وإلا اشتغل بالأهمّ منه واستوفاه وتطرّف من البقيّة ؛ فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ، ويستفيد منه فى الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله ؛ فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى ﴿ وإذْ لم يَهْتدوا به فسيقولنَ هذا إِفْكٌ قِديم ﴾ .(٢١) قال الشاعر :

ومن يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ * يجدْ مُرًّا به الماءَ الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى ، أو مُعينة على السلوك نوعًا من الإعانة ، ولها منازل مرتّبة فى القرب والبعد من المقصود ، والقوّام بها حَفَظة كحفاظ الرباطات والثغور ، ولكلّ واحد رتبة ، وله بحسب درجته أجر فى الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى .

الوظيفة السادسة : أن لا يخوضَ فى فنّ من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ويبتدىء بالأهم ، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كلّ شىء أحسنه

(٢٠) حديث « أبيح له ﷺ تسعة نسوة » وهو معروف ، وفى الصحيحين من حديث بن عباس : « كان عند النبى ﷺ تسع ... الحديث » .

(٢١) سورة الأحقاف ١١

ويكتفى منه بشمه ، ويصرف جمام قوته (٢٢) فى الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذى هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة أعنى قسمى المعاملة والمكاشفة ، فغاية المعاملة المكاشفة ، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى ؛ ولست أعنى به الاعتقاد الذى يتلقّفه العامىّ وراثة أو تلقّفا ؛ ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة فى تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلّم ، بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى فى قلب عبد طهرّ بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهى إلى رتبة إيمان أبى بكر رضى الله عنه الذى لو وزن بإيمان العالمين لرجح (٢٣) ، كما شهد له به سيّد البشر ﷺ ، فما عندى أن ما يعتقده العامىّ ويرتبه المتكلم الذى لا يزيد على العامىّ إلا فى صنعة الكلام « ولأجله سميّت صناعته كلاما ، وكان يعجز عنه عمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضى الله عنهم ، حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسرّ الذى وقر فى صدره . والعجب ممن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع - صلوات الله وسلامه عليه - ثم يزدرى ما يسمعه على وفقه ويزعم أنه من تُرّهات الصوفية ، وأن ذلك غير معقول ؛ فينبغى أن تتّئد (٢٤) فى هذا فعنده ضيّعت رأس المال ، فكن حريصًا على معرفة ذلك السرّ الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلّمين ولا يرشدك إليه إلّا حرصك فى الطلب .

وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عزّ وجلّ وهو بحر لا يدرك منتهى غوره ، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم . وقد روى أنه رؤى صورة حكيمين من الحكماء المتقدّمين فى مسجد وفى يد أحدهما رقعة فيها : إن أحسنت كلّ شىء فلا تظنّن أنك أحسنتَ شيئًا حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبّب الأسباب وموجد الأشياء ، وفى يد الآخر : كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظمأ ، حتى إذا عرفته رَويت بلا شُرب .

(٢٢) جمام قوته : أكثرها .
(٢٣) حديث « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالمين لرجح » ، أخرجه بن عدى من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ، ورواه البيهقى فى الشعب موقوفا على عمر بإسناد صحيح .
(٢٤) يزدرى : يحتقر - ترّهات : خرافات - تتّئد : تتمهّل .

الوظيفة السابعة : أن لا يخوض فى فنّ حتى يستوفى الفنّ قبله ؛ فإن العلوم مرتّبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض ، والموفّق من راعى ذلك الترتيب والتدريج . قال الله تعالى ﴿ الذين آتيناهُمُ الكتابَ يتلونَه حقَّ تِلَاوته ﴾ (٢٥) أى لا يجاوزون فنًّا حتى يحُكموه علماً وعملًا ، وليكنْ قصدهُ فى كلّ علم يتحرّاه الترقّى إلى ما هو فوقه ؛ فينبغى ، ألا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ، ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه ، ولا بمخالفتهم موجب علمهم بالعمل ؛ فترى جماعة تركوا النظر فى العقليات والفقهيات ، متعلّلين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها ؛ وقد مضى كشف هذه الشبه فى كتاب (معيار العلم) ، وترى طائفة يعتقدون بطلانه الطبّ لخطأ شاهدوه من طبيب ، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتّفق لو أحد ، وطائفة اعتقدوا بطلان لخطأ اتفق لآخر . والكلّ خطأ ، بل ينبغى أن يعرف الشىء نفسهُ ، فلا كلّ علم يستقلّ بالإحاطة به كلّ شخص ولذلك قال على رضى الله عنه: « لا تعرف الحقّ بالرجال . اعرف الحق تعرف أهله » .

الوظيفة الثامنة : أن يعرف السبب الذى به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يُراد به شيئان : أحدهما : شرف الثمرة ، والثانى : وثاقة الدليل وقوته ، وذلك كعلم الدين وعلم الطبّ فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية ، وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف . ومثل علم الحساب وعلم النجوم فإن علم الحساب أشرف لوثاقة أدلّته وقوتها ، وإن نسب الحساب إلى الطبّ كان الطبّ أشرف باعتبار ثمرته ، والحساب أشرف باعتبار أدلّته وملاحظة الثمرة أولى ، ولذلك كان الطبّ أشرف وإن كان أكثره بالتخمين . وبهذا تبيّن أن أشرف العلوم العلم بالله عزّ وجلّ وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصّل إلى هذه العلوم ، فإياك أن ترغب إلّا فيه وأن تحرص إلّا عليه .

الوظيفة التاسعة : أن يكون قصد المتعلّم فى الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفى المآل القربَ من الله سبحانه والترقىَ إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقرّبين ، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء (٢٦) ومباهاة الأقران ، وإن كان هذا مقصده طلب لا محالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة ، ومع هذا فلا ينبغى له

---

(٢٥) سورة البقرة ١٢١

(٢٦) مماراة : جدل .

أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم ، أعنى علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنّة وغير ذلك مما أوردناه فى المقدمات والمتمّمات من ضروب العلوم التى هى فرض كفاية ، ولا تفهمن من غلوّنا فى الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم ، فالمتكفّلون بالعلوم كالمتكفّلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين فى سبيل الله ، فمنهم المقاتل ومنهم الرِّدء(٢٧) ومنهم الذى يسقيهم الماء ومنهم الذى يحفظ دوابّهم ويتعهدهم ولا ينفكّ أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم ، فكذلك العلماء قال الله تعالى ﴿يرفعُ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلمَ درجاتٍ﴾ (٢٨) وقال تعالى ﴿ هُمْ درجاتٌ عندَ اللهِ ﴾ (٢٩) والفضيلة نسبية . واستحقارنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدلّ على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر بل الرتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراسخين فى العلم ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم وبالجملة ﴿ فمن يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيرًا يره ومن يعملْ مثقالَ ذرةٍ شرًا يره ﴾ (٣٠) ومن قصد الله تعالى بالعلم أىّ علم كان نفعه ورفعه لا محالة .

الوظيفة العاشرة : أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كما يُؤثِر الرفيع القريب على البعيد والمهمّ على غيره - ومعنى المهمّ ما يهمّك - ولا يهمّك إلا شأنك فى الدنيا والآخرة . وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذّ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجرى مجرى العيان ، فالأهمّ ما يبقى أبد الآباد وعند ذلك تصير الدنيا منزلًا والبدن مركبًا والأعمال سعياً إلى المقصد ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ، ففيه النعيم كله ، وإن كان لا يعرف فى هذا العالم قدره إلا الأقلّون . والعلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم - أعنى النظر الذى طلبه الأنبياء وفهموه دون ما يسبق إلى فهم العوام والمتكلّمين - على ثلاث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال ، وهو أن العبد الذى علق عتقه وتمكينه من الملك بالحج ، وقيل له إن حججت وأتممت وصلت إلى العتق

(٢٧) الرِّدء : المعين والنصير.
(٢٨) سورة المجادلة ١١
(٢٩) سورة آل عمران ١٦٣
(٣٠) سورة الزلزلة ٧ - ٨

والملك جميعا ، وإن ابتدأت بطريق الحجّ والاستعداد له ، وعاقك في الطريق مانع ضروريّ فلك العتق والخلاص من شقاء الرقّ فقط دون سعادة الملك فله ثلاثة أصناف من الشغل ، الأول : تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد والراحلة ، والثاني : السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلا بعد منزل ، والثالث : الاشتغال بأعمال الحج ركنًا بعد ركن ثم بعد الفراغ والنزوع عن هيئة الإحرام وطواف الوداع استحق التعرّض للملك والسلطنة ، وله في كل مقام منازل من أول إعداد الأسباب إلى آخره ، من أول سلوك البوادي إلى آخره ، ومن أول أركان الحج إلى آخره . وليس قرب من ابتدأ بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد في إعداد الزاد والراحلة ، ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك بل هو أقرب منه ، فالعلوم أيضاً ثلاثة أقسام : قسم يجرى مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن في الدنيا ، وقسم يجرى مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات وهو تطهير الباطن عن كدورات[31] الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة التي عجز عنها الأوّلون والآخرون إلا الموفّقين ، فهذا سلوك الطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله وكما لا يغنى علم المنازل وطرق البوادي دون سلوكها ، كذلك لا يغنى علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ، ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن ، وقسم ثالث يجرى مجرى نفس الحج وأركانه وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ما ذكرناه في تراجم المكاشفة ، وههنا نجاة وفوز بالسعادة ، والنجاة حاصلة لكلّ سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحقّ وهو السلامة . وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون بالله تعالى ، وهم المقرّبون المنعمّون في جوار الله تعالى بالروح والريحان وجنة النعيم ، وأما الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله عز وجلّ ﴿ فأما إنْ كان من المقرّبين . فَرَوْحٌ ورَيْحانٌ وَجنَّةُ نَعيم . وأما إنْ كانَ من أصحابِ اليمين . فسلام لك من أصحابِ اليمين ﴾[32] وكلّ من لم يتوجّه إلى المقصد ولم ينتهض له أو انتهض إلى جهته لا على قصد الامتثال والعبودية بل لغرض

---

(31) كدورات : شوائب .
(32) سورة الواقعة ٨٨ – ٩١

عاجل فهو من أصحاب الشمـال ومن الضالّين فله نزل من حميـم وتصلية جحيم . واعلم أن هذا هو حق اليقين عنـد العلماء الراسخين أعنى أنهم أدركوه بمشاهدة مـن الباطن هى أقوى وأجْلى من مشاهدة الأبصار وترقّوا فيه عن حدّ التقليد لمجرّد السماع ، وحالهم حال من أخبر فصدّق ثم شـاهد فحّقق ، وحال غيـرهم حال من قبـل بحسن التصديق والإيمـان ولم يحظ بالمشاهدة والعيان ، فالسعادة وراء علم المكاشفـة وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التى هى سلوك طريق الآخرة وقطع عقبات الصفات ، وسلـوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك فى ذلك وراء علم سلامة البدن ومساعدة أسباب الصحة ، وسـلامة البدن بالاجتمـاع والتظاهر والتعاون الـذى يتوصل به إلـى الملبس والمطعـم والمسكن ، وهـو منوط بـالسلطـان وقانـونه فـى ضبـط الناس علـى منهج العـدل والسياسـة فى ناصيـة الفقيه ، وأمـا أسباب الصحة ففـى ناصية الطبيـب ، ومن قـال « العلم علمان : علـم الأبدان وعلم الأديان » ، وأشـار به إلى الفقه أراد بـه العلوم الظاهرة الشـائعة لا للعلوم العـزيزة الباطنة * فـإن قلت : لم شبهّـت علم الطب والفقـه بإعداد الزاد والـراحلة ؟ فاعلم أن الساعى إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن ، ولست أعنى بالقلب اللحم المحسوس بل هـو من أسرار الله عزّ وجـلّ لا يدركه الحسّ ، ولطيفـه من لطائفه تـارة يعبرّ عنه بالـروح وتارة بالنفـس المطمئنة ، والشرع يعبـر عنه بـالقلب لأنه المطيـة الأولى لذلـك السرّ وبواسطته صار جميع البدن مطية وآلة لتلك اللطيفـة ، وكشف الغطاء عن ذلك السرّ من علم المكاشفة ، وهو مضنون به بل لا رخصة فى ذكره ، وغـاية المأذون فيه أن يقال هو جوهر نفيس ودرّ عزيز أشرف من هذه الأجرام المرئية ، وإنمـا هو أمر إلهى كما قال تعالى ﴿ويسألونك عن الروح قُلِ الروحُ مـن أمرِ ربى﴾ (٣٣) وكلّ المخلـوقات منسوبة إلـى الله تعالى ، ولكـن نسبته أشرف مـن نسبة سائر أعضـاء البدن ، فلله الخلـق والأمر جميعـا ، والأمر أعلى مـن الخلق ، وهـذه الجوهـرة النفيسة الحـاملة لأمـانة الله تعـالى المتقـدّمة بهـذه الرتبـة على السمـوات والأرضين والجبـال إذ أبيّن أن يحملنها وأشفقْـن منها من عـالم الأمـر ، ولا يفهم من هـذا أنه تعريـض بقدمها ، فـإن القائل بقدم الأرواح مغـرور جاهل لا يـدرى ما يقول ، فلنقبـض عنان

(٣٣) سورة الإسراء ٨٥

البيان عن هـذا الفنّ فهو وراء ما نحـن بصدده ، والمقصود أن هذه اللطيفة هـي الساعية إلى قرب الربّ لأنها من أمر الربّ ، فمنه مصدرها و إليـه مرجعها ، وأما البدن فمطيتّها التى تركبها وتسعى بواسطتها ، فالبدن لهـا فى طريق الله تعالى كالناقة للبدن فى طـريق الحجّ وكالراوية الخازنة للماء الذى يفتقر إليه البدن ، فكلّ علم مقصده مصلحة البدن فهو من جمله مصالح المطية . ولا يخفى أن الطبّ كذلك فإنه قد يحتـاج إليه فى حفظ الصحّة على البدن ولو كان الإنسان وحده لاحتاج إليه ، والفقه يفارقه فى أنه لو كان الإنسان وحده ربما كان يستغنى عنه ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده إذ لا يستقل بالسعى وحده فى تحصيل طعامه بالحـراثة والزرع والخبز والطبـخ وفى تحصيل الملبـس والمسكن وفى إعداد آلات ذلـك كله فاضطر إلـى المخالطة والاستعانـة . ومهما اختلط الناس وثـارت شهواتهم تجاذبـوا أسباب الشهوات وتنازعوا وتقاتلوا وحصل من قتالهم هلا كهم بسبب التنافس من خارج كما يحصل هلاكهم بسبـب تضاد الأخلاط من داخل ، وبـالطبّ يحفظ الاعتدال فى الأخـلاط المتنازعة من داخل ، وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال فـى التنافس من خارج ، وعلم طريق اعتدال الأخلاط طبّ ، وعلم طـريق اعتدال أحوال الناس فى المعاملات والأفعـال فقه ، وكل ذلك لحفظ البـدن الذى هو مطية ، فـالمتجرّد لعلم الفقه أو الطـبّ إذا لم يجاهد نفسـه ولا يصلح قلبه كالمتجـرّد لشراء الناقة وعلفها وشـراء الراوية (٣٤) وخرزهـا إذا لـم يسلك باديـة الحج . والمستغرق عمره فى دقـائق الكلمات التى تجرى فى مجادلات الفقه كـالمستغرق عمره فى دقائق الأسبـاب التى بها تستحكـم الخيوط التى تخـرز بها الراويـة للحجّ . ونسبة هـؤلاءٰ من السـالكيـن لطريق إصـلاح القلب الموصّل إلـى علم المـكاشفة كنسبـة أولئك إلى سـالكى طريق الحج أو ملابسـى أركانه ، فتأملّ هـذا أوّلا واقبـل النصيحة مجانـا ممن قام عليه ذلك غالباً ولم يصـل إليه إلّا بعد جهد جُهيد وجراءة تامـة على مباينة الخلق العامـة والخاصة فى النزوع من تقليدهـم بمجرد الشهوة ، فهذا القدر كاف فى وظائف المتعلّم .

---

(٣٤) الراوية : المزادة فيها الماء .

بيان وظائف المرشد المعلّم

أعلم أن للإنسان فـي علمه أربعة أحوال كحالة فى اقتناء الأمـوال : إذ لصاحب المال حال استفـادة فيكون مكتسبا ، وحـال ادخار لما اكتسبـه فيكون بـه غنيًّا عن السـؤال ، وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعا وحال بذل لغيره فيكـون به سخيًّا متفضلًا وهو أشرف أحواله . فكذلك العلـم يقتنى كما يقتنى المال ، فلـه حال طلب واكتساب وحال تحصيـل يغنى عن السؤال وحال استبصار وهو التفكر فى المحصل والتمتع به وحال تبصير وهو أشرف الأحوال ، فمن علم وعمل وعلم فهو الذى يُدْعى عظيمـاً فى ملكوت السموات ، فإنه كالشمس تضىء لغيرها وهى مضيئة فى نفسها ، وكالمسك الذى يطيّب غيره وهو طيّب . والذى يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذى يفيد غيره وهو خال عـن العلم وكالمِسنّ الذى يشحذ غيره ولا يقطع ، والإبرة التى تكسو غيرها وهى عارية ، وذبالة المصباح تضىء لغيرها وهى تحترق كما قيل :

ما هو إلّا ذبالةٌ وَقَدَتْ   تُضىء للناسِ وهىْ تحترقُ

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلّد أمرً عظيماً وخطرًا جسيمًا ، فليحفظ آدابه ووظائفه .

الوظيفة الأولى: الشفقة على المتعلمين ، وأن يجريهم مجرى بنيه(٣٥) ،قال رسول الله ﷺ « إنما أنا لكم مثل الـوالد لولده »(٣٦) بأن يقصد إنقاذهم من نـار الآخرة ، وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ، ولذلك صـار حقّ المعلّم أعظم من حقّ الوالدين ، فإن الوالد سبب الوجود الحـاضر والحياة الفانية والمعلّم سبب الحيـاة الباقيـة . ولـولا المعلمّ لانساق ما حصـل من جهـة الأب إلى الهـلاك الدائم ، وإنّمـا المعلّم هـو المفيد للحيـاة الآخرويـة الدائمة أعنـى معلّم علوم الآخرة أو علـوم الدنيا على قصد الآخـرة لا على قصد الدنيـا ، فأما التعليم على قصد الدنيـا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه ، وكما أن حقّ أبنـاء الرجل الواحد أن يتحابوّا ويتعاونوا على المقاصد كلّها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحابّ والتوادد،

---

(٣٥) يجريهم مجرى بنيه : ينزلهم منزلة أبنائه .

(٣٦) حديث « إنما أنا لكـم مثـل الوالد لولده » ، أخـرجـه أبو داود والنسـائى وابن ماجـة وابن حبان من حديث أبى هريرة.

ولا يكـون إلا كذلـك إن كان مقصـدهـم الآخرة ، ولا يكـون إلّا التحـاسد والتبـاغض إن كـان مقصدهم الدنيا ، فإن العلماء وأبناء الآخرة مسافـرون إلى الله تعالى وسالكون إليه الطريق من الدنيا ، وسنوهـا وشهورها منازل الطريق ، والترافـق فى الطريق بين المسافـرين إلى الأمصار سبب التوادّ والتحابّ ، فكيف السفر إلى الفردوس الأعلـى والترافق فى طريقه ؟ ولا ضيق فى سعادة الآخـرة فـلذلك لا يـكون بين أبنـاء الآخـرة تنازع ولا سعة فى سعادات الـدنيا فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم ، والعـادلون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجـون عن موجب قوله تعالى (إنمّا المـؤمنونَ إخْوة)(٣٧) وداخلون فى مقتضى قوله تعـالى (الأخلّاءُ يومئذ بعضهُم لبعضٍ عدوٌّ إلّا المتّقين)(٣٨)

الوظيفة الثانية : أن يقتدى بصاحـب الشرع صلوات الله عليه وسلامه ، فـلا يطلب على إفـادة العلم أجـرًا ولا يقصـد بـه جزاء ولا شكرًا ، بل يعلمّ لوجه الله تعالـى وطلباً للتقرب إليه ولا يرى لنفسـه منّة عليهـم وإن كانـت المنة لازمـة عليهم ، بـل يرى الفضـل لهم إذ هـذّبوا قلـوبهم لأن تتقـربَ إلى الله تعـالى بزراعـة العلـوم فيها ، كـالذى يُعيـرك الأرض لتزرع فيهـا لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض ، فكيف تقلده منّة ، وثوابك فى التعليم أكثـر مـن ثـواب المتعلّم عنـد الله تعـالى ؟ ولـولا المتعلّم ما نلـت هذا الثـواب فلا تطلب الأجـر إلا مـن الله تعالـى ، كما قـال عـزّ وجلّ (ويا قَوْم لا أسألُكـم عليه مالًا إنْ أجْرِى إلّا علـىَ اللهِ)(٣٩) فإنّ المـال وما فـى الدنيـا خادم البـدن ، والبدن مـركب النفـس ومطيتها والمخدوم هـو العلم إذ بـه شرف النفس ، فمـن طلب بـالعلم المال كـان كمن مسـح أسفل مداسه بوجهه لينظفه فجعل المخدوم خادمًـا والخادم مخدومًا ، وذلك هو الانتكاس على أمّ الرأس ، ومثله هـو الذى يقوم فى العـرض الأكبر مع المجرميـن ناكسى رءوسهم عنـد ربهم ، وعلى الجملـة فالفضل والمنّـة للمُعلّم ، فانظـر كيف انتهـى أمر الديـن إلى قوم يـزعمون أن مقصودهم التقرب إلـى الله تعالى بما هـم فيه من علم الفقـه والكلام والتدريـس فيهمـا وفى

---

(٣٧) سورة الحجرات ١٠

(٣٨) سورة الزخرف ٦٧

(٣٩) سورة هود ٢٩

غيرهما ؛ فإنهم يبذلون المال والجاه ويتحمّلون أصناف الذلّ في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات (٤٠)، ولو تركوا ذلك لتركوا ولم يختلف إليهم ، ثم يتوقّع المعلم من المتعلّم أن يقوم له في كل نائبة وينصر وليّه ويعادي عدّوه وينتهض جهارًا له في حاجاته ومسخرا بين يديه في أوطاره (٤١) : فإن قصر في حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه . فأخسِسْ بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ، ثم يفرح بها ، ثم لا يستحيي من أن يقول غرضي من التدريس نشر العلم تقرّبا إلى الله تعالى ونصرة لدينه ! فانظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاغترارات . (٤٢)

الوظيفة الثالثة : أن لا يدع من نصح المتعلّم شيئا ، وذلك بأن يمنعه من التصدّي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن ، فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده ، فإن علم من باطنه أنه لا يطلب العلم إلّا للدنيا نظر إلى العلم الذي يطلبه ، فإن كان هو علم الخلاف في الفقه والجدل في الكلام والفتاوى في الخصومات والأحكام فيمنعه من ذلك فإن هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التي قيل فيها : « تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله » ، وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث وما كان الأوّلون يشتغلون به من علم الآخرة ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها ، فإذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه فإنه يثمر له طمعًا في الوعظ والاستتباع ، ولكن قد يتنبه في أثناء الأمر أو آخره ، إذ فيه العلوم المخوّفة من الله تعالى المحقّرة للدنيا المعظّمة للآخرة ، وذلك يوشك أن يؤدّي إلى الصواب في الآخرة ، حتى يتعظ بما يعظ به غيره . ويجرى حبّ القبول والجاه مجري الحب الذي ينثر حوالي الفخّ ليقتنص به الطير ، وقد فعل الله ذلك بعباده إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النسل . وخلق أيضا حبّ الجاه ليكون سببًا لإحياء العلوم ، وهذا متوقّع في هذه العلوم ، فأما الخلافيات المحضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة فلا يزيد التجرّد لها (٤٣) مع الإعراض عن غيرها إلّا قسوة القلب وغفلة عن الله تعالى وتمادياً في الضلال وطلبًا للجاه إلّا من تداركه الله تعالى برحمته أو مزج به غيره من العلوم الدينية .

---

(٤٠) استطلاق الجرايات : طلب العطايا .

(٤١) نائبة : مصيبة - وليّه : نصيره وصديقه - أوطاره : حاجاته ورغباته .

(٤٢) الأمارات : العلامات - الاغترار : الانخداع .

(٤٣) التجرّد : التفرّغ .

ولا برهـان على هذا كالتجـربة والمشاهدة ، فـانظر واعتبر واستبصـر لتشاهد تحقيق ذلـك فى العبـاد والبلاد والله المستعـان . وقـد رؤى سفيـان الثـورى رحمـه الله حـزينًا فقيـل لـه : مـالك ؟ فقـال :صـرنا متجرًا لأبناء الدنيا يلزمنا أحـدهم حتى إذا تعلّم جعل قاضيًا أو عاملًا أو قهرمانًا .

الوظيفة الرابعة : وهى مـن دقائق صنـاعة التعليم أن يـزجر المتعلـم عن سـوء الأخلاق بطريـق التعـريض (٤٤) مـا أمـكن ولا يصـرّح . وبطـريق الـرحمـة لا بطريـق التـوبيخ ، فـإن التصريح يهتك حجـاب الهيئة ويورث الجرأة على الهجوم بالخـلاف ويهيج الحرص على الإصرار إذ قال ﷺ وهو مرشد كل معلم « لو منع النـاس عن فت البعر لفتوه وقالوا مانهينا عنـه إلا وفيـه شـىء » (٤٥) وينبّهك علـى هذا قصـة آدم وحواء عليهمـا السلام ومـا نهيا عنـه ؛ فما ذكرت القصة معك لتكون سمرا (٤٦)، بل لتتنبّه بهـا على سبيل العبرة ، ولأن التعـريض أيضًا يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه فيفيد فرح التفطّن لمعناه رغبة فى العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته .

الوظيفة الخامسة : أن المتكفّل ببعض العلوم ينبغى أن لا يقبـح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه ، كمعلّم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ، ومعلّـم الفقه عادته تقبيح علـم الحديث والتفسير وإن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه ومعلّم الكلام ينفر عن الفقه ويقـول : ذلك فروع وهو كلام فى حيـض النسوان ، فأين ذلك من الكـلام فى صفة الرحمٰن ؟ فهذه أخلاق مذمومة للمعلميـن ينبغى أن تجتنب ، بل المتكفّل بعلم واحد ينبغى أن يوسّـع على المتعلـم طريـق التعلّم فـى غيره ، وإن كـان متكفّلا بعلـوم فينبغى أن يـراعى التدريج فى ترقية المتعلّم من رتبة إلى رتبة .

الوظيفة السادسة : أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه مالّا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله اقتـداء فى ذلك بسّيد البشر ﷺ حيث قال « نحـن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم (٤٧) » فليبثّ إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقلّ بفهمها ، وقال ﷺ « ما أحد يحدّث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم »

---

(٤٤) التعريض : التلميح .

(٤٥) حديث : « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه . . . الحديث » لم أجده .

(٤٦) سمر : تسلية .

(٤٧) حديث : « نحن معاشر الأنبيـاء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ... الحديث » ، روى فى جزء من حديث أبى بكر بن الشخير من حديث عمر ، وعند أبى داود من حديث عائشة : « أنزلوا الناس منازلهم » .

وقال على رضى الله عنه - وأشار إلى صدره - « إن ههنا لعلومًا جمّة لو وجدت لها حملة ، وصدق رضى الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار . فلا ينبغى أن يفشى العالم كل ما يعلم إلى كل أحد ؛ هذا إذا كان يفهمه المتعلّم ولم يكن أهلًا للانتفاع به فكيف فيما لا يفهمه ؟ وقال عيسى عليه السلام : « لا تعلقوا الجواهر فى أعناق الخنازير فإن الحكمة خير من الجوهر ومن كرهها فهو شر من الخنازير » ، ولذلك قيل : كِلْ لكُلِّ عبد بمعيار عقله وزِنْ له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك ولّا وقع الإنكار لتفاوت المعيار ، وسُئل بعض العلماء عن شىء فلم يجب ، فقال السائل : أما سمعت رسول الله ﷺ قال : « من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة مُلْجمًا بلجام من نار[٤٨] » ؟ فقال : اترك اللجام واذهب فإن جاء من يفقه وكتمته فليلجمنى فقد قال الله تعالى (ولا تُؤتوا السُّفهاء أموالكم) [٤٩] تنبيهًا على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى ، وليس الظلم فى إعطاء غير المستحقّ بأقلّ من الظلم فى منع المستحقّ :

أأنثر درًا بين سارحة النعم ... فأصبح مخزونا براعية الغنمْ
لأنهم أمسوا بجهل لقدره ... فلا أنا أضحى أن أطوقه البهم
فإنْ لَطَفَ اللهُ اللطيفُ بلُطفه ... وصادفتَ أهلًا للعلوم وللحِكم
نشرتَ مفيدًا واستفدتَ مودّة ... وإلّا فمخزون لدىّ ومكتتم
فمن مَنَحَ الجهّال علمًا أضاعه ... ومن منعَ المستوجبين فقد ظلم

الوظيفة السابعة : أن المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى إليه الجلى اللائق به ولا يذكر له وراء هذا تدقيقًا ، وهو يدخره عنه فإنّ ذلك يفتر رغبته فى الجلى ويشوّش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه ، إذ يظنّ كلّ أحد أنه أهل لكلّ علم دقيق . فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه فى كمال عقله ، وأشدّهم حماقة وأضعفهم عقلًا هو أفراحهم بكمال عقله ، وبهذا يعلم أن من تقيّد من العوامّ بقيد الشرع ورسخ فى نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير

(٤٨) حديث : « من كتم علمًا نافعًا جاء يوم القيامة مُلْجماً بلجام من نار » أخرجه ابن ماجة من حديث أبى سعيد بإسناد ضعيف .
(٤٩) سورة النساء .

تشبيه ومن غير تأويل وحسن مع ذلك سريرته ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغي أن يشوّش عليه اعتقاده بل ينبغي أن يخلي وحرفته ، فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحلّ عنه قيد العوام ولم يتيسرّ قيده بقيد الخواصّ فيرتفع عنه السدّ الذي بينه وبين المعاصي وينقلب شيطاناً مَريدًا يهلك نفسه وغيره ؛ بل لا ينبغي أن يُخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصددها ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنّة والنار كما نطق به القرآن ولا يحرّك عليهم شبهة ، فإنه ربما تعلّقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلّها فيشقى ويهلك ، وبالجملة لا ينبغي أن يفتح للعوامّ باب البحث فإنه يعطّل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص .

الوظيفة الثامنة : أن يكون المعلم عاملًا بعلمه فلا يكذب قوله فعله لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر ، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد وكلّ من تناول شيئًا وقال للناس لا تتناولوه فإنه سمّ مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذّها لما كان يستأثر به . ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظلّ من العود ، فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ، ومتى استوى الظلّ والعود أعوج ؟ ولذلك قيل في المعنى :

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلَه ... عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيم

وقال الله تعالى (أَتَأْمُرون الناسَ بالبرِّ وتَنْسَوْن أنفسَكم) (٥٠) ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل ، إذ يزلّ بزلّته عالم كثير ويقتدون به . ومن سنّ سّنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها . ولذلك قال علي رضي الله عنه قصم ظهري رجلان ؛ عالم متهتّك وجاهل متنسّك (٥١) ؛ فالجاهل يغرّ الناس بتنسّكه ، والعالم يغرّهم بتهتّكه . والله أعلم .

---

(٥٠) سورة البقرة ٤٤

(٥١) منهتّك : فاسد - متنسّك : زاهد .

الحريرى

(٤٤٦ - ٥١٦ هـ / ١٠٥٤ - ١١٢٢ م)

هو أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان ، ولد فى المَشان بالقرب من البصرة ولما ترعرع ذهب إلى البصرة فأخذ عن علمائها الحديث والفقه واللغة والأدب وغيرها ، فبرع فيها ، وصار أحد الأعلام الذين يؤخذ بآرائهم ، وقد تولى بالبصرة وظيفة الخبر فى ديوان الخلافة إلى أن توفى .

ومن كتاباته مجموعة من الرسائل ، منها الرسالة السينيّة والرسالة الشينية ، تحوى كل كلمة فى الأولى سينًا ، وكل كلمة فى الثانية شينًا ، ومنها كتاب « ملحة الإعراب » وهو أرجوزة تعليمية فى النحو ، مع شرح لها ، وكتاب « درّة الغوّاص فى أوهام الخواصّ » ، وقد أثبت فيه ما شاع على ألسنة الكتاب والمتأدّبين من أغلاط ، وتحتفظ خزائن الكتب وبعض المصادر بمجموعة من قصائده ، منها قصيدته فى الفرق بين الضاد والظاء .

وإلى جانب هذه المؤلفات توافر على وضع مقاماته ، وروى أنه ألفها لشرف الدين أبى نصر أنوشروان بن خالد بن محمد القاشانى وزير الإمام المسترشد بالله (٥١٢ - ٥٢٩) ، والمقامات فن قصصى يصوّر مواقف متنوعة لأديب يستعين بفصاحته وقدراته البيانية ليتسوّل ويحتال على الناس ، وأسلوبها مسجوع مثقل بألوان الزخرفة والزينة والتصوير والجناس ، يهتم بالغريب من اللفظ والمصنوع من الأساليب ، حتى قيل إن الغاية من المقامات هو تعليم الناس وبخاصة الناشئة وتدريبهم على الكتابة والإنشاء من خلال هذه الألفاظ الغريبة والأساليب المنمّقة .

وقد عنى العلماء والمستشرقون بمقامات الحريرى عناية كبرى ، وتوافر عليها الشرّاح ، ومن أهمّهم : المطرّزى (٥٩٠) والعكبرى (٦١٦) والشريشى (٦١٩) ، وترجمت إلى اللغات الحيّة : الفرنسية والإنجليزية والألمانية والفارسية وغيرها .

ويرى كثير من الدارسين أنه لم يكن له فى فنه نظير فى عصره ، ولم يستطع أحد أن يصل إلى ما وصل إليه فى الأدب والبلاغة ، وقد وصفه القدماء بأنه « فاق أهل زمانه بالذكاء والفطنة » ، ومما يدل على منزلة المقامات العالية فى عصرها ما يقال من أن الحريرى نفسه أجاز لسبعمائة طالب أن يرووها عنه .

* * *

مقدمة الحريري على مقاماته

اللّهُمّ إنّا نَحْمَدكَ على ما علّمتَ من البيـان ، وألهمتَ من التّبيان ، كمـا نحمُـدكَ على ما أسْبَغْتَ من العطاء ، وأسْبَلتَ من الغِطاء (١) ، ونعوذ بك من شِرّة اللّسَـن ، وفُضول الهَذَر ، كما نعوذ بك من مَعَـرّة اللَّكَن ، وفُضُوح الحَصَر (٢) ، ونستكْفى بك الافتتان بـإطراء المادح ، وإغضاء المُسامح ، كما نستكفى بك الانتصـابَ لإزْراء القادح ، وهَتْك الفاضح ، ونستغفرُك من سُـوق الشَّهوات ، إلـى سُوق الشُّبُهات ، كمـا نَستغفرك من نَقْـل الخطوات ، إلـى خِطَط الخَطيئات (٣) ، ونستوهِـبُ منك تـوفيقًا قـائدًا إلى الـرُّشْد ، وقلبـًا مُتقَلّبًا مـع الحقّ ، ولسـانًا مُتَحلّيًا بـالصِّدق ، ونُطقًا مُـؤَيّدًا بالحُجّـة ، وإصابة ذائدةً عـن الزَّيْغ ، وعَـزيمةً قاهِـرةً هَوَى النَّفْس ، وبصيـرةً نُدرك بها عِـرفان القَدْر ، وأنْ تُسْعِـدَنا بالهِـداية إلى الـدِّراية(٤) ، وتَعْضُدَنـا بالإعـانة ، علـى الإبانـة ، وتَعْصِمنا من الغَـواية ، فـى الرِّواية ، وتَصْـرِفنا عـن السَّفاهـة ، فى الفُكاهـة(٥) ، حتّى نَـأمَــن حَصـائدَ الألْسِنة ، ونُكْفَى غَوائل الـزَّخْرفة ، فلا نَرِد مَـوْرِد مَأْثَمَة ، ولانَقِف مَـوْقِف مَنْدَمة ، ولا نُـرْهَق بتَبِعة ولا مَعْتَبَـة ، ولانُلْجأ إلى مَعْذِرة عـن بادِرة (٦). اللّهمّ فحقّقْ لنا هذه المُنْية ، وأنِلْنا هـذه البُغْيـة ، ولاتُضْحِنا عـن ظِلّك السابـغ ، ولاتَجْعَلْنا مُضْغَةً للمـاضـغ ، فقد مَـدَدْنا إليك يَدَ المسألة ، وبَخَعْنا بالاستِكـانة لك والمَـسكَنة (٧) ، واستنزلْنا كرمَـك الجَـمَّ ، وفَضْلَك الذى عَمّ ، بضَراعة الطَّلَب ، وبِضاعة الأمَل ، بالتَّوسُّل بمُحَمَّد سَيِّد

---

(١) البَيان : الفصـاحة والإيضـاح - من التبيان أى مـن تبيان المعـانى وإظهـارها بأوضـح الأوضاع والمبـانى - أسبغت : أتممت وأكملت - أسبلت : أرخيت .

(٢) الشرّة : الحـدّة والنشاط ، والشرّة أيضا الفحـش - اللسن : الفصاحة - الفضـل : الزيادة ، وقد غلـب جمعه على مالاخير فيه - الهذر : الهذيان - اللكن : عيب العىّ - الحصر : العجز عن الكلام .

(٣) الإغضاء : كفّ البصر عن الشىء - الانتصاب : التصدّى للشىء - الإزراء القادح : الاحتقار الطاعن - سوق الشهوات أى بعثها - الخطط : الأرض يخطهاالرجل لنفسه .

(٤) ذائدة : من الذود ، وهـو الطرد - الزيغ : الميـل عن الحق إلى البـاطن - بصيرة : يقين - الـدراية : اكتسـاب المعرفة .

(٥) السفاهة : الجهل وقول الفحش - الفكاهة : المزاح وحسن الخلق .

(٦) لانرهق : لانكلف - المعتبة : العتب - البادرة : الكلمة والفعلة التى يبادرإليها الإنسان من غير رويّة فتقع خطأ .

(٧) لاتضحنا عن ظلك : لاتزل عنا ظلّ رحمتك - لاتجعلنا مضغـة الماضغ : لاتجعلنا أحدوثة فى أفواه الناس - بخعنا : أذعنّا وأقررنا .

البشر، والشفيع المُشَفَّع فى المَحْشَر، الذى خَتَمْتَ به النَّبِيِّين، وأَعْلَيْتَ دَرَجَتَه فى عِلِّيِّين (٨)، ووصَفْتَه فى كتابك المُبينِّ، فقلتُ وأنت أَصْدَقُ القائلين: « وما أَرْسَلْناكَ إلا رَحْمَةً للعالمين » (٩)، اللَّهمَّ فَصَلِّ عليه وعلى آله الهادين، وأصحابه الذين شادُوا الدين، وأجعلْنا لهَدْيه (١٠) وهَدْيهم مُتَّبِعين، وانْفَعْنا بمَحَبَّته ومَحَبَّتهم أَجْمَعين، إنّك على كُلِّ شيء قَدير، وبالإجَابة جَدير، وبَعْدُ:

فإنّه قد جَرَى ببعض أَنْديِة الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحُه وخَبَتْ مَصابيحه، ذِكْرُ المَقامات التى ابتدعها بديعُ الزّمان، وعَلّامة هَمَذان - رحمة الله تعالى - وعَزا إلى أبى الفتح الإسكندرى نَشْأتها، وإلى عيسى بن هشام روايتها، كلاهما مَجْهول لا يُعْرف، وَنكرة لا تَتَعَرَّف! فأشار من إشارته حُكْم (١١)، وطاعتُه غُنْم، إلى أنْ أُنْشِىء مقامات أَتْلُو فيها تِلْوَ البديع، وإنْ لم يُدرك الظّالِع شَأْو الضَّليع. (١٢)

فذاكَرْتُه بما قِيل فيمنْ أَلَّف بين كلمتينْ، ونَظَم بَيْتًا أو بيْتين (١٣)، واستَقَلْت مِنْ هذا المقام الذى فيه يَحارُ الفَهْم، ويَفْرُط الوَهْم، ويُسْبَرغَوْر العَقْل، وَتَتَبَيَّن قيمةُ المرءِ فى الفضلَ، ويُضْطَرّ صاحبُه إلى أن يكون كحاطِب لَيْل، أو جالبِ رَجْلٍ وخَيْل، وقَلَّما سَلِمَ مِكْثار، أو أُقيل له عِثار. (١٤)

فلمّا لمْ يُسْعِف بالإقالة، ولا أعْفَى من المقالَة، لَبَّيْت دَعْوته تَلْبِيَةَ المطيع، وَبذَلْت فى مُطاوعته جُهْدَ المستطيع، وأنشأتُ على ما أُعانِيه من قَرِيحةٍ جامدة، وفِطْنة خامدة، ورَوِيَّة ناضِبة (١٥)، وهُمومٍ ناصبة، خمسين مَقامةً تَحْتوى على جِدّ القول وهَزْله، ورَقيق اللفظ

---

(٨) الضراعة: الضعف والذلّ - عليين: الموضع الذى يجمع فيه أعمال الصالحين.
(٩) سورة الأنبياء ١٠٧
(١٠) الهدى: السيرة السويّة.
(١١) المراد به وزير السلطان المسعود واسمه أنوشروان بن خالد، وقيل هو الخليفة.
(١٢) أتلو: أتبع، ومصدره « تلو » بكسر التاء وتخفيف الواو - الظالع: الذى يغمز فى مشيته، والظالع أيضا: المائل عن الطريق القويم - الضليع: السمين القوىّ، والضلاعة: قوّة الأضلاع.
(١٣) هذه إشارة إلى قولهم: لا يزال المرء فى فسحة من أمره ما لم يقل شعرا أو يؤلّف كتابا.
(١٤) يسبر: يجرب ويختبر - الغور: العمق، أى يعلم نهاية عقله - قوله « كحاطب ليل » أرادبه من يخلط فى كلامه بين الصحيح والفاسد، مثل الحاطب بالليل، يخلط بين جيّد الحطب ورديئه - رجْل: جمع راجل، وهو الماشى على رجليه - مكثار: كثير الكلام - أقيل له عثار: صفح عن عيبه وزلّته.
(١٥) القريحة: الطبيعة - الفطنة: الفهم والذكاء - الرويّة هى الفكرة، من روى فى الأمر إذا فكّر.

وجَزْلـه ، وغُرَرِ البيان ودُرَره ، ومُلَـح الأدب ونَوادره ، إلى مـا وَشَّحْتُها بـه من الآيات ، ومَحـاسن الكِنايـات ، ورَصَّعْته فيها مِن الأمثـال العربيّة ، واللطـائف الأدبيّة ، والأحاجى النحـويّة (١٦) ، والفتاوَى اللُّغـويّة ، والرسـائل المبتكَرة ، والخُطب المُحَبَّرة ، والمـواعظ المُبْكِيَة ، والأضـاحيك المُلْهِية ، مما أَمْلَيْـت جَميعَه على لسان أبى زيـد السَّروجى ، وأَسْنَدْتُ رِوايته إلـى الحارث بن هَمّام البصرىّ (١٧) ، وما قَصَدْت بالإحمـاضِ فيه ، إلّا تَنْشيط قارِئيه ، وتكثير سَـواد طالبيه ، ولم أُودِعْه من الأشعار الأجنبيّة إلّا بيْتَين فَذَّين أَسَّسْـت عليهما بُنْيَة المقامةِ الحُلْوانية (١٨) ، وآخريْن تَوْأمين ضمَّنْتُهما خَواتـمَ المقامة الكَرَجِيّة ، وما عَدا ذلك فخاطِـرى أبو عُذْرِه ، ومُقْتَضِب حُلْوِه ومُرِّه (١٩) ، هذا مـع اعترافى بـأنّ البديع - رحمـة الله - سَبَّاق غـايات ، وصاحـبُ آيات ، وأن المُتَصَدِّى بَعْدَه لإنشـاءِ مَقامَة ، ولو أوتى بَـلاغـةَ قُـدامَة (٢٠) ، لا يَغْتَـرف إلّا من فُضَـالَتـه ، ولا يَسْرِى ذَلك المَسْرَى إلّا بدَلالَته ، ولله دَرُّ القائل : (٢١)

فلـو قَبْـلَ مَبْكـاهـا بَكَيْـتُ صَبـابـةً ... بسُعْـدى شَفَيْـتُ النفـس قبـل التَّنَـدُّم

ولكـنْ بكـتْ قبلـى ! فهيـجَّ لى البُكـا ... بُكـاهـا ، فقلـتُ : الفَضْـلُ للمُتَقَـدِّم

وأرجو ألّا أكونَ فـى هذا الهَذَرِ الذى أوْرَدْتُـه ، والمَوْرِدِ الذى تَوَرَّدْتـه ، كالباحث عـن حَتْفه بظِلْفه ، والجادع مارِنَ أنفِه بكَفّه (٢٢) ، فأُلْحَقَ بالأَخْسَرين أعمالًا الذين ضَلَّ سَعْيُهم فى الحياة الدُّنيا ، وهم يَحْسَبون أنّهم يُحْسِنون صُنْعًا .

---

(١٦) غرر: جمع غرّة ، وغرّة كلّ شىء : خياره وأكرمه - الوشـاح : قلادة تؤخذ من الأديم عريضة - رصّعته بمعنى حليته - الأحاجى : جمع أحجية ، وهى الأغلوطة ، يختبر بها الحجى ، وهو العقل .

(١٧) تسمية الـراوى بالحـارث بن همام عنى بها نفسه أخـذا من قـوله عليه الصـلاة والسـلام : « كلكـم حارث وكلكم همام » .

(١٨) الإحمـاض : الانتقال مـن أسلوب إلى آخـر - السـواد : الجمـاعـة - الفذّ : الفـرد ، وأحـد البيتين للـوأواء الدمشقى والثانى للبحترى .

(١٩) خاطرى : يريد قلبه - أبو عذره أى أنه أول قائل لهذا الكلام - المقتضب : المرتجل خطبة أو شعرا .

(٢٠) هو أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى ، يضرب به المثل فى الفصـاحة .

(٢١) القائل هو عدىّ بن الرّقاع .

(٢٢) الهذر : الهذيان - المورد الـذى توردته : الأمر الذى أقدمت عليه - الباحث عـن حتفه بظلفه : مثل يضـرب لمن يسعى فى هلاك نفسه ولا يدرى - الجادع : القاطع - المارن : ما لان من قصبة الأنف .

على أنى وإنْ أُغْمِض لى الفَطِن المُتَغابى ، ونَضَحَ عَنّى المُحِبّ المُحَابى ، لاأكادُ أَخْلُصُ من غُمْرٍ جاهلٍ ، أوذِى غِمْرٍ مُتَجاهِل ، يَضَعُ منىّ لهذا الوضْع ، ويُنَدِّد بأنّه من مَناهى الشَّرْع .(٢٣)

ومن نَقَدَ الأشياءَ بعَيْن المعقُول ، وأَنْعَم النَّظَر فى مَبانى الأُصُول ، نَظَمَ هذه المقاماتِ فى سِلْك الإفادات (٢٤) ، وسَلَكَها مَسْلَكَ المَوْضوعات ، عن العَجْماوات والجمادات ، ولم يُسْمَعْ بمن نَبا سَمْعُه عن تلك الحكايات(٢٥) ، أو أثّم رُواتَها فى وَقْتٍ من الأَوْقات ، ثم إذا كانتِ الأعمالُ بالنِّيَّات ، وبها انِعقاد العُقُود الدِّينِيَّات ، فأىُّ حَرَج على مَنْ أنْشأ مُلَحًا للتَّنْبيه ، لاللتَّمْويه ، ونحا بها مَنْحَى التَّهْذِيب ، لاالأكاذيب ؟ وهل هو فى ذلك إلّا بِمنزله مَن انْتَدَبَ لتَعْليم(٢٦) ، أوهَدَى إلى صِراطٍ مُسْتقيم .

علــى أنّنــى راضٍ بــأنْ أَحْمَــل الهَــوَى وأَخْلُــصَ منــه لاعَلَــىّ ولالِيــا

وبالله أَعْتَضِد فيما أَعْتَمِد ، وأَعْتَصِم ، ممّا يَصِم ، وأَسْتَرْشد ، إلى ما يُرْشِد ، فما المَفْزَع إلّا إليه ، ولاالاستعانة إلّا به ، ولاالتوفيق إلّا منه ، ولاالمَوْئل إلّا هو(٢٧) ، عليه تَوَكَّلت ، وإليه أُنيب ، وبه نَسْتعين ، وهونِعْم المِعين .

* * *

---

(٢٣) أغمض: تسامح وتساهل - نضح عنى : جادل عنى - المحابى : من الحِباء وهو العطاء - الغمر، بالضم : الذى لم يجرّب الأمور، وبالكسر: صاحب الحقد - يندّد : يشهر ويكرّر بالقول .

(٢٤) قوله : « فى مبانى الأصول » أى فيما بنيت عليه أصول الكلام - السلك : الخيط الذى ينظم فيه الدرّ.

(٢٥) العجماوات : جمع عجماء ، وهى البهيمة - نبا سمعه عنها : لم يقبلها وتباعد عنها .

(٢٦) التمويه : هو الإتيان بقول ظاهره حسن وباطنه قبيح - نحا : قصد - ندبه إلى الأمر فانتدب : دعاه له فأجاب.

(٢٧) أعتضد : أتقوّى - أعتمد : أقصد - مما يصم : مما يعيب - المفزع : الملجأ والمقصد - الموئل : المنجى - أنيب أى أتوب وأرجع .

المقامة البغدادية للحريرى :

رَوَى الحارثُ بن هَمّام ، قال : تَـدَوْت بضَواحى الزَّوْراء (٢٨) ، مع مَشْيخة من الشعراء ، لايَعْلَق لهم مُبارٍ بغبُار ، ولا يَجْرى معهم مُمارٍ فى مِضْمار ، فأَفْضَيْنا فى حديث يَفْضح الأزْهار ، إلى أنْ نَصَفْنا النّهار ، فلما غاض دَرُّ الأفكار ، وصَبَت النفوس إلى الأوْكار (٢٩) ، لَمَحْنا عَجُوزًا تُقْبل من البعد ، وتُحْضِر إحضار الجُرْد ، وقد اسْتَتْلَت صِبيَة أنْحَفَ من المغازِل ، وأَضْعف من الجوازِل ، فما كَذَّبَتْ إذْ رَأَتْنا ، أنْ عَرَتْنا (٣٠) ، حتَّى إذا ما حَضَرَتْنا ، قالت : « حَيَّا اللهُ المعارف ، وإنْ لم يكنْ معارف ، اعلموا يا مآلَ الآمِل ، وثِمالَ الأرامل (٣١) ، أنىِّ من سَرَوَات القبائل وسَرِيَّات العَقائل ، لم يَزَلْ أهلى وبَعْلى يَحُلُّون الصَّدْر ، ويَسِيرون القَلْب (٣٢) ، ويُمْطون الظَّهْر ، ويُولُون اليَد ، فلما أَرْدَى الدَّهْر الأعْضاد ، وفَجَع بالجوارح الأكْباد ، وانْقَلَب ظَهْرًا لبَطْن (٣٣) ، نبا الناظر . وجَفا الحاجب ، وذَهَب العَيْن ، وفُقِدَت الراحة ، وصَلَد الزَّنْد ، ووَهَنَت اليَمين (٣٤) ، وضاع اليَسار ، وبانت المرافِق ، ولم يَبْق لنا ثَنِيَّة

---

(٢٨) ندوت : خرجت مع أصحابى خارج البلد للراحة ثم الرجوع - الضواحى : المواضع البارزة للشمس - الزوراء : موضع فى الجانب الشرقى من بغداد .

(٢٩) مبار : معارض - ممار : مجادل - المضمار : ميدان السباق - أفضنا : اندفعنا - يفضح : يكشف عيوبها - نصفنا : بلغنا نصفه - غاض : جفّ - الدرّ : اللبن ، استعارة لما يتولد من الذهن - صبت : مالت - الأوكار يريد بها البيوت .

(٣٠) تحضر : تجرى - الجرد : الخيل القصيرة الشعر - استتلت : جعلت تلوها يتبعونها - أنحف : أقلّ لحمًا - الجوازل : فراخ الحمام ، واحدها جوزل - عرتنا : قصدتنا .

(٣١) المعارف : الوجوه ، واحدها معروف ، وإن لم يكن معارف أى وإن كنت لا أعرفهم - مآل : مرجع - الأمل : الراجى - ثمال : غياث وملجأ - الأرامل : المساكين .

(٣٢) سروات : سادات ، واحدها سراة ، والسَّرى : السيد الكبير ذو المروءة - سريات : سيّدات - العقائل : كرائم النساء ، تريد أن أباها وأمّها من السادات - البعل: الزوج - الصدر: مقدّم المجلس - القلب : قلب العسكر ، والعسكر خمسة أقسام : مقدّمة وساقة وميمنة وميسرة وقلب ، والقلب محل الملوك ، أرادت أن قرابتها منهم .

(٣٣) يمطون : يهبون - الظهر: الإبل، وأمطاه أى أعطاه دابة يركب مطاهها ، وهو ظهرها - يولون اليد : يهبون النعمة - أردى : أهلك - أعضاد : جمع عضد وهو غليظ الذراع الذى بين المرفق والمنكب - فجع : أحزن الجوارح : عوامل الجسد كاليد والرجل والعين ، تريد أن الدهر إذا أهلك ، فكأنه قطع جوارحها ، فتعطّلت منفعتها انقلب : تحوّل - ظهرا البطن : كناية عن الخلاف ، أى بعد أن كان مستقيماً انقلب .

(٣٤) نبا : ارتفع ولم يستقرّ - الناظر : من ينظر إلينا - الحاجب : من يحجبها ويسترها - العين : الذهب - صلد : لم يور نارًا ، أرادت انقطاع الخير عنها - اليمين : القوّة .

ولا ناب ، فمُـذ اغبَرَّ العَيْـش الأخضر ، وازْوَرَّ المحبوبُ الأصْفـر ، اسْوَدَّ يَـوْمى الأبْيـض ، وابْيَضَّ فَوْدى الأسْود ، حتَّى رَثَى لـى العَدُوّ الأزْرق ، فحبَّذا الموتُ الأحْمر[٣٥] ، وتِلْوى مَنْ تَـرَوْن عَيْنَه فِراره ، وتَرْجُمانـه اصْفِرَارِه ، قُصْوَى بُغْيَة أحَدِهم ثُـرْدَة ، وقُصارى أُمْنيَّته بُرْدَة[٣٦] ، وكنتُ آليْتُ ألّا أبْذُل الحُرَّ إلّا للحرّ ، ولو أنّى متُّ مِن الضُّرّ ، وقد ناجَتْنى القَرُونة ، بأنْ تُوجد عندكم المعُونة ، وآذنَتْنى فِراسة الحَوْبَاء ، بـأنكم ينابيعُ الحِباء[٣٧] ، فنَضَّر الله امرأً أبَرَّ قَسَمِـى ، وصَدَّق تَوَسُّمِى ، ونَظَرَ إلىَّ بعينٍ يُقْذِيها الجُمود ، ويُقَذِّيها الجُود » .

قال الحـارث بن همـام : فهِمْنا لبـراعَة عِبارتهـا ، ومُلَح استعـارتها ، وقُلنـا لها : قـد فَتَنَ كَلامُك ، فكيْفَ إلحامُك ؟

فقالتْ : أُفَجِّر الصَّخْر ، ولا فَخْر[٣٨] .

فقلْنا : إنْ جَعَلْتِنا من رُواتك ، لم نَبْخَلْ بمُواساتِك .

فقالت : لأُرِيَنّكم أوّلًا شِعارى ، ثمّ لأُرَوِّيَنّكم أشْعارى .

---

(٣٥) بانت : ذهبت وبعدت – المرافق : من كان يرتفق بحياته ومنفعته ، والمرافق : كلّ ما ارتفقت به من مال وغيره – الثنيّة : الصغيرة من الإبل – الناب : المسنّة – اغبرّ : علته غبرة – أخضر : ناعم – ازورّ : انقبض ومال – الأصفر : الدينار – الفود : ناحية الرأس بين الأذن والجبهة – رثى : بكى وأشفق – الأزرق : شديد العداوة – الأحمر : الشديد القاتل .

(٣٦) تلوى : خلفى وإلى جانبى – عينه : شخصه – فراره : معرفته ، أى شخصه يعرفكم بحاله ، والعرب تقول : «عينه فراره» للشىء تعرفه إذا أبصرته ، والفرّ فى البهائم هو كشف أسنانها حتى يعرف مالها من السنّ – ترجمانه : المتكلم عنه ، يريد أن صفرة لونه تخبرك أنه جائع – قصوى : غاية – بُغية : طلب – قصارى أمنيته أى منتهى ما يتمناه وغايته – بردة : ثوب – ثردة : ثريد ، أى أقصى ما يطلب ما يأكل ، وغاية ما يتمنّى ما يلبس .

(٣٧) آليت : حلفت – أبذل الحرّ : أهين الخدّ – الحرّ : الكثير المروءة – ناجتنى : حدّثتنى – القرونة : النفس المعونة : ما يستعان به – آذنتنى : أعلمتنى – فراسة الحوباء : فطنة النفس – الحباء : العطاء .

(٣٨) أبرّ : راعى وأكرم – توسّمى : نظرى وظنّى – أقذاها وقذّاها : ألقى فيها القذى أو أخرجه منها – الجمود : الشحّ – هِمْنا : تحيّرنا – البراعة : الفصاحة – عبارتها : سياق كلامها – ملح استعارتها : يريد ما استعارته من تسمية الأشخاص بأسماء الأعضاء – إلحامك : نسجك الشعر – يفجرّ الصخر : أى يخرج من الحجر الماء ومن البخيل العطاء .

فأبرزت رُدْنَ دِرْعٍ دَرِيس ، وَبرزتْ بِرزَةَ عَجُوزٍ دَرْدَبِيس (٣٩) ، وأنشأت تقول :

أشكو إلى الله اشْتكاء المريضْ ... رَيْبَ الزّمان المتعدّى البغيضْ
يا قومُ إنّى من أُناسٍ غَنَوا ... دَهْرًا ، وجَفْنُ الدّهر عنهم غَضيض
فَخارُهُم ليس له دافع ... وصِيتُهم بَيْن الوَرَى مُسْتَفِيض (٤٠)
كانوا إذا ما نُجْعَةٌ أعْوَزَت ... فى السَّنَة الشّهْباء رَوْضًا أرِيض (٤١)
تُشَبّ للسّارين نِيرانُهم ... ويُطْعِمون الضَّيْف لَحْمًا غَرِيض
ما باتَ جارٌ لهم ساغِبًا ... ولا لرَوْع قال : حال الجَرِيض (٤٢)
فغَيَّضَتْ منهم صُروفُ الرَّدَى ... بِحارَ جُودٍ لم نَخَلْها تَغِيض
وأوْدَعَتْ منهم بُطون الثَّرى ... أُسْدَ التّحامى وأُساة المريض
فَمَحْمَلى بعد المطايا المَطَا ... ومَوْطِنى بعد اليَفاع الحَضِيض (٤٣)
وأفْرُخى ما تأتلى تشتكى ... بُؤْسًا له فى كُلّ يومٍ وَمِيض
إذا دعا القانتُ فى لَيْلِه ... مَوْلاه نادوه بدَمْعٍ يَفِيض
يا رازِقَ النَّعّاب فى عُشّه ... وجابِرَ العَظْم الكسير المَهِيض

---

(٣٩) ردن : كمّ - دريس : قديم بال - درديبس : عجوز فانية .

(٤٠) ريب : جور - غنوا : أقاموا - غضيض : منكسر - صيتهم : ذكرهم الحسن ، وهو من الصوت - مستفيض : متحدّث به مشهور .

(٤١) نجعة : مرعى - أعوزت : فقدت وأحوجت - الشهباء : التى أجدبت ، فلا مطر فيها ولا عشب - الروض : الموضع الكثير العشب - أريض : متسع - تُشب : توقد - للسارين : للماشين بالليل - غريض : طرىّ .

(٤٢) ساغب : جائع - الروع : الفزع - الجريض : الغصّ بالريق عند الموت ، يقال فى المثل : « حال الجريض دون القريض » ، وأصله أن النعمان كان له يومان ، يوم بؤس ويوم نعمى ، فمن لقيه فى يوم بؤسه قتله ، ومن لقيه فى يوم نعماه أغناه ، فلقيه فى يوم بؤسه عبيد بن الأبرص الشاعر ، وكان من خاصته فقال له النعمان ، وددت لو لقيتاغير اليوم ، فتمنّ ما شئت غير نفسك ، فقال : لا أعز علىّ من نفسى ، فقال : لا سبيل إلى ذلك ، فأنشدنى من شعرك ، فقال عبيد : « حال الجريض دون القريض » . فذهبت مثلا .

(٤٣) غيّضت : أذهبت وأفنت - الصروف : الطوارئ تصرفك من حال إلى حال ى لم أخلها : لم أحسبها - أودعت :ضمنت - التحامى : الحماية والمنعة - أساة : أطبّاء - المطايا : الإبل - المطا : الظهر - محملى : ما أحمل عليه أثقالى - اليفاع : الارتفاع من الأرض - الخضيض : أسفل الجبل .

أتِـيـحَ لنـا اللّهـمّ مَـن عِـرضُـه مِـن دَنَـس الـذّمّ نَقِـيّ رَحِـيـض (٤٤)
يُطْفِــىء نـارَ الجُـوع عَنّـا ولـو بمَـذْقَـة مـن حـازِرٍ أو مَخِيـض
فهـل فَتًـى يكشِـف مـا نـابَهـم ويَغْنَـم الشّكْـرَ الطـويـلَ العـريـض
فـوالـذى تَعْنـو النّـواصـى مـا لـه يَـوْمَ وَجُـوهِ الجَمْـع سُـود وبِيـض
لـولاهـمُ لـم تَبْـدُ لـى صَفْحَـة ولا تَصَـدّيْـت لنَظْـم القَـريـض (٤٥)

قال الراوى : فوالله لقد صَدَعَتْ بأبياتِها أعْشار القُلوب ، وامْتَخرجت خَبايا الجُيوب ، حتّى ماحَها من دِينهُ الامتياح ، وارتاح لـرِفدها من لم نَخَلْه يَرْتاح (٤٦) ، فلمّا افْعَوْعَم جَيْبُها تِبْرا ، وأوْلاها كُلّ مِنّا بِرّا ، تَـوَلَّت يَتْلـوها الأصاغـر ، وفُـوها بـالشّكر فـاغِر (٤٧) ، فاشْـرَأَبّت الجماعة بعد مَمَرِّها إلى سَبْرِها لتَبْلُوَ مواقعَ بِرّها ، فكَفَلْتُ لهم باستنباطِ السّرّ المرْمُوز، ونهضْتُ أقْفو أثـرَ العَجـوز، حتىّ انتهتْ إلـى سُوق مُغْتَصَّة بـالأنام ، مُخْتَصَّة بـالزّحـام ، فانْغَمَسَت فى الغِمار وامّلَسَت من الصِّبْيَة الأغْمار، ثـمّ عاجَتْ بخَلْوٍ بال، إلى مَسْجد خال ، فَأَمَاطَت بجِلْباب ، ونَضَت النِّقاب ، وأنا ألمحُها من خَصاص الباب (٤٨) ، وأرقُب ماسَتُبْدِى مِن العُجـاب ، فلمّا انْسَرَت أُهْبَة الخَفَر، رَأَيْت مُحَيًّا أبى زَيْد قد سَفَر، فهَمَمْت أنْ أَهْجُم

---

(٤٤) أفرخى : أولادى - ما تأتلى : ما تقصّر - بؤس : ضرّ - وميض : لمعات - القانت : العابد - يفيض : يملأ العين حتى تفيض بـالدمع - النعـاب : فرخ الغـراب - المهيض : الـذى انكسر بعد الجبر - أتيح : قـدّر - رحيض : مغسول .

(٤٥) مذقة : جرعة - حازر: لبن شـديد الحموضة - محيض : لبن يمزج بالمـاء ويحرك - نابهم : نـزل بهم - العريض : الواسع العرض - تعنو: تذلّ - النواصى : شعر مقـدّم الرأس - صفحة : ناصية العنق - تصدّيت : تعرّضت القريض : الشعر.

(٤٦) صدعت : شقّت وفرّقت - أعشار: قطع ، جمع عشر، وهو القطعة تنكسر من القدح أو البـرمة - خبايا : ما خبىء فيها من الدراهم - ماحها : أعطاها - دينه : عادتـه - الامتياح : طلب المعروف - من لم نخله يرتاح أى من لم نحسب أنه يهتزّ للعطاء والكرم .

(٤٧) افعوعم : امتلأ - تبر: ذهب - أولاها : أعطاها - البرّ: الإكرام - فاغر: متفتح .

(٤٨) اشرأبت : تطلّعت - سبـرها : اختبارها - تبلو: تختبر - كفلت : ضمنت - استنبـاط : استخراج - المرموز: المخفى - نهضت : تقدّمت للمشى - أقفـو: أتبع - مغتصّة : ممتلئة - انغمست : غابت ودخلت - الغمار: كثرة الخلق وجماعتهم التى تغمر الأرض أى تغطيها - املست : انفلتت بسهـولة - الأغمار: :الجهال - عاجت : مالت - أماطت : أزالت - نضت : نحّت وجرّدت - خصاص : شقوق .

عليه ، لأُعَنِّفه على ما أجْرى إليه ، فاسْلَنْقى اسْلِنْقاء المَتَمرِّدين ، ثم رَفَع عَقِيرة المغرِّدين (٤٩) ، واندفع ينشد :

يا ليتَ شِعري أدَهْري أحاطَ عِلماً بقَدْري
وهل دَرَى كُنْهَ غَوْري في الخَدْع أم لَيْس يَدْري
كم قد قَمَرْت بَنِيه بحِيلَتي وبمَكْري
وكم بَرَزْتُ بعُرْف عَلَيْهِمُ وبُنْكر (٥٠)
أصْطَادُ قَوْماً بوَعْظٍ وآخرين بشِعر
وأسْتَفِزّ بخَلٍّ عَقْلاً وعَقْلاً بخَمْر (٥١)
وتارةً أنا صَخْرٌ وتارةً أُخْتُ صَخْر (٥٢)
ولو سَلَكْتُ سَبِيلاً مَألوفةً طُولَ عُمْري
لخابَ قِدْحي وقَدْحي ودامَ عُسْري وخُسْري (٥٣)
فقلْ لمن لامَ هذا عُذْرِي فدُونَك عُذْري

---

(٤٩) انسرت: زالت – محيّا : وجه –سفر : انكشف – أهجم: آخذه على غفلة – أعنّفه : أقبح فعله – اسلنقى : صار على ظهره – المتمرّد : الشيطان ومن لا يرجى صلاحه – العقيرة : الصوت ، وأصله الرِّجل المعقورة أى المجروحة ثم استعمل فى الصوت ، وذلك أن رجلا عقرت رجله ، فرفعها وصرخ من شدّة الألم ،فقيل لكّ من رفع صوته : رفع عقيرته .

(٥٠) ليت شعرى : ليت درايتى وفطنتى – كنه : حقيقة – غورى : آخر أمرى – قمرت : غلبت وخدعت – العرف : المعروف ، ضدّ النكر بمعني المنكر.

(٥١) استفزّ : استخفّ ، واستفزه من كذا أى أخرجه منه ، والخَلّ كناية عن الشرّ، والخَمْر كناية عن الخير، هذا على مذهب العرب ، وكانت الخمرُ أجلّ ما عندهم ، ويقولون: « ما عنده خَلّ ولا خمر » ، أى ما عنده شرّ ولاخير.

(٥٢) صخر هو ابن عمرو الشريد السلمى ، وأخته الخنساء الشاعرة المشهورة ، يريد أنه يظهر مرّة رجلا ومرّة امرأة .

(٥٣) القدح ، بكسر القاف : شىء كانوا يستخدمونه فى الميسر – وبفتحها : إخراج النار من الزند .

قال الحارث بن همام : فلما ظَهَرْت على جَلِيّة أمره ، وبَديعة إِمره ، وما زَخْرَف فى شِعره من عُذْره ، عَلِمْتُ أنّ شَيْطانه المَرِيد ، لايَسْمَع التَّفْنِيد ، ولايَفْعل إلّا ما يُريد ، فثَنَيْت إلى أَصْحابى عِنانى ، وأَبْثَثْتُهم ما أَبْثَتَه عِيانى ، فوَجَموا لضَيْعَة الجَوائز ، وتَعاهَدُوا على مَحْرَمَة العَجائز. (٥٤)

***

المقامة الإسكندرانية :

قال الحارث بن همام : طَحا بى مَرَحُ الشَّباب ، وهَوَى الاكتساب ، إلى أنْ جُبْت ما بين فِرْغانه . وغَانة ، أَخُوض الغِمار ، لأَجْنى الثمار ، وأَقْتحم الأَخْطار ، لكى أدْرِكَ الأَوْطار (٥٥) وكنتُ قد لَقِفْت من أفواه العلماء ، وثَقِفْت من وصايا الحكماء ، أنه يَلزمُ الأديبَ الأَرِيب ، إذا دخل البلد الغريب ، أن يَستميل قاضِيه ، ويَسْتخلص مَراضيه ، ليشتدّ ظَهْرُه عند الخِصام ، ويأمَن فى الغُربة جَوْر الحكَّام ، فاتَّخَذْت هذا الأدبَ إمامًا ، وجعلتُه لمصالحى زِمامًا ، فما دَخلت مَدينة ، ولاوَلَجْت عَرِينة ، إلّا وامْتَزَجْت بحاكمها امتزاج الماء بالراح ، وتَقَوَّيْت بعنايته تقوِّى الأَجْساد بالأرْواح .

فبينما أنا عند حاكمِ الإسكندريّة فى عَشِيّة عَرِيَّة ، وقد أَحْضَر مالَ الصَّدَقات ، ليفُضَّه على ذَوى الفاقات ، إذْ دخلَ شيخٌ عِفْرية ، تَعْتِلُه امرأةٌ مُصْبِية . (٥٦)

---

(٥٤) جليّة : حقيقة - إمره ، بالكسر : دهائه وعجبه - زخرف : زيّن - المَرِيد : العارى من الخير أو الخبيث - التفنيد : اللوم - ثنيت : عطفت - العِنان ، بالكسر : مِقود الدابّة - أبثثت : أخبرت - أثبته : حقّقه - عيانى : معايتنى ونظرى - وجموا : سكتوا حزنا وغضبوا - الجوائز : العطايا - تعاهدوا : تحالفوا - محرمة : منع وحرمان .

(٥٥) طحا : ذهب - الغمار يريد بها الشدائد - الأوطار : الحاجات .

(٥٦) عريّة : شديدة البرد - يفضّه : يفرقه - عِفْرية : خبيث داهية - تعتله : تجرّه بعنف - مُصْبية : ذات صبيان .

فقالت : « أيّد اللهُ القاضى ، وأدامَ به التّراضى ، إنّـى امرأةٌ مِن أكرم جُرْثومة وأطْهر أرُومة ، وأشرف خُئُولة وعَمُومة مِيَسِمى الصَّوْن ، وشيمتى الهَـوْن ، وخُلُقى نِعْمَ العَوْن ، وبيْنـى وبين جاراتى بَوْن ، وكان أبى إذا خَطَبَنى بُنـاةُ المجد ، وأرباب الجـدّ ، سَكّتَهم وبَـكّتَهم ، وعـافَ وصِلتهم ، واحتَـجّ بأنه عاهَـدَ اللهَ - تعالى - بحلْفة ، أن لا يُصاهر غيرَ ذى حِرْفة (٥٧) ، فقيَّض القدر لنَصَبى ، وَصَبى ، أنْ حَضَر هذا الخُدَعة نادِى أبى ، فأقسم بين رَهْطـه ، أنه وَفْق شَرْطه ، وادّعى أنه طالما نَظَـمَ دُرَّة إلى دُرَّة ، فباعهما ببدْرة ، فاغتَرّ أبى بزَخْرفـة مُحاله ، وزَوَّجَنيه قبل اختبـار حالـه ، فلمّا استَخْرجنى مـن كِناسى ، ورَحَّلنـى عن أُنـاسى ، ونَقَلنـى إلى كَسْـره ، وحَصَّلنى تحت أَسْره ، وَجَدْته قُعَدَة جُثَمة (٥٨) ، وألْفَيته ضُجَعَة نُوَمة ، وكنـتُ صحِبتُه برياش وزِىٍّ ، وأثاث ورِىّ ، فما بَرِح تَبِعُه فى سُوق الهَضْم ، إلى أن مزّق مالى بأسْره ، وأنْفق مالى فى عُسْره ، فلمّا أنسانى طَعْم الراحة ، وغادرَبيْتى أنْقى مِن الرَّاحة ، قلتُ : يا هذا إنّه لا مَخْبأ بعد بُوس ، ولا عِـطْـر بعد عَرُوس (٥٩) فانهضْ للاكتساب بصناعتك، واجْنِنِى ثَمَرة براعتك. فزَعَمَ أنّ صناعته قد رُميـت بالكساد ، لما ظهر فى الأرض مـن الفساد ، ولى منه سُلالة ، وكـلانا ما يَنال معه شُبْعة ، ولا تَرْقأ له من الطوى دَمْعة ، وقـد قُدْته إليك ، وأحْضَرْته لَدَيْك ، لتَعْجِم عُودَ دَعْواه ، وتَحْكمُ بيننا بما أراكَ الله . (٦٠)

فأقْبل القـاضى عـليه ، وقال لـه : قد وَعَيْت قِصَصَ عِرْسك ، فبرهنْ الآنَ عـن نفْسك ، وإلّا كَشَفْتُ عـن لُبْسك (٦١) ، وأمَرْت بحَبْسـك ، فأطْرَق إطْـراق الأُفْعوان ، ثم شَمـرَّ العَوان ، وقـــال:

---

(٥٧) الجرثومـة والأرومة كلاهما بمعنى الأصل - ميسم : علامة - شيمـة : خلق وعادة - الهون : الـرفق - بوْن : تفاوُت فى الفضل - أرباب الجدّ : أصـحاب الغنى - بكّتهم : ألزمهم الحجة - عاف : كره - حلفة : يمين .

(٥٨) نصب : تعب - وصـب : مرض - الخدُعة : كثير الخداع - نادى : مجلس - البـدرة : عشرة آلاف درهم - مُحاله : باطله - كِناسى : منزلى - كسره : جانب بيته - قعدة جثمة : كثير القعود والجثوم .

(٥٩) الهضم : النقص ، أى يبيعه بأقـل من القيمة - القضـم : الأكل بجميع الفم - الراحـة : بطن الكف ، لنقائه من الشعر - بوس : فقر - لا عطر بعد عروس : مثل قالته امرأة من عذرة مات عنها زوجها واسمه عروس .

(٦٠) سلالة : ولد - خلالة : ما يتخلل به - لا ترْقأ : لا تهدأ ولا تسـكن - الطوى : الجوع - تعجم : تختبر .

(٦١) اللبس : الإشكال والتعمية .

إسمــعْ حــديثــى فــإنّــه عَجَــبُ يُضْحَــكُ مــن شَــرْحِــه ويُنْتحَــبُ
أنــا امــرؤٌ ليــس فــى خَصــائصــه عَيْــبٌ ولا فــى فَخــارِه رِيَــب
سَــرُوجُ دارى التــى وُلِــدت بهــا والأَصْــلُ غَسّــان حيــن أنتســب
وشغْلــى الــدرسُ ، والتبحُّــر فــى عِلْــم طِــلابــى ، وحَبَّــذا الطلــب
ورأسُ مــالــى سِحْــرُ الكَــلامِ الــذى منــه يُصــاغ القَــريــضُ والخُطــب
أغــوصُ فــى لُجَّــة البيــانِ فــأخــ ــتار الــلآلــى منهــا وأنتخــب
وأجْتنــى اليــانــعَ الجَنِــىَّ مِــن الــ قَــوْل وغَيْــرى للعُــود يَحْتَطــب
وآخــذُ اللَّفْــظَ فِضَّــةً فــإذا مــا صُغْتُــه قِيــل : إنّــه ذَهَــب !
وكنــتُ مــن قبــل أمتــرى نَشَبــاً بــالأدبِ المُقْتَنــى وأحتَلــب
ويَمْتَطــى أَخْمَصــى لحُــرْمَتــه مَــراتبــاً ليــس فَــوْقهــا رُتَــب (٦٢)
وطــالمــا زُفَّــت الصِّــلاتُ إلــى رَبْعــى ، فلــم أرْض كُــلَّ مــن يَهــب
فــاليــوم مــن يَعْلَــق الــرجَــاء بــه أكْسَــد شــىءٍ فــى سُــوقــه الأدب
لا عِــرْضَ أبنــائِه يُصــان ولا يُــرْقَــب فيهــم إلٌّ ولا نَسَــب (٦٣)
فحــارَ لُبّــى لِمــا مُنِيــت بــه مِــن اللّيــالــى ، وصَــرْفُهــا عَجَــب
وضــاقَ ذَرْعــى لضِيــق ذاتِ يــدى وســاورَتْنــى الهُمــومُ والكُــرَب
فبعــتُ حتّــى لــم يَبْــقَ لــى سَبَــدٌ ولا بَتَــاتٌ إليــه أنقَلِــب
وادَّنْــتُ حتّــى أثقلــتُ ســالِفتــى بَحمْــل دَيْــنٍ مــن دُونِــه العَطَــب (٦٤)

(٦٢) أمترى وأحتلب كلاهما بمعنى أكتسب - النَّشب : المال - الأخمص : ما ارتفع من باطن القدم عن الأرض لحُرمته : لشرفه ورفعته .
(٦٣) الإلّ : العهد والقرابة والجوار .
(٦٤) لم يبق لى سبد : مأخوذ من قولهم : ماله سبد ولا لبد ، أى ماله شعر أو صوف ، وأراد به هنا أنه لم يبق له كثير ولا قليل ، كناية عن شدة الفقر والحاجة - البتات : الزاد ومتاع البيت - أدّنت : تداينت - السالفة : صفحة العنق أو مقدّمه - العَطب : الهلاك .

ثم طَوَيْتُ الحَشا على سَغَب خَمْسًا فلمّا أَمَضَّنى السَّغَب
لَمْ أرَ إلّا جِهازَها عَرَضًا أَجُولُ في بَيْعه وأَضْطَرِب (٦٥)
فَجُلْتُ فيه والنفسُ كارهةٌ والعَيْنُ عَبْرى والقَلْبُ مُكْتَئِب
وما تَجاوَزْتُ إذْ عبثْتُ به جِدَّ التراضِى فيحدثُ الغَضَب
فإنْ يكنْ غاظَها تَوَهُّمها أنّ بنانى بالنَّظْم تكْتَسِب
أو أنّنى إذ عَزَمْتُ خِطْبتها زَخْرَفْتُ قولَ لينجَحَ الأَرَب
فَوَالّذى سارت الرِّفاق إلى كَعْبَتِه تَسْتَحِثّها النُّجُب
ما المكرُ بالمحْصَنات من خُلقى ولا شِعارى التمويهُ والكذب
ولا يَذى مذْ نَشَأْتُ نِيطَ بها إلّا مَواضِى اليَراعِ والكُتُب (٦٦)
بلْ فِكرتى تَنْظِمُ القلائِدَ لا كفِّىَ وشِعْرى المنظومُ لا السَّخَب
فهذه الحِرفَةُ المشارُ إلى ما كنتُ أَحْوى بها وأَجْتلب
فَأْذَنْ لشرحى كما أَذِنْت لها ولا تُراقِبْ واحْكُمْ بما يَجب (٦٧)

قال: فلمّا أحكمَ ما شاده، وأكملَ إنْشاده، عطَفَ القاضى الفتاة، بعد أن شُعِف بالأبيات، وقَال: أما إنّه قد ثبتَ عند جميع الحُكام، ووُلاة الأحكام، انقراض جيلِ الكِرام، ومَيْل الأيام إلى اللِّئام، وأنى لإخال بَعْلَك صَدُوقاً فى الكلام، بَرِيًّا من المَلام، وها هو قد اعترفَ لكِ بالقَرْض، وصَرَّح عن المَحْض (٦٨)، وبيَّن مِصْداق النَّظْم، وتبيَّن أنه مَعْروق

---

(٦٥) سَغَب: جوع – خمساً: أى خمس ليال – أمضّنى: أحرقنى – الجهاز: فاخر متاع البيت – العَرَض: حطام الدنيا، وهو المال قلّ أو كثر – أضطرب: أتردّد.

(٦٦) النجب: جمع نجيبة، وهى الكريمة من الإبل – المُحْصنات: جمع مُحْصَنة وهى العفيفة – نيط بها: علق بها – اليراع: القلم.

(٦٧) القلائد: جمع قلادة، وهو ما تقلّد به المرأة من الذهب، والمراد ما ينظم من القصائد – السخب: جمع سخاب، وهو القلادة من القرنفل والمسك ليس فيها من الجواهر شىء تجعل فى أعناق الأطفال.

(٦٨) القرض: السلف – المحض: الخالص.

العَظْم ، وإعنات المُعْذر مَلامة ، وحَبْس المُعْسر مَألمة ، وكِتْمان الفَقْر زَهاده ، وانتظارُ الفَرَج بالصَّبْر عِبادة ، فارْجِعى إلى خِدْرك ، واعْذُرى أبا عُذْرِك ، ونَهْنِهى عن غَرْبك ، وسَلِّمى لقضاءِ ربِّك . (٦٩)

ثم إنّه فَرَض لهما فى الصَّدقات حِصّة ، وناولَهما من دَراهمهما قَبْصَة ، وقال لهما : تَعَلَّلا بهذه العُلالة ، وتَنَدَّيا بهذه البُلالة (٧٠) واصْبِرا على كَيْد الزَّمان وكَدّه، فعَسَى الله أنْ يأتىَ بالفَتْح أو أمْرٍ مِن عِنده ،فنَهَضا وللشَّيْخ فَرْحة المُطْلَق من الإسار،وهِزَّة المُوسِر بعد الإعْسار.

قال الراوى : وكنت عَرَفْتُ أنّه أبو زيد ساعةَ بَزَغَتْ شَمْسُه ، ونَزَغَت عِرْسُه ، وكِدْتُ أُفصح عن افتِنانه ، وإثْمار أفْنانه ، ثم أَشْفَقْت من عُثُور القاضِى على بُهْتانه ، وتَزْويق لِسانه ، فلا يُرى عند عِرْفانه ، أن يُرَشِّحه لإحْسانه ، فأحْجَمْت عن القَوْل إحجام المُرْتاب ، وطَوَيْت ذكْره كطَىِّ السِّجِل للكتاب (٧١) ، إلاّ أنى قلتُ بعد ما فَصَل ووَصَل إلى ما وَصَل : لو أنّ لنا من يَنْطلق فى أثَره ، لأتانا بفَصِّ خَبَره ، وبما يُنْشر من حِبَره (٧٢) ، فأتْبَعه القاضى أحدَ أُمنائه وأمَره بالتَّجَسُّس عن أنْبائه ، فما لَبِث أنْ رَجَع مُتَدَهْدِهًا ، وقَهْقَر مُقَهْقِهًا ، فقالَ له القاضى : مَهْيَمْ ، يا أبا مَرْيَم ؟ (٧٣)

فقال : لقد عايَنْتُ عَجَبًا ، وسَمِعْتُ ما أنْشأ لى طَرَباً .

فقال له : ماذا رأيْت ؟ وما الذى وَعَيْت ؟

---

(٦٩) معروق العظم : كناية عن الهزال ، يقال عظم معروق إذا أُخذ ما عليه من اللحم – إعناته : حمله على المشقّة – المُعْذِر : الذى يأتى بما يُعذر به – أبو عذرك أى زوجك – نهنهى : كفىّ وازجرى نفسك .

(٧٠) القبصة : ما يتناوله الإنسان بأطرف أصابعه – تعلّلا : تشاغلا وتلاهيا – العلالة : ما يتعلل به ، وأصلها بقية اللبن – البلالة : قدر ما يبلّ به الشىء أو البقية .

(٧١) أى كما تطوى الصحيفة الكتابة .

(٧٢) فصل : ذهب – فصّ خبره : حقيقة حاله – الحِبَر : جمع حَبَرَة ، وهى الرداء اليمنىّ الموشىّ ، وأراد ما يذكره من الكلام المسجع .

(٧٣) متدهدها : متدحرجا – مهيم : كلمة يستفهم بها ، معناها : ماحالك ؟ وما هذا الذى أرى بك ؟؛ ولا يعلم على وزنها كلمة غير مريم .

قال : لم يَزَل الشيخُ مذ خرَج يُصَفِّق بيَدَيْه ، ويُخَالف بين رِجْليه ، ويُغَرِّد بمِلْء شِدْقَيْه ، ويقول :

كِدْتُ أَصْلى بَلِيَّة ... من وَقاحٍ شَمَّرِيَّة

وأزورُ السِّجْنَ لَوْلا ... حاكمُ الإسكندرية

فضحِك القاضى حتى هَوَتْ دَنِّيَّته ، وذَوَتْ سَكِينَتُه ، فلمّا فاءَ إلى الوَقار ، وعَقَّب الاسِتْغرابَ(٧٤) بالاستِغفار ، وقال : اللَّهُمّ بحُرْمة عبادِك المقرَّبين ، حَرِّمْ حَبْسى على المتأدِّبين . ثمّ قال لذلك الأمين : علىّ بِه .

فانطلقَ مُجِدًّا فى طَلَبه ، ثمّ عادَ بعد لأيه ، مُخبِرًا بنأيه ، فقالَ له القاضى : أما إنّه لو حَضَر لكُفِى الحَذَر ، ثم لأَوْلَيْتُه ما هُوَبه أَوْلى ، ولأَرَيْتُه أنّ الآخِرَة خَيْرٌله من الأُولى .

قال الحارث بن همام : فلما رَأَيْتُ صَغْوَ القاضِى إليه ، وفَوْتَ ثَمَرَةِ التَّنْبِيه عليه ، غَشِيَتْنى نَدامَة الفَرَزْدق حِين أَبانَ النَّوَار ، والكُسَعِىّ لمّا استبان النهار. (٧٥)

* * *

المقامة المغربيّة :

حكى الحارث بن همام ، قال : شَهِدْت صَلاةَ المغْرِب فى بَعْض مَساجد المغْرب ، فلما أَدَّيْتُها بفَضْلها ، وشَفَعْتها بنَفْلها ، أخذَ طَرْفى رفْقَة قد انْتَبذوا ناحِية ، وامتازوا صَفْوَةً صافِية ، وهم يَتَعاطَوْن كاسَ المنَافَثَة ، ويَقْتَدحون زِناد المباحَثة ، فرَغِبت فى مُحادثتهم

(٧٤) هَوَتْ : وقعت - الدنّيّة : قَلَنْسوة طويلة يلبسها القضاة - ذوت : ذبُلت وفترت - فاء : رجع - الاستغراب : شدة الضحك والمبالغة فيه .

(٧٥) لأية : بطئة - نأيه : بعده - أوليته : أعطيته - صغو : ميل - الفرزدق : هو الشاعر الأموى المعروف ، وكان قد طلّق زوجته النوار، ثم ندم على ذلك - الكسعى : كان راعيا ، وعمل قوسا بعد طول تعب ، ثم رمى عنها ليلا ، فنفذت فى الرميّة ، ووقع السهم فى حجر، فقدح منه الشرار، فظنّ أن السهم أخطأ الرمية ، فرمى ثانيا وثالثا إلى آخر الأسهم ، وكانت خمسا ، وهو يظن خطأه ، فعمد إلى قوسه ، فكسرها ، ثم بات ، فلما أصبح ، تبيّن أن أسهمه كلها أصابت فندم ندماً شديدًا .

بكلمةٍ تُسْتفاد ، أو أدبٍ يُسْتزاد ، فسَعَيْت إليهم سَعْى المتطفِّل عليهم ، وقلتُ لهم : أتَقْبلون نزيلًا يَطْلبُ جَنَى الأسْمار ، لاجَنِيَ الثمار ، ويَبْغى مُلَح الحِوار ، لا مَلْحاء الحُوار ، فحَلُّوا إلىَ الحَبا (٧٦) ، وقالوا : مَرْحَبًا مَرْحَبا .

فلم أجلِسْ إلّا لمَحة بارقٍ خاطف ، أو نُغْبَة طائرٍ خائف ، حتى غَشِيَنا جَوّاب ، على عاتِقه جِراب ، فحيّانا بالكَلِمَيْن ، وحَيّا المسجد بالتَّسْلِمتين ، ثم قال : يا أُولى الألْباب ، والفَضْل اللُّباب ، أما تَعْلمون أنَّ أنْفَس القُرُبات ، تَنْفيسُ الكُرُبات ، وأمْتَنَ أَسْباب النَّجاة ، مُواساة ذَوِي الحاجات ، وإنيَ ومَن أحَلَّنى ساحَتكم ، وأتاح لى استماحتَكم لشرِيدُ مَحَلٍّ قاصٍ ، وبَرِيدُ صِبْيَةٍ خِماص ، فهل فى الجماعة ، من يَفْثأ حُمَيّا المجاعة ؟ (٧٧)

فقالوا له : يا هذا ، إنّك حَضَرت بَعْد العِشار ، ولم يَبْقَ إلّا فَضَلات العَشاء ، فإنْ كنتَ بها قَنُوعًا ، فما تَجِد فينا مَنُوعا .

فقال : إنّ أخا الشَّدائد ، لَيَقْنَع بلُفاظات الموائد ، ونُفاضات المزاوِد .

فأمَر كُلٌّ منهم عَبْده ، أن يُزَوِّده ما عِنده ، فأعْجَبه الصُّنْع وشَكَر عليه ، وجَلَس يَرْقُب ما يُحْمَل إليه ، وثُبْنا نحنُ إلى اسْتِثارة مُلَح الأدب وعُيُونه ، واستنباطِ مَعِينه من عُيُونه ، إلى أن نَسْتنتِجَ له الأفْكار ، ونَفْتَرِع منه الأبْكار ، على أنْ يَنْظِمَ البادىءُ ثلاثَ جُمانات فى عِقْده ، ثم تَتَدرَّج الزِّيادات مِن بعده ، فيُرَبِّع ذو مَيْمَنته فى نَظْمه ، ويُسَبِّع صاحبُ مَيْسَرته على رَغْمه . (٧٨)

قال الرّاوى : وكُنّا قد انتظمنا عِدَة أصابِع الكَفّ (٧٩) ، وتألّفْنا أُلْفة أصحابِ الكَهْف ، فابْتَدر لعظم مِحْنتى صاحبُ مَيْمَنتى ، وقال : « لُمْ أخَا مَلّ » .

---

(٧٦) فضهـا : كمـالها – انتبذوا – امتـازوا : ابتعدوا – اعتزلوا – الملحاء : لحمة وسط الظهر ، وهى أطيب اللحم – الحوار : ولد الناقة ما لم يستكمل عاما – الحبا جمع حَبْوة ، وهى أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٧٧) النغب : أن يدخل الطائر منقاره فى الماء ويخرجه بسرعة – جواب : قطاع للأرض – بالكلمتين : أى قال السلام عليكم – الاستماحة : السؤال وطلب العطاء – بريد : رسول – خماص : ضامرو البطون – يفثأ : يسكن .

(٧٨) ثُبنا : رَجَعْنا – الجمانات : يريد بها الكلمات النفيسة ، والجمانة : هى الحبة من الفضة .

(٧٩) عِدة أصابع الكف : أى اجتماعنا خمسة .

وقال مَيامنُه : « كَبِّرْ رَجَاء رَبِّك » .

وقال الذى يليه : « مَنْ يَرُبّ إذا بَرِّيَنْم » .

وقال الآخر : « سَكِّت كُلَّ منْ نَمَّ لك تكيِس » .

وأفْضَت النَّوْبَةُ إلىّ ، وقد تعيَّن نَظْمُ السِّمْط [٨٠] السُّباعىّ علىّ ، فلم يَزَلْ فِكرى يَصُوغ ويَكْسِر ، ويثرى ويعسر ، وفى ضِمن ذلك أَسْتَطْعم ، فلا أَجِد من يُطْعم ، إلى أنْ رَكَدَ النَّسيم وحَصْحَص [٨١] التَّسْليم ، فقلتُ لأصحابى : لو حَضَر السَّرُوجىّ هذا المقام ، لشَفَى الدَّاءَ العُقَام .

فقالوا : لو نَزَلَتْ هذه بإياس [٨٢] لأمْسَك على ياس .

وجَعَلْنا نُفِيضُ فى استِصْعابها ، واستِغلاق بابها ، وذلك الزَّوْر المُعْتَرى ، تَلْحَظُنا لَحْظَ المزْدَرِى ، ويُؤلِّف الدُّرَر ونحن لا نَدْرى ، فلما عَثَر على افتِضاحنا ، ونُضوب ضَحْضاحنا [٨٣] ، قال : « ياقومُ إنّ مِن العَناء العظيم ، استيلاءَ العَقيم ، والاستِشْفاء بالسَّقيم ، وفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَليم » .

ثم أَقْبَل علىّ ، وقال : « سأَنُوب مَنابك ، وأَكْفِيك ما نابك ، فإن شِئْتَ أن تَنْثُر ، ولا تَعْثُر ، فقلْ مُخاطبًا لمنْ ذمَّ البُخل ، وأكثر العَذْل : « لُذْ بكلِّ مُؤَمِّل إذا لَمَّ ومَلَك بَذَل » وإنْ أحْبَبتَ أنْ تَنْظِم فقُلْ لِلَّذى تُعَظِّمُ :

أُسْ أرْمَــلًا إذا عَــرا ... وارْعَ إذا المَــرءُ أَســا

أَسْنِــد أَخَــا نبــاهــةٍ ... أَبــنْ إخــاءً دنّســنا

أَسِــلْ جَنــابَ غــاشــمٍ ... مُشــاغِــبٍ إنْ جَلَســا

أسْــر إذا هــبَّ مُــرا ... وادمِ بــه إذا رَســا

اسْكُــنْ تَقَــوَّ فَعَســى ... يُسْعِــفُ وقْــتٌ نِكْســا

---

(٨٠) السمط : الخيط الذى فيه الخرز ، وأراد به القول المؤلّف من سبع كلمات .

(٨١) حصحص : بان وظهر.

(٨٢) إياس هو ابن معاوية ، قاضى البصرة .

(٨٣) ازدفر : الزائر – الضَّحْضَاح : الماء الذى لاعُمْق له .

قال : فلمّا سَحَرنا بآياتِه ، وحَسَرنا ببُعْـد غَاياته ، مَدَحْناه حتّى استَعْفى ، ومَنَحْناه إلى أن استكفى ، ثم شمّر ثيابه ، وازْدَفر جِرابه (٨٤) ونَهَض يُنْشد :

لله دَرُّ عِصـــابـــةٍ ... صـــدق المقـــال مقـــاولا
فـــاقـــوا الأنـــامَ فَضـــائلًا ... مـــأثـــورةً وفَـــواضـــلا
حـــاورتهُـــم فـــوجـــدْتُ سَحْـــ ... ـبـــانًـــا لـــديهـــمْ بـــاقـــلا
وحَلَلْـــــتُ فيهـــم ســـائلًا ... فلقيـــتُ جُـــودًا ســـائلا
أقسَمْـــتُ لـــو كـــان الكـــرا ... مُ حَيًـــا لكـــانـــوا وابِـــلا

ثم خَطا قِيـد رُمْحَين ، وعاد مُسْتَعيذًا من الحَيْـن ، وقال : يا عزَّ مَن عَـدِم الآل ، وكنزَ من سُلب المـال ، إن الغاسق قـد وَقَب (٨٥) ، ووَجْه المحجَّة قـد انْتَقَب ، وبَيْنى وبَيْن كَنّى لَيْلٌ دامِس ، وطريقٌ طامِس ، فهلْ من مصباحٍ يُؤَمِّنُنى العِثار ، ويُبَيِّن لى الآثار .

قال : فـلما جِـيء بالمُلْتَمَس ، وجَلَّى الوُجُوه ضَـوْء القَبَس ، رأيتُ صاحبَ صَيْدنا ، هو أبو زيدنا ، فقلتُ لأصحابى: هذا الـذى أشرتُ إلى أنّه إذا نَطَق أصاب ،وإن استُمْطِر صَاب ، فأتْلَعوا نحوه الأعْناق ، وأحْدقوا به الأحْداق ، وسَألوه أن يُسامرهم لَيْلَته ، على أنْ يَجْبُروا عِيلَته فقال : حُبـا لما أحْبَبْتم ، ورُحْبًا بكم إذا رَحَّبْتم ، غيـرَ أنّى قَصَدْتكـم وأطْفالى يَتَضـوَّرون من الجُوع ، ويَدْعون لى بوشْك الرُّجوع ، وإن استَرَاثونى خَامَرَهم الطَّيْش ولم يَصْفُ لهم العَيْش ، فدَعُـونى لأذهب فـأسُدّ مَخْمَصَتهم ، وأسِيغ غُصَّتهم ، ثم أنْقَلب إليكـم على الأثر، مُتـأهِّبا للسَّمَر، إلى السَّحر.

فقلنا لأحدِ الغِلْمة : اتبعْه إلى فِتَته ، ليكونَ أسْرَعَ لفَيْئَته .

فانطلقَ معه مُضْطَبِنًا جِرابه ، ومُحَثْحِثًا (٨٦) إيابَه ، فأبْطأ بُطْئًا جاوزَ حَدَّه ، ثم عادَ الغلامُ وحدَه ، فقلْنا له : ما عِنْدَكَ من الحديثِ عن الخبيث ؟

---

(٨٤) الزدفر جرابه : حمله على ظهره .
(٨٥) الغاسق : الليل إذا غـاب الشفق واشتدّت ظلمته أو القمر إذا أظلم بالخسوف - وقب : غاب ، وفى القرآن الكريم : « ومن شرّ غاسق إذا وقب » .
(٨٦) مضطبن : محتضن أو ممسك بيده - حثحثه : حركه وحثه .

فقال : أَخَذَني في طُرُق مُتْعِبة وسُبُل مُتَشَعّبة ، حتّى أَفْضَيْنا إلى دُوَيْرة خَرِبة ، فقال : ها هُنا مُناخي ، ووَكْر أفراخي ، ثم اسْتَفْتَح بابه ، واختلج منّي جرابُه ، وقال : لعَمْرى لقد خفّفت عنّي ، واستوجَبْتَ الحسنى منّي ، فهاك نصيحةٌ هي مِن نفائسِ النَّصائح ، ومغَارس المَصالح ، وأنشد :

إذا مـا حَـوَيْتَ جَنَى نَخْلَـةٍ ... فـلا تَقْرَبَنْها إلى قـابـل
وإمّا سَقَطْتَ على بَيْدَر ... فحَوْصِلْ من السُّنْبُل الحاصل
ولاتَلْبِثَنَّ إذا ما لَقَطْتَ ... فتَنْشَب في كِفَّة الحابـل
ولا تُوغِلَنَّ إذا ما سَبَحْتَ ... فإنّ السَّلامةَ في السَّاحل
وخاطِبْ بهاتِ ، وجاوبْ بليْسَ ... وبِعْ آجِلًا منك بالعاجل
ولا تُكْثِرَنَّ على صاحبٍ ... فما مَلَّ قَطُّ سِوى الواصل

ثم قال : اخْزُنْها في تامُورك [(٨٧)] ، واقْتَدِ بها في أُمورك ، وبادِرْ إلى صَحْبك ، في كَلَاءة رَبِّك ، فإذا بَلَغْتهم فأَبْلِغْهم تَحِيَّتى ، واتْلُ عليهم وِصِيَّتى ، وقُل لهم عنّى : إنّ السَّهر في الخرافات ، لمِن أعْظَمُ الآفات ، ولستُ أُلْفى اختِراسى ، ولا أَجْلِب الهَوسَ إلى راسى .

قال الراوى : فلمّا وَقَفْنا على فَحْوى شِعْره ، واطَّلَعْنا على نُكره ومَكْره ، تَلاوَمْنا على تَرْكه والاغترار بإفْكِه ، ثم تَفَرَّقْنا بوُجُوهٍ باسِرة [(٨٨)] وصَفْقَة خاسِرة .

* * *

المقامة الصنعانيّة :

حَدَّث الحارثُ بن همّام ، قال : لما اقْتَعَدْتُ غارِبَ الاغتراب ، وأَنْأَتْنى المَتْرَبةُ عن الأَتْراب ، طوَّحتْ بى طوائحُ الزَّمن إلى صَنْعاء اليمن ، فدخلتُها خاوِى الوِفاض ، بادِي الإنْفاض ، لا أَملك بُلْغَةً ، ولا أَجِدُ فى جِرابى مُضْغة . [(٨٩)]

---

(٨٧) التامور بالهمزة وبغير همزة : الصومعة أو الوعاء .

(٨٨) باسرة : عابسة .

(٨٩) غارب كلّ شيء : أعلاه - اقتعده - اتخذه قعدة - الغارب : الكاهل - المتربة : الفقر - طوّحت : رمت - طوائح الزمن : خطوبه وقوادفه - خاوى : فارغ - الوفاض : جمع وفضة ، وهى خريطة من أدم يجعل فيها الراعى زاده - أنفض الرجل إذا فنى زاده وماله - البلغة : ما يتبلغ به من العيش ،وهو اليسير من الزاد - المضغة : ما يمضغ .

فطفِقتُ أَجُـوب طُرُقـاتها مثلَ الهـائم ، وأَجُول فـى حَوْماتهـا جَوَلَان الحـائم ، وأَرود فى مَسارح لَمَحـاتى ، ومَسَـايح غَدواتـى ورَوحاتـى ، كريماً أُخلِـق له دِيـاجَتى (٩٠) ، وأَبـوح لـه بحاجَتـى ، أو أديبًا تُفَـرِّج رُؤْيته غُمَّتـى ، وتُروى رِوايته غُلَّتـى ، حتّى أَدَّتْنـى خاتِمـة المطافِ ، وهَدَتْنى فـاتِحة الألْطاف (٩١) ، إلـى نادٍ رَحيـب ، مُحْتَوٍ علـى زِحامٍ ونَحِيـب ، فولَجْـت غابَـةَ الجَمْع ، لأسْبُرَ مَجْلَبَة الدَّمْع ، فرَأَيت فى بُهْرَة الحَلْقة ، شَخْصًا شَخْتَ الخِلْقة (٩٢) ، عليه أُهْبَة السِّيَاحة ، ولـه رَنَّة النِّياحة ، وهو يَطْبَعُ الأسْجـاع بجَواهر لَفْظِه ، ويَقْرَعُ الأسْماع بـزَواجر وَعْظه ، وقد أَحاطتْ به أخْلاطُ الزُّمَر ، إحاطةَ الهالـة بالقمَر ، والأكْمام بالثَّمَر ، فدَلَفْتُ إليه لأَقْتَبِس من فَوائده ، والْتَقِط بعـضَ فَرائده (٩٣) ، فسَمِعْته يَقـول حين خَبَّ فى مَجـاله ، وهَدَرَتْ شَقـاشِق ارْتجاله : (٩٤)

« أيُّها السـادِرُ فى غُلَوائه ، السـادِلُ ثَوْبَ خُيَلائه ، الجـامِح فى جَهـالاته ، الجانـح إلى خُـزَعْبِـلاتـه ، إلامَ تَسْتمرّ على غَيِّك ، وتَسْتمرىء مَـرْعَى بَغيـك ؟ وحَتَّام تَتَناهَـى فى زَهْـوِك ، ولاتَنْتَهى عن لَهْوك ؟ (٩٥)

تُبارَز بمعْصِيتك ، مالِكَ ناصِيتك (٩٦) ، وتَجْترىء بقُبح سِيرتك ، على عـالِم سَرِيرتك ! وتتوارَى عن قَرِيبك ، وأنـت بمَرْأى رَقيبك ؟ وتَسْتخفى من مَمْلوكك ، وما تَخْفـى خافيةٌ على

---

(٩٠) الحائم : طـائر إذا اشتد به العطش ورد المـاء فحام عليه ، حتى يغـرق وهو يشربه ، فـإن ناله الماء تسـاقط ريشه - أخلق له دياجتي : أبذل له وجهي .

(٩١) الغلّة : شدّة العطش - فاتحة الألطاف : أول ألطاف الله بي .

(٩٢) لأسبر مجـلبة الـدمع : لأختبر سبب البكـاء - بهـرة الحلقة أي وسطهـا - الشخت والشخيـت : الدقيـق النحيف .

(٩٣) يطبع الأسجـاع أي يصوغهـا ويرتّبهـا ، وهي ما كـان له فـواصل كقوافي الشعر - أخـلاط الزمـر : أوباش مختلفون في الجماعات - الدلف : أن يمشي الشيخ مشيا رويدًا ويقارب الخطو - فرائده : نوادره وغرائبه .

(٩٤) خبّ في مجاله : أسـرع في طريقته - هدرت : ارتفعت وصوّتت - شقاشـق : جمع شقشقة بكسـر الشينين وهي ما يخرجه البعير من فيه إذا هاج ، ويقال للخطيب : إنه لذو شقشقة ، تشبيهًا بالفحل الكثير الهدير .

(٩٥) السادر الـذي لا يبـالي بما صنـع - غلوائه : غلوّه - السـادل : من السـدل ، وهو إرخـاء الثوب وإرسـاله - الجامح : مأخوذ من جمـع الفرس إذا مرّ براكبه ولم يردّه اللجام - الجانح : المائل - خزعبـلاته : جمع خزعبلة ، وهو الحديث الباطل - تستمرئه : تستطيبه - زهوك : كبرك .

(٩٦) ناصيتك : مقدّم رأسـك - رقيبك : عالم أمرك ، وهو الله تعالى .

مَليكـك ! أَتَظُنُّ أنْ ستنفعُـك حالُـك ، إذا آنَ ارتحـالُك ؟ أو يُنقـذك مـالُك ، حيـن تُوبِقُـك أعمالُـك ؟ أو يُغنى عنك نَـدَمُك ، إذا زَلَّت قَـدَمُك ؟ أو يَعْطِـف عليك مَعْشَرُك يـومَ يَضُمُّك مَحْشَرُك ؟ هَلَّا انتهجتَ مَحَجَّة اهتدائِك ، وعَجَّلـت مُعالجة دائك ، وفَلَلْتَ شباةَ اعتدائك ، وقَدَعْـتَ نفسَك فهى أكبـرُ أعدائِك ؟ (٩٧) أمّا الحِمـام ميعادُك ، فمـا إعدادُك ؟ وبـالمِشيب إنذارُك ، فما أَعْذارك ؟ وفى الَّلحْد مَقِيلك فما قِيلُك ؟ وإلى الله مَصِيرُك ، فمنْ نَصِيرك ؟ (٩٨)

طـالمَا أَيْقَظَـك الدَّهْـرُ فتنـاعَسْتَ ، وجَـذَبك الـوعْظُ فتَقَـاعَسْت ! وتَجَلَّـتْ لك العِبَـر فتعامَيْت ، وحَصْحَصَ لـك الحقُّ فتمارَيْت ، وأَذْكَرَك الموت فتناسيْـت ، وأَمْكَنَك أنْ تُواسىَ فما آسَيْت ! (٩٩) تُؤثر فَلْسًا تُوعيه ، على ذِكْرٍ تَعِيه ، وتَخْتـارُ قَصْرًا تُعْليه ، على بِرٍّ تُولِيه ، وتَرْغَبُ عن هادٍ تَسْتَهْديه ، إلى زادٍ تَسْتَهْديه(١٠٠) ، وتُغَلِّب حُبَّ ثوْبٍ تَشْتهيه ، علـى ثواب تَشْتريه ، يَواقِيـتُ الصِّلَات ، أَعْلَـق بقَلْبك من مَـواقِيت الصَّـلَاة ، ومُغالاة الصَّدُقـات ، آثرُ عنـدَك من مُـوالاة الصَّـدَقات ، وصِحاف الألْوان ، أَشْهى إليك من صَحائِف الأَدْيان ، ودُعابة الأَقْران ، آنسُ لك من تِلاوة القُرْآن ! (١٠١)

تأمُـر بالعُرْف وتَنْتَهِك حِمـاه ، وتَحْمى عن النُّكْر ولا تَتحـاماه ! وتُزَحْـزِح عـن الظُّلْـم ثم تَغْشاه ، وتَخْشَى الناسَ واللهُ أَحَقُّ أنْ تَخْشَاه ! (١٠٢) ثم أَنْشد :

---

(٩٧) توبقـك : تهلكك - معشرك : عشيرتك وأقاربـك - أنتهجت : سلكـت - فللت شباة اعتـدائك : كسرت حدّة ظلمك - قدعت نفسك : كففتها ومنعتها عن القبيح .

(٩٨) مقيلك : مصيرك ، وأصله النوم بالقائلة ، وهى الظهيرة - فما قيلك: فما قولك .

(٩٩) تقاعست : تأخرت - حصحص : ظهر - تواسى : تحسن إلى غيرك - آسيت : أحسنت .

(١٠٠) توعيه : تجعله فى وعـائك - ذكر : علم من الدين - تعيه : تحفظه ، والمعنى :تقـدم الدنيا على الآخرة - توليه : تعطيه - رغب عن الشىء إذا لم يرده - هاد تستهديه : تسترشده - زاد تستهديه : تطلب أن يهدى إليك .

(١٠١) يواقيـت الصلات : نفـائس العطايـا - الصَّدُقـات : جمع صـدقة ، وهـى ما يعطى للنسـاء مـن المهر - صحاف : جمع صحفة ، وهى إنـاء منبسط واسـع - صحائف : جمع صحيفة من الكتب - دعـابة : مزاح - الأقران : جمع قِرن ، وهو المماثل .

(١٠٢) العرف : المعـروف - تنتهك : تستأصـل وتبالغ فـى تناوله بما لا يجوز - حمـاه : المكان الذى منـع منه تعظيماً له - تحمى : تمنع - تزحزح : تبعد - تغشاه : تأتيه .

تبًّا لطالبِ دُنْيا ! ثَنى إليها انصبابه
ما يَسْتفيقُ غرامًا بها ، وفَرْطَ صَبَابه
ولو دَرَى لكَفاهُ مِمَّا يَرومُ ، صُبَابه (١٠٣)

ثم إنّه لَبَّد عَجاجَته ، وغَيَّض مُجاجته ، واعْتَضَد شَكْوَته ، وتأبَّط هِراوته ، فلمّا رَنَت الجماعةُ إلى تَحَفُّزه ، ورأتْ تأهُّبه لمُزايلة مَرْكزه ، أَدْخَلَ كُلٌّ منهم يدَه في جَيْبه ، فأفْعَم له سَجْلًا من سَيْبه ، وقال : « اصرِفْ هذا في نَفَقَتك ، أو فَرِّقه على رُفْقَتك » (١٠٤)

فقبِله منهم مُغْضِيًا ، وانثنى عنهم مُثْنِيًا ، وجعل يُوَدِّع من يُشَيِّعه ، ليَخْفى عليه مَهْيَعه ، ويُسَرِّب من يَتْبَعه ، لكيْ يَجْهَلَ مَرْبَعَه . (١٠٥)

قال الحارث بن همام : فاتَّبَعْته مُواريًا عنه عِياني ، وقَفَوت أثَره مِن حيث لا يَراني ، حتّى انتهى إلى مَغارة ، فانسابَ فيها على غَرَارة ، فأمْهلتُه رَيْثما خلعَ نَعْلَيْه ، وغسل رِجلَيْه ، ثم هجمتُ عليه ، فوجدتُه مُثافِنًا لتلميذ ، على خُبْزٍ سَمِيذ ، وجَدْيٍ حَنِيذ ، (١٠٦) وقُبالَتَهما خابِيةُ نَبِيذ ، فقلت له : « يا هذا أيكون ذاكَ خَبرَك ، وهذا مَخْبَرك ؟ » فزفر زَفْرة القَيْظ ، وكاد يَتَمَيَّزُ من الغَيْظ ، ولم يزلْ يُحَمْلِق إليَّ ، حتى خِفتُ أنْ يَسْطُوَ عَلَيَّ ، فلمّا أنْ خَبَتْ نارُه ، وتَوارى أُوارُه (١٠٧) ، أنْشد :

لبِستُ الخَميصةَ أبْغي الخَبيصَهْ وأنْشَبْت شِصّي في كُلِّ شِيصَه (١٠٨)
وصَيَّرْتُ وَعْظي أُحْبولةً أُريغُ القَنِيصَ بها والقَنِيصَه (١٠٩)

---

(١٠٣) ثنى : عطف وصرف - انصبابه : ميله - استفاق من غشيته أي رجع إلى عقله - صبابة : رقة الشوق - الصبابة : البقية اليسيرة من الشرب في الإناء والحوض .

(١٠٤) لبّد عجاجته : سكن غبرته ، والمراد : قطع كلامه - غيّض مجاجته : ابتلع ريقه - اعتضد الشيء : جعله في عضده - الشكوة : قربة صغيرة - أفعم : ملأ - السجل : الدلو إذا كان فيها ماء - سيبه : عطاؤه .

(١٠٥) مغضيا : ضامًا جفنيه حياء - المهيع : الطريق الواضح الواسع - يسرب : يفرق - مربعه : منزله .

(١٠٦) عياني : شخصي - انساب : جرى - الغرارة : الغفلة - مثافنًا : مجالسًا - سميذ : حوارى ، وهو الأبيض الخالص - الجدي الحنيذ : المشوىّ على حجارة محماة .

(١٠٧) القيظ : شدّة الحرّ - يتميز : يتقطع ويتمزق - يحملق : يحدّ نظره من شدة الغيظ - خبت ناره : خمدت - توارى أواره أي اختفى احتداده .

(١٠٨) الخميصة : هي كساء له علمان أسودان - أبغي الخبيصة : أي أطلب الحلوى - أنشب : أوقع - الشص : حديدة معوجّة دقيقة تسمى بالصنار - الشيص : أخبث السمك .

(١٠٩) الأحبولة : شبكة الصيد - أراغ الشيء : طلبه على وجه المكر - القنيص : هو الصيد الذكر .

وألجأنى الدهرُ حتّى وَلَجْتُ   بلُطفِ احتيالى على اللَّيْثِ عِيصَه
على أنّنى لم أهَبْ صَرْفَه   ولا ابْتَضَّتْ لى منه فَرِيصه(١١٠)
ولا شَرَعَت بى على مَوْرِد   يُدَنِّس عِرْضى نَفْسٌ حَرِيصه
ولو أنْصَفَ الدهرُ فى حُكْمِه   لما مَلّكَ الحُكْمَ أهْلَ النَّقِيصه

ثم قال لى : « ادنُ فكُل ، وإنْ شِئتَ فقُمْ وقُل » .

فالتفتُّ إلى تلميذه وقلت : « عَزَمْتُ عليك بمن تَسْتَدفع به الأذى ، لتُخْبِرَنّى مَن ذا » .

فقال : هذا أبو زيد السَّروجيّ سِراجُ الغُرباء ، وتاجُ الأُدباء .

فانصرفتُ من حيث أَتَيت ، وقَضَيْت العَجَب ممّا رَأَيْت .

* * *

المقامة الحُلْوانيّة :

حكى الحارثُ بن همام ، قال : كَلِفتُ مُذْ مِيطَتْ عَنّى التمَّائم ، ونِيطت بى العمائم ، بأنْ أَغْشى مَعَانَ الأدَبِ ، وأُنْضى إليه رِكابَ الطَّلَب ، لأعْلَقَ منه بما يكون لى زِينةً بين الأنام ، ومُزْنَةً عند الأُوام ، وكنتُ لفَرْط اللَّهَج باقتباسه ، والطَّمَع فى تَقَمُّص لِباسه ، أُباحث كُلَّ مَن جَلَّ وقَلَّ ، وأَستَسْقى الوَبْل والطَّلّ ، وأتعلَّل بعَسَى ولَعَلّ .(١١١)

فلمّا حَلَلْتُ حُلْوان ، وقد بَلَوْت الإخْوان ، وسَبَرْت الأَوْزان ، وخَبَرْت ما شَان وزَان ، أَلْفَيْت بها أبا زَيْد السَّرُوجى يَتَقَلَّب فى قوالب الانْتساب ، ويَخْبِط فى أَسَاليب الاكتساب ،

---

(١١٠) عيصة : بيته ومأواه - صرفه : حوادثه - الفريصة : لحمة تكون تحت الكتف من شأنها أنها ترعد عند الفزع .

(١١١) ميطت : أزيلت ورفعت - التمائم : جمع تميمة ، وهى العوذة تعلق على الصبى - معان الأدب : موضعه - أنضاه إذا جهده فى السير فصار نضوًا أى نحيفًا - الركاب : الإبل - المزنة : السحابة البيضاء - الأوام : شدّة الحرّ والعطش - لفرط اللهج : لغاية الولوع - الطمع فى تقمّص لباسه : أطمع أن أتلبس بالأدب - الوبل : المطر الشديد - الطلّ : المطر الخفيف .

فيدَّعى تارةً أنّه من آلِ ساسان، ويَعْتزى مَرَّةً إلى أقْيال غَسّان ، ويَبْرُز طوْرًا فى شِعار الشُّعراء ، ويَلْبَس حِينًا كِبَـر الكُبراء (١١٢) ، بيْد أنّه مَـعَ تَلَوُّن حالِه ، وتبيُّـن مُحَاله يَتَحَلَّى بـرُواءٍ ورِوَاية ، ومُدَارَاةٍ ودِرَايـة ، وبَلاغة رائِعــة ، وبَدِيهة مُطـاوِعــة ، وآدابٍ بـارِعة ، وقَدَمٍ لأعْـلام العُلوم فارِعة (١١٣) ، فكان لمحاسِـن آلاتِه ، يُلْبَس على عِـلّاته ، ولِسَعَةِ رِوايته ، يُصْبـى إلى رُؤيته ، ولخِلَابة عارِضَته ، يُرْغب عن مُعارضته ، ولعُـذُوبة إيراده ، يُسْعَف بمُرَاده ، فتَعَلَّقْت بأهْدابه ، لخصائصِ آدابِه ، ونافَسْت فى مُصافاته ، لنفائِس صِفاته . (١١٤)

فكنـتُ بـه أجْلُـو هُمُــومـى وأجْتلـى ... زَمـانـى طَلْـق الـوَجْـه مُلْتَمِع الضِّيـا

أرى قُــرْبــه قُــرْبــى ومَغْنــاه غُنْيَــةً ... ورُؤْيتـه رِيًّـا ومَحْيَـاه لـى حَيَـا (١١٥)

ولبثنا على ذَلك بُرْهَة ، يُنْشـىء لى كُلَّ يوم نُزْهة (١١٦) ، ويَدْرَأ عن قَلْبـى شُبْهة ، إلى أنْ جَدَحَتْ لـه يَدُ الإمْلاق ، كأسَ الفِراق ، وأغْـراه عَدَمُ العُراق ، بتَطْليق العِـراق ، ولَفَظَتْه مَعاوِزُ الإرْفَاق ، إلى مَفَـاوِز الآفاقِ ، ونَظَمَه فى سلْك الـرِّفاق ، خُفُوقُ رايةِ الإخْفاق ، فشَحَـذ للرِّحْلَة غِرار عَزْمته ، وظَعَنَ يَقْتاد القَلْبَ بأزِمَّته (١١٧)

فمـا راقَنــى مــن لاقَنــى بَعْــد بُعْـده ... ولا شـاقَنـى مَـنْ سـاقَنـى لـوِصـالـه

ولا لاحَ لـــى مـــذ نَـــدَّ نِـــدٌّ لفَضْلـــه ... ولا ذو خِـلالٍ حـازَ مثـلَ خِـلالـه (١١٨)

---

(١١٢) حلوان : بلدة بين بغداد وهمـذان - بلوت الإخوان : جربتهم - خبرت ما شان وزان : جـربت ما قبح وما حلى - يخبط : يسير على غير هدى - آل ساسان : هم الأكـاسرة ، وساسان أبوهم - يعتزى : ينتسب - أقيال غسان : ملوك الشام .

(١١٣) تبيّن محـاله : ظهور مكره وكـذبه - الرواء : حسـن المنظر والهيئة - روايـة : حكاية عن الغيـر - مداراة : مدافعة وحسن سياسة فى صحبته - دراية : علم - أعلام : جبال ، واحدها : علم - فارعة : صاعدة .

(١١٤) يلبس : يصـاحب ويخـالط - يصبي : يشتـاق - الخلابة : الخـديعة - عارضتـه : ما يعرض من قـوله - إيراده : ما يورده من الكلام - بأهدابه : بأطراف ثيابه - مصافاته : إخلاص ودّه فى مصاحبتى له .

(١١٥) الضيا : الضـوء والنور - قربـى : من قرب النسب - مغنـاه : منزله - الغنيـة : الاكتفاء بالشـىء - محياه : حياته - الحيا : المطر .

(١١٦) كناية عما يستفيده من علمه .

(١١٧) جدحت: خلطـت ومزجت - أغراه: أولعـه - العراق : جمع عرق ، وهـو العظم الذى يؤخـذ عنه اللحم - العراق : شـاطىء البحر ، وبه سمـى العراق عراقا - أعوزه الدهر : إذا أفقره - الإرفـاق : النفع والإعانة - الغـرار : حدّ السيف - يقتاد القلب أى قلب الحارث بن همّام .

(١١٨) راقنى : أعجبنـى - لاقنى : علق بـى ولزمنى - سـاقنـى : حثّنى - ندَّ : نفـر - الخلال : جمع خلّـة ، وهى المودّة .

واستسرَّ عنى حينًا ، لا أعرف له عَرِينًا ، ولا أجِد عنه مُبِينًا ، فلمّا أُبْتُ من غُرْبتى ، إلى مَنْبِت شُعْبَتى ، حَضَرْت دارَ كُتُبها (١١٩) التى هى مُنْتَدَى المتأدِّبين ، ومُلْتَقَى القاطِنين منهم والمتَغَرِّبين .

فدخلَ ذو لحْيةٍ كَثَّة ، وهَيْئة رَثّة ، فسلَّم على الجُلّاس ، وجلس فى أُخْرَيات النّاس ، ثمّ أخذ يُبْدى ما فى وِطَابه ، ويُعْجِب الحاضرين بفَصْل خِطابه (١٢٠) ، فقال لمن يَليه : « ما الكتابُ الذى تَنْظر فيه ؟ » .

فقال : دِيوان أبى عُبادة (١٢١) ، المشْهود له بالإجادة .

فقال : هل عَثَرْتَ له فيما لَمَحْته ، على بَديعٍ استَمْلَحْته ؟

قال : نَعَمْ ، قولُه :

كأنمّا تَبْسِم عن لُؤْلُؤ ... مُنَضَّدٍ أو بَرَدٍ أو أقاحْ ! (١٢٢)

فإنّه أبْدَع فى التَّشبيه المُودَع فيه .

فقال له : يا لَلْعَجَب ، ولضَيْعَة الأدب ! لقد اسْتَسْمَنْتَ يا هذا ذا وَرَم ، ونَفَخْت فى غَيْر ضَرَم ! أينَ أنتَ من البيْت النَّدْر ، الجامعِ مُشَبَّهات الثَّغْر ؟ (١٢٣) وأنْشد :

نَفْسى الفِداء لثَغْرٍ راقَ مَبْسِمه ... وزانَه شَنَبٌ ناهِيك من شَنَب

يَفْتَرُّ عن لُؤْلُؤٍ رَطْبٍ وعن بَرَدٍ ... وعن أقاحٍ وعن طَلْعٍ وعن حَبَبَ (١٢٤)

---

(١١٩) الضمير فى « كتبها » لمنبت الشعبة ، لأنه فى معنى البلدة .
(١٢٠) لحية كثّة : كثيرة الشعر - الوطاب : سقاء اللبن - بفصل خطابه : بإظهر فصاحته .
(١٢١) أبو عبادة : هو الوليد بن عبيد البحترى .
(١٢٢) منضّد : منظوم بعضه على بعض - أقاح : جمع أقحوان ، يشبه به الثغر .
(١٢٣) أبدع : جاء بالبديع - استسمنت ذا ورم أى رأيت صاحب الورم سمينا - نفخت فى غير ضرم : مثل يضرب لمن يضع الشىء فى غير موضعه - الندر : النادر الغريب .
(١٢٤) الشنب : هو رقة الأسنان أو برد ريقها - قوله : « ناهيك ... » أى حسبك - الطلع : طلع النخل ، وهو أبيض - الحبب : ما يظهر كالحبّ فوق الكأس عند امتلائها .

فاستجاده من حَضَر واسْتَحْلاه ، واسْتَعاده واسْتَمْلاه ، وسُئِل : لمنْ هذا البيْت ؟ هل حَيٌّ قائلُه أو مَيْت ؟

فقال : أَيْمُ اللهِ لَلْحَقُّ أَحَقُّ أنْ يُتَّبَع ، ولَلصِّدْقُ حَقِيقٌ بأنْ يُسْتَمع ! إنّه يا قَوْم ، لَنَجِيُّكم مُذ اليوم .

قال : فكأنّ الجماعة ارتابتْ بعَزْوَتِه ، وأبَتْ تَصْديق دَعْوته ، فتوجَّس ما هَجَس في أفْكارهم ، وفَطِن لِما بَطَنَ من استِنْكارهم ، وحاذَرَ أنْ يَفْرُط إليه ذَمّ (١٢٥) ، أو يَلْحَقه وَصْم ، فَقَرأ : « إنّ بعضَ الظنِّ إثم » (١٢٦) ، ثم قال : « يا رُواةَ القَرِيض ، وأُسَاةَ القَوْل المَرِيض ، إنّ خُلاصة الجوْهر تَظْهرَ بالسَّبْك ، ويَدَ الحقّ تَصْدَع رِداء الشَّك (١٢٧) ، وقد قيل فيما غَبَر من الزمان : « عِنْد الامتحانِ يُكْرَم المرءُ أو يُهان » ، وها أنا قد عَرضْتُ خَبِيئتي للاختِبار ، وعَرضْتُ حَقِيبتي على الاعتبار .

فابتدَرَ أحدُ مَن حَضَر ، وقال : « أعرفُ بيتًا لم يُنْسَجْ على مِنْواله ، ولا سَمَحَت قَريحةٌ بمِثاله ، فإنْ آثرْتَ اختلابَ القلوبِ (١٢٨) ، فَانْظِمْ على هذا الأُسلوب » ، وأنشد :

فأمْطَرَتْ لُؤْلُؤًا من نَرْجِسٍ وسَقَتْ ... وَرْدًا وعَضَّتْ عَلَى العُنَّاب بالبَرَدِ (١٢٩)

فلم يكنْ إلّا كلَمْح البَصر أو هو أقْرَب ، حتّى أنْشد فأغْرَب :

سألتُها حينَ زارتْ نَضْوَ بُرْقُعِها الـ ... ـقانى وإيداعَ سَمْعى أطْيَب الخَبَر

فزَحْزَحتْ شَفَقًا غَشَّى سَنا قَمَرٍ ... وساقَطَتْ لُؤْلؤا من خاتَم عَطِرِ (١٣٠)

---

(١٢٥) بعزوته : بنسبته البيت إليه – توجّس : علم بالدليل والتفرّس – هجس : خطر – يفرط يسبق .

(١٢٦) سورة الحجرات ١٢

(١٢٧) القريض : الشعر والمدح – أُساة : جمع آس ، وهو الطبيب – يصدع : يزيل ويكشف .

(١٢٨) اختلاب القلوب : إمالتها .

(١٢٩) شبه الدمع باللؤلؤ والعين بالنرجس والوجنات بالورد والأنامل المخضوبة بالعناب والثنايا بالبرد .

(١٣٠) أغرب : أتى بالغريب – نضو برقعها أى كشفه وإزالته ، وهو ما ترسله المرأة على وجهها – القانى : الشديد الحمرة – شفقًا أى برقعًا شبيها بالشفق ، وهو الحمرة بعد الغروب إلى أول وقت العشاء – السنا : النور ، وكنّى بالقمر عن وجهها ، وباللؤلؤ المتساقط عن كلامها ، وبالخاتم العطر عن فمها .

فحار الحاضرون لبَداهَته ، واعْتَرَفوا بنَزاهَته ، فلمّا آنسَ استِئْناسَهم بكلامِه ، وانْصِبابهم إلى شِعْبِ إكرامه (١٣١) ، أطْرَق كطَرْفة العَيْن ، ثمّ قال : « ودُونكم بيْتَيْن آخريْن » ، وأنشد :

وأقْبَلَتْ يومَ جَدَّ البَيْنُ في حُلَلٍ ... سُودٍ تَعَضُّ بنانَ النادم الحَصِرِ

فلاحَ ليلٌ على صُبْحٍ أقَلَّهما ... غُصْنٌ وضَرَّسَتِ البِلَّوْرَ بالدُّرَرِ (١٣٢)

فحينئذٍ استَسْنَى القومُ قِيمته، واسْتَغْزَروا دِيمته، وأجْمَلوا عِشْرته، وجَمَّلوا قِشْرته. (١٣٣)

قال المُخبِر بهذه الحِكاية : فلمّا رأيت تَلَهُّب جَذْوَته ، وتألّق جَلْوته ، أمْعَنْت النَّظَر في تَوَسُّمه ، وسَرَّحْت الطرْف في مَيْسِمه ، فإذا هو شيخُنا السُّروجيّ ، وقد أقْمَر لَيْلُه الدَّجُوجيّ ، فهَنَّأْت نَفْسي بمَوْرده ، وابتدرْت استلامَ يَدِه ، وقلتُ له : ما الذي أحالَ صِفَتك ، حتىّ جَهِلْت معرفتك ؟ (١٣٤) وأيّ شيء شيّب لحيتك ، حتى أنكرت حليتك ؟

فأنشأ يقول :

وَقْعُ الشوائبِ شَيَّبْ ... والدهرُ بالناسِ قُلَّبْ

إنْ دانَ يومًا لشَخْصٍ ... ففي غَدٍ يَتَغَلَّبْ

فلا تَثِقْ بوَمِيضٍ ... مِنْ بَرْقه فهْوَ خُلَّبْ

واصْبِرْ إذا هو أضْرَى ... بك الخُطوبَ وألَّبْ

فما على التِّبْرِ عارٌ ... في النارِ حِينَ يُقَلَّبْ ! (١٣٥)

ثم نهض مفارقًا مَوْضعه ، ومُسْتَصْحبًا القُلُوبَ معه .

---

(١٣١) بنزاهته : ببراءته من الريبة - آنس : علم - انصبابهم : ميلهم وإسراعهم .

(١٣٢) البين : الفراق - الحصر : الذى لا يمكنه التكلّم من البكاء والغيظ - أراد بالليل الشعر ، وبالصبح الوجه - أقلّهما : رفعهما وحملهما - وأراد بالغصن القدّ ، وبالبلور البنان أو ظهر الكفّ ، وبالدرر الثنايا .

(١٣٣) استسنى : من السناء وهو العلو والرفعة - استغزروا ديمته بمعنى استكثروا فضله - جملوا قشرته بمعنى زيّنوا لباسه .

(١٣٤) الجذوة : جمرة نار غير ملتهبة - التألق : الإضاءة واللمعان - الجلوة : اسم من جلوت العروس إذا زيّنتها ، يريد لمعان وجه - الميسم : أثر الحسن من الوسامة - ليله الدجوجي يريد به الشيب - ابتدرت استلام يده : أسرعت إلى مصافحته - أحال صفتك : غيّرها من الشباب إلى الشيب .

(١٣٥) الشوائب : الأهوال والحوادث - قلّب : كثير التقلب - دان : خضع - وميض البرق : لمعانه - البرق الخلب : الذى لا غيث فيه - أضرى : أغرى - ألّب : جمع الجموع - التبر : الذهب قبل تصفيته .

الميـــدانـي

(ت ٥١٨ هـــ / ١١٢٤ م)

هو الأديب البحـاثة واللغويّ المتقن أبو الفضل أحمـد بن محمد بن أحمد بـن إبراهيم الميداني النيسابوري ، ولد ونشأ وتوفي في نيسابور حاضرة خراسان ، ونسـب إلى موضع كان يسكنه ، هو « ميدان زياد بن عبد الرحمن » .

عكف على صنوف العلـم وأخبار العرب ولغتهم ، فأتقن أسبابهـا واستطاع أن يضع في اللغة « السامي في الأسامي » و « نزهة الطرف في علم الصرف » ، وعني بآثار المفضّل الضبيّ فكتب « شـرح المفضّليات » ، وجمـع مختارات مـن نثر منصـور بن محمـد الهروي تحـت عنوان « منية الراضي في رسائل القـاضي » ، ولا تـزال المكتبة المخطـوطـة تحتفظ بـكتابـه « الهادي للشادي » .

وأبرز مـؤلفاتـه كتابه « مجمـع الأمثال » الذي يعـدّ أوسع مـا ألّف في بـابه وأوفـاه ، فقد استطاع الميدانـي - وهو المقيم في نيسـابور - أن يحفظ فيه معظـم ما عرف من الأمثـال في الجاهليـة والإســلام وعصر المولّـدين ، مع الاستقصاء والشـرح المستفيضة ، فحوى مـا لم يحوه كتـاب قبله ، وصار علـى مرّ العصور مـرجعاً لطلاب الأمثـال ، واهتم به بعـض العلماء فاختصروه ولخصوه .

وفي بيـان منزلتـه قال عنـه عارفـو فضله إنـه قرأ الأصـول وأحكمها وعُـرف في البلـدان بتصانيفه الحسان المشهورة ، فأحسن كل الإحسان فيما جمعه وصنّفه ، وزاد على من تقدمه بالترتيب والتحقيق واستدراك على بعض من زلّ قبله من المصنّفين ، وأصلح مواضع الغلط وقالوا أيضـا إنه لو كان للـذكاء والشهامة والفضل صـورة لكان الميداني تلـك الصورة ، يدلّ على ذلك كلامه وعلمه .

* * *

مقدمة « مجمع الأمثال »

إن أحسنَ ما يُوَشَّح به صَدْرُ الكلام ، وأجملَ ما يُفَصَّل به عِقْدَ النِّظام ، حَمْدُ الله ذى الجلال والإكرام ، والإفضال والإنعام ، ثم الصلاة على خير الأنام ، المبتَعَثِ من عُنْصُر الكِرام ، وعلى آلِه أعلامِ الإسلام ، وأصحابِه مصابيح الظلام .

فالحمدُ لله الذى بدأ خَلْقَ الإنسانِ من طِين ، وجَعَله ذاغَوْرٍ بعيد وشَأْوٍ بَطِين ، يستنبطُ الكامِنَ من بديع صَنْعته بذكاء فِطْنَته ، ويَسْتخرج الغامضَ من جليل فِطْرته بدقيق فِكْرته ، غائصًا فى بحر تصرُّفه على دُرَرِ معانٍ،أحْسَنَ من أيّام مُحْسن مَعَان [1] ، وأبْهَج من نَيْل أمان، فى ظلِّ صَحّةٍ وأمان ، مودِعًا إيّاها أصْدافَ ألفاظ ، أخْلَبَ للقلوب من غمزات ألحاظ ، وأسْحَرَ للعُقول من فَتَرات أجفانٍ نواعِسَ أيْقاظ ، ناظما من محاسنها عُقُود أمثال ، يحكم أنها عَديمةُ أشْباهٍ وأمثال ، تتحلّى بفرائدها صدورُ المحافل والمحاضر ، وتتسلّى بشواردها قلوبُ البادى والحاضر ، وتُقَيِّدُ أوَابدُها [2] فى بطون الدفاتر والصحائف ، وتصير نواهضُها فى رءوس الشواهق وظهور التنائف ، فهى تواكب الرياحَ النُّكْبَ فى مَدارج مَهابِّها ، وتُزَاحم الأراقمَ الرُّقْشَ فى مضايق مَدابِّها ، وتُخْرِج الخطيبَ المِصْقَع والشاعر المُفْلق إلى إدماجها وإدراجها [3] ، فى أثناء مُتصرَّفاتها وأدراجها ، لاشتمالاها على أساليب الحسن والجمال ، واستيلائها فى الجَوْدة على أمَد الكمال ، وكفاها جلالةَ قدرٍ ، وفَخَامةَ فخر ، أنّ كتاب الله عزّ وجلّ – وهو أشرفُ الكتب التى أُنزلت على العَجم والعرب – لم يَعْرَ من وشاحها المفصل ترائبُ طِواله ومُفَصَّله [4] ، ولا من تاجها المُرَصَّع مفارقُ مُجْمِله ومُفَصَّله ، وأن كلام نبيّه ﷺ وهو أفصحُ العرب لسانًا ، وأكملُهم بيانًا ، وأرجحهم فى إيضاح القول ميزاناً – لم يَخْلُ فى

---

(١) معان « الأولى » جمع معنى وهو ما يدلّ عليه اللفظ ، والثانية اسم مدينة فى طرف بادية الشام تلقاء الحجاز.

(٢) أوابد الكلام : غرائبه وعجائبه .

(٣) النواهض : جمع الناهض ، وهو فرخ الطائر الذى قدر على الطيران – الشواهق الجبال المرتفعة – التنائف : الفلوات التى لاماء فيها ولا أنيس – الرياح النكب أى الشديدة – الأراقم : جمع الأرقم وهو ذكر الحيات وأخبثها – الرقش : الحيات فيها نقط سوداء وبيضاء – المصقع : البليغ يتفنّن فى مذاهب القول – المفلق : الذى يأتى فى شعره بما يعجب .

(٤) الوشاح : نسيج عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها – الترائب : موضع القلادة من الصدر أو عظام الصبر.

إيراده وإصداره، وتبشيره وإنذاره، من مَثَلٍ يَحُوزُ قَصَبَ السبْق فى حَلْبة الإيجاز، ويستولى على أَمَد الحسن فى صنعه الإعجاز.

أما الكتابُ فقد وُجد فيه هذا النهج لَحْبًا(٥) مَسْلوكًا حيث قال عزّ من قائل: « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكا »(٦)، وقال: « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً »، يعنى كلمة التوحيد، كشجرةٍ طَيِّبة » يعنى النَّخلة، « أصلُها ثابتٌ وفرعُها فى السَّماء »، شَبَّه ثباتَ الإيمانِ فى قلب المؤمن بثباتِها، وشَبَّه صُعُودَ عملِه إلى السماء بارتفاع فُروعها فى الهواء، ثم قال تعالى: « تُؤْتى أُكُلَها كُلَّ حِين »(٧)، فشبَّه ما يكتسبه المؤمنُ من بركة الإيمان وثوابه فى كل زمان، بما ينال من ثمرتها كلّ حين وأوان، وأمثالُ هذه الأمثال فى التنزيل كثير، وهذا الذى ذكرتُ عن طويلِها قصير.

وأما الكلام النبوىّ من هذا الفن، فقد صَنّف العسكرىُّ فيه كتاباً براسه، ولم يَألُ جَهْدًا فى تمهيدِ قَواعده وأساسه، وأنا أقتصر ههنا على حديث صحيح وَقَع لنا عاليًا، وهو ما أخبرنا الشيخ أبو منصور بن أبى بكر الجَوْزى، أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم، أنبأنا أبو طاهر محمد بن الحسن، أنبأنا أبو البخترى، أنبأنا أبو أسامة، أنبأنا يزيد بن أبى بُرْدَة عن أبى موسى الأشْعَرِىّ رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « إنمَا مَثَلُ الجليسِ الصالِح وجليسِ السوءِ كحاملِ المسكِ ونافخِ الكِيرِ، فحاملُ المسكِ إمَّا أن يَحْذِيَك وإما أن تبتاعَ منه(٨) وإما أن تَجِدَ منه ريحًا طيبا، ونافخُ الكير إمّا أنْ يحرقَ ثيابَك، وإمّا أن تجدَ منه ريحًا خبيثة » رواه البخارى عن أبى كريب عن أبى أسامة، فكأنّ شيخ شيخى سمعه من البخارى.

وبعد، فإن من المعلوم أن الأدب سُلَّمٌ إلى معرفة العلوم، به يُتَوَصَّل إلى الوقوف عليها، ومنه يُتَوَقَّع الوصولُ إليها، غير أنّ له مَسَالكَ وَمَدارج، ولتحصيله مَراقىَ ومَعارج، مَنْ

---

(٥) اللحب: الطريق الواضح.

(٦) سورة النحل ٧٥

(٧) سورة إبراهيم ٢٤ - ٢٥

(٨) الكير: جهاز يستعمله الحداد وغيره للنفخ فى النار وإذكائها - يحذيك: يعطيك - تبتاع: تشترى.

رَقِيَ فيها دَرَجًا بعد دَرَج ، ولم تهمّ شمسُ تَشْميره بَعَرج ، ظَفِرَتْ يَدَاه بمفاتح أغلاقه ، وملكتْ كفَّاه نفائسَ أَعْلَاقه (٩) ، ومن أَخطأ مِرْقاةً من مَراقيه، بقى فى كدِّ الكَدْح غير مُلاقيه ، وإنَّ أعْلَى تلك المراقى وأقصاها ، وأوْعَرَ هاتيك المسالك وأعصاها : هذه الأمثالُ التى هى لمُاظاتُ حَرَشَةِ الضِّباب ، ونُفَاثات حَلَبَة اللِّقاح وحَمَلة العِلاب (١٠) ، من كلّ مرتَضِع دَرَّ الفصاحة يافعًا ووليدًا ، مرتكضٍ فى حجر الذَّلَاقة (١١) تَوْأمًا ووحيدًا ، قد ورد مَناهلَ الفِطنة يَنْبُوعًا فينبوعًا ، ونزف مناقع الحكمة لَدُودًا ونَشُوعًا ، فنطق بما يُسِرُّ المعَبِّر عنها خَبْوًا فى ارتقاء والمشير إليها يمشى فى خَمَر ويَدبُّ فى ضَرَاء (١٢) ، ولهذا السبب خفيَ أثرُها ، وظهر أقلُّها ، وبطن أكثرها ، ومن حامَ حولَ حِماها ، ورام قَطْفَ جَناها ، علم أن دون الوصولِ إليها خَرْطَ القَتاد (١٣) ، وأنْ لا وقوفَ عليها إلا للكامل العَتاد ، كالسَّلَف الماضين الذين نَظَموا مِن شَمْلها ما تَشَتَّت ، وجَمَعوا من أمرها ما تَفَرَّق ، فلم يبقوا فى قوس الإحسان منزعًا ، ولا فى كنانة الإتقان والإيقان أَهْزَعًا (١٤) .

والناس اليوم كالمُجمِعين على تقاصر رغباتهم ، وتقاعد هِمَّاتهم ، عما جاوز حدَّ الإيجاز ، وإن حرك فى تلفيقه سلسلة الإعجاز ، إلّا ما نشاهده من رغبة مَنْ عَمَرَ معالم العلم وأحياها ، وأوضح مناهج الفضل وأبداها ، وهمَّةِ مَنْ تَجَمَّعَت فى فؤاده همَمٌ مِلْءُ فؤادِ الزمان إحداها ، وهو الشيخ العميد الأجل السيد العالم ضياء الدولة منتخب الملك شمس الحضرة صفيّ الملوك أبو على محمد بن أرسلان – أدم الله عُلُوَّه ، وكبت حاسده وَعدُوّه – فإنّه الذى جذب بِضَبْع الأدب من عاثوره (١٥) ، وغالى بقيمة منظومه ومنثوره ، وأقبل عليه ، وعلى من

(٩) الأغلاق : جمع الغَلَق ، وهو ما يُغلق به الباب ويفتح – الأعلاق : النفائس يتعلق بها القلب .

(١٠) اللماظات : البقايا القليلة – حرشة : جمع حارش وهو الصائد – النفاثات : ما ينفثه الإنسان من صدره أو فمه – اللقاح : النوق الحلوب الغزيرة اللبن – العلاب : جمع العلبة وهى قدح ضخم من خشب أو من جلود الإبل حلب فيه ويشرب بها ، وقد يكون له طوق من خشب .

(١١) الذلاقة : الفصاحة وذرابة اللسان .

(١٢) الخَمَر : ما يوارى من الشجر أو البناء أو الجبل ، والضراء : الشجر الملتف فى الوادى .

(١٣) القتاد : نبات صلب له شوك كالإبر ، والمثل « دونه خرط القتاد » يضرب للشىء لا ينال إلا بمشقة عظيمة .

(١٤) الكنانة : جعبة صغيرة من جلد – الأهزع : ما بقى فى الجعبة وحده من النبل والسهام .

(١٥) الضَّبْع : ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها ، وهما ضبعان – العاثور : الحفرة تحفر للأسد وغيره ليقع فيها .

يرفرف حواليه ، إقبالَ من ألقت خزائن الفضل إليه مقاليدها ، ووقفت مآثر المجد عليه أسانيدها ، فأبرز محاسن الآداب فى أضفى ملابسها ، وبَوّأها من الصدور أعلى منازلها ومجالسها ، بعد أن حَلّقت بها العنقاء فى بنات طَمَارِ ، وتضاءلتْ كتضاؤل الحسناء فى الأطْمار. (١٦)

فالحمد لله الذى جعل أيامه للحسن والإحسان صورة ، وعلى الفضل والإفضال مقصورة ، وجعلها موقوفة الساعات ، على صُفُوف الطاعات ، محفوفة الساحات ، بوفود السعادات ، موصوفة الحركات والسكنات، بوفور البركات والحسنات ، حتى أصبحت حَلْيا على لَبّة (١٧) الدولة الغرّاء ، وتاجاً فى قِمّة الحضرة الشَّمّاء ، وحصنا لملك الشرق حصينا ، وركنا يُـؤْوَى إليه ركينا، وأمست على معصمه ومعتصمه سورا وسوارا ، ولوَجْه دولته وحُسام سطوته غُرّة وغِرارًا (١٨) ، يُسْتَمْطر النُّجْح ببركات أيامه ، ويستودَعُ الملك حركات أقلامه .

فلله درّه من عالم زَرَّ بُرْداه(١٩) على عالم ، وأمين بانتظام الملك ضمين ، ومُطَاع عند ذى الأمر مَكِين ، يزين بحضوره ديوان عُمَّاله ، ولا يشين بمحظوره ديوان أعماله ، فعل من تَنَبَّه له الجَدّ ، فنظرت نفسه ما قدّمت لغد ، وتمكّنَ منه الجِدّ ، فلا الدَّدُ منه ، ولا هو من دَد ، وعليه عِينة (٢٠)من سيد جُمِع له إلى القُدْرة العصمة ، وإلى التواضع الرفعة والحِشْمة ، فرَفَلَ من السيادة فى أغلى أثوابها ، وأتى بيوتَ المجِد من أبوابها ، وباشَرَ أبكار المكارم فالتزمها واعْتَنَقَها ، وباكر أقداح المحامد فاصْطَبَحَها واغْتَبَقَها ، فأصبح لا يَطْرَب إلّا على معنى تكدُّ له الأفهام ، دون مؤثر تأتى له الإيهام ، ولا يَعْشَق إلّا بناتِ الخواطر والأفكار ، دون العَذَارى الخُرَّد الأبكار ، ولا يثافن إلا مَنْ أخلق جَدِيدَيْه (٢١) ، حتى ملأ من الفضل بردَيْه ،

---

(١٦) العنقاء : طائر متوهّم لا وجود له - بنات طمار : الدواهى والشدائد - الأطمار : الثياب الخلقة البالية .

(١٧) اللبّة : موضع القلادة من العنق .

(١٨) الغُرّة : بياض فى جبهة الفرس ، وغُرّة كلّ شىء : أوله وأكرمه - الغرار : حد السيف والرمح .

(١٩) زرّ البرد أى أدخل أزراره فى العرا ، والبرد كساء مخطط يلتحف به .

(٢٠) الدد : اللهو واللعب ، وفى الحديث : « ما أنا من دَدٍ ، ولا الدد منى » - العينة : خيار المال ، ويقال هذا ثوب عِينة إذا كان حسنا فى مرآة العين .

(٢١) الخُرَّد : جمع الخريدة وهى الفتاة العذراء أو الحيية الخفِرة - يثافن : يصاحب ويلازم - أخلق : أبلى ، والجديدان : الليل والنهار وذلك لأنهما لا يبليان .

وكَحِّلَ بإِثْمِدِ (٢٢) السهر جَفْنيه ، حتى أَقَرَّ بنيل القرب منه عينيه ، فتبوأ من حضرته المأنوسة جَنَّة حُفَّتْ بالمكارم لا المكاره ، وروضة خُصَّت بالمجد الزاهر لا بالأزاهر ، تنثال عليها أفراد الدهر من كلّ أوْب ، وتنصبُّ عليها آحاد العصر من كلّ صَوْب (٢٣) ، لا سَلَب الله أهل الأدب ظلّه ، ولا بلغ هَدْىُ عمرِه مَحِلّه ، ما طَلَعَ نَجْم ، ونَجَمَ طَلْع ، بمنّه وكرمه .

هذا ، ولما تَقَدَّر ارتحالى عن سُدَّته (٢٤) - عمّرها الله بطول مُدّته - أشار بجَمْع كتابٍ فى الأمثال ، مُبَرِّز على ما لَهُ من الأمثال ، مشتمل على غَثّها وسَمِينها ، ومُحتوٍ على جاهليّها وإسلاميّها ، فعُدْت إلى وطنى رَكْضَ المتزع شمرة الغالى ، مشمّرًا عن ساق جِدّى فى امتثال أمره العالى ، فطالعت من كتب الأئمة الأعلام ، ما امتدَّ فى تقصِّيه نَفَسُ الأيّام ، مثل كتاب أبى عُبَيْدة وأبى عُبَيْد ، والأَصْمَعى وأبى زَيْد ، وأبى عَمْرو وأبى فَيْد ، ونظرتُ فيما جمعه المفَضَّل بن محمد والمفضَّل بن سَلَمَة ، حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتابا ، ونَخَلْت ما فيها فَصْلًا فصلًا وبابًا بابًا ، مفتشًا عن ضَوَالّها زوايا البقاع ، مُشَذِّبًا عنها أُبَنَها بصَارِمى (٢٥) القَطَّاع ، علمًا منى أنى أَمُتُّ به الدينارَ فى كفّ ناقد ، وأجلو منه البدر لطرفٍ غير راقد ، يزيده بالنظر فيه رونقًا . وبهاء ، ويكسبه بالإقبال عليه سَنًا وسناء ، ونقلتُ ما فى كتاب حمزة بن الحسنِ إلى هذا الكتاب ، إلّا ما ذكره من خَرَزَات الرُّقَى (٢٦) وخُرَافات الأعراب ، والأمثال المزدوجة لاندماجها فى تضاعيف الأبواب ، وجعلتُ الكتابَ على نظام حروف المعجم فى أوائلها ، ليسهل طريق الطلب على مُتَناوِلها ، وذكرتُ فى كلّ مَثَلٍ من اللغة والإعراب ما يفتح الغَلَق ، ومن القَصَص والأسباب ما يُوَضِّح الغرض ويُسيغ الشَّرَق (٢٧) ، مما جمعه عُبَيْد بن شَرِيَّة ، وعطاء بن مصعب ، والشَّرْقىّ بن القُطَامىّ ، وغيرهم ، فإذا قلت « المفضَّل » مطلقا فهو ابنُ سلمة ، وإذا ذكرتُ الآخَرَ ذكرتُ اسمَ أبيه ، وأفتتح كلّ باب بما فى كتاب أبى عُبَيْد أو غيره ، ثم أعقبه بما على « أَفْعَل » من ذلك الباب ، ثم أمثال المولَّدِين (٢٨) ، حتى آتى

---

(٢٢) الإثمد : الكُحْل .
(٢٣) الأَوْب والصوب : كلاهما بمعنى الجهة والناحية .
(٢٤) سدّته بمعنى ساحته أو فنائه .
(٢٥) الأبن : جمع الأُبْنة وهى العيب فى الكلام أو العقدة - الصارم : السيف القاطع .
(٢٦) الرُّقى : جمع رُقْية وهى العوذة التى يُرقى بها المريض ونحوه .
(٢٧) الشَّرَق : الغصة ، يقال : شرق بالماء وبريقه .
(٢٨) المولّدون : المحدثون ، سمّوا بذلك لحدوثهم .

على الأبواب الثمانية والعشرين على هذا النَّسَق ، ولا أعدُّ حرفى التعريف ولا ألفَ الوصل والقطعِ والأمر والاستفهام ، ولا ألفَ المخبِرِ عن نفسه ، ولا ما ليس من أصْلِ الكلمة حاجزًا إلّا أن يكون قبل هذه الحروف ما يُلازِم المثل ، نحو قولهم « كالمستغيث من الرمضاء بالنار » ، أو بعدها نحو « المستشار مؤتمن » ، و « المحسن مُعان » ، فإنّى أورِدُ الأوّل فى الكاف ، والثانى والثالث فى الميم ، وأثبت الباقى على ما ورد ، نحو « تَحْسَبُها حَمْقاء » ، و « بيدين ما أوردها زائدة » يكتبان فى بابى التاء والباء ، وجعلتُ الباب التاسع والعشرين فى أسماء أيام العرب دون الوقائع ، فإن فيها كتبًا جَمَّةَ البدائع ، وإنما عُنِيتُ بأسمائها لكثرة ما يقع فيها من التصحيف[29] ، وجعلت الباب الثلاثين فى نُبَذٍ من كلام النبىّ ﷺ وكلام خُلَفائه الراشدين رضى الله عنهم أجمعين ، مما ينخرط فى سِلْكِ المواعظ والحكم والآداب .

وسمّيت الكتاب « مجمع الأمثال » لاحتوائه على عظيم ما وَرَدَ منها ، وهو ستّةَ آلاف ونيّف ، والله أعلم بما بقى منها ، فإن أنفاس الناس لا يأتى عليها الحَصْر ، ولا تَنْفَدُ حتى يَنْفَد العَصْر .

وأنا أعتذر إلى الناظر فى هذا الكتاب من خَلَل يَراه ، أو لفظ لا يرضاه ، فأنا كالمنكر لنفسه ، المغلوب على حِسّه وحَدْسه ، منذ حطَّ البياضُ بعارِضى رِحالَه ، وحالَ الزمانُ على سوادهما فأحالَه ، وأطار من وَكْرِ هامَتى خُدارِيَّه[30] ، وأنحى على عُود الشباب فمَصَّ رِيَّه ، وَمَلَكَتْ يدُ الضَّعْف زِمامَ قُواى ، وأسلمنى مَنْ كان يَحْطِب فى حبل هَوَاى ، وكأنّى أنا المعنىُّ بقول الشاعر :

وَهَتْ عَزَماتُك عندَ المشِيب ... وما كان من حَقِّها أن تَهِى

وأنكَرْتَ نَفْسَك لما كَبِرْتَ ... فَلا هِىَ أنْتَ ، ولا أنتَ هى

وإن ذُكِرَتْ شَهَواتُ النفس ... فما تشتهى غيرَ أن تشتهى

---

(٢٩) التصحيف : كتابة الكلمة أو قراءتها على غير صحتها لاشتباه فى الحروف .
(٣٠) الهامة : الرأس ، والشَّعْر الخُدَارىّ أى الأسود .

وأعيذه أن يَـردَ صَفوَمَنهَله التقاطـاً ، ويشرب عَذْبَ زُلاله نِقـاطا ، ثم يتحزّم لتَغْـوير[٣١] مَنَابِعِه بالتعيـر ، ويتشمّر لتكدير مَشارِعه بـالتغيير، بل المأمولُ أن يسـدّ خَلَلَـه ، ويُصْلح زَلَلَه ، فقلَّما يَخْلو إنسان من نِسْيان وقَلَّم من طغيان .

* * *

وهذا فصل يشتمل على معنى المثل وما قيل فيه :

قال المبـرِّد : المثَلُ مـأخوذ مـن المثال ، وهو قـولٌ سائرٌ يُشَبَّـه به حـالُ الثانـى بالأول ، والأصل فيه التَّشْبيه ، فقولُهم: « مَثَلَ بَيْنَ يَـدَيه» ، إذا انتصب ، معناه أَشْبَه الصورةَ المنتَصِبة ، و« فـلان أَمْثَلُ مـن فـلان » أى أَشْبَهُ بمـا لَـه مـن الفضل . والمِثَـال القِصَـاص لتشبيه حـالِ المقتَصِّ منه بحال الأول ، فحقيقة المَثَل ما جُعـل كالعلم للتشبيه بحال الأوّل ، كقول كعب بن زهير:

كـانـتْ مـواعيـدُ عُـرْقُـوبٍ لهـا مَثَـلًا ... ومـا مـواعيـدُهـا إِلَّاالأبـاطِيـلُ[٣٢]

فمواعيد عُرْقُوب عَلَم لكلِّ ما لا يصحُّ من المواعيد .

قال ابـن السِّكِّيت : المثل لَفْـظٌ يخالفُ لفَـظ المضروب له ، ويـوافق معناه معنـى ذلك اللفظ ، شَبَّهُوه بالمثال الذى يُعْمَل عليه غيره .

وقال غيرهما : سُمِّيت الحِكَمُ القائمُ صدقُها فى العقول أمثالا ، لانتصـاب صُوَرِها فى العقول ، مشتقَّةً من المثول الذى هو الانتصاب .

وقال إبـراهيم النَّظَّام : يجتمـع فى المثل أربعـة لاتجتمع فـى غيره من الكـلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحُسْن التشبيه ، وجَوْدة الكِناية ، فهو نهاية البلاغة .

---

(٣١) يتَحَزم : يشدّ وسطه بـالحزام ، والمراد يتشمرّ للأمر ويستعـد - تغوير المنابع أى الذهـاب بمائها فى الأرض والـغُؤول فيها .

(٣٢) يقال إن عُـرقوب اسم رجل مـن العمالقة ، كـان أكذب أهل زمـانه ، ضربت بـه العرب المثل فـى إخلاف الوعد.

وقال بن المقفع : إذا جعل الكلام مثلا كان أوضحَ للمنطق ، وآنَقَ للسمع ، وأوسَعَ لشعوب الحديث .

قلت : أربعة أحرف سمع فيها فَعَلٌ وفِعْلٌ ، وهى مَثَلٌ ومِثْلٌ ، وشَبَه وشِبْه ، وبَدَل وبِدْل ، ولَكَل ونِكْل ، فمَثَلُ الشىء ومِثْلهُ وشَبَهه وشِبْهه : ما يماثله ويشابهه قدرًا وصفةً ، وبَدَل الشىء وبِدْله : غيره ، ورجل نَكَل ونِكْل للذى ينكل به أعداؤه . وفَعيل لغةٌ فى ثلاثة من هذه الأربعة ، يقال: هذا مَثِله وشبيههِ وبَديله ، ولا يقال نكيله ، فالمثَلُ ما يُمَثَّل به الشىء : أى يُشَبَّه ، كالنَّكَل من يُنَكَّل به عدوّه ، غير أن المِثْل لا يوضع فى موضع هذا المَثَل ، وإن كان المَثَل يوضع موضعه ، كما تقدّم للفرق ، فصار المثل اسمًا مصرّحًا لهذا الذى يضرب ، ثم يردّ إلى أصله الذى كان له من الصفة ، فيقال : مَثَلُك وَمثَلُ فلان : أى صفتك وصفته ، ومنه قوله تعالى : « مَثَلُ الجنَّةِ التى وُعِدَ المتقون »(٣٣) أى صفتها ، ولشدّة امتزاج معنى الصفة به صَحَّ أن يُقال : جَعَلْتُ زيدًا مثلا والقوم أمثالا ، ومنه قوله تعالى : « ساء مثلا القوم »(٣٤) جعل القوم أنفسهم مثلا ، فى أحد القولين ، والله أعلم .

* * *

مختارات من الأمثال

إنّ مِنَ البيانِ لَسِحْرا :

قاله النبىّ ﷺ حين وَفَدَ عليه عَمْرو بن الأهتم ، والزِّبْرِقان بن بدر ، وقَيْسُ بن عاصم ، فسأل - عليه الصلاة والسلام - عمرو بن ا لأهتم عن الزبرقان ، فقال عمرو : « مطاع فى أذْنَيه شَدِيدُ العارِضَة ، مانعٌ لما وَرَاء ظهره » ، فقال الزبرقان : « يا رسول الله ، إنه لَيَعْلَم منى أكثَر من هذا ، ولكنه حَسَدنى » ، فقال عمرو: « أما والله إنه لزَمِرُ المُرُوءة ، ضَيِّق العَطَن (٣٥) ،

---

(٣٣) سورة الرعد ٣٥

(٣٤) سورة الأعراف ١٧٧

(٣٥) زمِر: قليل - العَطَن : مبرك الإبل ومربض الغنم عند الماء ، ويقال : هو ضيّق العطن أى ضيّق الصدر لا حيلة له عند الشدائد .

أَحْمَق الوالـد ، لَئيم الخـال ، والله يا رسـولَ الله ما كَذَبْتُ فـى الأولى، ولقـد صَدَقْتُ فى الأخرى ، ولكنّى رجـل رَضِيت، فقلت أحسنَ مـا علمت، وسَخِطْتُ فقلت أقبحَ ما وجدت ، فقـال عليه الصـلاة والسلام : « إنَّ مِـن البيانِ لَسِحْرا » يعنـى أن بعض البيـان يعمل عمـل السـحـر.

ومعنى السحر : إظهار الباطل فى صورة الحقّ ، والبيانُ : اجتماع الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب مع اللَّسَن . وإنما شُبِّه بالسحر لحدَّة عمله فى سامعه وسرعة قبول القلب له .

يضرب فى استحسان المنطق و إيراد الحجَّة البالغة .

* * *

إنَّ المُنْبَتَّ لاَ أَرْضًا قَطَع ، ولَا ظَهْرًا أَبْقَى :

المنبتُّ : المنقطع عن أصحابه فى السفَر ، والظَّهْـر : الدابّة . قال عليه الصلاة والسلام - لرجُلٍ اجتَهَد فى العبادة حتى هَجَمَت عيناه - أى : غَـارَتا - فلما رآه ، قال له : « إنَّ هذا الدينَ مَتِينٌ ، فأَوْغِلْ فيه بِرِفْق ، إن المنْبَتَّ ... » أى الذى يَجِـدُّ فى سَيْره حتى يَنْبَتَّ أخيرًا ، سمّاه بما تَئُول إليه عاقبتُه ، كقوله تعالى : « إنك مَيِّتٌ وإنّهم ميّتون »(٣٦) .

يضرب لمن يُبَالغ فى طلب الشىء ، ويُفْرِط حتّى ربما يُفَوِّتُه على نفسه .

* * *

تَجْمَعِين خِلابةً وصُدُودا .

يُضرب لمن يجمع بين خَصْلَتَى شَرّ.

قالوا : هو من قـول جرير بن عطيّة ، وذلك أن الحجّاج بن يـوسف أراد قتله ، فمشت إليه مُضَرُ، فقالوا : أصلح الله الأميـر ! لسانُ مضر وشاعرُها ، هَبْه لنا ، فوهَبه لهـم ، وكانت هند بنت

---

(٣٦) سورة الزمر ٣٠

أسماء بن خارجة ممن طلب فيه ، فقالت للحجاج : ائْذَنْ لى فَأَسْمَعَ من قوله ، قال : نعم ، فأمر بمجلس له وجلس فيه هو وهند ،ثم بعث إلى جرير فدخل وهو لا يعلم بمكان الحجاج ، فقالت : يا ابن الخَطَفِيّ ، أنشدنى قَوْلَك فى التشبيب ، قال : والله ما شَبَّبْتُ بامرأة قط ، وما خلق الله شيئًا أَبْغَضَ إلىَّ من النساء ، ولكنى أقول فى المديح ما بلغكِ ، فإنْ شئتِ أسمعتُكِ ، قالت : يا عدوَّ نفسه ، فأين قولك :

يَجْرى السِّواكُ على أَغَرَّ كأنّه ... بَرَدٌ تَحَدَّرَ من مُتُون غَمام
طَرَقَتْك صائدةُ القلوب وليس ذا ... وَقْتَ الزيارةِ فارْجِعى بسلام
لو كُنْتِ صادِقَةَ الذى حَدَّثْتِنا ... لَوَصَلْتِ ذاك فكان غيرَ رِمام (٣٧)

قال جرير : لا والله ما قلت هذا ، ولكنى أقول :

لقد جَرَّدَ الحجاجُ بالحقِّ سيفَه ... ألا فاسْتَقيموا لا يَمِيلَنَّ مائِلُ
ولا يَسْتَوى داعى الضلالةِ والهُدَى ... ولا حُجَّةُ الخصمين حَقٌّ وباطل

فقالت هند : دعْ ذا عنك ، فأين قولُك :

خليلىَّ لا تَسْتَشْعِرا النومَ ، إنّنى ... أُعِيذُكما بالله أن تَجِدا وَجْدى
ظَمِئْتُ إلى بَرْد الشراب وغَرَّنى ... جَدَا مُزْنَةٍ يُرْجَى جَدَاها وما تُجْدِى (٣٨)

قال جرير : بل أنا الذى أقول :

ومَنْ يأمنُ الحجَّاجَ ، أما عِقابُه ... فمُرٌّ ، وأمَّا عَقْدُه فَوَثِيقُ
لَخِفْتُك حتّى أَنْزَلَتْنى مَخافَتى ... وقد كانَ مِنْ دُونى عَمَايةُ نِيقِ (٣٩)
يُسِرُّ لك البغضاءَ كُلُّ مُنافِقٍ ... كما كُلُّ ذِى دِينٍ عليك شَفِيقُ

---

(٣٧) الأغر : الأبيض من كل شىء - البَرَد : الماء الجامد ينزل من السحاب قطعًا صغارًا - الرِّمام : الحبال البالية .
(٣٨) الوجد : الحب أو الحزن - الجدا : المطر العامّ أو العطاء - تُجدى : تنفع .
(٣٩) النِّيق : أرفع موضع فى الجبل أو الطويل من الجبال .

قالت : دعْ ذا عنك ، ولكن هات قولك :

يـا عـاذلـى دَعـا المـلاَمَـةَ واقْصِـرا ... طـالَ الهـوَى وأَطَلْتُمـا التَّفْنِيـدا
إنّـى وَجَـدْتُـك لـو أرَدْتِ زِيـادةً ... فـى الحـبِّ منِّـى ما وجَـدْتِ مَـزِيـدا
أَخْلَبْتِنِـا وصَـدَدْتِ أمَّ محمـدٍ ... أَفتَجْمَعِيـن خِـلاَبَـةً وصُـدُودا(٤٠)
لايستطيـعُ أخـو الصَّبـابـةِ أن يُـرَى ... حَجَـرًا أصـمَّ وأن يكـون حَـدِيـدا

* * *

تَجُوعُ الحُرَّةُ ولا تَأْكُلُ بثَدْيَيْها :

أى لا تكون ظِئْرًا (٤١) وإنْ آذاها الجوع ، ويُروى « ولا تأكل ثدييها » وأوّلُ من قال ذلك الحارثُ بن سليل الأسَدِى ، وكان حليفًا لعَلْقَمَة بن خَصَفَة الطائىّ ، فزارَه ، فنظر إلى ابنته الزَّبَّاء - وكانت من أجمل أهل دهرها - فأُعْجِب بها ، فقال له : « أتيتُك خاطباً ، وقد ينكح الخاطب ، ويدرك الطالب ، ويمنح الراغب ، فقال له علقمة : أنت كُفْءٌ كريم ، يُقْبَل منك الصَّفْو ، ويُؤْخذ منك العَفْو(٤٢) ، فأَقِمْ ننظرْ فى أمرك ، ثم انكفأ إلى أمها ، فقال : إنّ الحارث ابن سليل سيّدُ قومه حَسَبًا ومَنْصِبًا وبيتًا وقد خطب إلينا الزبَّاء ، فلا ينصرفَنَّ إلّا بحاجته ، فقالت امرأتُه لابنتها : « أىُّ الرجال أحَبُّ إليك : الكَهْل الجَحجاح ، الواصِلُ المنَّاح ، أم الفتى الوَضَّاح(٤٣) ؟ قالت : لا ، بل الفتى الوضاح » ، قالت : « إن الفتى يُغيرك ، وإن الشيخ يَمِيرك(٤٤) ، وليس الكَهْل الفاضل ، الكثيرُ النائل ، كالحديث السنّ ، الكثير المَنّ ، قالت : « يا أمّتاه ، إنّ الفتاةَ تُحبّ الفتى كحبِّ الرِّعاء أنيقَ الكَلَأ » (٤٥) ، قالت : « أى بُنَيّة ، إن الفتى

---

(٤٠) التفنيد : إبطال الرأى وإضعافه - الخلابة : المخادعة .
(٤١) الظئر : المرضعة لغير ولدها .
(٤٢) الصفو : الخالص من المال - العفو : ما يزيد على النفقة .
(٤٣) الجحجاح : السّمح الكريم - منّاح : كثير العطايا - وضّاح : أبيض بسام حسن الوجه .
(٤٤) يُغيرك أى يتزوّج عليك - يميرك أى يأتيك بالميرة وهى الطعام .
(٤٥) الرّعاء : جمع الراعى وهو من يحفظ الماشية ويرعاها - الكلأ : العُشب .

شديد الحجاب ، كثير العِتاب » ، قالت : « إن الشيخ يُبْلى شبابى ، ويُدَنِّس ثيابى ، ويُشْمِت بى أَتْرابى » ، فلم تزل أُمُّها بها حتى غَلَبَتْها على رأيها .

فتزوّجها الحارث على مائة وخمسين من الإبل وخادم وألف درهم ، فابْتَنَى بها (٤٦) ثم رَحَل بها إلى قومه ، فبينما هو ذاتَ يوم جالسٌ بفناء قومه وهى إلى جانبه إذ أَقْبَل إليه شبابٌ من بنى أسد يعتلجون ، فتَنَفَّست صُعَداء (٤٧) ، ثم أَرْخَتْ عينيها بالبكاء ، فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : « ما لى وللشيوخ ، الناهضين كالفُرُوخ » . فقال لها : « ثَكِلَتْكِ أُمُّك ، تَجُوعُ الحُرَّة ولا تأكل بثدييها » .

قال أبو عبيد : فإن كان الأصل على هذا الحديث فهو على المثل السائر « لا تأكل ثدييها » ، وكان بعضُ العلماء يقول : هذا لا يجوز ، وإنّما هو « لا تأكل بثدييها » .

قلتُ : كلاهما فى المعنى سَوَاء ؛ لأن معنى « لا تأكل ثدييها » لا تأكل أُجْرة ثدييها ، ومعنى « بثدييها » أى لا تعيش بسبب ثَدْييها ، وبما يُغِلَّان عليها .

ثم قال الحارث لها : أما وأبيك ، لربَّ غارةٍ شهدتُها ، وسَبِيَّة أردفتها (٤٨) ، وخَمْرة شربتها ، فالْحَقى بأهلك فلا حاجة لى فيك ، وقال :

تَهَزَّأَتْ أَنْ رَأَتْنى لابِسًا كِبَرًا ... وغايةُ الناس بين المَوْتِ والكِبَرِ
فإنْ بقيتِ لَقِيتِ الشَّيْبَ راغمةً ... وفى التعرُّف ما يمضى من العِبَرَ
وإن يَكُنْ قد علا رأسى وغَيَّره ... صَرْفُ الزمانِ وتغييرٌ من الشعرَ
فقد أروحُ لِلَذَّاتِ الفتى جَذِلًا ... وقد أُصِيبُ بها عِينًا من البَقَر (٤٩)
عَنِّى إليك ، فإنى لا تُوَافِقُنى ... عُورُ الكلام ولا شُرْبٌ من الكَدَر (٥٠)

يُضرب فى صيانة الرجل نَفْسَه عن خسيس مكاسب الأموال .

* * *

---

(٤٦) ابتنى بزوجته : دخل بها .
(٤٧) يعتلجون : يتصارعون ويقتتلون – الصُّعَداء : المشقة ، وتنفّس الصعداء أى نفسًا ممدودًا أو مع توجّع .
(٤٨) السبيّة : المرأة الأسيرة – أردفتها أى أركبتها خلفى .
(٤٩) العين : بقر الوحش ، والعِين : جمع أعين وعيناء وهو ما اتّسعت عينه وحسنت .
(٥٠) عور : جمع عوراء وهى الكلمة القبيحة التى تهوى فى غير عقل ولا رشد .

رُبَّ سَاعٍ لِقاعِد :

ويروى معه : « وآكِلٍ غير حامد » .

يقال إن أوّل مَنْ قاله النابغةُ الذبياني ، وكان وَفَدَ إلى النعمان بن المنذر وفودٌ من العرب ، فيهم رجل من بني عَبْس يقال له شقيق ، فمات عنده ، فلما حبا النعمانُ الوفودَ بعث إلى أهل شقيق بمثل حِبَاء[٥١] الوَفْد ، فقال النابغة حين بَلَغه ذلك : ربَّ ساعٍ لقاعد ، وقال للنعمان :

أبْقَيْتَ لِلْعَبْسِيِّ فَضْلًا ونِعْمَةً ... وَمَحْمَدةً من باقِياتِ المحامد

حِباء شقيق فوقَ أعْظُمِ قَبْره ... وما كانَ يُحْبَى قبلَه قبرُ وافد

أتى أهلَه منه حِباءٌ ونِعْمَةٌ ... ورُبَّ امْرِىءٍ يَسْعَى لآخرَ قاعد

ويروى « اسْلمي أمَّ خالد ، رُبَّ ساعٍ لقاعد » ، وقالوا : إنّ أوّلَ مَنْ قال ذلك معاوية ابن أبي سفيان ، وذلك أنه لما أخَذَ من النّاس البيعةَ ليزيد ابنه ، قال له : يا بنيّ ، قد صيرّتُك وليَّ عهدي بعدي ، وأعطيتك ما تمنّيت ، فهل بَقِيَتْ لك حاجة أو في نفسك أمر تحبّ أن أفعله ؟

قال يزيد : يا أميرَ المؤمنين ، ما بَقِيَتْ لي حاجة ، ولا في نفسي غصّة ، ولا أمرٌ أحِبُّ أن أنالَه إلا أمر واحد .

قال : وما ذاك يا بني ؟

قال : كنت أحِبُّ أنْ أتزوَّجَ أمَّ خالد امْرَأةَ عبد الله بن عامر بن كريز ، فهي غايتي ومُنْيَتي من الدنيا .

فكتب معاوية إلى عبد الله بن عامر فاستقدمه ، فلما قدِم عليه أكرمه وأنزله أيامًا ، ثم خلا به فأخبره بحال يزيد ومكانه منه وإيثاره هَوَاه ، وسأله طلاقَ أمّ خالد على أن يطعمه

---

(٥١) حبا : أعطى ، والحِباء : العطاء .

فارس[٥٢] خمس سنين ، فأجابه إلى ذلك ، وكتب عهده ، وخلّى عبدُ الله سبيلَ أمّ خالد ، فكتب معاوية إلى الوليد بن عُتْبَة - وهو عامل المدينة - أن يعلم أمّ خالد أن عبد الله قد طَلَّقَها لتعتدَّ . فلما انقضَتْ عدتُها دعا معاويةُ أبا هريرة ، فدفع إليه ستين ألفًا ، وقال له : ارْحَلْ إلى المدينة حتى تأتِيَ أمَّ خالد فتخطبها على يزيد ، وتعلمها أنه وليُّ عهد المسلمين ، وأنه سَخِيٌ كريم ، وأن مهرها عشرون ألف دينار ، وكرامتها عشرون ألف دينار ، وهديتّها عشرون ألف دينار ، فقدم أبو هريرة المدينة ليلا ، فلما أصبح أتى قبرَ رسول الله ﷺ ، فلقيه الحسنُ بن عليّ ، فسلّم عليه ، وسأله : مَتَى قدمت ؟ قال : قدمتُ البارحةَ ، قال : وما أَقْدَمَك ؟ فقصَّ عليه القصّة ، فقال له الحسن : فاذْكُرْنى لها ، قال : نعم .

ثم مضى فلقيه الحسينُ بن عليّ وعبيدُ الله بن العباس - رضى الله تعالى عنهم - فسألاه عن مَقْدَمه ، فقصَّ عليهما القصّة ، فقالا له : اذكرنا لها ، قال : نعم .

ثم مضى ، فلقيه عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وعبدُ الله بن الزبير وعبد الله بن مُطيع ابن الأسود ، فسألوه عن مَقْدَمه ، فقصَّ عليهم القصّة ، فقالوا : أذكرنا لها ، قال : نعم .

ثم أقبل حتى دخل عليها ، فكلّمها بما أمره به معاوية ، ثم قال لها : إن الحَسَنَ والحَسَين ابنى على وعبدَ الله بن جعفر وعبيدَ الله بن العباس وابنَ الزبير وابنَ مطيع سألونى أن أذكرهم لك .

قالت : أما هَمِّى فالخروج إلى بيت الله والمجاورة له حتى أموت أو تُشير عَلَىَّ بغير ذلك .

قال أبو هريرة : أمّا أنا فلا أختار لك هذا .

قالت : فاختر لى .

قال : اختارى لنفسك .

---

(٥٢) يطعمه فارس أى يجعلها طعْمة له يديرها ويتولى خراجها وأمورها .

قالت : لا ، بل اخْتَرْ أنت لى .

قال لها : أمّا أنا فقد اخْتَرْتُ لك سيِّدَىْ شبابِ أهل الجنّة .

فقالت : قد رضيتُ بالحسن بن على .

فخرج إليه أبو هريرة ، فأخبرَ الحسنَ بذلك ، وزَوَّجَها منه ، وانصرف إلى معاوية بالمال ، وقد كان بلغ معاوية قصّته ، فلما دخل عليه قال له : إنما بَعَثْتُكَ خاطبا ولم أبعثك مُحتسبًا .(٥٣)

قال أبو هريرة : إِنَّها استشارتنى ، والمستشارُ مُؤْتَمن .

فقال معاوية عند ذلك : « اسْلَمِى أمَّ خالد ، رُبَّ ساعٍ لقاعد ، وآكِل غير حامد » . فذهبت مثلا .

* * *

صحيفة المتلمس أو « جاء بصحيفة المتلمس » :

قال المفضل : كان من حديثها أن عمرو بن المنذر بن امرىء القيس كان يُرَشِّح أخاه قابوس - وهما لهند بنت الحارث بن عمرو الكندى آكِل المُرَار(٥٤) - ليملك بعده ، فقدِمَ عليه المتلمّس وطَرَفَة ، فجعلهما فى صحابة قابوس وأمرهما بلزومه ، وكان قابوس شابًّا يُعْجبه اللهو ، وكان يركب يومًا فى الصيد فيركُضُ ويتصيَّد ، وهما معه يركضان حتى زجعا عَشِيّة ، وقد لَغَبا(٥٥) ، فيكون قابوس من الغد فى الشراب فيقفان بباب سُرَادقه إلى العَشىّ ، وكان قابوس يومًا على الشراب ، فوقفا ببابه النهارَ كلّه ، ولم يصلا إليه ، فضَجِر طرفة ، وقال :

(٥٣) المحتسب : مَن يتولّى الحِسبة ، وهو منصب كان يتولّاه فى الدولة الإسلامية رئيس يشرف على الشئون العامة من مراقبة الأسعار ورعاية الآداب .
(٥٤) المُرار : شجر مرّ .
(٥٥) لغب : تعب .

فَلَيْتَ لنا مكان المَلْكِ عَمْرٍو ... رَغُوثًا حَوْلَ قُبَّتِنا تَخُورُ

مِن الزَّمِرات أَسْبَلَ قادِماها ... ضَرَّتُها مُرَكَّنَةٌ دَرُور (٥٦)

يُشاركنا لنا رَخِلان فيها ... وتَعْلُوها الكِباشُ فما تَنُور

لَعَمْرُك إنَّ قابُوسَ بنَ هندٍ ... لَيَخْلِطُ مُلْكَهُ نَوْكٌ كبير (٥٧)

قَسَمْتَ الدَّهرَ فى زَمَنٍ رَخِيٍّ ... كَذاكَ الحُكْمُ يَقْصِدُ أو يَجُور

لَنا يَومٌ ولِلكِرْوانِ يَومٌ ... تَطِيرُ البائِساتُ ولا نَطِير

فأما يَومُهُنّ فيَومُ سُوءٍ ... يُطارِدُهُنّ بالحزبِ الصُّقُور (٥٨)

وأما يَومُنا فنَظَلُّ رَكْبًا ... وُقُوفا : لا نَحُلُّ ولا نَسِير

وكان طرفة عَدُوًّا لابن عمه عبد عمرو، وكان كريمًا على عمرو بن هند، وكان سَمِينًا بادنًا، فدخل مع عمرو الحمَّام، فلما تجرَّدَ، قال عمرو بن هند : لقد كان بن عمك طرفة رآك حين قال ما قال، وكان طرفة هَجَا عبد عمرو، فقال :

ولا خيرَ فيه غَيرَ أنَّ له غِنًى ... وأنَّ له كَشْحًا إذا قام أَهْضَما (٥٩)

تَظَلُّ نساءُ الحيِّ يَعْكُفْنَ حوله ... يقلن عَسِيبٌ من سَرارةِ مَلْهما (٦٠)

له شَرْبتان بالعَشِيِّ، وشَرْبَةٌ ... من الليل، حتى آضَ جَبْسًا مُوَرَّما (٦١)

كأن السلاح فوق شُعْبَةِ بانَةٍ ... تَرَى نَفَخًا وَرْدَ الأَسِرَّةِ أَصْحَما

ويَشْرَبُ حتى يغمر المحضُ قَلْبَه ... فإن أُعْطِهِ أَتْرُكْ لقلبِيَ مَجْثَما

---

(٥٦) الرغوث : النعجة المرضعة - تخور: تصيح - الزمرات : قليلة الشعر أو الصوف - القادمان : الخِلْفان المتقدمان من الأطباء والضروع - الضرّة : الضّرع - مركّنه : عظيمة منتفخة - درور: كثيرة الدَّر أى اللبن .

(٥٧) الرخل : الأنثى من أولاد الضأن - الكباش : جمع الكبش وهو فحل الضأن ماتنور: ما تنفِر - نوك: حمق .

(٥٨) الكِرْوان : جمع الكَرَوان وهو طائر ذو صوت حسن .

(٥٩) الكشح: ما بين الخاصرة والضلوع - الأهضم : الذى خمُص بطنه ولطف كشحه وقلّ اتساع ما بين جنبيه .

(٦٠) السرّارة : أكرم موضع فى الوادى - ملهم : موضع كثير النخل .

(٦١) آض : عاد ورجع - المورّم : الضخم من الرجال .

فلما قال له ذلك ، قال عبد عمرو : إنه قال ما قال ، وأنشده :

فليت لنا مكان الملك عمرو ...

فقال عمرو : « ما أُصَدِّقُكَ عليه » ، وقد صَدَّقه ، ولكن خاف أن يُنْذِره وتدركه الرحِمُ ، فمكث غير كثير ، ثم دَعا المتلمسَ وطرفَةَ ، فقال : « لعلكما قد اشْتَقْتما إلى أهلكما ، وسَرَّكما أن تنصرفا » ، قالا : « نعم » .

فكتب لهما إلى أبى كَرِب عامِلِه على هَجَر أن يقتلهما ، وأخبرهما أنه قد كَتَبَ لهما بحِباء ومعروف ، وأعطى كلّ واحد منهما شيئًا فخرجا ، وكان المتلمس قد أَسَنَّ ، فمرّ بنهَر الحِيرة على غِلمان يلعبون ، فقال المتلمس : « هل لك فى كِتَابَيْنا ، فإنْ كان فيهما خير مَضَيْنا له ، وإن كان شرًّا اتَّقَيْناه » .

فأبى طَرَفَةُ عليه ، فأعطى المتلمسُ كتابَه بعضَ الغلمان ، فقرأه عليه ، فإذا فيه السَّوأة ، فألقى كتابه فى الماء ، وقال لطرفة : أطِعْنى وألْقِ كتابَك » ، فأبى طرفة ، ومضى بكتابه .

قال : ومضى المتلمّس حتى لحق بملوك بنى جَفْنة بالشام ، وقال المتلمس فى ذلك :

مَن مُبْلِغ الشُّعَراءِ عن أَخَوَيْهِمُ ... نَبَأ فتصْدُقَهُم بذاك الأَنْفُسُ

أَوْدَى الذى عَلِقَ الصحيفةَ منهما ... ونَجا حِذَارَ حِبَائِه المتلمِّسُ (٦٢)

أَلْقَى صَحِيفَتَه ونَجَّت كُورَهُ ... وَجْناء محمرّة المنَاسِم عِرْمِس (٦٣)

عَيْرَانة طَبَخَ الهَواجرُ لَحْمَها ... فكأنَّ نَقْبَها أَدِيمٌ أَمْلَس (٦٤)

ألْقِ الصحيفَة لا أبا لَكَ إنَّه ... يُخْشَى عليكَ مِن الحِباء النَّقْرِس (٦٥)

---

(٦٢) أودى : هلك – علِق الصحيفة : استمسك بها .

(٦٣) الكور : رَحْل الناقة وهو كالسَّرْج للفَرس – الوجناء : الناقة الصلبة الشديدة – المناسم : جمع المنسم وهو طرف خفّ البعير – العرمس : الناقة القوية كالصخرة .

(٦٤) العيرانة : الناقة النشيطة الناجية – الهواجر : جمع الهاجرة وهى نصف النهار عند اشتداد الحرّ ، ويقال : طبخته الهواجر – النَّقبة : رقّة الأخفاف – الأديم : الجلد أو الأحمر منه .

(٦٥) النِّقْرِس : الهلاك والداهية العظيمة .

ومضى طرفة بكتابه إلى العامل ، فقتله .

وروى عبيد راوية الأعشى ، قال : حدّثنى الأعشى ، قال : حدّثنى المتلمس واسمه عبد المسيح بن جرير - قال : قدمت أنا وطرَفة بن العبد على عمرو بن هند ، وكان طرفةُ غلامًا مُعْجَبًا تائهًا ، فجعل يَتَخَلَّج (٦٦) فى مشيه بين يَدَيْه ، فنظر إليه نظرة كادت تقتلعه من مجلسه ، وكان عمرو لا يبتسم ولا يضحك ، وكانت العرب تسمّيه مُضَرِّط الحجارة ، لشدة ملكه ، وملك ثلاثًا وخمسين سنة ، وكانت العرب تهابه هَيْبَة شديدة ، وهو الذى يقول له الذهاب العِجْلِيّ واسمه مالك بن جندل بن سلمة ، من بنى عجل ، ولقب بالذَّهَاب لقوله :

وما سَيْرُهُنّ إذْ عَلَوْنَ قُرَاقِرًا ... بِذِى أَمَمٍ ، ولا الذَّهَاب ذَهَاب (٦٧)

أبى القلبُ أن يأتى السَّدِيرَ وأهلَه ... وإن قيل عَيْشٌ بالسَّدِيرِ غَرِيرُ

به البَقُّ والحُمَّى وأُسْدُ خَفِيَّةٍ ... وعَمْرو بن هند يَعْتَدِى ويَجُورُ (٦٨)

قال المتلمس : « فقلت لطرفة حين قُمْنا : ياطرفةُ إنى أخاف عليك من نظرته إليك مع ما قلت لأخيه » ، قال : « كلا » قال : فكتب له كتاباً إلى المُكَعْبَر - وكان عامله على البحرين وعمان - لى كتاب ولطرفة كتاب ، فخرجنا حتى إذا هبطنا بذى الركاب من النجف إذا أنا بشيخ عن يسارى يَتَبَرز ، ومعه كِسْرَة يأكلها ويَقْصَع القمل ، فقلت : تالله إنْ رأيت شيخا أَحْمَقَ وأَضْعَفَ وَأَقَلَّ عَقْلًا منك ، قال : ما تُنْكر ؟

قلت : تتبرّز وتأكل وتَقْصَع القمل ؟!

قال : أُخْرِجُ خبيثًا ، وأُدخِلُ طيبًا ، وأَقْتُلُ عَدُوًّا ، وأَحْمَقُ منّى وألأَمُ حاملُ حَتْفِه بيمينه لا يدرى ما فيه .

---

(٦٦) يتخلّج : يتمايل ويتخلّع .

(٦٧) قراقر : موضع - الأمم ، من معانيه : القَصْد والقُرْب .

(٦٨) السدير ، من معانيه : مجتمع النخل وسواده أو منبع الماء - غرير : ناعم لا يُفْزِع أهله - الخفيّة : غيْضة ملتفّة يتخذها الأسد عرينه .

فنبّهني ، وكأنمـا كنتُ نائمًا ، فـإذا أنا بغلام من أهـل الحِيرة يَسْقى غنيمة لـه من نـهر الحيرة ، فقلت : « يا غـلام ، أتـقـرأ ؟ » ، قـال : « نـعم » ، قلت : « اقـرأ » ، فـإذا فيه : « باسمك اللّهم، من عمرو بن هند إلى المكَعْبَر ، إذا أتاك كتابى هذا مع المتلمس ، فاقطعْ يديه ورجليه وادفنه حيًّا » ، فألقيت الصحيفة فى النهر ، وذلك حين أقول :

أَلْقَيْتُهـا بـالثّنْيِ مِـنْ جَنْـبِ كـافِـرٍ كـذلـك أَقْنُـو كُـلَّ قِـطٍّ مُضَلِّـلِ (٦٩)
رَضِيـتُ لهـا لمـا رَأَيْـتُ مَـدَارَهـا يَجُـولُ بـه التَّيّـارُ فـى كـلِّ جَـدْوَل

وقلت : يا طرفةُ معك والله مثلها ؟

قال : كلّا ! ما كان ليكتب بمثل ذلك فى عقر دار قومى .

فأتى المكعبر ، فقطع يديه ورجليه ، ودفنه حيًّا .

يضرب لمن يسْعى بنفسه فى حَيْنها ، ويغرّرها .

* * *

فى بَيْتِه يُؤْتَى الحَكَمُ :

هذا مما زعمت العربُ عن أَلْسُن البهائم ، قـالوا : إن الأرنب التقطتْ ثمـرةً ، فاختلسها الثعلب فأكلها ، فانطلقا يختصمان إلى الضّبّ ، فقالت الأرنب : يا أبا الحِسْل .

فقال : سميعًا دَعَوْتِ .

قالت : أتيناك لنختصم إليك .

قال : عادلًا حَكَّمْتُما .

قالت : فاخرجْ إلينا .

(٦٩) الثّنى : المنعطف من الوادى والجبل - الكافر : النهر العظيم - أقنو : أجزى وأكافىء - القِطّ : الصحيفة المكتوبة .

قال : فى بيته يُؤتَى الحَكم

قالت : إنى وجدت ثمرة .

قال : حُلْوة فكليها .

قالت : فاخْتَلَسها الثعلب .

قال : لنفسه بَغَى الخير.

قالت : فلَطَمْتُه .

قال : بحقِّك أَخَذْتِ .

قالت : فَلطَمَنى .

قال : حُرٌّ انتصر.

قالت : فاقْضِ بيننا .

قال : قد قَضَيْتُ .

فذهبت أقواله كلّها مثلا .

قلت : ومما يشبه هذا ما حكى أن خالد بن الوليد لما تَوَجَّه من الحجاز إلى أطراف العراق دخل عليه عبدُ المسيح بن عمرو بن نُفَيْلة ، فقال له خالد : أين أَقْصَى أثرك ؟

قال : ظَهْرُ أبى
قال : مِن أين خرجت ؟

قال : من بطن أمى
قال : عَلَام أنت ؟

قال : على الأرض
قال : فيم أنت ؟

قال : فى ثيابى
قال : فمن أين أَقْبَلْتَ ؟

قال : من خَلْفِى
قال : أين تريد ؟

قال : أمامى　　　قال : ابنُ كمْ أنت ؟

قال : ابن رَجُلٍ واحد　　　قال : أتعْقل ؟

قال : نعم وأقيِّد　　　قال : أحَرْبٌ أنت أم سَلْم ؟

قال : سَلْم　　　قال : فما بال هذه الحصون ؟

قال : بنيناها لسَفِيه ، حتى يجيءَ حليم فينهاه .

ومثل هذا أن عَـدِيَّ بن أرْطَاة أتى إياسَ بن مُعَـاوية قاضيَ البصرة فـى مجلس حكمه ، وعَدِيٌّ أمير البصرة ، وكان أعرابيَّ الطبع ، فقال لإياس : يا هَنَاه [٧٠] أين أنت ؟

قال : بينك وبين الحائط　　　قال : فاسمعْ منى .

قال : للاستماع جَلَسْتُ　　　قال : إنى تزوَّجْتُ امرأة .

قال : بالرِّفاء والبنين [٧١]　　　قال : وشَرَطْت لأهلها أن أخرجها من بينهم .

قال : أوْفِ لهم بالشرط　　　قال : فأنا أريد الخروج .

قال : فى حِفْظ الله　　　قال : فاقْضِ بيننا .

قال : قد فَعَلْت　　　قال : فعلى مَن حكمت ؟

قال : على ابن أخى عمّك　　　قال : بشهادة مَنْ ؟

قال : بشهادة ابن أخت خالتك .

＊＊＊

---

(٧٠) الهناة : كناية عن الرجل ، يقال : ياهناة أقبل وياهناه ، لا يستعمل إلا فى النداء .

(٧١) يقال للمتزوج بالرفاء والبنين أى بالوفاق والوئام والخلف .

صُغْرَاهُنَّ شُرَّاهُنَّ :

ويروى « صُغْراها شُرَّاها » ، ويروى « مُرَّاها » .

وأول من قال ذلك امرأة كانت فى زمن لقمـان بن عاد ، وكان لها زوج يقال له الشَّجِيُّ ، وخليل يقال له الخَلِيّ .

فنزل لقمان بهم ، فرأى هذه المرأة ذات يوم انْتَبَذت[٧٢] من بيوت الحيّ ، فارتاب لقمان بأمرها ، فتبعها ، فرأى رَجلًا عَرَضَ لها ، ومَضَيـا جميعًا ، وقَضَيا حاجتهما ، ثم إن المرأة قالت للرجل : إنـى أتَمَاوت ، فإذا أسندونـى فى رَجَمِى[٧٣] فأتِنى ليـلًا فأخرجنى ، ثـم اذهب إلى مكـان لا يعرفنـا أهله ، فلمـا سمـع لقمـان ذلـك ، قـال : « ويـل للشَّـجِى من الخـلىّ » ، فأرسلها مثلا .

ثم رجعت المرأة إلى مكانها ، وفعلت ما قالت ، فأخرجها الرجلُ ، وانطلق بها أيامًا إلى مكان آخـر ، ثم تحولـت إلى الحـىّ بعد بُرْهـة ، فبينا هى ذاتَ يـوم قاعـدةٌ مرّت بها بنـاتُها ، فنظرت إليها الكبرى ، فقالت : أمىّ والله .

قالت الوُسْطى : صدقتِ والله .

قالت المرأة : كذبتما ما أنا لكما بأمّ ، ولا لأبيكما بامرأة .

فقالت لهما الصغرى : أما تعرفان مُحَيَّاها .

وتعلّقت بها وصرختْ ، فقالت الأمّ حين رأت ذلك : «صُغراهن شُرّاهن» فذهبت مثلا ، ثم إن الناس اجتمعوا ،فعرفوها ، فرفعوا القصة إلى لقمان ابن عاد ، وقالوا له : « اقْضِ بيننا » .

فلما نظر لقمـان إلى المرأة عرفها ، فقـال : « عند جُهَيْنَةَ الخـبرُ اليقـين ، يعـنـى نفسـه وما عاين منها ، فـأخبر لقمانُ الزوجَ بما عرف ، وأقبل على المـرأة ، فقصّ عليها قصّتها كيف

---

(٧٢) انتبذت : اعتزلت ناحية ، بعيدًا عن القوم .
(٧٣) الرَّجَم : الحجارة التى توضع على القبر .

صنعت ، وكيف قالت لصديقها ،فلما أتاها بمـا لا تنكر ، قالت: « ما كان هذا فى حسابى » ، فأرسلتها مثلا .

فقيل للقمان : احكم فيها .

فقال : « ارجُمُوها كما رجمت نفسها فى حياتها » .

فرجمت ، فقال الشجّى : احكم بينى وبين الخلىّ ، فقد فرق بينى وبين أهلى .

فقال : يفرق بين ذكره وأنثيه ، كما فرق بينك وبين أنثاك .

فأُخِذَ الخلىّ ، فجُبَّ ذكره .

* * *

رُبَّ رَمْيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ :

أى رُبَّ رَمْية مصيبة حَصَلت من رامٍ مُخْطىء لاأن تـكون رَميـة من غـير رام ، فـإن هـذا لايكون قطّ .

وأوّل من قال ذلك الحَكَـمُ بن عبد يَغُوث المنقرى ، وكان أرْمَى أَهْلِ زمـانه ، وآلى يمينا ليذبَحَنَّ علـى الغَبْغَب مَهَاة (ويروى : ليَـدِجَنَّ)(٧٤) فحمل قوسَه وكِنانتـه ، فلم يصنع يومه ذلك شيئا ، فـرجع كئيبًا حزينًا ، وبـات ليلته على ذلك ، ثـم خرج إلى قومه ، فقـال : ما أنتم صانعون ، فإنى قاتلُ نفِسى أَسَفًا إن لـم أذبحها اليوم ؟ (ويروى : أدِجْها) .

فقـال لـه الحُصَيْـن بـن عبد يَغُـوث أخـوه : يا أخـى دِجْ مـكانها عَشْـرًا مِـن الإبـلِ ، ولاتقتل نفسك .

قال : « لا واللاتِ والعُزَّى ، لا أظلم عاتَرة ، وأترك النافرة » . (٧٥)

---

(٧٤) الغبغب : المـذبح ، أو النُّصُب الذى كان يُذبح عليه فى الجاهلية – المهاة : بقرة الوحش – أدجها : أذبحها ، يقال : وَدَج الذبيحة أى قطع وَدَجها .

(٧٥) العاترة : هى الذبيحة التى كانت تُذبح للأصنام فى الجاهلية ويصبّ دمها على رأسها – النافرة : الشاردة .

فقال ابنه المُطْعِم بن الحكم : يا أبة (٧٦) احملنى معك أَرْفِدْك .

فقال له أبوه : وما أحمل من رعش وهِلٍ ، جَبَان فشل .

فضحك الغلام وقال : إن لم تَرَ أَوْداجَها تخالط أَمْشاجَها فاجعلنى وداجها .

فانطلقا ، فإذا هما بمَهَاة ، فرماها الحكمُ فأخطأها ، ثم مرَّت به أخرى فرماها فأخطأها ، فقال : يا أبة أَعْطِنِى القوسَ .

فأعطاه فرماها ، فلم يخطئها ، فقال أبوه : رُبَّ رَمْيةٍ من غير رامٍ .

* * *

رَجَعَ بخُفَّىْ حُنَيْن :

قال أبو عبيد : أصله أن حُنَيْنًا كان إسكافاً من أهل الحِيرة ، فساوَمَه أعرابىّ بخُفَّيْن ، فاختلفا حتى أَغْضَبه ، فأراد غَيْظَ الأعرابىّ ، فلما ارتحلَ الأعرابى أخذ حنينٌ أحدَ خفَّيْه ، وطَرَحه فى الطريق ، ثم ألقى الآخرَ فى موضع آخر ، فلما مرّ الأعرابى بأحدهما قال : « ما أشبه هذا الخفَّ بخفِّ حنين ، ولو كان معه الآخر لأخذته » .

ومضى ، فلما انتهى إلى الآخر نَدِم على تركه الأولَ ، وقد كَمَنَ له حنينٌ ، فلما مضى الأعرابى فى طلب الأول عمد حنينٌ إلى راحلته وما عليها فذهب بها ، وأقبل الأعرابى وليس معه إلا الخُفَّان ، فقال له قومه : ماذا جئت به من سفرك ؟ فقال : « جئتكم بِخُفَّى حُنَين » . فذهبتْ مثلا . يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة .

وقال ابن السِّكِّيت : حنين كان رجلًا شديدًا ادَّعَى إلى أسد بن هاشم بن عبد مناف ، فأتى عبد المطلب ، وعليه خُفَّان أحمرانِ ، فقال : « يا عمّ ، أنا ابنُ أسد بن هاشم » ، فقال عبد المطلب : « لا وثيابِ ابن هاشم ، ما أعرف شمائل هاشم فيك ، فارجع » ، فرجع فقالوا : « رجع حنين بخفّيه » ، فصار مثلًا .

* * *

(٧٦) قولهم « يا أبةِ ، افعلْ » يجعلون علامة التأنيث عِوضًا من ياء الإضافة .

تَقَيَّلَ الرَّجُلُ أباه :

إذا أشبهه ، قال ابن فارس : اللامُ مُبدلة من الضاد ، يعنى من قولهم « تَقَيَّض » من القَيْض ، وهو العِوَض ، ويكون مصدرًا أيضاً ، يقال : قاضَه يَقِيضُه قَيْضًا ، كما يقال : عاضَه يَعُوضُه عَوْضًا ، ومنه المقَايَضة بمعنى المبادلة ، يقال : هما قَيْضان ، أى مِثْلان ، يعنى أن كلَّ واحد منهما عوض من الآخر .

يضرب فى الشيئين تقاربا فى الشبه .

* * *

اسْتَرَاحَ مَنْ لاعَقْلَ له :

يقال : إن أوّل مَنْ قال ذلك عمرو بن العاص لابنه ، قال : يا بنى ، والٍ عادلٌ خير من مطرٍ وابل ، وأسَدٌ حَطوم (٧٧) خيرٌ من والٍ ظَلُوم ، ووالٍ ظلوم خيرٌ من فِتنة تدوم ، يا بُنَىّ ، عَثْرَةُ الرِّجْل عَظْم يُجْبَر ، وعَثْرة اللسان لا تُبْقى ولا تَذَر ، وقد استراح مَنْ لا عَقْلَ له ، قال الرَّاعى :

أَلِفَ الهُمُومَ وِسَادَهُ ، وتَجَنَّبَتْ كَسْلَانَ يُصْبِحُ فى المَنَامِ ثَقِيلَا

وقال بعض المتأخرين : مستراح منْ لا عقل له .

* * *

الصَّمْتُ حُكْمٌ ، وقليلٌ فاعلُه :

الحُكْم : الحِكْمة ، ومنه قوله تعالى : « وآتيناه الحُكْمَ صَبِيًّا » (٧٨) ، ومعنى المثل : استعمال الصمت حكمه ، ولكن قَلَّ من يستعملها .

يقال: إن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يصنع دِرْعا ، فهَمَّ لقمان أن يسأله عما يصنع ، ثم أمسك ولم يسأل حتى تمّم داود الدرعَ ، وقام فلبسها ، وقال: « نِعْمَ أداةُ الحربِ » ، فقال لقمان : « الصَّمْتُ حُكْمٌ وقليل فاعله » .

* * *

(٧٧) وابل : شديد ضخم القَطْر – حطوم : يحطم كلّ شيء ويدقّه بالافتراس .
(٧٨) سورة مريم ١٢

الصَّمْتُ يُكْسِبُ أَهْلَه المَحَبَّة :

أى محبّة الناس إيّاه ، لسلامتهم منه . يضرب فى مدح قلّة الكلام .

* * *

قَطَعَتْ جَهِيزَةُ قَوْلَ كُلِّ خَطِيب :

أصله أن قومًا اجتمعوا يَخْطُبون فى صُلْح بين حَيَّيْن قتل أحدُهما من الآخر قتيلًا ، ويسألون أن يرضوا بالدِّية ، فبينا هم فى ذلك إذ جاءت أَمَة يقال لها « جهيزة » ، فقالت : إنّ القاتل قد ظَفِر به بعضُ أولياءِ المقتول فقتله ، فقالوا عند ذلك : « قَطَعَتْ جهيزةُ قولَ كلِّ خَطيب » ، أى قد استغنى عن الخُطَب .

يُضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بَحَمَاقة يأتى بها .

* * *

رَأَى الكَوْكَبَ ظُهْرًا :

أى أظلَم عليه يَوْمُه حتى أبصر النجم نهارًا ، كما قال طرفة :

إنْ تُنَوِّلْه فقد تَمْنَعُه ... وتُرِيه النَّجْمَ يَجْرِى بالظُّهُرْ

يضرب عند اشتداد الأمر .

* * *

التَّثَبُّتُ نِصْفُ العَفو :

دعا قُتَيبة بن مُسْلم برجلٍ ليعاقبه ، فقال : « أيها الأمير ، التثبُّتُ نصفُ العفو » فعفا عنه ، وذهبت كلمته مثلا .

رآه الصَّادِرُ والوَارِد :

يضرب لكلّ أمرٍ مشهورٍ يعرفه كل أحد .

رُبَّ سَامِعٍ بَخَبِرى لَمْ يَسْمَعْ عُذْرِى يقول : لا أستطيع أن أُعْلِنه ، لأنَّ فى الإعلان أمْرًا أكرهه ، ولست أقدر أن أوسع الناس عُذْرًا . والباء فى « بخَبَرى » زائدة .

* * *

رَكِبَ جَنَاحَىْ نَعَامَة :

يضرب لمن جَدَّ فى أمْرٍ، إمّا انْهزامٍ، وإما غير ذلك .

* * *

رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لا تُدْرَك :

هذا المثل يروى فى كلام أكثم بن صيفى .

* * *

الرَّبَاح مَعَ السَّاح :

الرَّبَاح : الرِّبْح، يعنى أن الجود يُورِث الحَمْد، ويُرْبِح المدح .

* * *

الصِّدْقُ يُنْبِىءُ عَنْك لا الوَعِيد :

يقول : إنما ينبىء عدوك عنك أن تصدُقه فى المحاربة وغيرها، لا أن توعده ولا تنفذ لما توعد به .

* * *

أَصْلَح غَيْثٌ ما أَفْسَد البَرْد :

يعنى إذا أفسد البرد الكَلأ بتحطيمه إياه أصلحه المطر بإعادته له .

* * *

صَاحَتْ عَصَافِيرُ بَطْنِه :

قال الأصمعى « العصافير : الأمعاء »، يضرب للجائع .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
رقم الإيداع ١١٧٣٦ / ٢٠٠١

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٦٢٩ س ٢٠٠١ - ١٢٦٢

الجزء السادس من سلسلة « الروائع » من الأدب العربى وهو يشتمل على مختارات منتقاة لأبرز شعراء القرن الخامس الهجرى وكتابه وينقسم إلى قسمين كبيرين : أولهما للنصوص الشعرية و الآخر للنصوص النثرية .

وقد رُتّبت النصوص ترتيبا يراعى – إلى حد كبير – تتابعها الزمنى طبقا للسنوات التى توفى فيها قائلوها ، وكانت كثرة ما تم اختياره من الأشعار والنثريات أو قلتها وفقا للمدى الذى وصلت إليه شهرتها وأهمية مبدعيها .

وتضمن هذا الجزء نصوصا لمؤلفين من مختلف الدول أو الإمارات العربية الإسلامية فمن أهل الشام : أبو العلاء المعرى وابن حيّوس وابن الخياط وابن سنان ، ومن أهل فارس : الطغرائى ومنصور الهروى وعبد القاهر الجرجانى والراغب الأصبهانى وأبو حامد الغزالى وأبو الفضل الميدانى ، ومن العراق: ابن الهبّارية والمرتضى الشهر زورى وهلال بن المحّسن الصابى والخطيب البغدادى والحريرى ، ومن مصر : المؤيد الشيرازى وابن أبى الشخباء ، ومن تونس : الحصرى القيرانى وابن رشيق ، ومن الأندلس: ابن زيدون وعبادة بن ماء السماء وابن عمار وابن عباد والقزاز وابن اللبانة والأعمى التطيلى . . وغيرهم من أعلام هذا العصر من الشعراء والكتاب الذين عاشوا فى مختلف أرجاء البلدان العربية الإسلامية.